مكتبة الدراسات الأدبية

٥٨

دكتور النعمان القاضى

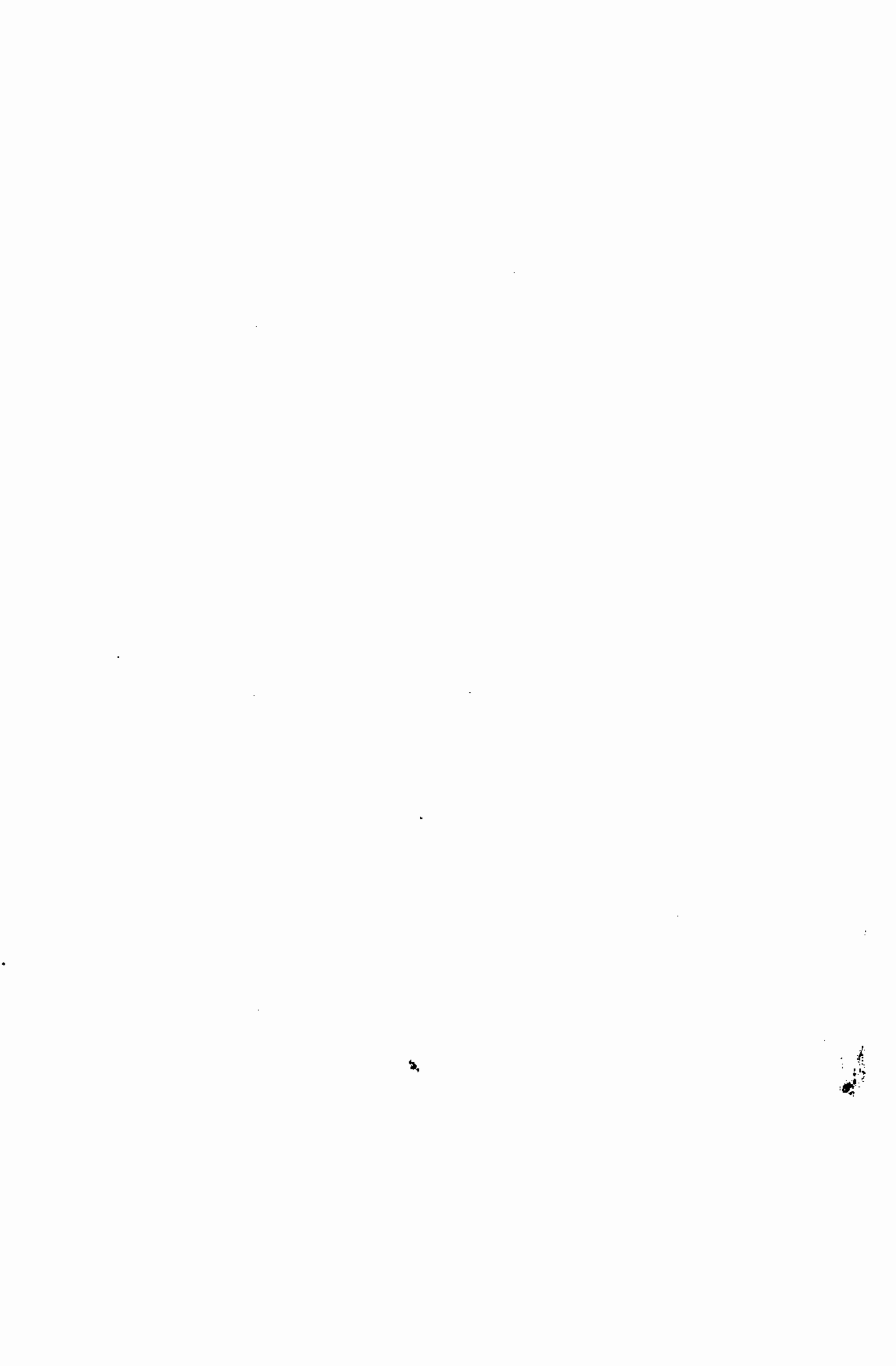
الفرق الإسلاميّة في الشعر الأموى



دار المعارف بمصر

الفِرَق الإسْلاميّة

في الشعْر الأموي



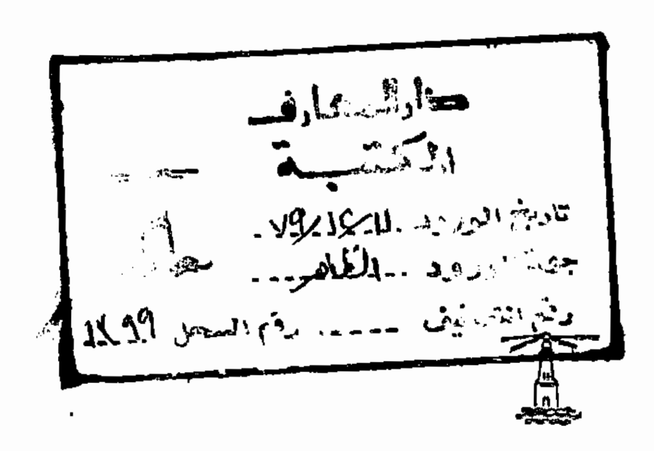
مكتبة الدراسات الأدبيّة

٥٨

الفرق الإسلاميّة
في الشعر الأموي

تأليف

دكتور النعمان القاضي



دار المعارف بمصر

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

فهرست الموضوعات

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

تهدف هذه الدراسة إلى إخضاع « شعر الفرق الإسلامية في العصر الأموي » في إطار من ملابساته التاريخية والسياسية والفكرية والدينية ، وفي إطار من حياة قائليه وعقائدهم واتجاهاتهم– للدرس العلمي المنظم لاستخلاص مقوماته وخصائصه وطوابعه ليتسنى لنا أن نضعه موضعه من تاريخ أدبنا العربي.

وما من شك في أن صراع الفرق مع الدولة ، وصراعها فيما بينها ، الذي ساد عصر بني أمية ، كان يشكل ظاهرة من أخطر الظواهر الفكرية والاجتماعية. والفرق من وجهة النظر هذه حرية بأن تدرس من جميع جوانبها ، وبخاصة جانبها الأدبي وما أنتجته من التعبير الشعري بوجه أخص .

وإذا صح ما يتحدث به مؤرخو الأدب العربي من أن عصر بني أمية كان العصر السياسي من عصور الأدب العربي ، فإن شعر الفرق الإسلامية يكون بهذا الفهم أهم ظاهرة أدبية في العصر الأموي ، وقد أتيح لي منذ سنوات قليلة دراسة ظاهرة أدبية لا تقل عنها خطراً ، وهي دراسة ذلك الشعر الذي تخلف عن الفتوح الإسلامية في عصر صدر الإسلام الزاهر . وقد رأيت آنذاك – عن كثب – كيف زخرت تلك السنوات القليلة في فجر الإسلام بأسمى المشاعر وأنبلها ، وكيف ظهر فيها بجلاء أثر الانقلاب الذي أحدثه الإسلام عن طريق الارتقاء بالنوازع الوجدانية الضيقة الحدود سواء أكانت قبلية أم فردية إلى وجدان متوحد انطلق بالعرب من ضلال وضعف وتخبط في عمايات الفتن والتناحر إلى إيمان وقوة وشعور متوثب لا يقنع بالانطواء على ما تأجج في صدورهم من دفء العقيدة ونور الإيمان ، فاندفعوا يسيحون في أرجاء الأرض يهدون أممها الضالة إلى طريق الحق واليقين .

وقد تتبعت تلك الانطلاقة الرائعة فى التاريخ والشعر على السواء فبهرتنى كل البهر ، ولكن بهرى ما لبث أن تحول عجباً إذ سرعان ما تلاشى هذا الألق وانداح بريقه فى غمار التناحر والشحناء والفتن والتطامع ، الأمر الذى فتت وحدة الفكر والوجدان عند المسلمين ، ووقف بهذا المد الأسطورى العظيم عند نهاية الحلقة الثالثة من القرن الهجرى الأول وهو فى ذروة انتصاره ولما يمض على ظهور الدعوة الإسلامية نصف قرن أو يقل قليلا ، وقد إستوقفنى تراجع هذا المد طويلا فى محاولة للكشف عن أسبابه الفاعلة وعلله الخفية والظاهرة ، ولكن ذلك لم يكن ليعنينى بالضرورة ، وقد كان شغلى ينحصر فى تلك الفتوح وما أثمرت من الشعر لا فى ما كان فى أعقابها وبأثر منها من انحراف عن الأسس القويمة التى أرسيت عليها دعائم المجتمع الإسلامى فى عهده الزاهر .

ولهذا كنت أرى وأنا بصدد هذه الدراسة ، أنها امتداد طبيعى ومنطقى لدراسة ظاهرة الفتوح ، إذ بينما كان شعر الفتوح مرآة اتضحت خلالها جوانب الحياة الإسلامية جميعها ، فى صدر الإسلام ، فإن شعر الفرق الإسلامية فى العصر الأموى لن يكون بالضرورة إلا مرآة نستطيع أن نجتلى خلالها مناحى الحياة الإسلامية كلها فى ملك بنى أمية الذى لم ينجم على حين غرة حينما ولى معاوية أمر الأمة الإسلامية عام الجماعة ، متقنعاً وراء شارات الخلافة . وإنما أخذت دعائم هذا الملك فى النهوض خلال السنوات الأخيرة من عهد عثمان بن عفان ، عندما انشعبت الجادة التى مهدها الرسول صلى الله عليه وسلم وعبدها من بعده الشيخان إلى طريقين متمايزين ، يعد أولهما امتداداً لطريق الخلافة الراشدة التى تقوم على العدل والمساواة والإخاء والرفق ، وتحتكم إلى تعاليم الإسلام وقيمه ومثله ، وهى الطريق التى سار فيها على بن أبى طالب آخر الخلفاء الراشدين على وعورتها ، بينما انحرف ثانيهما عن الجادة سبيلا جديدة هى سبيل الملك القائم على العصبية والبطش والجبروت ، والذى يحتكم إلى تلك القيم القديمة التى أبطلها الإسلام ، وجهد فى القضاء عليها خلال تلك الفترة

المشرقة فى صدر الدعوة الإسلامية .

ومن ثم فقد اتجهت بادئ ذى بدء أتحقق من صواب تصورى لما ظننته العلة الحقيقية للتراجع والانحراف اللذين منى بهما المد الإسلامى العظيم فتحول يجرى فى مجرى جديد غير مجراه الأول ، وسرعان ما انبجست على جوانب المجرى روافد متشعبة ومتدابرة ، عجزت بدورها عن أن تصب فى مجراه العميق الذى كاد يجف . ولتصورى أن هذه الفرق بدورها لم تنجم فى عصر بنى أمية على حين غرة ، وإزاء اعتداد كل منها فى صراعها مع الدولة بالاحتكام إلى الإسلام وقيمه وتقاليد الخلافة الراشدة ، كان ضروريًّا — والأمر هكذا — أن أعود إلى تلك الفترة التى تقدمت من تاريخ الإسلام لألقى نظرة على المجتمع الإسلامى ولأرقب حركته من ظلال الخلافة الراشدة إلى هجير الملك ورمضائه ولأتأكد من صحة هذا التصور الذى ظننته العلة الحقيقية فى وجود تلك الظاهرة التى سأدرس ما أنتجته من فن .

وقد نظرت بعد ذلك فإذا علىّ أن أدرس ثلاثة جوانب : الفرق الإسلامية ذاتها من حيث كونها وعاء نضج فيه هذا الشعر ، كما تتمثل فى التاريخ والأخبار والعقائد والأشعار لأستخلص منها الجوانب المختلفة لهذه الفرق فى نشأتها وتطورها ومذاهبها وأصول فكرها وآرائها ، والجانب الثانى شعر تلك الفرق من حيث هو نتاجها الفنى المعبر عن مبادئها ومقالاتها وأفكارها وعقائدها ، ولأستخلص منه هذه المبادئ والمقالات والأفكار والعقائد ، ولأسجل فى ضوء ذلك الخصائص والطوابع الفنية التى تميز شعرها وتسمه بميسمها . أما الجانب الثالث فهو شعراء تلك الفرق على اختلافها ، وعلى اختلافهم ، إذ رأيت ضرورة أن أقدم دراسة لنماذج مختلفة من شعراء الفرق المختلفة ، أطبق عليها ما وصلت إليه أثناء البحث من نتائج ، وأرصد فيها ما قد يكون لهؤلاء الشعراء من خصائص شخصية مميزة من ناحية ، وما قد يكون بينهم وبين بعضهم الآخر من فروق مذهبية وفردية من ناحية أخرى . وفى كلتا الحالتين فإن ذلك يلقى ضوءاً على دراسة الشعر من ناحية وعلى دراسة الفرق ذاتها من ناحية أخرى .

وهكذا انقسمت الدراسة ثلاثة أقسام ، دراسة للظاهرة ، ودراسة للشعر ، ودراسة للشعراء ، فجعلت الباب الأول لدراسة الفرق ووزعته على أربعة فصول ، تناولت فى الفصل الأول منها الشيعة فأدرته على ثلاثة محاور ، هى التأريخ للفرقة ، ومراحل نشاطها السياسى فى مقاومة الدولة ، ومتابعة حركاتها المختلفة وما أصاب اتجاهها من انقسام إلى فرق لكل منها مقالتها ونشاطها وحركاتها الخاصة ، ثم تناول عقائدها المختلفة بالدرس والتحليل والمقارنة وأخيراً محاولة التعرف على أصول الأفكار والمبادئ التى تقوم عليها العقيدة ، والمصادر الأساسية التى تأثرتها هذه الأفكار عربية كانت أو إسلامية أو أجنبية .

وقد توخيت هذا النهج فى الفصول الثلاثة الأخرى ، ففعلت مثل ذلك فى الفصل الثانى الذى تناولت فيه الخوارج ، وفى الفصل الثالث الذى تناولت فيه الزبيريين مع عناية خاصة بحركة العصبيات القبلية واختلاطها بالسياسة ، وبنفس الطريقة تناولت فرق المتكلمين فى الفصل الرابع مع عناية بما ثقفه العقل العربى من ثقافات مختلفة .

أما الباب الثانى فقد جعلته لدراسة شعر الفرق ووزعته أيضاً على أربعة فصول ، وخصصت الفصل الأول منها لشعر الشيعة وأدرته كذلك على ثلاثة محاور : يدور حول أولها عرض لتمثيل الشعر لأحداث الشيعة ومدى مواكبته لحركات المتشيعين ، وتدور حول ثانيها دراسة لموضوعات هذا الشعر وأغراضه وما طرأ عليها من تطور أو تجديد ، بينما تدور حول ثالث المحاور محاولة لاستخلاص المقومات والخصائص والطوابع المميزة لهذا الشعر . وتوخيت المنهج نفسه فى دراسة شعر الفرق الأخرى ، ففعلت مثل ذلك بشعر الخوارج فى الفصل الثانى ، وبشعر الزبيريين فى الفصل الثالث ، وبالمثل فعلت ذلك فى الفصل الرابع بشعر المتكلمين .

وفى الباب الثالث درست نماذج من شعراء الفرق فى أربعة فصول كذلك فى محاولة لرسم صورة لكل فرقة من خلال نماذجها المتنوعة . فدرست فى الفصل الأول شعراء الشيعة وكثرتهم وتمايزهم ، وعرضت نموذجاً للشاعر الشيعى بالمعنى الواسع

هو أبو الأسود الدؤلى ثم درست نموذجين لشاعرين مذهبيين يلتزم أولهما وهو كثير بن عبد الرحمن بعقيدة الكيسانية بينما يلتزم الثانى وهو الكميت بن زيد بعقيدة الزيدية ، وهما العقيدتان اللتان كان لهما الذيوع والأهمية فى العصر الأموى . وفى الفصل الثانى درست شعراء الخوارج وكثرتهم وتشابه شخصياتهم الفنية وعرضت لهم ثلاثة نماذج : قطرى بن الفجاءة شاعر الطائفة المتشددة فى إيمانها وجهادها والتى ترى الجهاد شرطاً لتمام الإيمان ، وعمران بن قحطان شاعر الطائفة المتشددة فى إيمانها ، القاعدة عن الجهاد لأنها تفصل بين الإيمان والجهاد ولا ترى الثانى شرطاً للأول ، والطرماح بن حكيم وهو شاعر تلك الطائفة التى لا تتشدد لا فى إيمانها ولا فى جهادها وإنما شأنها شأن عامة الناس وإن مالت إلى عقيدة الخوارج وتعلقت بها تعلقا ما . وفى الفصل الثالث درست شعراء الزبيريين وقلتهم وعرضت لطائفة من الشعراء المرتزقة الذين انتجعوا رفدهم تكسبا ، ثم درست شاعرهم المؤمن بنظريتهم عن عقيدة صادقة : عبيد الله بن قيس الرقيات . وفى الفصل الرابع والأخير درست شعراء المتكلمين وفكرهم الجديد وثقافتهم العقلية الواسعة وعرضت لبعضهم ثم اتخذت ثابت قطنة شاعر المرجئة نموذجاً لهم .

وقد حرصت فى دراسة هؤلاء الشعراء جميعاً على ألا تكون مجرد تراجم لحياتهم ، بل أن ترسم لهم صورة دقيقة لشخصياتهم وعقائدهم وفنهم من خلال أشعارهم بقدر الإمكان .

وقد كان الدارس على ذكر بما يعتور شعر الفرق هذا من مشاكل الانتحال والاضطهاد ، والانتحال سلاح خطير من أسلحة الصراع السياسى والدينى فى عصرنا هذا ، وقد لجأ إليه كثير من الفرق فى صراعها مع الدولة وفيما كان بينها وبين غيرها من الفرق ، وليس شك فى أن هذا الشعر أيضاً قد لحقه من صنوف الاضطهاد والعدوان ومن التضييع والنكران ما ليس يخفى على أحد من الدارسين ؛ وذلك لما كان بين أصحابه والدولة من صراع مرير ، وهم يمثلون بعقائدهم المتطرفة خروجاً وتمرداً على الجماعة المسلمة ، وشعرهم بما

يعبر عن معتقداتهم وبما يحمل من مقولات مذاهبهم جدير بألا يلقى من كثير من المؤرخين والرواة السنيين غير الإهمال والنكران إن لم يكن التضييع والامتهان.

وقد كانت هذه المشاكل أمام الدارس فى حالة حضور دائم حتى ضربت من حول الدراسة سياجاً من التحرج والحرص الشديدين بغية الوصول إلى الحقيقة فى تحر دقيق . والله أسأل أن يوفقنا إليها دائماً ، وعليه وحده قصد السبيل .

د . النعمان القاضى

تمهيد

١

بين الخلافة والملك

لم تستشعر بلاد العرب وحدة سياسية على أية صورة من الصور قبل الإسلام، ولم يحس العربى خلال تاريخه الجاهلى بولاء لأية جماعة أكبر من قبيلته .

ولما أشرق نور الإسلام على الدنيا فى مكة ظهر مدى ما بذله النبى صلى الله عليه وسلم من جهد فى جمع القبائل العربية المتنافرة على كلمة الله فى اتحاد أخوى ، وأتم الله نوره على الرغم من المعارضة الدائمة التى كانت ترجع فى المقام الأول إلى النزاع القبلى من أجل التسلط ، وإلى الغيرة المترتبة عليه بين البطون والعشائر .

وبعد الهجرة تأتى للنبى ، أن ينشئ أول حكومة مدنية فى المدينة وراحت آيات القرآن الكريم من حين لآخر تدعوهم إلى التمسك بحبل الله ، وتنهاهم عن الفرقة وترشدهم إلى التدبير فيما كانوا فيه من شقاق ، وما آلوا إليه من أخوة فى ظل العقيدة الجديدة .

وبالتفاف العرب حول الدين الجديد استطاع النبى أن ينهى مظاهر المجتمع البدوى ، وأن يقضى على عاداته الزرية ، وأن يحدث فى النظام الاجتماعى تغيرات أساسية أهمها إحلال العقيدة محل الدم كرابطة اجتماعية .

ولقد أصبح من صميم عمل الرسول أن يخصص جزءاً متزايداً من وقته للمشاكل العملية المتصلة بالتنظيم الاجتماعى والأخلاق والعلاقات السياسية بين القبائل ولشئون الحرب . وأصبح النبى وأعمال الحكومة تشغل وقته كله ، إذ كان يعنى أشد العناية بكل صغيرة وكبيرة فى شئون التشريع والقضاء والتنظيم

المدنى والدينى والحربى ، كما جعل من اهتمامه أن يرتفع بالمستوى الروحى والخلق لشعب غرق حتى أذنيه فى مباذل حياة همجية قروناً عديدة .

وبهذا كان محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة الرسول الدينى ، والحاكم السياسى والقائد الأعلى ، ورئيس الأداة الإدارية ، والمشرع الأول للأحكام المستمدة من القرآن الكريم والمضطلع بتفسيرها .

وباجتماع كل هذه السلطات للنبى يبدو بجلاء أن تصوراً جديداً للسلطة قد وجد لأول مرة بوجود المجتمع الإسلامى الأول ، فقد أصبح النبى شيخ هذه الأمة ورئيس المؤمنين بالعقيدة الجديدة لا عن طريق تخويله سلطة معلقة بشروط ومتوقفة على موافقة الهيئة الاجتماعية يمكن تجريده منها فى أية لحظة ، وإنما أصبح برأسهم استناداً إلى امتياز دينى مطلق بعد أن تحول مصدر السلطة من الرأى العام إلى الله عز وجل الذى خولها رسوله صلى الله عليه وسلم .

ومن هذا التصور ، لم يعد ثمة حد فاصل بين الشئون الدينية والدنيوية إذ اجتمعت كل هذه الشئون فى يد الزعيم الدينى .

والحقيقة أن المسائل السياسية فى جماعة بنت كيانها على أساس دينى لا بد أن تصطبغ بصبغة دينية ، وأن تتخذ الشئون الدينية مظهراً لها مما يضفى على المنازعات السياسية طابعاً خاصًّا ، وعلى هذا يمكننا أن نتفق والرأى القائل بأن الحركات التى أدت إلى الانقسامات الدينية التى حدثت فى بداية الإسلام - وإن كانت أهميتها ترجع إلى ما اشتملت عليه من المسائل والنظريات الدينية - فإنها لا تعزى كما قد يتبادر إلى الذهن إلى اختلاف وجوه النظر فى مسائل الدين ولكنها ترجع إلى مشكلات تتعلق بالتنظيم السياسى ، وهى مشكلات شغلت المحل الأول من تفكير المسلمين القدامى وعنايتهم ، ثم لابستها الاعتبارات الدينية وامتزجت بها كعامل من عوامل الاعداد والاختمار .

وقد نتج عن هذا الازدواج أن كثر اللجاج بين الباحثين عن الأسس التى قام عليها النظام السياسى للإسلام ، وبخاصة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى وصيرورة الأمر إلى خلفائه الراشدين من بعده .

وقد ذهب السلف فى تعريف الخلافة إلى أنها رياسة فى أمور الدين والدنيا نيابة عن رسول الله ، وإلى أن منزلة الخليفة من الأمة بمنزلة رسول الله من المؤمنين ، له عليهم الولاية العامة والطاعة التامة ، وله حق القيام على دينهم فيقيم فيهم حدوده ، وينفذ شرائعه ، وله حق القيام على شئون دنياهم أيضاً ، فبيده وحده زمام الأمة وكل ولاية مستمدة منه ، وكل خطة دينية أو دنيوية متفرعة عن منصبه فهو الحاكم الزمنى وهو الحاكم الروحى .

وقد ذهب ابن خلدون فى مقدمته إلى أن الخلافة هى حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشرع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا ، وكأنه يريد أن يؤكد أن منصب الخليفة من الوجهة النظرية كان منصباً دينيًّا أكثر مما كان منصباً سياسيًّا ، لأن الخليفة كان قبل كل شىء رئيس مجتمع دينى واجبه الأول الدفاع عن الدين ، فلهذا تكون الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين « لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم ، وأعمال البشر كلها عائدة عليهم فى معادهم ، ... ولأن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فحسب فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء ، والله يقول : (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً) فالمقصود بهم إنما هو دينهم المفضى بهم إلى السعادة فى آخرتهم ، ... فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك فى جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى فى الملك الذى هو طبيعى للاجتماع الإنسانى فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع » .

ويمكن أن يعد دليلا على ما ذهب إليه ما درج عليه السلف فى تسمية الخليفة « إماماً » تشبيهاً له بإمام الصلاة فى اتباعه والاقتداء به ، ولهذا يقال لها الإمامة الكبرى . **وقد تابع ابن خلدون كثير من الباحثين فى ذهابه إلى أن الخلافة حكومة دينية خاضعة لحكم الله عن طريق الدين .**

وحقيقة الأمر كما أسلفنا أن السلطات السياسية برمتها لعهد الرسول قد

ألقيت فى يديه نتيجة لهيمنته على أمور العقيدة الجديدة التى كان عليه أن يبلغها ويمكن لها فى الأرض . ومن هنا اكتسب تصور الحكم الإسلامى صفته المزدوجة وغلبت عليه صفة الدين نظراً للاتصال الذى عاصره النبى بين الله والخلق فترة حياته التى كان الوحى لا ينقطع فيها عن إبلاغه ما يسوس به دولة الإسلام الوليدة .

وعلى الرغم من تحول مصدر السلطة من البشر إلى الله سبحانه وتعالى الذى خولها رسوله بمقتضى الامتياز الدينى المطلق ، فإن الرسول لم يكن قط حاكماً ذا سلطان مطلق بغير حدود ، فقد كان القرآن الكريم الذى يستنبط النبى منه الأحكام التى يسوس بها أمته هو الدستور الذى تسير سياسته وفقاً له والذى يدعوه إلى التمسك بالشورى فيما هو دون الأمور التوقيفية .

وفى القرآن الكريم سورة اسمها الشورى ومن آياتها قوله عز وجل : « والذين استجابوا لربهم ، وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون » وفى سورة آل عمران يبين الله تعالى لرسوله أمر تقرير الجهاد وينسب رأى المسلمين إلى رأيه فيقول جل شأنه : « ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ، ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ، فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ، فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين » .

وهى شورى توجب الطاعة ، فما دام المسلمون قد شاركوا الرسول فى تقرير مبدأ فعليهم أن ينفذوا ما قرروه أو شاركوا فى تقريره ، وقد يكون تقريره بالأكثرية ، فعلى الأقلية حينئذ أن تتبع الأكثرية حرصاً على الجماعة أولا ، ثم إن هذه الطاعة لا تمنع مناقشة الأمر والاحتكام فيه إلى الله فيما أنزل من الوحى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا » .

وبهذا الفهم للشورى فى عهد الرسول لا يمكننا أن نتفق وهؤلاء الذين

يذهبون إلى أن الحكم فى عهده لم يكن متنزلا من السماء ، بحجة أنه لو كان كذلك لأمضى النبي كل شيء بأمر ربه ولم يشاور فيه أحداً ولم يؤامر فيه وليًّا من أوليائه ، ونحن ندفع احتجاجهم هذا بأن الشورى توجب الطاعة وأن الطاعة لا تمنع المناقشة والاحتكام إلى الله عز وجل فيما أنزل من الوحى . وعلى هذا فلا تناقض بين الشورى وكون الحكم لعهد الرسول متنزلا من السماء .

وكذلك فنحن ندفع الحجة التى تزعم أن القرآن لم ينظم أمور السياسة تنظيماً مجملا أو مفصلا ، وأن النبي لم يرسم بسنته نظاماً معيناً للحكم ولا للسياسة ولم يستخلف على المسلمين أحداً من أصحابه بعهد مكتوب أو غير مكتوب حين ثقل عليه المرض بأن القرآن الكريم وإن لم يشر إلى نظام الحكم الذى يصح أن يتبعه المسلمون بعد النبي فآياته تحض على طاعة أولى الأمر « أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم » . وبأن القرآن الكريم قد قرر ضمن ما قرر من مبادئ الإسلام ديناً ودولة ونظاماً اجتماعيًّا وفلسفة خلقية ، مبدأ المساواة بين المسلمين قاعدة أساسية من قواعد الحياة فى المجتمع الإسلامى ، كما قرر أن أمر المسلمين شورى بينهم ، وأوصى النبي بأن يشاور أصحابه ، ولم يكن هناك ما يدعو إلى النص على خليفة للنبي ، وما ذلك إلا لأن الإسلام يريد نظاماً ديمقراطيًّا حقيقة ، يكون اختيار الإمام فيه من حق الأمة ، ولهذا لم ينص النبي على من يخلفه نصًّا صريحاً .

فإذا كان البعض يتخذ من عدم نص النبي على من يخلفه صراحة دليلا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يرسم نظاماً معيناً للحكم ولا للسياسة فإننا نزعم أن من الحكمة السياسية البالغة التى يغفل عنها الكثيرون أن النبي لم يعين له خليفة تاركاً الأمر للمسلمين احتراماً منه للنظام الديمقراطى الذى ينشده الإسلام ولأن الناس لا يخضعون لرئيس معين خضوعهم لرئيس يختارونه بمحض إرادتهم .

والرأى عندنا أن الإسلام أتى بتصور جديد للحكم مع نشأة المجتمع الإسلامى الأول فكانت حكومة النبي فى المدينة حكومة ثيوقراطية خاضعة لحكم

الله عن طريق الدين وقائمة على الامتياز الدينى المطلق للرسول بحكم الثنائية التى كانت لشخصيته رسولا لله وحاكماً للجماعة المؤمنة . ولم تتضح الأهداف السياسية والدينية آنذاك وضوحاً يجعل من الممكن تمييز كل منها على حدة ، إذ لا يستطيع أحد أن يزعم أن حكماً يعتمد على الوحى ويتخذ من القرآن الكريم دستوراً هادياً ومرشداً ليس حكما متنزلا من السماء وإن فسح للشورى فى غير الأمور التوقيفية التى تغيب حكمتها عن فهم البشر . ولهذا لم تظهر مشكلة فقدان النظام السياسى فى عهد الرسول، إذ كان خليفة الله والرئيس الدينى للجماعة المؤمنة ، أو بمعنى أدق كانت الحكومة الثيوقراطية مرتبطة بشخصه ارتباطاً وثيقاً .

ولهذا فإن كثيراً من الباحثين يقعون فى خلط ظاهر عندما يتحدثون عن نظام الحكم الإسلامى عموماً دون تفريق بين عهد الرسول وعهد الخلفاء الراشدين من بعده والعهود التى تلت عهدهم . فليس شك فى أن نظام الحكم الإسلامى بعد عهد الرسول لم يكن نظاماً ثيوقراطيًّا تماماً ، بل إن الخلافة عن الرسول لم تكن من معالم الدين حقًّا ولا هى جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم، وإنما أجريت مجرى الأمور الدنيوية كتأمير الأمراء وتدبير الحروب وسياسة الرعية ، إذ وسدت إلى واحد بعهد أو شبه عهد ووسدت إلى آخر بحكم ظروف بعينها بعهد صريح وإلى آخر بالشورى بين أهل الحل والعقد . فكأن الإسلام قد جمع بين خصائص النظام الجمهورى المقيد، والملكى المقيد على ما تقضى به حالة الزمن ومصلحة الأمة فى إطار من الشورى والعدل والمساواة.

وحقًّا لم يكن النظام الديمقراطى بمعناه المعروف فى العصر الحديث شائعاً فى ذلك الزمان ، وإنما كان اختيار الرئيس باتفاق كلمة كبار الرجال وهم المسمون بأهل الحل والعقد ، وقد رضى المسلمون بخلافة أبى بكر وعثمان وأعطوهما الطاعة ولم تنفذ خلافتهما إلا ببيعة الناس . وهكذا يمكن القول بأن الحكومة الإسلامية بعد الرسول كانت ديمقراطية بالمعنى الذى يمكن فهمه من هذه الكلمة فى الزمن القديم وهو أن يشترك جميع الذكور الراشدين فى اختيار

رأس الدولة وتحديد سياستها من الوجهة النظرية، أما من الناحية العملية فقد كان الذين يختارون أمير المؤمنين ويرسمون سياسة الدولة فئة قليلة من وجوه المدينة ينوبون عن بقية المسلمين . ولم يكن ينتظر شيء غير هذا بطبيعة الحال ، ذلك أن الديمقراطية فى أحسن صورها لا بد أن تكون نسبية .

وبهذا التفسير الذى نذهب إليه وحده – من القول بثيوقراطية حكومة الرسول وديمقراطية الحكومة فى عهد خلفائه – يمكننا أن نفسر حوادث التاريخ الإسلامى التى ترتبت على صورة الحكم فى الدولة الإسلامية وأولها ارتداد قبائل البدو ورفضهم الإذعان للمدينة وامتناعهم عن إرسال الزكاة إليها ولهذا فقد قال قائلهم :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا فيالعباد الله ما لأبى بكر

كما أننا به نستطيع أن نفسر التطور الذى لحق بتصور الحكم فى الإسلام إلى أن أصبح أشبه ما يكون بالملك العضود فيما بعد .

ويخطئ من يظن أن هذه حالة قد طرأت دفعة واحدة فى أيام النزاع بين على ومعاوية ، فالحقيقة أنها قد ظهرت بوادرها فى أيام الصديق وازدادت ظهوراً فى عهد الفاروق ، ثم وصل المجتمع الإسلامى إلى مفترق الطرق فى عهد عثمان حتى حدث الفراق التام بين التصورين فى فترة النزاع بين على ومعاوية مما ترتب عليه قيام الملك الوراثى مع نشأة الدولة الأموية .

وما من شك فى أن حكومة الرسول وحكومة خليفتيه الراشديْن قد استهدفت تحقيق العدل الخالص المطلق بين الناس جميعاً ، ولأجل هذا الهدف وحده سخطت قريش على النبى لأنه تعرض لنظامها الاجتماعى وفرض عليها نوعاً من العدل لا يلائم منافع ساداتها تماماً كما سخطت عليه لأنه عاب آلهتها وأزرى على دينها .

وما من شك أيضاً فى أنه قد استقر فى نفوس المسلمين أن العدل ركن من أركان الإسلام الأساسية وأن الانحراف عنه انحراف عن الإسلام وإخلال

بالدين حتى إن بعض المسلمين لم يتردد فى أن ينكر على النبي نفسه ما رآه ولم يفهمه من تألف بعض العرب بأكثر من حقهم فى الغنيمة فقال له : اعدل يامحمد فإنك لم تعدل وألح فى القول حتى ظهر الغضب على وجه النبي فقال له : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل ؟

٢

قامت سيرة النبي فى الناس على العدل . فيما يكون بينه وبينهم وفيما بينهم وبين أنفسهم وعلى العدل بين الناس وبين أهله أيضاً ، واجتهد صاحباه من بعده فى أن يذهبا مذهبه ، ويسيرا سيرته ما استطاعا إلى ذلك سبيلا ، حتى لقد هم أبو بكر بأن يكلف نفسه فوق ما يطيق فيسعى لكسب قوته وقوت أهله وهو إمام للمسلمين ينظر فى أمورهم ويقف عليهم وقته وجهده . وكان عمر يزعم أثناء خلافته أن أى عامل آذى بعض رعيته بغير الحق فهو عرضة للقصاص لأن النبي أقص من نفسه وهو خير أمته ، فهل كانت هذه السيرة التى سارها النبي واجتهد صاحباه فى أن يسيراها قادرة على أن تبقى حتى تغير من طباع الناس فترقى بهم إلى المثل العليا التى دعا إليها القرآن والنبي وصاحباه ؟ وهل كان بإمكان هذه السيرة أن تكبح جماح التطور الذى لحق بالحياة بفعل الظروف المستحدثة ؟

بدهى أن التعلق بالمثل العليا والتمسك بمبادئ العدل والحق وهى أمور تتعلق فى الدرجة الأولى بقوة الضمير ويقظته شيء لا يتحتم أن يرثه الأبناء والأحفاد ، فالذين اتصلوا برسول الله اتصالا قريباً وتعلموا منه وتأدبوا بأدبه خليقون بأن يتأثروه وبأن يتمثلوه أكثر من أبنائهم وحفدتهم ، وهذا الصديق رضى الله عنه يستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأى وبين تجنيبهم الفتنة ومزالق الهوى ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها ، وحتى ليقول عمر وهو يوشك أن يودع الحياة بعد أن رأى أنه لم يبلغ من تحقيق العدل ما كان يريد « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء ».

وقد كان للصديق وللفاروق فى خشيتهما وإشفاقهما من تطور الأمور إلى ما لا تحمد عقباه كل الحق ، ولا يقلل من خشيتهما وإشفاقهما أن كلا منهما قام على الدين بأوفر جهده متقيداً بما أمر الله به من إقامة الحق وإقرار العدل وإيثار المعروف واجتناب المنكر والصدود عن البغى ، أو أن طائفة كبيرة من صحابة الرسول كان لها ضمير دينى حى ويقظ لطول ما لازمت النبى وعاينت أوامره ونواهيه وبذلت من الروح والمال فى سبيل العقيدة حتى لتعد هذه الطائفة بحق صاحبة الحل والعقد فى أمور المسلمين بفضل امتيازها الدينى الذى استأهلت به أن تكون مهوى ثقة الخليفة فى طلب الرأى والمشورة .

كان للصديق وللفاروق الحق فى خشيتهما وإشفاقهما وهما يريان طائفة أخرى من المسلمين بنت امتيازها على أسس عصبية غير مستمدة من الدين راحت تتطلع إلى حيازة المال والجاه والسيطرة . ولم تكد تمضى على وفاة الرسول ساعات حتى تحدث المسلمون فى أمر الخلافة ، وكادت تحدث الفتنة بين المهاجرين والأنصار ورغب الأنصار فى أن يكون منهم أمير ومن المهاجرين أمير بحجة أنهم هم الذين آووا ونصروا . واشتد الخلاف وأخذ كل فريق يدلل على أحقيته فى الخلافة ، واحتج المهاجرون بأن النبى قال « الأئمة من قريش » وأنه أوصى المهاجرين بالأنصار ولو كانت الإمارة فيهم لم تكن الوصية بهم ، كما احتجوا بأن العرب لا تدين إلا لهم ، ولا تقر بمنعة ولا عزة إلا لهم أيضاً ، فضلا عن أنهم أول من آمن وصبر على الأذى .

وما من شك فى أن أبا بكر وعمر وأبا عبيدة عندما احتجوا لقريش على الأنصار لم يفكروا فى إطلاق الإمامة فى قريش كلها بغير تحديد ، وأكبر الظن أنهم فكروا فى المهاجرين الذين سبقوا إلى الإسلام قبل أن يؤمن غيرهم وآزروا النبى ، فكثرتهم قرشيون ، ولو أنهم فكروا فى قريش من حيث إنها الحى الذى يتصل نسبه بنسب النبى صلى الله عليه وسلم لاقتضاهم التفكير أن يؤثروا بالخلافة أقرب قريش إليه وأن يرشحوا لها عمه العباسى أو عليًّا ابن عمه ما دام

العباس لم يكن من السابقين ، وعلىّ أول الناس إسلاماً وزوج فاطمة وجهاده وفضله لا ينكران . ولكن قريشاً فهمت احتجاج أبى بكر على غير ما أراده وصحبه واستيقنت أن الإمامة حق لها لا يمكن أن يعدوها إلى غيرها وأنه حقها لمكانتها من النبى .

ومهما كان من أمر فقد نشأت أرستقراطية قرشية معينة نتيجة الوهم فيما أراده أبو بكر وصحبه يوم السقيفة من أن تكون الإمامة فى المهاجرين فحولت قريش ذلك إلى عصبيتها ولمصلحتها وخرجت بذلك عن أصل من أخطر أصول الإسلام وهو المساواة .

ونكاد نقطع بأن هذه الطائفة من أصحاب الأرستقراطية القائمة على المولد أو الثروة أو الجاه، كانت ممن اعتنق الإسلام بآخرة حين لم يعد له بد من اعتناقه إثر ظهور قوة النبى بعد فتح مكة . فلم يكونوا إذن حريصين على الإسلام بقدر حرصهم على المنفعة ، وعلى رأس هؤلاء أبناء البيت الأموى القرشى ، الذى تمسك بالإسلام فحسب من حيث كونه سبباً من أسباب الجاه والهيبة أكسبها قريشاً وأرضوا بذلك غرورهم الشخصى .

ولقد أتبعت قريش ذلك بما هو أشد خطراً وهو استعلاؤها على غيرها ممن اعتنقوا الإسلام ولم يكن لهم فى العرب نسب صريح ، الأمر الذى يتعارض ومبادئ المساواة] والعدل التى أتى بها الإسلام ، وكان قد أعلن فى السنة التاسعة للهجرة أن الجزيرة دار للمسلمين وقضى على الوثنية تماماً وأصبح الإسلام والعروبة شيئاً واحداً ، ونشأ نظام الولاء حين فتحت البلاد الأجنبية وصار حتماً على من يسلم أن يلتحق بقبيلة عربية ويصبح كأنه فرد من أفرادها .

ولقد كان هذا الجانب الأرستقراطى غير مبالٍ بالدين، ولم يكن لديه أيضاً الاستعداد لكى يعترف للغريب المقهور بالأخوة ، ولو اعتنق الإسلام ، فإن فتح البلاد الأجنبية فى نظره لم يكن يعنى إلا الحصول على ضياع واسعة ونفوذ بلا حدود، وكان المغلوبون فى اعتباره قطين أرض يزيدون إنتاجها فحسب.

فهذه الدنيا إذن تفعل أفاعيلها فى أتباع محمد ولما يمض على فراقه لهم

غير زمن يسير ، وهذه بوادر الخلاف تبذر ، وكان وجود النبي عاصماً منها ، فما الذى يعصم المجتمع الذى كفل له الرسول وحدته وأحل فيه العقيدة محل الدم والإيمان محل العصبية ؟

وها هى ذى العصبية تدب على استحياء بين المهاجرين والأنصار لولا أن حسم عمر الأمر ، فألقى خطاباً رد فيه اقتراح الحباب بن المنذر الأنصارى باقتسام الخلافة مؤكداً أحقية قريش أولياء النبي وعشيرته بالأمر ، بل ها هى ذى العصبية تفعل فعلها بين الأنصار أنفسهم حين نفس الأوس على الخزرج رغبتهم فى تأمير سعد بن عبادة فمالوا تلقائيًّا إلى حيث يقف المهاجرون حتى لا يكون للخزرج سلطان . ولقد أشفق عمر من الاختلاف فبسط يده وبايع أبا بكر وقال : « وإنا والله ما وجدنا أمراً هو أقوى من مبايعة أبى بكر خشينا إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة أن يحدثوا بيعة فإما أن نتابعهم على مالانرضى أو نخالفهم فيكون فساد » .

وأيضاً فهؤلاء بنو هاشم ينقمون ألاّ يكون لهم فى الأمر شيء ، وقد نال المهاجرون الثمرة بفضل احتجاجهم بالقرابة والولاية للرسول وهم أصحابها وأولياؤها ، ولم يقف الأمر عند الاحتجاج يوم بيعة أبى بكر وإنما تعداه خارج سقيفة بنى ساعدة حيث انتصب لكل فريق من يتحدث بلسانه ،

ولكن هذا الانقسام الداخلى الذى ثار عقب انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى ، واجتهد أبو بكر وعمر فى حسمه ، قد اختفى تماماً عند ما ثار التمرد الكبير على سلطان المدينة من جانب المتمردين ، وكأنه اختفى أمام الخطر الخارجى الداهم الذى كان يهددهم جميعاً ، وأخذ الأنصار والمهاجرون أماكنهم فى طليعة الجيوش التى سيرت لتأديب المتنبئين ومانعى الزكاة ، واتسعت مهمة هذه الجيوش فاتصلت بمهمة أكبر ، هى فتح العراق والشام ، ورأى أبو بكر بثاقب بصيرته أن يدفع بالمسلمين إلى خارج شبه الجزيرة ليصرفهم عن ثاراتهم الأولى وعن فرقتهم التى ما برحت تدب على استحياء منذ قبض الرسول .

ولكن أبا بكر يلحق بالرفيق الأعلى فى السنة الثالثة عشرة للهجرة ، وقبل

أن يكون المسلمون قد استقروا بالفتح فى بلد من البلدان ، ولهذا فقد أعد للأمر عدته ، وأشفق أن يعود الأمر إلى ما كان عليه يوم السقيفة أو إلى ما هو أشد خطراً ، فعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب الذى لم يتصد أحد لمنافسته . إذ أنه تحت وطأة المرض وإحساسه بدنو أجله وحرج موقف المسلمين أمام عدوهم بدون خليفة يجمع كلمتهم ، نظر فى أصحابه ليتخير منهم رجلا يكون شديداً فى غير عنف وليناً فى غير ضعف ، فوجد أن من توافرت فيه هذه الصفة من أصحابه أحد رجلين عمر وعلى ، إلا أن الأول ربما يريد الأمر فيرى فى طريقه عقبة فيدور إليه والثانى يرى الاستقامة ولا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا إلى الشدة أميل منه إلى اللين .

وكأنما أراد أبو بكر أن يكون فى عهده إلى ابن الخطاب متمسكاً بأهداب الديمقراطية فاستشار ذوى الرأى الراجح فى عمر فأثنوا عليه ، من مثل عبدالرحمن ابن عوف وعثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وأسيد بن حضير وسعيد بن زيد وغيرهم ، ثم دعا عثمان فأملاه كتاب العهد وأشرف على الناس فى شدة مرضه يسأل هل يرضون عمر ؟ وأمرهم بالسمع والطاعة فأجابوه وهو بذلك قد علق استخلاف عمر على رضا الناس .

وقد مكث عمر فى الخلافة عشر سنوات فتح العرب خلالها العراق والشام ومصر وفارس ، واتخذت الدولة فى عهده شكلها الواضح ، فأصبحت مرهوبة الجانب ووسعت أنماطاً من الشعوب تختلف عنصراً ولغة ودينا ، وكانت وحدة الوجدان الإسلامى هى اللواء الذى قاتل المسلمون من حوله مما مهد لشحوب الخلافات القائمة على العصبية القبلية .

وقد تنبه عمر وهو يرى مدى نفوذ تلك الطائفة التى بنت امتيازها على السبق وصحبة الرسول ومدى تأثيرها على المسلمين فأمسكها فى المدينة ولم يأذن لها أن تتفرق فى الأرض خوفاً عليها ومنها .

وكذلك أمسك بالطائفة الأخرى صاحبة الأرستقراطية القائمة على امتياز المولد والجاه والثراء ، لأنها والفتوح تصب الأموال فى حجور المسلمين ستعمد

إلى الإكثار من الأموال والأنصار ، وفرض لكل منهم فى مكانه عطاء محدداً واستبقاهم إلى جواره مظهراً رغبته فى الانتفاع بمشورتهم واتخذ منهم مجلساً يوشك أن يكون مجلس شوراه .

ولم يقتصر الأمر على المهاجرين وإمساكهم فى المدينة ، وإنما امتد إلى الأمصار المفتوحة ، فقد نهى عمر عن شراء المسلمين الأرض وفلحها راغباً فى أن يبقوا هناك طبقة عسكرية تمدهم الدولة بما يكفيهم لكى يحتفظوا بصفاتهم الحربية .

ولكن هذه الاحتياطات لم تحل دون حدوث التطور المنتظر ، فلم تلبث طائفة من الرجال ذوى النفوذ أن جمعت معظم الطيبات من هذه الثروة الآخذة فى النماء ، وأخذ أشراف قريش يشيدون القصور الفخمة فى مكة والمدينة بينما راح عمر ينظر فى أسى إلى هذا الترف الذى أخذ مواطنوه يتردون فيه .

ولكن عمر وهو من هو شدة حب لله اقتدى بالنبى عندما أحس بدنو أجله ، فلم يستخلف شخصاً بعينه ، واقتدى بأبى بكر فلم يرض أن يترك المسلمين دون أن ينصح لهم فاختار أصحاب الشورى لمكانهم من الرسول والمهاجرين ومن قريش ومن رضا المسلمين وثقتهم وترك لهم أن يختاروا من بينهم خليفة ، ولما ألح عليه المسلمون أن يعهد ، أحالهم إلى هؤلاء الذين مات الرسول وهو عنهم راض وقال فيهم إنهم من أهل الجنة : على وعثمان وسعد وعبد الرحمن والزبير وطلحة وعبد الله بن عمر على ألا يكون له من الأمر شيء ، وعلى أن تكون الخلافة للرجل الذى يقع عليه الاختيار من الفريق الذى فيه عبد الله فى حالة تساوى الأصوات ، ثم نصحهم بأن يحسنوا مؤازرة من يولونه ويعينوه ، وأمرهم بألا يختلفوا خلال ثلاثة أيام وأن يصلى بالمسلمين صهيب ، وعهد إلى المقداد بن الأسود بأنه إذا خالف واحد شدخ رأسه أو اثنان ، فإن تعادلا مالوا إلى الصف الذى مال إليه ابن عمر ، فإن لم يرضوه فإلى الصف الذى فيه عبد الرحمن بن عوف ، فإن رغم الباقون قتلوا .

ولما حانت الصلاة على عمر أقبل عثمان بن عفان وعلى بن أبى طالب وكل يريد أن يتقدم صاحبه لهذه الصلاة ، فلما رآهما عبد الرحمن على هذه الحال قال : إن هذا لهو الحرص على الإمارة لقد علمتما ما هذا إليكما ، ولقد أمر به غيركما . . تقدم يا صهيب فصل عليه .

وكان على يشعر بأن موعده مع تولى الخلافة قد آن ، فهو خير ممثل لتلك السياسة الإسلامية القائمة على الدين الخالص وفى نفس الوقت أحاطت الأرستقراطية القائمة على امتياز الجاه والمولد والثروة من أشراف مكة بعثمان بن عفان بوصفه أحد أعضاء أسرة أمية صاحبة الزعامة قبل الإسلام والممثل الوحيد لأشراف مكة من بين صحابة الرسول وله من المكانة الدينية ما يؤهله لأن يكون مرشحاً للخلافة .

وعلى الرغم من محاولات عبد الرحمن بن عوف الجادة والذى لم يجد إزاء التنافس الشديد إلا أن يخلع نفسه من الأمر ليتفرغ لإدارة الاقتراع بعد أن أعطى المواثيق وأخذها على الرهط المرشح للخلافة فإن المحاولات لم تصل إلى غايتها إذ انحصر الأمر بين على وعثمان .

وقد بدأ انقسام الرأى العام حينئذ إلى فئتين بوضوح فيما ثار بالمسجد عشية الانتخاب إذ قام عمار بن ياسر فدعا لعلى وأيده المقداد بن الأسود ، فقام عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، فدعا لعثمان وأيده عبد الله بن أبى ربيعة وشتم عمار ابن أبى سرح ، وتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، واحتج عمار بأن آل البيت أحق بألا يصرف عنهم الأمر ، ورأى سعد بن أبى وقاص أن الأمور تتطور فحث عبد الرحمن على أن يفرغ قبل أن يفتن الناس .

وتصور الروايات المختلفة سبب إعراض عبد الرحمن عن على إلى عثمان بأنه لم يستجب له حينما سأله عهد الله وميثاقه أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده فحسب، كما أجاب عثمان، وإنما قال « أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى » .

ولكن هذا يبدو سبباً ظاهرياً ، فإن أحداً لا يستطيع أن يغفل مطالب

التغير الاجتماعى والفكرى وما يستتبعه من تشريع فى نطاق الإطار العام لتعاليم الإسلام ، فقد وقع الخلاف فى زمان أبى بكر وعمر فى أشياء كثيرة كمسائل ميراث الجد والأخوة والكلالة ، وفى عقل الأصابع وديات الأسنان ، وفى حدود بعض الجرائم التى لم يرد فيها نص . أو الأمور التى لم يسبق فيها مثل أو قدوة فى عهد الرسول : كتحريم عمر للعمرة فى أشهر الحج ، وتحريمه متعة النساء ، وغير ذلك من الأمور التى دعت إليها حكمة أو اقتضتها الظروف .

وأيضاً فإن عثمان الذى أعطى المواثيق بالتزام الكتاب والسنة وسيرة الشيخين لا يحيد عن شىء منها قد بدا غير ملتزم بما التزم به بعد أن آل إليه الأمر . وغاية ما هنالك فى العدول عن على إلى عثمان أن الأرستقراطية القرشية كما استطاعت أن تتلقف احتجاج أبى بكر وعمر بإزاء الأنصار يوم السقيفة لتضعه فى خدمة امتيازها ولتجعله تراثاً لها ، استطاعت هذه المرة أيضاً أن تتنبه إلى أمر أثاره عمر بن الخطاب أيضاً بإزاء بنى هاشم رهط النبى عندما قال لابن عباس : إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فإن قريشاً اختارت لنفسها فأصابت . وفى هذا ما يدل حقيقة على أن القرشيين أحجموا عن تولية علىّ خوفاً من استقرار الخلافة فى بنى هاشم إن صارت إلى واحد منهم . ولهذا فقد تخطى مجلس الشورى علياً لأنهم لم يشاءوا أن يعترفوا له بأنه صاحب الحق الأول .

ولقد كان على معروفاً بأنه مثل أعلى فى التقوى والتدين والإخلاص والشدة حتى على نفسه . ولهذا لم يكن ترشيحه ليلقى من أشراف القرشيين الراغبين فى الدنيا أدنى قبول ، وبخاصة أن عمر كان آخذاً بخلاقيمهم حاملا إياهم على الجادة ، [وقد كان موقفهم من استخلافه هو الآخر سلبياً ، وهم وإن لم يعارضوه فإنهم لم يستجيبوا له بل كرهوه ، فقد ذهب طلحة فى نفر من المسلمين إلى أبى بكر فى مرضه الأخير وقال له : « استخلفت على الناس عمر وقد رأيت ما يلقى الناس منه وأنت معه فكيف به إذا خلا بهم ، وأنت لاق ربك » فغضب أبو بكر

وصاح فى طلحة : أبا لله تخوفنى ؟ إذا لقيت ربى فسألنى قلت استخلفت على أهلك خير أهلك .

وطبيعى أن يكون موقفهم من على شبيهاً بذلك فهو أجدر المسلمين بسيرة عمر وحملهم على طريقه ، وهم أرغب ما يكونون عن رجل فى بطش عمر وشدته وانصرافه عن الدنيا وصرفه الناس عنها، ولهذا فقد كان عثمان رجلهم، وربما قامت دعاية بنى أمية ، وهم أوفر مالا وأكثر عدداً ، على أن الأمر إذا آل إلى صاحبهم وسع على الناس وتركهم ينعمون بما تدره مغانم الفتح من أسباب المتاع ، ولم يبطش بهم بطش عمر.

كان عثمان رجل العصر ولم يكنه علىّ ، ولعلنا نوضح ذلك بالوقوف على رأى عمر نفسه فى الرجلين فقد قال : « لو ولوا الأجلح لحملهم على الجادة . ولو وليها عثمان لحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ، ولو فعلها لقتلوه » .

ومن ثم فإن هذا الاختيار نفسه إشارة دقيقة تدل على مدى حركة المجتمع فى هذا الوقت من التطور والاتجاه نحو الدنيوى من الأغراض والتمتع بمباهج الحياة والرغبة فى رغد العيش وخفضه . وحقًّا كان العرب فى شبه الجزيرة وخارجها قد أنسوا إلى ألوان من المتاع وافتتنوا فيها ، فلم يكن عجيباً أن يدفعهم ذلك إلى طلب المزيد منه والتذمر إذا لم ينالوه . وقد اعتقد الطامعون والمتطلعون إلى المزيد من المطامع الدنيوية والوفر والنعمة أنهم أقرب إلى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنه منهم إلى أمل من الآمال فى شدة على وعسر حسابه .

وهكذا أرضى اختيار عثمان تلك الطائفة الدنيوية الطامعة ، ولكنه فى نفس الوقت لم يسخط تلك الطائفة المخلصة من كبار الصحابة ، فقد كان اختياره إجراء يبعد مظنة المحاباة والتأثر بقرابة الرسول مما يؤكد مثالية المساواة الإسلامية وإنكار التفاضل بالأحساب والأنساب، وإجلال الرسول عن أن يورث . ولم يسخط اختياره غير بنى هاشم الذين ابتلعوا ضيقهم أمام وحدة الجماعة ودخلوا فيما دخل فيه الناس كراهية أن ينسب إليهم تشويه

أصل من أصول الإسلام وإن ظلوا يتربصون أن تؤول إليهم الخلافة بمشيئة المسلمين جميعاً وعلى أن يكون اختيار على اختياراً مرضياً كاختيار غيره من أنصار النبي وأصحابه يستوى في ذلك القريب منهم والبعيد .

وكانت سياسة عثمان مصدقة لظن أولئك البرمين، بطش عمر وشدة عليّ، وقد خاض المؤرخون فى تعليل الأسباب التى أدت إلى تلك الفتنة الشعواء التى انتهت بمقتله والتى لم تهدأ بعدها ثائرة الفتن. فقد أحصوا عليه مآخذ كثيرة أهمها أنه كان شديد الولاء لأشراف بنى أمية الذين كانوا ألد أعداء النبي فى فجر الإسلام فأقبلو ليجنوا ثمار قرابتهم له، ولم يكن بوسعه أن يقاوم مطالبهم، فيروى أن أبا سفيان بن حرب أتاه عقب بيعته فقال له « قد صارت إليك بعد تيم وعدى فأدرها كالكرة واجعل أوتارها بنى أمية » وسواء أصح هذا أم لم يصح فإن الحوادث قد أيدته بما لا يدع مجالا للشك .

ولسنا نستطيع أن ننسب عثمان رضى الله عنه إلى ما لا يليق بمكانته وتقواه من الانحراف أو الزيغ والإغراض أو التهالك على الدنيا ، فقد كان من أتقى المسلمين وأكثرهم حياء ، وأصدقهم إيماناً ، ومناصرته للعقيدة أشهر من أن يعرف بها . وإنما كان رضى الله عنه شديد العطف على ذوى قرباه وقد بالغ فى هذا العطف مبالغة كان لها من بعد فى حياته وفى حياة الدولة أبعد أثر ، وهو من قبل بعض خلقه . وقد اتسع هذا العطف فشمل أقرباءه وغيرهم حتى عم المسلمين جميعاً .

فأقل ما توصف به سياسته أنها مجافية لسياسة عمر ، وقد تكون نتيجة لما كان يشعر به عثمان من تشدد عمر فى سياسته المالية وإنكاره لهذا التشدد . ولم يكن عثمان يستطيع أن يلزم الناس من التقشف والشظف والزهادة ما كان يفرضه عليهم عمر لسببين : أولهما : شخصى فى عثمان نفسه والآخر عام فى الناس أنفسهم .

فعثمان لين عطوف على نقيض عمر ، إذ لم يكن متقشفاً شديداً على نفسه مثله ، وإنما كان فى شبابه يحب لين العيش وأطايب الطعام وفاخر الثياب ،

ويتختم ويشد أسنانه بالذهب ، كما كان له من سعة المال ما يدفع عنه كل شبهة فى أرزاق المسلمين بعد أن ولى أمرهم .

وقد اختلفت نظرة عثمان عن نظرة عمر إلى أموال الدولة نتيجة لاختلاف طبيعة الرجلين ، فكان عثمان يقول إذا كلم فى إعطائه ذوى قرابته من بيت المال : « إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله وأنا أعطى قرابتى احتساباً لله ، ومن لنا بمثل عمر » .

وفى الحق إن أموال المسلمين ومصالحهم العامة يجب أن تظل للمسلمين جميعاً دون تمييز بينهم ، ولكن عثمان ما تقدمت بخلافته الأيام حتى أخذ يصل أعلام الصحابة بالصلات فوق ما كان لهم من عطاء مفروض ، فوصل الزبير بستمائة ألف ووصل طلحة بمائتى ألف .

ولم يأخذهم بالذى أخذهم به عمر وكأنه رأى بعطفه ولينه أن قريشاً ملت هذه الشدة فى آخر عهد عمر فخلى عنهم وأباح لهم حرية التنقل، وإذ زاد لهم فى العطاء وألطف إليهم بالصلات ، فلا غرابة وقد أتاح لهم أن ينساحوا فى أرجاء الإمبراطورية وأن يروا الدنيا وأن يراهم الناس وأن يضطربوا فى البلاد ، فى أن يأخذوا من أنعم الحياة بأوفر نصيب وأن يديروا ظهورهم لما كان عمر يحرص عليه من الزهد والتقشف .

وهذا شىء يمكننا أن نرجع به إلى طبيعة عثمان وشخصه ، أما الشىء الآخر فيرجع إلى ما لحق الناس أنفسهم من تغير عما كانوا عليه فى عهد الرسول والشيخين.

وواضح أن الناس استقبلوا عهد عثمان بتفاؤل كبير وكان الرضا به أكثر شمولا فى بداية عهده وبخاصة فى السنوات الست الأولى لما ابتدأ به عهده من التوسعة التى صادفت قبولا وتطلعاً . وليس شك فى أن الناس قد تغيروا عما كانوا عليه من قبل، فقد لحق ببلاد العرب كثير من التطور إذ انتقلت فى فترة وجيزة لم تبلغ ثلاثين عاماً من التبعية إلى التغلب على الفرس والروم ، ومن حياة قاسية عسيرة إلى يسار ورخاء لم يعهدا من قبل .

وقد كان تسلط العقيدة ومثاليتها على النفوس أيام النبى والشيخين حائلا بين المسلمين وبين التطلع إلى عرض الدنيا إذ شغلهم سمو الهدف عن متاعها وسوغت قوة ضمائرهم وشدة وازعهم ألا يروا غضاضة فى نهج الشيخين نهج الشظف واستخدام مغانم الحروب والفيوء فى التهيئة لمتابعتها فى سبيل تحقيق الهدف الأسمى بإبلاغ العقيدة إلى العالمين .

وهكذا ، فما إن زادت المغانم واتسع الخراج وتدفقت الجزية حتى انقسم الناس أمام ذلك فريقين : فريق لما تزل مثالية الإسلام قوية فى نفوسهم. يرون ألاّ سبيل إلا بأن تظل الأمور على ما كانت عليه أيام النبى والشيخين من إعراض عن الدنيا وطرح لإغراءاتها ، وفريق آخر لا يرى بأساً فى أن يأخذ من متاعها بالنصيب الذى يسره له ما أفاءه الله عليه من أخلاف الرزق ؛ فأقبلوا على الدنيا وأقبلت الدنيا عليهم .

وقد رأى هؤلاء أن الدولة الكبيرة القوية الجانب التى أنشئت لا يمكن أن تساس بنفس الطريقة البسيطة التى كانت تساس بها من قبل ، وأن تطورها محتوم لا مفر منه ، فكيف بأهل الشام والعراق من العرب والفرس والروم وهم يجيئون المدينة عاصمة الإمبراطورية وهم الذين ألفوا أن يروا من جلال الملك الفارسى والرومى ما يجعلهم يصرفون أنظارهم عن دار الحكم التى اتخذ بناؤها من اللبن وقامت على عمد من جذوع النخل وسقفت بسعف الجريد ؟

فإذا وجب أن يبقى المسجد على بساطته فلا بد أن يكون له من مظاهر الهيبة ما يجعل هؤلاء الأجانب على شبه الجزيرة يعظمونه ولا تزور أبصارهم عنه .

وربما وجد المتذرعون بهذا العذر حجتهم فيما احتج به معاوية لعمر بن الخطاب عند قدومه الشام للقائه فى أبهة الملك وزيه وفى العديد والعدة من مظاهر الكسروية بقوله إنه فى ثغر تجاه العدو وبه إلى مباهاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة ، وكيف أن عمر على بطشه وحزمه وتقواه لم يخطئه إذ احتج عليه بمقصد من مقاصد الحق والدين .

فبنفس الحجة أمكنَ لدعاة التطور أن يدافعوا عن حاجة الدولة فى ذلك الوقت إلى التسلح بمظاهر الحضارة والملك لنفس المقصد .

وهكذا لم يكن هؤلاء المسلمون المقبلون على الدنيا يرون بأساً — على سبيل المثال — فى عمارة عثمان لمسجد المدينة على نحوِ ما صنع ، بل لقد رأوا فيه أمراً لائقاً بالحياة الجديدة التى تختلف كثيراً عن تلك التى انتهت بموت الفاروق .

أما أولئك المعرضون عن الدنيا المتعلقون بغضاضة الإسلام وبداوة العرب فقد كانوا أبعد ما يكونون عن أحوال الدنيا وترفها ، فرأوا فى هذا العمل مدعاة للوم ، ومخالفة عما كان عليه النبي والشيخان ، ولهذا كانوا أشد الناس إنكاراً على عثمان . وقد أراد الله أن يكون غاية فى الجود والكرم واللين والسماحة والبذل ، وأن يسلك عماله وكثير من أهل عصره طريقته ويتأسوا به،وها هو ذا يبنى داره فى المدينة ويشيدها بالحجر والكلس ويجعل أبوابها من الساج والعرعر ، ويقتنى الأموال والجنان والعيون بالمدينة ، بله كان له عند خازنه يوم قتل خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم ، وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار ، فضلا عما خلف من الخيل والإبل .

وها هم أولاء أعلام الصحابة وأشراف قريش وقد زاد لهم عثمان فى العطاء وتجاوز ذلك إلى الجوائز والصلات ثم أذن لهم أن يتفرقوا فى الأرض وأن يمتلكوا الأراضى ، فكانت نتيجة ذلك أن ظهرت الملكيات الضخمة التى يحدثنا عنها المسعودى بطريقة تصعب على التصديق ، فقد بلغ الثُّمن الواحد من متروك الزبير بن العوام خمسين ألف دينار ، كما خلف ألف فرس وألف أمة ، وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ، ومن ناحية السراة أكثر من ذلك ، وكان على مربط عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم ، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفاً ، وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع بمائة ألف دينار ، وبنى الزبير بن العوام داره بالبصرة

وكذلك بنى بمصر والكوفة والإسكندرية ، وأيضاً بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج ، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها ، وجعل على أعلاها شرفات ، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن ، وخلف يعلى بن منبه خمسمائة ألف دينار وعقاراً وغير ذلك ما قيمته مائة ألف دينار .

وهذا باب يتسع ذكره كما يقول المسعودى ويكثر وصفه فيمن تملك من الأموال فى أيام عثمان ، ولم يكن مثل ذلك فى عصر عمر بن الخطاب ، بل كانت جادة واضحة وطريقة بينة .

وثمة عامل هام كان له أبعد الأثر فى تطور الأمور إلى ما آلت إليه من سوء العاقبة وهو توقف الفتوح ، وقد كانت من قبل الدافع الأول لقوة العرب وتماسكهم ، فقد شغل العرب عنها بمغانمها ، ولم يروا فى هذه المغانم ما رأى فيها النبي وخليفتاه مادة لمتابعة الفتوح والتهيئة لها ، وإنما رأوا فيها مادة للمتاع والرفه . وقد هيأ توقف الفتوح للعرب فرصة التفكير فى مشاكل السلم .

ومع تدفق أعلام الصحابة إلى الأمصار وهو الأمر الذى أباحه عثمان ولم يأذن به عمر ، تدفقت جماعات عربية كثيرة على البلاد المفتوحة واستوطنوا فيها وانقطعوا إلى هؤلاء الأعلام ، وصاروا أوزاعاً إليهم وأملوهم ، وتقدموا فى ذلك فقالوا يملكون فنكون عرفناهم ، وتقدمنا فى التقرب والانقطاع إليهم فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام ، وأول فتنة كانت فى العامة ليس إلا ذلك .

وعاد عثمان فجنى ثمرة هذا الإجراء بعد ما استبان ضرره ، فقد رأى واليه على الكوفة سعيد بن أبى العاص عندما بدأ الإنكار على سياسة عثمان أن ذلك يرجع فى المحل الأول إلى أن الطارئين والناشئين جميعاً قد تزايدوا فى المصر وبخاصة من هؤلاء الأعراب الذين يقبلون من تلقاء أنفسهم أو يرسلهم الخليفة مادة للجند، وهؤلاء الأسرى الذين كان الفاتحون يصطحبونهم معهم إلى المصر ليقيموا فيه ، وهذا الجيل الجديد الذى ولد من الحرائر وأمهات الأولاد ،

وكل هذه الناشئة قد أخذت تنمو ويظهر أمرها ويكون لها أثرها فى حياة المصر حتى زحموا أهل السابقة وكادوا يستأثرون من دونهم بالأمر .

وكتب سعيد إلى عثمان بهذا فخطب الناس واقترح أن ينقل إلى الناس فيئهم حيث كانوا من بلاد العرب لئلا يقوم فى الأمصار إلا من كان له فى الإقامة فيها مأرب ما عدا الجند إذ ليس من إقامتهم بد . وكتب بذلك إلى الآفاق وكأنه فتح على الناس باباً كان له أبعد الأثر فى حياتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعقلية جميعاً ؛ إذ نشأ عن ذلك ظهور ملكيات ضخمة فى العراق وغيره من الأقاليم واشترى كثيرون كطلحة والزبير ومروان، وكثر النشاط المالى فى ذلك العام من بيع وشراء واقتراض واستبدال ومضاربة ، ولم يقتصر ذلك على الحجاز والعراق بل شمل بلاد العرب كلها والأقاليم المفتوحة جميعاً ، ووجدت الإقطاعيات الضخمة والضياع الواسعة العريضة وقام عليها العاملون من الرقيق والموالى والأحرار ، وظهرت فى الإسلام طبقة جديدة هى طبقة البلوتقراطية التى تمتاز إلى إرستقراطية المولد بكثرة المال وضخامة الثراء وكثرة الأتباع .

وقد تحملت هذه الطبقة مسئولية ضياع الخلافة الإسلامية سواء بسواء كما فعلت اللاتيفونديا فى الجمهورية الرومانية .

فمن الناحية السياسية ملكت قلة قليلة من المسلمين أرض الأقاليم وانقطع الناس إليها وانقسموا بينها شيعاً وأحزاباً ، حتى كانت الكوفة زبيرية الهوى والبصرة طلحية الهوى .

ومن الناحية الاجتماعية نتج عن وجود هذه الطبقة الأرستقراطية وجود طبقة تقوم على خدمتها من الكادحين الذين يعملون فى الأرض ، ووجدت بين هاتين الطبقتين طبقة متوسطة من عامة العرب أكثرها من البدو كانت مادة التنافس والتنازع بين أحزاب الأرستقراطية وشيعها ، وكانت هذه الطبقة تعانى ظلم الأرستقراطية واستئثارها بالفىء والغنائم والأموال ، وقد رأى هؤلاء المحاربون البدو هذه الأموال الضخمة يستأثر بها غيرهم من الحكام والقواد

القرشيين ، ورأوا أنفسهم قد خرجوا من الصحراء يطلبون المجد والغنى فى ظلال السيوف ، فإذا قريش تحتكرها وتحرمهم حتى الغنائم التى كانت تعطى لهم من قبل ، فحقدوا على قريش وعدوها غاصبة وتمنوا زوال سيادتها ، وأعلنوا أن أموال الفىء والغنائم هى لهم وليست للحكومة فهى أموال المسلمين ، وليست كما ادعى الحكام أموال الله .

وكان إجراء عثمان بالإذن لمن أراد أن يبيع فيئه فى الأمصار وأن يستبدل به أرضاً هو الذى أتاح تكوين هذه الطبقة الأرستقراطية ، كما أتاح لمن لم يتمتعوا بامتيازات تلك الطبقة أن يمتلئوا بالحقد والسخط ، فراحوا يستحضرون صورة النبى وصاحبيه ليوازنوا بينها وبين ما هو واقع بهم فإذا واقعهم يبدو مخالفاً تمام المخالفة له ، ومن ثم استشعروا غير قليل من الظلم ، وتأكد لديهم انحراف هذه السياسة عن القصد الذى عرف للإسلام من قبل . ففضلا عن المحاباة التى اتسع نطاقها وتجلت فى صلة الخليفة لرحمه على حساب المسلمين فقد خضع راضياً أو مجبوراً لتأثير بيته وكان الأمويون قد صاروا قريبين من دفة تدبير الدولة أيما قرب ، فكانت رياسة عثمان رياسة لهم إذ اتخذ ابن عمه مروان بن الحكم كاتباً له فى المدينة وترك له الأمر فملأ مروان مناصب الدولة بأهل قرابته .

وقد أحس كبار الصحابة فى المدينة أن بنى أمية يسيرون بمقاليد الأمور بعيداً عن روح الإسلام ومثله ، مما أثار فيهم روح المعارضة حفاظاً على تقاليد الإسلام وحاولوا فى بادئ الأمر أن يحولوا بين الخليفة وبطانته ليخرسوا الألسنة التى بدأت تنكر على عثمان محاباته لهم ، وقد خاض الناس فى ذلك .

وقد نصح له كثير من الصحابة ، ولكنهم أخفقوا فى الحد من سلطان بطانته فلما لم يصلوا عن هذا الطريق إلى غايتهم عنفوا به وأظهروا له الجفاء وتعدى بعضهم الجفاء إلى الإنكار وتغذية سخط الساخطين عليه من العرب وأهل الأمصار ، ومن أبرز الذين عارضوا سياسته عبد الرحمن بن عوف وطلحة وعلى وابن مسعود وعمار .

ولم تكن معارضة هؤلاء الصحابة الكبار إلا صدى للمعارضة الشعبية التى ذاعت بالمدينة وكان مصدرها جماعة المتشددين فى الدين التى نعت على عثمان بعض المآخذ .

ومهما يكن من أمر فقد بدأ التحفز للثورة فى الأمصار أيضاً . إذ كانت ظروف توقف الفتح حافزاً للتفكير فيما آلت إليه سياسة عثمان ، وقد كان فى غنائم الفتوح من قبل ما يلهى عن التفكير فى وضع الحكومة يدها على الفىء والممتلكات فى الأمصار المفتوحة . وقد وصل المحاربون إلى أنهم من غير أن يشعروا تركوا غيرهم أثناء انهماكهم فى الفتوح يستحوذ على خير ما فى الغنيمة وكانت الحكومة بفرضها سياسة الأعطيات قد حققت استقلالا عن الجند وتخلصاً من سلطانهم وأصبح الجيش يعيش من يد الحكومة بعد أن كانت الحكومة تعيش من يد الجيش ، مما جعل المقاتلين يعتقدون أن الدولة غلبتهم على حقوقهم ، وسلبتهم أموالهم فزعموا أن مال الخراج إنما هو لهم وليس للدولة وقالوا إنه مال المسلمين وليس مال الله ، وطالبوا بألا يفرض العطاء إلا لمن قاتل على الفىء من الجند سواء غزا أو لم يغزُ ، أما من عداهم من المسلمين وبخاصة شباب قريش والمدينة المترف فلا حق لهم فى العطاء ، ولو كانوا فقراء فعليهم أن يعملوا، وعلى الرغم من أن عثمان استجاب لهذه المطالب فخطب الناس معلناً أنه على من كان له زرع أن يلحق بزرعه ، ومن كان له عمل فليكتسب من عمله ، وأنه ليس لأحد عنده من عطاء إلا أن يكون من الذين قاتلوا على الفىء أو من الشيوخ من أصحاب رسول الله فإن الفتنة لم تمهله حتى ينفذ هذا القرار .

وقد نشأت من هذه النقطة حركة أبى ذر الغفارى لمواجهة الادعاء القائل بأن المال مال الله بقصد احتجانه عن المسلمين ، وقد أُخرج أبو ذر بأمر عثمان إلى الشام ، حيث أظهر معاوية لعثمان الخوف منه ؛ وحمله إليه فى المدينة ليسيره منفياً إلى الربذة وليحرم عليه أن يودعه أحد من المسلمين حتى إنه ليضيق بعلى لما علم بتوديعه له وكان أبو ذر من أهل الصفة ولا يبعد أن يكون لهذا أثره فى ميوله الاشتراكية . وكان ينكر على الذين يكنزون الذهب

والفضة ويقول : « بشر الأغنياء بمكاو من نار فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم » ، وعنى بالطعن على عثمان لإطلاقه يده فى أموال المسلمين واستعماله أبناء الطلقاء ، وهكذا تطورت معارضته التى كان انطلاقها ذا مفهوم اجتماعى وكراهة فى أن يغنى الغنى ويحتاج الفقير ، وتعقدت فأصبحت ذات اشتباكات سياسية تنقم على الخليفة سياسته فى التولية والعزل وإيثار الطلقاء والأحداث حتى نفاه الخليفة إلى الربذة . كما نشأت حركة عبد الله بن سبأ الذى اتبع فى إثارة المصريين على عثمان أسلوباً خبيثاً إذ دفعهم إلى الطعن على أمراء عثمان على أن يستروا نواياهم بإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فكتب أهل مصر الكتب إلى الأمصار المختلفة فى عيوب ولاتهم ، وكاتبهم إخوانهم فى الأمصار الأخرى فى مثل ذلك . وقد سهل مهمة ابن سبأ فى مصر اشتداد سخط أهلها على حكم عثمان وعلى عامله عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، واهتمام محمد بن أبى حذيفة ومحمد بن أبى بكر بإذكاء نيران السخط فيها .

وفى تلك الأثناء نجمت الفتنة فى الكوفة بقيادة مالك الأشتر وهو من سادة اليمانيين الموالين لعلى بن أبى طالب .

ولم يكن فى أقاليم الإمبراطورية أهدأ من الشام حتى إنها أصبحت تشبه الدولة المستقلة استقلالا ذاتيًّا فقد أخلصها عثمان جميعها لمعاوية وضم إليه فلسطين وحمص فأنشأ له بذلك وحدة شامية بعيدة الأرجاء وجمع له قيادة الجند الأربعة ، فكان جند الشام أقوى جند المسلمين ، وقد أطلق يده فيها حتى أنكر عليه علىّ أنه يقطع الأمور فيها من دونه ويزعم أنه أمر عثمان .

وقد طال عهد معاوية بالشام وأحب أهلها وأحبوه ، فلم يكن لمصرهم بالفتنة سبب من قريب أو بعيد .

وهكذا أطبقت المعارضة على الإمبراطورية كلها تقريباً فى العاصمة وأطراف الأقاليم وفى الثغور التى يواجه فيها المسلمون عدوهم ولم ينج منها إلا ما كان قد سبق منها فى مضمار التقدم والأخذ بأساليب التحضر كالشام ، وهذا إن دل على شىء فإنما يدل على أن المعارضة التى اشتعلت فى وقت واحد فى أرجاء الإمبراطورية إنما كانت أمراً محتوماً دعت إليه ظروف الحياة

الاجتماعية والسياسية وظروف الملاءمة بين أصول الدين وحقائقه وبين طبيعة الحضارة التى اضطر المسلمون إلى لقائها وممارستها آخر الأمر ، وكانت محاور الفتنة فى المدينة ومصر والكوفة والبصرة ، وأصبحت الحال من الحرج بحيث اضطر عثمان إلى ندب أربعة من رجاله ليبحثوا أسباب القلاقل فى الأمصار.

ولكن المعارضة والإنكار لم يتوقفا مما دعا الخليفة إلى أن يبعث فى طلب ولاته فى موسم الحج لسنة ٣٤ هـ ليكشفوا له عن وجوه الفتنة .

ولكن ابن سبأ ينتهز فرصة قدوم ابن أبى سرح على عثمان ليحقق ما كان يرمى إليه من التأليب على عثمان ، وقد قام ابن أبى حذيفة بتنفيذ الخطة التى رسمها ابن سبأ ، وبدأ يطرد من استخلفه ابن أبى سرح من الفسطاط ، وكاتب أهل البصرة والكوفة حتى إنه كان يكتب الكتب على لسان أزواج النبى ويقرؤها فى المسجد . ولم يجدِ إرسال عثمان سعد بن أبى وقاص للتحقيق فى الأمر وخرجت من مصر جماعة قوامها ستمائة رجل تم على يديها قتل عثمان ابن عفان فى المدينة .

ولكن رواية أخرى تذكر أن الثورة التى انتهت بمقتل الخليفة كانت على مستوى الأمصار الثلاثة المعارضة وهو الأقرب للصواب والأليق بما تتحدث به الروايات عن تنسيق العمل فى الولايات الثلاث.

ويمكن أن نتبين تصور عثمان لسلطان الحكم من قوله للثوار إنه لا يخلع قميصاً كساه الله إياه ، فليس فى ظنه من حق المسلمين أن يراقبوه فضلا عن أن يعاقبوه، فهو قد أعطى العهد الذى أعطاه وهو مسئول عنه أمام الله لا أمام الناس ، فليس له أن يخلع قميصاً كساه الله إياه ولا لهم أن يخلعوه عنه ، ولعل بعض معاصريه أيضاً كانوا يذهبون هذا المذهب إذ لم يستبيحوا لأنفسهم مفارقة أمره حتى حين ينحرف عن القصد أو يحيد عن الطريق إذ كانوا يأخذون من الآية الكريمة ظاهر نصها ولا يتأولون قوله تعالى: « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وقد كان موقف أبى ذر وابن مسعود يخضع لنفس التصور .

٣

ولا يختلف اثنان فى أن قتل عثمان يعد أخطر حادث طرأ لى تاريخ الإسلام السياسى والفكرى ، وذلك لأنه فتح باب الفتنة والاختلاف على مصراعيه وجعل الحفاظ على وحدة الجماعة الإسلامية منذ ذلك اليوم أمراً بعيد الاحتمال .

وعلى الرغم من أن عثمان لم يكن أول خليفة قتل فى الإسلام ، إذ قتل من قبله عمر ، إلا أن قتل عثمان يحمل معانى تختلف عن المعانى المستخلصة من قتل عمر من حيث كونه قد تم بأيد عربية مسلحة . فإن كان عمر قد قتل لأسباب ترجع إلى الثأر للقوميات المقهورة التى أزالها الإسلام ، فإن قتل عثمان يرجع إلى الثأر للمبادئ والقيم المثالية التى أتى بها الإسلام نفسه وتعرضت للإهدار وللانتقاص تحت وطأة الإدمان للمثل الجاهلية المتوارثة من العصبية وولاء الدم والقربى والمحسوبية من جانب وقوة التغيرات الاجتماعية الطارئة من جانب آخر.

ولولا ما صحب انتهاء خلافة عثمان من جريمة القتل والعنف الذى تمت به وما يحمل من معانى التجرؤ على مقام الخلافة وهيبة الإسلام الممثلة فى شخص الخليفة لعدت الثورة التى أنهت هذا الحكم انتصاراً رائعاً للفكرة الإسلامية القائمة والمساواة على ما يراد بها من عوامل الوهن والإهدار والتزييف . ذلك أن سياسة عثمان لم تكن سياسة خلافة كتلك التى عرفها المسلمون أيام عمر ولا سياسة ملك كالتى عرفوها من قيصر وكسرى ، وإنما كانت شيئاً بين بين .

وكان الوضع فى الحقيقة كما عبر عنه على فيما بعد لأهل الكوفة عندما قال : « استأثر عثمان فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع » ولم يكن علة هذا إلا أن المجتمع الإسلامى الأول الذى قام حول العقيدة ونما بنموها وخضع لسلطانها أصبح مجتمعاً مختلفاً وخاضعاً أو على وشك الخضوع لسلطان الدنيا، وأوشكت وحدته أن تصدع وتغير كل شيء فيه . ولم يعد هناك تطابق بين المثل العليا

التى كانت تؤمن بها الجماعة وبين واقع حياتها العملية بينما كانا فى العصر السابق شيئاً واحداً .

ولهذا فقد أصبح الوضع بعد مقتل عثمان مؤلماً إلى حد بعيد حتى للمعارضين من أهل الديانة والورع والقوامين على مثاليات الإسلام المتشددين فى تطبيق تعاليمه ؛ فقد أصبحوا بين أن يتراجعوا فيخلوا ، بما أوجبه الإسلام وشدد فيه من إعلان الرأى والدفاع عن الحق بالقول والفعل ، وبين أن ينضموا إلى فريق فيخالفوا أصلا سياسيًّا من أصول الحكومة الثيوقراطية وهو ألا يحارب المؤمن إلا الكافرين وألا يحارب بعضهم بعضاً .

ولهذا السبب أيضاً أصبحت الإجابة عن سؤال : ما رأيكم فى مقتل عثمان ؟ هى التى تكشف عن اختلاف الناس فى آرائهم ، فمنهم من صوبه ومنهم من أنكره ومنهم من توقف عن الحكم فيه وأرجأه إلى الله . ومن أجل هذا السبب نفسه تعلقت القوى الدنيوية من أصحاب الأرستقراطية القرشية بمقتل عثمان فكان لواءها الذى تحارب من حوله فى سبيل تحقيق أغراضها ، فصارت تتنادى من حول قميصه بالثأر وتدعى ولاية دمة من دون المسلمين وليس أدل على ذلك من قول الأخطل فى مدح بنى أمية :

هم سعوا بابن عفان الإمام وهم ... بعد الشماس مروها ثمت احتلبوا

وهكذا يمكن أن نقرر أن أولى النتائج التى تستخلص من مقتل عثمان أنه أحكم وضع المسلمين بين طريقين مختلفتين تمام الاختلاف : تلك التى مهدها النبى ورفع أعلامها الشيخان ويعتمد أساسها على العدل والمساواة بين المسلمين وتنهج نهجاً يقوم على صفاء النفوس وطهارة القلوب ويقظة الضمائر، وتبرأ من الظلم والأثرة والتحكم وتتخذ الدنيا وسيلة إلى سعادة الإنسان فى الدارين ، وطريق أخرى هى طريق الملك الذى يعتمد على القوة والبأس وينهج نهجاً يقوم على الحزم والعسف ويتخذ الدنيا وسيلة إلى زيادة القوة والسلطان وازدهار مظاهر الهيمنة والتحكم حتى يصيبه الضعف والانحلال والذواء ، وتهدف إلى حل مشكلات الدنيا بوسائل الدنيا . ولهذا فان قتل

عثمان لم يكن حلا ثيوقراطيًّا وإنما كان وسيلة دنيوية أفسدت انتصار القيم المثالية التي حوكم إليها عثمان وكان ذلك دليلا مؤذناً على وقوف المجتمع الإسلامي في مفترق الطريقين .

وقد وقعت ثمرة هذه الفعلة الشنعاء في حجر عليّ بن أبي طالب إذ مال الثوار إلى استخلافه . وكان على رأسهم ابن سبأ ، وكان هوى المصريين معه ، وأغلب الظن أنهم كانوا يعملون من أجله وكانت كلمتهم في تلك الساعة المضطربة هي الكلمة الفاصلة .

ولكن عليًّا خشي أن يقبل البيعة من أيد غير بريئة وقدر الموقف حق قدره فلا يزال الهياج والاضطراب قائماً في النفوس ، وأكثر الصحابة متفرقون في الأمصار وليس بالمدينة منهم سوى عدد قليل على رأسهم طلحة والزبير .

وكان بعض الصحابة قد ترددوا في بيعته ، وكان هذا التردد في بيعة على من جانب بعض الصحابة يحمل معنى التشكك في عليّ من حيث كونه — من وجهة نظرهم — مديناً إلى حد كبير في تسنمه الخلافة لقتلة عثمان وإن لم يكن له في حقيقة الأمر ضلع في الفتنة التي انتهت إلى مقتله . ولهذا فقد ظهرت في الحال جماعة موالية لعثمان أخذت تطالب بمعاقبة القتلة ، ولم يكن في مقدور عليّ أن يذعن لطلبهم ريثما يجتمع الناس وتتفق الكلمة ، وأشهر هؤلاء جميعا معاوية ابن أبي سفيان ابن عم عثمان وواليه على الشام وعمرو بن العاص والزبير بن العوام وابنه وطلحة وابنه وسعيد بن أبي العاص ومعاوية بن حديج والسيدة عائشة وغيرهم.

وعلق الذين أحجموا عن البيعة دخولهم فيها بتسليم على لقتلة عثمان ، ورأوا أن بيعته لم تنعقد لافتراق الصحابة من أهل الحل والعقد ، فبيعته لذلك لا تلزم من تولاها من غيرهم ، فالمسلمون حينئذ فوضى ، وإن واجبهم الأول هو المطالبة بدم عثمان ثم يجتمعون بعد ذلك على إمام .

ولم يبال عليّ بامتناع المعارضين عليه ، وبدأ مسعاه جاهداً في إعادة تقاليد الخلافة الدينية الأولى التي سادت زمن النبي والشيخين ، راغباً أشد الرغبة في حمل المسلمين على الطريق المثلى التي ساروا عليها من قبل ، متنكباً

غاية التنكب تلك السياسة التى جمعت بين ملامح الخلافة والملك فى عهد عثمان ، وأوشكت أن تهدر تقاليد الخلافة الدينية وتحيلها ملكاً عضوضاً .

فبادر بعزل ولاة عثمان ولم يصغ لنصيحة بعض الصحابة له بإبقائهم حتى تهدأ الحال وتستقر الأمور .

وهكذا كانت أحوال علىّ فى إصلاح دينه بفساد دنياه وقد لقى علىّ فى كل محاولة لإصلاح العقيدة فساداً لما قدر ودبر ، وإخفاقاً يتلوه إخفاق .

وأمام هذا الإخفاق المتواصل الذى لقيه الإمام لترفعه عن ابتذال القيم الإسلامية واستبدالها بقيم دنيوية تقوم على المنفعة والانتهاز ، وقف بعض المؤرخين وبخاصة الذين لا يقدرون تلك القيم الرفيعة حق قدرها ، موقف النقد العنيف لشخصية علىّ فعدوه رجلا ينقصه حزم الحاكم ودهاؤه وتعوزه الحنكة السياسية . ذلك أن السياسة والجهاد أصبحا من الأهداف الدنيوية التى يتوسل إليها بالدهاء والمكر بعيداً عن المروءة والصدق، وقد كان خصومه رجالا دنيويين لا يبالون أمراً ولا نهياً من أوامر الدين ونواهيه، إذ أصبحوا فى زمان — على حد قوله — اتخذ أهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل فيه إلى حسن الحيلة .

ولهذا الحرج أصر علىّ على عزل ولاة عثمان كخطوة أولى للعمل بعد توليه أمر المسلمين . ثم اختار عماله اختياراً حسناً .

وقد سخط عمال عثمان المعزولون عليه غاية السخط ، ولكنهم أطاعوا أمر العزل إلا معاوية بن أبى سفيان الذى مكنته ثروة بلاد الشام وقوتها وطول إقامته فيها من تكوين حزب قوى فيها يناصره ضد أعدائه ويحميه جيش يعد من أقوى جيوش الولايات الإسلامية فى ذلك الحين .

وقد رأى بعض المؤرخين أن عليًّا كانت تنقصه الحنكة السياسية فى هذا العزل وبخاصة بالنسبة لمعاوية، لأنه أقام بالشام ملكاً هرقليًّا بدأ التمهيد له بنو أمية قبل الإسلام بجيلين متعاقبين .

وقد ضم إليه عثمان سائر الشام وألحق به أقاليمها من الجزيرة إلى شواطئ بحر الروم ، فلما قتل عثمان كان قد مضى على معاوية فى ولاية الشام عشرون سنة لم يبق فيها من ينازعه أو يعصيه وليس غير صنائعه وأشياعه المستقرين فى كنفه لحرصه أثناء ولايته الطويلة على إبقاء من يواليه وإقصاء من يخالفه ، وكان عثمان يسمع الأقاويل عن ولاية الشام والمطالبة بعزل واليها فيعتذر بأنه ممن ارتضاهم عمر لعمله .

ولم يكن عمر يرى من مظاهر الأبهة التى اصطنعها معاوية إلا النزر اليسير الذى يسوغ له الاحتجاج بمقامه بين أعداء ألفوا الأبهة واتخذوها آية من آيات القوة والمنعة ، على أنه كان يؤدى لعمر حسابه قانعاً برزقه من بيت المال بمبلغ لا يتجاوز مائة ألف دينار فى العام . فلما بويع عثمان وأصغى له سائر الشام رخص لمعاوية أن يزرع الأرض التى تركها أصحابها ، ووضع معاوية يديه على موارد المال التى تقوم بأعباء دولة أوشكت أن تقوم وحدها مملكة مستقلة يتولاها ملاك مستقل إلا فيما يأتيه من أوامر الخليفة بشأن تحصين الثغور وتسيير الجيوش .

ولهذا يجد بعض المؤرخين علياً قد أخطأ فى مطالبة معاوية بالاعتزال ، وهو على هذه الصورة من التمكين لنفسه والقوة لولايته وحزبه الذى أنشأه فى الشام وجنده الذى هو طوع أمره حيث يلقى به ، ولكن علياً لم يكن ليستثنى أحداً مخافة الإضرار بدينه ومثله ، ولم يكن ليقر معاوية وقد أشار على عثمان بعزله مراراً وكان إقراره وإقرار أمثاله سبب السخط على عثمان ، ولأن معاوية لم يكن يرنو إلى أن يقر فى ولايته فحسب وإنما وقد وطد لنفسه على هذه الشاكلة فى الشام فإن أى إقرار له لم يكن لينسيه هدفه الذى انتهز له فرصة مقتل عثمان ولم يكن ليضيعها .

ومن هذا المنطلق بدأ معاوية العمل ، وكان يلى معاوية فى السخط على علىّ الصحابيان الكبيران طلحة والزبير وهما أول من بايع علياً ، ولكنهما انقلبا عليه انقلابا غريباً . وعلى الرغم من أنهما لم يألوا جهداً فى الكيد لعثمان ،

فإنهما انقلبا على علىّ واتهماه بأنه الذى دبر مقتل عثمان وأنه المستفيد منه. فتركا المدينة وانتقلا إلى مكة حيث كانت السيدة عائشة قد انسحبت من الثورة على عثمان بعد أن اشتركت فيها اشتراكاً قويًّا ولم يكن على ليسمح باستثناء طلحة والزبير أيضاً ولا أن يوليهما اليمن والعراق كما أشير عليه اتقاء للفتنة ففى العراق واليمن الرجال والأموال ومتى تملكا الناس استمالا السفيه بالطمع وضربا الضعيف بالبلاء ولم يكن ليفلح فى ضرب أحدهما بالآخر لما فى ذلك من خروج على التزامه بمبادئ الحق والعدل فضلا عن كونهما كانا مختلفين فيما بينهما واتفقا على الرغم من خلافهما على حربه .

واستأذن طلحة والزبير عليًّا فى الخروج إلى مكة للعمرة فأذن لهما ، وإن لم يخف عنه أمرهما ، وبدآ اتصالاتهما بزعماء البصرة وحاولا استمالة عبد الله بن عمر ولكنه كان يرى فى القعود نجاة وخيراً ، وفى قعود السيدة عائشة بالذات محافظة على مالها فى نفوس الناس وإشفاقاً من تفرق كلمتهم وذهاب ريحهم .

ولم يصغ طلحة والزبير لنصح الناصحين ، وخرجا فى سمائة رجل تصحبهما السيدة عائشة إلى البصرة ، وكان لهما فيها صنائع ولأهلها هوى فى طلحة .

ولما أعلن أهل البصرة انضمامهم للثائرين استنجد علىّ بأهل الكوفة المضريين فى القتال ووعدهم أن يتخذ بلدهم قاعدة لدولته إذا هم لبوا نداءه فأجابوا دعوته ، وكان الأشتر قد مهد الأرض هناك فسار علىّ نحو البصرة ، والتقى الجيشان فى مكان يقال له الخريبة فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ ، ونشب القتال وعائشة راكبة فى هودجها على جمل لها يسمى عسكراً ، وتم النصر لعلىّ وأهل الكوفة وتمت الهزيمة على الثوار وأسرت عائشة ومروان بن الحكم وقتل طلحة فقد رماه مروان بسهم لما كان يتهمه بالتحريض على قتل عثمان ، وانصرف الزبير إلى المدينة فقتله ابن جرموز فى الطريق وبقيت عائشة فى هودجها إلى الليل حيث أدخلها محمد بن أبى بكر إلى البصرة وسأل علىّ عائشة أترتحل إلى المدينة فوافقت وجهزها وسير معها أولاده مسيرة يوم

وشيعها الناس ، وقد بلغ عدد القتلى فى يوم الجمل بين عشرة آلاف من الفريقين .

وقد صور الشعر المعركة تصويراً دقيقاً معجباً . وعقب وقعة الجمل ولى علىّ ابن عباس على البصرة وسار إلى الكوفة فاتخذها عاصمة له ، ومن هناك نشر سيادته على جزيرة العرب كلها ما عدا الشام ، وكان لها مركز انفردت به لأن معظم العرب الذين يقطنونها لم يذهبوا إليها مهاجرين كغيرهم وكان لهم تقاليد غير تقاليد أهل العراق ، إذ كانوا واقعين تحت تأثير اليونان والرومان ، وكانوا قبل الإسلام تابعين للغساسنة متعودين على النظام والطاعة فرضوا عن أميرهم كل الرضا وأيدوه فى امتناعه عن بيعة علىّ ، على الرغم من عدم استحقاقه لأن يساميه تطلعاً إلى الخلافة التى لم يطلبها وكان شعاره الذى رفعه هو الثأر لابن عمه الخليفة المقتول لما لديه — دون جميع أقرباء عثمان — من الوسائل الكفيلة بالوصول إلى ذلك .

وقد ظهر بوضوح بعد الفراغ من الجمل أن النزاع قد انحصر الآن بين حزبين اثنين حزب علىّ بن أبى طالب رأس بنى هاشم ، وحزب معاوية ابن أبى سفيان رأس بنى أمية ، ولم يكن العداء بين هذين الحزبين وليد ظروف مقتل عثمان ، وإنما هو عداء قديم قدم الإسلام وما قبل الإسلام .

وقد نظر معاوية فإذا هو وافر القوة لم يتورط فى حرب الجمل ولم يكشف عن نواياه ، وكل ما هنالك أنه طعن فى شرعية خلافة علىّ ، ورفض أن يعتزل حتى يجيبه إلى الثأر لعثمان ليس غير ، وفى تلك الأثناء توجه علىّ إلى الكوفة ووجه بجرير بن عبد الله البجلى إلى معاوية يدعوه إلى بيعته والدخول فى طاعته ، وكأنه يتحقق مما بلغه من أن معاوية قد حشد له واستعد لقتاله بجند الشام وزوده بكتاب يعلمه فيه باجتماع المهاجرين والأنصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من أمرهما ، فاستنظره وماطله حتى كتب إلى عمرو بن العاص يستشيره ويطلب قدومه .

ولما قدم عمرو أشار عليه أن يلزم علياً دم عثمان وأن يحاربه بجند الشام

إذا أبى واشترط عليه أن تكون له ولاية مصر طعمة نظير مساعدته له ضد علىّ وأخذ معاوية ينتظر عليًّا فى ثبات وثقة .

وقد أظهر معاوية أمام رسول علىّ مدى الحسرة التى أصابت أهل الشام بمقتل عثمان وحرقة بكائهم على قميصه المنشور فوق المنبر فى مسجد دمشق وأصابع زوجه التى قطعت وهى تدافع عنه ، وعند عودة جرير سار علىّ من الكوفة على رأس جيش موتور بعد أن خاض حرباً منكرة يوم الجمل قتل فيها من شيعته ومن عدوه خلق كثير وكانت عدة جيشه تسعين ألفاً بينما سار معاوية فى جيش موحد وافر القوة والعدة يبلغ عدده خمسة وثمانين ألفاً .

وسبق معاوية فعسكر فى موضع سهل على الفرات بينما نزل علىّ على البروبات وجيشه ظمآن بعد أن حيل بينه وبين الماء وسبق القتال مفاوضات غير مثمرة بواسطة رجال لم يكونوا يصلحون رسل صلح لشدتهم مما وسع مسافة الخلف بين الفريقين .

وكان معاوية مصرًّا خلال المفاوضات على تسليم قتلة عثمان ومعاقبتهم .
وفى غرة صفر ٣٧ هـ بدأ القتال بين علىّ ومعاوية على اختلاف فى الدافع والغرض والصورة فقد كان أشياع علىّ يرون القتال معه ديناً ، ويتقربون به إلى الله ويذكرون مكانته من النبى وأنه مولى كل من والى رسول الله وعدو لكل من عاداه ، غير أن جيش علىّ لم يخل من رجال كانت الدنيا هدفهم وكانوا يندمون فى دخائل نفوسهم على تلك الأيام الهنية التى قضوها فى عهد عثمان ينعمون بصلاته وجوائزه ويتطلعون إلى الدنيا التى يبرق زخرفها ذهباً يسيل من كفى معاوية من مثل الأشعث بن قيس الكندى الذى حامت حوله شبهات الاتفاق مع أهل الشام بسبب موقفه المتناقض فى صفين ، فكان فى جيش علىّ أهل الكوفة وبعض أهل البصرة ممن وفى له يوم الجمل وممن اعتزل الناس ومن انهزم بعد مقتل طلحة والزبير فكانوا بين مخلص ومدخول .

على أن أصحاب معاوية جميعاً على الرغم من اختلاف دوافعهم كانوا مجمعين على الإخلاص له ، وكانوا يظهرون أن بيعة عثمان فى أعناقهم وأن الذين قتلوه أحدثوا فى الإسلام حدثاً خطيراً واستحلوا من دمه ما حرم الله ،

وكان فريق منهم يقاتلون بهذا الدافع غضباً للدين بينما كان فريق آخر منهم يقاتلون بدوافع أخرى لا ترجع للدين وإنما للعصبية التى كانت استجنت ثم عادت بفعل تطور الحوادث إلى الظهور من جديد .

وهكذا غلب على قوم دينهم فقاتلوا قتال المؤمنين الصادقين ، وغلب على قوم دنياهم فقاتلوا لاحتيازها قتال الطامعين . وكان فى الجيشين من هؤلاء ومن أولئك كثيرون وإن غلب على جيش علىّ أصحاب الدين وعلى جيش معاوية أصحاب الدنيا ، وكأنما انقسم المجتمع كله قسمين متمايزين ومتقابلين ، فى القسم الأول كل عوامل السخط والتذمر من النظام الذى ساد عصر عثمان ، والتحفز لتقويضه ، وفى القسم الثانى كل عوامل الرضا عن نفس هذا النظام والرغبة فى إبقائه وتدعيمه .

كان مع علىّ الثوار الذين اشتركوا فى مقتل عثمان بزعامة عبد الله بن سبأ الذى أعلن تشيعه لعلى منذ زمن بعيد ، وكان وجودهم فى جيشه مبرراً كافياً لأن تحوم حوله الشبه التى تبرر اتهامه بالاشتراك فى دمه ، وكان معه رجال البادية الذين نفسوا على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة ونظروا إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثر بجاه الدين والدنيا ، وما كان الولاة يباهون ويجهرون به من السطوة والسلطان فعل سعيد بن أبى العاص والى الكوفة وما كانوا يظهرون من السخرية بتزمت الأتقياء وبساطتهم .

وكان مع علىّ العبيد والموالى والأعراب المحرومون ، وهؤلاء كانوا حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعدما تعلموا من الإسلام حقوق المساواة والعدل والإنصاف ، وبعد أن حرموا هذه الحقوق التى كفلها لهم نظام الولاء والعروبة أول العهد بالإسلام .

وكان فى جيش علىّ أيضاً جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة وهم كثيرون يعدون بالآلاف ويتفرقون فى الحواضر والبوادى ، ولا يزالون كأنبياء إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين منكرين لكل خلاف ولو يسير فى إقامة أحكام الدين ولا يرضون عن الدنيا ولا عمن

رضى بها من طلابها ، ولا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون فى رأيهم وفاقاً لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما يعتقدونها ، فهؤلاء الجند المتزمتون لا يعرفون لهم قائداً غير القرآن كما يفسرونه والسنة كما يعتقدونها فلا يطيعون إلا ما أجازوه ، ويصغون إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير .

ولقد كان فى جانب علىّ بعض كبار الصحابة الذين انطلقوا فى عهد عثمان ورأوا الدنيا ورأتهم واقتنوا الضياع والمال وأصبحوا بالنسبة لعلىّ عنصراً قوياً من عناصر القلق والتبرم وتوجيه السخط والشكوى ، ذلك أنهم عرفوا علياً قبل الخلافة رجلا شديداً حتى على نفسه فعلموا أنه لن يقرّهم على ما هم فيه ، ولن يغض نظره عما بأيديهم لأن الأنظار المفتوحة التى ثارت بعثمان بايعت علياً ليصنع غير ما صنع عثمان ، فلا أصحاب الدين مطيعون ، ولا أهل الدنيا راضون ، فضلا عن أن دولته على اتساعها لم تكن تستطيع أن تعول نفسها إذ أن مواردها من غيرها بينما كانت موارد الشام فى الشام، وأهل الشام مهما كانت ألوانهم واتجاهاتهم مطيعون راضون إلى أبعد حدود الطاعة والرضا حتى لايفرق الواحد منهم بين الجمل والناقة ما دام كرم الأمير وثروة الشام يسعان كل صاحب حاجة وييسران أسباب التمكين والتدعيم ، ويمنعان أسباب التمرد والسخط .

فلم يكن أشبه بقيادة معسكر المنافع من معاوية ، ولم يكن أشبه من على بقيادة معسكر التشدد والصرامة والشكوى والسخط ، وهى ألوية رفعها معسكره طامحاً بها إلى التغيير ، وإن كان طموح علىّ لم يتحول عن الرجوع بالمسلمين إلى نقاء الإسلام وبكارته ومثالياته .

لم تكن المسألة إذن بين علىّ ومعاوية خلافاً على أمر ينحسم فيه النزاع بظفر أحدهما ، ولكنها كانت خلافاً بين نظامين متقابلين ، ومجتمعين متنافسين كانا فى الأصل مجتمعاً واحداً تكون بعد نشأة الدولة الجديدة على نظام جديد أساسه الثروات المجلوبة من الأمصار المفتوحة والولايات التى تولاها بعض أفراد الطبقة الرأسمالية من العلية القرشيين فى عهد عثمان . ولكنه ينقسم لعهد الإمام إلى مجتمعين فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام والرغبة فى بقائه ،

وفى الآخر كل عوامل التذمر منه والتحفز لتمويضه ، كانت المسألة على أصدق تعبير خلافاً بين معسكرين متنافسين : أحدهما يتمرد ولا يستقر والآخر يقبل الوضع المستحدث ويميل إلى البقاء فيه والاستقرار ، أو هى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى على وصحبه والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية وصحبه وهذه هى العلة الكبرى التى تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة .

ولهذه العلة — الصراع بين الخلافة الدينية والدنيوية — كانت بداية الأمر عندما أخذ علىّ يجند قوى الخلافة الدينية منذ أول لحظة فعزل الولاة الذين أسخطوا على عثمان ، ورد القطائع التى وزعها على بطانته ، ورجع إلى خطة أبى بكر وعمر فى إمساك الصحابة عن الطموح إلى الإمارة والافتتان بالدنيا فرفض إجابة طلحة والزبير إلى ولايتى العراق واليمن ، وأغضبت سياسته منافسيه من طلاب المنفعة الدنيوية على يديه ، ولهذه العلة وبسببها وقف طلاب المنفعة فى وجه بيعته ؛ وانتظمت صفوف الحجاز له أو عليه ، فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية والمتذمرين لأسباب دنيوية ، وكان عليه جميع المنتفعين من نظام عثمان والذين يأملون فى استمرار هذا النظام ويشعرون بأن الخلافة الدينية تحول بينهم وبين ما يطمحون إليه .

وظلت الاشتباكات فى صفين بين الفريقين أياماً تسعة ، وابتدأت برسالة بعث بها علىّ بعد غروب شمس اليوم الآخر من المحرم الذى تهادنوا فيه توقيراً للشهر الحرا بعد أن تغلب جيش علىّ على مكان الماء . وقد دعا علىّ فى رسالته إلى الاحتجاج بكتاب الله ، فلم يردوا عليه جواباً إلا السيف ، وبدأ الأشتر القتال .

وكان فى جماعة من القراء يعملون سيوفهم فى أهل الشام حتى أكثروا فيهم القتل وأثخنوهم بالجراح وظلت المناوشات والاشتباكات إلى أن كانت ليلة الهرير فاستحر القتال وحامت الهزيمة حول جيش الشام وهمّ جنده بالفرار ، وحينئذ نادت مشيخة أهل الشام : الله الله فى الحرمات والنساء

فاستشار معاوية عمرو بن العاص فأشار برفع المصاحف اقتداء بما فعله علىّ يوم الجمل حين بعث إليهم رجلا من أصحابه يقال له مسلم ومعه مصحف يدعو إلى الله ويناشدهم الله فى الدماء فرموه بسهم فقتلوه . واقتداء أيضاً بما فعلته السيدة عائشة فى ذات اليوم عندما أبرزت أمام هودجها كعب بن سور القاضى متقلداً مصحفاً فقطعت يده بين سبعين رجلا على خطام الجمل .

ونادى عمرو فى أصحابه : « أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه على رمحه » فكثر رفع المصاحف وارتفعت الضجة وتنادوا : كتاب الله بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق ، ومن للروم ومن للترك ومن للكفار . ورفع جند معاوية نحواً من خمسمائة مصحف .

فلما رأى كثير من أهل العراق ذلك مالوا إلى إجابتهم إلى كتاب الله ، وأحبوا الموادعة وقيل لعلىّ إن معاوية قد أعطاه الحق ودعاه إلى كتاب الله ، وحثوه على أن يقبل منه ، وكان أشدهم فى ذلك الأشعث بن قيس ، ولكن الأشتر — وكان قاب قوسين أو أدنى من النصر — رفض إجابتهم ، فاحتج الأشعث بماصيرتهم إليه الحرب من كلال وقرح ، وحاول علىّ أن يقنع من مال من جنده إلى الموادعة بأن أهل الشام ما رفعوا المصاحف إلا خديعة ودهاء ومكيدة . وكان لهذه الخدعة أثرها على جيش علىّ الذى تسوده روح التذمر وتنقصه روح الطاعة ، ولا ينقصهم التعجل ، وذلك أن الثوار منهم قد انساقوا لقتل عثمان تحت تأثير الروح المثالية الإسلامية وتحت هذا التأثير حاربوا يوم الجمل ، وهم الآن مسوقون لحرب أهل الشام تحت نفس الدافع وإذن» فالجماعة الإسلامية قد انشقت على نفسها فمن الذى منهم على الحق ؟ ولما كان هذا الموقف المتلبس قد تبين لهم فى ساعة مضطربة على صورته الواضحة فإنهم اضطربوا وتحيروا فكان أهل الدين الموجودون فى المقدمة أول من خفض السلاح أمام القرآن فحذا الآخرون حذوهم وأجبروا عليًّا على الكف عن القتال ، وعلى ألا يجعل تقرير أمر الخلافة للسيف بل للقرآن .

وكان على علىّ أن يوقف القتال . واقترح الأشعث على علىّ أن يلقى معاوية فيسأله ما يريد وأتاه فكان جوابه أن يرجع الجيشان إلى كتاب الله وأن يبعث كل فريق برجل يرضاه ويختاره ، فيؤخذ على كل منهما العهد والميثاق أن يعملا بما فى الكتاب لا يخرجان عليه ، على أن ينقاد الفريقان إلى ما يتفقان عليه من حكم الله . وتبنى الأشعث الاقتراح وعرضه على أهل العراق فأبدوا موافقتهم عليه فوراً دون استشارة علىّ ، ووقع اختيار أهل الشام على عمرو ابن العاص بينما اختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى ، وعبثاً حاول علىّ أن يحتج على اختيارهم لأبى موسى وكان علىّ يفضل اختيار عبد الله بن عباس ولكن الأشعث رفض أن يحكم مضرى فعدل علىّ إلى الأشتر ولكن الأشعث احتج بأن الأشتر هو الذى أهاج الأمر وسعر الأرض فقال علىّ آخر الأمر : « اصنعوا ما شئتم الآن وافعلوا ما بدا لكم أن تفعلوه » .

ويبدو أن أهل العراق كانوا قد سئموا القتال وأرادوا رجلا ليناً ليشترى لهم السلم بكل ثمن ممكن ، ولهذا اختاروا أبا موسى لأنه كان محايداً ولم يكن يخفى حياده ، وقد عرف عنه هذا الحياد واحتج علىّ بسببه وحده على اتخاذه حكماً .

وفى الثالث عشر من صفر سنة ٣٧ هـ وضعت اتفاقية بين أبى موسى وعمرو تجعل علياً يخضع لما خضع له النبى فى مناسبة مشابهة يوم الحديبية وبمقتضاها يتوقف الفريقان عن القتال ويلجآن إلى تحكيم القرآن فى الخلاف الناشب ، وقد وقع بذلك أبرز رجال الجيشين المتحاربين .

أما الأشتر فقد رفض ذلك رفضاً باتاً ، وشدد النكير على الأشعث الذى استمر يلعب دور الوسيط المتحمس فى وساطته ، وبعد الفراغ من وضع المعاهدة ، ركب ودار فى المعسكر ليعلن مضمونها للجميع حتى بلغ جمعاً من بنى تميم البصريين فيه جماعة من زعمائهم منهم عروة بن أدية فقرأها عليهم وجرى بين الأشعث وبين أناس منهم حوار حول تسببه فى إيقاف القتال عن عدوهم وما كان لهم أن يوقفوه قبل أن يفيئوا إلى أمر الله ، وهنا

بدا كما لو كان عروة قد أدرك فجأة أن هذه المعاهدة التى تبنى الأشعث فكرتها قد جعلت أمر الخلافة معلقاً بين يدى رجلين فصاح مغضباً « أتحكمون فى دين الله وأمره ونهيه الرجال ؟ لا حكم إلا لله » ، وشد بسيفه على الأشعث الذى ضم فرسه عن الضربة فوقعت فى عجز الفرس ، وصاح به قومه من التميميين أن أملك يدك فرجع ، وغضب للأشعث قومه وناس كثير من أهل اليمن ، وكادت العصبية أن تقع بين النزارية واليمانية .

أدرك جند علىّ أنهم قد خدعوا عن النصر خدعة تعسة ، وكان أشدهم ندماً أولئك الذين كانوا أول من وقع فى شرك الخديعة فأضلوا غيرهم وتأثموا لأنهم سمحوا للاضطراب أن يدخل إلى إيمانهم ، وللحيرة أن تتطرق إلى اعتقادهم بمشروعية العمل الذى قاموا ويقومون به ، ثم لم يجدوا ليبرروا انخداعهم غير أن يلوموا علياً هو الآخر لأنه تهاون وقبل التحكيم ، وأنه بهذا قد جعل القضية العادلة التى حارب من أجلها موضع شك ، وتسبب هذا فى أنه ترك أمر الخلافة إلى هوى حكمين من البشر فدب النزاع العنيف بين من رأى هذا الرأى وبين أنصار علىّ المخلصين ، ولاموهم على تأييدهم له حتى فى أخطائه السبيل واتهموهم بأنهم ليسوا إلا عبيداً شأنهم شأن أهل الشام الذين اتبعوا معاوية فى كل الأحوال دون أن يتساءلوا ما إذا كان على صواب .

وكان هذان الفريقان اللذان تمخضت عنهما حادثة التحكيم هما النواة الحقيقية للفرقتين اللتين عرفتا فيما بعد باسم الشيعة وهو الفريق الذى وافق علياً وبقى على طاعته ونصرته والولاء له ، والخوارج وهم الفريق الذى خالفه وشق عليه عصا الطاعة وقلب له ظهر المجن .

وقد طلب المخالفون لعلىّ أن يبادر بالرجوع عن الخطوة التى كانوا هم أنفسهم أجبروه على أن يخطوها ، وأن ينقض المعاهدة التى عقدها مع أهل الشام ، فلما لم يكن فى استطاعته أن يتبعهم ولا أن يتأرجح وفقاً للنغمة التى يضربونها خرجوا عليه .

وكانت عودة أهل العراق إلى الكوفة عودة أشد إيلاماً من عودة جيش

مهزوم بين الندم على ضياع النصر وشكوى أهل القتلى وسخرية العثمانية وتباغض القوم جميعاً ، فتبرأ الأخ من أخيه والابن من أبيه ، وتضاربوا بالمقارع ونعال السيوف وتسابوا ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه وضرب المخالفون ضربتهم فلم يعودوا مع جيش علىّ إلى الكوفة ، وإنما انحازوا إلى قرية تدعى حرورى أو حروراء بظاهر الكوفة تحت شعارهم الذى رفعه عروة بن أدية لأول مرة بأن لا حكم إلا لله وأذن مؤذنهم أن على الحرب شبث ابن ربعى وعلى الصلاة عبد الله بن الكواء اليشكرى ، وأن الأمر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وبدأت المفاوضات بين علىّ وهؤلاء الخارجين عليه ، فكانوا يوفدون الوفود لمناظرته ودعوه إلى استئناف القتال مع عدوهم من أهل الشام فكان يرد عليهم بأنهم هم الذين كرهوه وجزعوا منه وبأنه أعطى معاوية ميثاقاً على القضية ، وأرسل إليهم ابن عباس فى جماعة من أصحابه ، فناظرهم فيما نقموا على علىّ فقالوا إنه تحكيمه الحكمين فاحتج بأن الله أمر بالتحكيم فى الصيد الذى يصيبه المحرم ، وأقر بتحكيم حكمين بين الزوجين إن خيف بينهما شقاق ، وهذه أمور يسيرة فكيف بكبار الأمور التى تمس اجتماع الأمة ، فردوا احتجاجه بأن النص على الأحكام لا تجوز المخالفة عنه ولا التغيير فيه ، وأمر الله فى معاوية وأصحابه واضح فى آية الطائفة الباغية لأن بيعته صحيحة فلم يكن له أن يقبل التحكيم مع فئة باغية خرجت عليه بل كان خليقاً أن يمضى فى حربهم حتى يفيئوا إلى أمر الله ، ويدخلوا فيما دخل فيه عامة الناس .

وقد خطبهم صعصعة بن صوحان من أصحاب ابن عباس ووعظهم وخوفهم الفتنة ويقال إن ألفين عادوا إلى الكوفة مع ابن عباس ، وقيل بل أربعة آلاف وقيل لم يرجع معه أحد .

وخرج إليهم علىّ بنفسه لما لم يغن عنه ابن عباس فجادلهم وأوضح لهم أنه لم يكره قتال عدوه وإنما هم الذين كرهوه ، وأنه نهى عن التحكيم بادئ

الأمر فرد عليه رأيه فلما لم يكن بد اشترط على الحكمين أن يحكما بما فى كتاب الله ، فإن فعلا فليس لأحد أن يخالف عن حكم القرآن وإن لم يفعلا فحكمهما لا يلزم أحداً . وأجابهم عن تحكيم الرجال بأنه حكم القرآن وهو خط مستور بين دفتين لا ينطق وإنما يتكلم به الرجال ، واحتج على إمكانه رفض الحكومة بأنه كره أن يتأول عليه الناس قول الله عز وجل: « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون » أو أن يتأولوا عليه آيتى الصيد والشقاق ، وأجاب على اعتراضهم عليه عدم إثباته أنه أمير المؤمنين بصحيفة المعاهدة بما حدث لرسول الله يوم الحديبية ، واستطاع علىّ أن يقنعهم برأيه وطلب إليهم أن يدخلوا مصرهم حتى ينتهى الحكمان ففعلوا .

ودخلوا إلى الكوفة جميعاً ، ولكنهم دخلوها وبينهم وبين على توجس وارتقاب وسوء فهم، يرى علىّ أنه قد أقنعهم بقبول الحكومة وانتظار ما ينتهى إليه الحكمان ويرون هم أن علياً قد قاربهم أشد المقاربة وأنه لا ينتظر إلا أن يستريح الجيش ويسمن الكراع ويجدد السلاح ثم ينهض بهم إلى عدوهم .

ويبدو أنهم تحدثوا بشىء من هذا فذاع حتى بلغ معاوية فأرسل من يستنجز علياً الوفاء ويحذره ، وكذّب علىّ ما أرجفت به المحكمة من عدوله عن الحكومة . وعاد الأمر مع المحكمة إلى ما كان عليه .

وأخذو يستثيرونه بشتى الطرق فكانوا ينادونه وهو على المنبر : جزعت من البلية ورضيت بالقضية وقبلت الدنية لا حكم إلا لله ، فيقول : حكم الله أنتظر فيكم ، فيقولون : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين » فيقول علىّ : « فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون » .

واعترضه أحدهم يوماً وهو يخطب فقال له يا علىّ أشركت فى دين الله الرجال ولا حكم إلا لله فقال علىّ : الله أكبر كلمة حق يراد بها باطل

أما إن لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم على أيدينا ولا نقاتلكم حتى تبدؤونا ، ولكنهم أمعنوا فى إحراجه واعتزاله وخرجوا عن الكوفة مغاضبين له وقد أكفروه .

وبعث علىّ بأبى موسى وأوصاه بأن يحذر عمرو بن العاص وأوصاه أيضاً بأن يذكر أن عليًّا بايعه من بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان وأن ليس فيه خصلة تباعد بينه وبين الخلافة ، كما أن ليس فى معاوية خصلة تقربه منها ، وأن عليًّا أكره على اختياره لأن الناس أبوا غيره وهو لم يرض به لفضل له على غيره بينما أوصى معاوية عمراً بأن أهل العراق قد أكرهوا عليًّا على أبى موسى ولكنه وأهل الشام راضون بحكمه ، وعليه أن يستغل قصر رأى خصمه ، وبعث معه بسعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر والمغيرة بن شعبة وغيرهم ممن تخلف عن بيعة علىّ واجتمع الحكمان فى رمضان سنة ٣٧ هـ وكان عمرو يملى بينما كان أبى موسى يجيز واتفقا ألا يكتبا شيئاً إلا باتفاقهما معاً .

ونجح عمرو إذ جعل أبا موسى يقر بأن عثمان قتل مظلوماً وبأن معاوية صاحب الحق فى دمه ، بل نجح فى أكثر من ذلك حينما اتفق الحكمان على خلع علىّ ومعاوية بن أبى سفيان الذى لم يكن قد بويع حتى يخلع ، والشىء الذى لا خلاف عليه أنهما حرصا على ألا يردا الأمة إلى الحرب ، فاستبعدا الرجلين معاً وردا السلطان إلى الأمة ، ثم ظهرا ليعلنا للناس ما اتفقا عليه ، فقام أبو موسى فأعلن أنهما اتفقا على خلع علىّ ومعاوية معاً ورد الأمر شورى بين المسلمين ، وعلى هذا تتفق كل الروايات إلا أنها تختلف بعد ذلك فيزعم المسعودى أن أبا موسى أعلن استخلاف عبد الله ابن عمر وأطراه للناس ورغب فيه فقام عمرو فأعلن أنه يخلع عليًّا كما خلعه صاحبه وأخرجه من الأمر الذى يطلب وهو أعلم به ، وأنه، أى عمراً يخلع عليًّا معه ، ويثبت معاوية .

وفى رواية أخرى أنهما اتفقا على خلع علىّ ومعاوية وجعل الأمر شورى

يختار الناس رجلا يصلح لأمرهم ، فقدم عمرو أبا موسى فخلع الرجلين ليستقبل الناس أمرهم ، وقام عمرو فخلع علياً وأثبت معاوية .

وهكذا يبدو أن الروايات رغم تضاربها تتفق على شيء واحد هو تبييت النية على خلع علىّ فحسب ، ومساواة علىّ بمعاوية فى الخروج من الأمر فهدف هذه الخديعة لا يخرج عن كونه الحرص على إخراج علىّ من الأمر ، وقد نجح فيه عمرو إلى حد بعيد .

ولعله واضح أن التحكيم برمته لم يكن ليبدل شيئاً فى عواقب النزاع الحتمى الذى دب بين الاتجاهين المتعارضين سواء اتفق الحكمان على خلع علىّ ومعاوية معاً أو اتفقا على خلع أحدهما دون الآخر أو لم يتفقا على شيء من ذلك ، ففى كل هذه الحالات كانت العواقب صائرة إلى ما صارت إليه بلا اختلاف ، وكان المعسكران يمضيان فى طريقهما الذى مضيا فيه ، فلا يسلم أحدهما لصاحبه برأى يمليه عليه الحكمان ، متفقين أو غير متفقين .

وهكذا لم تكن دومة الجندل والتقاء الحكمين فيها إلا مكاناً وزماناً مناسبين للإعلان الرسمى عن خروج الأمر عن علىّ وبنى هاشم وعودة السلطان إلى الأمة من جديد كما كان قبل بيعة علىّ ليتسنى لمعاوية أن يزاحم على الخلافة رجلا لا ترفعه بيعة عن إمكان مساواته به . أو كانت مهزلة التحكيم التى يعدها بعض المؤرخين من أشنع المهازل وأسوئها فى التاريخ البشرى بمثابة تجريد لعلىّ من البيعة التى لم تشترك فيها الأرستقراطية القرشية ، وارتفاع بمعاوية لمساماته فى ناظرة الأمة جميعاً لأنه لم يكن خليفة بعد فيخلع بالمعنى الذى يخلع به علىّ .

وهكذا لا يصيب الخلع وإنكار الحق فى الخلافة غير علىّ ، وقد ترتب على هذه الحادثة انقسام العالم الإسلامى رسمياً إلى قسمين أولهما خلافة الإمام علىّ فى الشرق فى جزيرة العرب والعراق وفارس والآخر الملك الأموى بزعامة معاوية فى الشام ومصر .

فقد أصبح علىّ إماماً لا يطاع ، يريد الحق فلا يبلغه لا لضعف فيه ولا لقلة فى أصحابه ، ولكن لأن أصحابه لا يطيعونه بعد أن جربوا الحرب فلم يجنوا منها غير تقطيع الأرحام ، فإن الآلاف الثلاثة الذين قتلوا فى النهروان كان جمهورهم من أهل الكوفة وما أكثر من قتل بيد أخيه أو قريبه وعندما عسكر علىّ بالنخيلة بظاهر الكوفة عقب النهروان جعل أصحابه ينسلون لاحقين بأهلهم حتى لم يبق معه إلا نفر قليل .

فقد آثر الجند حياة الدعة والركون إلى الراحة وفرغوا للجدال العقيم ينفقون فيه أوقاتهم وجهودهم حتى لقد جاءه نفر منهم ذات يوم يسألونه عن رأيه فى أبى بكر وكانت أنباء استيلاء معاوية على مصر قد وافته فقال لهم محزوناً : أوقد فرغتم لذلك وهذه مصر قد فتحها أهل الشام وقتلوا واليها محمد بن أبى بكر ؟

وبمقتل ابن أبى بكر تدخل **مصر** فى ملك معاوية ، وتكون أول إقليم يقتطع من جسد الخلافة العلوية ، وكان ذلك فى صفر سنة ٣٨ ﻫ وقبل سقوط الخلافة بنحو من ثلاث سنوات .

ولذلك كان حزن علىّ شديداً وهو يتلقى أنباء سقوطها فى يد معاوية بين عصيان جنده وخذلانهم له وشغبهم عليه، فضلا عن عصيان الخوارج الذين لم ينتهوا بمعركة النهروان وإنما عاد من لم يقاتله فيها إلى الكوفة فعايشوه فيها كما عايشوا عامله على البصرة وانبثوا فى أطراف السواد موتورين لا ينسون الثأر لإخوانهم واحتفظوا بآرائهم ولم تغير الهزيمة منهم شيئاً إلا أنها زادتهم حقداً وبغضاً ، فظلوا على مناوأتهم له ومكرهم به وتخذيلهم عنه وتحريضهم عليه ، وكان علىّ قد أخذ نفسه بألا يتعرض لهم حتى يبتدروه ، ولكنهم لم يتحرجوا من شىء فكانوا إذا كثر عددهم خرجوا فاتعدوا مكاناً يلتقون فيه ليسلوا السيف ويظهروا المكابرة والعصيان .

وقد انفرد ابن الأثير بذكر بضعة أحداث وقعت بعد النهروان من الخوارج الذين وتروا ولم تهدأ نفوسهم فخرجوا أرسالا يطلبون الثأر ، وكان الرجل منهم يخرج ومعه المائة أو المائتان فيتعدون [مكاناً] يؤثرونه فيقيمون فيه يمهدون

حتى إذا فرغوا منهم تحولوا إلى عدوهم فحاربوه وهم مطمئنون على ما وراءهم ولكن عليًّا أجاب أصحابه بأن رسول الله أمره بأن يقاتل القاسطين وهم هؤلاء الذين سار إليهم ويعنى بهم معاوية وصحبه والناكثين وهم هؤلاء الذين فرغ منهم ويعنى بهم أصحاب الجمل والمارقين وهم الذين لم يلقهم بعد ويعنى بهم الخوارج وسألهم أن يسيروا معه إلى القاسطين فهم عليهم أهم من الخوارج لأنهم قوم يقاتلونهم كيما يكونوا جبارين يتخذهم الناس أرباباً ويتخذون عباد الله خولا وما لهم دولا .

ولكن أهل الكوفة أصروا على لقاء الخوارج أولا وأرغموا عليًّا على السير معهم إلى النهروان حيث نزل الخوارج .

وخرج على فى جيش كبير وسار حتى لقيهم قد عسكروا بالرميلة ، ولما أشرف عليهم وقف يدعوهم إلى الرجوع والتوبة وتسليم القتلة فأبوا وأنكروا عليه ، وما زال علىّ بهم يجادلهم ويعظهم كتابة ومشافهة حتى جعل بعضهم يتسلل عائداً إلى الكوفة ، وانتقل منهم نحو مائة رجل إلى جانب علىّ وانحاز خمسمائة على رأسهم فروة بن نوفل الأشجعى إلى الدسكرة وأبوا أن يقاتلوه طوال حياته ، ولحق بهم خنثر بن عبيدة المحاربى . ورمى الباقون عليًّا وأصحابه وكف علىّ أصحابه عن أن يردوا عليهم ثلاثاً حتى أتى برجل من أنصاره متشحط فى دمه فأمر بالهجوم .

وهجم جيش علىّ بعد أن تنادى الخوارج « هل من رائح إلى الجنة ؟ » وتصايحوا « الرواح الرواح إلى الجنة » وشدوا على جيش علىّ شدة منكرة انفرج لها الخيل واندفع الخوارج بين الفرصتين . والتأم جيش علىّ وتلقى الخوارج بالنبل ثم التحم الفريقان ودارت الدائرة على الخوارج وقتل خليفتهم ابن وهب الراسبى ، ولم يفلت منهم إلا عشرة أشخاص .

وبدأ علىّ بعد الفراغ من النهروان فى ندب الناس لحرب معاوية فى الشام فتثاقلوا واعتذروا بكلال السيوف ونفاد النبال ، وطلبوا مهلة للاستعداد ، وكانت حياة الإمام علىّ فى تلك الفترة محنة متصلة بخذلان جنده له حتى يئس من نصرتهم له وضاق بحضهم على القتال .

على نقيض ذلك ، وكأنهم رأوا أن علياً بإقراره بالتحكيم وإرساله أبا موسى قد خرج عن الإيمان وأصبح شأنه شأن معاوية سواء بسواء ، فعادوا إلى الانشقاق عليه ونصبوا لهم خليفة اختاروه هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى ، وكان يقال له ذى الثفنات لأن ركبه قد صارت كثفنات الإبل من كثرة السجود ، وأراد الخوارج جهاد الكفار بقيادته ، وهؤلاء الكفار هم علىّ وشيعته الذين دعوه إلى نقض الصحيفة فأبى ، ودعوه قبل التقاء الحكمين إلى قتال عدوهم فامتنع ، ولم يعذره عندهم أنه عاد يطلب قتال عدوه بعد فشل التحكيم فأثبت أنه لا يقاتل لله وإنما يقاتل لنفسه ابتغاء الدنيا وهم ليسوا منه ولا من الدنيا فى شىء إلا أن يشهد على نفسه بالكفر ثم يتوب كما تابوا فإن فعل فهم معه على عدوه وإن لم يفعل فليس بينه وبينهم غير السيف ، وقد تركهم علىّ ليثوبوا إلى رشدهم ولكنهم انسلوا فرادى مستخفين من الكوفة حتى اجتمعوا فى النهروان على الشاطئ الآخر من دجلة وهناك التقوا بأنصارهم من أهل البصرة وكانوا فى خمسمائة رجل على رأسهم مسعر بن فدكى التميمى ولقيهم فى طريقهم عبد الله بن خباب بن الأرت ونسوة كن معه، وكان عبد الله رجلا نابهاً استخدمه علىّ على المدائن فامتحنوه فى موقفه من عثمان ومن علىّ ولم يعجبهم جوابه فذبحوه وبقروا بطن امرأته وقتلوا غيرها من النساء .

وجاءت الأنباء علياً بقتلهم عبد الله ومن معه ، وأنهم يستعرضون الناس ويذيعون الذعر بينهم ، فأرسل إليهم الحارث بن مرة العبدى رسولا يدعوهم إلى الرجوع فقتلوه ، وبعثوا إلى علىّ : إن تبت من حكومتك وشهدت على نفسك بايعناك ، وإن أبيت فاعتزلنا حتى نختار لأنفسنا إماماً فإنا منك براء ، فبعث إليهم أن ابعثوا إلى بقتلة إخوانى فأقتلهم ثم أتارككم إلى أن أفرغ من قتال أهل المغرب ولعل الله يقلب قلوبكم ، فبعثوا إليه كلنا قتلة أصحابك وكلنا مستحل لدمائهم مشترك فى قتلهم ، وكره أصحاب علىّ أن ينهضوا لحرب أهل الشام ويتركوا وراءهم هؤلاء الخوارج يفسدون فى الأرض ويستبيحون أموالهم وعيالهم وهم غائبون وألحوا على إمامهم أن ينهض بهم إلى هؤلاء المارقين

٤

كان التحكيم منذ رفع المصاحف على أسنة الرماح فى صفين إلى أن اجتمع الحكمان وانتهيا إلى الخلاف المشهور ، فى صالح معاوية ، فقد رفعت الحرب عن جنده بعد أن أوشكوا على الهزيمة وهموا بالفرار فأتيح لهم قسط وافر من الراحة والاستجمام والاستعداد لاستقبال أمرهم وهم أشد قوة وأمضى عزماً بينما تورط أصحاب علىّ فى الخلاف والفرقة والفتنة وكان بأسهم بينهم شديداً .

وكان جميع أهل الحجاز والعراق وفارس يعتقدون أن الحق بجانب الإمام وأن معاوية احتال على الأمر بالخديعة ، ولكنهم كانوا فيما يتعلق بالسياسة التى يجب أن ينهجها الإمام تجاه معاوية حزبين كبيرين : حزب سئم الحرب وانطوى على كره لمعاوية وأهل الشام ومضى يجادل عن حقه من الناحية الدينية والشرعية وهم سكان المدن فى الأغلب وهم الذين أصبحوا يعرفون فيما بعد بالشيعة . وحزب لم يشأ أن ينام على ضيم ولم ير فى خدعة عمرو لأبى موسى مبرراً لأن يقبل الإمام بما حدث فخاطب الإمام بكثير من الجرأة والتصلب وقال له إما أن يكون معاوية أجدر منك بالخلافة فاخلع نفسك منها واترك له الأمر كله ، وإما أن تكون أنت صاحب الحق وهو المغتصب الظالم فسر بنا إليه نقاتله لنعيد الحق إلى نصابه ، وهؤلاء هم سكان البادية فى الأغلب الأعم وهم الذين سموا بالخوارج بعد خروجهم على طاعته .

ولم يستطع الإمام أن يأخذ برأى الخوارج الذين ما فتئوا يطالبونه باستئناف القتال وذلك لالتزامه بالصحيفة التى وقعها مع معاوية فى صفين . فشغبوا عليه لما استعد لإرسال أبى موسى إلى دومة الجندل .

وكان رأى علىّ فى التحكيم أن الحكمين قد اتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد ولم تكن نتيجة التحكيم لترضى الخوارج الذين لا يؤمنون بما جاء فى كتاب التحكيم من أن عثمان قتل مظلوماً وذلك لأنهم قد حاربوا

للحرب ثم يبدؤونها فيفزعون الناس ويروعون الآمنين ، ويضطر عليّ إلى إرسال من يلقاهم فيقاتلهم أشد قتال أو يفض جمعهم ويعود ، ولا يكاد يعود حتى يخرج رجل آخر ومعه قوم آخرون .

وعلى هذه الشاكلة خرج أشرس بن عوف الشيبانى وكذلك خرج هلال ابن علفة من تيم الرباب وأخوه مجالد وأيضاً خرج الأشهب بن بشر البجلى فلما قتل خرج سعيد بن قفل التيمى من تيم الله بن ثعلبة فلم يكد يعود من خرجوا للقائه من أصحاب عليّ حتى خرج أبو مريم السعدى من سعد مناة من تميم وكان جيشه كله من الموالى .

ومعنى هذا أن مذهب الخوارج قد تجاوز العرب إلى غيرهم من أصحاب القوميات الأخرى ، فأخذ الموالى منهم ينكرون التحكيم ويخرجون على الإمام وقد خرج عليّ بنفسه لملاقاة أبى مريم الذى كان قد دنا من الكوفة فلما قتله وقتل أصحابه رجع محزوناً تساوره الهموم إذ أصبحت الحرب الداخلية بينه وبين رعيته وكأنها نظام مستمر .

وقد اضطر عليّ أيضاً إلى النهوض لإخضاع ثوار آخرين كالخريت بن راشد وقد خرج الخريت فأعلن العصيان على عليّ لأنه حكم وضعف عن الحق وركن إلى القوم الظالمين ولأنه لم يخلع نفسه ولم يترك الأمر شورى كما أعلن ذلك أبو موسى الأشعرى .

وهكذا كان مركز عليّ ضعيفاً فى قلب دولته مما أثر على هيبته فى أطرافها إذ امتنع عرب البحرين عن دفع الخراج وصدقة المال ، وارتد بعضهم إلى النصرانية وتمردت الولايات الفارسية ، وطمع أهل فارس وكرمان فى كسر الخراج ، وغلب أهل كل ناحية على ما يليهم وأخرجوا عمال عليّ منها .

وفى هذا الوقت الذى تتابعت فيه المحن على الإمام أبى القدر إلا أن يمتحنه فى أقرب أقربائه وألصق معاونيه ، وهو ابن عمه عبد الله بن عباس الذى كان يلى له البصرة وقد عاد ابن عباس من صفين موقناً بأن الدنيا تتخلى عن ابن عمه وتستقيم لمعاوية ، بينما عليّ فى طريقه المستقيمة لا يعوج ولا يلتوى

فأقام فى البصرة يتدبر أمره ، وآثر نفسه بشيء من الخير ، فسار فى بيت المال سيرة تخالف المألوف من أمر علىّ .

فطالبه علىّ بأن يرفع إليه حسابه مفصلا فاعتذر ابن عباس محتجًّا بأنه أحب إليه أن يلقى الله وفى ذمته بعض المال على أن يلقاه وفى ذمته تلك الدماء المسفوكة يوم الجمل وصفين والنهروان ، وأن هذه الدماء سفكت فى سبيل الملك والسيطرة . وهو بهذا إنما يشك فى أن عليًّا كان على الحق وكأنه أيضاً ينسى مشاركته فى هذه الدماء ، وأجمع على الخروج إلى مكة مالئاً يديه من أموال المسلمين التى بلغت ستة ملايين درهم احتواها لنفسه .

وهكذا امتحن علىّ فى أسرته وأصحابه كما امتحن فى جنده وسلطانه ، وما ذلك إلا لأن النظام السياسى كله كان يمر بامتحان عسير ، ذلك النظام الذى نهض علىّ لصيانته وحياطته وهو نظام الخلافة الدينية ، كما كان الإسلام نفسه يجتاز امتحاناً خطيراً فى هذه الظروف ، يتناول أخطر ما كان يحرص عليه النبى والخلفاء الراشدون وهو القضاء على العصبية التى ألفها العرب فى جاهليتهم وحاربها الإسلام أشد حرب ، والأثرة والظلم والتفاضل وهى أمور نسختها المساواة والعدل فى الإسلام .

فلم يكد معاوية يطلق يده فى مصر حتى أراد أن يفعل ذلك بالبصرة أيضاً وقد رأى معاوية فى ظروف الشقاق بين علىّ وابن عباس وفرار هذا إلى مكة مغاضباً لابن عمه فرصته ليستفز أهلها فاختار عبد الله بن عامر ابن خالة عثمان ووالى البصرة الأسبق وأرسله إلى البصرة وأوصاه بأن يأتى بنى تميم وأن يتقرب إلى الأزد وأن يتجنب ربيعة لأنها علوية الهوى . ولم يكد ابن عامر يصل إلى البصرة حتى استهوى بنى تميم ما عدا الأحنف بن قيس الذى اعتزل أمور السياسة منذ الجمل ، وتحبب إلى الأزد . وكان ابن عباس قد ترك البصرة لزياد بن أبيه الذى أراد أن يستجير بربيعة فتثاقلت ، فاستجار بالأزد الذين اشترطوا عليه أن ينتقل بمنبره وبيت ماله إلى حماهم ففعل ، وأصبحت البصرة منقسمة إلى طوائف مالت إحداها إلى رسول معاوية واعتزلت

الأخرى مع الأحنف ، وجعلت الثالثة تنتظر وتترقب الخطوب وهى ربيعة بينما لم تحفل طائفة أخرى بأمر علىّ أو بأمر معاوية وحفلت بأحسابها فقامت دون جارها زياد ، وجداً على ابن عامر الذى آثر تميماً وهؤلاء هم الأزد .

وفعلت العصبية فعلها فى إنكار كل ولاء إلا ولاء القبيلة ، فأصبحوا يرعون عصبيتها ولا يحفلون بشىء غيرها . ولما أعلم زياد علياً بالأمر أرسل إلى تميم أعين بن ضبيعة ليناظر قومه التميميين فاختلفوا عليه وتفرقوا عنه ثم بيتوه ذات ليلة فقتلوه ، ولم تنهض الأزد مع زياد ثأراً له لأنهم حالفوه على حمايته وحماية بيت المال فحسب . وكتب زياد بما حدث لعلىّ فأرسل تميمياً آخر هو جارية بن قدامة ومعه بعض الجند فناظر قومه فاستجاب له البعض وامتنع عليه البعض فنهض بأصحابه وبمن انضم إليه لقتال ابن عامر وما زال به حتى أوقع به فلجأ وسبعون معه إلى دار أو حصن قديم فى البصرة ، ولم يستجب لإنذار جارية الذى جمع حطباً وأحاط بهم وأضرم النار فاحترقت الدار بمن فيها ولم ينج منهم أحد ، وتغنت الأزد بهذا الانتصار بعد أن عاد زياد وبيت المال إلى دار الإمارة على لسان شاعرهم عمرو بن العرندس الذى لم يشر فى أبياته قط إلى علىّ أو معاوية ، كما لم يشر فيها إلى رأى أودين أو إمام أو سلطان وإنما فخر بقومه الذين حموا زيادا وعير تميماً بغدرهم بحليفهم .

ومضى معاوية فى خطته متجنباً الحرب المباشرة الظاهرة معنيا بحرب صغيرة محدودة على أطراف دولة الخلافة ، ودأب على إرسال سرايا تغير على هذه الأطراف مما اضطر علياً إلى إرسال من يردها ويمنعها من الإضرار بالناس.

وكانت هذه السرايا تعود أدراجها بما احتوت من الغنائم وتترك وراءها هلعاً وفزعاً فكانت أشبه بالإبر التى تخز الجسم وخزاً سريعاً خاطفاً .

وأيضاً عمل معاوية على إثارة الفتنة فى اليمن فعظم أمر العثمانية بها وناوؤو عامل علىّ عبيد الله بن عباس واضطروه إلى اصطناع الشدة معهم مما بررلهم الاستنجاد بمعاوية ، فأرسل إليهم بسر بن أرطأة وأوصاه بأن يقسو على

شيعة علىّ بالبادية أن يرهب أهل المدينة وأن يرفق بأهل مكة وأن يخرج عامل علىّ عن اليمن وأن ينتصر للعثمانية هناك . وقد فعل بسر أشنع مما أوصى به من الشدة فبطش بأهل البادية وملأ المدينة بالفزع والموت وكف عن الطائف استجابة للمغيرة بن شعبة ففر عامل علىّ على اليمن لما علم بقدوم بسر وإعماله السيف فى أهل اليمن وأخذه البيعة لمعاوية فلحق به جارية بن قدامة قائد علىّ فى جيش من ألفى رجل ففر بسر عائداً إلى الشام وذبح فى طريقه ابنى عبيد الله بن عباس وكانا طفلين صغيرين وتعقبه جارية وقتل فى العثمانية ورد الطاعة إلى علىّ وعاد إلى مكة وهناك جاءته الأنباء بقتل علىّ فعاد إلى الكوفة بعد أن أخذ البيعة فى مكة والمدينة للخليفة الجديد فى العراق .

وعلى الرغم مما لقيه علىّ من المحن فإن سياسته فى رعيته لم تنحرف عن سيرة النبى والشيخين إذ كان حريصاً على إحيائها بعد أن أدركها الإهمال آخر خلافة عثمان . وكان علىّ يسير فى الناس سيرة لا تطمعهم فيه ولا تؤيسهم منه ، وإنما يدنو منهم أشد الدنو ما استقاموا ، ويجرى فيهم حكم الله دون هوادة إذا ما انحرفوا ، وكان يقيم لهم صلاتهم ويعظهم ويفقههم فى الدين ، ويبصرهم بتعاليم الإسلام كما كان يعظهم بسيرته فيهم قدوة وإماماً ومعلماً ، وكان عمر بن الخطاب من قبل لا يلقى الناس إلا والدرة فى يده فكان علىّ يتخذ الخيزرانة لأنه رآها أوجع من الدرة . فالدرة لا ترهب هذا الخلف الذى تطور وغلظت أخلاقه وانحرفت طباعه ، ثم استبان له أن الخيزرانة هى الأخرى لا ترهبهم فكان يقول لأشرافهم ولعامتهم : إنى لأعرف ما يصلحكم ، ولكن لا أصلحكم بفساد نفسى ؛ ذلك أنه لم يكن يستبيح لنفسه مكراً ولا كيداً ولا دهاء ولم يكن ليشترى الطاعة بالمال ولا يقيم أمر المسلمين على الرشوة ، ولو شاء لمكر وكاد ، ولكنه آثر دينه وأبى إلا أن يمضى إلى مثله العليا من الصراحة والحق والإخلاص والنصح لله ولدينه وللمسلمين عن رضى واستقامة . بينما كان مكر معاوية ودهاؤه يضيفان إلى المال مالا فحملت كتبه إلى رؤساء

المسلمين وأشرافهم الوعود والأمانى بالعطايا والصلات العاجلة والآجلة فاشترى ضمائرهم وأفسدهم على إمامهم . وكان سلاحه فى ذلك كله القدرة المادية التى تقضى مصالحه على أساس من التبادل فى المنفعة . فهو رجل يملك السلطان والمال وهم أناس فى حاجة إلى سلطانه وماله فليأخذ منهم وليأخذوا منه ، ولم يكن ليستطيع أن يعطيهم هذه المصالح إلا لأنه سبق إلى ولاية الشام عشرين سنة ووضع يديه على مرافقها الحيوية ولم يكن علىّ ليسمح لنفسه بأن يفعل هذا الفعل ، إذ كان يقسم المال إثر وصوله فى الناس بعد أن يحتجز منه ما ينبغى أن ينفق فى المرافق العامة ، وكان يكره الادخار فى بيت المال حتى كان يقسم الفاكهة والعسل والزيت ، وقسم ذات يوم إبراً وخيطاً بين الناس ، ولم يكن ليصل أحداً من رحمه أو من غير رحمه على حساب الناس وأموالهم ، وقد أخذ عماله بما أخذهم به عمر من شدة المراقبة وتشديد الحساب واستيفاء ما يلزمهم من حقوق الناس لا تفرقة بين إنسان وإنسان .

فقد كانت أخلاق الخلافة التى اعتنقها تجعل كل فئة تكره الاستغلال تأوى إليه فآوى إليه القراء المتزمتون الناقمون على إهدار قيم الإسلام : كما آوى إليه أولئك الموالى الذين حرمتهم العصبية العربية المساواة التى كفلها لهم الإسلام ، وليس أدل على تمسك علىّ بمبادئ الخلافة الراشدة وقيم الإسلام الإنسانية الشاملة من أنه كان أول من خرج بالعاصمة عن المدينة واختار الكوفة لأنها أوفق عاصمة لالتقاء الشعوب من جميع الأجناس فيها ، إذ كانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام فضلا عن كونها العاصمة الفكرية التى ترعرعت فيها بفضل مواريثها القديمة مدارس الكتابة واللغة والرأى والقراءات والأنساب والشعر .

لم يكن لعلىّ إذن أن يدانى معاوية فى سياسة المنافع الدنيوية ، وليس ضعفاً فى سياسته ولا عجزاً فى حنكته وحكمته أن قصرت به وسائله عن بلوغ ما بلغ معاوية من شأو فى هذا المسلك الذى علا به نجمه وأعانه عليه طلاب المنافع عامدين وطلاب العدل الإسلامى غير عامدين ، فحارب علياً بأسلحة

لا يملك مثيلها هى أسلحة الملك الدنيوى الباطش ، ولم يكن ممكناً لعلىّ أن يكون ملكاً بأدوات خليفة ، كما لم يكن ممكناً لمعاوية أن يكون خليفة بأدوات ملك ، ولن تبلغ الحيلة بعلىّ أن يحارب رجلا يـ يد العصر والعصر يريده لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله .

فهو العصر إذن الذى تغير ، وهو الذى قصر به وبعدته أن تفعل فعلها فتستقيم له الأمور .

وليس شك فى أن الفترة التى عاصرت إدبار الخلافة وإقبال الملك كانت تحتاج إلى شخص غير علىّ ، شخص يملك مالا يملكه علىّ من عدة البطش الذى يختصر الطريق والتى يتصف بها دائماً أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدابرين .

وهكذا ليس شك فى أن عليًّا أخفق بفعل التطور المادى الذى غلب على المجتمع الذى عاصره فى بعث عهد الخلافة الدينية بإسماحها وصلاحها ، ونقائها من شوائب الأثرة والعبث والطغيان والفساد ، بحيث يحقق العدل ويمحى الاستغلال وتسود المساواة وتوضع أموال الناس فى مواضعها وبحقها إذ لم تكن ظروف التطور الاقتصادى لتسمح بأن يستمر ذلك النظام الذى كان على عهد الشيخين والذى كان استقراره يستلزم إيماناً عميقاً وخالصاً بالدين الذى أنشأه إيماناً يتغلغل فى أعماق النفوس ويسيطر على دخائلها ، لا يتلبسه طمع فى منفعة أو غرض من أغراض الدنيا الزائلة ، وإن كان مثل هذا الإيمان قد تحقق للكثرة الكثيرة من أصحاب النبى فإنه لم يبرأ من الشوائب لدى الأجيال التى أعقبتهم .

وقد ساعدت ظروف الفتح على دفع المجتمع الإسلامى فى طريق الدنيا دفعاً حثيثا ، وكان استشراء الفتح مصدر قوة للدولة ، ولكنه كان من ناحية أخرى مصدر ضعف للقيم التى قامت عليها هذه الدولة ، فقد صبت الفتوح الأموال الطائلة التى لم يكن للعرب بها عهد فى حجورهم وأوقفتهم على مظاهر لم يعرفوها من زخرف الحضارة ، وغمستهم فى ألوان من المتاع والتنعم لم تكن تدور

بأخلادهم فضلا عن إيقاظها لمنافع كانت نائمة وتنبيهها لمآرب كانت غافلة ولفتها لنفوس لم تكن تفكر إلا فى الدين وخلقها لحاجات لم يألفوها أغرتهم بها ودعتهم إليها وعودتهم إياها ثم أخذتهم بها أخذاً ، إلا قلة قليلة استأثر بها الدين من دون الدنيا ، وجهد علىّ أن يرد العرب إلى مثل ما كانوا عليه أيام عمر ، ولكنها كانت أياماً مضت وهيهات لها أن تعود ، بعد أن ضعف سلطان الدين على نفوس المحدثين من المسلمين وتغلب سلطان الدنيا عليها ، ورأى المسلمون فى البلدان التى فتحوها ما أدهشهم وقلب حياتهم رأساً على عقب ، وأثر فى خلقهم وسيرتهم ، وجعل نفوسهم تتغير تغيراً بطيئاً أول الأمر ، وقد بهرهم جلال الملك الذى احتازوه فى بلاد الروم ، وجعلوا يقارنون بينه وبين ما تركوا وراءهم فى المدينة ، فأكبروا الجديد واستصغروا قديمهم .

وقد صحب هذا التطور المادى تأثير أجل وأخطر تعدى الماديات إلى الفكر واستتبع الامتزاج الواسع بين العرب وأهل الأمصار المفتوحة آثاراً بعيدة ومتعددة بعدد هذه العناصر المختلفة التى دخلت الإسلام ، وبعدد عقائدها وآرائها فى مشكلات الدين والدنيا ، وقد أسهمت كلها فى تشكيل صورة الحضارة العربية الاسلامية .

وقد كان للعصبية الجامحة التى كفها النبى والشيخان وعادت جذعة إزاء استئثار بنى أمية بالسلطان فى عهد عثمان أكبر الأثر فى دفع المجتمع فى الاتجاه المادى .

فقد كانت القبائل العربية الأخرى ترى أنها دخلت فى الإسلام كما دخلت قريش وهاجرت كما هاجرت ، ولكن قريشاً استأثرت بالخلافة والزعامة رغم أن أعباء الفتوح وقعت على عاتق القبائل الأخرى .

ويمكننا أن نزعم مطمئنين بأنه بينما كان علىّ يمثل التيار الإسلامى الذى يقدم الدين على كل شىء من عصبية أو غيرها مما يجافى روح الإسلام ، كان معاوية يمثل التيار القبلى الجاهلى تمام التمثيل ، وقد تجلت صورة العصبية

فى صفين ووضح تأثيرها بين جند معاوية ، بينما حرص علىّ على القضاء عليها عندما وضع كل قبيلة من قبائل العراق فى مواجهة مثيلتها من قبائل الشام وأمر كل منها أن تكفيه أختها ولكن بنى أمية نفخوا فيها ولعبوا بها حسب الظروف والأحوال مغلبين بعضها على بعض .

وقد استجد نمط آخر من العصبية لم يكن مألوفاً من قبل بفعل الأحداث التى شجرت وهى عصبية المدن ، فقد كان عرب كل مدينة يتعصبون لمدينتهم ويفخرون بمميزاتها وبرجالها وعلمائها وفقهائها ، وقد بدأت هذه العصبية فى الظهور منذ تأسيس البصرة والكوفة والفسطاط ، وقد اختصم سكان البصرة والكوفة على ضم المناطق التى فتحها جند كل مدينة منهما .

ولما نشبت حرب الجمل بين أهل البصرة وأهل الكوفة وقفت كل قبيلة أمام مثيلاتها : مضر فى القلب واليمن فى الميمنة وربيعة فى الميسرة فى كلا الجيشين .

وكذلك فى صفين كانت البصرة لا تزال عثمانية الهوى بينما كانت الكوفة علوية النزعة .

واتسعت عصبية المدن فأصبحت عصبية إقليمية بفعل الظروف السياسية الناجمة عن الصراع فإذا الشام تكره أهل العراق ، وأهل العراق يكرهون الشاميين .

وهكذا أسدلت العواطف العصبية للقبيلة والوطن والمصر والإقليم على الحق أستاراً كثيفة ، وبعدت بالناس عن روح الإخاء والمساواة ودفعت بهم إلى اتجاه المادية والأثرة والمنافع .

وفى هذا الوقت الذى ابتعدت فيه مسيرة الناس فى طريق الدنيوية بعيداً عن روح الإسلام الأولى ، أقبل علىّ يريد أن يحملهم على الجادة ويردهم إلى السيرة التى عرفها المسلمون أيام النبى والشيخين ، فلم ينشطوا لذلك ولم يستجيبوا له ، ونظروا فإذا أمير آخر بالشام لا يذهب مذهبه وإنما

يناقضه تمام المناقضة ويختلف عنه غاية الاختلاف ، ليس فيه شدته وليس له زهده ، وليس ممن يعمل للدين عمله للدنيا التى أحبوا فنظروا إلى ما فى يده من متعها .

وكان طبيعيًّا إزاء هذا النهج الذى انتهجه معاوية من إنفاق الأموال وتألف الرجال والتوسل بأسلحة الدنيا كيداً لمن يمتنعون عليه ولاجتماع كافة هذه الظروف التى أسهمت فى دفع الناس إلى التهالك على المادىّ من الأغراض أن شعر علىّ بأنه غريب فى هذا العصر الذى يعيش فيه ، وأنه يحاول أمراً لا سبيل إلى تحقيقه خارج خلقه وسيرته الذاتية ، فبقى محتفظاً بذاته مستقيمة النهج والغاية والسيرة ، ولزم أرباض الكوفة يائساً معزولا عن الناس ، يتمنى الخروج عن هذا العالم الفاسد ، ومفارقة أهل زمانه الذين سبقوه على الطريق سنوات طويلة منحدرين من قمة القيم الإسلامية المثالية إلى سفح الدنيا الزائلة ، وظل على هذه الحال من الضيق بالعيش وتمنى الموت والتوجس من أقرب المقربين إليه حتى انتهى إلى قبول مهادنة معاوية سنة ٤٠ هـ على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام وأن يكفا السيف عن الأمة فلا نزاع ولا قتال .

وكانت هذه المهادنة قصيرة بطبيعة الحال لأن معاوية اتخذ لنفسه أول سنة ٤٠ هـ لقب الخلافة فى بيت المقدس ، وأخذ البيعة من أهل الشام على ذلك ، وكان هذا بدوره تحدياً جديداً لعلىّ أجاب عليه بأن أعد حملة كبيرة لمحاربة أهل الشام ولكن اغتياله المفاجئ حال دون تنفيذها ، وقد حدث الاعتداء على حياته يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان سنة ٤٠ هـ فى مسجد الكوفة ، وتوفى علىّ فى يوم الأحد التالى ، وكان قتله نتيجة من نتائج معركة النهروان إذ قتله عبد الرحمن بن ملجم المرادى التجيبى الخارجى وقد تغنى الخوارج بصنيعه فخورين .

وقد رويت أبيات لأبى الأسود الدؤلى تتهم معاوية بقتل علىّ وقد فتحت هذه الأبيات مجالا للشك فى اتهام معاوية بقتل علىّ ، ولكن هذا أمر يحول دون قبوله ثبوت خارجية ابن ملجم ودوافعه .

واقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم أبى علىّ أن يعهد وقد دخل عليه الناس يسألونه أن يوصى لأحد أبنائه فقال : لا آمركم ولا أنهاكم ، أنتم

أبصر . وقد بويع الحسن فى الكوفة بعد وفاة أبيه بيومين ، وقد زعم أبو الأسود الدؤلى من فوق منبر البصرة أن علياً أوصى له بالإمامة ومن ثم طلب له البيعة ، فبايعت الشيعة كلها ، وتوقف ناس ممن كان يرى رأى العثمانية ، ولم يظهروا أنفسهم بذلك وهربوا إلى معاوية .

وباشر الحسن مهام منصبه بأن أرسل عماله إلى السواد والجبل واقتص لأبيه من ابن ملجم إلا أنه خلال أشهر قليلة تأكد له أن خلافته لن تثبت أمام ملك معاوية القوى ، وذلك لأن الخلافة آلت إليه فى معسكر مضطرب بين الخوارج والشيعة والموالى والأتباع الذين لا يعملون عمل الأتباع طائعين ولا يعملون عمل الرؤساء مقتدرين ، ولم يطل به عهد الولاء لأحد قط ليناضل به معسكراً لم يقع فيه خلاف قط .

ويروى أبو الفرج وابن أبى الحديد رسالتين متبادلتين بين الحسن ومعاوية يدعو الحسن فى إحداهما معاوية إلى الدخول فى بيعته بعد أن يذكر موقع بنى هاشم من رسول الله ، وكيف احتجنت قريش الأمر دون العرب احتجاجاً بقرابتها منه وكيف عادت فأخرجت آل النبى أنفسهم من الأمر ، وكيف أمسك آل البيت عن منازعة الراشدين مخافة على الدين ، ثم عجب من توثب معاوية إلى أمر ليس له بأهل ، لا بفضل من الدين ولا بأثر فى الإسلام وهو ابن الأحزاب وأعدى قريش لرسول الله ، وأعذره وأنذره إن لم يدخل فيما دخل فيه الناس لأنه يعلم أنه أحق منه بهذا الأمر ، حقناً للدماء وإلا نهد إليه فحاكمه حتى يحكم الله .

وقد رد عليه معاوية فحمد الله وأقر بالفضل لرسوله وحاول أن يورط الحسن فيما تحدث فيه عن تخطى الراشدين لعلىّ فنعى عليه اتهامهم وكره ذلك له ، لأنه عنده وعند المسلمين غير ظنين ، ثم ذكر أن الأمة لم تجهل فضل بنى هاشم ولا مكانهم ، وإنما رأى صلحاء المسلمين أن يجعلوا الأمر فى قريش لمن هو أقدمها إسلاماً وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمره ، فاختاروا أبا بكر ، ولو رأى المسلمون فى بنى هاشم من يغنى غناءه أو يقوم مقامه ما عدلوا به إلى غيره ، وشبه فى لباقة ملحوظة ما كان عليه الموقف بين بنى هاشم وأبى بكر

بما هو واقع بينهما اليوم ». وأضاف أنه لو علم أن الحسن أضبط للرعية وأحوط على الأمة وأحسن سياسة ، وأقوى على جمع الأموال والكيد للعدو لأجابه إلى ما دعاه إليه واحتج عليه بأنه أطول منه عهداً بالولاية وأقدم منه تجربة للأمة ، وأبعد منه سياسة وأكبر منه سنًّا وأنه أولى بأن يجيبه هو وأن يدخل فى طاعته على أن يكون له الأمر من بعده وأن له ما فى بيت العراق بالغاً ما بلغ يحمله إلى حيث أحب ، وأن له خراج أى كور شاء معونة له على نفقته يجبيه له أمينه ويحمله إليه كل سنة . وختم رسالته بأن ضمن له ألا يستولى عليه بالإساءة ولا يقضى من دونه أمراً ولا يقصيه عن أمر أريد به طاعة الله .

ويبدو أن الحسن أيقن من هذا الإصرار اللبق ، وبعد أن راجت إشاعة بهزيمة جيشه أمام جند الشام وتخلى أهل العراق عنه ، أنه أصبح لا قبل له بمعاوية وجنده .

وربما خشى أن تكون نهايته نفس نهاية أبيه فسخا بنفسه عن أهل العراق وشعر بأنه غريب عن العصر كما شعر أبوه من قبل وبخاصة بعد أن طعنه جنده بخنجر وانتهبوا سرادقه فلم يجد بدًّا من أن يتنازل لمعاوية ، فعقد معه صلحاً اشترط عليه أن يعود الأمر بعده شورى بين المسلمين يولون عليهم من أحبوا .

وبذلك أصبح معاوية السلطان المطلق فى الولايات الإسلامية كافة ، ودخل الكوفة لخمس بقين من ربيع الآخر سنة ٤١ هـ واجتمع عليه الناس فسمى ذلك العام بعام الجماعة ورحل الحسن إلى المدينة ولزم منزله حتى مات .

ومنذ اللحظة الأولى التى دانت فيها السلطة مجتمعة لمعاوية بعد صلحه مع الحسن أعلن سقوط الخلافة وقيام الملك ، فقد صلى بالنخيلة الجمعة ثم خطب الناس فقال : إنى والله ماقاتلتكم لتصلوا ولا لتصوموا ولا لتحجوا ولا لتركنوا إنكم لتفعلون ذلك ، وإنما قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد أعطانى الله ذلك وأنتم كارهون وهكذا أشار معاوية إلى الأساس الأخلاقى الجديد الذى سيحل محل الرابطة الدينية القديمة ، وهو طاعة الأمة لرئيسها الدنيوى ويذهب بعض المؤرخين إلى أن المسلمين قد عدوا انتصار بنى أمية وعلى رأسهم معاوية

انتصاراً للأرستقراطية الوثنية التى ناصبت رسول الله وأصحابه العداء ، والتى حاربها الرسول حتى قضى عليها وحاربها معه المسلمون حتى نصرهم الله فأزالوها ، وأنشأوا على أنقاضها دعائم الإسلام ، ولذلك لا ندهش إذا كره المسلمون المتدينون بنى أمية وغطرستهم وإثارتهم للأحقاد القديمة ، ونزوعهم للروح الجاهلية ولا سيما أن جمهور المسلمين كانوا يرون بين الأمويين رجالا كثيرين لم يعتنقوا الإسلام إلا سعياً وراء المصالح الشخصية .

وحقًّا كان معاوية يسعى وراء مصالحه الشخصية ، وجوهرها أن يتأمر على المسلمين وأن يحاربهم ليجعل الخلافة ملكاً كسرويًّا ، وليس أدل على ذلك من قوله « أنا أول الملوك » فقد استحوذ على السلطة مستغلا ولايته للشام ، وتزعمه بعد ذلك للثورة التى طالبت بدم عثمان ثم بما دبره من الدسائس البارعة التى أغنته عن الالتجاء إلى القوة إلا فى ظروف جد نادرة ، وكان يحس دائماً كما يحس كثيرون من المغتصبين أنه بحاجة إلى أن يحيط عرشه بالأبهة والمظاهر الفخمة واقتضى النظام الجديد الذى مثله أن يكون مرناً وألا يتقيد بالتقاليد الماضية وإنما يأخذ منها ما يناسب حاجته ويترك ما عدا ذلك ، وكان معاوية هو الرجل الذى يستطيع أن يمثل هذا العصر لما أوتى من الدهاء والمقدرة السياسية وغيرهما من الصفات الدنيوية التى مكنته من نقل الدولة من ذلك النظام الذى سارت عليه فى عهد الراشدين إلى النظام الذى سار عليه الأمويون فيما بعد . أو بعبارة أخرى نقلها من نظام الخلافة الذى يعتمد على الشورى ويستند إلى الدين ، إلى نظام الملك الذى يقوم على أساس التوريث ويستند إلى السياسة أولا وإلى الدين ثانياً وأصبحت الخلافة الأموية أقرب إلى السياسة منها إلى الدين واستحالت بذلك إلى ملك .

فكان معاوية يتمتع بكل مظاهر الأبهة التى يتمتع بها الملوك والقياصرة فاتخذ سرير الملك وأقام الشرطة لحراسته ولم يكن للخلفاء حرس خاص ، وإنما هى مظاهر وشارات الحكم عند الفرس القدماء ، وكذلك اتخذ المقصورة فى المسجد ، خوفاً مما حدث لعلىّ ، يصلى فيها منفرداً عن الناس فإذا سجد

قام الحرس على رأسه رافعى السيوف .

وقد ابتدأ معاوية كثيراً من هذه المظاهر منذ كان والياً على الشام لعهد عمر ويبدو أنه رأى أن أهل الشام الذين ألفوا الخضوع للروم لا يمكن أن يساسوا بسياسة أبى بكر وعمر ، فقد كانوا تحت الدولة البيزنطية بنظمها الإدارية المستقرة ، وكانت لهم مدنهم من عواصم الدولة الكبرى عليها رؤساء من المميزين فى الدولة بشارات السياسة والدين فتشبه معاوية بأباطرة الدولة البيزنطية ورؤسائها .

وهكذا لم تكن الخلافة الأموية من ناحية الإدارة حكومة عربية بقدر ما كانت وريثة للإمبراطورية البيزنطية والفارسية ، لأن معاوية أبقى على الجهاز الإدارى القديم بموظفيه واتخذ أحد نصارى سورية مستشاراً له .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن معاوية إنما خرج عن تقاليد الخلافة التى أرسيت فى عهد الراشدين من حيث اختيار الأمة للخليفة إلى نظام التوريث الملكى بأنه إنما فعل ذلك درءاً لانقسام المسلمين ورغبة فى القضاء على تنافسهم الخطير على الحكم وتلافياً للاختلاف بينهم ، ولكن بعضهم الآخر كالمؤرخ البيزنطى ثيوفانيس ويتابعه فى الرأى المؤرخ الإنجليزى برنارد لويس أن السلطة التى مارسها معاوية كانت عربية الأساس وإن لم تعد دينية فإنها لم تكن ملكية بعد ، وإنما كانت إحياء وتوسيعاً لسلطة السيد فى النظام السائد قبل الإسلام . فمعاوية فى زعمهم لم يكن إذن ملكاً ولا إمبراطوراً وإنما كان مستشاراً أول Proto-Symloulas .

وهذا زعم غير صحيح ، فعلى الرغم من اعتماد معاوية على العروبة أساساً لحكمه ، فإنه لم يتخذ أدوات حكم السيد فى النظام الجاهلى من الائتناس بالشورى أو بمجلس الشيوخ وإنما كان له مستشاروه المحددون الذين يأتمرون بأمره ويخضعون له ، فضلا عن مخالفته عن هذا النظام فى أمر بالغ الأهمية وهو تولية العهد من بعده لابنه ووضع البيعة له فى أعناق وجوه العرب ورؤسائهم وهو لا يزال على قيد الحياة ليكون لهم خليفة بعد موته وهو تقليد بيزنطى وساسانى ، ومعاوية بهذا الصنيع إنما ابتدع بدعة لم تكن

معروفة فى نظام السيد الجاهلى لأنه وإن كانت الرياسة عند العرب تورث فى داخل نطاق القبيلة أو العشيرة فإنها ليست وراثية فى أفراد البيت الواحد من الأب إلى الولد .

ويعزو بعض المؤرخين تغير نظام البيعة على هذه الصورة إلى تغير البيئة فلما كانت المدينة حاضرة الدولة فى عهد الراشدين قام النظام الذى يتفق وطبيعة العرب فلما أصبحت دمشق حاضرة للدولة تأثر العرب بالبيئة التى عاشوا فيها وغدا النظام أشبه شىء بنظام الملك القيصرى وقد بدت دمشق لمعاوية بفضل موقعها المتوسط وتراثها الإدارى والثقافى صالحة لإقامة حكومة قادرة على السيطرة على الولايات المختلفة .

وطبيعى أن يفعل معاوية ذلك خضوعاً لظروف البيئة والعصر ولظروف إنشائه للسلطان الجديد الذى جهد فى احتيازه سنوات طويلة ، فخالف عن تقاليد العروبة كما خالف عن تقاليد الخلافة الدينية فى تولى السلطة ، واحتج بألا سبيل إلى اتقاء النزاع الذى لا بد أن يحدث عند اختيار الخليفة إذا ما اتبع مبدأ الانتخاب وما يؤدى إليه من اضطراب ونزاع وفوضى إلا إذا ما استبدل به النظام الوراثى .

وقد سار معاوية فى سبيل توطيد هذا النظام بمنتهى الحيطة والمهارة فأوحى إلى عماله على الأمصار أن يمهدوا السبيل لأخذ البيعة لابنه يزيد واستخدم كل ما يستطيع من وسائل لحمل الناس على تحقيق هدفه فكان يعطى المقارب ويتلطف بالمباعد ، حتى استوثق له الناس وبايعوا يزيد فلما تمت له البيعة فى الشام والعراق ذهب بنفسه إلى المدينة لأخذ البيعة لابنه ، وهناك لقى زعماء المعارضة فى الحجاز من أبناء كبار الصحابة : الحسين بن على وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن عمر وتحدث ابن الزبير نيابة عنهم فعرض على معاوية ثلاث خصال ليختار إحداها ؛ وهى أن يصنع صنع النبى أو صنع أبى بكر أو صنع عمر وهى خصال ترتد فى مجموعها إلى التراث الإسلامى لنظام الخلافة الأولى ، ولكنه رفض وهدد بالسيف وأقام الحرس على رؤوس الزعماء ورقى

المنبر فزعم للناس أنهم بايعوه وأكره الناس تبعاً لذلك على البيعة .

وهكذا خالف معاوية تقاليد الخلافة فقسى على هؤلاء النفر وانتقل بالنظام الإسلامى من الشورى إلى الملكية الوراثية بقوة الكيد والسيف والتهديد بالقتل . وولى يزيد عهد أبيه ، وأصبح التوريث دعامة النظام الأموى فحرم المسلمون من حق من أهم حقوقهم التى أقرها القرآن الكريم وأيدتها السنة الشريفة وألفها العرب .

وعلى الرغم من استناد نظام الأمويين إلى السياسة أولا وإلى الدين ثانياً فقد استغلوا عنصر الدين استغلالا بارعاً فى تأييد نظامهم وفى جمع الناس من حوله وطاعتهم لولى الأمر بحجة المحافظة على وحدة الكلمة وقوة الجماعة وجمع شتات المسلمين للسير بهم فى طريق سيادة العالم . وكان طبيعياً أن يظهروا أن المحافظة على قوة الإسلام ومضاعفتها فى الداخل والخارج هى أهم ما يحرصون عليه وأنها سبيلهم إلى خدمة الدين .

وعجيب أن ينبرى كثير من المؤرخين للدفاع عنهم ومدحهم بهذه الصفة بجعلهم تجنب الانقسام سيفاً مصلتاً على رقاب الدارسين والباحثين ، ويبررون به مفاسدهم وأخطاءهم واستغلالهم ، حتى ليصبح كل من ينسب إليهم غرضاً دنيوياً أو خطئاً دينياً واهما وملحداً .

وبنفس الحجة يحتجون بتولية معاوية عهده لابنه وإن كان فاسقاً وعدوله عن الفاضل إلى المفضول بحجة أنه لا يعلم فسقه خوفاً من افتراق الكلمة الذى هو أهم من كل مقصد .

وهى طريقة رخيصة للدفاع عن بنى أمية لأنها فى نفس الوقت أقرب السبل الممكنة للمز الإسلام والطعن عليه ، وهى نفس الطريق التى سلكها المستشرقون من أعداء الإسلام عندما يذهبون إلى أن الذى بعث المسلمين على الرضا بجور الحكام هو الخوف من شق العصا وتفريق الجماعة ، وأن خير الدولة وصالح الأمة كان من الحق أن يوضع فوق كل اعتبار آخر ، وأنه يتعين تحمل الحكومة القائمة بحكم الضرورة وتجنب الاحتكاك أو الاصطدام

بها إيماناً بأن ما أذن الله به أن يكون لا يمكن أن يعترض عليه إنسان .

وتأسيساً على ذلك يرمى الإسلام والمسلمون بالجبن والخور وقدرية التفكير والعبودية. وليس هناك طعن للإسلام والمسلمين أشد من أن يرميا بهذه الخصال بالذات لأن الإسلام هو الدين الذى حرر إرادة الإنسان من الإرهاب والذلة والاستعباد والخذلان ومنحه حرية القول والفعل ، وجعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرضاً على كل مسلم يدين به ليتربى فى الإسلام رأى عام مهتد بعيد عن الضلالة وليكون المسلمون كما قال عز وجل خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله ، ولا يكونون كأولئك الذين نعى عليهم سبحانه إهمالهم هذا الغرض ولعنهم فى قوله : « لعن الله الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

ولم يتورع بنو أمية عن إلصاق تهمة الابتداع والضلال عن الدين بكل ثائر عليهم لأسباب دينية ورأوا أن عظمة الإسلام وصالحه يحتمان عليهم تأديبه بالسيف كما ذهبوا إلى أن عقاب الثائرين بهم ولو أدى إلى مهاجمة الأمكنة المقدسة ورميها بالمجانيق وإحراقها أمر يجب ألا يتردد فيه ما دام الثوار يهددون وحدة الإسلام وقوته الداخلية ، تلك الوحدة التى قووها بإدراكهم السياسى ، وبهذه الحجة استحل بنو أمية دماء من خرج عليهم ليسمعهم كلمة الله وليأمرهم بالمعروف ولينهاهم عن المنكر ، ولعل من سخرية القدر أن يعد يزيد بن معاوية الحسين بن علىّ ورفاقه مارقين عن الدين ومخالفين للإمام ويسوقهم إلى حتفهم بهذه التهمة وأن يعده بعض المؤرخين مخطئاً فى خروجه على يزيد على الرغم من إقرارهم بفسقه .

وعلى هذه الصورة اتكأ بنو أمية على وحدة الجماعة وتباكوا عليها ، ولم يكن اهتمامهم بها إلا ذريعة يتهمون بها الثائرين عليهم، من أجل تحقيق مبادئ الإسلام ، بأنهم أعداء الإسلام .

وشغل الأمويون شغلا واضحاً بالتظاهر بالحفاظ على الإسلام تظاهراً استغلوه

أوسع استغلال وبخاصة فى حملاتهم ضد البيزنطيين ليظهروا حماة للدين وللذمار المسلمين وقادة للحرب المقدسة وليتسنى لهم من ثم مطالبة المسلمين والعرب بمنحهم ولاءهم الدينى إقراراً بالضرورة إن لم يتسن ذلك لهم عن طيب خاطر .

ولكن الإقرار بهذا كان أمراً بالغ العسر على المسلمين المتمسكين بدينهم وذلك أن مبادئ الخلافة الإسلامية وقيمها التى لم تبعد عن ذاكرة المسلمين لم تكن لتقر صورة الحكم التى ساروا عليها ، فكانت حائلا دون ضرورة التسليم بأن التاريخ له من القوة ما يجعل بعض الأوضاع مشروعة وبأن للدولة أن تصغى إلى عقلها الخاص . وأن تتوخى من الأغراض ما يحفظ كيانها فيزيد من قوتها .

وكان عدم التسليم بذلك يلهب الأمويين ويدفعهم دفعاً لا هوادة فيه إلى التظاهر بالاعتداد بالدين جنباً إلى جنب مع الأسس المادية الدنيوية الجديدة التى أقاموا عليها نظامهم لحكم الإمبراطورية الإسلامية ، فوقعوا دائماً فى تناقض بيّن اضطروا إلى ستره فيما بعد بما ذهبوا إليه من الأخذ بعقيدة الجبر والإرجاء .

وقد وجد معاوية أن سلطان الدولة المركزى قد ضعف وأن البلاد بحاجة إلى وحدة تجمعها بعد أن فصم مقتل عثمان ، واندلاع الحرب الأهلية ، ونقل العاصمة من المدينة ، عرى الرابطة الدينية التى كانت تحفظ تماسك الخلافة الأولى ، وانحصرت المشكلة فى ضرورة إقامة أساس جديد لوحدة البلاد .

وكان الحل الذى أخذ به يقضى باستبدال أساس الحكم القائم على الدين بأساس آخر دنيوى يقوم على سيادة العنصر العربى وقد تراءى لمعاوية أنه يمكنه أن ينقل الأساس الدينى إلى المرتبة الثانية وأنه يظل مع ذلك قائماً مؤثراً بل عظيم التأثير ، وأن يجعل الأساس الأخلاقى الجديد الذى يحل محل الرابطة الأخوية الدينية القديمة ، طاعة الأمة لرئيسها الدنيوى الذى يحفظ كيانها السياسى ويقويه فى الداخل والخارج ويدفعها إلى سيادة العالم .

ولم يكن بد من اصطدام هذين الأساسين اصطداماً شديداً وواضحاً نجم عنه تناقض ظاهر جهد الأمويون فى ستره باللجوء إلى العقائد التى تتميز بالجبرية والسلب ، وكان المسلمون لم ينسوا بعد للأمويين أنهم كانوا أشد أعداء النبى وأنهم لم يعتنقوا الإسلام إلا مكرهين بآخرة ، وأنهم أبناء الطلقاء الذين عرفوا كيف يجنون لأنفسهم ثمرة انتصاره وسيادته عن طريق استغلال ضعف عثمان أولا ، وبالمهارة فى استغلال مقتله ثانياً ، وكان من السخرية بفكرة الحكومة الدينية أن يظهر الأمويون ممثليها الأعلين فهم كانوا مغتصبين ، وظلوا كذلك ، ولم يكونوا يستندون إلا إلى قوتهم الخاصة التى لم تصبح رغم تظاهرهم بحماية الدين حقاً شرعياً .

وقد أبرز هذا التناقض مخالفتهم الظاهرة لمبادئ الإسلام الذى تمسحوا به فى جميع مجالات الحياة السياسية .

فقد نقضوا بسياستهم العصبية هذا الأساس الذى أقاموا عليه دولتهم وهو الاعتداد بالعنصر العربى والعمل على تقويته ،فكانت سياستهم تعمل فى حقيقة الأمر على إضعافه وتشتيته لخدمة الأغراض الخاصة والمنافع الدنيوية. فلعبت الدولة بالعصبية واستخدمتها سلاحاً تسلطت به على العصبيات المختلفة ، وراح الخلفاء والولاة يتداولون التقريب والإقصاء لعشيرة دون عشيرة حتى لم يسلم البيت الأموى ذاته من هذا الصنيع كما فرق الأمويون بين اليمانية والقيسية .

وقد أحفظ تقريب الأمويين اليمانية قيساً فلبت نداء عبد الله بن الزبير فى ثورته على بنى أمية وخاضت بسبب ذلك معركة العصبية العنيفة إلى جانبه ضد كلب وحلفائها .

وقد سار الخلفاء من بعد معاوية ، وولاتهم على هذه الخطة فزادوا فى حدة التنافس وضرب القبائل بعضها ببعض ، بما لا يتفق وسيادة العنصر العربى وقوته التى ادعوا ، كمالا تتفق ومبادئ الدين الذى يدعو إلى الاتحاد والمساواة والعدل .

وقد حرصوا فى كل الحالات على أن يكونو فوق هذا التنافس ولكن لم

يفلح فى تلك السياسة إلا قليل منهم ومن الولاة الطغاة لأول عصرهم ، أما الذى كان يحدث فى الأغلب فهو أن يستظهر الوالى بقبيلته أو بقبيلة حليفة تشاركه التمتع بمميزات منصبه حتى إذا عزل وأتى وال آخر بقبيلته ، كان الأمر ينتهى بأن تقع القبيلة المخلوعة فى العداء المرير للقبيلة الحاكمة .

وقد تجلى هذا بصورة محزنة فى خراسان حيث ارتفع شأن قيس على يد عبد الله بن خازم السلمى ، وارتفع شأن أزد عمان على يد المهالبة وحل محل التنازع القديم بين بكر وتميم تنازع بين قيس وتميم أولا ، ثم بين قيس والأزد، وأخيراً بين ربيعة وقيس ضد تميم .

واختلف موقف قيس وكلب وتغلب من النزاع حول الخلافة واتخذ الصراع صورة دامية ، وأدت هذه السياسة بقيس إلى أن تلعب فى الشام وخراسان دوراً سياسيًّا كبيراً وبخاصة أبناؤها من ثقيف الذين شغلوا كثيراً من المناصب العليا أهلهم لها اشتهارها بالبطش والجبروت ، بينما ركنت تميم فى البصرة وخراسان إلى الترفع عن هذه المناصب لزهو خالط نفوسهم فقل تدخلهم فى السياسة وإن اتحدوا أخيراً مع قيس وانضموا إلى حزب مضر الكبير فى مواجهة الأزد الذين احتضنوا ربيعة وبكراً فى محاولة لتكوين عصبية كبيرة ضد حلف مضر .

ولم يقتصر الأمر على نقض أساس العصبية والاعتداد بالعروبة فحسب ، وإنما نقض الأساس الآخر المعتمد على الدين على الرغم من تظاهرهم به ، فلم يستطيعوا مغالبة شهواتهم وكانت حياتهم فى بلاطهم وحاشيتهم لا تحقق من كافة الوجوه ما كان ينتظره الأتقياء من كبت النفس ومغالبة الهوى والابتعاد عن زخرف الدنيا ومتاعها وتجاوز الأمر ذلك إلى إساءة استخدام السلطات وظلم الناس ، وجريان أموال المسلمين إلى أفراد قلائل ، ومقارفة الآثام بأنواعها التى أصبحت لذات للسادة لا يعاقبون عليها لأن الحدود عطلت ولم يرع النظام الأموى حرمة ما هو مقدس فى الإسلام .

وحقًّا لا يطمع أحد فى أن يسير الأمويون سيرة المسلمين الأول ، إذ

لم تكن سيرة هؤلاء لتبقى أبد الآبدين ، ولكنهم كانوا على مفترق طريقين ولم يكن من الصعب عليهم أن يكون ملكهم على مشابه هذه السيرة بارًّا نقيًّا مصوناً من بذخ الهرقلية والكسروية ، وسائر ضروب الملك فى عصوره الخالية ، كان فى وسعهم أن يبرأ ملكهم مترسما النهج الصديقى أو الفاروقى ، وإن لم يبلغوا مداه من النزاهة والصلاح ، وكان هذا الترسم بدوره خليقاً أن يظل إماماً للحكام وللرعية يتوارثونه ، ويحميهم نكسة الأخلاق والآداب قروناً كما يحميهم من بقايا الوثنية وأوشاب المادية وما شابهها من آداب تدور على النفع العاجل . ولم يكن مثل هذا النهج مستحيلا فقد استطاع أحد خلفائهم أن يترسمه بنجاح وهو عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ) ذلك الخليفة الراشد الذى حاول أن يعيد صورة الخلافة الأولى وخلافة جده عمر بن الخطاب بالذات ، وهو وإن لم يبلغ مبلغه فقد نجح فى أن يجعل البون بينه وبين بنى أمية جميعاً شاسعاً ، حتى عده المؤرخون الأموى الوحيد الذى استطاع أن يستحق لقب خليفة ، وأنه ثالث خليفتين لا ثالث لهما سواه هما أبو بكر وعمر وعدوا حكمه غرة فى جبين ذلك القرن الذى امتلأ بالزيغ عن الدين وتلطخ بالاستبداد وسفك الدماء .

وبسبب سياسته العادلة دخل فى الإسلام أفواج جديدة وانقاد له الخوارج فهادنوه وكاد يفلح فى إقناعهم وكان قبره الوحيد الذى لم ينبش من قبور بنى أمية ، وقد رد ميراث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبطل لعن علىّ على المنابر وساد العدل عصره ونال الموالى حقوقهم حتى ليعد عهده وبالا على الأمويين ، فقد أغرى بهم وبسياستهم التى عمدوا إليها وعمد إليها ولاتهم ، وهى سياسة لا يقرها الإسلام ولم يألفها المسلمون وكأنهم لا يرون فيما بيّن الله ورسوله من الحدود ، وما ساس به الخلفاء الراشدون أمور الناس ما يكفى لحمل الرعية على الجادة . فكانوا يأخذون بالظنة ويعاقبون على الشبهة ويأخذون الولى بالمولى والمقيم بالظاعن والمقبل بالمدبر والمطيع بالعاصى والصحيح بالسقيم حتى ليلقى الرجل أخاه فيقول انج سعد فقد هلك سعيد .

وإذا ما قرأنا خطبة زياد بن أبيه سنجد فيها تمسحاً ظاهراً بالإسلام وفى الوقت نفسه اغتصاباً لحقوق الناس باسمه ، فهو يسلب حريتهم باسم الطاعة ويزعم أنه وسادته يسوسون الناس بسلطان الله الذى أعطاهم وفىء الله الذى خولهم ، وكان الإسلام يفرض عليه أن يقول إنهم إنما يسوسون الناس بسلطان الله الذى رفعتهم الأمة إليه ومنحتهم إياه ، وأن الفىء ملك للأمة تأتمن عليه خلفاءها وولاتهم ليضعوه مواضعه وينفق فيما يجب أن ينفق من الوجوه .

فلم يكن الإسلام ليبيح هذا الزعم كما لم يكن ليبيح هذا الاستعلاء وهذا الزهو على المسلمين ، كما لا يبيح الإغضاء عما وضع الله ورسوله للناس من حدود واضحة ، واستبدالها بالشناعات التى شرعها زياد وأمثال زياد من المعاقبة بالموت على دلج الليل والتنقيب عن قلب السارق ودفن الناس أحياء .

فالإسلام لا يبيح هذا كله كما لا يبيح التهديد والوعيد وأن يقسم وال على رعيته أن له فيهم صرعى ولما يقترفوا من الآثام ما يوجب عليه أن يصرعهم به ، ولقد قال أبو بلال مرادس ابن أدية لزياد بعد انتهائه من خطبته هذه : أخبرنا الله بغير ما قلت فقال : « وإبراهيم الذى وفّى ألا تزر وازرة وزر أخرى وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

ولقد أثارت تلك السياسة البعيدة عن روح الإسلام سخط أهل الدين والورع والفقهاء والقراء . وكانت العبرة التى أخذت من مفاسد السياسة سبباً فى ظهور اتجاه فى الإسلام شبيه بالاتجاه الإنجيلى يريد أن يبتعد عن السياسة باعتبارها فتنة ولا يثق بمزاعمها الدينية ، ولهذا الاتجاه ممثلون بلغوا غاية النبل منهم الحسن البصرى فى البصرة وسعيد بن المسيب فى المدينة وكان يصب اللعنات على بنى أمية فى كل صلاة .

وليس صحيحاً أن هؤلاء الأتقياء من علماء الشريعة وعلماء القرآن كانوا يحلمون بمملكة ليست من هذا العالم كما يزعم بعض المؤرخين لأن الحق الذى كانوا يعارضون به هذه السياسة الدنيوية كان حقًّا إيجابيًّا ثابتاً تماماً ومكتوباً ومأثوراً وموجوداً فى القرآن الكريم والسنة الشريفة ، وليس من الأحلام أن

الأتقياء من المسلمين يرومون أن تسير الدولة فى حدود ما سن الله تعالى ولا تتعدى حدوده ، فقد كانت هذه الدولة التى يرومون قائمة بالفعل فى عهد الخلفاء الراشدين على خير ما تكون دولة ، وليست إذن دولة خيالية أو جمهورية يوتوبية ، كما يصورها المغرضون من أصحاب المنافع المقصودة أو المؤرخون من أصحاب المنافع التى هى أخطر منها على الحقيقة وهى منافع الطبائع المادية المستسلمة لأيسر المعاذير والتى يشق عليها الصعود إلى المثل الأعلى . وليس صحيحاً أنه تبين لهؤلاء المتذمرين الساخطين أن الاحتكام إلى الله وترك الأمر له كان من الأسلحة التى لا تجدى فتيلا ، لأنهم كانوا يعارضون الأسرة الأموية بكل سلاح للمعارضة كما قاوموا الروح التى كانت تسيرها فى حكمها ، وقد كان فى رأى هؤلاء الأتقياء أن هذه الأسرة التى أقامت سياستها على أساس من النظام الوراثى المعيب قد ولدت فى الإثم لأنه نظام غير شرعى ولا يتفق مع الدين ، ولا يحقق مثلهم الأعلى الذى يقوم على دعامة من الحكم الدينى كما كان هذا النظام فى تقديرهم عقبة فى سبيل الدولة التى يرومون قيامها .

وقد كان أشد هؤلاء التقاة معارضة للنظام الأموى الخوارج ، إذ أخذ الحق الدينى عندهم صورة مبدأ ثورى بالمعنى الكامل ، وتطرفوا فى الأخذ بمبدأ الحكومة الدينية وجعلوه مسألة اعتقادية ، وكانوا فى جهادهم فى سبيل دولة الله أشد ما يكون المجاهدون إخلاصاً ، ولم يتلبس تمسكهم بهذا الحق بأية أغراض دنيوية مدخولة ، كما أنهم لم يجعلوا لأحد طاعة مقدمة على طاعة الله وتجردوا من كل عصبية ، فأفسحوا للموالى فى فرقهم ، وقد أداهم تطرفهم وما كانوا يشعرون به من فرق كبير بين الحق الذى يعتنقونه والنظام القائم إلى الثورة على الجماعة ، وعدوا مذهبها فاسداً ، وأخذوا أنفسهم بالهجرة عن ديارها متأسين بالنبى فى هجرته عن دار الكفر ، زاعمين أن الإسلام لا يتجاوز معسكرهم وأن ليس أحد غيرهم جديراً باسم المسلمين ، واستحلوا إراقة دماء غيرهم من المسلمين دون تحرج فنشروا الرعب فى أرجاء العالم الإسلامى ، واستأصلوا شأفة كل من جنح إلى السلبية فى مقاومة الأمويين ، فكانوا يقتلون

كل من يروى حديثاً عن النبي يحذر فيه من الاشتراك فى الفتنة ، ولا نبعد إذا قلنا إنه يرجع إليهم دون غيرهم تغيير المرجئة لأسلوبهم السلبي واتجاههم إلى مقاومة الدولة مقاومة إيجابية عنيفة .

وكذلك كان الشيعة أشد بغضاً للأمويين ، وهم وإن لم يكن لهم تجرد الخوارج لاعتقادهم بضرورة وجود أسرة بعينها على رأس الدولة الدينية ، فقد كان زوال أسرة بنى أمية هو الطريق الموصل إلى إعادة الحق لأسرة النبي صلى الله عليه وسلم والتى يتزعمها علىّ بن أبى طالب وذريته .

وكان شيعة علىّ أول أمرهم كل أهل العراق فى مقابل أهل الشام شيعة معاوية ، ولقد ظل علىّ بعد وفاته رمز سيادتهم المفقودة لأنهم وبخاصة أهل الكوفة كانوا يشعرون بأنهم فقدوا الجولة أمام أهل الشام وفقدوا معها زعامة الإمبراطورية الإسلامية بتحول العاصمة عن الكوفة إلى دمشق وعودتها مصرا كالأمصار التابعة لأهل الشام فتاقوا إلى طرح سيادتهم ما واتتهم الفرصة .

وقد وجد جمهور أهل العراق وبخاصة أهل الكوفة فرصتهم فى مؤازرة الشيعة والخوارج ، ومعنى هذا أنهم جعلوا قضيتهم قضية الإسلام نفسه بصورة من الصور وتوسلوا بالدين وبمبادئه من الحق والعدل فى مناهضتهم للقوة الغاشمة التى مثلها الأمويون ، ومضى الشيعة فى مناهضتهم على الرغم من مناوءة الأشراف الذين احتاطوا لأنفسهم فلم يشاركوهم ثورات لا ينتظر لها نجاح فوضعوا نفوذهم باسم الهدوء والنظام فى خدمة الحكومة لكيلا يعرضوا مراكزهم للتلاعب .

وقد نجم عن معارضة الشيعة لسيادة الأشراف من زعماء القبائل ظهور فرق الكيسانية ذات الأصول السبئية ، تلك الفرقة التى ذهبت مذاهب غالية فى التعلق بآل البيت وبعلىّ رمز السيادة المفقودة ، استخدمت فيها آراء غريبة كالتناسخ والرجعة والحلول ، وأسبغوا على علىّ صفات إلهية حتى جعلوه الروح الإلهى المتجسد ووارث النبوة المفترى عليه، والمغصوب الحق ، وكانت هذه الأفكار تجد انتشاراً واسعاً بين موالى الفرس بالذات الذين صار لهم

شأن سياسى على يد المختار الثقفى الذى اتخذ منهم جيشه محاولا أن يسقط بهم أشراف الكوفة ليتسنى له إقامة حكومة تحت رئاسته تقضى على التمايز الذى نفخت فيه الدولة بين العرب والموالى أو بين السادة والعبيد ، وقد استبدلت الدولة هذه التفرقة بنظام الولاء الإسلامى الذى كان يكفل لهم المساواة والأخوة المتكافئة ، وفتح هذا الصنيع الباب أمام الموالى للياذ بالمذاهب والدعوات المناهضة للدولة ، فلا يكاد داعية من الدعاة يجهر بمذهب معقول أو غير معقول إلا ويلقى إلى جانبه جموعاً منهم تهوى إليه ، وقد توزع الموالى بين الشيعة والخوارج ، فنصروا هؤلاء تارة وتارة هؤلاء لأنهم جميعاً أعداء لعدو واحد ولنظام واحد مناقض لفكرة المساواة الإسلامية التى منحتهم حرياتهم وحقوقهم المدنية فى ظل الحكومة الدينية التى لا تؤمن إلا بالله ولا تعترف لأحد غيره بالملك والسلطان .

وهكذا كان من السهل استخدام مبادئ الإسلام وسيلة لإعطاء الموالى حقهم وانتزاعها من أيدى العرب ، وقد وقف أهل الديانة والورع من العرب إلى جانب الموالى وحالفتهم فرق المعارضة ضد بنى أمية الذين كانوا يمثلون سيادة الأمة العربية لا سيادة الإسلام .

وقد سبق الخوارج إلى ذلك ، وترسم الشيعة خطاهم كما فعل المختار الثقفى الذى نجح الأشراف فى القضاء على حزبه فى الكوفة ، ولكن الموالى نقلوا مبادئه هناك فى أرضهم الحقيقية حيث تمكنوا بها من إسقاط الدولة الأموية .

وتحت وطأة المعارضة التى تتكئ على الفكر الإسلامى ، اضطر الأمويون إلى اصطناع نفس الوسيلة لمساندة نظامهم ، فأظهروا عطفاً على بعض الفرق التى تدين بأفكار سلبية كالمرجئة الأولى التى كانت ترى كل شىء متوقفاً على الإيمان الذى لا يضر معه العمل ولا ينفع بدونه ، وكان انتشار مبادئ هذه الفرقة كفيلا بأن يجعل الأمة تراهم مسلمين حقيقيين ومن أهل القبلة ، فتكون شكوك الورعين حينئذ لا تستند إلى أساس متين .

والمتتبع لتاريخ هذه الفرقة يجد أنها لم تحكم على الخلافة الأموية بأمر من الأمور ولم تر فيها رأياً ، ويعد هذا الموقف السلبي استمراراً لموقفها فيما مضى حول مسألة وجوب اعتبار كل من علىّ وعثمان مؤمناً أو آثماً . وتركهم أمر الحكم فيه إلى الله .

وواضح أن هذه الأفكار المعتدلة – وإن وافقت كتلة المسلمين التى خضعت لحكم بنى أمية – لم تكن لتتفق وعاطفة أولئك الورعين المتشددين الذين كانوا لا يرون فى سياسة وصول الأمويين للحكم وفى رجالاتهم وعمالهم إلا الفسق والكفر ، وأيضاً كان إدراك المرجئة المتساهل أو المتسامح يتعارض تعارضاً مباشراً مع أولئك الذين يؤيدون مطالب العلويين التى تسمو إلى قيام دولة ذات حكم إلهى مؤسس على الشريعة الإلهية ومحكومة بآل النبى ولهذا برز بوضوح التناقض التام بين المرجئة والشيعة حتى عدت كلمتا شيعى ومرجئ كلمتين متقابلتين .

وقد استندت الدولة الأموية على فرقة المرجئة زمناً ولكن يبدو أنه أمام إصرار الفرق الأخرى على انتهاج المقاومة الإيجابية العنيفة أصبح موقف المرجئة ضعيفاً وحرجاً متهماً ، وقد اشتد الخوارج الذين يمثلون وجهة النظر المقابلة لهم فى عدم الاعتداد بالإيمان وحده والأخذ بتكفير مرتكب الكبيرة فى مجابهة السلبيين بالقتل، فعمد المرجئة من ثم إلى القوة وتقدموا خطوة فى اتهام مبادئهم ووجدوا الفرصة فى ثورة يزيد بن المهلب فثاروا معه ثم أيدوا ثورة الموالى فى خراسان وذابوا بعد ذلك فى الفرق الأخرى ، وكانت الجبرية من الفرق التى استندت إليها الدولة الأموية فى حماية نظامها وزاد اعتمادها عليها بخاصة بعد اتجاه المرجئة إلى أسلوب العمل العنيف ويفسر هذا كراهية الأمويين الشديدة للقائلين بالقدر ، وهو موقف له بواعثه السياسية العميقة التى جعلت الأمويين يلمحون فى ترك عقيدة الجبر خطراً لا على الإيمان ولكن على سياستهم فى الرعية ، لأنهم كانوا يعلمون علم اليقين أن دولتهم كانت تثير سخط التقاة والورعين الذين كان لهم تأثير قوى على قلوب العامة ، وأنهم –

الأمويين – فى رأى كثير من الأمة، غاصبون وصلوا إلى السلطان بوسائل القهر والغلب، وأنهم أعداء لآل النبي وقتلة لأشخاص محبوبين ومنتهكون للأماكن المقدسة ، فلو أن عقيدة عملت على إمساك الأمة بالعنان وصرفتها عن الثورة عليهم وعلى ممثليهم ، لكانت عقيدة الجبر فمن صالح الأمويين أن تنتشر هذه العقيدة إذن وأن تتأصل لتلقى فى روع الناس أن الله قد حكم أولا بوصولهم إلى السلطان، وبأن سياستهم قدر إلهى مقدور ومحكم، حتى لو أدى بهم الأمر وصولا إلى هذه الغاية إلى وضع الأحاديث التى تحمل هذا الغرض وإلى الإيحاء إلى القصاص بتأكيد ذلك فى وجدان العامة وعقولهم ومعتقداتهم .

وأيضاً فقد ألقوا إلى الشعراء بأن يؤصلوا هذه العقيدة فى النفوس حتى تصبح سيادتهم لدى الناس قدراً محتوماً لا مناص منه ولا محيد عنه ، فيحجم كل منهم بالثورة إذا رأى أن بهم تحرجاً ، وكانوا يلجئون إلى هذا الأسلوب أكثر ما يلجئون عندما يطمعون فى تهدئة الناس إذا ما ابتلوا بما يثير هدوءهم وطاعتهم ليستقر فى نفوسهم أن أمير المؤمنين وما يجيء عنه من آلام قدر من الله ، وليس لأحد أن يتهم ما يصدر عنه أو يشكو منه .

ومهما كان من أمر فإن بنى أمية قد جهروا بهذه العقيدة ليبرروا بها سوءات حكمهم وليس أدل على ذلك من تبرير عبد الملك بن مروان – الذى اشتهر وأبوه فى كتب التاريخ بالعبادة والنسك واحتج به وبعمله الإمام مالك فى الموطأ – لقتل عمرو بن سعيد بن العاص بأنه قدر مقدور .

وقد حرص بنو أمية حبًّا فى استكمال الصورة على أن يكونوا فى شعر شعرائهم أئمة للدين والهدى على الكراهية والرضا ، وأنهم أئمة العدل المنصورون بأمر الله وأنهم خلفاء الله وورثة نبيه بل يتصفون بأخص صفات الشيعة التى يخلعونها على أئمتهم ، فهم الهداة المهديون الذين ذكرتهم التوراة وبشرت بهم القسس ، والمهديون المباركون الذين أدوا عهد الرسول ، والأئمة الذين يستمدون الحكم من الله مما يمتلئ به شعر جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء بنى أمية ومن ربط حبله بحبلهم لسبب أو لآخر .

وعلى الرغم من هذا كله تبدو الصورة مصنوعة ومبالغاً فيها ، شأنها فى ذلك شأن كل شىء ربطته السياسة الأموية بالإسلام حتى ليمكننا القول بأن علاقة بنى أمية بالإسلام كانت علاقة اسمية فحسب وأن روح حكمهم كانت تتعارض مع مبادئ الإسلام حتى ليظن من يتصفح تاريخهم أن الروح الجاهلية قد عادت وحييت فى صور جديدة عندهم فاتخذوها أسساً لنظام حكمهم ، بينما كانت المبادئ ، والقيم الإسلامية تقف مع المعارضين فى الجبهة الأخرى . وعلى الرغم من كل هذا فإن الفكر الإسلامى مدين لبنى أمية لأن انقلابهم السياسى عن روح الخلافة الإسلامية إلى نظام الملك الوراثى ، وما صاحبه من بطش وجبروت ، كان أول الفرص التى سنحت فى الإسلام لإثارة الأفكار والمسائل الكلامية إلى جانب المسائل السياسية نتيجة لما أذكوا من روح المعارضة والخلاف والفرقة بين الجماعة الإسلامية كما سنرى فى الفصول التالية من الدراسة .

الباب الأول

الفرق الإسلامية في الشعر الأموى

١ – الفصل الأول : الشيعة

٢ – الفصل الثانى : الخوارج

٣ – الفصل الثالث : الزبيريون

٤ – الفصل الرابع : المتكلمون

الفصل الأول

الشيعة

١

يختلف الباحثون والمؤرخون فى تحديد الموقف الذى نشأت فيه الشيعة . فيذهب بعضهم إلى أن التشيع أقدم مذهب ظهر فى تاريخ الإسلام ، وأنه نشأ فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن أربعة من كبار الصحابة قد لقبوا باسم الشيعة هم أبو ذر وسلمان والمقداد وعمار[١] .

ويذهب بعضهم إلى أن البذرة الأولى للشيعة هى الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى أن أهل بيته أولى أن يخلفوه[٢] ويميل إلى هذا الرأى ما كدونالد فيذهب إلى أن بداية ظهور الشيعة كانت فى اجتماع السقيفة[٣] .

ولكن فريقاً آخر من الباحثين يذهب إلى أن الشيعة لم تظهر إلا فى عهد علىّ[٤] بينما لم تظهر بمعناها المذهبى إلا بعد هذا الوقت بكثير ، وعندما تم الأمر لمعاوية بنزول الحسن عن الخلافة بالذات[٥] .

ويحشد الذين يميلون إلى الرأى الأول كثيراً من الأدلة التاريخية تسند رأيهم منها أن النية اتجهت لمبايعة علىّ بعد وفاة الرسول من بعض القرشيين أمثال العباس وأبى سفيان[٦] ، وأن جماعة من الصحابة كانت ترى أن علياً أفضل

---

(١) أحمد عارف الزين / مختصر تاريخ الشيعة / ص ١٠ – ١١

(٢) أحمد أمين / فجر الإسلام / ص ٢٢٦ ، أحمد الشايب تاريخ الشعر السياسى ص ١٥٥ .

(٣) Development of Muslim Theology PP. 8-10

(٤) ضياء الدين الريس / النظريات السياسية الإسلامية ص ٢٧ .

(٥) على وبنوه / ص ١٧٥ .

(٦) شرح نهج البلاغة / ج ٦ ص ٧ .

من أبى بكر وعمر وغيرهما ، وأن بين من كان يرى هذا الرأى عماراً وأبا ذر وسلمان الفارسى وجابر بن عبد الله وبنى العباس وأبى بن كعب وحذيفة وكثير غيرهم [١] .

ويروى أن عليًّا تلكأ فى مبايعة أبى بكر ستة أشهر لأنه كان يرى نفسه أحق بالأمر[٢] ، وقد خرج هذا الميل إلى علىّ إلى الجهر والإعلان يوم الشورى عندما جهر عمار والمقداد إلى ابن عوف بضرورة مبايعة على ، وتبادلا الشتائم مع أولئك الذين اقترحوا ترشيح عثمان من بنى أمية [٣] ووجد علىّ على ابن عوف واتهمه علناً بأنه ما ولى عثمان الأمر إلا ليرده إليه فيما بعد ، وأنه حباه — على حد قوله — حبو دهر[٤] .

وكلها أدلة تحاول أن تثبت أن تطلع علىّ إلى الخلافة بعد رسول الله ثم بعد مقتل عمر لم يكن إلا نتيجة لوجود فريق من المسلمين حوله يراه أحق بالأمر من سواه . ولكننا نلاحظ أن كلمة الشيعة لم تكن قد استخدمت بعد مضافة إلى علىّ للدلالة على هذا الفريق ، وبذلك لا يكون هناك تعارض ما بين هذا الرأى ورأى الذين يتأخرون بظهور الشيعة إلى زمن الصراع بين علىّ ومعاوية ، والذين يحتجون بما ذكره المرتضى من أن مذهب الرافضة قد حدث بعد مضى الصدر الأول ، وأنه لا يمكن أن نعد عماراً وأبا ذر والمقداد أسلافاً لهم لقولهم بإمامة علىّ ، وذلك لأنهم لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهما ، ولأنهم عملوا لعمر بن الخطاب ، وأن أول من أحدث هذا القول عبد الله بن سبأ ولم يظهر قبله [٥] وأيضاً لا يتعارض هذا مع رأى الذين يتأخرون كثيراً بظهور الشيعة إلى الوقت الذى تم فيه الأمر لمعاوية ما دامت

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٦٧ .
(٢) الطبرى ج ٣ / ٢٠٢ .
(٣) الطبرى ج ٥ / ص ٣٤ — ٣٦ ، مروج الذهب / ج ٢ / ٢٣١ .
(٤) الطبرى ج ٥ ص ٣٧ ، ابن الأثير ج ٣ ص ٣٠ — ٣١ .
(٥) المنية والأمل / ٤ ، ٥ .

كلمة الشيعة غير محدودة المفهوم .

وفى اعتقادنا أن كلمة الشيعة لم تظهر مضافة إلى علىّ إلا بعد وقوع الفتنة ، ولم تدل على معناها المعروف عند الفقهاء والمتكلمين إلا بعد مقتل على ونزول الحسن عن الخلافة لمعاوية، وإنما كانت الكلمة تدل على معنى آخر فى حياة علىّ هو نفس معناها اللغوى الذى جاء فى قوله تعالى[١]: «ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه » ، وفى قوله عز وجل[٢]: « وإن من شيعته لإبراهيم » واللفظ فى الآيتين وفى غيرهما من الآيات بمعنى الأنصار والأتباع الموافقين، وعلى هذا تكون شيعة علىّ المسلمين الذين ناصروه واتبعوه ووافقوه ، وبهذا المعنى أيضاً كان لمعاوية شيعة رأته أحق بالأمر فناصرته واتبعته ووافقته ، وفى إبان الفتنة لم يكن للفظ معنى آخر وراء هذا المعنى أو أبعد منه، فقد جاء فى صحيفة التحكيم بين علىّ ومعاوية «هذا ما تقاضى عليه علىّ بن أبى طالب ومعاوية ابن أبى سفيان ، قاضى علىّ على أهل الكوفة ومن معهم من (شيعتهم) من المؤمنين والمسلمين ، وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من (شيعتهم) من المؤمنين والمسلمين» بل إن الصحيفة أطلقت الكلمة على الفريقين معاً فسوت بينهما فى قولها : « وإذا توفى أحد الحكمين فإن أمير الشيعة يختار مكانه »[٣].

إذن لم يكن لكلمة الشيعة معناها الذى نعرفه لها عند المشتغلين بالعقائد قبل خلافة معاوية ، وإنما كان معناها إبان الفتنة ؛ الأنصار بالنسبة للخصمين جميعاً ، وعلى هذا فإننا نستطيع أن نلمح فى تاريخ هذه الفرقة التى عرفت بالشيعة بمعنى الكلمة الاصطلاحى ثلاثة أطوار ، كان الطور الأول منها فى

(١) سورة القصص آية ١٥ .
(٢) سورة الصافات آية ٨٣ .
(٣) محمد حميد الله الحيدر آبادى / مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة / ص ٢٨١ ، الطبرى ج ٦ س ٣٣ .

حياة على قبل الفتنة ، ولم تكن كلمة الشيعة موجودة على الإطلاق ، ولكن هذا لا يمنع وجود جماعة لا يربطها رابط إلا اعتقادها بأن على أول الناس بالخلافة تدعو إليه سواء أكان ذلك بعد وفاة النبي أم بعد مقتل عمر ، ويمكن أن يطلق على هذا الطور طور الدعوة .

وكان الطور الثانى طور العمل السياسى ، إذ أصبحت هذه الجماعة بمن انضم إليها أو بمن احتواها من أتباع عبد الله بن سبأ اليمنى اليهودى الأصل حزباً سياسياً بمعنى الكلمة ، وعلى الرغم من أن هذا الحزب قد رفع شعارات دينية تمثلت فى معتقدات الرجعة والتناسخ والوصية ، واستمداد الحكم من الله بالحق الإلهى ، فإن بواعث حركته كانت فى حقيقة الأمر سياسية محضة هدفها التخلص من حكم عثمان ، الأمر الذى نهض به بنشاط عبد الله ابن سبأ متنقلا بين الأمصار الإسلامية حتى انتهى به المطاف إلى مصر ، ومنها أخذ ينشر أفكاره التى ألبسها لباس الدين ، ومن مصر بعث بدعاته إلى كل مكان لنشر الدعاء لعلى ، واتهام من ناوؤوه وتحريك الأمة ضد عثمان والطعن على الأمراء وإظهار الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لاستمالة الناس ودعوتهم إلى مؤازرة على [١] .

وقد ركن إلى ابن سبأ أولئك الذين كانوا يدعون لعلى ويرون أحقيته بالخلافة يوم السقيفة ، ويوم الشورى مثل أبى ذر الغفارى [٢] وعمار بن ياسر الذى أرسله عثمان إلى مصر للتحقق من حركة التذمر عندما شعر بها ففضل البقاء فيها إلى جانب ابن سبأ [٣] . ولم يبذل ابن سبأ جهداً كبيراً فى استمالة بعض كبار المسلمين الساخطين على عثمان فى مصر كمحمد ابن أبى بكر ومحمد بن أبى حذيفة الذى كان يكتب على لسان أزواج النبى فيها الشكوى مما فعل عثمان ، ويقرؤها فى المسجد [٤] .

---

(١) الطبرى ج ٥ ٩٨ — ٩٩ ، خطط المقريزى ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٢) الطبرى ج ٥ ص ٦٦

(٣) الطبرى / ٥ ص ٩٩ تاريخ ابن خلدون ج ٢ / ١٣٩ ، الخطط ج ٢ ص٣٣٤.

(٤) الولاة والقضاة ١٤ ، الخطط ج ٢/٣٣٥

وقد اختمرت ثورة الحزب وخرجت إلى دور العمل والتنفيذ فى الفترة التى شغل فيها والى مصر لعثمان فى غزوة ذات الصوارى سنة ٣٤هـ [١] وانتهت الثورة بمقتل عثمان بعد أن انضم إليها ثوار الكوفة الذين شايعوا الحزب وصاروا جزءاً منه بعد ذلك .

ولما تولى علىّ الخلافة تطور مذهب السبئية إلى الغلو الشديد فى علىّ حتى عدوه إلهاً ، وكانت النتيجة أن حرقهم فى النار فكانوا أيضاً يصيحون وقنبر مولاه يلقيهم فيها : « الآن صح عندنا أنه الإله » [٢] .

وأمر على بنفى عبد الله بن سبأ إلى ساباط المدائن ولما قتل علىّ أبى ابن سبأ أن يصدق أنه مات ، وزعم أن الذى مات شيطان على صورته ، وأن علياً صعد إلى السماء كما صعد عيسى ، وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه [٣] ، وأنه فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وكان كل من سمع من السبئية صوت الرعد قال : عليك السلام يا أمير المؤمنين [٤] .

وكان المحكمة قد شقوا عصا الطاعة على الإمام وخرجوا عليه من قبل تحريق السبئية فلم يبق من حوله إلا أهل الكوفة الذين أصبحوا كلهم حزبه فى مواجهة حزب معاوية ، ثم كان ما كان من تثاقلهم عن نصرته وقتل علىّ وليس له شيعة منظمة من أهل العراق كشيعة معاوية من أهل الشام ، ولما تولى معاوية الملك فى دولة الإسلام كلها ولم يعد رئيس حزب ، أصبح لفظ الشيعة مقصوراً على أتباع علىّ ، ودخل فى هذا الاستعمال أيضاً تعارضهم مع الخوارج [٥] .

ولم يندمج أهل العراق فى وحدة الدولة الإسلامية إلا كارهين مرغمين

---

(١) سيدة الكاشف / مصر فى فجر الإسلام / ص ١١٦ .
(٢) الفرق بين الفرق / ٢٢٣ .
(٣) الفرق بين الفرق / ٢٢٣ .
(٤) المرجع نفسه .
(٥) فلهوزن الشيعة والخوارج ص ١٤٦ .

وبظواهرهم لا بقلوبهم ، ومن ثم أصبح على راية كفاحهم ضد ظلم أهل الشام ، لأنهم كانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التى كانت فيها الكوفة حاضرة الإسلام على أنها عصرهم الذهبى ولم يكن ذلك إلا تعبيراً عن الرأى السياسى فى الإقليم كله ، فكان جميع سكان العراق خصوصاً أهل الكوفة شيعة على تفاوت فيما بينهم وبخاصة بعد أن تحققت نذر علىّ لهم وتنبؤه بأن قعودهم عن نصرته سيجر عليهم الشر فندموا على تفريطهم وغلوا فى حبه وأسرفوا فى تعظيمه وإكباره عزاء عما قدموا له من الإساءة فى حياته ، وقد ساعد على نمو هذا الاتجاه مخالطتهم للفرس واندماجهم بنفوسهم التى ترسب فيها الولاء للملوك على اعتقاد أنهم مصطفون من الله لسياسة خلقه ، اعتقاداً بنظرية الحق الإلهى التى لم تعتنق كما اعتنقت فى عهد الدولة الساسانية [١] .

وعلى هذا النحو كان التشيع ، ولكنه لم يكن فرقة فارسية كما ذهب إلى ذلك دوزى [٢] وعلى هذا النحو سرى حب أهل العراق لعلىّ ، ورأوا فيه رمزاً لسيادتهم المفقودة ، وأذكى هذا الروح لما عرفوا عن الفرس وتمجيدهم لملوكهم ما عرفوا ، وبانضمام الموالى الباحثين عن المساواة كما أذكاه كراهيتهم التقليدية لأهل الشام منذ عهد الدولتين الفارسية والرومية والمناذرة والغساسنة والمضرية والقحطانية ، وأضافت السيادة الجديدة لأهل الشام ناراً جديدة إلى اللهب الذى اشتعل أواره رغبة فى التكفير عن خذلان الإمام وندماً على ما فرطوا فى حقه .

وقد كان من مظاهر هذا العداء بين أهل العراق وأهل الشام أن سكان العراق ظلوا طوال العصر يستجيبون لكل من يقودهم للثورة على بنى أمية . فخرجوا مع الحسين ، وكانوا جنوداً فى ثورة المختار ، وفى حرب مصعب ابن الزبير ، وفى خروج عبد الرحمن بن الأشعث على الحجاج وعبد الملك ومع يزيد بن على ضد هشام ومع ابنه يحيى فى عهد الوليد بن يزيد ، وأيضاً

---

(١) فجر الإسلام ص ١١١ .

(٢) الشيعة والخوارج ٢٤٠ .

ثاروا مع يزيد بن المهلب ضد الدولة.

وأنتج هذا كله ندماً وتلاوماً وإجالة للرأى فيما يمكن أن يكفر عن جريرتهم ولم تمض أعوام قليلة حتى أخذت وفودهم تفد إلى المدينة للقاء الحسن الذى كان قد تنازل عن الخلافة متأثراً بخذلان أهل العراق له ساخياً عنهم لقتلهم أباه وطعنهم له وانتهابهم لمتاعه[١].

وقد أقبل عليه ذات يوم وفد من أشراف الكوفة فقال متكلمهم سليمان ابن صرد الخزاعى: «ما ينقضى تعجبنا من بيعتك معاوية، ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء، وهم على أبواب منازلهم ومعهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم سوى شيعتك من أهل البصرة والحجاز فأعد الحرب جذعة، وائذن لى فى تقدمك إلى الكوفة فأخرج عنها عاملها وأظهر خلعه وتنبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين». فقال الحسن: «أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم فى أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أنصب، ما كان معاوية بأبأس منى بأساً ولا أشد شكيمة، ولا أمضى عزيمة، ولكنى أرى غير ما رأيتم، وما أردت فيما فعلت إلا حقن الدماء فارضوا بقضاء الله وسلموا الأمر والزموا بيوتكم وأمسكوا، وكفوا أيديكم حتى يستريح بر ويستراح من فاجر[٢]».

ويعتقد بعض الدارسين أن اليوم الذى لقى الحسن فيه هؤلاء الوفد من أهل الكوفة ورسم لهم خطتهم فيه هو اليوم الذى أنشئ فيه الحزب السياسى المنظم لشيعة علىّ وبنيه برياسة الحسن، وفيه عاد أشرافهم بالخطة المرسومة ينتظرون الأمر بإثارة الحرب من الإمام المقيم فى المدينة[٣].

ونحن لا نفسر انتظار الحسن إلا بأنه كان يتوقع ألا يعدل الناس به أحداً

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٢، مروج الذهب ج ٢ / ٣٠٦.

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٩٢، تاريخ الخلفاء ١٩٢، اليعقوبى ج ٢ / ص ٢٥٥، مناقب آل طالب ج ٣ / ص ١٩٧.

(٣) على وبنوه / ص ١٨٩.

بعد وفاة معاوية ، ولكنه توفى سنة ٥٠ هـ ومعاوية لا يزال حياً . وقد نهج معاوية بعد استتباب الأمر له مع الحسن سياسة لينة ، ولكن هذا اللين لم يمنعه من أن يوحى إلى المغيرة بن شعبة أول من ولى على الكوفة أن يشتم علياً ويذمه ويترحم على عثمان ويستغفر له ، وأن يعيب على أصحاب علىّ ويقصيهم ويترك الاستماع إليهم وأن يرغم بعضهم على شهود هذا اللعن، مما أثار طائفة من أخلص الشيعة وملأهم غيظاً ، فشغبوا على المغيرة فى المسجد وتبعهم الناس وكان زعيمهم فى هذا الشغب حجر بن عدى وكان من أصحاب علىّ وشيعته المخلصين له الحب ، وقد شهد معه الجمل وصفين والنهروان ، وكره صلح الحسن ولامه على تنازله وكان صالحاً ، وقد وفد على النبى مع أخيه هانئ ابن عدى وشارك فى فتح الشام والعراق وأبدى فى نهاوند شجاعة فائقة ورابط مع المرابطين فى الكوفة ينتظر أن يرتاح بر أو يستراح من فاجر ، ولكنه لم ينتظر بعد أن جاهر المغيرة بشتم علىّ ومدح خصومه فجاهر بشتم من مدحهم المغيرة وزكى من شتمهم ، وطالب المغيرة أن يؤدى إلى الناس ما أخر من عطائهم فهذا أنفع وأجدى [١] .

ولكن المغيرة كان يسوس الناس فى الكوفة سياسة ينظر فيها إلى نفسه فاتبع معهم الرفق والسماحة ، وترك لهؤلاء ولغيرهم من المعارضين قدراً من الحرية ، وكان يحتج إذا ما حدّث فى ذلك بأنه إنما يقتل بسياسته تلك الشاغبين عليه لأنه سيأتى بعده أمير يحسبونه مثله فيقتلهم عند أول وهلة وكأنه قد قر قراره على أن يدع سفك الدماء والشقاء به لغيره [٢] ، وكان المغيرة على حق فقد حدث ما توقعه إذ لم يكد زياد بن أبيه يصبح والياً على المصرين سنة ٥١ هـ ، حتى سار فى الكوفة سيرة الجبابرة وطارد حجراً الذى شغب عليه بسبب امتناعه عن إمضاء القود لذمى قتله مسلم ، وكتب فى شأنه إلى معاوية فنصحه بأن ينتظر له أول حجة يقيمها عليه .

وقد طارده وطارد أتباعه الذين لحقوا ببنى قومه من كندة ، ولم تذعن كندة

---

(١) الطبرى/ ج ٦ ص ١٤٣ .

(٢) الطبرى / ج ٦ ص ١٤٣ ، الأغانى/ ج ١٦ ص ٢ .

لأمر زياد بتسليمه على الرغم من استعانته عليها بقبائل اليمن، وخشى حجر أن يعرض قومه للأذى بسببه فأمرهم بإغماد سيوفهم ولاذ بالفرار ، فكان يجد ملجأ حيث سعى ، فقد كان العطف العام فى جانبه وانتهى لدى أحد الأزديين وفقدت الشرطة أثره ، وحينئذ ألقى زياد التبعة على كندة وسيدها محمد بن قيس بن الأشعث وأنذره بأن يسلم حجراً فى ثلاثة أيام ، فنهض حجر بنفسه حينئذ وتقدم إلى زياد وأخذت عليه العهود بألا يحكم فى أمره وإنما يرسله إلى الخليفة يرى رأيه فيه، وحبسه زياد عشر ليال وطلب بقية أصحابه فأتى باثنى عشر لم ينكروا تشيعهم[١] وكانت تهمة حجر أنه وأصحابه جمعوا الجموع وأظهروا شتم الخليفة وخلعوا الطاعة وفرقوا الجماعة ودعوا إلى لعن معاوية وإلى الحرب والفتنة ونكث البيعة وخلع أمير المؤمنين وكفروا كفرة صلعاء[٢] ووقع وثيقة الاتهام سبعون رجلا ، ولم يتحرج زياد من أن يكتب توقيعات نفر لم يشهدوا ولم يحضروا الشهادة . ومن هؤلاء من كتب إلى معاوية يبرئ نفسه من هذه الشهادة مثل شريح القاضى الذى شهد فى كتابه إلى الخليفة بأن حجراً رجل صالح يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويصوم ويحج ويعتمر وأن دمه حرام ، فلما قرأ معاوية كتابه لم يزد عن أن قال : أما هذا فأخرج نفسه من الشهادة وصدق معاوية على وثيقة الاتهام ، وأخلى سبيل ستة من أصحاب حجر ، ورغب فى العفو عن حجر والباقين لو تبرءوا من علىّ ، فقبل اثنان أظهر أحدهما البراءة من على بلسانه وشفع فيه بعض أهل الشام فحبسه معاوية ثم نفاه ، وأما الآخر فأبى أن يبرأ من علىّ وأسمع معاوية ما كره سماعه فرده إلى زياد ليقتله شر قتلة ، فأمر به فدفن حيًّا ، وأما الستة الباقون فقتلوا وكانوا أول من قتل صبراً فى الإسلام ، وقد ثبت جنان حجر وهو يرى الكفن معدًّا والقبر محفوراً والسيف مشهراً ثم تقدم لينحر بعد أن صلى ركعتين أطال فيهما الصلاة[٣] .

---

(١) الطبرى / ج ٦ ص ١٥٠ .
(٢) الأغانى / ج ١٦ ص ٧ .
(٣) مروج الذهب / ج ٢ ص ٣٠٨ .

وقد ترك هذا الحادث أثراً كبيراً فى نفوس أهل الكوفة الذين شعروا بالخزى لأن قتل شخص بسبب خروجه على الدولة مهما يكن ما يبرره يثير ثائرة النفوس وبخاصة إذا شمل الأمر رجالا بارزين [١] وقد ذعر المسلمون لهذا الحدث حتى مزق الأسى قلوب الكثيرين وأظهرت السيدة عائشة غضبها الشديد وهمت بالخروج وأرسلت إلى معاوية من يراجعه ولكنه وصل بعد فوات الأوان ، وكذلك غضب الحسن البصرى ، وأطلق عبد الله بن عمر حبوته وانطلق والناس يسمعون نحيبه ،وتألم ربيع بن زياد والى خراسان واستنكر هذه الفعلة معاوية بن حديج فى أفريقية عندما قال لقومه من بنى كندة : ألا ترون أنا نقاتل لقريش ونقتل أنفسنا لنثبت ملكها ، وهم يثبون على بنى عمنا فيقتلونهم » ، وقد تجلى هذا الغضب فى شعر الكوفيين الذى تعج به كتب السير والتاريخ [٢] .

وكان تأثير هذا الحادث فى نفوس الشيعة أشد خطراً ، إذ ملأهم بالحقد والغضب ،وساندهم المسلمون جميعاً وبخاصة قبائل اليمن التى شعرت بالخزى لعجزها عن أن تخلص أبناءها من بطش السلطان ، واتحدت معارضتها مع معارضة الشيعة فى ذلك الوقت .

وكان لهذا الحادث ولأخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بعد ذلك أكبر الأثر فى قوة أمر الشيعة وانتشار دعواهم ،ومما يدل على خطر هذا الحادث وعظم تأثيره فى المسلمين أن الحسن البصرى كان يقول : أربع خصال كن فى معاوية لولم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة : انتزاؤه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها أمرها بغير مشورة منهم ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلاف ابنه بعده سكيراً خميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ،وادعاؤه زياداً ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الولد للفراش وللعاهر الحجر » ، وقتله

---

(١) الشيعة والخوارج ص ١٥٩ .

(٢) انظر فى ذلك : الطبرى جـ ٦ ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٦ ص ١٠ ومروج الذهب جـ ٢ / ص ٣٠٨ .

حجر ، ويل له من حجر وأصحاب حجر ، ويل له من حجر وأصحاب حجر »[١] .

وقد آل أمر الشيعة إلى الحسين بن على الذى كان كره ابتداء صلح أخيه وهم أن يعارض فأنذره الحسن وأشار عليه بالوفاء والطاعة ، فظل فى المدينة يتحرق إلى الفرصة التى تتيح له استئناف الجهاد من حيث تركه أبوه ، فلما قتل حجر ونقض معاوية صلحه مع الحسن فى ترك الأمر شورى من بعده بأخذ البيعة لابنه يزيد ، غير الحسين سياسة المهادنة فأطلق لسانه فى معاوية وولاته حتى أنذره معاوية وأغرى الحسين الشيعة بالاشتداد فى الإنكار على الأمراء . ومات معاوية والدعوة الشيعية قد كسبت فى الأعوام العشرة الأخيرة من حكمه نجاحا بعيداً فى شرقى الدولة وفى جنوبى بلاد العرب ، حتى كان الناس وعامة أهل العراق بنوع خاص يرون بغض بنى أمية وحب آل البيت لأنفسهم ديناً . وقد أحيا موت معاوية الأمل فى نفوس الشيعة ؛ فما إن ولى يزيد حتى أرسل إلى عامله بالمدينة أن يأخذ له البيعة من كبار الصحابة وأبنائهم فى الحجاز وكان أن امتنع عبد الله بن الزبير وفر إلى مكة ، وكذلك سار الحسين إليها ولم يبايع ليزيد ، وكاتبه الشيعة بالكوفة فاجتمعوا فى منزل سليمان بن صرد وأرسلوا إليه كتاباً جاء فيه « إنه ليس علينا إمام فاقدم علينا لعل الله أن يجمعنا بك على الهدى فإن النعمان بن بشير فى قصر الإمارة ولسنا نجتمع معه فى جمعه ولا نخرج معه إلى عيد ولو قد بلغنا مخرجك أخرجناه من الكوفة وألحقناه بالشام »[٢] واتبعوا هذا الكتاب بكتب أخرى ذكروا فيها أسماء الشيعيين الذين حضروا الاجتماع وطلبوا منه أن يبادر بالقدوم إلى الكوفة[٣] .

ومنح الحسين هذه الكتب مزيداً من عنايته فقد كان أصحاب الرسائل

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٥٣ .

(٢) الأخبار الطوال ٢٣٤ .

(٣) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٣ ، ٤ .

رجالا بارزين من القبائل وبخاصة اليمانية ، وقد كانت أكبر القبائل عدداً وأهمية فى الكوفة[١] وقد قيل إن الحسين تسلم نحواً من مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات[٢] . ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة ولكنه آثر أن يبعث أولا من يتحقق له من الأمر ويتحسس له الأرض ويمهدها أمامه فإن أنس منهم نية صادقة وعزيمة مصممة ونصحاً لآل علىّ أخذ منهم البيعة مستتراً ، وعهد الحسين إلى ابن عمه مسلم بن عقيل بهذه المهمة فسار إلى الكوفة وهناك التف حوله كثير من الشيعة وبايعوه على النصر ، وفى مدة قليلة جمع إليه آلافاً من الشيعة وكثيراً من الأموال والسلاح وجرى كل شيء على ما يرام حتى إن مسلماً اغتر بما شاهده وأرسل إلى الحسين يستحثه على القدوم إلى الكوفة ، واشتبه النعمان بن بشير فى الأمر ولكنه سار فيهم سيرة رجل من أصحاب رسول الله رفقاً ونصحاً ودعوة إلى الطاعة والوفاء ببيعة يزيد ، ولكن يزيد عده متهاوناً فعزله واستبدل به عبيد الله بن زياد والى البصرة على مشورة سرجيوس مولى أبيه فجمع له المصرين كما جمعهما من قبل معاوية لأبيه فأخذ الشيعة بالشدة كما فعل أبوه ، ونهض بالأمر فى حزم وطلب مسلماً وجد فى طلبه وهدد من يخفيه بالصلب ، فتفرق الناس عن مسلم حتى استجار بهانئ بن عروة المرادى ونمى خبره إلى عبيد الله فأحضره وما زال به حتى أقر بإجارة مسلم فحبسه وهاج بنو مذحج لحبسه ، ولما علم مسلم بما حدث عجل بالخروج فجمع صحبه وسار بهم إلى السوق وانطلق عبيد الله إلى المسجد يثبط الناس من حول مسلم ، وفى المساء كان الناس قد تفرقوا وخلفوا مسلماً وحيداً شريداً يهيم فى سكك الكوفة حتى لم يجد إلا بيت أرملة التجأ إليه وكان ابنها مولى لمحمد بن قيس ابن الأشعث فأبلغ ابنها سيده فبعث عبيد الله صاحب شرطته ومعه رجاله فأحاطوا بالدار فلم يبلغ منه ثم أعطى له الأمان وأخذ إلى عبيد الله مجرداً

---

(١) الشيعة والخوارج ص ١٦٠ .

(٢) تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٤٣١ .

من سلاحه حيث أمر بقتله فطلب أن يوصى لعمر بن سعد بن أبى وقاص وأذن له ثم ذبح فوق القصر وألقى بجثته من حالق وقتل هانئ بن عروة وصلب القتيلان معاً نكالا وأرسل برأسيهما إلى يزيد فى دمشق[١] .

وكان كتاب مسلم[٢] قد وصل إلى الحسين قبل مقتله بشهر ، ووافق اليوم الذى خرج فيه مسلم ثائراً انتقال الحسين من مكة ، وقد صادف خروج الحسين من مكة ارتياحاً من شخص واحد فقط فى الحجاز هو عبد الله بن الزبير[٣] بينما أصم الحسين أذنيه عن سماع نصح الناصحين وتحذير المحذرين بطش ابن زياد وبأس يزيد وغدر أهل الكوفة . فصمم على الخروج ورفض أن يقبل نصيحة عبد الله بن عباس بأن يسير إلى اليمن[٤] كما رفض الاستجابة لنصيحته بألا يصحب معه نساءه وصبيته ولم يلتفت إلى كل هذا مؤمناً أنه إن أقام ولم يخرج فسيتعقبه بنو أمية بالقتل فى الحجاز .

وسار الحسين على رأس فئة قليلة من ثمانين رجلا من آله ولم يكن قد علم بعد بمقتل مسلم بن عقيل وخذلان الشيعة له ولكنه علم بالأمر عندما دنا من الكوفة فود أن يعود أدراجه ولكن إخوة مسلم طالبوه بالمضى ليثأروا لقتيلهم فنزل على رأيهم .

وكان ابن زياد قد رصد له المراصد وأمّر رجلا من أشراف الكوفة يقال له الحرّ بن يزيد على ألف من الجند وأمرهم بأن يلقوا الحسين فيأخذوا عليه طريقه وكان وقد وقع فى يد ابن زياد رسول الحسين ومعه كتاب أرسله إلى مسلم وهو فى الطريق إليه قبل أن يعلم بمقتله فأمر ابن زياد الحصين بن تميم رسول الله، الحسين بأن يصعد القصر فيسب الكذاب بن الكذاب ولكن الحصين صعد ليقول : «أيها الناس إن هذا الحسين بن علىّ خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله،

---

(١) الطبرى ج / ٦ ص ١٩٤ — ٢١٥ .
(٢) الأخبار الطوال / ٢٥٦ .
(٣) الكامل فى التاريخ / ج ٣ ص ١٧ .
(٤) الطبرى / ج ٦ ص ٢٢٥ .

وأنا رسوله إليكم وقد فارقته عند الحاجز فأجيبوه » ثم لعن ابن زياد وأباه واستغفر لعلى ، فأمر عبيد الله به أن يرمى من أعلى القصر فرمى به فتقطع ومات ، وعلم الحسين بخبر رسوله عند موضع يعرف بالثعلبية على مشارف الكوفة فتقدم إلى أصحابه بأن ينصرف منهم من أراد الانصراف ، فتفرق عنه من كان انضم إليه من العائدين من الحج من الكوفيين ، وعدد من البدو عند مواطن المياه ، وبقى فيمن خرج بهم من المدينة[1] . وسار الحسين حتى بلغ ماء ذى حسم وعسكر وتحصن بأرض مرتفعة ، وهناك اعترض طريقه الحر بن يزيد التميمى الذى حال بينه وبين الرجوع إلى المدينة وأخذ يسايره حتى يأتى أمر ابن زياد ، وفى نينوى على الفرات أتى رسول ابن زياد بأن ينزل الحسين فى العراء فى غير حصن وعلى غير ماء ففعل كما أمر ، ونزل الحسين موضعاً بلا ماء غير بعيد من الفرات فى سهل كربلاء ، ولما كان الغد وافاهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة على رأس أربعة آلاف . وكان ابن سعد قد استعفى عبيد الله فاشترط عليه أن يرد عن ولايته إن اسعتفى فاضطر كارهاً إلى السير لحرب الحسين ، وسار عمر بن سعد إلى كربلاء حيث بعث رسولا إلى الحسين يسأله فيم قدومه ؟ وأجاب الحسين بأنه أتى إجابة لما كتب إليه به أهل الكرفة فإذا كرهوه فإنه ينصرف عنهم ، وأبلغ ابن سعد هذا الجواب لعبيد الله فأجاب بأن يعرض على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية وأن يسلم نفسه وإلا استعمل ابن سعد القوة معه فإن تردد ابن سعد فى ذلك فعليه أن ينزل عن القيادة لحامل الرسالة شمر بن ذى الجوشن القيسى ، وأبى الحسين أن يستجيب لما عرض عليه ، وفى العاشر من المحرم سنة ٦١ ه انتظم كل فريق استعداداً للقتال ، وفى صف الحسين اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلا منهم ثمانية عشر من أبناء عمومته ، وزحف عمر بن سعد على الحسين وأصحابه فقاتلوهم نصف النهار وأبلى الحسين وصحبه أعظم البلاء فلم يقتلوا حتى قتلوا أكثر منهم ، ورأى الحسين المحنة كأشنع ما تكون المحن

---

(١) الطبرى / جـ ٦ ص ٢٢٥ .

فهؤلاء إخوته وأهله يقتلون بين يديه وفيهم بنوه وبنو أخيه وبنو عمه ، وكان الحر ابن يزيد قد ثاربه ضميره فانضم فى نفر معه إلى صف الحسين ، وكذلك انضم إلى صفه جماعة من جيش ابن سعد ضائقين برفض ابن زياد لما عرضه الحسين من شروط للصلح ، وكفارة عن مسلكهم السابق معه فقاتلوا بين يديه حتى قتلوا . أما الحسين فلم يجسر أحد على قتله إلى أن قام شمر بإبعاد الحسين عن معسكر النسوة والأطفال وهناك انقض عليه الكثيرون طعناً وضرباً حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة ، وأربع وثلاثين ضربة وسلبوه ما كان عليه حتى تركوه بالعراء ، وقد اشترك فى قتله زرعة بن شريك وأبو الجنوب بن زياد بن عبد الرحمن الجعفى ، والقثعم ، وصالح بن وهب اليزنى وخولى بن يزيد وسنان بن أنس النخعى وشمر بن ذى الجوشن الضبابى[١] وسبى القتلة النساء سبى الرقيق وفيهم زينب بنت فاطمة حتى إن المرأة كانت لتنازع ثوبها عن ظهرها حتى تغلب عليه فيذهب به منها[٢] ودفن شهداء كربلاء بعد أن احتزت رؤوسهم وسرح باثنين وسبعين رأساً إلى عبيد الله بن زياد ، ورفق ابن زياد بالنساء استخزاء من قول علىّ بن الحسين وكان صبيًّا وقد هم ابن زياد بقتله « إن كانت بينك وبين هؤلاء النسوة قرابة فأرسل معهن إلى الشام رجلا تقيًّا رفيقاً » ، هنالك تذكر ابن زياد أن أباه يدعى لأبى سفيان فاستحيا ولم يقتل الصبى وأرسله وسائر أهله إلى يزيد كما أرسل إليه برؤوس القتلى ، وقد لذ ليزيد أن ينكث فى ثغر الحسين بقضيب كان فى يده وهو يتمثل :

يفلقن هاماً من . أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وزعم الرواة أن أبا برزة صاحب رسول الله كان شاهداً فقال ليزيد لا تفعل ، فربما رأيت شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا الثغر مكان هذا القضيب وقد رفق يزيد بالنساء وجهزهن وردهن إلى المدينة ، وزعم

---

(١) مقاتل الطالبيين / ١١٩ .

(٢) الطبرى ج ٦ / ٢٢٠ .

الرواة أيضاً أن يزيد ندم على قتل الحسين ، وتبرأ من قتله وألقى عبء الإثم على ابن مرجانة عبيد الله بن زياد ، ومن قبل قتل معاوية حجر بن عدى وأصحابه وألقى العبء على زياد قائلا حملنى ابن سمية فحملت (١) .

وكان لمقتل الحسين فى أرض كربلاء التى لطخت بدم آل البيت أثر بعيد فى إذكاء نار التشيع وفى توحيد الشيعة ، والانتقال بمبادئهم من طور النظر إلى طور العمل . فقد كان قبل مقتله رأياً سياسيًّا نظريًّا فصار بعده ممتزجاً بدمائهم متغلغلا فى قلوبهم ، راسخاً فى نفوسهم ، كما أدى إلى انتشار التشيع بين الفرس أصهار الحسين (٢) . فقد كانوا يرونه أحق بالخلافة هو وأولاده من بعده لأنهم يجمعون بين أشرف دم عربى وأنقى دم فارسى ، ولهذا فقد أصبح الموقف مشحوناً وعلى وشك الانفجار ، ويتبين هذا من أن ابن زياد ارتقى المنبر بعد الحادث وخطب خطبة جاء فيها : « الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله ونصر أمير المؤمنين يزيد وحزبه وقتل الكذاب بن الكذاب وشيعته » فقام عبد الله بن عفيف وفند قوله بكلمات مملوءة حنقاً ومفعمة سخطاً على بنى أمية وأعوانهم من مثل قوله : « يا عدو الله إن الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين ؟ » (٣) .

وقد عالج المؤرخون أثر مقتل الحسين فأجمعوا على أنه كان له أكبر الأثر فى إسخاط الشيعة وعامة المسلمين وإثارة الأسى والحزن فى نفوسهم وإذكاء الحماس فى نفوس الفرس ، يقول نيكلسن : « إن جميع المؤرخين الإسلاميين الذين يكادون يجمعون — مع استثناء القليل النادر منهم — على بغض الأمويين والعداء لهم يعدون الحسين بن على شهيداً فى الوقت الذى يعدون فيه يزيد ابن معاوية سفاكاً ، على حين يرى جمهرة المؤرخين المحدثين رأى سير وليم مور الذى يذهب إلى أن الحسين بانسياقه إلى تدبير الخيانة سعياً وراء

---

(١) راجع فى مقتل الحسين الطبرى ج / ٦ ص ٢١٥ وما يليها.

(٢) الدعوة إلى الإسلام / ص ١٨١ .

(٣) الفاطميون فى مصر / ص ٣٣ .

العرش ارتكب جريمة هددت كيان المجتمع وتطلبت من أولى الأمر فى الدولة الأموية التعجيل بقمعها ، وكانت هذه بطبيعة الحال وجهة نظر الفريق الذى بيده النفوذ والسلطان ، وأما حكم التاريخ فى هذا الموضوع إذا تصدينا لبحثه وتمحيصه ، فلن يعدو أن يكون حكم الدين على الملكية أو قضاء الحكومة الدينية على الدولة العربية ، وعلى هذا الأساس يحكم التاريخ بحق بإدانة الأمويين ، على أنه يجمل بنا أن نذكر أن انفصال الدين عن الحكومة لا وجود له فى نظر المسلمين ، وقد اتخذ بنو أمية من يوم كربلاء سبباً كافياً يدعوهم إلى أن يندموا على ما فرطت أيديهم ، إذ أن هذا اليوم وحد صفوف الشيعة ، فصاحوا صيحة واحدة : الأخذ بثأر الحسين ، هذا النداء الذى دوى فى كل مكان ، وعلى الأخص عند الموالى من الفرس الذين تاقوا إلى الخلاص من نير العرب »[1] .

وواضح أن هؤلاء المؤرخين يغفلون أن الحسين لم يمض مصمماً على الحرب ولكنه عرض للصلح ثلاث خصال رفضت جميعاً ، فلم يكن ما وقع إلا تجبراً وظلماً ونتيجة خطأ التدبير من ولى الأمر ، إذ ظن ابن زياد أنه يجتث الشر بقتل الحسين فيوئس الشيعة ويضطرها إلى الإذعان ، ولكنه بذر فى هذا اليوم بذور السخط التى ثلت عرش الأمويين فيما بعد .

وتمت بهذه المذبحة محنة لآل البيت لم يمتحن بمثلها مسلم ، كما لم يمتحن بمثلها الإسلام ، فقد خولف فيها عما هو مألوف من الأمر بالمعروف والرفق والنصح وحقن الدماء إلا بحقها وانتهاك أحق الحرمات بالرعاية وهى حرمة رسول الله التى كانت تفرض على المسلمين أن يتحرجوا أشد التحرج ولما يمض على وفاة النبى غير خمسين عاماً فإذا أضيف إلى هذا أن الناس تحدثوا فأطالوا الحديث وألحوا فيه بأن الحسن مات مسموماً لتخلص الطريق ليزيد إلى ولاية العهد عرف أن أمور المسلمين قد صارت أيام معاوية وابنه إلى شر ما يمكن

---

(١) Litt. Hist. of Arabs. PP. 197-198.

أن تصير إليه[١] . ووقع الشيعة أثر ذلك فريسة لتأنيب الضمير والإحساس العارم بالخزى لإسلام الحسين وخذلانه كما خذل أبوه من قبل وزاد هذا الشعور ما أبرزه المؤرخون من التعارض بين سلوك المكلفين بحمايته من الذين استقدموه ولم يفعلوا شيئاً من هذا ، وبين غير المكلفين الذين أخجلوا الأولين وتجاسروا على اللحاق به فشاركوه مصيره بمدافع من الحمية الإنسانية . وقد عرض المؤرخون هذا عرضاً دراميًّا كما أبرزوا موقف الأشراف الذى اقتصر على الاحتفاظ بمراكزهم وعلى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم ، فعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد الحكومة فقد وضعوا نفوذهم تحت إمرتها لتوطيد الهدوء فى القبائل إذ قاموا بدور الشرط صنيع محمد بن قيس بن الأشعث وغيره[٢] .

وهكذا يبدو أن مقتل الحسين فتح عصراً جديداً لدى الشيعة وأنهم نظروا إليه على أنه أهم من استشهاد أبيه ، فكان شعور الذين طال بهم تأنيب الضمير بالحاجة إلى التفكير عن الكارثة التى جروا إليها الحسين عظيما ومؤلماً ، وشعروا بالحاجة الملحة إلى إرضاء ربهم بالتضحية بنفوسهم لتخليصها من الإثم فسموا أنفسهم بالتوابين ، وبدءوا ينظمون أنفسهم لأول مرة وكان أساس هذا التنظيم حوالى مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من العمر وولوا أمرهم سليمان بن صرد الخزاعى وكان على رأس الذين دعوا الحسين إلى الكوفة ، وعاون سليمان فى الأمر رؤساء أربعة يجتمعون كل يوم جمعة فى منزله ليسمعوا منه فى كل مرة نفس الخطبة التى صارت بمثابة قسم على الثأر والتفكير : «كونوا كالألى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم : إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ، ذلكم خير لكم عند بارئكم ، فما فعل القوم ؟ جثوا على الركب والله وقدّوا الأعناق ورضوا بالقضاء حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ، فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه ؟ اشحذوا السيوف وركبوا الأسنة

(١) على وبنوه / ص ٢٤٥

(٢) الشيعة والخوارج ص ١٨٣ .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل حتى حين تدعوا وتستنفروا»[١] .

وبقيت الحركة سرية حتى توفى يزيد بن معاوية فانطلقت من عقالها ، وطرد الشيعة نائب ابن زياد عن الكوفة ، واتسعت الحركة مع ازدياد الاضطراب الناجم عن تعدد الولاة ، إذ ولى الكوفة عمر بن سعد بن أبى وقاص ثم وليها آخر للأمويين ، وكان ابن الزبير قد وطد لنفسه فى العراق وبايعه أشراف الكوفة مرغمين ، فبعث بعبد الله بن يزيد الأنصارى والياً على الكوفة من قبله ، وازدادت شجاعة الشيعة وانتشرت دعوتهم على أوسع نطاق ، وعمل الدعاة على اجتذاب عواطف الجماهير ، وبرز فى مقدمتهم عبيد الله بن عبد الله المرى الذى كان يثير الناس بمثل قوله : « ابن أول المسلمين إسلاماً وابن بنت رسول رب العالمين ، قلت حماته وكثرت عداته حوله فقتله عدوه وخذله وليه فويل للقاتل وملامة للخاذل ، إن الله لم يجعل لقاتله حجة ولا لخاذله معذرة إلا أن يناصح الله فى التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين ، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل بيته ، وإلى جهاد المحلين والمارقين فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار وإن ظهرنا رددنا الأمر إلى أهل بيت نبينا »[٢] وقد أنتج هذا الدعاء عدداً كبيراً أقسم على الولاء ، واتصالات ناجحة مع المدائن والبصرة وأموالا وسلاحاً جمعا بنشاط كبير ، وكان شعار التوابين « يالثارات الحسين» . ولكنهم وإن كان لهم شعار واضح فلم يكن لهم فى الحقيقة هدف بنفس الوضوح ، إذ كان الاتجاه العام للحركة يميل إلى الانتقام من الأشراف الذين تسببوا فى إسلام الحسين وخذلانه بتواطئهم مع السلطة ، ولكن سليمان آثر أن يتجه الانتقام إلى المسئولين الحقيقيين مباشرة[٣] وكان ابن زياد قد انتقل إلى الشام واستعد هناك بجيش عظيم ليتسنى له إخضاع العراق

---

(١) الطبرى جـ ٧ / ٦٠ .

(٢) الطبرى جـ ٧ / ص ٦٢ .

(٣) الطبرى جـ ٧ / ص ٦٨ .

لمروان بن الحكم الذى صار خليفة للمسلمين بعد مؤتمر الجابية ومعركة مرج راهط التى كسبتها اليمانية لبنى أمية قبائل قيس المؤازرة لابن الزبير . ورأى والى الكوفة للزبيريين أن يفيد من حركة الشيعة التوابين فى ضرب الأمويين الذين لم يلبثوا حتى يقاتلوه فساعد الحركة وظاهرها وأبى أن يصغى لمشورة الأشراف بضربها ، وتجاوز كل حد عندما صرح للتوابين بأنه لهم على قاتل الحسين ظهير[١] وأصبح الشيعة وهم لا يخشون بأساً من السلطة الزبيرية فى الكوفة وإن كانوا رفضوا أن يتحالفوا معها ضد أهل الشام[٢] فأخرجوا أفكارهم إلى حيز التنفيذ وبادروا إلى العمل فاتعدوا أول ربيع الثانى سنة ٦٥ هـ فى معسكر النخيلة قرب الكوفة ودعوا أنصارهم من المدائن والبصرة واجتمع هنالك أربعة آلاف فحسب من المؤتمرين على الرغم من أن عدتهم كانت ستة عشر ألفاً[٣] ولكن من تجمعوا فى النخيلة كانوا عدداً كافياً للقتال ولم يكن فيهم أحد من الموالى[٤] إذ يبدو أن المختار بن عبيد الله قد استأثر بهم جميعاً فى دعوته لمحمد بن الحنفية بعد لقائه .

وبعد خمسة أيام من تجمعهم ساروا إلى كربلاء ، وهناك أقاموا على قبر الحسين يوماً وبعض يوم يقرون بخطئهم ويتعهدون باكين على الثأر ، وساروا إلى قرقيسيا حيث قدم لهم زفر بن الحارث الكلابى زعيم القيسية المعارضة لبنى أمية ما احتاجوا إليه من خدمات ، وأخبرهم بتحركات جيش الشام وأشار عليهم بأن يعمدوا إلى مبادرة عدوهم إلى عين الوردة لتكون ظهورهم إلى المدينة والماء بين أيديهم وتكون المنطقة بينهم وبين قرقيسيا منطقة أمان يتكفل هو بحمايتها لهم[٥] وقد أخذوا برأيه واستراحوا أياماً خمسة قبل أن تهاجمهم فرقتان من جيش الشام الخمس ، وجرت فى هذه الأيام مفاوضات مع قائد الجيش

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٥٤ .
(٢) الطبرى جـ ٧ / ٦٥ — ٦٧ .
(٣) الطبرى ٧ ص ٦٦ .
(٤) الشيعة والخوارج ص ١٩٥ .
(٥) الطبرى / جـ ٧ ص ٦٧ .

الحصين بن نمير السكونى ، وعرض عليه التوابون ثمناً لحقن الدماء تسليم عبيد الله بن زياد ليقتلوه ثأراً بالحسين وخلع عبد الملك وإخراج آل الزبير من العراق ورد الحكم إلى أهل بيت النبى . ولم يكن ممكناً أن يجيبهم إلى واحدة منها بطبيعة الحال فبدأ القتال فى الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ ﻫ واستمر ثلاثة أيام قاتل فيها الشيعة قتالا عنيفاً ، ولكن جيش الشام عمد إلى رمى النبال فقضى على التوابين ولم ينج منهم إلا قليل(١) ووخز الألم نفس هذا الفل ، فلم يكادوا يلتقون بإخوانهم من أهل البصرة والمدائن الذين جاءوا متأخرين حتى قرروا العودة معهم إلى القتال ولكن الأوان كان قد فات ، فبكى الجميع وانصرفوا بعد ذلك عائدين إلى الكوفة يتقاهم الشعور بالخطيئة أكثر مما تشغلهم الرغبة فى الانتقام ، وبرزت فى هذا الوقت شخصية كان لها أبعد الأثر فى تحول تاريخ الشيعة تحولا حاسماً وهى شخصية المختار ابن عبيد الله الثقفى ، وكان أبوه أول منتدب لحرب العراق عقب هزيمة المسلمين يوم الجسر فى فتح العراق ، وكان المختار من أسرة كريمة ، تزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب أخته كما كان صهراً للنعمان بن بشير وله بيت فى الكوفة وضيعة فى ضواحيها ، وعلى الرغم من الغموض الذى يحيط بحياته قبل لمعان شخصيته فى ميدان السياسة وبين الشيعة فإننا يمكن أن نلقى بعض الضوء على شخصيته الغريبة التى جهلها المؤرخون العرب نتيجة لوقوفه إلى جانب الموالى ، وقد تنوع نشاط المختار السياسى حتى ليصح أن يكون بحق مرآة للعصر الأموى ، لأن تاريخه فى الحقيقة هو تاريخ الأحزاب السياسية والفرق الدينية فى هذا العصر(٢) .

وكان أول عهده بالحياة السياسية لزومه عمه سعد بن مسعود والى المدائن بعد أن شهد مع أبيه قتال الفرس يوم البويب ، وقد كان بحكم منصب عمه أموياً عثمانى الهوى(٣) وإن لم يكن مخلصاً إلا لنفسه فى الحقيقة فقد كان

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ ص ٧٣ — ٧٤ .
(٢) المختار الثقفى ص ٥ .
(٣) أنساب الأشراف ج ٥ / ٢١٤ .

مغامراً يبحث عن الغنى والمجد . وقد أوعز إلى عمه أثناء التفاوض الذى حدث بين الحسن ومعاوية أن يثب فيوثق الحسن عند نزوله المقصورة البيضاء فى المدائن ويستأمن به إلى معاوية ، وقد أنكر عليه عمه هذا الرأى[١] ، ونراه بعد ذلك يرجع عن نزعته الأموية ويصير شيعياً غيوراً فيحجم ويسخط على إجازة اتهام حجر بن عدى ويروغ من زياد[٢] ثم نراه بعد ذلك متهماً أمام عبيد الله بن زياد بإيواء مسلم بن عقيل فى الكوفة ، وكانت مصاهرته للنعمان بن بشير دافعاً للنعمان إلى التغاضى عن مسلم والمختار ، وقد تسبب هذا الإغضاء فى عزله عن ولاية الكوفة ، وسجن المختار وشترت عينه بقضيب ابن زياد ، وظل سجيناً حتى شفع له صهره عبد الله بن عمر ، فنفى خارج الكوفة ومن منفاه تحول إلى الحجاز فاراً إلى ابن الزبير وهو يتوعد ابن زياد[٣] واستقر به المقام فى مكة ولكنه لم يصادف طلبته لدى ابن الزبير ، ففارقه إلى الطائف فأقام عاماً كاملا فيها يترقب الأحداث[٤] وكانت أحداث كثيرة قد وقعت فى هذا العام غيرت من رأى ابن الزبير فقبل أن يعمل له المختار على أمور اشترطها المختار عليه[٥] واشترك مع ابن الزبير فى قتال بنى أمية والزود عن الكعبة ولكنهما اختلفا بسبب رفض ابن الزبير الخروج إلى الشام مع الحصين بن نمير القائد الأموى لأخذ البيعة له هناك بعد وفاة يزيد بن معاوية ، ولامتناعه عن توليته العراق خوفاً من أن يستبد بالأمر لنفسه وهو يعلم ميوله الشيعية ، فقرر المختار الرحيل إلى العراق إذ كانت الأنباء تصل إليه بأن الشيعة مجمعون على الثأر للحسين ، ولكنهم لا يجدون الزعيم الذى يجمعهم ويلم شملهم ، فاحتال ابن الزبير موهماً إياه بأنه معنى بكسب مساندة الشيعة للزبيريين فى حربهم ضد بنى أمية ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٢ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٩٣ .
(٣) اليعقوبى ج ٢ ص ٥ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٧٢ .
(٥) نفس الموضع .

وقد صادف هذا الوهم ارتياحاً لدى ابن الزبير وبخاصة بعدما حدث بينه وبين ابن الحنفية من جفاء جعله يغادر المدينة مغاضباً له ، فاعتقل ابن الزبير ابنه الحسن وحبسه فى سجن عارم إلى أن استطاع الحسن أن يفلت من السجن فلحق بأبيه فى منى .

وبهذه الحجة انطلق المختار إلى العراق ، ولكنه كان يعقد عزمه على أمر خطير أخذ له أهبته فعرج بمنى حيث التقى بابن الحنفية وتقدم إليه بأنه جاد فى الثأر لقتلى بنى هاشم محاولا أن ينتزع منه تصريحاً أو تفويضاً بالعمل له ولكن ابن الحنفية لم يجبه بأكثر من أنه فوض أمره إلى الله وأنه لا يحب أن ينصرهم ويهلك من سفك دماءهم سواه جل شأنه وبأنه لا يأمر بحرب ولا بإراقة دماء [١] .

ولكن المختار صمم على أن يفيد من هذا اللقاء ، وبخاصة أنه كان يتنسم أخبار العراق فانتهى إليه وهو فى الطريق « أن الناس فى الكوفة كالسفينة تجول بلا ملاح عليها » ، فقال المختار : « أنا ملاحها الذى يقيمها » [٢] وخرج إلى العراق ليعلن للشيعة أنه قادم من لدى ابن الحنفية الذى اختاره أميناً ووزيراً منتخباً وأميراً وأنه عهد إليه بأن يأخذ ثأر القتلى من آل البيت فى كربلاء [٣] وكان ظهور المختار بالكوفة مرة أخرى فى رمضان سنة ٦٤ ﻫ والتوابون يعدون لثورتهم ، فراح يبالغ فى إظهار دعواه وأنه ما جاء إلا منتصراً لآل البيت داعياً إلى إمامة المهدى محمد بن الحنفية [٤] وتطلع المختار إلى الاستئثار بالأمر من دون سليمان بن صرد زعيم التوابين ، فجهد فى تفريق الناس عنه بحجة أنه ليس كفئاً وأنه أى المختار مفوض من قبل الإمام محمد ابن الحنفية وليس سليمان كذلك [٥] واستطاع المختار أن ينجح فى تفريق

---

(١) أنساب الأشراف /ج ٥ / ٢١٨

(٢) طبقات ابن سعد / ج ٥ ص ٧١

(٣) أنساب الأشراف / ج ٥ ٢١٨

(٤) ابن كثير / البداية والنهاية ج ٨ / ٢٤٩

(٥) نفس الموضع .

الناس عنه وأن يضم من أتباعه عدداً كبيراً صاروا يختلفون إليه ويعظمونه ، وعمل جاهداً على التخلص من سليمان إذ كان أثقل خاق الله عليه[١] وكانت نتيجة عمله أن انسلخ عن سليمان عدد كبير من أتباعه الذين إستعدوا للقتال معه ضد عبيد الله بن زياد[٢] نرجح أنهم من الموالى ، وقد غضب سليمان عندما لم توافه فى النخيلة غير أربعة الآف فحسب من مجموع الذين عاهدوه على القتال وهم ستة عشر ألفاً[٣] ولما سأل رفاقه عن هذا! قيل له إن المختار يثبط الناس عنك فقد تبعه ألفان[٤] .

واستغل المختار النزاع الذى وقع بين والى الكوفة لابن الزبير عبد الله ابن يزيد ونائبه إبراهيم بن محمد بن طلحة بسبب تهاون هذا الوالى فى قمع الشيعة ،واستغل المختار كذلك السياسة العنيفة الهوجاء التى أخذ بها إبراهيم أهل الكوفة فى ضم عدد كبير من الأنصار ، كما بالغ فى التنديد بتلك السياسة من مثل أن يستأجر نائحات كان يأمرهن بالخروج إلى طرقات الكوفة ينحن ويولولن فيثرن آلام الشيعة ويعدوهم نفسيًّا لمرحلة الأخذ بالثأر[٥] ولما بدأ أمره يستفحل أودعه إبراهيم بن محمد بن طلحة السجن قبل معركة عين الوردة بين التوابين وجيش الشام، فلما هزموا وقتل سليمان بن صرد أصبح الجو السياسى فى الكوفة خالياً له ، ومن سجنه كتب إلى فل التوابين النادمين على فشلهم فى الانتقام للحسين يقول : « لم يكن سليمان الزعيم الحق .. أنا .. أنا » وقد هم بعضهم من أنصاره باستنقاذه من السجن وأرسلوا إليه رسولا بذلك فلم يجد لذلك داعياً ، وأنبأهم أنه يخرج قريباً[٦] وبالفعل أطلق سراحه بعد قليل نتيجة جهود صهره عبد الله بن عمر بعد أن أخذ عليه واليا ابن الزبير عهداً

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ ص ٧٣ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ / ص ٧٣ .
(٣) الطبرى ج ٧ / ص ٦٦ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ / ص ٧٣ .
(٥) الإمامة والسياسة ج ٢ / ص ٢٣ .
(٦) ابن الأثير ج ٤ / ص ٨٨ .

وميثاقاً غليظاً على الطاعة والمسالمة [١] ولكنه أخذ يسخر من غفلة والى ابن الزبير وبمواثيقه لهما مؤكداً أنه على استعداد لأن يضحى بكل ماله وعبيده كفارة عن هذه المواثيق على ألا يضحى بطلب المجد والسلطان [٢] وأعفته الأحداث من الحنث بأيمانه إذ ولى الكوفة عبد الله بن مطيع القرشى أشد أنصار ابن الزبير حماسة ، وقد افتتح ابن مطيع عهده بخطبة شد فيها العنان ، ولم تكن موفقة ، إذ أعلن فيها أن أمير المؤمنين ابن الزبير قد أمره بأن يحمل فضل فيئهم عنهم ، وأن يتبع وصية عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته وسيرة عثمان بن عفان [٣] فحك ابن مطيع بكلامه قرحة قديمة ، إذ لم يكن أهل الكوفة ليرضون بأن يؤخذ فضل فيئهم ، بل لقد طالبوا بالإبقاء عليه فى الكوفة وتوزيعه عملا بما فعله علىّ عندما كانت الكوفة قصبة الخلافة ومقر بيت المال المركزى لا كما فعل عمر أو عثمان ، وقد استغل أحد وجوه الشيعة وهو السائب ابن مالك الأشعرى تلك الفرصة ليذكر أهل الكوفة بعظمتها ومجدها أيام علىّ فأسقط فى يد ابن مطيع واضطر إلى أن يعلن استعداده للنزول عند رغبات أهل الكوفة [٤] ونمى إلى ابن مطيع عن طريق صاحب شرطته إياس بن مضارب أن السائب الذى شغب عليه بالأمس من كبار أصحاب المختار ، وأن أمر هذه الجماعة لم يعد هيناً ، ونصح له بالحذر منهم وبالاحتيال فى استدعاء المختار وإلقاء القبض عليه وإيداعه السجن حتى يستقيم أمر الناس ، « فإن أمره قد استجمع له وكأنه قد وثب بالمصر » وعمل ابن مطيع بالنصيحة ، فبعث برجلين يستدعيان المختار تصادف أن أحدهما كان من مريدى المختار فدخل وقرأ قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » ملمحاً إليه بعزم الوالى على الغدر به ، وفهم المختار ما رمى إليه فتظاهر بالمرض ورجا الرسولين أن يعتذرا إلى ابن مطيع بأن المرض يمنعه من

---

(١) ابن الأثير ج٤ / ص٨٩ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ / ص ٨٩ .
(٣) ابن الأثير ج ٤ / ص ٨٩ .
(٤) نفس الموضع .

القدوم عليه[١] وبدأ المختار العمل ، وكان يتلهف إلى أن تستند دعوته إلى أحد العلويين مما جعل الشيعة يرتبطون به ارتباطاً أوثق ، وكان يعتقد أن سبب فشل سليمان بن صرد يرجع إلى أنه أغفل الاستناد فى دعوته إلى أحد أهل البيت ، وأنه لم يرسم خطة عريضة للمستقبل ، ووقع اختيار المختار على علىّ بن الحسين فهو ابن شهيد كربلاء الذى يقيم المختار دعوته على الثأر له ، فكتب إليه يقترح أن يأخذ له البيعة من أهل العراق وأرفق برسالته إليه مبلغاً كبيراً من المال ، ولكن ابن الحسين رفض الاقتراح فقد كان صبيًّا ولا تزال ذكرى كربلاء ماثلة فى ذهنه ، فآثر الابتعاد عن السياسة ومخاطرها[٢] وكان لجوء المختار إلى علىّ بن الحسين فى فترة لقى فيها من الشيعة شكًّا واشتباهاً فى أمر تفويض ابن الحنفية له إذ بلغ شكهم فيه درجة قرروا معها أن يخرجوا إلى ابن الحنفية يسألونه عن حقيقة أمر المختار فكان جوابه لهم ما أحب إلينا ممن طلب ثأرنا وأخذ لنا بحقنا وقتل عدونا[٣] أو قال : « أما ما ذكرتم ممن دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه[٤] ولقد فهم وفد الشيعة من ابن الحنفية أنه لا يمانع فى أن يثأر لهم على يد من يرغب فى ذلك ، وكانت هذه إجابة كافية لهم فعادوا يلتفون حول المختار الذى شعر بأنه استراح من هم ثقيل ، ودعا فى الحال إلى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من أولئك الذين يرتابون فيه ، وتدبر المختار أمره فهو لن يستطيع أن يلقى أى نجاح ضد أشراف الكوفة وضد والى الزبيريين ما لم يكسب رجلا خطيراً يتزعم النخع من مذحج هو إبراهيم بن الأشتر الذى كان أبوه ساعد علىّ بن أبى طالب الذى يبطش به ، وكان إبراهيم بارعاً كأبيه ماكراً مستقل الرأى كما كان على اتصال بمحمد بن الحنفية وإن آثر ألا يشترك فى حركات التشيع الأخيرة على الرغم من محاولات

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٨٩ .
(٢) المختار الثقفى / ص ١٤٦ .
(٣) اليعقوبى جـ ٣ / ص ٥ .
(٤) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٩٠ .

التوابين ومحاولات المختار العديدة لاكتسابه ، ولقد استطاع الشيعة أن يحملوا إبراهيم على الموافقة ، ولكنه اشترط أن يلى الأمر من دون المختار فاحتجوا عنده بأن ليس إلى ذلك من سبيل ، والمختار جاءهم من قبل المهدى وهو المأمور بالقتال وهم مأمورون بطاعته ، وفشلت هذه المحاولة أيضاً ، وبعد ثلاثة أيام قصده المختار بنفسه فى أنصاره وسلمه رسالة زعم أنها من المهدى محمد بن علىّ أمير المؤمنين تجرى على هذا النحو : « من المهدى إلى إبراهيم ابن مالك الأشتر سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فإنى قد بعثت إليكم وزيرى وأمينى الذى أرتضيه لنفسى وأمرته بقتال عدوى والطلب بدماء أهل بيتى ، فانهض معهم بنفسك وعشيرتك ومن أطاعك فإنك إن تنصرنى وأجبت دعوتى كان لك بذلك عندى فضيلة ولك أعنة الخيل وكل جيش غاز وكل مصر ومنبر وثغر ظهرت عليه فيما بين الكوفة وأقصى بلاد الشام »[1] وتشكك إبراهيم فى الأمر لأن ابن الحنفية يلقب نفسه بالمهدى وهو أمر لم يعهده منه فهو لا يكتب فى مراسلاته إليه غير اسمه واسم أبيه وأسرع المختار يبرر ذلك بقوله إن ذلك زمان وهذا زمان ولكن إبراهيم طالبه بأدلة دامغة على صدور الكتاب من ابن الحنفية فاستشهد بقوم زعم أنهم الذين قدموا بالكتاب وانتحى إبراهيم بعامر بن شراحبيل الشعبى يسأله هل يشك فى أمانة الشهود فأكد له الشعبى أمانتهم وقال : « معاذ الله فإنهم سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقاً » وسأله إبراهيم أن يكتب له محضراً بأسمائهم حتى اطمأن قلبه وحينئذ امتثل لما ورد فى الكتاب ووضع نفسه فى خدمة المختار ، ودعا عشيرته ومن فى طاعته وأقبل المختار كل مساء يدبر معه الأمر وأجمعوا على الخروج ليلة الخميس الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٦هـ[2] وبدأ الدور الإيجابى للثورة ، وتناهى إلى ابن مطيع خبر المختار وابن الأشتر وعزمهما على الثورة على رأس الشيعة

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ٩١ .

(٢) ابن الأثير جـ ٤ / ٩١ .

وإن لم يتحقق من الموعد المضروب بالدقة ، فأخذ من يوم الاثنين السابق على موعد الثورة يأخذ للأمر عدته واحتلت الشرطة الميادين العامة والسوق القريبة من المسجد الجامع ورسم ابن مضارب خطة المقاومة فبعث بابنه إلى الكناسة وبث فى كل جبانة عظيمة رجلا ليوقع الهيبة فى نفس المختار فلا يخرج[١] واحتل شبث بن ربعى السبخة ومعه جنده وتقدم إبراهيم على رأس فرقة مسلحة من مائة رجل فى طريقه إلى بيت المختار ولم يتجنب الشرط فاعترضه ابن مضارب فقتله إبراهيم وكان هذا الحدث إيذاناً ببداية الثورة قبل موعدها المضروب ولم يكن هناك مفر من المضى فيها ، ووضع أصحاب المختار رأس ابن مضارب على رمح وطافوا بها فى الطرقات ، وبدأ احتشاد جنود المختار فى الميادين منذ الليل وتوافرت للثورة جميع مقومات النجاح .

وفى صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من ربيع الأول سنة ٦٦ هـ نظم المختار أتباعه ونزل فى ظهر ديرهند مما يلى السبخة وأقام معهم صلاة الصبح ووعظهم وكان بجيشه كثير من الموالى الفرس المخلصين له وقد تراجع ربعى وجنده أمام فصيلة من الموالى ، فصرخ فى رجاله « يا حماة السوء بئس فرسان الحقائق أنتم أمن عبيدكم تهربون » ، وأثار هذا الكلام وتر الشرف وهزه ضد الموالى من أتباع المختار فراحوا يصرعونهم ويتركون الفرصة للعرب فى الفرار[٢] حتى أضحى جيش المختار فى حالة سيئة وأوشك قائد فرسانه يزيد بن أنس الأسدى أن يتضعضع لأن إبراهيم كان قد تقدم على رأس الكتلة العظيمة من الجيش يخضع أحياء المدينة وجباناتها وعاد فى الوقت المناسب يساند يزيد ضد أربعة آلاف من جند ابن مطيع بقيادة قائده الجديد راشد بن إياس ، وتمكن إبراهيم من هزيمتهم وقتل قائدهم وتعالت أصوات الشيعة بالتهليل والتكبير . وكانت قوات شبث بن ربعى قد فرت حين قدوم إبراهيم إلى السبخة ولكنهم ما لبثوا أن عادوا إلى الاحتشاد وانضم إليهم وآخرون ، ولكن إبراهيم فرق شملهم

---

(١) الكامل ج ٤ ص ٩١ .

(٢) الشيعة والخوارج ص ٢٠٨ .

وفر أشراف الكوفة كما فر ابن مطيع إلى القصر حيث حوصروا فيه ، وبهذا النصر زاد عدد الشيعة وجند المختار زيادة كبيرة ، ورجع الناس منهزمين إلى ابن مطيع الذى علم بقتل قائده فأسقط فى يده ، واستشار رفاقه فأشار شبث بن ربعى عليه بأن يأخذ لنفسه ولهم أماناً فكره أن يفعل هذا والأمور مستقرة لابن الزبير فى الحجاز والبصرة ، واستقر رأيهم على أن ينسل ابن مطيع فلا يشعر به أحد فيختبئ حتى يأمن فيلحق بابن الزبير [١] وأنسل ابن مطيع بعد ثلاثة أيام من القصر هارباً واستتر ، وأذعن الأشراف وبايعوا للمختار على كتاب الله وسنة رسوله بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا لا نقيلكم ولا نستقيلكم ، وأخذ المختار ما فى بيت المال وقدره تسعة ملايين درهم فكافأ أنصاره ونهض بالأمر فى الكوفة وسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة والصلح بين الأحزاب ، وتولى القضاء بمهارة وحماسة وترك ابن مطيع يرحل فى أمان وقواه بالمال وكف جنده عن القتل وارتكاب المظالم مما جعل الحريصين على مصالح الكوفة يستبشرون إذ أن المختار فكر فى أن يجعل الكوفة مركزاً للخلافة الإسلامية مرة أخرى [٢] .

وقد عنى المختار بالموالى عناية ملحوظة فى سياسته لأنهم كانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة ويهيمنون على مرافق الحياة من مهن وحرف وتجارة [٣] وقد كثر تعدادهم حتى فاقوا العرب فى بعض المدن وقد بلغ عددهم فى الكوفة لعهد معاوية عشرين ألفاً [٤] . وكانت غالبيتهم من الفرس الذين اعتنقوا الإسلام وأعتقهم سادتهم فانتسبوا إلى القبائل العربية وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق أكثر مما سمح به لهم سادتهم العرب أو سمح لهم سادتهم من الحقوق بأقل مما سمح به الإسلام ، لأنهم ظلوا فى خدمتهم وكانوا

---

(١) الكامل جـ ٤ ص ٩٤ .

(٢) الشيعة والخوارج ص ٢١١ .

(٣) Nickelson. Litt. Hist. of Arabes pp. 218

(٤) الأخبار الطوال / ٢٩٦ .

حاشيتهم فى السلم والحرب ، ولكن آمالهم انتعشت بإتاحة المختار لهم فرصة المشاركة المباشرة فى الدولة إن قربهم وأولاهم ثقته واختار منهم حرسه وكون منهم رجالة الجيش الذين يحملون الهراوات أو الكافر كوبات . ويذكر البلاذرى أن عنايته بالموالى نشأت منذ فجر حياته وكان المغيرة هو الذى لفته إلى أهمية الاستناد إليهم ، فقد سايره يوماً فى ولايته على الكوفة لمعاوية فمرا بالسوق فالتفت المغيرة إلى المختار : وقال : يالها من غارة وياله جمعاً .. إنى لأعلم كلمة لو نعق لها ناعق لاتبعوه ولا سيما الأعاجم الذين إذا ألقى عليهم الشىء قبلوه ، فقال له المختار : وماهى ياعم؟ قال المغيرة : يستأدون بآل محمد فأغضى عليها المختار[١] .

وكان لتشيع الموالى آثار دينية وسياسية فى تاريخ الشيعة ، وتتجلى الآثار الدينية فى الأفكار الفارسية التى دخلت إلى الفكر الإسلامى كعصمة الأئمة وتجسد الألوهية فى الإمام وغير ذلك من الأفكار . وكذلك كان لهم آثار فى السياسة لا تقل عن آثارهم فى العقائد ، من ذلك ظهور فكرة الوراثة القديمة الخاصة بالملكية الإلهية كما كان الموالى دائماً وراء كل حركة سياسية ، فسخطوا على بنى أمية لتمسكهم بروح العصبية العربية وإنزالهم غير العرب من المسلمين فى منزلة القطن وإبعادهم عن السياسة والقيادة ، وقد جمع المختار إليه الموالى واحتضنهم وجهد فى أن يسوى بينهم وبين العرب ولقى فى سبيل ذلك حرجاً بالغاً وهو العربى الشريف الذى لا يريد أن يفقد ولاء هؤلاء ويحرص على إنصاف أولئك ، وقد رأى أشراف العرب محاولات المختار من خلال عصبيتهم ، وشعروا كأنما أغرى بهم عبيدهم الذين لم يقنعوا بالتحرر ، فراحوا يمدون أيديهم لبسطها على الخراج والأعطيات الجارية ، وكان تعصب العرب على الموالى قد بدأ بعد قتل أبى لؤلؤة لعمر بن الخطاب ، فكتب عثمان ابن عفان إلى عماله يأمرهم بتفضيل العرب على الموالى وبخاصة فى العطاء[٢] .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الموالى هم المسئولون عن معاملة العرب

---

(١) أنساب الأشراف جـ ٥ / ٢٢٣ .
(٢) الطبرى جـ ٥ / ص ٦٣ .

لهم على هذا النحو ، لأنهم يعاملونهم كما يعاملون أكاسرة الفرس[١] ، وفى ظننا أن المسئول عن هذا ليس الموالى ، وإنما النزعة العصبية الجاهلية التى حاربها الإسلام وجهد فى القضاء عليها ، ولكنها عادت جذعة إلى نفوس العرب بعد زوال الخلافة الإسلامية ومبادئها السمحة ، وربما صورت لهم عصبيتهم أن يدافعوا الموالى غيرة على الدين واللغة ، فقد ظن العرب وبخاصة من ولاة العراق للأمويين أن معظم الموالى اعتنقوا الإسلام لمصالح شخصية كتولى الوظائف أو التخلص من دفع الجزية ، وخشى بعضهم أن تهجن اللغة إذا ما انتشرت اللكنة الفارسية واللحن ولهذا عربت الدواوين .

وفى العقد الفريد أمثلة كثيرة لاحتقار العرب لموالى العراق خلال الحكم الأموى ، ولقد اتبع المختار مع الموالى سياسة التسامح والمساواة والعدل وهال العرب من الأشراف أن يكافح الموالى فى سبيل مصالحهم الخاصة لا فى سبيل سادتهم وفتحت الكراهية على مصراعيها بين العرب والموالى وأهيجت العداوة ولم يفلح المختار فى اجتياز هذه العقبة ، فقد نقم عليه الأشراف تقريبه الموالى واعتماده عليهم ، فكان يقول لهم : « لا يبعد الله غيركم أكرمتكم فشمختم بأنوفكم ، وليتكم فكسرتم الخراج وهؤلاء العجم أطوع لى منكم وأوفى وأسرع إلى ما أريد »[٢] وكان يصفهم بأنهم ورثة الحضارة الفارسية وأنهم أولاد الأساورة من أهل الفرس والمرازبة[٣] ، وفى نفس الوقت كان يخشى أن ينقم الموالى عليه مهادنته للأشراف المسئولين عن خذلان الحسين[٤] .

وهكذا لم يكن الصراع بين المختار ومصعب بن الزبير فى حقيقته إلا صراعاً بين الموالى والعرب ، وقد ظن المختار أنه يستطيع أن يخدع ابن الزبير بأن يحالفه ضد العدو المشترك فكتب إليه « فإن ترد مراجعتى ومناصحتى

---

(١) تاريخ العرب العام / ص ١٧٣ .
(٢) الأخبار الطوال / ٣٠٦ .
(٣) الأخبار الطوال / ٣٠٢ .
(٤) الشيعة والخوارج / ٢١٤ .

فعلت » وكان هدف المختار أن يكف ابن الزبير عنه ليتم أمره ، والشيعة لا يعلمون بشيء من أمره [١] وفى الوقت نفسه كان خائفاً من أن يوجه إليه ابن الزبير جيشاً ينتقم لما فعله بابن مطيع [٢] ، وأراد ابن الزبير أن يتأكد من صدق المختار فبعث بعمر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومى وأعطاه نحواً من ثلاثين ألف درهم وسيره إلى الكوفة وأعلمه أن المختار سامع ومطيع ، وعلم المختار بقدوم عمر وأراد أن يصرفه بالحسنى فأوعز إلى زائدة بن قدامة ومعه خمسمائة فارس بأن يعرض على عمر سبعين ألف درهم فإن رفضها هدده بالسلاح ، وأبدى عمر الرفض أول الأمر ولكنه آثر المال ورحل به إلى البصرة حيث أقام إلى جانب سلفه ابن مطيع [٣] ، وأصر المختار على انتهاج نفس السياسة مع ابن الزبير ليخدعه عن نفسه فبعث إليه برسالة يطلب فيها أن يقره على الكوفة على أن يمده بمليون درهم فى مقابل أن يزحف المختار بجيشه لقتال عبد الملك ، ولكن ابن الزبير لم يثق به ورفض اقتراحه [٤] ، وحانت الفرصة أخيراً إذ بعث عبد الملك جيشاً بقيادة عبد الملك بن الحارث إلى الحجاز فكتب المختار إلى ابن الزبير يعرض المساعدة فاضطر ابن الزبير إزاء حرج موقفه لقبول عرضه وإن اشترط عليه أن يأخذ له البيعة من أهل العراق ، ولم يكن المختار يريد مساعدة ابن الزبير فى الحقيقة ، وإنما كان يأمل أن ينجح قائده شرحبيل بن ورس الهمدانى وجنده البالغون ثلاثة آلاف من الموالى فى انتزاع المدينة من ابن الزبير ولم يكن ابن الزبير مرتاحاً إلى المختار فأخذ الحيطة وأعد جشاً من ألفين بقيادة عياش بن سهل وعهد إليه بالدفاع عن المدينة ، فإن أيقن من إخلاص حلفائه تعاونوا ضد الأمويين وإلا فعليه أن يتخلص منهم جميعاً .

وعند وصول جند المختار صدرت إليهم الأوامر من قائد ابن الزبير بالتوجه

---

(١) ابن الأثير ج ٤ / ١٠٣

(٢) أنساب الأشراف ج ٥ / ص ٢٣٤

(٣) ابن الأثير ج ٤ / ١٠٣

(٤) ابن الأثير ج ٤ / ص ١٠٣

إلى وادى القرى ، ولكن ابن ورس احتج بأنه ليس لديه أوامر بهذا ، وزعم أنه أمر بأن يأتى المدينة وطلب مهلة يستفسر فيها من المختار ، وحدث أن نفدت مئونة ابن ورس فطلب من عياش إمداده فأمدهم ببعض الأغنام ، وانتهز انشغالهم بتجهيزها ، وإلقاء سلاحهم جانباً وهاجمهم بجنده فقتلوا ابن ورس وسبعين معه وتتبع عياش جند المختار فقتل منهم مائتين وفر الباقون حيث هلكوا جوعاً وعطشاً فى الطريق [١] .

ولم يفوِّت المختار الفرصة فبعث إلى محمد بن الحنفية يذكر له أن غرضه من إنفاذ هذا الجيش كان مساعدتُه ضد اضطهاد ابن الزبير له وعرض عليه أن يعيد الكرة فبعث جنداً كثيفاً لهذا الغرض ولكن ابن الحنفية كان ميالا للسلم فرفض عرضه ،وحدث أن باشر ابن الزبير اضطهاده وتعذيبه لابن الحنفية وبنى هاشم فحبسهم فى زمزم مستغلا قدومهم للحج ، وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا وضرب لهم أجلا ، فأشار عليه بعض أنصاره أن يستنجد بالمختار ففعل ، وانتهز المختار الفرصة فأثار مشاعر أهل الكوفة فبكوا وطلبوا أن يسيروا لنصرة ابن الحنفية وبعث المختار بجيش يقوده عبدالله الجدلى، ودخل المختاريون المسجد الحرام وهم ينادون بشعار المختار يا لثارات الحسين ، وكان قد بقى على الأجل الذى حدده ابن الزبير لبنى هاشم يومان فكسروا باب السجن وأطلقوا ابن الحنفية وأنصاره واستأذنوه فى قتال ابن الزبير فلم يستحل القتال فى الحرم واضطر ابن الزبير أن يخفض صوته بعد أن أحاط بابن الحنفية أربعة آلاف رجل وزع عليهم المال فعادوا أدراجهم ، وكان الأمويون فى شغل عن المختار بابن الزبير إذ أرسل مروان بن الحكم سنة ٦٥هـ بجيشين إلى العراق: أحدهما بقيادة ابن زياد والثانى بقيادة حبيش بن دلجه لاستعادة المدينة المنورة من جابر بن الأسود نائب ابن الزبير وشعر الحارث بن أبى ربيعة عامل ابن الزبير على البصرة بحرج الموقف فبعث بجيش استطاع أن يشغل حبيش عن فتح المدينة ، وتولى المدينة آنذاك لابن الزبير عياش بن سهل ، فاستطاع

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٤ .

أن يقضى على الجيش الأموى[١] بينما مضى جيش ابن زياد فلقى التوابين مصادفة ، ثم أمضى عاماً بعد عين الوردة مشغولا بالحروب القبلية فى الجزيرة مع قيس وقد أتاح هذا للمختار أن يمكن لنفسه وأن يبسط نفوذه فدانت له أرمينية وأذربيجان والموصل والمدائن وأرض جوخى وبيهقاذا وحلوان وأصبهان وقم والماهين وهمذان وغيرها[٢] وأيضاً كان ابن الزبير فى شغل عنه ببنى أمية فاضطر إلى مهادنته مؤقتاً [٣] .

ويئس ابن زياد من انتصار حاسم على زفر بن الحارث زعيم القيسية الموالى لابن الزبير فى الجزيرة ، فترك قتاله ومضى إلى الموصل وسارع عامل المختار عليها بإبلاغه بقدوم ابن زياد وبانسحابه أمامه إلى تكريت ، فدعا المختار قائده يزيد بن أنس لنجدة عامل الموصل فى ثلاثة الآف من الفرسان . واستعد قائد المختار لمعركة مع طلائع جيش ابن زياد .

والتقى الجمعان فى التاسع من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ قرب الموصل ، وكان أهل الشام فى ستة آلاف ، وعلى الرغم من أن قائد المختار كان يدير المعركة وهو مشرف على الموت لمرضه ، فقد انتصر على جيش الشام بعد موقعة استمرت يومين ومات على أثرها ، فتولى الجيش بعده ورقاء بن عازب الأسدى الذى آثر العودة ولم يجرؤ على مواجهة قوات الشام الرئيسية وهى تقترب بقيادة ابن زياد فى ثمانية آلاف [أ]رجل[٤] . وخشية من سريان إشاعة أرجف بها الأشراف فى الكوفة تزعم أن جيش المختار قد هزم وأن قائده قتل ، أمر المختار قائده ابن الأشتر بأن يسير فى سبعة آلاف إلى ميدان المعركة بأسرع ما يمكنه ، وانتهز الأشراف الفرصة فاجترأوا على المختار وعابوا عليه تقريب الموالى وحملهم على الدواب واعطاء هم فيئهم وتوليه الأمر دون رضاهم وادعاءه

---

(١) البداية والنهاية جـ ٨ ص ٢٦٠ .
(٢) ابن الأثير جـ ٤ / ٢٩٥
(٣) ابن الأثير جـ ٤ / ١٠٤
(٤) ابن الأثير جـ ٤ / ٩٧

أمانة ابن الحنفية وتمردوا عليه ، وكان شبث بن ربعى التميمى هو المتحدث بلسانهم ووعده المختار بالنظر فى الأمر واشترط عليهم فى مقابل إجابتهم لمطالبهم أن يقاتلوا الأمويين والزبيريين إلى جانبه ، ولكنهم رفضوا هذا العرض وقطعوا الاتصال بينها وبين الخارج وحصروا المختار فى القصر ، ولكنه أفسد تدبيرهم بأن اقترح أن يرسل وفداً ويرسلوا وفداً إلى ابن الحنفية لسؤاله عن مدى تأييده للمختار قاصداً بهذا أن يريثهم حتى يقدم عليه قائده ابن الأشتر [١] ونجح المختار فى إنفاذ رسول إلى ابن الأشتر لم يحتج إلا إلى يوم واحد حيث أبلغه بالأمر ، وفى المساء التالى كان إبراهيم يعسكر إلى جوار مسجد الكوفة واستؤنف القتال الذى حدث عند إعلان ثورة المختار من جديد ، وتداخلت الأضداد فانضم بعض الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت فى صف المختار إلى الأشراف ، وكأنهم تيقنوا من ادعاء المختار على ابن الحنفية ، وقاتل ابن شبث بن ربعى زعيم الأشراف فى صف المختار ضد أبيه بإصرار وعناد ، واتخذ الأشراف مراكزهم فى ثلاثة مواضع من الكوفة فنزلت مضر فى الكناسة وهمدان فى جبانة السبيع المتصلة بالسبخة بينما وقفت ربيعة خارج الكوفة مما يلى السبخة وترك الأشتر قتال همدان للمختار وكانت مذحج قد اعتزلت قتاله وجاءت الضربة الحاسمة حينما انضم فرع شبام إلى صف المختار ضد همدان فأصبحت اليمن وقد افترقت فريقين يقاتل أحدهما مع المختار والآخر مع العصبية العربية وكانوا أشد القوم قتالا ، واستطاع إبراهيم أن يمزق شمل مضر بغير صعوبة وتشتت ربيعة قبل أن تشهر سيفاً .

وليس هناك شك فى أن أصابع الأمويين كانت وراء انقلاب الأشراف فى الكوفة على المختار وأنهم حرضوهم على الثورة ، إذ يروى الدينورى أن شمر ابن ذى الجوشن وعمر بن سعد ومحمد بن قيس بن الأشعث وأخاه قدموا الكوفة عندما بلغهم خروج الناس على المختار وخلعهم طاعته ، وكانوا قد هربوا منه طول سلطانه لأنهم كانوا الرؤساء فى قتال الحسين فصاروا حينئذ مع أهل

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ / ٩٧ .

الكوفة وتولوا أمر الناس وتأهب الفريقان للحرب وزحف المختار نحوهم فاقتتلوا فقتل منهم خلق كثير ونادى المختار يا معشر ربيعة ألم تبايعونى ؟ فلم خرجتم على ؟ فقالت ربيعة : صدق المختار لقد بايعناه وأعطيناه صفقة إيماننا واعتزلوا حربه وتحايدوا ، بينما ثبتت سائر القبائل فقاتلت حتى هزم أهل الكوفة الأشراف وقتل منهم خمسمائة رجل وأسر منهم مائتا رجل وهرب جمهور الأشراف فلحقوا بالبصرة وبها مصعب بن الزبير فانضموا إليه [١] ، وإزاء انتقاض الأشراف عليه رأى المختار ألا يؤخر الثأر للحسين من قاتليه فى الكوفة وقد لاذ بعضهم بمصعب بالبصرة وجند الأمويين يتقدم بعد نجاحهم فى الاستيلاء على الموصل ، وحتى يفرغ لعدوه فى الخارج رأى أن يسارع بالقضاء على عدوه فى الداخل ، ونادى منادى المختار بالأمان إلا لمن اشترك فى قتل الحسين وترك للشيعة أن ينتقموا له بعد أن كان يمنعهم حفاظاً على وحدة الصف بين الموالى والعرب ، وتوالى القتل فى الأسرى ثم فى المسئولين عن كربلاء فاستخرجوا وقتلوا بدعوى أن ذلك أمر ابن الحنفية وكان بين القتلى شمر بن ذى الجوشن وعمر بن أبى وقاص وابنه وكثير من قريش ، وهرب من نجا منهم إلى البصرة ، وهدمت بيوتهم فى الكوفة وضمن المختار حماية النسوة والأبناء والحرم ، وكان جند المختار من الموالى يتعقبون قتلة الحسين كالكلاب البوليسية ، وكانوا جميعاً من العرب ، وبينما كان شعار المطاردين يا لثارات الحسين ، كان شعار المطاردين يا لثارات عثمان ، واستطاع أنصار المختار أن يأسروا خمسمائة رجل فى اليوم الأول استعرضهم المختار فأخرج منهم مائتين وثمانية وأربعين شهدوا مصرع الحسين فقتلهم وأطلق الباقين بعد استيثاق ، وكانت النسوة يرشدن على أزواجهن ، وتوج المختار عمله بأن أرسل برأسى عمر بن سعد وابنه حفص إلى ابن الحنفية .. « هذا بحسين وهذا بعلى بن حسين ولو قتلت به ثلاثة أرباع قريش ما وفوا أنملة من أنامله » وبعث مع الرأسين برسالة إلى المهدى محمد بن علىّ من المختار بن أبى عبيد .. أما بعد فإن الله بعثنى نقمة

---

(١) الأخبار الطوال / ص ٣٠٦ .

على أعدائكم فهم بين قتيل وأسير وطريد وشريد ، فالحمد لله الذى قتل قاتليكم ونصر مؤازريكم وقد بعثت إليك برأس عمر بن سعد وابنه ، وقد قتلنا ممن شرك فى دم الحسين وأهل بيته رحمة الله عليهم كل من قدرنا عليه ولن يعجز الله من بقى ، ولست بمحجم عنهم حتى لا يبلغنى أن على أديم الأرض منهم آدمياً فاكتب إلى أيها المهدى برأيك أتبعه وأكون عليه والسلام عليك أيها المهدى ورحمة الله وبركاته [١] ويصف الدينورى ما أنزله المختار بدور قتلة الحسين من هدم وتخريب بقوله : « وولى المختار الشرطة كيسان أبا عمره وأمره أن يجمع ألف رجل من الفعلة بالمعاول وأن يتتبع دور من خرج إلى قتال الحسين فيهدمها ، وكان أبو عمره بذلك عارفاً فجعل يدور بالكوفة على دورهم فيهدم الدار فى لحظة فمن خرج إليهم منهم قتله حتى هدم دوراً كثيرة وقتل أناساً كثيرين وجعل يطلب ويستقصى فمن ظفر به قتله [٢] وسارع المختار بإرسال إبراهيم لمواجهة أهل الشام وصحبه حتى الفرات يمنيه بنصر الله ومساندة الملائكة الغضاب والتقى الجيشان عند نهر خازر الذى يصب فى الدجلة ، وانتصرت شيعة المختار على عدوهم الذى كان عشرة أمثالهم بعد أن انضم القيسيون من جيش ابن زياد إلى صفوف الأشتر وانهزم بهم عمير بن الحباب نكاية فى ابن زياد[٣] وقتل فى المعركة عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير السكونى وشرحبيل بن ذى الكلاع وكان قوام جيش الشيعة من الموالى الضاربين بالعمد ، وبعد المعركة أغزى إبراهيم أحد إخوته نصيبين ودارا وسنجار ، وولى زفر قرقيسيا وأقام إبراهيم يحكم الموصل باسم المختار [٤] .

وتنفست الشيعة الصعداء وأصبح المختار فى ذروة مجده ، ولكنه كان فى الوقت نفسه أمام الهاوية ؛ فالشيعة من العرب لا يثقون به وليس أمامه إلا الموالى

---

(١) الطبرى / ج ٦ / ١١٩
(٢) الأخبار الطوال ص ٣٠٠
(٣) الكامل / ج ٤ / ١١٠
(٤) الكامل / ج ٤ / ١١١

المتعصبون فانحاز إليهم ضد العصبية العربية وكان الموالى شديدى الإعجاب به وبصورته الرائعة التى ظهر عليها وإن كان قد اعتمد فى رسمها على كثير من الاحتيال والشعوذة كإطلاقه الحمائم البيض وزعمه أنها الملائكة [١] فى موقعة خازر وتنبؤه بالغيب وبانتصار إبراهيم وقوله إن لم يصح تنبؤه بالبداء على الله [٢] وما كان من أمر الكرسى الذى كان يحمل فيه على بغل ويقوم بسدانته سادن يتراقص الموالى ويثبون من حوله بحماسة وجنون، وإن كان بعض المؤرخين يذهب إلى أن المختار غير مسئول عن ذلك وأنه لم يشأ أن يفسد على الموالى لذتهم إذ لم يكن فى وسعه الاستغناء عن مساعدتهم وهم يخوضون النار من أجله [٣] ولكننا لا يمكن أن نعفيه من مسئولية هذه الأعمال إذ كان يشجعها وقد رآها تجوز على البسطاء من الموالى ، وقد كان يقول لجنده قاتلوا على الكرسى فهو لكم كالتابوت لبنى إسرائيل [٤] وفى الحق أن المختار كان صاحب أباطيل ، فقد كان يزعم أن جبريل ينزل عليه ويأتيه بالوحى من الله ، وقد قيل لصهره ابن عمر عن ذلك فقال صدق قال تعالى « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم » [٥] وقد كتب إلى أهل البصرة يقول : بلغنى أنكم تكذبونى وتكذبون رسلى ، وقد كذبت الأنبياء من قبلى ولست بخير من كثير منهم [٦] .

وكان يمخرق على الناس بأكاذيب شتى منها أن يتكهن بأمور ويحتال فيوقعها كما تكهن بها ثم يزعم للناس أن هذا من عند الله كقوله وهو يشيع ابن الأشتر لقتال ابن زياد « إن استقمتم فنصر الله،وإن حصتم حيصة فإنى أجد فى محكم الكتاب وفى اليقين والصواب أن الله مؤيدكم بملائكة غضاب

---

(١) الطبرى ج ٦ / ١٢٣

(٢) الملل والنحل ج ١ / ١٣٢

(٣) الشيعة والخوارج / ص ٢٢٦

(٤) الطبرى / ج ٧ / ص ١٤٠ ، الملل والنحل ج ١ / ١٣٢

(٥) أسد الغابة / ج ٤ / ص ٣٣٦ ، لسان الميزان / ج ٦ / ص ٦ .

(٦) العقد الفريد / ج ٢ / ص ٢٦٥

تأتى فى صورة الحمام دوين السحاب » وكان قد دفع إلى قوم من خاصته حماماً بيضاً وقال لهم : إن رأيتم الأمر لنا فدعوها وإن رأيتم الأمر علينا فأرسلوها فلما التقى الجمعان دارت الدائرة على أصحاب إبراهيم فأرسل الحمام وتصايح الناس : الملائكة فتراجعوا حتى انكشف أصحاب ابن زياد وفنوا [١] .

ومن ضلاله أنه جوز البدء على الله تعالى وقد افترى القول به لأنه كان يدعى علم ما يحدث إما بوحى وإما برسالة من قبل الإمام ابن الحنفية فإن وافق الحدث ما تكهن به جعله دليلا على صدق دعواه ، وإن خالفه قال قد بدا لربكم[٢] .

وكان يغطى كرسيه بالديباج ويضعه فى مقدمة الجيش ويقول إن فيه السكينة واليقين والملائكة [٣] .

ويقول الشهرستانى إن محمد بن الحنفية لما وقف على ذلك تبرأ منه وأظهر لأصحابه أنه إنما نمس على الخلق ذلك ليمشى أمره ويجتمع الناس عليه وإنما انتظم له ما انتظم بأمرين انتسابه إلى محمد بن الحنفية علما ودعوة وقيامه على ثأر الحسين[٤] .

ولم يعد أمام المختار بعد أن انهزم أهل الشام أمام جنده إلا الخطر الذى يهدده الآن من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه الخليفة فى مكة منذ نهاية سنة ٦٦ هـ، وقد أخذ أشراف الكوفة الهاربون من المختار وبخاصة شبث بن ربعى التميمى ومحمد بن إسحق بن الأشعث الكندى يحرضونه على المختار ، ولكن مصعباً كان يؤجل هذا حتى يستقدم المهلب الذى كان يقاتل الخوارج فى ذلك الوقت[٥] .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٢٣ والملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٠
(٢) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٧
(٣) الملل والنحل جـ ١ / ٢٣٩
(٤) الملل والنحل جـ ١ / ٢٣٧
(٥) أنساب الأشراف جـ ٥ / ٢٥١

وبعد استغاثة من مصعب بأن العبيد قد غلبوا على النساء والأبناء والحرمات أقبل المهلب فى جيش كثيف بعد أن هادن الخوارج هدنة مؤقتة ، وخرج من البصرة قبل منتصف سنة ٦٧ ﻫ .

وعلم المختار بخروج مصعب والمهلب لقتاله فجمع جنده وأنصاره وولى عليهم أحمر بن شميط قائداً عامًّا ، وولى أبا عمرة قائداً لفرقة الموالى ، وتقدم جيش الزبيريين إلى المذار فحاول ابن شميط أن يحقن الدماء وأن يدعو الزبيريين إلى كتاب الله ولكنهم لم يجيبوه ، وهاجم المهلب وهو يصيح صيحات تندد بالعرب الذين يقتلون أنفسهم مع العبيد محاولا إثارة النعرة ، وهجم معه الفرسان من أشراف الكوفة يطلبون ثأرهم ودبت الحماسة فى قلوب الموالى فأوقعوا بالزبيريين حتى أبادوا الرجالة تماماً ، ولكن سرعان ما دارت الدائرة على الشيعة ، ولم يظهر الزبيريون أية رحمة فى الإيقاع بهم ، وكان أقساهم أشراف الكوفة الهاربين إلى البصرة فأعملوا السيوف وبخاصة فى الموالى ، ونجح المهلب فى الإيقاع بين العرب والموالى من جند المختار فتخلى عرب بجيلة وخثعم عن مساندة الموالى الذين لم يفلت منهم أحد [١] .

وزعزعت الهزيمة مكانة المختار فى الكوفة لأنه قد وعد أنصاره النصر فجعلوا يلومونه وجعل يتحدث عن البدء ، واستمات المختار فزحف إلى حروراء وحمى وطيس القتال ونجح فى هزيمة فرسان الكوفة من أشراف العرب الهاربين إلى البصرة ، ورأى المهلب أن يحسم الموقف فنزل برجاله من الأزد وتميم وكان هجومهم فاصلا فامتلأ ميدان المعركة بالجثث وقاتل المختار حتى الصباح وهو مترجل وجنده ينسلون من حوله حتى ليكاد يكون وحيداً وهنا أذعن لرأى القلة التى حثته على العودة فعاد إلى قصره يندب حظه ويتحسر على مفارقة ابن الأشتر الذى تمكن مصعب من الصلح معه واستمالته .

وزحف مصعب على الكوفة فدخلها وحاصر المختار فيها وقطع عنه المؤن ،

---

(١) الشيعة والخوارج ص ٢٢٧ .

ولم يكن بقي حوله إلا عدة آلاف من الموالى ، بينما انسحب العرب إلى أسرهم وبيوتهم ، وكانت النسوة يحملن إليه الماء وبدأت هيبته تزول فكان يلقى عليه الماء والقاذورات أثناء مروره فى الطرقات ، وظل هكذا حتى اشتد به العطش (١) واستمر الحصار أربعة أشهر وبدأ مصعب يتقدم وجنده نحو القصر ، ونزل المختار فى تسعة عشر رجلا فقاتل بشجاعة وبسالة نادرة حتى قتل واحتزت رأسه وأنزل مصعب أعوانه من القصر وأراد أن يطلب العرب منهم وأن يقتل الموالى فأبى أصحابه فقتلهم جميعاً (٢) .

وسمرت كف المختار إلى جانب المسجد . وكان عدد من قتل من جند المختار ستة آلاف أو ثمانية آلاف ،واستحق مصعب بقتلهم أن يلقب بالجزار وقد قال له عبد الله بن عمر بن الخطاب : أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة ، عش ما استطعت ، فقال مصعب : إنهم كانوا كفرة سحرة ، فقال ابن عمر : والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفاً (٣) .

ولم يعف مصعب امرأة المختار فقتلها وقد أبت أن تنكر زوجها ، وسقط المختار وسيطر ابن الزبير على البصرة والكوفة وانتهت هذه الشخصية الغريبة وإن لم ينته أثرها الضخم فى السياسة والعقيدة ، إذ زرع المختار بذوراً استطاعت أن تنمو وتثير الاضطراب فيما بعد لتقتلع جذور الأمويين ليقوم ملك بنى العباس على أكتاف الشيعة الغلاة من الموالى فى الكوفة وخراسان ولم يكن هؤلاء إلا البقية الباقية من أنصار المختار (٤) ويذهب الشهرستانى إلى أن أبا مسلم الخراسانى كان على مذهب الكيسانية (٥) .

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١١٤
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ١١٥
(٣) الطبرى ج ٧ / ص ١٥٧
(٤) تاريخ الدولة العربية ص ٤٧٨
(٥) الملل والنحل / ج ١ ص ٢٤٩

وأدى مقتل المختار إلى تطور كبير فى تاريخ الشيعة السياسى ، فقد اتجه الشيعة بعد مصرعه إلى الدعوة والمقاومة السرية ووضع مبدأ التقية . وكان التشيع قد اتخذ فى الكوفة أيام المختار لوناً جديداً إذ كان تعبيراً عن الاتجاه السياسى العام لمعارضة العراق لسلطان الشام ولسلطان الحجاز واستطاعت الحكومة الأموية والزبيرية أن تثير كل منها نعرة العصبية العربية فى صفوف الشيعة ، فتراجع العرب عن نصرة الموالى واستلانوا لإغراء الحكومة ثم استخدم العرب للقضاء على هذا الخطر الشيعى حتى تحدد نطاق التشيع واتخذ شيئاً فشيئاً صورة فرقة دينية معارضة للأرستقراطية ولنظام القبائل (١) وقد ساعد حكم المختار على إكساب الشيعة سمة المثالية الخيالية بفضل استشهاد زعمائهم وأوليائهم ، كما اجتذب الموالى الذين كان اجتذابهم إلى مثل دعوته ميسوراً لنزعتهم الواضحة إلى الحكم الدينى ، وكان من شأن هذا أن يدفع بالشيعة بعيداً عن التربة العربية ، وفى أن يصبح الإسلام وحده حلقة الارتباط بينها وبين العناصر المضطهدة .

وقد كانت حركة المختار سبباً فى ظهور الكيسانية . وقد اتخذ هذا المذهب نقطة ابتدائه من بدعة السبئية ، والسبئية يسمون أيضاً بالكيسانية (٢) وكيسان الذى تنسب إليه هذه الفرقة شخصية مجهولة حار فى تحديدها المؤرخون . فبين قائل إنه كان زعيما للموالى (٣) وقائل بأنه ليس غير المختار وإنما سماه بهذا الاسم على بن أبى طالب (٤) . وأن أباه كان اصطحبه إلى علىّ وهو صبى فجعل يمسح على رأسه قائلا : يا كيس يا كيس (٥) ويذهب آخرون إلى أن كيسان هذا كان مولى لعلىّ بن أبى طالب أو لمحمد بن الحنفية فاستطاع

---

(١) الشيعة والخوارج ص ٢٣٨
(٢) الشيعة والخوارج ٢٣٩
(٣) نفس الموضع
(٤) الحور العين ص ١٨٢
(٥) الشهيد مسلم بن عقيل ١٩٩

أن يحيط بالعلوم ويقتبس الأسرار عن أحدهما من علم التأويل والباطن وعلم الآفاق والأنفس [١] .

وهكذا فإن صاحب هذا الاسم الذى تنسب إليه الكيسانية شخصية غامضة وغير معروفة على التحديد ، وإنما تدور الظنون حول أن يكون مولى لعلىّ قتل يوم صفين أو تلميذاً لمحمد بن الحنفية أو أن يكون هو نفسه المختار الثقفى أو رئيس حرسه كيسان المكنى بأبى عمرة . وأيًّا كان الأمر فيه فقد عرف الشيعة من أصحاب المختار بالانتساب إليه كما عرفوا باسم السبئية وبالموالى أيضاً إذ كان السبئية والموالى شيئاً واحداً وكان السبئية يسمون بالكيسانية [٢] .

وقد ارتمى المختار فى أحضان السبئية والموالى بكليته محاولا استغلال إيمانهم العميق بآل البيت من أجل بناء مجد شخصى له، ولهذا فقد دفع بهم إلى ميدان العمل ولم يكن يرمى فى بداية الأمر إلى إثارتهم ضد العرب إذ نهج سياسة المهادنة والتوفيق بين هؤلاء وأولئك حتى اجتذب إليه مؤقتاً الأرستقراطية العربية واضطر إلى تأجيل مشروع الثأر للحسين بسبب هذه المهادنة ، ولكن الموالى سخطوا على مهادنة الأرستقراطية العربية والفارسية ودفعوا المختار إلى محاولة القضاء على الفوارق بين الطبقتين وأدرك المختار أن الإسلام هو الذى يجب أن يعطى الموالى حقوقهم المدنية الكاملة فى الحكومة الدينية وليست الأرستقراطية العربية الحاكمة والمهيمنة على شئون الكوفة . ولم ترض هذه الأرستقراطية أن تحد من امتيازاتها عن طيب خاطر فاضطر إلى خوض الكفاح ضدها معتمداً على الموالى والعرب البسطاء .

ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه فقضى على الموالى بوصفهم قوة سياسية وإن استطاعت بقاياهم من بعد أن تعمل على الإطاحة بالسيادة العربية هناك من خراسان حيث مركز العصبية الشعبية الإيرانية .

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٣٥ .

(٢) الشيعة والخوارج / ص ٢٤٠ .

وبسقوط المختار وسيطرة الزبيريين على العراق تبددت قوى الشيعة التى انحصرت فى ذلك الحين فى الموالى . وقد ألزمتهم السلطة الحاكمة حدودهم، واستطاع عبد الملك بن مروان بعد قليل أن يعيد توحيد الدولة بالقضاء على الزبيريين ، واستسلم له الخشبية وهم فلول أتباع المختار وكانوا قد ظلوا يدافعون عما بأيديهم فى عين الوردة ونصيبين وتم اندماجهم فى جيش الدولة سنة ٧١هـ [١] .

وخلا لعبد الملك وجه العراق بانتصاره على مصعب فى موقعة مسكن ولكن قلوب أهل العراق لم تكن معه فقد كان السخط على سلطان الشام وتسلط أهله عليهم أمراً لم يكن من السهل الإقرار به ، ويمكننا أن نرد تشيع أهل الكوفة فى هذا الوقت إلى معارضة بنى أمية وحكمهم لا إلى تفانيهم فى حب آل البيت وحرصهم على سلطانهم . وأيضاً فإننا نفهم حركات العراقيين الثورية بنفس الفهم كثورة ابن الأشعث التى قصد بها استقلال العراق بحكم نفسه ضد سيادة الشام ، وكذلك يقال عن ثورة المهالبة وثورة الجارود .

ولم يقع للشيعة أحداث تذكر إلا ما كان من أمر بعض الشيعة الأدعياء المعروفين بالوصفاء أو بالمغيرية وكان على رأسهم المغيرة بن سعيد الساحر وبيان ابن سمعان النهدى .

ويبدو أنهم كانوا من بقية المختارية وكانت لهم صلات ببذور الدعوة العباسية . وكان بعض الكيسانيين يعتقدون أن بياناً هذا قد انتقلت إليه الإمامة عن أبى هاشم بن محمد بن الحنفية [٢] . ويبدو أيضاً أنه كان زنديقاً [٣] ولهذا أحرقه خالد القسرى لقوله بإلهية علىّ وابنه محمد ثم أبى هاشم ثم إليه هو بعد ذلك ، وقد كتب إلى محمد الباقر بذلك ودعاه إلى نفسه وزعم أنه نبى [٤] .

(١) الأغانى ج ٥ / ص ١٥٥ ، ج ٨ ص ٣٣ ، ج ١١ ص ٤٧ .
(٢) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢٥
(٣) ميزان الاعتدال ج ١ / ص ١٦٦
(٤) ميزان الاعتدال ج ١ / ص ١٦٦

وكان المغيرة بن سعيد ينتقص أبا بكر وعمر ويفضل عليًّا على الأنبياء ، وقد ادعى النبوة أيضاً واشتغل بالسحر وأسعر النيران فى الكوفة بالتموية والشعبذة حتى أجابه خلق كثير . وقد برئ جعفر بن محمد من بيان والمغيرة واتهمهما بالكذب على آل البيت وكان المغيرة مولى لخالد القسرى[١] فأخذه فقتله وصلبه وأحرقه سنة ١٢٠ هـ[٢] ، وورد فى الأغانى أن بعض مجانين الشيعة ثاروا فى ولاية خالد القسرى وكانوا يصيحون : لبيك جعفراً وهذه الصيحة تتضمن تأليه جعفر الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره بعد ، وقد كان لخبر ثورتهم على خالد وقع شديد ، وكان ساعتئذ على المنبر فاختلط عليه أمره مما أثار السخرية الشديدة منه ، وقد أتى بهم فأمر بإحراقهم بطريقة هى غاية فى البشاعة والقسوة[٣] .

وفضلا عن هذه الأحداث فقد اعتصم الشيعة بالهدوء وعاش آل البيت فى المدينة مبرزين فى المجتمع المدنى ناعمين بتدليل بنى أمية طالما كانوا ملتزمين بالهدوء والدعة ولم يكن بين هؤلاء العلويين رجال ثوريون بالمعنى الحقيقى ، كما أن التجارب السابقة الدامية جعلتهم يخلدون إلى السكون ، إلا أن تيارين واضحين ظهرا بين آل النبى من أبناء فاطمة ، أولهما ذرية الحسن ، وثانيهما ذرية الحسين وكانت ذرية الحسين هى نسل النبى الرئيسى لأن الحسن باع حقه فى ميراث الخلافة بيعة وكس وخزى ، بينما أراق الحسين دمه فداء لحقه وقد خلف الحسين ابنه عليًّا الذى أنقذ فى كربلاء وكان عزوفاً عن السياسة ومخاطرها فرفض عرض المختار عليه أن يعمل بتفويض منه وحذر عمه محمد بن الحنفية منه ، وكان أبناؤه زيد ومحمد وجعفر بن محمد مسالمين مثله .

وكانت الخصومة بين الحسنيين والحسينيين مستمرة ، وكانت تدور حول إخلاص الحسين وتنازل الحسن ، وزاد الخصومة اشتعالا اختلافهما حول

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٩٥
(٢) لسان الميزان / جـ ٦ / ص ٧٥
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ ، جـ ١٩ / ٥٨

بعض ميراث النبي فى نهاية خلافة هشام بن عبد الملك ، فاحتكم زعيم الحسينيين زيد بن علىّ إلى هشام وقصد إليه فى الرصافة مع بعض قرابته ، وكان يوسف بن عمرو والى الكوفة قد أرغم زيداً — بعد أن استمع هشام فيه إلى أعدائه القيسيين وسجنه وسجن أباه — على الكشف عن مصادر ثروته ثم انتزع منه بالتعذيب اعترافاً بأنه يدين زيد بن علىّ بمبلغ كبير من المال . وقد سأل هشام زيداً وصحبه عن هذه الواقعة فأنكروها ، فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد بن خالد وكان هذا محبوساً فى الكوفة ، فكان عليهم أن يقصدوها وكان قدوم زيد إلى الكوفة حيث العواطف الشيعية المكبوتة بمثابة الشرارة فى برميل البارود[١] .

وفى الكوفة سحب يزيد بن خالد اعترافه الذى انتزع منه بالتعذيب بعد أن ووجه بزيد وصحبه وعاد صحبه إلى المدينة ، ولكن زيداً لم يعد معهم على الرغم من إلحاح يوسف بن عمر عليه فى الرحيل ، فتظاهر بالرحيل إلى خارج الكوفة ولما وصل إلى العذيب لحق به جماعة من شيعة الكوفة وأخبروه أن الناس مجتمعون عليه وما زالوا به حتى رجع معهم على الرغم من نصح بعض أقاربه له بعدم العودة وتوسلهم إليه فى ذلك وتحذيرهم له بما وقع لجده .

وتعلق الشيعة فى الكوفة بزيد وتوجهوا إليه بأنهم يرجون أن يكون هو المنصور وأن يكون ذلك هو الزمان الذى يهلك فيه بنو أمية حيث إن سيادتهم فى الكوفة لا تستند إلا إلى عدة قليلة من جند الشام لا يستطيعون أن يقفوا أمام مائة ألف من الكوفيين يضربون دونه بسيوفهم ، فضلا عن بنى مذحج وهمدان وبكر وتميم ، واغتر زيد بكلامهم ولكنه عول على أن يأخذ لنفسه الحيطة فكان دائماً يغير مركز إقامته وتزوج من أسرتين أقام بينهما ، واستمرت إقامته فى الكوفة عشرة أشهر اشتغل أثناءها بالتمهيد للثورة وضم أنصار جدد فى الكوفة والبصرة والموصل وبايعه خلق كثير حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألفاً وكانت

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٥٦

بيعته التى يبايع عليها تقول : « إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وجهاد الظالمين والدفع عن المستضعفين وإعطاء المحرومين وقسم هذا الفىء بين أهل السواد ورد المظالم وإقفال المجمر ونصرنا أهل البيت على من نصب لنا وجهل حقنا » فإذا قبلوا البيعة على ذلك أخذ عليهم عهد الله وذمة رسوله بالوفاء وأشهد الله . وكان بين من بايعوه فيما تذكر الروايات أبو حنيفة وقد أمده بثلاثين ألف درهم وحث الناس على نصرته (١) .

ولبث يوسف بن عمر زماناً طويلا لا يدرى عن حركة الشيعة من حول زيد شيئاً لأنه كان يقيم فى الحيرة حيث القسم الأكبر من جنود الشام ، ولكنه استطاع أخيراً أن يحصل على معلومات تفيد تحركات زيد بواسطة رجلين من الموالى المناصرين لزيد وقعا فى قبضته ، واضطر زيد بعد وقوع هذين الرجلين فى قبضة يوسف إلى أن يعجل بالثورة عن موعدها المضروب فحددت لها ليلة الأربعاء أول صفر سنة ١٢٢ هـ .

وفى يوم الثلاثاء السابق على الموعد أمر يوسف بدعوة أهل الكوفة وجمعهم فى المسجد الجامع ، وهناك حصرهم وغلّق عليهم الأبواب ووضعهم فى حراسة طائفة من الجند الشامى ويبدو أنهم كانوا راضين كل الرضا فيما بعد عن نجاتهم فى المسجد من عواقب ما أقدموا عليه (٢) .

ولما جاء زيد ومعه مائتان وثمانية عشر رجلا جمعهم فى ليلة الأربعاء وسط الظلام والبرد القارس وأراد أن يخلص أهل الكوفة من الحصر لم يحركوا ساكناً ، واضطر زيد إلى الانسحاب من أمام المسجد لأن ألفين من جند الشام كانوا قد حضروا من الحيرة متجهين إليه ، وقاوم زيد جند الشام حتى ردهم فى يوم الأربعاء وثبت لهم يوم الخميس رغم قلة عدد جنده حتى جاءت نجدة الشام مكونة من ثلثمائة من القواسين القيقانية والنجارية فأوقعت بجنده خسائر فادحة ، ولما كان الليل انسحب أهل الكوفة إلى المدينة وتفرقوا فى دورهم

---

(١) شذرات الذهب جـ ١ / ص ١٥٨

(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٢٣٥ ، الخوارج والشيعة / ٢٥٩

وأصاب زيداً سهم فى جانب جبهته اليسرى فرجع ومعه أصحابه فدخلوا به الكوفة حيث نزعوا منه السهم فى دار بشارع البريد ، وكان قد فارق الحياة فدفنوه فى قاع حبسوا عنها الماء ثم أجروه تمويهاً حتى لايمثل بجثته ، ولكن بعض العبيد دلوا يوسف بن عمر على مكانه فاستخرجت الجثة وأخذت حيث صلبت ، وقطع رأسه وأرسل إلى هشام بن عبد الملك فى الشام وبقيت جثته مصلوبة هناك إلى أن مات هشام [١] .

وكان ابنه يحيي غلاماً حدثاً عند خروجه فاختفى فى نينوى عند مولى لبشر بن بشر بن مروان ، ومن هناك فر إلى خراسان وظل مختفياً فى دار رجل عربى فى بلخ إلى أن مات هشام . وقد ظل الزيديون على ولائهم لزيد فبايعوا يحيي ولكن نصر بن سيار طارده ودفعه إلى التنقل من مكان إلى مكان حتى ألجأه إلى مدينة بيهق على الحدود الغربية وظل يقاتل من جدوا فى طلبه من أتباع نصر . وتوقف لا يدخل حدود ولاية يوسف بن عمر لأنه لم يشأ أن يقع فى قبضة هذا الرجل الذى قتل أباه فقفل راجعاً ناحية الشرق ، واستطاع أن يصل هو والسبعون رجلا الذين كانوا معه إلى هراة ، وقد كان عمال نصر قد أمروا بألا يدعوه يمر فارتحل من هراة إلى جوزجان ونجح فى رد جيش بعث به إليه نصر وأردفه نصر بجيش آخر اشتبك معه يحيي ورفاقه عند الأنهار فأصابه سهم فى صدغه فسقط وحزت رأسه وصلب ثم أحرق حتى صار رماداً أذرى به فى الماء بأمر الخليفة الوليد بن يزيد [٢] .

وهكذا انتهت ثورة زيد وابنه نهاية يرثى لها ، ولكن كان لها شأنها فيما بعد لأنها فتحت الباب أمام العباسيين ليقيموا ملكهم على أنقاض ملك بنى أمية وقد عنى أبو مسلم الخرسانى بالثأر ليحيي بن زيد فقتل قاتليه .

---

(١) راجع الطبرى جـ ٨ ص ٢٧٦ وما بعدها .

(٢) انظر معجم البلدان جـ ١ / ٣٧٠ ، شذرات الذهب جـ ١ / ١٦٧ / ابن كثير جـ ١٠ / ص ٥

وكانت آخر حركات الشيعة فى عهد بنى أمية تلك التى قام بها عبد الله ابن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب . وهو لا يعد من أبناء علىّ ولكن الظروف السياسية فى الكوفة رفعته إلى المستوى الذى مكنه من التعبير عن سخط الشيعة وتمردهم .

وقد قدم عبد الله إلى الكوفة على أثر مصرع يحيى بن زيد مع إخوته ليطلب عطاءه من عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز فأقام بها فترة حيث تزوج بابنة الشرفى بن عبد المؤمن بن شبث بن ربعى الرياحى التميمى .

وحدث أن اضطربت أمور الخلافة بوفاة يزيد بن الوليد وشمل الاضطراب أرجاء البلاد حتى الشام نفسها وتزعزعت سلطة ابن عمر وسائر الولاة ، فقد خرجت كلب على ولائها للدولة ووصلت إلى حد التمرد والعصيان ، وأثر ذلك على أطراف الدولة فأخذت عرى وحدتها المركزية تنحل فى كل مكان وطفا على سطح الأحداث مغامرون انتهزوا اضطراب أحوال الدولة .

وقد انتهز شيعة الكوفة ، وكان جمهورهم من الزيدية الموتورين ، الفرصة السانحة بوقوع النزاع الدموى بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد على الخلافة فأغروا عبد الله بالأمر ودفعوه إلى أن يدعو إلى نفسه فهو وبيته من الهاشميين أولى على كل حال من الأمويين[١] وقد صادف هذا هوى فى نفس عبد الله إذ كان بعض الكيسانية يعتقدون أن الإمامة قد صارت إليه من أبى هاشم ابن محمد بن الحنفية[٢] وكان يلقى عطفاً لزيديته أيضاً لأنه كان زوجاً لابنة زيد بن على[٣] فاقتادوه إلى القصر وحالوا بين صاحب الشرطة وبينه وكان فيهم كثير من الموالى فبايعوه جميعاً ثم خرجوا معه يريدون ابن عمر بن عبد العزيز فى الحيرة فى المحرم سنة ١٢٧ هـ ولكنهم فروا من حوله حين نشب القتال مع جند الشام ولم يثبت إلى جانبه من الشيعة غير الزيدية الموتورين فقاتلوا

---

(١) الأغانى جـ ١١ / ص ٧٠
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٦
(٣) الأغانى / جـ ١٠ ص ٧٤ .

قتال الشجعان وصمدوا ثم انسحبوا إلى الكوفة حيث دارت معركة عنيفة حول القصر وفى شوارع الكوفة حتى حصلوا على الأمان لأنفسهم ولعبد الله بن معاوية على أن يذهبوا حيث شاءوا لا يمنعهم أحد ، فأمر عبد الله بالانسحاب من الكوفة وقصد المدائن وبلاد الجبل حيث تلقى بيعة أهلها وهناك كثر أتباعه وانضم إليه كثير من الموالى . وتمكن من السيطرة على حلوان وقومس وأصبهان والرى وانضم إليه كثير من الفرس ، واستقر لبعض الوقت فى أصبهان ريثما استعمل على تلك المناطق بعض أهله ورفاقه فاستعمل أخاه الحسن على اصطخر وأخاه يزيد على شيراز وأخاه صالحاً على قم وعظم شأنه حتى قصده بنو هاشم هناك فوفد عليه السفاح والمنصور وعيسى بن على وكذلك آوى إليه كثير من بنى أمية مثل سليمان بن هشام وعمر بن سهل بن عبد العزيز بن مروان فمن شاء منهم عملا قلده ، ومن أراد صلة وصله [1] وقد خضعت لعبد الله منطقة شاسعة وانضمت إليه أجزاء كبيرة من بلاد ميديا والأهواز وفارس وكرمان ، وقد كانت المنطقة الشرقية كلها فى ذلك الحين بلا سلطان فمن هجم استتب له امتلاكها ، وبدا عبد الله أهلا للخلافة فتنازل له كثيرون من صغار الثوار والمغامرين الذين غلبوا على بعض تلك المناطق رغبة منهم فى أن يقرهم على ما فى أيديهم ، ومن هؤلاء محارب بن موسى وسليمان بن حبيب وآخرون من بنى أمية وبنى العباس ممن لم يأمنوا على أنفسهم فى أوطانهم فاستتروا جميعاً تحت جناحه القوى .

ولهذا فقد تجمع من حول عبد الله جماعة مختلفة الاتجاهات كل الاختلاف فآوى إليه عبد الله بن على العباسى ، كما آوى إليه بعض الأمويين الآملين فى الظفر بوظيفة أو عطية كسليمان بن هشام بن عبد الملك ، كما انضم إليه أتباع عبد الله بن عمرو بن الحارث الكندى الذى يجعله بعض الكيسانية إماماً بعد أبى هاشم ، وكان الكندى قد ادعى الإلهية وتبعه جماعة ، وقال بالتناسخ

---

(١) الأغانى / جـ ١١ ص ٧٠

وفرض على أتباعه كل يوم وليلة سبع عشرة صلاة فى كل واحدة سبع عشرة ركعة ، وقد حدث أن ناظره أحد الصفرية فأرجعه عن مذهبه وثبت على المذهب الخارجى فتبرأ منه أصحابه آنذاك ولحقوا بعبد الله بن معاوية [١] .

وأغرب ما فى الأمر أن ينضوى تحت لوائه أيضاً خوارج الموصل الفارين من وجه مروان بن محمد برئاسة شيبان بن عبد العزيز بعد أن انهارت سيطرة الضحاك بن قيس ، كما لحق به منصور بن جمهور فى أعداد غفيرة من الكلبيين .

ولهذا فإن الزيدية التى كان لها الفضل الأول فى ارتفاع شأنه بادئ ذى بدء لم تعد تعنى عنده إلا شيئاً ثانوياً وضئيل القيمة ، بعد أن التفت حوله كل تلك الفلول التى جمع بينها التعصب على مروان بن محمد عدوها المشترك . ولكن هذا الحلف المصلحى لا يلبث أن يتفرق ، إذ كان تجمع عناصره وقتياً وبحكم الضرورة .

وهكذا قامت فى المشرق الذى لم يكن له سيد فى ذلك الوقت دولة شاسعة سريعة الزوال ، وهى علامة من علامات نهاية العصر . ففى الوقت الذى كان مروان يقف فيه فى مواجهة خوارج حضرموت عهد إلى واليه على العراق يزيد ابن عمر بن هبيرة بتولى حرب هذا الحلف الملتف حول عبد الله بن معاوية . وكان مع يزيد قائدان آخران هما عامر بن ضبارة ونباتة بن حنظلة ، وقد تمكن جيش ابن ضبارة من هزيمة عبد الله بن معاوية فى مرو الشاذان سنة ١٣٠ هـ وألجأه إلى الفرار نحو كرمان حتى بلغ هراه وهناك علل نفسه بأن يجد ترحيباً لدى أبى مسلم الخراسانى ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه وسجنه وألقى إلى رجاله بقتله فخنقوه بالأغطية [٢] .

وفى تلك السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية اختلطت الحدود وامتزجت

---

(١) لسان الميزان/ جـ ٣/ ٢٧٠ ، التبصير/ص ١٩ ، ٧٣ والملل والنحل جـ/١ ص٢٤٤
(٢) انظر / ابن الأثير / جـ ٥ ص ٢٨٤ ومابعدها .

القوى المتباينة والمتعارضة فيما بينهما ، ولكنها تساندت فى نضالها ضد الدولة المتداعية حتى كان الشيعة والخوارج والأمويون والعباسيون والقبائل المتعصبة والموالى يحاربون جميعاً تحت لواء واحد .

على أن تشيع عبد الله كان منذ البداية زائفاً ومشكوكاً فيه ، إذ كان فتى جواداً شاعراً ولكنه لم يكن محمود المذهب فى دينه [١] كما كان يرمى بالزندقة [٢] ويستولى عليه من يعرف ويشهر أمره فيها ، وكان صحابته الذين لا يفترق عنهم من الزنادقة والفساق كعمارة بن حمزة الذى كان يرمى بالزندقة ومطيع ابن إياس وكان زنديقاً مأبوناً ، والبقلى الذى كان لا يؤمن بالبعث وأيضاً كان من أصحابه الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس وكان يرمى بالزندقة ، وكان صاحب شرطته دهرياً لا يؤمن بالله ، وكان يعس بالليل فلا يلقاه أحد إلا قتله ، وأيضاً فقد كان عبد الله نفسه يغالى فى تقدير ذاته حتى ليزعم أنه يوحى إليه [٣] .

وليس شك فى أن الثورات المتعاقبة للشيعة قد أثمرت ثمرة جناها بنو العباس ولم ينل العلويون منها شيئاً على الرغم من أنهم رووها بدمائهم .

٢

تدور عقائد الشيعة فى أصولها على فكرة الإمام والإمامة [٤] . ويجمع الشيعة بفرقهم المختلفة على مشايعة علىّ على الخصوص ، والقول بإمامته وخلافته نصاً ووصية إما جلياً أو خفياً ، ويعتقدون أن الإمامة لا تخرج من أولاده لا يخالفهم فى ذلك غير الغلاة من الروافض الذين أخرجوها إلى جماعة

---

(١) الأغانى ج ١١ / ص ٦٨ .
(٢) لسان الميزان ج ٣ / ص ٣٦٣ .
(٣) الأغانى / ج ١١ ص ٧١ والملل والنحل ج ١ / ٢٤٤ .
(٤) انظر فى ذلك الملل والنحل / ج ١ / ٢٣٤ ، الفرق بين الفرق / ص ٣٥ ، تاريخ اليعقوبى ج ٢ / ١٢٥ ، مقدمة ابن خلدون / ١٩٦ ومابعدها ، العقيدة والشريعة ص ١٨٢ وفرق الشيعة للنوبختى ص ٢٠ / ٢١

من غير قريش إما بدعواهم وصية بعض الأئمة إليهم ، وإما بدعواهم تناسخ الأرواح من الإمام إلى من زعموا أن الإمامة انتقلت إليه [١] أما جمهور الشيعة فيذهبون إلى أنها لا تخرج عن أولاده ، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده ، وكذلك يجمعون على أن الإمامة قضية كل مسلم ، وهى ليست قضية مصلحية تناط باختيار العامة وينتصب الإمام بنصبهم ، بل هى قضية أصولية لأنها ركن الدين الذى لا يجوز للرسول إغفاله وإهماله ولا تفويضه إلى العامة وإرساله ، وأيضاً يجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص وثبوت عصمة الأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر ، والقول بالتولى والتبرى قولا وفعلا ، وعقداً إلا فى حال التقية . ويخالفهم الزيدية فى ذلك، وهم خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة وإسماعيلية [٢] وسنقتصر فى درسنا على الكيسانية والزيدية لأنهما فى اعتقادنا أشهر فرق الشيعة فى عصر بنى أمية وأكثرها تأثيراً فى أحداث العصر وفكره .

ويجمع الكيسانيين القول بأن الدين طاعة رجل ، حتى حملهم ذلك على تأويل الأركان الشرعية من الصلاة والزكاة والحج وغيرها على رجال ، وذهب بعضهم إلى ترك القضايا الشرعية بعد الوصول إلى طاعة الرجل ، كما اندفع بعضهم إلى عدم الاعتداد بالقيامة نتيجة لذلك ، وذهب بعضهم إلى القول بالتناسخ والحلول والرجعة بعد الموت [٣] ويعتقد الكيسانيون فى أن الإمامة حق علىّ وبنيه ، فهو الذى عينه صلوات الله وسلامه عليه بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، فكل من ولى الخلافة إذن منذ قامت غاصب جائر لأن النبي أوصى لعلىّ من بعده ، فهو وصيه ، وهو لذلك إمام بالنص لا بالانتخاب ، وقد أوصى علىّ لمن بعده بالنص على ابنه محمد المعروف بابن الحنفية ، ولكنهم اختلفوا فيه فمنهم من قال بأنه لم يمت ويرجع ، ومنهم من أقر

---

(١) أصول الدين ص ٢٧٦ .

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٣٥

(٣) الملل والنحل ج ١ / ٢٣٦

بموته وبانتقال الإمامة منه إلى ابنه أبى هاشم [١] واختلفوا فيمن انتقلت إليه من بعده ، فمنهم من قال إنها بقيت فى عقبه وصية بعد وصية ، وأنه أوصى إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، فجرت فى أولاده حتى صارت إلى أبى العباس ، ومنهم من قال إنها آلت إلى ابن أخيه الحسن بن على بن محمد ابن الحنفية ، وغيرهم قال إن أبا هاشم أوصى إلى أخيه على ، وأوصى على إلى ابنه الحسن ، فالإمامة عند هؤلاء فى بنى الحنفية لا تخرج إلى غيرهم [٢] وقد ذهب بعضهم إلى أن الإمامة انتقلت إلى غير عقبه واختلفوا فى ذلك اختلافاً كبيراً بين أن يكون هذا الذى انتقلت إليه بيان بن سمعان النهدى أو عبد الله ابن عمرو بن الحارث الكندى أو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبى طالب .

وأشهر جماعات الكيسانية المختارية من أصحاب المختار بن عبيد الثقفى وقد قال بإمامة محمد بن الحنفية بعد علىّ ، وقيل بل بعد الحسن والحسين [٣] ، فكان يدعو الناس إليه ويظهر أنه من رجاله ودعاته ويذكر علوماً مزخرفة ينوطها به ، ويذكر الشهرستانى أن الذى دفعه الى الانتساب إليه حسن اعتقاد الناس فيه وامتلاء القلوب بحبه ، لأنه كان كثير العلم غزير المعرفة وقاد الفكر مصيب الخاطر فى العواقب ، وقد أخبره أمير المؤمنين عن أحوال الملاحم ، وأطلعه على مدارج المعالم وقد اختار العزلة وآثر الخمول على الشهرة ، وقيل إنه كان مستودعاً علم الأمانة حتّى سلم الأمانة إلى أهلها وما فارق الدنيا حتّى أقرها فى مستقرها [٤] .

وقد تبرأ ابن الحنفية من شعوذات المختار وقوله بالبداء على الله فى القول والعلم ، وتبرأ من تأويلاته الفاسدة ومخاريقه المموهة كالقول بالكرسى وانتصار

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٥

(٢) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٤٤

(٣) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٣٧

(٤) الملل والنحل / جـ ١ ٢٤١

الملائكة له وحديث الحمامات البيض والأسجاع التى ألفها أبرد تأليف مشهور[١] هى كلها أمور ليست من عقيدة الكيسانية فى شىء .

وعقيدة الكيسانية الأصولية فى الإمام ليست كما ينظر إليه أهل السنة خليفة أو نائباً عن صاحب الشريعة فى حفظ الدين ، إذ يحمل الناس على العمل بما أمر الله ، وهو رئيس السلطة القضائية والإدارية والحربية ، ولكنه ليس لديه سلطة الشريعة إلا تفسيراً لأمر أو اجتهاداً فيما ليس فيه نص . أما عند الكيسانية ففضلا عن كون الطاعة للإمام جزءا من الإيمان فهو أكبر معلم لأنه ورث علوم النبي وهو ليس شخصاً عادياً بل هو فوق الناس لأنه معصوم من الخطأ ، وهناك نوعان من العلم : علم الظاهر وعلم الباطن وقد علم النبي هذين النوعين لوصيه علىّ الذى علم منه صلى الله عليه وسلم باطن القرآن وظاهره ، وأطلعه على أسرار الكون وخفايا المغيبات ، وكل إمام ورّث هذه الثروة العلمية لمن بعده ، وكل إمام يعلم الناس فى وقته ما يستطيعون فهمه من هذه الأسرار ، ولذلك كان الإمام أكبر معلم وهم لا يؤمنون بالعلم ولا بالحديث إلا إذا روى عن هؤلاء الأئمة .

فالإمام عندهم نمط ممتاز من البشر محيط بالعلوم الإلهية ، وهى قبس يضمن طهارته من كل إثم ، ويعصمه من كل خطأ ، ويفيض على قلبه وعقله معارف ربانية لا يدركها سواه .

وقد غالى الكيسانيون فى إحاطة الإمام بهذه العلوم اللدنية ، فذهبوا إلى أن محمد بن الحنفية أحاط بالعلوم كلها التى عهد بها إليه أبوه أو أخوه وهى علوم الأسرار والتأويل والباطن ، وانتهى هذا عندهم إلى وجوب انفراد الإمام بتأويل الشريعة ، فهو الوحيد القادر على ذلك وليس لأحد سواه أن يجتهد أو يرى رأياً . وقد جعلهم هذا يعتقدون بضرورة طاعة الإمام إذ أن طاعته ليست غير طاعة القانون الإلهى . فالدين عندهم طاعة رجل فمن لا يطيع الإمام

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ص ٢٤١

ناقص الإيمان لا يكمل إيمانه إلا بطاعته ولو لم يتمسك بقواعد الإسلام[١] فهم يبذلون له الطاعة باعتباره رجلا رفيع المنزلة محيطاً بعلوم ما وراء الطبيعة .

وهم يدينون بالتقية ، وهى اتقاء الأذى والضر بالتظاهر بغير ما فى الاعتقاد حفاظاً على الحياة أو المال أو العرض أو التدبير لخطة مرسومة ، كأن يظهروا طاعتهم للحاكم ويوافقوا خصومهم من كفار أو خوارج أو سنية ويدينوا بمذهبهم ، فيصلون صلاتهم ويصومون صيامهم تقية لا عقيدة عن رضا . وقد اتخذوا هذا الأصل وسيلة من وسائل الدعوة والمقاومة السرية ، وهى ضرورة للتعمية على الأعداء وإنجاح التدبير للانقضاض حين يحين الموعد المناسب .

ولهم فى التقية أقوال كثيرة مثل قولهم « لا دين لمن لا تقية له » وقولهم يجب إظهار الكفر لأدنى مخافة أو طمع ، وقد حملوا بيعة علىّ لأبى بكر وعمر وعثمان على التقية ، وكذلك عدوا تنازل الحسن وصلحه مع معاوية . وقد سئل أبو جعفر عن الرجلين اللذين أخذا مع حجر بن عدى وطلب إليهما البراءة من علىّ فبرئ أحدهما فنجا وأبى الآخر فقتل فقال أبو جعفر أما الذى برئ فرجل فقيه فى دينه وأما الذى لم يبرأ فقد تعجل إلى الجنة ، وقد ساندوا دعوى التقية بتأويل آيات القرآن الكريم وفق مذهبهم ، ففسر بعضهم قوله تعالى : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » بأن المراد صبرهم على التقية ، وبأن أصحاب الكهف كانوا أعظم الناس تقية لأنهم كانوا يشهدون الأعياد ويشدون الزنانير فأعطاهم الله أجرهم مرتين كما فسر بعضهم قول الله تعالى : « يأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » بأن المقصود ما أنزل إليه من خلافة علىّ ، كما أولوا قوله تعالى : « قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله » بأنه يجب على الشيعى منهم أن يكتم ولاءه الحق .

ومن الأصول الهامة التى يدين بها الكيسانيون القول بالرجعة فقد أنكر جماعة منهم موت محمد بن الحنفية ، وكذبوا الأنباء التى جاءتهم بموته ، واعتقدوا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٣٦ .

أنه يقيم فى جبل رضوى على مسيرة سبعة أيام من المدينة وأن عودته ستكون من هذا المكان ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً .

ويذهب الشهرستانى إلى أن هذا أول حكم بالغيبة والعود بعد الغيبة حكم به الشيعة ، وجرى ذلك فى بعض الجماعة حتى اعتقدوه ديناً وركناً من أركان التشيع (١) ولكنه يذكر فى موضع آخر أن السبئية زعموا أن عليًّا حى لم يقتل ، وأنه سينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، وأن ابن سبأ أظهر هذه المقالة بعد انتقال علىّ واجتمعت عليه جماعة ، وهم أول فرقة قالت بالتوقف والغيبة والرجعة (٢) .

والرأى عندنا أن أول من ادعى هذا القول هو ابن سبأ عندما قال : إنى لأعجب ممن يقول برجعة عيسى ولا يقول برجعة محمد والله تعالى يقول : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد » ،وقد زاد على هذا فزعم أن محمداً أحق بالرجوع من عيسى ، ثم بنى على ذلك زعمه بأنه عليًّا سيرجع ، ورفض أن يصدق حين مقتله أنه مات ، وقال لو أتيتمونا بدماغه فى سبعين صرة ، وأقمتم على قتله سبعين عدلا ، ما صدقنا موته فإنه حى ويعود فيملأ الأرض عدلا ، وهو يجىء فى السحاب والرعد صوته والبرق تبسمه (٣) . وقد نقل الكيسانية هذه العقيدة فى الرجعة إلى القول بفكرة المهدى ، فزعموا أن محمد ابن الحنفية هو الإمام المهدى الذى ينشر العدل ، ولما كان إمامهم حيًّا مقيما برضوى بين أسد ونمر يحفظانه ، وعنده عينان نضاختان بماء وعسل ، فإنه سيعود ليعيد العدل إلى الأرض التى ملئت جوراً ،فهم إذن ينتظرون هذا الإمام المهدى ، ومن هنا نشأت عقيدة المهدى المنتظر التى سادت عند الشيعة جميعاً ما عدا الزيدية .

ولم يكن الكيسانيون أول من استخدم هذه الكلمة فى وصف الإمام إذا

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢٤٢

(٢) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٩٠

(٣) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٩٠ الفرق بين الفرق ص ٢٢٣

صح أنها جاءت فى السنة الشريفة صفة للخلفاء الراشدين فى قوله صلى الله عليه وسلم : « عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » وكذلك وصف بها حسان بن ثابت الرسول وهو يرثيه بقوله :

جزعت على المهدى أصبح ثاوياً   يا خير من وطئ الحصى لا تبعد
بأبى وأمى من شهدت وفاته   فى يوم الاثنين النبى المهتدى

ثم أخذت الكلمة يتحول معناها ويقصر على علىّ بن أبى طالب ، ثم أطلقت على الحسين بعد استشهاده فوصف بأنه المهدى ابن المهدى ، ولكن الكيسانية كانوا أول من نقل الكلمة إلى معناها الاصطلاحى الجديد[١] بقولهم إن محمداً المهدى لم يمت ، وإنما هو وأصحابه يقيمون فى جبل رضوى فى الحجاز على سبع مراحل من المدينة وإنهم أحياء هنالك يرزقون . وأنه يرجع فيملأ الأرض عدلا .

وقد لزمت الكلمة صفة المنتظر تعبيراً عن تطلع الناس إلى عودته ، وكان هذا سبباً فى أن الشيعة إذا أخفوا إمامهم عن الأمويين يقولون عنه مهدى منتظر أيضاً ، فإذا جاء ميقات خروجه خرج الناس معه ليزيل المظالم ويحقق العدل .

وكان هدف الشيعة من ذلك أن يباعدوا بين أنفسهم واليأس من عودة الخلافة إليهم لتظل لهم قوتهم ، وإذ ذاك كان لا بد لهم من هدف يعلقون عليه أنظارهم خلال الصراع الدموى مع الأمويين وهو الثقة فى رجعة إمام مهدى ، يقوض ملك بنى أمية ، ويثأر لهم ، وكان هذا دافعاً لهم إلى الجلد والصبر ، وأيضاً كان لهذا علاقة وثيقة بالتقية .

ومن عجب أن الزعم بفكرة المهدى قد جاوز الشيعة إلى بعض بنى أمية فزعموا أن لهم مهديا سموه بالسفيانى وراجت الدعوة له . ولعل خالد بن يزيد ابن معاوية يكون أول من دعا إلى هذا ليجمع الناس حوله بعد أن غلبه مروان

---

(١) أحمد أمين / المهدى والمهدية / ص ٥

ابن الحكم على الملك وتزوج أمه [١] فسخط السفيانيون لمزايلة الحكم لهم إلى بنى مروان ، وكانوا يأملون فى عودته إليهم ببث هذا الأمل فى نفوس أتباعهم .

وقد شعر الشيعة بخطر دعوى الأمويين ، فزعموا أن المهدى والسفيانى سيلتقيان وسيبايع الناس المهدى بمكة بين الركن والمقام ثم يدعوهم إلى قتال السفيانى ومن معه من أعداء الله وأعدائهم فيسارعون إلى طاعته ويخرجون معه إلى الشام لقتالهم [٢]. وقد خشى المروانيون من الدعويين ، وأرادوا أن يقطعوا عليهم جميعاً حلمهم بالواقع فأوعزوا إلى شعرائهم بالإلحاح على وصفهم بهذه الصفات على أنها حقيقة واقعة ودفعوهم إلى الادعاء بأن القائم بالحكم هو المهدى الذى ينتظره الناس ، وذلك ليقضوا على الأمل فى مهدى أو سفيانى بالواقع .

وقد وجدت هذه العقيدة رواجاً شديداً وذيوعاً واسعاً حتى قال الناس عن عبد الله بن معاوية بن جعفر فى خروجه إنه السفيانى الذى كان يذكر [٣] وكذلك قالوا عن الحارث بن سريج زعيم المرجئة فى ثورته فيما وراء النهر فقد ادعى أنه المهدى الذى بعثه الله لإنصاف المظلومين وأقام دعوته على الرجوع إلى القرآن والسنة والشورى . ومن الطريف أن العصبيات القبلية هى الأخرى قد اشتركت فى الزعم بهذا القول ، فزعموا أن لهم مهدياً سموه بالقحطانى وذاع هذا القول وادعاه يزيد بن المهلب فى ثورته سنة ١٠٢ هـ ،وأقام دعوته هو الآخر على الرجوع إلى القرآن والسنة وسيرة عمر بن عبد العزيز.

ويرجع السبب فى ذيوع هذه العقيدة إلى أحاديث كثيرة راجت منبئة عن مهدى عادل يعيد إلى الأرض السلام والعدل فى وقت كانوا يشعرون فيه بالقلق والظلم، وإلى أن نفسية الناس تكره الجور وتحب العدل ، فإذا لم يتحقق العدل اشرأبت نفوسهم لحاكم عادل ، فمن الناس من لجأ إلى الحلم فأمل

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ٨٨

(٢) ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٢٣٩

(٣) الطبرى جـ ٩ ص ١٣٨

فى العدل بعد أن عجز عن تحقيقه ، وقد لعب الوضع دوراً كبيراً فى صياغة هذه الأحلام والآمال والأخبار التى تنبئ بظهور المهدى حسب الظروف والأحوال . وليس شك فى أن مثل هذا الخبر الذى ينسب إلى عمر بن الخطاب أنه قال : من ولدى رجل بوجهه شجة يملأ الأرض عدلا[١] قد وضع أثناء خلافة عمر بن عبد العزيز .

وتختلف عقيدة الزيدية عن عقيدة الكيسانية فى بعض الأصول والفروع كما أنها تتميز عنها وعن جميع الفرق الشيعية بميزة الاعتدال والبعد عن الغلو نتيجة لتتلمذ رأسها زيد بن على للمعتزلة .

وقد كان زيد بن على يؤمن بحقوق بيته فى الخلافة ، غير أنه يختلف عن جميع الشيعة فى أنه لم يكن يؤمن بالنص والتعيين فى الإمامة . ولم يكن يقصرها على واحد من أبناء علىّ تتسلسل فى عقبه ، كما يذهب الكيسانية الذين يقولون بالنص على محمد بن الحنفية وغيرهم ، فهو يجعلها حقًّا لكل فاطمى ولا يجوزها فى غير أبناء فاطمة على أن يجمع إلى ذلك صفات العلم والزهد والشجاعة والسخاء والقدرة على الخروج طلباً للإمامة [٢] فكل فاطمى اتفقت له تلك الصفات كان إماماً واجب الطاعة سواء أكان من أولاد الحسن أم من أولاد الحسين ، ولهذا فقد قالت طائفة منهم بإمامة محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا فى أيام المنصور وقتلا على ذلك ، وجوز الزيدية أيضاً خروج إمامين فى وقت واحد فى قطرين مختلفين على أن يجمع كل منهما تلك الصفات ، ويكون كل منهما واجب الطاعة [٣] .

وكان زيد يجوِّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل وبذلك جوز إمامة أبى بكر وعمر مع وجود علىّ على الرغم من أنه كان فى اعتقادهم أفضل الصحابة

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ١٥٢ .

(٢) الملل والنحل / جـ ١ ص ٢٤٩ / ٢٥٠

(٣) الموضع نفسه .

جبريل وأبا بكر وعمر ، وبعضهم يكفرونهما ويلعنون عائشة وحفصة ، ويتخذون لعنهم قربى إلى الله [١] كما يقولون بالغيبة وبرجعة الإمام المهدى المنتظر الذى لما يمت ويعود ليملأ الأرض عدلا آخر الزمان .

وهكذا يمكننا أن نجعل آراء الشيعة فى أنهم يتفقون على أن الإمامة ليست من المصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة واختيارها ، إذ هى ركن الدين وقاعدة الإسلام ، وهى واجبة على كل مسلم ولا غنى للمسلمين عنها ، ولذلك لا يجوز لنبى إغفالها ولا تفويضها إلى الأمة ، وإنما يجب عليه تعيين الإمام لهم .

وقد عين النبى صلى الله عليه وسلم عليًّا بنصوص ينقلونها ويؤولونها على مقتضى مذهبهم ، والإمام عندهم — فيما عدا الزيدية — يمتاز عن سائر البشر بصفات العصمة من الخطأ وبمعرفة سر التشريع وبالرجوع بعد الغيبة كما يَدينون خلافاً للزيدية بالتقية ، ويُدينون أبا بكر وعمر ويكفرون عثمان وجماعة من الصحابة ، بينما يذهب الزيدية إلى تبجيلهما وإن اعتقدوا أن عليًّا أفضل منهما ويجيزون إمامتهما تمشياً مع عقيدتهم فى إمامة المفضول على الرغم من وجود الفاضل والأفضل .

٣

كان اقتران نشأة السبئية بالموالى وتأثيرها فى الكيسانية سبباً فى أن أطلق على السبئية اسم الكيسانية ، وقد قوى هذا الاتجاه ما يذهب إليه بعض المؤرخين من أن كيسان كان زعيما للموالى . وقد أدى ذلك إلى الزعم بأن السبئية والموالى كانوا شيئاً واحداً [٢] .

واعتماداً على هذا الاستنتاج ، مضى بعض المؤرخين فزعم أن التشيع بوصفه

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ٤ / ٤٥٥ .

(٢) الخوارج والشيعة / ص ٢٤٠ .

وجرت بينهم وبين زيد مناظرة لدى خروجه ، فقد اجتمع به رؤساؤهم الذين كانوا قد بايعوه من قبل ويوسف بن عمر والى الكوفة يجد فى طلبه ، وابتدروه بسؤالهم : « ما قولك يرحمك الله فى أبى بكر وعمر ؟ » وأجابهم زيد : « رحمهما الله وغفر لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً » ، فقالوا له : « فلماذا تطالب بدم أهل هذا البيت إلا أن وثبوا على سلطانكم فنزعوه من أيديكم ؟ » قال زيد : « إنا كنا أحق بسلطان رسول الله من الناس أجمعين ، ولكن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً فقد ولوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة » ، فقالوا : « لم يظلمك هؤلاء إذا كان أولئك لم يظلموك فلماذا تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك من الظالمين؟» قال زيد : « إن هؤلاء ليسوا بأولئك هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم وإنما ندعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه وإلى السنن أن تحيا وإلى البدع أن تطفأ فإن أنتم أجبتمونا سعدتم وإن أنتم أبيتم فلست عليكم بوكيل » ، ففارقوه ونكثوا بيعته ، وقالوا إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن على بن الحسين ، هو أحق بالأمر ولا نتبع زيداً فليس لنا بإمام . فسماهم زيد بالرافضة [١] .

وعلى الرغم من أن تلك الطائفة قد وجدت بعد وجود الزيدية فإن اسمها وجد من قبل ولم يكن إطلاق زيد عليهم هذه التسمية لأول مرة ، فقد سبقه إلى إطلاق الكلمة المغيرة بن شعبة وقد كان إطلاقها على الشيعة الغلاة [٢] . ويرى فلهوزن أن الرافضة ليس إلا اسما حديثاً لشيء قديم هو السبئية [٣] وليس شك أن عقائد الرافضة لا تخرج عن أن تكون عقائد السبئية من الغلو الذى يصل إلى حد الكفر والذهاب مذاهب غريبة فى تقديس الأئمة والسمو بهم إلى مراتب الأنبياء ، بل تفضيلهم أحياناً عليهم ، والقول بإلهيتم عن طريق الحلول والتناسخ . ومنهم من يفضل علياً على النبى صلى الله عليه وسلم ، ويسب

---

(١) الطبرى جـ ٨ / ٢٧٢ ، نقد العلم والعلماء / ١٠٣

(٢) الطبرى جـ ٨ ص ٢٧٣

(٣) الخوارج والشيعة ٢٥٨

امتدت المناظرة إلى اشتراط زيد الخروج شرطاً فى كون الإمام إماماً حتى قال الباقر لزيد يوماً : « على قضية مذهبك فوالدك ليس بإمام لأنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج »[١] .

ولقد ظلت الزيدية على تسامحها واعتدالها ، وكذلك الفرق المتشعبة عنها ، فقد أخذت تلك الفرق بإمامة المفضول حتى وقت بعيد ، ولم تعدل عنها إلا فى مفتتح القرن الرابع عند خروج ناصر الأطروش فى خراسان [٢] .

وقد ظل الزيديون يترسمون المعتزلة فى الأصول حذو القذة بالقذة ، ويعظمون أئمتهم أكثر من تعظيمهم أهل البيت ، بينما يتبعون فى الفروع أبا حنيفة إلا فى مسائل قليلة وافقوا فيها الشافعى والشيعة [٣] .

وهكذا نرى أن أهم ما يميز آراء الزيدية هو الاعتدال والميل إلى التحرج ، فلم يضفوا على أئمتهم خصائص روحية تميزهم عن البشر ، فالإمام عندهم وإن كان عالماً فهو ليس معصوماً من الخطأ كما زعم الكيسانية ، وهم فى أصول مذهبهم لا ينكرون خلافة أبى بكر وعمر وإن ذهبوا إلى أن علياً أفضل منهما ، ولم يذهبوا مذهب الكيسانية والرافضة فى تخطئتهما وتكفيرهما لاغتصابهما حقه ولمنعهما فاطمة الزهراء ميراث فدك ، وفى عدم إقرارهم بحجة أبى بكر وعمر فى ذلك ، وهى قول النبى نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة ، وكان الكيسانيون والرافضة يتخذون ميراث فدك سنداً يعتمدون عليه فى مطالبتهم بوراثة الإمامة .

وكذلك لم يكن الزيديون يدينون برجعة مهدى منتظر ، كما لم يدينوا بالتقية ، ولم يحلوا زواج المتعة مخالفين فرق الشيعة جميعاً فى ذلك . وقد نتج عن اعتدال الزيدية وإسماحها ظهور طائفة الرافضة التى رفضت هذا الاعتدال فيما يختص بصحابة الرسول وبأبى بكر وعمر بالذات .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ٢٥٤

(٣) المللل والنحل جـ ١ ص ٢٦٤ .

وذلك لمصلحة دينية هى تسكين الفتنة وتطييب القلوب ، فقد كان عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة قريباً وسيف علىّ لما يجف بعد من دماء المشركين والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تنقاد إليه وكانت المصلحة أن يقوم بالأمر من عرف باللين والتودد والسبق والقرب من رسول الله[١] .

وليس شك فى أن هذا الاعتدال أثر من آثار تتلمذ زيد على واصل بن عطاء فى الأصول[٢] حتى ليذهب الشهر ستانى إلى أن الزيدية جميعاً صاروا من المعتزلة[٣] .

وقد كان فى اعتدال أتباع زيد سبباً فى عداء الإمامة لهم ، وكانوا ينصون على تسلسل الإمامة من أبيه على زين العابدين إلى أخيه محمد الباقر من دونه وأيضاً رفض مذهبه بعض أهل الكوفة لمخالفته عن مذهب آبائه فى الأصول والتبرى والتولى ، وسمى هؤلاء بالرافضة لرفضهم مذهب الزيدية[٤] .

وكان اعتراض هؤلاء عليه أنه لا يجد غضاضة فى التتلمذ لواصل وتحصيل الأصول عليه ، على الرغم من اعتقاده بأن علىّ بن أبى طالب ما كان على يقين فى حروبه التى جرت بينه وبين أصحاب الجمل وأهل الشام ، وأن أحد الفريقين منهما كان على الخطأ لا بعينه[٥] ، ولأنهم رأوه لا يتبرأ من الشيخين فرفضوه .

وقد جرت بينه وبين أخيه محمد الباقر مناظرة بشأن تتلمذه على واصل بن عطاء ، واقتباسه العلم عن رجل يجوّز الخطأ على جده فى قتال الناكثين والقاسطين ، ويتكلم فى القدر على غيرما ذهب إليه أهل البيت . كما

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٥١

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ص ٢٥٠

(٣) الملل والنحل جـ ١ / ص ٣٢

(٤) الملل والنحل جـ ١ / ٣٢

(٥) الملل والنحل جـ ١ / ٢٤٩

مذهبًا دينيًّا فارسى الأصل لأن جمهور الموالى فى الكوفة كانوا من الفرس . فقد زعم دوزى أن الشيعة فى حقيقتها فرقة فارسية ، وأكد زعمه هذا بما ظهر من الفارق بين الجنسين العربى الذى يحب الحرية والفارسى الذى اعتاد الخضوع كالعبيد . ولم يكن يعرف فى الحكم غير مبدأ الوراثة ، وأنهم لهذا اعتقدوا أنه ما دام محمد لم يترك وريثًا فإن عليًّا هو الذى كان يجب أن يخلفه ، وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل علىّ ، وكل الخلفاء ما عدا عليًّا وآله مغتصبون لا تجب طاعتهم ، وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية ، لأنهم قد اعتادوا أن يروا فى ملوكهم أحفاداً منحدرين من أصلاب الآلهة ، فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى علىّ وذريته[١] .

وقد ذهب أوليرى أيضًا نفس المذهب فزعم أن أسباباً أخرى زادت من إحساس الكراهية من جانب الفرس المسلمين نحو العرب ، وهى أن عادتهم أن ينظروا إلى كل ملك من ملوك الساسانيين من أسرة الأبطال الأسطوريين القدماء (كايانى) ، باعتباره باغيًا ، وهو لفظ لا يفهم منه معنى إله تمامًا ، وإنما يفهم منه حلول الإله حيث تتوارث الروح المقدسة عن طريق التناسخ بين الحكام المتعاقبين ، ولهذا كان المسلمون من الفرس على استعداد لعبادة الخليفة كما عبدوا ملوكهم من قبل[٢] .

ونحن إذن بإزاء مسألتين ، الأولى : ما إذا كانت آراء الشيعة تلائم الفرس ، والثانية : ما إذا كان التشيع فارسى الأصل ؟

والحقيقة أن الشيعة بذهابهم إلى القول بوراثة آل البيت للحكم قد صادفوا فى نفوس الموالى الفرس هوى لأن الطاعة المطلقة للإمام كانت فى نظرهم الواجب الأعلى ، والإمام فى نظرهم هو كل شىء والخضوع الأعمى هو جوهر اعتقادهم .

---

(١) Dozy, Essai sur l'Histoire de l'Islam, pp. 220.

(٢) اوليرى / الفكر العربى ومكانه فى التاريخ / ص ١٠٥

أما إن التشيع فارسى الأصل فهذا أمر تنكره الحوادث التاريخية التى تؤكد جميعها أن التشيع كان قائمًا فى الدوائر العربية أولا ، ثم انتقل بعد ذلك بواسطة السبئية إلى الموالى .

ويذهب برنارد لويس إلى أن العرب كانوا فى بادئ الأمر آصحاب الدور الرئيسى فى التشيع وأنهم هم الذين جلبوه إلى فارس حيث مدينة قم الحربية[١]. فالتشيع حركة عربية خالصة وحزب سياسى صرف التف حول مطالب علىّ فى الخلافة ، ونشأ عن نقله العاصمة إلى الكوفة ، ثم نقل الأمويين لها إلى الشام فناصرت الحركة الوطنية العراقية الشيعة وبدأ تطور حركة الشيعة الحقيقى بعد استشهاد الحسين فى كربلاء ، فقد أخذ الشيعة يسعون إلى النصر بصفتهم طائفة إسلامية بعد أن فشلوا فى كسبه كحزب عربى ، ونجحوا فى نشر دعوتهم بين الجماعات المتذمرة وبخاصة بين الموالى الذين كانت تؤثر فيهم فكرة قيام خليفة شرعى من نسل الرسول أكثر مما تؤثر فى العرب أنفسهم ، وأصبح التشيع فى أساسه تعبيراً فى مصطلحات دينية عن معارضة الدولة والنظام القائم الذى كان قبوله يعنى موافقة السنة . ولم تقتصر معارضة النظام القائم على الموالى بحال من الأحوال إذ قام العرب فى العواصم الثائرة وبخاصة فى الكوفة مسقط رأس التشيع بدور هام فى حركة المعارضة . وقد جمع المختار هؤلاء فى محاولة جادة للقضاء على الفوارق بينهما واستغل القوى المختلفة من أجل بناء سلطانه الشخصى ، واتخذت المعارضة فى حركة المختار صورة الثورة الاجتماعية إلى جانب الثورة الدينية على الظلم والنظام القائم ، وتوجه سخط الموالى إلى الأرستقراطية العربية والفارسية ، فلم تكن الحركة قومية إذن ، وذلك لأن أصحاب الأرستقراطية من الفرس تقبلوا ضياع حقوقهم السياسية المؤقت لأنهم احتفظوا بوظائفهم وامتيازاتهم الاجتماعية والاقتصادية ، وكانوا يتعاونون مع العرب طالما أقروهم على امتيازاتهم فاستبدلوا حين دخلوا فى الإسلام الإسلام على المذهب السنى بالديانة الزردشتية أما من أسلم من فلاحيهم وعامتهم فقد استبدلوا بديانة زرادشت المذاهب

---

(١) برنادر لويس / العرب فى التاريخ / ص ٣٩ .

الإسلامية الخارجة على السنة معارضين عدوهم الذى كان مسيطراً عليهم من الفرس والذى أصبح مسيطراً من الحرب .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن التشيع كان من هذه الناحية مأوى لجأ إليه كثير من الساخطين والمتذمرين من أبناء القوميات الأخرى ، ولكنهم دخلوا فيه وغايتهم هدم الإسلام لعداوة أو لحقد ، أو لإدخال تعاليم آبائهم من اليهود والنصارى والزردشتيين والهنود ، وأيضًا كان بينهم من كان يريد استقلال بلاده والخروج على مملكته . وكل هؤلاء اتخذوا حب آل البيت ستاراً يضعون وراءه كل ما شاءت أهواءهم . وأن هؤلاء أدخلوا إلى التشيع كثيراً من الأفكار الدينية التى استقوها من معتقداتهم اليهودية والمسيحية والفارسية الأولى .

فاليهودية ظهرت فى الرجعة ، والنصرانية ظهرت فى القول بأن نسبة الإمام إلى الله كنسبة المسيح ، وقولهم إن اللاهوت اتحد بالناسوت فى الإمام ، وأن النبوة والرسالة لا تنقطع أبداً ، وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح وتجسيم الإله والحلول ، ونحو ذلك من الأقوال التى كانت معروفة عند البراهمة والمجوس ، وهكذا تستر الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية وما فى نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم والسعى لاستقلالهم ، ويمثل وجهة نظر هؤلاء المؤرخين المقريزى فى قوله : « واعلم أن السبب فى خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت من سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر فى أنفسها بحيث إنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأسياد ، وكانوا يعدون سائر الناس عبيداً لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطراً ، تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى . . . فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع فأظهر قوم منهم الإسلام ، واستمالوا أهل التشيع بإظهار المحبة لأهل البيت واستبشاع ظلم علىّ ، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى »[١] .

---

(١) خطط المقريزى ج ١ / ٣٦٢

وليس شك فى أننا نستطيع أن نفهم من قوله إن الموالى الفرس المغرضين هؤلاء قد استمالوا أهل التشيع أن التشيع كان موجوداً فى الدوائر العربية وأنه لم يكن أصلا فارسيًّا ، وليس شك أيضًا فى أن هذه نظرة سنية غالية متشككة وهى فى تشككها ليست إلا تعبيراً شعوبيًّا مغلفًا عما يكنه العرب من عداء للموالى لما فيها من تعميم وإطلاق فقد يكون بين من دخلوا فى حركة الشيعة مغرضون ، ولكننا نظلم الموالى إذا ما وصفناهم جميعًا بالإغراض ونظلم الحق أيضًا . فقد قدم الآلاف منهم أرواحهم فى سبيل تلك الغاية التى اعتنقوها .

ولكن من الطبيعى أن ينتج عن دخول أقوام مختلفى الجنسيات والأفكار والعقائد ترسب معتقداتهم فى الدين الجديد الذى اعتنقوه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن يحول بينهم وبينه ، فكل منهم يتلقى الإسلام من منظور وبمفهوم خاص يتأثر فيه بدون شك بما كان له من الأفكار والعقائد . وليس شك فى أن الإسلام قد تلون فى أفهامهم ووجدانهم ألوانًا شتى طبقًا لعقائدهم المختلفة .

ولا يقتصر الأمر على الفرس فى ذلك ، فبعض المؤرخين يزعم أن العقيدة الشيعية نبعت عن اليهودية أكثر مما نبعت عن الفارسية ، مستدلا فى زعمه بأن مؤسس العقيدة الشيعية عبد الله بن سبأ كان يهوديًّا [1] وأن الفكرة القائلة بأن النبى ملك يمثل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى الإسلام [2] .

والذى نراه ويدلنا عليه التاريخ أن التشيع لعلىّ قد بدأ قبل ابن سبأ ، وقبل دخول الفرس فى الإسلام ، ولكنه كان تشيعاً فى صورة ساذجة لا تخرج عن كون علىّ أولى من غيره بالأمر لكفايته الشخصية ولقرابته من النبى صلى الله عليه وسلم والعرب من قديم تفخر بالرياسة وبيت الرياسة . وقد رأينا كيف نشأ التشيع حرباً بعد وفاة النبى ، ونما بمرور الزمان وبالمطاعن على عثمان . ولكنه أخذ صورة جديدة بدخول العناصر الأخرى فى الإسلام من يهودية ونصرانية ومجوسية وأن كل هؤلاء

---

(١) الخوارج والشيعة ص ٢٤٤ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٤٥ .

كانوا يصبغون التشيع بصبغة عقائدهم القديمة ، فاليهود يصبغون التشيع صبغة يهودية ، والنصارى صبغة نصرانية ، والمجوس صبغة مجوسية ، فلليهود الزعم بالوصية مجاراة لزعمهم فى وصاية يوشع بن نون لموسى . ولهم أيضًا القول بالرجعة مجاراة لقولهم برجوع النبي إلياهو الذى رفع إلى السماء ، وإنه يعود إلى الأرض ليملأها عدلا [١] وأيضًا لقولهم إن النبي أخنوخ رفع إلى السماء حيًّا وكان قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف وثلثمائة واثنتين وثمانين سنة ، وللنصارى القول بأن فى على قبسًا إلهيًّا وذلك يشبه اعتقادهم فى اتحاد اللاهوت بالناسوت .

وهذه تأثيرات أجنبية واضحة، ولكن أبرزها دون شك هى التأثيرات الفارسية واليهودية وليس ذلك غريبًا ، إذ كان الموالى الفرس هم أكثر العناصر الأجنبية التى دخلت فى التشيع عدداً ، ولهذا كان للعنصر الفارسى أكبر الأثر فى فكر الشيعة ، كما كان ابن سبأ وهو أول أجنبي احتضن فكرة الشيعة يهوديًّا .

---

(١) سفر التكوين ٪ ٥ / ٢٤ ، سفر الملوك الثانى ٢ ٪ ١

الفصل الثانى

الخوارج

١

كان التحكيم هو الفرصة المناسبة للتعبير عن سخط المحكمة الأول ؛ فقد تحيروا أيقبلون إجابة أهل الشام إلى رفع المصاحف ، أم يرضون بقول علىّ إنها خدعة حربية لجأ إليها معاوية وصحبه لما أشرفوا على الهزيمة ؟

ووقع جدل واسع فى هذا الشأن ، ولكنهم أجمعوا رأيهم على أن يقف القتال ، وعادوا بعد ذلك فشعروا أنهم قد خدعوا وبخاصة عندما تمت كتابة الصحيفة التى لم تمح أن علياً أمير المؤمنين . وبعد أن تضمنت الصحيفة تحكيم رجلين فى الأمر ، فثاب المحكمة إلى رشدهم وكرهوا ما آل إليه الأمر ونفروا من التحكيم ومن أن يحكم أحد فى كتاب الله ، إذ حكم الله واضح جلى فى هذا الشأن ، والتحكيم ليس إلا تعبيراً عن شك كل فريق من المتحاربين أيهما المحق ؟ وليس يصح هذا الشك أو التحير ما داموا وقتلاهم قد حاربوا وهم يؤمنون أنهم على الحق .

وصاغ واحد منهم وهو غير معروف بالقطع هذه المعانى المختلجة فى عبارة صرخ بها تقول : « لا حكم إلا الله » ، فإذا بها تسرى سريان البرق وتتجاوب بها الأنحاء لتصبح شعار الجماعة المتحرجة .

وعند عودة الجيش إلى الكوفة انحازوا إلى حروراء وأقاموا عبد الله بن الكواء اليشكرى إماماً على الصلاة وشبث بن ربعى أميراً على القتال ، وتنادوا بأن الأمر شورى وبأن التبعية لله عز وجل واتخذوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر منهجاً .

وإحساساً بخطئهم وبحاجتهم إلى التفكير طلبوا من علىّ أن يقر على

نفسه بالخطأ بل وبالكفر لتحيره ، ولشكه ولقبوله التحكيم وطالبوه أن يرجع عما أبرم مع معاوية من شروط ، وعلقوا عودتهم إليه على نقضه لهذه الاتفاقية ، ولكن علياً رفض وأصبح موقفه غاية فى الحرج ، إذ كيف يرجع عن اتفاق أمضاه والذين يأمره بالوفاء بالعهد ، ولو رجع عن اتفاقيته لتفرق عنه جمهور أصحابه الذين ضاقوا بالحرب وجنحوا إلى السلم ، وكيف يقر على نفسه بالكفر وهو لم يشرك بالله شيئاً ؟ وقد استطاع علىّ أن يقنع جمهورهم بالرجوع إلى الكوفة والانتظار ولكنهم أخذوا يضايقونه ويشغبون عليه ويتصايحون بقولهم لا حكم إلا لله ، يقاطعونه بها إذا تحدث ويعرّضون به بمناسبة ودون مناسبة.[1] وكان علىّ يقول دائماً : إنها كلمة حق أريد بها باطل ، وقد هادنهم إلا أن يقاتلوه فيقاتلهم[2]. وكان يرغب فى أن يهادنهم حتى تظهر نتيجة التحكيم.

فلما انتهى أمر التحكيم إلى ما انتهى إليه لم تكن نتيجته لترضى الخوارج ، لأنهم لا يمكن أن يقروا ما أقره الحكمان من أن عثمان قتل مظلوماً لأنهم حاربوا على عكس ذلك ، ومال علىّ حينئذ إلى قتال أهل الشام بعد ما تكشفت نتيجة التحكيم ، فأرسل إلى الخوارج بأن قد جاءكم ما كنتم تريدون[3] ولكنهم لم يجيبوه إلى طلبه اعتقاداً منهم بأنه لا يثوب إلى القتال الآن إلا دفاعاً عن ملكه ، وليس جهاداً فى سبيل الله ، واجتمعوا وتدارسوا أمرهم ، وقال قائلهم إنه لا ينبغى لقوم يؤمنون بالرحمن وينيبون إلى حكم القرآن أن تكون هذه الدنيا آثر عندهم من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والقول بالحق ، وأزمعوا الخروج عن هذه القرية الظالم أهلها إلى بعض كور الجبال أو المدن منكرين لهذه البدع المضلة .

وكان هذا الانشقاق الجديد بعد عام من عودتهم إليه ، وكان سببه المباشر زعمهم أن علياً كان قد وعدهم بأن يخرج لقتال أهل الشام دونما إبطاء ، ولكنه

---

(١) ابن كثير جـ ٧ ص ١٨١ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ٤١ .
(٣) أنساب الأشراف جـ ٢ / ص ٣٩٤ .

خيب أملهم حينما بعث أبا موسى الأشعرى إلى التحكيم، فلما انتهت مهزلة التحكيم عاد يطلب إليهم قتال أهل الشام ، ولكنهم رفضوا، وكانوا فى هذه المرة أقل عدداً ، وإن كانوا أصلب عزماً وأشد تصميماً ، فنصبوا لأنفسهم خليفة اختاروه هو عبد الله بن وهب الراسبى الأزدى المعروف بذى الثفنات لأن ركبه قد صارت كثفنات الإبل من كثرة السجود ، وكانت بيعته فى منزل زيد ابن حصن ، وكان عبد الله يمتنع عليهم تحرجاً ويستقبلهم ويومى إلى غيره تحرزاً فلم يقنعوا إلا به ، وكان يوصف برأى ونجدة[1] ، وكان ذلك فى العاشر من شوال سنة ٣٧ هـ ، وخرجوا من الكوفة وحداناً مستخفين، واتعدوا النهروان على الجانب الآخر من دجلة، وهناك عرضوا على خوارج البصرة وكان عددهم خمسمائة رجل أن ينضموا إليهم تحت قيادة مسعر بن فدكى التميمى .

وأناطوا بعبد الله قيادتهم فى جهاد الكفار ، ومن هؤلاء الكفار، علىّ وشيعته ، وكان علىّ قد يئس من عودتهم إلى صفوفه بعد أن ناظرهم وتمكن من إقناع قليل منهم بالرجوع ، وبعد أن بعث إليهم ابن عباس ليناظرهم فأصروا على رأيهم ، وأن يتوب علىّ حتى يرجعوا إليه[2]. ولكن أنصار علىّ خشوا أن ينهضوا لقتال أهل الشام وأن يتركوا هؤلاء خلف ظهورهم يعيثون فساداً فى ديارهم ويقتلون ذراريهم ويفزعون نساءهم ، وكان ذلك بعد أن تجرأ الخوارج فقتلوا عامل علىّ على المدائن عبد الله بن خباب وبقروا بطن امرأته ، كما قتلوا رسول علىّ إليهم الذى ذهب يستوضح الأمر ، ورفضوا أن يدفعوا إليه القتلة ، وحاول أن يوضح لهم أنه لا يختلف عنهم فى ضرورة تحكيم السيف فى أهل الشام ، ولكنهم أجابوه بأنهم لو بايعوه اليوم لحكّم غداً ، ولم يقبلوا أى شىء وتهيئوا للقتال وتنادوا بالرواح إلى الجنة .

والتقى بهم علىّ فى النهروان ، وكان أشد الناس عليهم أمير حربهم

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ١٧٧ .

(٢) نقد العلم والعلماء ص ٩٧ .

السابق شبث بن ربعى الذى رجع إلى علىّ ولم يكن الخوارج يزيد ونعلى أربعة آلاف، واستطاع علىّ أن يقضى عليهم وإن لم يستأصل شأفتهم . فقد رجع منهم قبل المعركة مائة فانضموا إلى علىّ وانحاز خمسمائة فارس على رأسهم فروة بن نوفل إلى الدسكرة وقتل الباقون إلا ثمانية أشخاص .

وقد أثمرت موقعة النهروان والسخط الناتج عنها قتل علىّ، وأصبح للنهروان نفس الأثر الذى كان لكربلاء عند الشيعة إذ وجد العامة فى استشهادهم حدثًا فذًّا يثير الإعجاب والحماس، وكان من نتيجتها أيضًا رغبة الخوارج فى التكفير عن خذلانهم لإخوانهم شهداء النهروان ، فقاموا بعدة ثورات صغيرة .

ويروى ابن الأثير أخبار بعض هذه الثورات الصغيرة مثل تلك التى أشعلها أشرس بن عوف الشيبانى الذى نزل الدسكرة فى مائتى رجل فقتل سنة ٣٨ هـ ، وخروج هلال بن علفة التميمى وأخيه مجالد فى مائتى رجل فى ما سباذان وقتلهما فى جمادى الأولى سنة ٣٨ هـ ، وكذلك خروج الأشهب بن بشر البجلى فى مائة وثمانين رجلا وقتله فى جرجرايا على الدجلة ، وكان أخطر هذه الخرجات ما قام به أبو مريم من بنى سعد تميم ، وقد نجح أبو مريم فى دق أبواب الكوفة وقاتل أحد قواد علىّ قتالا باسلا فى جيش جميعه من الموالى ، ولكنه قتل فى رمضان سنة ٣٨هـ[١].

وكان فروة بن نوفل الأشجعى قد ترك ميدان القتال فى النهروان وانصرف فى خمسمائة فارس معرضًا عن قتال علىّ ، فنزل الدسكرة ناحية شهرزور ، ولحق به خنثر بن عبيدة المحاربى ، وقد ظلوا على عهدهم فلم يتعرضوا لعلىّ حتى قتل ، فلما نزل معاوية النخيلة على أثر صلحه مع الحسن انتهزوا الفرصة وساروا إليه فقاتلوا فريقًا من أهل الشام تعرض لهم حتى كشفوهم وحينئذ توجه معاوية إلى أهل الكوفة بالأمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم ويكفوه شر إخوانهم ، فخرج

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٣١٣ ، اليعقوبى جـ ٢ ص ٢٦٢.

أهل الكوفة لقتال الخوارج فقالوا لهم : ويلكم ما تبغون ؟ أليس معاوية عدونا وعدوكم ؟ دعونا نقاتله فإن أصبناه كنا قد كفيناكم ، وإن أصبنا كنتم قد كفيتمونا فأبى أهل الكوفة إلا القتال ، فقال الخوارج : رحم الله إخواننا من أهل النهر هم كانوا أعلم بكم يا أهل الكوفة[١] .

وانهزم الخوارج أمام الكوفيين ، ولكن انهزامهم لم يكن ليثنيهم عن عزمهم على الدفاع عما يعتقدون أنه الحق ، ولم ينتخب الخوارج إماماً جديداً بعد مصرع الراسبي فى النهروان إلى أن تولى المغيرة بن شعبة ولاية الكوفة فانتخبوا المستورد بن علفة التميمى ، وكان أخواه هلال ومجالد قد استشهدا عند ماسباذان بعد النهروان بقليل . أما المستورد نفسه فكان من الذين ارتثوا فى النهروان وعفا عنه علىّ فى أربعمائة من المرتثين سمح لأهلهم باحتمالهم والعناية بهم ، فلبث بعد النهروان فى عشيرته شهراً أو نحوه ثم خرج إلى الرى فى رجال حتى بلغهم مقتل علىّ فعادوا إلى الكوفة لينتقموا لشهداء النهروان وليقاتلوا الكفرة والفاسقين .

وكان المغيرة قد قرر أن يسير فى الناس سيرة هينة لا ينظر فيها إلا إلى نفسه ؛ فأحب العافية وأحسن السيرة فى الناس ولم يفتش عن أهل الأهواء ما داموا لا ينقلون الكلام إلى دائرة الفعل ، وتغاضى تبعاً لذلك عن الخوارج الذين كانوا يجتمعون ويتبادلون الرأى والنظر ويتذاكرون إخوانهم من أهل النهروان ، واتفقوا على إعلان القتال على أهل القبلة ، وعقدوا لتنظيمهم عدة اجتماعات فى دار حيان بن ظبيان حضرها معاذ بن جوين بن حصين الطائى ، وكان ابن عمه زيد بن حصين قد قتل يوم النهروان وكان معاذ بين المرتثين ، كما حضرها بطبيعة الحال إمام الخوارج آنذاك المستورد بن علفة ، واتفقت كلمة المؤتمرين على الخروج غرة شعبان سنة ٤٣ هـ[٢] .

بيد أن المغيرة أحس بهذه المؤامرة فأمر الشرطة بأن تحيط بدار حيان ،

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ٩٥ .

(٢) الطبرى / ج ٦ ص ١٠٠ .

ولكن زوجته نجحت فى إخفاء السلاح وأنكر المؤتمرون لما مثلوا أمام المغيرة ما اتهموا بتدبيره ، وادعوا أنهم إنما يجتمعون فى دار حيان لقراءة القرآن عليه فلم يقنع المغيرة وأمر بسجن بعضهم حيث قضوا فى السجن قرابة عام وكان بين المسجونين معاذ بن جوين الشاعر[١] .

ومن داخل السجن تلقى المستورد قصيدة رائعة من معاذ يدعوه وأصحابه إلى الخروج ضد الكفار ، فخرج حتى نزل الحيرة ثم تركها واستتر وأصحابه فى الكوفة فى دار سليم بن محدوج وكان صهراً له ولم يكن خارجيًّا ، وبلغ المغيرة أن الخوارج يدبرون أمراً فخطب الناس محذراً وتنادى رؤساء القبائل أن يدل كل على سفهاء قومه ، وخشى المستورد على صهره فقرر الارتحال وبعث إلى أصحابه أن يخرجوا حتى لا يتسببوا فى إيذاء غيرهم ، واتعدوا بهرسير قرب المدائن ، وخرجوا منقطعين وتتاموا بها ثلثمائة رجل ، ثم ساروا إلى الصراة فباتوا بها ليلة وعلم المغيرة بخبرهم فانتدب لهم ثلاثة آلاف من شيعة الكوفة ، وفرسانهم وأمر عليهم رجلا من كبار الشيعة هو معقل بن قيس الرياحى[٢] وفى هذه الأثناء أرسل المستورد كتابًا إلى عامل المغيرة ، يدعوه إلى مذهبه ، ولكنه امتنع بطبيعة الحال .

وخرج المستورد وصحبه على شاطئ دجلة حتى انتهوا إلى جرجرايا فعبروا النهر ومضوا فى أرض جوخى حتى بلغوا المذار التابعة للبصرة ، ومر جيش الشيعة حتى نزل كوثى ، فبهرسير وخاب ظنهم لأن الخوارج كانوا ارتحلوا ، وتبين لهم ألا مفر من الاستمرار فى مطاردتهم ولم يزل هذا دأبهم حتى لحقوا بهم عند المذار وهناك دارت معركة هزم فيها الخوارج ولم تكد المعركة تنتهى حتى دب الهلع فى نفوس الخوارج إذ جاءتهم الأنباء بسير جيش آخر من ثلاثة آلاف من شيعة البصرة بقيادة شريك بن الأعور الحارثى إليهم ، فمضوا فى الليل بطريق

---

(٢) الطبرى ج ٦ ص ١٠٤ .

(٢) الطبرى ج ٦ / ١٠٨ – ١١٨ .

منعزل إلى أرض الكوفة حيث نزلوا جرجرايا من جديد وحالوا دون لحاق أهل البصرة بهم .

وأرسل معقل أبا الرواغ قائد طليعته فى ستمائة فارس على أثرهم ، وحث الخوارج السير حتى نزلوا ساباط وانتهوا إلى جسر هناك ، وأراد المستورد أن يخدع أبا الرواغ فيستدير ليهاجم كتلة الجيش ذاته بقيادة معقل الذى نزل قرية ديلمايا على مبعدة ثلاثة فراسخ عن بهرسير وفوجىء معقل باستدارة المستورد فاضطرب جيشه الذى لم يبق منه غير ثلثمائة رجل جثوا على ركبهم يستقبلون الموت لولا أن ظهر أبو الرواغ فجأة فحمل على الخوارج من المؤخرة واحتدم القتال حتى قضى على الخوارج تماماً ، ولم تنته الوقعة إلا بمبارزة عنيفة بين المستورد ومعقل بن قيس خرا فى نهايتها قتيلين معاً[٢] .

وهكذا أفلح المغيرة فى أن يضرب خصمى الدولة بعضهما ببعض ، وإزاء تفاقم خطر الخوارج ولى معاوية زياد بن أبيه البصرة عام ٤٥ هـ ، وقد أوضح زياد سياسته التى سيسير عليها فى حكم هذه البلاد ، وهى سياسة البطش والجبروت تلك السياسة التى وطدت أركان ملك معاوية واستتب بها الأمن والطمأنينة ، وقد أخذ زياد الخوارج بالشدة فأوقع فى قلوبهم الرعب فانقادوا له وظلوا سنوات طويلة لا يفكرون فى عمل جديد بعد ثورة المستورد تلك .

وفى عام ٥٣ هـ ، أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة ، فأخذ أهلها بما أخذ به أهل البصرة من الغلظة وأعمل فى أهلها السجن والتنكيل وقطع أيدى ثلاثين رجلا حصبوه فى المسجد ، وأوقع بحجر بن عدى وصحبه من الشيعة ، وكان يقيم ستة أشهر فى البصرة وستة أشهر فى الكوفة . فضعفت شوكة الخوارج ، لما أبداه زياد من القسوة فلم تقم لهم قائمة مدة ولايته حتى تولى البصرة ابنه عبيد الله ، فظنوه هيناً وانتخبوا خليفة جديداً ولم يكونوا قد نصبوا أحداً بعد مقتل المستورد ، وكان انتخابهم خليفة جديداً يعنى دائماً استئناف القتال ضد الجماعة[١] .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٨ — ١١٨ . (٢) الخوارج والشيعة ص ٥٧ .

وكان على الكوفة قبل أن يجمع العراق لابن زياد ابن أم الحكم الثقفى ، وقد شعر الخوارج فى هذه الفترة وبعد هذا الخمود بالندم على سكوتهم فبايعوا حيان ابن ظبيان خليفة ، وكان أول من بايعه معاذ بن جوين الطائى الذى اقترح الخروج إلى حلوان ، ولكن الخليفة الجديد لم يستجب للفكرة لقلة عدد أصحابه الذين لم يكونوا يزيدون بحال على المائة فاقترح الخروج إلى ما يجاور الكوفة والسبخة من القرى ، وأن يلتقوا بالقوم فيقاتلونهم حتى يلحقوا بربهم ، ولكنهم لم يستجيبوا أيضًا لهذه الفكرة التى لا تجديهم شيئًا ، وثبت حيان على رأيه ولم يشأ الباقون أن يعارضوه بيد أنهم رأوا ألا يقاتلوا فى الكوفة خوفًا من أهلها أن يرجموهم بالحجارة من فوق سقوف المنازل ، وعولوا على السير إلى بانقيا على مسافة قريبة من الكوفة فاستقبلوا القوم وجعلوا البيوت إلى ظهورهم ، وبعث إليهم ابن أم الحكم[1] بجيش قتلهم عن آخرهم وكان ذلك فى نهاية عام ٥٩ هـ ، وكانت هذه نهاية الخوارج فى الكوفة التى لم تكن لتتحمل نشاطهم وسلطان الشيعة فيها غير منازع . وكان فى القضاء على خوارج الكوفة أثر كبير فى ازدياد نشاط الخوارج فى البصرة .

وكان هذا النشاط قد بدأ منذ عام الجماعة حينما ثار فيها سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى فى سبعين رجلا ، وعثروا فى طريقهم بعبادة بن قرص الليثى أحد بنى بجير ، وكانت له صحبة ، يصلى عند الجسر فأنكروه وقتلوه فاضطرهم والى البصرة ابن عامر إلى التسليم فسألوه الأمان فأمنهم .

وعندما تولى زياد البصرة فى منتصف سنة ٤٥ هـ خافه سهم بن غالب فخرج إلى الأهواز داعياً إلى الثورة وقتل مسلماً هناك لم ينكر إيمانه بينما خلى سبيل يهود صرحوا بيهوديتهم ، وتجاسر سهم على الذهاب إلى البصرة ، ولكن أنصاره فيها تخلوا عنه إزاء شدة زياد فاضطر إلى الاستتار ، وطلب الأمان فلم يؤمنه زياد وطلبه حتى أخذه فقتله وصلبه على بابه وكان ذلك فى سنة ٤٦ هـ . أما الخطيم

(١) ابن الأثير جـ ٣ ص ٣٥٠ .

فأظهر الفتنة فنفاه زياد إلى البحرين ، ثم أذن له فقدم على أن يلزم بيته وضمنه مسلم بن عمرو على أن يعلم زياداً إذا ما بات خارج بيته ، وذات يوم أعلمه مسلم بذلك فأمر زياد به فقتل وألقى فى باهلة[١] وفى سنة ٥٠ هـ ، خرج قريب الأزدى وابن خالته زحاف الطائى فى سبعين رجلا فمرا بشيخ يقال له حكال من بنى ضبيعة فقتلوه وتفرقوا بعد ذلك حيث قتل قريب ، وبعد هذا الحادث اشتد زياد وعاملة فى البصرة سمرة بن جندب على الخوارج وطالب أهل البصرة بأن يكفوه أمرهم ، فكانوا يثورون بهم فيقتلونهم ، وقد قتل زياد من الخوارج فى البصرة وحبس آلافاً كثيرة ، ولكن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن هذه الأعداد الكثيرة التى يذكرها المؤرخون العرب لا تقبل التصديق فضلا عن أن الخوارج البصريين كانوا يسلكون مسلك اللصوص والسفاحين ، وكانت الفوضى التى تسود البصرة بعكس الكوفة مجالا ملائماً لهم ، فليس غريباً أن تعاملهم الشرطة معاملة سائر المجرمين الذين يعكرون صفو الأمن حيث إن الشرفاء من الخوارج كانوا غير راضين عن سلوكهم ، حتى إن أبا بلال مرداس بن أدية لعنهم وبرئ منهم كما أبرأ والى البصرة من دمهم[٢] وقد ابتدأ ابن زياد ولايته للبصرة سنة ٥٥ هـ ، بمهادنة الخوارج فطمعوا فيه وحسبوه أسمح من أبيه عندما أطلق سراح عدد كبير منهم ، ولكنه إزاء نشاطهم المتزايد فكر فى اتخاذ طريقة أخرى هدفها أن يوقع بينهم فاصطفى لنفسه منهم جماعة برئاسة رجل يدعى جداراثم تركهم يقاتل بعضهم بعضاً فمن ظفر بأخيه فاز بالحرية وقد ثاب الخوارج لأنفسهم فعنفوا بها فيما بعد وراحوا يكفرون عن خطيئتهم بكفارة فعالة فعرضوا الدية على أولياء القتلى ، ثم عرضوا دماءهم من بعد وآلوا على أنفسهم أن يكفروا عما أتوا من قتل إخوانهم بالقيام بحركة عنيفة جديدة وأن يقاتلوا عبيد الله بن زياد ، وكان هؤلاء سبعين رجلا من عبد القيس اضطروروا بفعل ملاحقة الشرطة لهم أن يبكروا بالهجوم قبل موعده بعد أن انكشف أمرهم أو كاد فذبحهم حراس

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٣٥١ – ٣٥٩ .

(٢) الخوارج والشيعة ص ٦٢ .

عبيد الله فى عيد الفطر من سنة ٥٨ هـ[1] وظل عبيد الله يتعقب الخوارج بشدة وقسوة ، فحبس من اشتبه فى أمره ومن خشى خطره .

وكان أبرز الخوارج فى البصرة أبو بلال مرداس بن أدية التميمى ، وهو شخصية نبيلة وفذة حتى لتكاد تكون شخصية أسطورية فى تاريخ الخوارج السياسى والعقائدى لأنه خالف عن كثير من معتقداتهم فكان لا يرى اشتراك النساء فى الحروب ، وكانت حماستهن فى القتال أمراً مشهوراً[2] كما أنكر الاستعراض وهو قتل كل مسلم لا يرى رأى الخوارج بغير تمييز متى وجدوه فى طريقهم ، وقد مر بنا كيف استنكر سلوك بعض الخوارج الذين عاثوا فى البصرة فساداً ، وقد حبسه ابن زياد بين من حبسهم من الخوارج ، ولكن أبا بلال استطاع أن يستميل سجانه وأن ينال الإذن منه فى الانصراف أثناء الليل ليزور أهله فإذا طلع الفجر أتاه حتى يدخل السجن . وكان لأبى بلال صديق من ندماء ابن زياد فذكر ابن زياد الخوارج ذات ليلة وعزمه على قتلهم إذا أصبح فانطلق هذا الصديق إلى بيت مرداس فأخبر أهله وأشار عليهم أن يرسلوا إليه فى السجن ليعهد فإنه مقتول ، وبلغ مرداس الخبر عندما عاد إلى بيته كما نمى الخبر إلى السجان الذى بات ليلة سوء إذ خشى ألا يعود السجين ، وكم كانت دهشته عندما عاد مرداس إلى السجن وفى الصباح جعل ابن زياد يقتل الخوارج فوثب السجان وكان ظئراً لعبيد الله يستشفعه ليهب له رأس مرداس بعد أن قص عليه قصته فوهبه له[3] .

وكان أخوه عروة بن أدية من رءوس الخوارج وهو فى أشهر الروايات أول من حكّم فى صفين ، وكان له أتباع وأصحاب وشيعة ، ويروى الطبرى أن ابن زياد كان قد خرج فى رهان له ، فلما جلس ينظر الخيل اجتمع الناس وحسبها عروة فرصة مناسبة لينال من ابن زياد ويذكره بجرائمه فانطلق يقول له : خمس

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٢٧ .
(٢) الأغانى ج ٦ ص ٦ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٧٥ .

كن فى الأمم قبلنا فقد صرن فينا ، قال تعالى : «أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين» فقهم ابن زياد من كلامه أنه بداية فتنة فقام وترك رهانه وأضمر الشر لعروة الذى أدرك خطورة ما فاه به فتوارى غير أن ابن زياد طلبه حتى قبض عليه ومثل به أمامه فقطعت يداه ورجلاه وقال له : كيف ترى ؟ قال : أرى أنك أفسدت دنياى وأفسدت آخرتك فقتله[١].

وكان عروة آية فى التجلد والصبر ، فعند ما ظفر به ابن زياد قال له لأمثلن بك ، فقال عروة : اختر لنفسك من القصاص ما شئت فلما أمر به فقطعت يداه ورجلاه وصلبه على باب داره التفت إلى بعض أهله فقال لهم وهو مصلوب : انظروا إلى هؤلاء الموكلين فأحسنوا إليهم فإنهم أضيافكم[٢].

وأرسل ابن زياد إلى ابنة عروة فقتلها[٣] ولقيت نفس المصير امرأة أخرى شديدة الحماسة تدعى البجاء كانت تخطب خطباً نارية مثيرة ضد ابن زياد فقبض عليها وقتلها فى سوق البصرة[٤].

وقد كان لكل هذا أثره البالغ فى نفس أبى بلال شقيق عروة فخرج فى أربعين رجلا إلى الأهواز سنة ٦٠ هـ ، وقد رأى أنه لا يحق له أن يعيش فى البصرة تحت هذا السلطان ، ومضى وصحبه فلم يتعرضوا لأحد بسوء ولم ينالوا من الخراج — وقد لقيهم فى الطريق وكان فى مكنتهم استلابه — إلا ما هو مفروض لعددهم ، ولم يعتدوا ، ولكنهم اضطروا إلى أن يدفعوا عن أنفسهم الاعتداء فقد شعر به ابن زياد فبعث فى أعقابه بألفى رجل على رأسهم ابن حصن التميمى وفى آسك دارت معركة أشبه بالملاحم الأسطورية قاتل فيها أبو بلال ورجاله الأربعون

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٣ .

(٢) لسان الميزان جـ ٤ ص ١٦٣ شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٣٨٠ ، المعارف ص ١٤١ ، العقد الفريد جـ ١ ص ٢٧١ .

(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٣ .

(٤) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨ .

هذين الألفين قتالا مجيداً حتى اضطروهم إلى الفرار بعد أن قتل فيهم وصحبه مقتلة عظيمة أشاد بها شاعرهم عيسى بن فاتك الحبطى[١].

ولم يصبر ابن زياد على هذه الهزيمة المنكرة ، فبعث إلى أبى بلال بجيش من ثلاثة آلاف رجل بقيادة عباد بن الأخضر التميمى سنة ٦١ هـ ، فحمل عليهم أبو بلال وصحبه . وطلب الخوارج إلى عباد أن يؤمنهم حتى يصلوا فأعطاهم الأمان وما كادوا يسجدون حتى حثهم عباد وجنده بسيوفهم فقتلوهم عن آخرهم .

ولدى عودة عباد بجنده إلى البصرة أقبل عبيدة بن هلال اليشكرى وهو من رءوس الخوارج وفرسانهم ومعه ثلاثة نفر من الخوارج فرصدوا عباداً وهو عائد إلى قصر الإمارة مردفًا ابنًا له صغيراً ، فقالوا : يا عبد الله قف لنستفتيك فوقف فقالوا : نحن إخوة أربعة قتل أخونا فما ترى ؟ قال استعدوا الأمير ، قالوا : استعديناه فلم يعدنا ، قال : فاقتلوه قتله الله ، فوثبوا عليه فحكموا وألقى ابنه فقتلوه[٢].

وقد صار أبو بلال عند خوارج البصرة القديس الحقيقى وإن لم يتمثلوه فى رقة نفسه ودماثة خلقه ، وقد أثار مقتله ومقتل أصحابه على هذا النحو من الغدر حفيظة الخوارج ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون شيئاً طالما كان ابن زياد وطيد المكانة فى ولايته ، وقد اضطر الخوارج تحت ضغط ابن زياد وشدته معهم إلى مغادرة البصرة عقب مقتل أبى بلال وصحبه ، فاتجهوا إلى مكة استجابة لنداء نافع بن الأزرق الذى قال لهم : إن الله قد أنزل عليهم الكتاب وفرض عليهم الجهاد واحتج عليهم وقد جرد أهل الظلم فيهم السيوف فليخرجوا إلى هذا الذى ثار بمكة فإن كان على رأيهم جاهدوا معه وإن لم يكن على رأيهم دافعوه عن البيت[٣].

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٧٤ .

(٢) ابن الأثير جـ ٣ ص ٤٢٨ .

(٣) الطبرى جـ ٧ ص ٥٥ .

وفى مكة أنهى إليهم ابن الزبير أنه على رأيهم من غير تفتيش ، وأتيح لهم أن يشهدوا حصار جيش يزيد بن معاوية بقيادة الحصين بن نمير للكعبة وأن يساندوا ابن الزبير فى الزود عنها . وقد توفى يزيد بن معاوية أثناء الحصار فرفع عن مكة وانصرف أهل الشام[1] بعد أن رفض ابن الزبير أن يسير معهم ، وهنا ظهر الخلاف بين موقف الخوارج السياسى وبين موقف ابن الزبير ، وتبين لهم أنه ليس الرجل الذى أمّلوه فارتحلوا عنه ومضى بعضهم إلى البصرة بينما مضى البعض الآخر إلى اليمامة[2] .

فبينما ذهب أبو طالوت وابن الأسود وأبو فديك وكلهم من بكر إلى اليمامة ، فاستولوا عليها عاد نافع بن الأزرق إلى البصرة ومعه عبد الله بن الصفّار وعبد الله ابن إباض وحنظلة بن بيهس وعبيد الله والزبير أبناء الماحوز .

وكانت عودتهم إلى البصرة فى الوقت الذى أعقب هروب ابن زياد منها ، وقد أتاح تنازع العصبية الذى أعقب ذلك الفرصة أمامهم ليكسروا السجون وليستخرجوا إخوانهم منها ، وتولى نافع بن الأزرق قيادة ثلثمائة رجل وخرج يريد الأهواز ، وكان فى ذلك نهاية شوال سنة ٦٤ ﻫ ، وقد نجح فى السيطرة عليها وعلى ما وراءها من بلدان فارس وكرمان ، فجبى خراجها وكثر أتباعه وانتشر عماله فى السواد وأوقع الفزع فى قلوب أهل البصرة وقتل عمال ابن الزبير فى كل هذه الأنحاء .

واجتمع لابن الأزرق جمهرة الخوارج ، فكان معه رءوسهم كعطية بن الأسود الحنفى وأبناء الماحوز وعمر بن عمير العنبرى وقطرى بن الفجاءة المازنى وعبيدة بن هلال اليشكرى وصخر بن حبناء التميمى وصالح بن مخراق العبدى وعبد ربه الكبير وعبد ربه الصغير وغيرهم فى زهاء ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيه وينخرط فى سلكه[3] .

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٦٩ .

(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٠ .

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٧٩ .

فلما اصطلح أهل البصرة على إمارة عبد الله بن الحارث بن نوفل القرشى اجتمعوا ضد الخوارج المتبقين فى البصرة واضطروهم إلى الفرار واللحاق بنافع بن الأزرق إلا قليلا منهم ممن لم يكن أراد الخروج آنذاك . ومنهم عبد الله بن الصفّار وعبد الله بن إباض وحنظلة بن بيهس الذين اختلفوا ورجال معهم على الرأى مع نافع بن الأزرق ، وكان الخلاف قد وقع على أساس أن نافعاً كان يرى وجوب مفارقة المسلم الصحيح الإيمان لديار المشركين وتحريم الإقامة بين ظهرانيهم ، ولكن هؤلاء كانوا يرون غير رأيه فاختلفوا معه ، ولكنهم ما لبثوا أن اختلفوا فيما بينهم أيضاً .

وعلى الرغم من أن المصادر القديمة لا تقدم لنا الكيفية التى انقسم بها الخوارج إلى أربع فرق كبيرة مكتملة فى ذلك الوقت ، بينما اكتفت المصادر المتأخرة من التى تؤرخ لعلم الكلام بالنظر إليها على أنها فرق كلامية مكتملة فحسب ، فإننا لا بد واجدون صورة لهذه الكيفية فى الأحداث التاريخية المعاصرة لانقسامهم .

ونحن نستبعد ابتداء ما ذهب إليه بعض الباحثين المحدثين من أن انقسام الخوارج كان نتيجة لخطة مدبرة هدفها تطويق الدولة من جميع أطرافها[١] ذلك أن الخلاف الذى وقع على أثره الانقسام لم يكن خلافاً ظاهرياً كما يقتضى هذا الزعم أن يكون ، وإنما كان خلافاً عقائدياً ومنهجياً حقيقياً سجله التاريخ وقطع بصحته .

وأول ما نبدأ به فى استيحاء الأحداث المعاصرة لهذا الانقسام ، أن الانقسام قد حدث قبل ذلك وفى مكة بالذات على أثر مناظرة ابن الزبير ، فهؤلاء الذين فارقوا بادئ ذى بدء واتجهوا من مكة إلى اليمامة لم يكن فيهم نجدة ابن عامر الحنفى الذى أصبحت فرقة النجدات تدعى منسوبة إليه . وكان هؤلاء هم أبو فديك عبد الله بن ثور من بنى قيس بن ثعلبة

(١) أدب الخوارج ص ٣٦ .

وعطية بن الأسود الحنفى وأبو طالوت من بنى بكر بن وائل .

ويذكر الشهرستانى أن نجدة خرج من اليمامة مع عسكره يريد اللحاق بالأزارقة . فاستقبله أبو فديك وعطية بن الأسود فى الطائفة الذين خالفوا نافعاً فأخبروه بما حدث وبما أحدثه نافع من الخلاف بتكفير القعد عنه وبسائر الأحداث والبدع ، وأعلموه بخلافهم مع نافع وبايعوه وسموه أمير المؤمنين[1] .

ويبدو أن نجدة كان قد ارتحل إلى اليمامة إثر هزيمة النهروان ، فالشهرستانى يذكر أن من الذين نجوا من المعركة وكانوا أقل من عشرة انهزم اثنان إلى اليمن[2] .

وتتفق الروايات على أن نجدة التقى بهؤلاء المخالفين لنافع بالعرمة وأنهم أبلغوه بتكفير نافع للقعدة وإصراره على الاستعراض وقتل الأطفال فانصرفوا معه فلما صار باليمامة كتب إلى نافع رسالته الشهيرة التى ينعى عليه فيها مذهبه المتشدد والتى تجرى على هذا النحو : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد ، فإن عهدى بك وأنت لليتيم كالأب الرحيم وللضعيف كالأخ البر لا تأخذك فى الله لومة لائم ولا ترى معونة ظالم ، كذلك كنت أنت ، وأصحابك ، أما تذكر قولك : « لولا أنى أعلم أن للإمام العادل مثل أجر جميع رعيته ما توليت أمر رجلين من المسلمين » فلما شريت نفسك فى طاعة ربك ابتغاء رضوانه وأصبت من الحق فصه وركبت مرّة تجرد لك الشيطان ولم يكن أحد أثقل عليه وطأة منك ومن أصحابك فاستمالك واستهواك واستغواك وأغواك فغويت فأكفرت الذين عذرهم الله فى كتابه من قعد المسلمين وضعفتهم ، فقال جل ثناؤه وقوله الحق ووعده الصدق : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله » ، ثم سماهم الله أحسن

---

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٦ .

الأسماء ، فقال : « ما على المحسنين من سبيل » ، ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن قتلهم وقال عز ذكره : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » ، وقال سبحانه فى القعد خيراً وفضل الله من جاهد عليهم ، ولا تدفع منزلة أكثر الناس عملا منزلة من هو دونه ، أو ما سمعت قوله عز وجل : « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر » فجعلهم الله من المؤمنين وفضل عليهم المجاهدين بأعمالهم ، ورأيت ألا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله يأمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها فاتق الله وانظر لنفسك واتق يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً فإن الله عز وجل بالمرصاد وحكمه العدل وقوله الفصل والسلام[1] وقد رد عليه نافع برسالة فسر فيها ما عابه عليه وما دان به من إكفار القعد وقتل الأطفال واستحلال أمانات أهل الجماعة ، وهى الأسس التى قام عليها الخلاف ، يقول نافع : أما هؤلاء القعد فليسوا كما ذكرت ممن كان بعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقاً ، وهؤلاء قد فقهوا الدين وقرءوا القرآن ، والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ما قال الله عز وجل فيمن كان مثلهم إذ : « قالوا كنا مستضعفين فى الأرض » فقيل لهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » وقد قال : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله » ، وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم » ، فخبر بتعذيرهم وأنهم كذبوا الله ورسوله ، وقال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم » فانظر إلى أشمائهم وسماتهم . وأما أمر الأطفال فإن نبى الله نوحاً عليه السلام كان أعلم بالله يا نجدة منى ومنك ، فقال : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » فسماهم بالكفر وهم أطفال قبل أن يولدوا فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا تقوله فى قومنا ؟ والله يقول : « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر » ، وهؤلاء كمشركى العرب

---

(١) الكامل جـ ٢ ص ١٧٧ والعقد الفريد جـ ١ ص ١١٤ .

لا تقبل منهم جزية، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام، وأما استحلال أمانات من خالفنا فإن الله عز وجل أحل لنا أموالهم كما أحل لنا دماءهم فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فىء المسلمين وقد عد نافع نجدة وجميع من خالفوه كافرين فدعاهم فى آخر رسالته إلى تقوى الله ومراجعة النفس والتوبة مما وقعوا فيه من الخذلان والقعود[١].

وواضح ما فى تفسير نافع من غلو ومجانبة للاعتدال فيما ظنه من قول الله تعالى: «قالوا كنا مستضعفين فى الأرض»؛ وقد نزلت الآية فى طائفة ممن تكلموا بالإسلام وخرجوا مع المشركين فى بدر فأصيبوا فيمن أصيب من المشركين وقتلوا كفاراً، وكذلك فى قوله تعالى: «فرح المخلفون» إذ نزلت فى جماعة من المنافقين تخلفوا عن رسول الله ولم يخرجوا فى طاعة الله ومرضاته، وأيضاً فى قوله تعالى: «وجاء المعذرون» (بالتخفيف مَن يأتون بالعذر وبالتشديد من يعتذرون كأن لهم عذراً ولم يكن، أو هم المقصِّرون) فهم ومن كذبوا الله ورسوله فيما كانوا يظهرون من الإيمان مسيئون، فقوم عذروا وتكلفوا العذر بالباطل وتخلف آخرون من غير تكلف عذر وإظهار علة جرأة على رسول الله، وفيما ذهب إليه من دعاء نوح فهو غلو لا مبرر له لأن نوحاً عليه السلام لما صنع به قومه وعلم أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن دعا عليهم دعاء غضب ولم يطلب استحلال قتلهم وقتل أطفالهم بيده ولا بيدى المؤمنين به، وقد أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بألا تقتل الذرية فى الحرب. وقد اعترض عليه بأنهم أولاد المشركين فأجابهم بأن خيارهم هم من أولاد المشركين[٢].

ونافع بجعله الموحدين كمشركى العرب وإحلاله دماءهم وأموالهم إنما يتشدد تشدداً لا مبرر له حتى أصبح التشدد والغلو سمة واضحة لفرقته، ونحن نزعم أن مرد هذا التشدد ليس إلا انعكاساً لشخصية نافع ذاته.

---

(١) الكامل جـ ٣ ص ١٧٨، العقد الفريد جـ ١ ص ٢١٤.

(٢) الكامل جـ ٣ ص ١٧٥، مجمع البيان جـ ٢ ص ٩٨، جـ ٣ ص ٥٦ – ٥٩، جـ ٥ ص ١٩٣

ويروى أنه كان قبل ذلك صارم اللسان كليل الفؤاد وقد حرضه أبو الوازع الراسبي على أن تكون صرامة لسانه لفؤاده وكلال فؤاده للسانه ، وراح أبو الوازع يدربه عمليًّا على القسوة والصرامة فمضى فاشترى سيفًا وأتى صيقلا كان يذم الخوارج ويدل على عوراتهم ، فشاوره فى السيف فحمده ، فقال له اشحذه حتى إذا رضيه حكّم وخبط به الصيقل وحمل على الناس فتهاربوا منه إلى أن وصل إلى حى بنى يشكر فجندله رجل ، وكرهت بنو يشكر أن يدفن فى مقبرتهم خوفًا أن يجعل الخوارج قبره مهاجراً ، وقد جعل هذا المثل من نافع بن الأزرق خارجيًّا متشدداً بعد أن كان قاعداً صارم اللسان ومنذ ذلك الحين أصبح المبدأ الأسمى عنده أنه لا يجوز المقام بين أظهر المشركين بل يجب الذهاب إلى دار الهجرة وقتالهم وبيع النفس لله فى جهادهم ، وكان لمولى من موالى بنى هاشم أثر آخر يضاف إلى أثر أبى الوازع فى غلو نافع وتشدده ، فقد أتى هذا المولى نافعًا فقال له إن أطفال المشركين فى النار وإن من خالفنا مشرك فدماء هؤلاء الأطفال لنا حلال ، فقال له نافع « كفرت وأدللت بنفسك » ، قال له إن لم آتك بهذا من كتاب الله فاقتلنى ، قال نوح : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا » ، فهذا أمر الكافرين وأمر أطفالهم ، فشهد نافع أنهم جميعًا فى النار ورأى قتلهم[1].

وبينما تأثر نافع هذين الرجلين واتخذ من مذبحة آسك التى غدر فيها عباد ابن الأخضر بأبى بلال وصحبه وهم آمنون فى سجودهم بين يدى الله حافزاً لاهبًا للقسوة والصرامة والتشدد ، فيقتل عبيدة بن هلال أحد أتباع نافع طفلا لعباد أردفه خلفه فى طريقه إلى البصرة ، ولكن رفاقه الذين خالفوه فى البصرة كانوا أكثر ميلا وتعلقًا بمبادئ أبى بلال النبيلة التى تظهر بوضوح فى سلوكه المعتدل فى حواره مع عباد إذ طلب حواره ، فقال له أبو بلال «ما الذى تبغى ؟» فقال عباد : « أن آخذ بأقفائكم فأردكم إلى الأمير عبيد الله بن زياد » قال أبو بلال : « أو غير ذلك» ؟ قال عباد : «ما هو ؟» . قال أبو بلال : « أن ترجع

---

(١) الكامل ج ٣ ص ١٦٩ .

فإنا لا نخيف سبيلا ولا نذعر مسلماً ولا نحارب إلا من حاربنا ولا نجبى إلا ما حمينا »[1].

وهكذا يبدو لنا أن غلو ابن الأزرق وتشدده إثر وقعة آسك وما تركت فى نفسه من ألم وغير ذلك من التأثيرات التى عرضنا لها ، وما تركته تعاليم أبى بلال فى نفوس بعض الخوارج المعتدلين كان نقطة ابتداء الخلاف بين نافع والذين تركوه حيث لحقوا بنجدة ثم اختلفوا فيما بينهم بعد ذلك .

فبسبب هذا كان الخلاف بينه وبين هؤلاء الذين بقوا فى البصرة إذ أصر هؤلاء على معارضة نافع فى زعمه أن الدار دار كفر إلا من أظهر إيمانه ، وتحريم أكل ذبائح القوم ونكاحهم وتوارثهم ، وأنهم ككفار العرب لا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ، وأن القعد بمنزلتهم وأن التقية لا تجوز استناداً إلى قوله تعالى : « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ، وإلى قوله تعالى فيمن كان على خلافهم « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » .

وكان ابن الصفّار وابن إباض من تلاميذ أبى بلال المخلصين لتعاليمه ، فكانا ومن اتبعهما يرون التقية ولا يرون الدار دار كفر ولا يحبذون الاستعراض ولا يكفرون القعد فلم يلحقوا بنافع إلى الأهواز وبقوا فى البصرة ، وقد أثمر هذا الخلاف فرقتين : عرفت الأولى منهما بالصُفْرِيّة والأخرى بالإباضية وقد عمرتا أكثر مما عمرت فرقة الأزارقة أو النجدات وكل منهما بنت منهاجها على العمل أكثر من النظر .

وقد انتشرت الفرق الخارجية المعارضة للأزارقة من البصرة إلى سائر مواطن الخوارج فى دار الإسلام ، وكانت هناك فرقة من الخوارج لا تذكر كثيراً لقصر عمرها وانحصارها فى بيئة صغيرة ونعنى بها فرقة النجدات التى قامت فى اليمامة من الأرض التى تلى البصرة ، وقد نجح ابن عامر الحنفى فى إخضاع

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ٤٢٦ .

(٢) الكامل ج ٣ ص ١٦٩ .

الشريط الساحلى فى الشمال الشرقى والجنوب الغربى وجبايته ، وانتهز فرصة ضعف ابن الزبير وحكومته ولم يبال بما أظهره له عبد الملك من الود ، وكان قد وعده بولاية اليمامة إذا تعهد بالاقتصار عليها والتوقف عندها ، فلم ينقد لهذا الإغراء وراح يبسط نفوذه كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً وخلّف والياً على اليمامة وتوجه بنفسه فى سنة ٦٧ هـ إلى البحرين فضم الأزد إلى جانبه وهاجم بنى عبد القيس فالتقوا بالقطيف وهزمت عبد القيس وقتل منها جمع كثير وسبى نجدة من قدر عليه من أهل القطيف وأقام نجدة هناك[١].

وقد شعر ابن الزبير بخطورة نجدة فدفع بابنه حمزة واليه على البصرة إلى قتاله ، فأرسل حمزة عبد الله بن عمير الليثى فى أربعة عشر ألفا من البصريين إلى القطيف ولكن نجدة أتى ابن عمير وهو غافل فقاتله وجنده طويلا وحال بينهم الليل ، فما أصبح ابن عمير حتى هاله ما رأى فى عسكره من القتلى والجرحى وحمل نجدة عليهم كرة أخرى فلم يلبثوا أن انهزموا ولم يبق عليهم وغنم عسكرهم[٢].

وبعد هزيمة ابن عمير بعث نجدة بجيش إلى عمان واستعمل عليها عطية بن الأسود الحنفى الذى استولى على البلاد وأقام شهراً ثم خرج منها واستخلف رجلا عليها قتله أبناء عباد وأهل عمان[٣] ، وبسط نجدة سلطانه على شمالى البحرين ، وأرغم بنى تميم على أن يؤدوا إليه الخراج ، ثم سار إلى غربى بلاد العرب وأخضع بنفسه جزءاً من اليمن بما فيه صنعاء وبعث أبا فديك إلى حضرموت فجبى خراجها سنة ٦٨ هـ ، وفى نهاية هذا العام حج نجدة فى ثمانمائة وستين رجلا ، وقد وافت عرفات ألوية ابن الحنفية وابن الزبير ونجدة وبنى أمية ولم ينشب بينها قتال واشتركت كلها فى الوقوف بعرفات فى سلام ،

---

(١) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٦

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٧

(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ١٦٧

وتخلى نجدة عن فكرة مهاجمة المدينة عند ماأخبر بأن عبد الله بن عمر قد لبس سلاحه تأهبًا لقتاله، ومضى إلى الطائف حيث جاءه هناك عاصم بن عروة بن مسعود الثقفي فبايعه عن قومه، واستمر نجدة سائراً حتى تبالة جنوبًا يستعمل على هذه المواضع ويضع القواعد لإدارتها، ورجع نجدة إلى البحرين، ولكنه وإن أحجم عن مهاجمة البلدين الحرام لم يتورع عن قطع الميرة عنهما، وكانت ترد من البحرين واليمامة إليهما حتى كتب إليه ابن عباس بأن ثمامة بن أثال لما قطع الميرة عن أهل مكة وهم مشركون كتب إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن أهل مكة أهل الله فلا تمنعهم الميرة، فجعلها لهم وإنك قطعت الميرة عنا ونحن مسلمون» فاستجاب نجدة لندائه وجعلها لهم(١).

وأوشك نجدة أن يبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها مستغلا ضعف ابن الزبير، لولا أن انشق عليه أصحابه إذ نقموا عليه أموراً أكفروه بسببها منها أنه بعث ابنًا له مع جيش إلى أهل القطيف فقتلوا وسبوا نساءهم وقوموها على أنفسهم، وقالوا إن صارت قيمهن فى حصصنا فذاك وإلا رددنا الفضل ونكحوهن قبل القسمة وأكلوا من الغنيمة قبل القسمة أيضًا. فلما رجعوا إلى نجدة وأخبروه بذلك قال فلم يسعكم ما فعلتم قالوا: لم نعلم أن ذلك لا يسعنا، فعذرهم لجهلهم واختلف أصحابه بعد ذلك فمنهم من وافقه وعذر بالجهالات فى الحكم الاجتهادى(٢).

وكان من أسباب نقمتهم عليه أيضاً أنه أعطى بعض الجنود مالاً أكثر مما أعطى آخرين، وكان هذا أيضًا من أسباب الخلاف الذى وقع بينه وبين عطية بن الأسود فضلا عن أن عطية اتهم نجدة حين كتب إليه عبد الملك مغريًا إياه بولاية اليمامة إذا دخل فى طاعته على أن يهدى إليه ما أصاب من الأموال والدماء قائلا إنه لم يكاتبه إلا لأنه علم منه دهانًا فى الدين، وأيضًا لأنه

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٨

(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٩٠

حمى بنتًا لعبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان بعد أن سباها من المصير الذى ينتظر السبايا ، وكان ذلك استنثاء نقموه عليه ولم يبرره انزعاج ابن الزبير من أجلها وأنه كتب إلى نجدة يحذره بقوله : « والله لئن أحدثت فيها حدثًا لأطمئنّ بلادك وطأة لا يبقى معها بكرى[١] .

ومن أسباب نقمتهم عليه أنه لم يعاقب رجلا كان شديد النكاية على العدو ولكنه كان يشرب الخمر فى عسكره . وكان نجدة كلما امتد به الزمان ازدادت الاتهامات الموجهة إليه من أنصاره وعلا صوت شكايتهم منه ، ثم عاهدهم على أن يثوب ويصلح من أمر نفسه ، وقد تولى نجدة أصحاب الحدود من موافقيه وقال لعل الله تعالى يعفو عنهم وإن عذبهم فى غير النار ثم يدخلهم الجنة فلا تجوز البراءة عنهم وإن من شرب غير مصرّ أى مزمع التوبة فهو غير مشرك[٢] .

ولقد بلغت بهم النقمة عليه حد التكفير فاستتابوه وأظهر التوبة فتركوا النقمة عليه والتعرض له ، وندمت طائفة على تلك الاستتابة وقالوا أخطأنا وما كان لنا أن نستتيب الإمام ، وما كان له أن نستتيب باستتابتنا إياه فتابوا عن ذلك وأظهروا الخطأ وقالوا له تب عن توبتك وإلا نابذناك فتاب من توبته ففارقه أبو فديك وعطية[٣] ، ففر نجدة واستخفى فى إحدى القرى حيث دلت عليه جارية فطلبه أصحاب أبى فديك ففر إلى أخواله من بنى تميم فاستتر عندهم ثم أراد المسير إلى عبد الملك فى الكوفة ، وعلم بذلك الفديكيون فقصدوه وقبضوا عليه وأوردوه حتفه بعد أن رفض الهرب على فرس قدمه له أحد المخلصين له من الفديكية ، ثم إن أبا فديك برئ من عطية كما برئ عطية من أبى فديك ، وبقى النجدات دون إمام بعض الوقت ويبدو أن قولهم بأنه لا حاجة للناس إلى إمام قط — وإنما عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم فإن رأوا أن ذلك لا يتم

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٨ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ١٩١ .
(٣) الملل والنحل ج ١ ص ١٩٢ .

إلا بإمام يحملهم عليه أقاموه – يرجع إلى هذه الفترة التى تلت مصرع نجدة ويبدو أنهم لم يتناصفوا وأحسوا بالحاجة إلى إمام فأقاموا ثابت التمّار وهو أحد الموالى إمامـًا مؤقتـًا وكلفوه بأن يبحث لهم عمن يصلح لتولى أمرهم فاختار أبا فديك فبايعه الخوارج .

وعند نهاية سنة ٧٢ هـ ، استطاع أبو فديك أن يهزم جيشاً من أهل البصرة بقيادة أمية بن عبد الله أخى خالد والى البصرة لبنى أمية هزيمة منكرة ، ولكن أبا فديك هزم آخر الأمر أمام جيش كثيف مؤلف من أهل البصرة وأهل الكوفة بقيادة عثمان بن عبيد الله بن معمر حيث حصر جيشه فى المشقر ، واضطر إلى التسليم بعد أن قتل من رفاقه نحو ستة آلاف ، أما عطية فقد فر إلى أرض سجستان(١) .

وهكذا سقطت دولة النجدات فى اليمامة والبحرين بعد أن استمرت سبع سنوات كادت تبسط فيها سلطانها على شبه الجزيرة العربية كلها .

وفى الوقت الذى قامت فيه دولة النجدات كان نافع بن الأزرق يخضع منطقة الأهواز وكورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان وقد تكاثف جنده حتى بلغ ثلاثين ألفـًا من الفرسان كلهم يرى رأيه(٢) .

ورأى نافع أن يعود حينئذ إلى البصرة ، وأنفذ إليه واليها لابن الزبير عبد الله ابن الحارث بن عبد المطلب القرشى الشهير ببـبّـة جيشـًا من أهل البصرة بقيادة مسلم بن عبيس وخرج مسلم ليدافع نافعـًا عن أرض البصرة حتى بلغا مكانـًا يقال له دولاب على نهر الدجيل ، حيث وقع قتال لم ير أشد منه ، قتل فيه قائدا الجيشين(٣) ، فخلفهما الربيع بن عمرو الغدانى على أهل البصرة وعبد الله ابن الماحوز على الأزارقة فقتلا أيضـًا ثم ولى أهل البصرة قيادتهم لربيعة الأجذم التميمى ، وأمّر الخوارج عليهم عبيد الله بن الماحوز ، واستؤنف القتال حتى المساء

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٩٢ .

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨١ .

(٣) الأغانى / جـ ص ١٤٣ .

إلى أن ملّ الفريقان فتواقفوا متحاجزين وهنا أتت كتيبة جامة من اليمامة لم تكن شهدت القتال فحملت على أهل البصرة فانهزموا وقتل قائدهم وهربت جموع البصريين سابحين فى النهر حيث غرق أثناء ذلك كثير منهم ، فحمل لواء البصريين حارثة بن بدر الغدانى وقاتل من وراء الناس وغطى انسحابهم واستطاع بفرقة من جنده الصابرين أن يعبر إلى الضفة الأخرى من النهر بعد أن وعد جنده بزيادة فريضتين للعرب منهم وفريضة للموالى إذا ثبتوا وفتح الله عليهم، ولكنه انهزم وصحبه وتبعهم الخوارج فألقى الناس بأنفسهم فى الماء وغرق منهم فى دجيل الأهواز خلق كثير ، وقد استمر حارثة بن بدر فى قومه من بنى تميم متحصنا عند نهر تيرى ليمنع الأزارقة من العبور [١].

وكان عمر بن عبيد الله بن معمر قد تولى البصرة بعد ببّة فى أعقاب معركة دولاب فأسرع بإرسال جيش جديد بقيادة أخيه عثمان ، ولكنه انهزم أيضاً أمام الأزارقة فى وقعة دارس وقتل [٢] .

وعاد حارثة بن بدر ليحمل الراية ويغطى انسحاب فلّ البصريين ثم عبر نهر دجلة وتحصن عنده من جديد ، ولكن جنوده تخلوا عنه وعادوا إلى البصرة فوقع ضحية للأزارقة وغرق وهو يفر أمامهم بعد أن جنحت السفينة التى فر عليها عندما وثب فيها جندى بكامل سلاحه ، وفتح موته الطريق أمام الأزارقة إلى البصرة [٣] .

وكان لهذه الهزائم المتلاحقة أمام الأزارقة أن حدث تغيير فى ولاية البصرة فوليها الحارث بن أبى ربيعة الشهير بالقباع [٤] ، ونقل الأزارقة معسكرهم إلى نهر تيرى عند الموقع الذى كان يحرسه حارثة بن بدر ، وتقدموا فى طريقهم إلى البصرة ولم يعد يفصلهم عنها إلا الفرع الأصغر من الدجيل بعد أن عقدوا جسراً وعبروا عليه الفرع الأكبر .

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٨٣ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ٨٥ .
(٣) الأغانى ج ٢١ ص ٢٦ .
(٤) ابن الأثير ج ٤ ص ٨٢ .

وازداد فزع أهل البصرة فتقدموا إلى الأحنف بن قيس يستنجدون به ويطلبون مساعدته فقصد الحارث بن أبى ربيعة والى الزبير وطلب منه أن يكتب إلى الخليفة بمكة يطلب منه أن يبعث إلى المهلب بن أبى صفرة واليه بخراسان يأمره بالقدوم إلى البصرة للدفاع عنها ، وأجاب ابن الزبير رغبتهم وكتب إلى المهلب بذلك[١] واشترط المهلب شروطاً أجيب إليها كلها ، فنهض لقتال الأزارقة وطردهم من ناحية نهر دجلة شر طردة وأقام أربعين يوماً يجبى ما حواليه من كور فى هذا الجانب ، ولما توافر له المال وجاءه الرجال مضى ناحية المشرق وأخذ يطاردهم ببطء ، وأثناء ذلك نالته هزائم منكرة إذ قتل الأزارقة أخاه المعارك بن أبى صفرة وصلبوه ، وجرت وقعة دامية بسولاف كان القتال فيها سجالا ، بيد أن الأزارقة استصوبوا الانسحاب عبر النهر فتبعهم المهلب والتقى الفريقان فى سلى وسلبرى شرقى نهر دجيل فى شوال سنة ٦٦ هـ ، وانتصر المهلب انتصاراً حاسما بعد أن ظل الموقف يترجح طويلا بين الفريقين على نحو خطير ، فقد فر بعض جنود البصرة عائدين أثناء المعركة ولكن المهلب أنقذ الموقف وأعانه قومه من أزدعمان فاستقبلوا الأزارقة بالحجارة يستعرضون بها وجوههم حتى أثخنوهم فعاجوا عليهم بالرماح والسيوف ، وقد قتل فى هذه المعركة قائد الأزارقة عبيد الله بن الماحوز[٢] .

وبعد هزيمة الأزارقة فى هذه الموقعة ارتحلوا إلى الأهواز فساروا نحو المشرق إلى الجبال وبايعوا الزبير بن على بن الماحوز ، وعلى حدود فارس اشتبكوا مع المهلب فى عدة مناوشات ، ولم يزل المهلب يطاردهم حتى تقلد مصعب ولاية العراق فى نهاية سنة ٦٦ هـ ، فولى المهلب الجزيرة لحماية حدود العراق الغربية من أهل الشام ، وتولى حرب الأزارقة بعد المهلب عمر بن عبيد الله بن معمر ، فشخص إليهم وقاتلهم عند سابور واصطخر وتمكن من هزيمتهم فانسحبوا إلى نواحى أصفهان وكرمان ، ولكنهم عادوا فاحتشدوا من جديد وزحفوا خلال

---

(١) الأخبار الطوال ص ٢٨١ .

(٢) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨٩ .

بلاد فارس والأهواز فى اتجاه البصرة ، وتقدم عمر للقائهم وأقبل مصعب بنفسه من البصرة لصدهم ، ولكنهم انحرفوا ناحية الكوفة متجهين إلى المدائن فهرب أميرها عنها وأثار الأزارقة الرعب هناك .

وكان القباع قد ولى أمر الكوفة بعد أن ولى مصعب البصرة مكانه فتثاقل عن الخروج للقاء الأزارقة ولامه ابن الأشتر وحضه على الخروج ، ولكن سائر القبائل لم تتعاون معه فخرج متثاقلا متحاملا فانحرف الأزارقة إلى ناحية البصرة فتركهم وشأنهم فمضوا من ثم إلى جبال ميديا حيث دخلوا الرى بناء على دعوة من أهلها الساخطين على مصعب (١) .

ومن الرى تمكنوا من محاصرة أصفهان ولكن عتاب بن ورقاء التميمى صدهم عنها وأبلى بلاء حسنًا طوال عدة شهور ، ثم هاجمهم هجوماً شديداً أرغمهم به على الانسحاب ، وقتل أميرهم الزبير فى هذا الهجوم ، فبايعوا قطرى بن الفجاءة وكان قطرى فارساً فذًّا وشاعراً أريبا فعاد بهم إلى كرمان حتى يتجمعوا ويستعدوا ، ثم مروا بأصفهان والأهواز وزحفوا عبر نهر دجيل حتى بلغوا سولاف ، وهناك فزع أهل البصرة إذ صارت مدينتهم مهددة من جديد وكان مصعب فى هذه الأثناء مشغولا بحرب أهل الشام ، فكاتبه أهل البصرة وواليهم بعجزهم عن مدافعة الأزارقة ، وأنهم لا يقوون عليهم ولا يقوى عليهم غير المهلب ، فقد خبرهم وعرف أساليبهم فى القتال ، ولم يجد مصعب بدًّا من تحقيق هذا المطلب فأمر المهلب بالعودة إلى قتال الأزارقة فولى إبراهيم ابن الأشتر مكانه فى الموصل وجهز المهلب جيشاً فى البصرة وتوجه للقاء الأزارقة ودارت بين الفريقين مناوشات استمرت ثمانية أشهر عند سولاف كان الفريقان يتواقفان خلالها ويتساءلون فيما بينهم عن أمر الدين وغير ذلك على أمان وسكون ، فكان عبيدة بن هلال يناديهم : ليخرج إلىّ بعضكم فيخرج إليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيما أحب إليكم أقرأ عليكم القرآن أو أنشدكم الشعر فيقولون له أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك فأنشدنا ، فيقول لهم يا فسقة والله

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٣٦ .

قد علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال ينشدهم ويستنشدهم حتى يملوا ثم يفترقون[١] .

وقد وقعت فى هذه الأثناء وقعة مسكن بين مصعب وعبد الملك وانتصر فيها عبد الملك وقتل مصعب وهزم جيشه ، فبلغ الأزارقة مقتله قبل أن يبلغ المهلب وصحبه ، فاستغل الأزارقة الفرصة ليفضحوا انعدام الرأى السياسى لدى أهل البصرة فتواقفوا على الخندق ونادوا أهل البصرة « ما تقولون فى مصعب ؟ » قالوا « إمام هدى وهو والينا فى الدنيا والآخرة ونحن أولياؤه » ، قالوا : « فما قولكم فى عبد الملك؟» قالوا : « ذاك ابن اللعين ، نحن إلى الله منه براء وهو عندنا أحل دما منكم » قال الأزارقة « فإن عبد الملك قتل مصعباً ونراكم ستجعلون غداً عبد الملك إمامكم ، وأنتم الآن تبرأون منه وتلعنون أباه » قال أهل البصرة : « كذبتم يا أعداء الله » فلما كان الغد تبين لهم قتل مصعب ، فبايع المهلب الناس لعبد الملك بن مروان ، وصدق تقدير الأزارقة لحقيقة خصومهم[٢] .

وبعد أن آل الأمر إلى عبد الملك تولى أمر الخوارج ولاة أمويون نحّوا المهلب ليظهروا هم . فولى البصرة خالد بن عبد الملك بن خالد بن أسيد الذى تولى بنفسه قتال الأزارقة وكانت النتيجة أن وضع جيشه فى موضع خطر عند نهر تيرى ولم ينقذه منه إلا يقظة المهلب ، وبعد ذلك عاد الخوارج إلى كرمان ورجع خالد إلى البصرة بعد أن ترك الجيش لأخيه عبد العزيز الذى تولى إمارة فارس مكان عمر بن عبيد الله بن معمر .

ونجح الأزارقة فى هزيمة عبد العزيز فى درابجرد شر هزيمة وألجأوه إلى أن ينجو بنفسه بعد أن فقد معظم جيشه وأسروا امرأته ابنة المنذر بن الجارود فأقيمت فى من يزيد حتى بلغت مائة ألف لجمالها الفائق ، مما أوغر صدر رجل من قومها كان من رءوس الخوارج ويدعى أبا الحديد الشنى فقال : تنحوا هكذا

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٥٦ ، والأغانى ج ٦ ص ١٤٩ .
(٢) ابن الأثير ج ٤ ص ٢٧٣ .

ما أرى هذه المشركة إلا قد فتنتكم ثم ضرب عنقها[١] .

وفى نفس الوقت كان أبو فديك النجدى قد هزم أمية أخا خالد فى البحرين ، فعمل أبو فديك متعاونا مع قطرى ، وتعقب الأزارقة الظافرون أهل البصرة الذين فروا أمامهم حتى بلغوا قنطرة أربك واستولوا على الأهواز من جديد وتقدموا حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة . وهكذا عاد الموقف فى سنة ٧٣ الداخلة فى سنة ٧٤ هـ سيرته عام ٦٥ هـ يوم دولاب ، وكان المهلب فى حفنة من الرجال فلم يثبت أمام الأزارقة فلحق بالفارين إلى البصريين وهو يكتم سروره بالكارثة التى حلت بأمراء الأمويين الغلاظ التكبرين[٢] .

واضطر عبد الملك إلى عزل خالد وضم البصرة إلى أخيه بشر بن مروان والى الكوفة ، وأناط بالمهلب حرب الأزارقة وجعله مستقلا عن الوالى وفوضه كل الحقوق فى جمع الجند كما زوده بشر بجيش من أهل الكوفة عليه عبد الرحمن ابن أبى مخنف ولكنه أوعز إليه بأن يخالف أوامر المهلب وأن يفسد عليه رأيه كراهية من بشر للمهلب الذى عين مباشرة من قبل عبد الملك ، ولم يكن خاضعاً إلا له ، ولم يستمع عبد الرحمن لنصيحة بشر ، وصنع ما أملاه واجبه نحو قائده فانكشف الأزارقة أمام المهلب عن الفرات وتبعهم المهلب فرحلوا عبر دجيل إلى أن بلغوا الجبال . واستولى أهل البصرة والكوفة على موضع حصين عند رامهرمز ، وبعد أن أقاموا به عشرة أيام جاءهم الخبر بموت بشر فى البصرة فترك معظم البصريين والكوفيين مكانهم وانسلوا عائدين إلى ديارهم ، ومن العجيب أن الأزارقة لم ينتهزوا الفرصة .

وولى الحجاج أمر العراق سنة ٧٥ هـ بعد موت بشر ، وكان يثق بالمهلب ثقة عظيمة ، فكان أول ما فعله أن رد الفارين من أهل البصرة والكوفة إلى رامهرمز وجاء بنفسه إلى الميدان ، واستطاع المهلب بعد شهور قليلة أن يبدأ الهجوم ، وأن يجعل الأزارقة يفرون أمامه عائدين إلى فارس وتبعهم إلى أرجان ثم السروان

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ١٩٤

(٢) الخوارج والشيعة ص ١٠١

حتى كازرون فى نواحى سابور فخندق على نفسه هناك مع أهل البصرة كما كان يفعل دائماً فى حروبه ، وكان أهل الكوفة أقل احتياطاً فعوقبوا على ذلك إذ هجم الأزارقة ذات ليلة فبيتوهم وقتلوا سبعين من خيرة قرائهم لولا أن نجح المهلب فى ردهم[١] واستمر القتال فى نواحى سابور واصطخر أكثر من عام ، وانسحب بعده الأزارقة من فارس وعادوا إلى كرمان التى كانت فى قبضتهم منذ زمن طويل ، وظل المهلب فى أثرهم يطاردهم حتى انتهوا إلى جيرفت ، وكان على المهلب أن يقضى ثمانية عشر شهراً حتى يقضى عليهم تماماً .

وقد ظن الحجاج أنه إنما يتعمد إطالة الحرب مع الخوارج حتى يحتفظ بالقيادة أطول مدة ممكنة ليستغل ذلك لنفسه ، فضغط الحجاج عليه ورفع منه إدارة إقليم فارس وجبايته لخراجه بعد أن طهره من الأزارقة ، ولكن المهلب لم يتأثر بهذا الإجراء حتى لا يخطئ السبيل ، إذ كانت خطته تعتمد على الترقب وانتظار الفرص[٢] . وقد جاءت الفرصة عند ما دب الخلاف بين الأزارقة إذ صنعوا بقطرى صنيع النجدات بنجدة . وراحوا يتعقبونه ويأخذون عليه مخالفات شرعية وكانوا أشداء عليه حين كان يثبت أمامهم ويدافع عمن ولاهم ولا يشايعهم فى أمور فألبوا عليه ولم يكونوا رهن إشارته أو إرادته وكانت نتيجة ذلك انقسام صفوفه ، وكان الموالى الذين أخذوا يتزايدون فى جيشه حتى بلغوا ثمانية آلاف ــ كان جمهورهم من القراء ــ أهم عناصر الشغب عليه بينما كان العرب من أخلص أتباعه ، وكان من وراء الموالى وتمردهم عبد ربه الصغير وهو أحد موالى قيس بن ثعلبة وأصله معلم كتّاب فبايعته طائفة من الخوارج الموالى[٣] وانضم إليه بعض العرب بزعامة عمرو القنا ونشبت الحرب بين فريقى الأزارقة واستمر القتال شهراً ، وهال الأمر صالح بن مخراق العبدى الذى

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٠
(٢) الأخبار الطوال ص ٢٨٤ — ٢٨٥
(٣) نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠٣

جمع جموعاً وتوجه إلى كل من الفريقين باللوم محذراً من الخلاف داعياً إلى سلامة القلوب واجتماع الكلمة فلم يجبه أحد فأغار بجموعه على السرح ومال إلى عبد ربه فحمل عليه فتى من أصحاب قطرى فطعنه فأنفذه[١] .

وآثر المهلب أن يعتصم بالهدوء حتى لا يكون هجومه عليهم سبباً فى لم شملهم واستطاع عبد ربه الصغير ومن معه من الموالى إخراج قطرى والعرب من جيرفت وخندق قطرى على باب المدينة وجعل يناوشهم ثم ارتحل بعد مدة إلى طبرستان فلم يعد أمام المهلب سوى الموالى بقيادة عبد ربه ، ونجح المهلب فى هزيمتهم والقضاء عليهم ، وبهذا أدى المهلب واجبه وعاد إلى البصرة فقوبل باحتفال كبير وكوفئ بولاية خراسان سنة ٧٨ ﻫ .

ووجه الحجاج جيشاً إلى قطرى بطبرستان بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبي ، وكان هذا الجيش وكل جنده من أهل الشام قد تمكن من القضاء على الخوارج الصفرية من أصحاب شبيب قبل ذلك بعام واحد . وقد ساعده فى التصدى لقطرى إسحق بن محمد بن الأشعث من أهل الكوفة وجعفر بن عبد الرحمن ابن أبى مخنف بجيش من أهل الرى ، وسار هذا الحشد كله فى طلب قطرى حتى لحقوه فى شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ووقع عن دابته إلى أسفل الشعب هاوياً فدق عظمه ورآه هناك علج من أهل البلد فحدر عليه حجراً عظيما من فوقه فأصاب إحدى رجليه فأوهنته ، وابتدره نفر من أهل الكوفة فقتلوه ، وأخذه أبوالجهم بن كنانة الكلبى فحز رأسه وقدم به على الحجاج ثم أتى عبد الملك فكافأه ، واتجه سفيان بعد ذلك إلى عبيدة بن هلال وكان قد تحصن فى قصر قومس فحاصره وقاتله أياما ثم دعاه إلى التسليم فرفض عبيدة أن يسلم فى قصيدة حزينة [٢] وتفشى الجوع فى من حوصروا بالقصر حتى جهدوا وأكلوا دوابهم[٣] ثم خرجوا

---

(١) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٤٠١

(٢) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٥

(٣) نفس الموضع

يائسين للقاء سفيان فقاتلوه فقتلهم جميعاً وبعث برءوسهم إلى الحجاج .

وهكذا استؤصل الأزارقة من فوق وجه الأرض ولم يعد لهم من أثر يذكر في الفكر أو في العقائد إذ كانوا رجال عمل ولم يكونوا من أهل النظر .

وفي الوقت الذي كان الأزارقة يهددون فيه البصرة سنتي ٧٣ ، ٧٤ هـ . كان فريق آخر من الخوارج قد قدموا من نواحي الموصل يهددون الكوفة بزعامة رجل يدعى صالح بن مسرح وهو أحد بني امرئ القيس ، وكان ناسكاً وصاحب عبادة وله أصحاب يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين ويقص عليهم القصص ويدعوهم إلى مجاهدة أئمة الضلال[1] .

وكان صالح يعيش في دارا بين نصيبين وماردين من أرض الجزيرة مما يلي الكوفة ، وكان أتباعه من بني ربيعة الذين يسكنون هذه النواحي على جانبي الدجلة ، وعلى الأخص من بني شيبان بن بكر الذين نزحوا من مواطنهم الأولى على الجانب الأيمن من نهر الفرات إلى صحارى الكوفة . وقد ظل صالح يعظ أصحابه ويدعوهم إلى الثأر للناس من مظالم الحكام ومقاومة أئمة الباطل ومن والاهم من الفاسقين ، ولكنه لم يتعجل العمل وظل يجتذب الأنصار ويربيهم تربية خاصة طوال عشرين عاماً ، ولكنه حمل حملا على الخروج فتواعد وأصحابه أن يخرجوا في هلال صفر سنة ٧٦ هـ واجتمع إليه من أصحابه جماعة قليلة العدد لا تتجاوز مائة وعشرين رجلا كان عليهم أن يبدأو بالهجوم على دواب الحاكم في رستاق دارا لكي تكون لهم خيول ، وأقاموا بأرض دارا ثلاث عشرة ليلة تحصن منهم أهلها وأهل نصيبين وسنجار واستغاثوا بوالي الجزيرة آنذاك محمد بن مروان فأنفذ إلى صالح ورجاله كتيبة من ألف قيسي ، ولكن صالحاً ورفاقه فاجأوها في سوق دوغان وأفرادها يصلون الضحى فلم يشعروا إلا والخيل طالعة عليهم فتفرقوا وانهزموا ، ثم التقى الفريقان مرة أخرى في آمد على الشاطئ الأيسر من الدجلة فكان قتال مرير لم يصبر عليه الخوارج فدخلوا أرض الجزيرة واندفعوا ناحية الكوفة ، وهناك وقعوا في دائرة نفوذ الحجاج

---

(١) شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠٩

الذى أرسل إليهم جيشاً كوفياً من ثلاثة آلاف بقيادة الحارث بن عميرة الهمدانى والتقى الجمعان فى قرية يقال لها المذبح من أرض الموصل على تخوم أرض جوخى فى السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٦ هـ وهزم الخوارج وأثبتت الجراحات صالحاً وقتل[١] .

وقد مجد الخوارج ذكرى صالح تمجيداً بالغاً ولكن موته لم يكن ليمثل بالنسبة إليهم خسارة فادحة إذ بايعوا من بعده أبا الصحارى شبيب بن يزيد بن نعيم الشيبانى ، وكان رجل كفاح وشجاعة فتولى قيادة فلّ صالح وكان عددهم لا يتجاوز سبعين رجلا وزحف بهم فى اتجاه الموصل فيما يعرف بأرض الجبال ، وهناك كان بمأمن من أهل الكوفة واستطاع شبيب أن يفزع قبيلتى شيبان وعنزة ومضى فاحتمل أمه ومضى بها إلى المدائن فى مائة وستين رجلا ، واتخذ من أرض جوخى وهى الأرض العتيقة للخوارج الأقدمين مسرحاً لعمله وهى أرض تقع بين الدجلة والجبل عند النهروان من نواحى الكوفة وينتشر فيها عدد من أديرة النصارى وهى بمثابة نقط ارتكاز ملائمة للمحاربين الذين يعتمدون على المراوغة لقلة أعدادهم ، ومن ثم لم يكن لشبيب مركز دائم أو ثابت يخرج منه للقتال ، وإنما كان يغير مقامه باستمرار حتى تهيأت له الفرصة للانتقام لهزيمة المذبح والثأر لزعيمه صالح بن مسرح فهزم جيشاً للحكومة مرتين فى خانقين وفى النهروان[٢] ، ومضى شبيب فى أرض جوخى نحو تكريت فخافه جند الكوفة فى المدائن ، وولوا هاربين إلى الكوفة ، وعندئذ بعث الحجاج جيشاً قوامه أربعة آلاف رجل إلى المدائن بقيادة الجزل بن سعيد الذى راح يحاكى خطط المهلب فى المطاولة والاحتياط والحذر والخندقة والتحصن بالليل ومضى على ذلك شهران ، ولما يهاجم الخوارج حتى نفذ صبر الحجاج فعزله ، وولى مكانه سعيد بن المجالد الهمدانى وأمره بأن يزاحف الخوارج دون مطاولة وأن يطلبهم طلب السبع وأن يحيد عنهم حيدان الضبع[٣] .

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٢١٧

(٢) الطبرى : جـ ٧ ص ٢٢١

(٣) الطبرى : جـ ٧ ص ٣٣٤

وكان شبيب قد نزل قطيطّيا براذ الروذ ودخلها ، وأمر دهاقها بأن يصلح لهم غذاء ففعل وأغلق الباب ، فلم يفرغ من الغذاء حتى أتاه سعيد بن المجالد فى هذا المكان ، وكان الدهقان قد صعد إلى السور فنظر جند سعيد مقبلين فنزل متغير اللون فسأله شبيب عن أمره فأخبره بمجىء الجند فأكمل شبيب غذاءه هادئاً ، ثم عمد إلى بغلته فركبها ، وتصدى لسعيد فحمل عليه فى باب المدينة صائحاً « لا حكم إلا لله الحكيم » ففرق شمل جنده ، وعاد سعيد يجمع جنده وجعل يلف الفرسان فى أثره متقطعين ، ولف شبيب خيله كلها ثم جمعها وقال لرفاقه استعرضوهم استعراضاً وانظروا إلى أميرهم فوالله لأقتلنه أو يقتلنى ، وحمل عليهم مستعرضاً فهزمهم وثبت سعيد ونادى فى أصحابه وأخذ قلنسوته فوضعها على قربوس سرجه وحمل عليه شبيب فعمه بالسيف فخالط السيف دماغه وخر صريعاً ، وتولى الجزل فل ّ الجيش وقاتل قتالا شديداً حتى حمل من بين القتلى إلى المدائن مثخناً بالجراح وبعث إليه الحجاج بطبيبه الخاص .

ومضى شبيب يزحف حتى قطع الدجلة عند الكرخ ، وبعث إلى سوق بغداد فأمن أهله وأخذ بصحبه الطريق إلى الكوفة ، وفى طريقه مزق جيشاً اعترضه وعبر الفرات إلى خفان واللصف فى البادية يقتل البدو فى طريقه حتى مضى إلى مكان بعيد ، ووهم الحجاج أن الجو قد خلا لقتاله فخرج ليلقاه فى البصرة، وفى البصرة تلقى الحجاج نبأ عودة شبيب إلى أطراف الكوفة للقتال فعاد على وجهه ، وفى مساء اليوم الذى عاد فيه الحجاج إلى الكوفة ظهر شبيب أمامها فى مائتى فارس وانتظر إلى الليل ثم دخل وأصحابه إلى الكوفة فانتهوا إلى السوق وشدوا حتى ضربوا باب القصر ، وضرب شبيب الباب بعموده ضربة أثرت فيه وكان أثرها لا يزال يرى بعد ذلك بمدة طويلة وأتاح شبيب لزوجه غزالة أن تصلى ركعتين بمسجد الكوفة كما كانت قد نذرت[١] .

وفى الصباح لم يكن لشبيب أثر فى الكوفة فبعث الحجاج فى أثره زائدة

---

(١) الأغانى : ج ١٦ ص ١٥٥ .

ابن قدامة الثقفى ، ولكنه لم يعثر له على أثر إذ سار فى طريق منحن ثم إذا هو يظهر فجأة فى القادسية من الناحية الأخرى من الكوفة وكان طريقه إليها مفتوحاً ولكنه آثر أن يهاجم زائدة بن قدامة الذى عسكر عند رذ بار ونجح هذا الهجوم الخاطف وقتل زائدة وأبيد شطر كبير من جنده،وآثر شبيب ألايدخل الكوفة على الرغم من حث أصحابه له على ذلك ، وسار شبيب حتى بلغ خاينجار فأقام بها ، وكان فى مسيره ينهب دور المال فضيع على الحجاج خراج مناطق واسعة . وهال الحجاج أمره فبعث إليه بجيش من أهل الكوفة بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندى ، وأتى عبد الرحمن المدائن فلقى الجزل سلفه فأوصاه بخطة فى القتال وعاها ، وخرج بالناس نحو شبيب فلما دنا منه ارتفع عنه شبيب إلى دقوقاء وشهرروز ، ومضى عبد الرحمن يجد فى طلبه ولكن شبيباً ترك منطقة المدائن كلها، وكان الحجاج قد فوض عبد الرحمن أن يسلك فى أثره أين سلك فسار فى أثره حتى وصل نهرحولايا على تخوم الموصل وسواد الكوفة. وكانت خطة شبيب أن يرهق مطارديه فى الطرق الوعرة، ولم يطق الحجاج صبراً فعزل عبد الرحمن وأحل محله عثمان بن قطن الحارثى . وفى العاشر من ذى الحجة سنة ٧٦ ﻫ نشب القتال بينه وبين شبيب فهزم عثمان وقتل ، وعاد عبد الرحمن بالفلول المنهزمة إلى دير أبى مريم ومن ثم إلى الكوفة .

وفى شتاء سنة ٧٦ ﻫ قام شبيب ببعض الغارات ، ولكى يستجم وأصحابه أتوا جبال الماه بهراذان فى مستهل سنة ٧٧ ﻫ فصيفوا بها ثلاثة أشهر ، وانضم إليهم أناس كثيرون ممن كان الحجاج يطلبهم بمال أو ثارات . فلما انفسح الحر أقبل شبيب نحو المدائن وعليها مطرف بن المغيرة بن شعبة فتركها له إذ كان ذا ميول خارجية ولم يشأ أن يكون تحت إمرته كما لم يشأ أن يقاتله[١] .

وباستيلاء شبيب على المدائن احتل مركزاً منيعاً وإن لم يستفد منه كثيراً ، وقد كان الحجاج أعد جيشًا عظيما بقيادة عتاب بن ورقاء وتحرك هذا الجيش جنوب غربى الدجلة ، ولكن شبيبًا فاجأه فى ستمائة رجل فلم يثبت أمامه أحد ، وقتل أمراء الجند وفيهم عتاب وولى الجيش الأدبار ثم لقى شبيب جيشاً آخر وهزمه

---

(١) الخوارج والشيعة ص ١١٩

ثم قطع الجسر وعسكر دون الكوفة وأقام عسكره مدة طويلة هناك وبنى مسجداً فى تلك البقعة .

ولم يجد الحجاج بدًّا من أن يطلب جيشًا شاميًّا فأتاه سفيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف رجل فى الوقت المناسب فخرجوا إلى سبخة الكوفة للقاء الخوارج واحتدم القتال والحجاج يشرف عليه من مكان مرتفع ودافع أهل الشام الخوارج خطوة خطوة ، وحمل خالد بن عتاب بن ورقاء الذى قتل الخوارج أباه فى عصابة من أهل الكوفة حتى دخل عسكرهم من ورائهم فقتلت غزالة امرأة شبيب بيد رجل يدعى فروة بن الدفان الكلبى ، وأتى الخبر الحجاج وشبيبا ، فكبر الحجاج وأصحابه تكبيرة واحدة ووثب شبيب ورجاله على خيولهم وفروا عابرين فوق جسر الفرات وتخلف شبيب حتى كان آخر العائدين وجعل يخفق برأسه غير مكترث وهو يفكر طويلا ولم يجد معه تنبيه رفاقه له بأن أهل الشام يتعقبونه والتفت غير مكترث ثم عاد يخفق برأسه فبعث الحجاج إلى خيله أن دعوه فى حرق الله وناره فتركه أهل الشام ورجعوا .

وخاض شبيب بعد هذه الهزيمة معركة فى الأنبار ثم انسحب فى بقية من فرسانه بعد أن تخلى عنه جل جيشه قاصداً أرض جوخى ، ولم يستقر به المقام طويلا هناك فقد كان قرر أن يرحل إلى كرمان حيث الأزارقة لم يزالوا أقوياء فعبر دجيل عند الأهواز ، ولكن سفيان بن الأبرد أقبل عليه فى الطريق فعبر إليه شبيب ثانية وصمد أهل الشام لهجوم شبيب فعاد إلى مكانه بعد أن زاحفهم ثلاثين زحفا ، وجاء دور أهل الشام ليزاحفوه وكان شبيب قد انتهى إلى الجسر فنزل ونزل معه مائة رجل واستمر القتال وعاد شبيب وأصحابه وقد تخلف فى آخرهم فأقبل على فرسه التى فزعت فزل حافرها على حرف السفينة فسقط فى الماء ولم يستطع أن يسبح لثقل سلاحه فارتمس فى الماء ثم ارتفع فقال ذلك تقدير العزيز العليم .

وانتهت بذلك قصة رائعة من قصص البطولة النادرة ، ولولا أن دخلت عناصر الخيانة والخلاف بين رفاقه الذين امتلأ قلبهم عليه بالحسد والضغينة

لما انتهى شبيب على هذه الصورة .

وقد أراد أحد رفاقه ويدعى مصقلة بن مهلهل الضبي أن يستأثر دونه بزعامة الصفرية فتوسل إلى القضاء على سلطانه بواسطة سلطان صالح بن مسرح زعيمهم الأول فتولاه وأنكر على شبيب وشغب عليه وفارقه وبقية رجاله فى أحرج المواقف والحجاج ينظر ، فتركوه فى أربعين فارسا ، وتذهب بعض الروايات إلى أن بعض أنصاره من الشاغبين عليه كانوا سبب كارثة النهر وأنهم قطعوا الحبال أثناء عبوره ، وكان بعض رفاقه يتلومونه لاعتداده بالتقية ولتساهله مع الأسرى إذ كان يطلق كل من يقر بألا حكم إلا لله .

وبعد موت شبيب لم تعد عصابته بذات أهمية ولكن حركة الخوارج ظلت قوية فى الموصل ونواحيه من بنى شيبان وسائر آل بكر وقامت لهم حركات من حين إلى آخر ، وظلوا يرون فى صالح بن مسرح قديسهم ووليهم يتعظون بمواعظه المجموعة ويزورون قبره ويحلقون عنده تكبيراً[١] .

ولم يكن الصفرية قساة كالأزارقة ولكن رقتهم على الرغم من ذلك لم تكن تدوم إلا بقدر ما يدوم الوفاق بينهم وبين جماعة المسلمين ثم تأخذ بهم الشدة مأخذها حينما يخرجون فيمتشقون السيوف . والخلاف بين الصفرية والأزارقة لا يدل على شيء ذى بال فى الواقع العملى ، فالصفرية كما توصف أحوالهم فى القتال تحت إمرة شبيب إنما يمثلون فى حقيقة الأمر النموذج التقليدى العام للخوارج[٢]

وقد خفت صوت الصفرية خلال عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة خرج رجل من بنى يشكر يدعى شوذبا ومعه فرسان من بنى شيبان ويشكر ، وكان عمر محبًّا للسلم وجمع الكلمة ، فلم يشأ أن يأخذ الخوارج بالشدة وأراد أن يعاملهم باللين ويقارعهم بالحجة فأرسل إلى شوذب رسالة يقول فيها « بلغنى أنك خرجت غضباً لله ولنبيه ولست أولى بذلك منى فهلم أناظرك فإن كان الحق بأيدينا دخلت فيما دخل فيه الناس ،

---

(١) المعارف / ص ٢٠٩

(٢) الخوارج والشيعة / ص ١٢٩

وإن كان فى يدك نظرنا فى أمرنا » فكتب شوذب إليه « قد أنصفت وقد أرسلت إليك رجلين يدارسانك ويناظرانك » . وكان عمر يرمى بهذا إلى إزالة الخلاف بين الفريقين عن طريق الإقناع بالحجة والبرهان ، ولم ير وقد عرف عنه كراهيته للدماء أن يسلك معهم مسلك عمه عبد الملك ، وقد أثمرت سياسته ، فقد شهد أحد هذين الخارجين بأن عمر على صواب وقال : « ما سمعت كاليوم حجة قط أبين وأقرب مأخذاً من حجتك ، أما أنا فأشهد أنك على الحق وأنا برىء ممن برئ منك » فقال عمر للرسول الآخر : فأنت ما تقول ؟ قال : ما أحسن ما قلت وأبين ما وصفت ولكنى لا أفتات على المسلمين بأمر حتى أعرض عليهم قولك فانظر ما حجتهم ثم مضى أحد الرسولين إلى شوذب ليطلعه على ما دار فى المناظرة ولكن المنية ما لبثت أن عاجلت عمر[١] .

وقد كان لهذه المعاملة الطيبة أثرها فى الخوارج الذين نصبوا أنفسهم فى بلاد العراق والجزيرة منذ خلافة عمر بن العزيز حماة للضعفاء والمضطهدين وحرباً على المستبدين والظالمين ، ولذلك لا نعجب إذا أمد هؤلاء الخوارج إخوانهم البربر من الصفرية بالسلاح فاستعانوا به على قتال ولاتهم فى تلك البلاد ، ونصبوا عليهم رجلا اسمه ميسرة سنة ١٢٢ هـ ، فخوطب فى طنجة باسم أمير المؤمنين والأمويون فى أوج سلطانهم . وقد اتخذ شوذب مركز قيادته فى أرض جوخى فهزم أهل الكوفة وبنى قيس الحرانين .

وفى أيام هشام خرج من الموصل بهلول بن بشر وهو جندى أرسل فى شراء خل فجاءه نبيذ ولم يستطع أن يحمل البائع على استبداله كما لم يستطع أن ينال من الموظف الذى شكا إليه جواباً عن شكايته ، فكان ذلك مدعاة لإثارة حفيظته فكون عصابة وبدأ بقتل ذلك الموظف الذى لم يستجب لشكواه ، وقد أرسل إليه خالد القسرى جيشين فحاصرهما ، ولكنه هزم فى معركة الكحيل قرب الموصل ، وفى نفس الوقت هجم الصحارى بن شبيب فى ثلاثين رجلا من آل بكر فى جبل من سهل الدجلة على أرض لخالد ،

---

(١) انظر مروج الذهب : جـ ٣ ص ١٣٠ — ١٣١

ولكنه لم يفلح فهرب عبر نهر دجلة وقتل . ثم اتخذت حركة الخوارج أسلوباً مختلفاً عما مضى لما أن بدت الدولة الأموية تتداعى . وقد أخذت حركة الخوارج صورة الثورة الشاملة فبعد أن كانت قلة العدد هى السمة التى تميز جيوشهم صاروا يقاتلون فى جموع حاشدة فبعد أن اغتيل الوليد الثانى ثار سعيد بن بحدل الشيبانى فى العراق وزحف بمن معه فاعترضه بسطام البيهسى فى بنى ربيعة فقضى عليه ثم قصد الكوفة ، ولكنه قضى نحبه فى الطريق بعد إصابته بالطاعون ، وخلفه الضحاك بن قيس الشيبانى الذى انضوى تحت لوائه عدة آلاف كما انضم إليه صفرية شهروز الذين استولوا على أرمينية فأذربيجان ونازعوا مروان بن محمد السلطان ، وحرصوا على أن يكون لهم إمامهم الخاص فى الصلاة وكان بينهم كثير من النسوة اتخذن أسلحة الرجال وقاتلن قتالا مجيداً . وعلى الرغم من النزاع بين الوالى القديم للكوفة عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والنضر بن سعيد الجرشى واليها الجديد من قبل مروان بن محمد فإنهما اضطرا إلى الصلح عندما هددهما معاً خطر الخوارج الذين ظهروا على المسرح فى جماهير ضخمة لأنهم تركوا ما كانوا عليه من تشدد فسمحوا بانضمام كل من ينحاز إليهم بأن يقول مقالتهم ولم يطردوا حليفاً أراد أن يقاتل فى صفهم .

ولم يستطع الواليان المتحالفان ضد الضحاك أن يقفا فى وجهه فانهزما أمامه فى رجب سنة ١٢٧ هـ أقبح هزيمة وأخليا الكوفة وتوجه الجرشى إلى مروان فى الشام بينما لحق ابن عمر بواسط فى أثر أصحابه الكلبيين ، وفى شعبان سنة ١٢٧هـ اتبعه الضحاك وحاصره هناك ، وقد تميز فى قتال الخوارج منصور بن جهور لما رأى الخوارج يقاتلون كالأسود عند أشبالها ، وقد هرب جند ابن عمر وجند الجرشى أمام شدة بأسهم ورأى ألا أمل فى قهرهم فكر فى أن يترضاهم وأن يجعل بأسهم على مروان بن محمد فانحاز منصور إليهم فناداهم إنى جانح أريد أن أسلم وأسمع كلام الله فقبلوه وبايعهم وقبل مقالتهم وفى أواخر سنة ١٢٧ هـ سلم لهم ابن عمر أيضاً بعد تردد طويل ودخل فى طاعة الضحاك وصلى خلفه مما جعل بعض الشعراء يتندر بذلك ويعجب من صلاة أحد بنى أمية

خلف الخوارج ، ولم يأنف ابن عمر من ذلك كما لم يأنف أن يكون والياً للخوارج على كسكروميسان ودستميسان وكور دجلة والأهواز وفارس على أن يبقى فى واسط .

وعاد الضحاك إلى الكوفة وصار يحكم منها النصف الغربى من دولته ، ورجع إلى موطنه فى أرض الجزيرة بعد عشرين شهراً بينما كان مروان مشغولا تماما فى الشام ، واستولى الضحاك هناك على الموصل وأخرج منها عاملها وأصبح له جيش هائل يضم مهاجرة كابب ومغامريهم ، كما انضم إليه سليمان بن هشام ابن عبد الملك بعد أن أنقذ فرقته المعروفة بالذكوانية من الهزيمة يوم خساف أمام مروان وكان قوامها أربعة آلاف وبهذا كله صار جيش الضحاك نحواً من مائة وعشرين ألفا .

وبينما كان مروان مشتغلا بحصار حمص كلف ابنه عبد الله وكان قد تركه وراءه والياً على أرض الجزيرة أن يخرج إلى نصيبين ليشغل الضحاك ، فسار عبد الله إلى هناك ولكنه بعد قتال يسير تقهقر أمام كثرة جند الضحاك إلى ما وراء أسوار المدينة وحوصر هناك ، ولكن الضحاك أخفق فى الاستيلاء على حصن الرقة على الفرات ، وفى هذه الأثناء كان مروان قد فرغ من حصار حمص فأقبل بنفسه إلى الرقة لمواجهة الضحاك والتقى الجمعان عند كفر توثا فقتل الضحاك فى اليوم الأول للمعركة بعد أن أحدقت به خيل مروان فألحت عليه هو وأصحابه حتى قتلتهم عند العتمة ولم يكن يعلم بمقتله أحد ، وأرسل مروان يبحث عنه فى ضوء المشاعل فوجدوه قد طعن فى وجهه بأكثر من عشرين طعنة[١] .

وتولى قيادة الخوارج بعده رجل من بنى شيبان اسمه الخيبرى فعاود الهجوم من بعد غده وتقدم حتى اقتحم معسكر الأمويين ففر مروان فى قلب جيشه ووصل الخيبرى إلى حجرة مروان ، وجلس على فرشه ولكن تكاثر عليه عبيد من أهل العسكر فضربوه بعمد الخيمة حتى قتلوه آخر سنة ١٢٨ هـ — وكان

---

(١) انظر ابن الأثير / جـ ٥ ص ١٣٥ — ١٤١

جيش الصفرية قد بلغ أربعة آلاف فولوا عليهم أبا دلف الشيبانى وأشارعليهم سليمان بن هشام بن عبد الملك بأن يرجعوا إلى الضفة الشرقية من نهر دجلة بإزاء الموصل ، وكانت الموصل لا تزال بأيديهم فكانوا يعبرون إليها على جسر من المراكب ، ولكن مروان عسكر قبالتهم على الضفة اليمنى ، وقضى أشهراً طويلة سنة ١٢٩ ﻫ من غير أن يصل أيهما إلى انتصار حاسم ولم يتزحزح الخوارج عن موقفهم هناك إلا بعد أن فقدوا سيادتهم على العراق وانتزع ابن هبيرة الكوفة من المثنى بن عمران والى الخوارج ، وبعد أن استولى على واسط وأسر ابن عمر وفر منصور مع الكلبيين إلى عبد الله بن معاوية ، فعند ذلك لم يستطيعوا أن يصدوا الجيش الذى أرسله إليهم ابن هبيرة بقيادة عامر بن ضبارة ونباتة بن حنظلة ، وكان هذا الجيش قد أقبل مسرعاً من جهة الكوفة لنجدة مروان بن محمد وفكر الخوارج كى لا يقعوا بين نارين فتخلوا عن مركزهم بإزاء الموصل فى آخر سنة ١٢٩ ﻫ واجتازوا الجبال قاصدين جهة الشرق إلى الأهواز وفارس مارين بحلوان ، وهناك انضموا إلى عبد الله بن معاوية الذى كان شأنه قد ارتفع فى ذلك الحين لانضمام أعداء بنى أمية جميعاً إليه ، وقد طاردهم مروان إلى هناك فتفرقوا . ومضى سليمان ومن معه فعبروا البحر إلى السند أما أبو دلف فقد مضى إلى الساحل الشرقى لبلاد العرب وقتل أثناء قتاله مع أمير عمان من بنى جلندى سنة ١٣٤ ﻫ .

وفى جنوب الجزيرة العربية كانت آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى وهى وإن كانت قليلة الأهمية من الناحية السياسية فإنها كانت أقرب إلى مذهب الخوارج بالنسبة لحركة الصفرية التى سمحت لغير الخوارج بالانضمام إليها والتحالف معها تمشياً مع المبدأ القائل من ليس ضدنا فهو معنا .

أما هؤلاء فقد حافظوا على روح الخوارج المستقلة ، ويعرف هؤلاء الخوارج بالأباضية نسبة إلى عبد الله بن أباض التميمى . وعلى الرغم مما يقال من أنه كان قد رجع عن القول بمقالة الخوارج وتبرأ منه أصحابه فقد استمرت نسبتهم

إليه[١] وقد عاش الأباضيون فى أكثر الأحوال مسالمين للدولة فى البصرة منذ بداية النصف الثانى من القرن الأول ، وكان أباضية البصرة قد بذروا بذورهم فى جنوب الجزيرة العربية وقد علمتهم التجربة أن يستغلوا موسم الحج فى مكة لنشر مبادئهم .

وكانت أولى حركاتهم خروج عباد الرعينى فى اليمن محكما سنة ١٠٧ هـ ، ثم خرج بعد ذلك عبد الله بن يحيى الكندى أحد بنى شيطان فى حضر موت أيام مروان بن محمد ، وكان عبد الله أول أمره داعية للأباضية ورفيقاً لابن أباض فى جميع أحواله وأقواله[٢] وكان هدفه أن ينتقص على جور الحكام وقد شجعه أباضية البصرة على الخروج ، وأقبل إليه من هناك أعضاء بارزون من الأباضية من بينهم بلج بن عقبة بن الهيصم الأسدى وأبو حمزة المختار ابن عوف الأزدى الذى صار يده اليمنى ، وكان فى الواقع أهم من عبد الله نفسه ، وكان أبو حمزة يفد إلى مكة مرة فى كل سنة لإثارة الناس على بنى أمية وحثهم على القتال ، وبلغ من تفاقم خطره أنه جاء إلى عبد الله بن يحيى سنة ١٢٨هـ وقال له « اسمع كلاماً حسناً إنى أراك تدعو إلى حق فانطلق معى فإنى رجل مطاع فى قومى » فخرج معه حتى أتيا حضر موت فبايعه أبو حمزة على الخلافة ودعا إلى قتال مروان بن محمد تحت رايته[٣] .

وفى بداية سنة ١٢٩ هـ بويع عبد الله بن يحيى خليفة للأباضية ولقب بطالب الحق بينما لقبه أعداؤه بالأعور ، ولعل ذلك كان لأنها علامة الدجال وهم كانوا ينظرون إليه كذلك[٤] . وقد أعلن عبد الله دعوته فى حضر موت وبعد أن تمت له السيطرة عليها زحف على اليمن وتوقف بحملته فى العاصمة صنعاء فى النصف الثانى من سنة ١٢٩ هـ[٥] .

---

(١) المعارف / ص ٢٠٥ ، لسان الميزان / جـ ٣ / ص ٢٤٨

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢١٢

(٣) ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٣٥

(٤) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ١٠٨

(٥) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ٩٧ — ٩٨

وأقام حكمه هناك مبقياً على العمال فى وظائفهم مظهراً لين الجانب فاستطاع أن يمتلك قلوب أهل اليمن مؤكداً ألا خلافاً جوهريـًّا هناك بين مذهبه ومذهب أهل السنة والجماعة ، ولكنه اشتد على أهل الكبائر التى نص القرآن عليها إذ اتخذ القرآن إماما ودعا إليه وإلى سنة النبى صلى الله عليه وسلم فمن زنى فهو كافر ومن سرق فهو كافر ومن شرب الخمر فهو كافر ومن شك فى أنه كافر فهو كافر[1].

وكان ارتكاب هذه الكبائر شائعاً فى ذلك الحين وانضم إليه كثير من الخوارج جاءوه من مختلف الأصقاع فقد كانت دولة بنى أمية فى طريقها إلى السقوط ولم تعد الخلافات الدقيقة بين فرق الخوارج لتحول دون اجتماع شملهم على فكرة عامة ضد العدو المضمحل .

وفى موسم الحج لسنة ١٢٩ هـ بعث عبد الله جيشاً إلى مكة بقيادة أبى حمزة قوامه ألف رجل تقريباً ، وكان فيه عدد كبير من اليمانيين البارزين يضعون العمائم السرد والحمر[2] . وكان أمير الحج فى ذلك العام عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك والى المدينة فلم يتعرض لأبى حمزة وعقد معه هدنة طوال الحج ثم عاد إلى المدينة ومن هناك أرسل جيشا إلى أبى حمزة بقيادة عبد العزيز ابن عبد الله بن عمر بن عثمان الأموى ، وكان هذا الجيش يتألف من ثمانية آلاف رجل كانوا كالدهماء وليس عليهم سيما المقاتلين ، فقد كان فيهم كثير من القرشيين فى ثيابهم الفاخرة وقد ظنوا أن الأمر لن يعدو أن يكون مجرد نزهة وبخاصة فتيان الأمويين منهم وكان منهم بالمدينة عدد كبير يظهرون الكبر والعجرفة فى حديثهم عن الخوارج وتصورهم خشارة من الرعاع ، ولما بلغ عبد العزيز العقيق جاءته رسل أبى حمزة يقولون : « إننا والله ما لنا بقتالكم حاجة ، دعونا نمضى إلى عدونا » فأبى ذلك عليهم وأصر على الحرب وسار حتى نزل قديداً وزحف أبو حمزة ضد هذا الجيش والتقى الجمعان هناك فى

---

(١) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ٩٩

(٢) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ٩٩

التاسع من صفر سنة ١٣٠ هـ[١] . وحاول أبو حمزة أن يفاوضهم وأن يقنعهم بأن قضية الخوارج هى قضية أهل المدينة فى مقاومة جور بنى أمية ، وآثر ألا يبدأ الهجوم حتى هوجم بالفعل وأصيب أحد رجاله بسهم فرأى آنذاك أن قتالهم لا مفر منه فوثب على جيش المدينة وثبة نكراء اضطر معها أهل المدينة إلى الفرار ، ولم يرض أبو حمزة أن يطارد الفارين ولم يرحم القرشيين إذ عدهم ممثلى الحكومة الكافرة حتى امتلأ الميدان بجثثهم ومن بينهم حفيد عثمان بن عفان قائد الجيش ، وكان نصيب الأسرى الذين لم يرجعوا عن مذهبهم القتل : وكانت وقعة قديد بمثابة مذبحة للغطرسة القرشية والأموية بالذات ، وانفتح الطريق أمام أبى حمزة إلى المدينة فدخلها فى الثالث عشر من صفر سنة ١٣٠هـ دون قتال بعد أن فرّعنها واليها عبد الواحد بن سليمان ، وظل أبو حمزة فى المدينة ثلاثة أشهر أحسن السيرة خلالها فى أهلها ، وألقى من فوق منبر الرسول صلى الله عليه وسلم خطبته الشهيرة فعرّف بالخوارج ورد على من عابهم وصور بالأمثلة الصارخة مدى التفاوت البعيد بين حكومة العصر وبين نموذج الحكم الإسلامى كما رسمه الرسول والشيخان[٢] ، إذ كان رسول الله لا يتقدم إلى أمر إلا بأمر الله ولا يحجم عن أمر إلا عن أمر الله وعمل أبو بكر بالكتاب والسنة فقاتل أهل الردة وشمر فى أمر الله ، وسار عمر سيرة صاحبه من العمل بالكتاب والسنة فجند الأجناد ومصر الأمصار ، ولكن حبل الدين اضطرب فى أخريات عهد عثمان فأحبط فى الست الأواخر ما قدم فى الست الأوائل ، ولم يبلغ علىّ من الحق قصداً ، أما معاوية فلعين ابن لعين وجلف وسفاك وجائر وباغ على الدين ومحل للحرام وأما يزيد فخمار ماجن عابث فاسق ومروان طريد ولعين وفاسق ثم تداول بنو مروان بعد آل سفيان وهم طرداء وطلقاء ، وآكلو أموال الله متلاعبون بالدين جائرون مستخفون بكتاب الله ، أما عمر الثانى فبلغ ولم يكد وعجز عما

---

(١) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ١٠١ ؛ ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٤١

(٢) انظر الخطبة فى الأغانى / جـ ٢٠/ ص ١٠٤ ، البيان والتبيين جـ ٢ / ص ٦١ ، شرح نهج البلاغة / جـ ١ / ص ٤٥٩

أظهر وأما يزيد فضعيف سفيه ، وأما الشيعة فتظاهرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله فجعلوا دينهم تعصباً بحزب لزموه وأطاعوه ينتظرون رجعة المولى ويؤمنون بالبعث قبل الساعة ويدعون علم الغيب لمخلوق ، وساءل أهل المدينة أى هؤلاء يرضون لحكمهم ؟ ثم قدم أصحابه رداً على من عابهم لشبابهم وحداثة سنهم وغلظتهم وجفائهم بأنهم شباب مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم وأشاد بتقواهم وصلاحهم وعبادتهم وشجاعتهم ، ورسم صوراً مثيرة لجهادهم واستشهادهم فى سبيل الله . وهو بهذا إنما يهدف إلى إفهام أهل المدينة أن الماضى كله ليس فى صالح بنى أمية وأن الخوارج هم الذين يستطيعون أن يحققوا النموذج السليم للحكم كما صوره النبى وخليفتاه ، ولكن أهل المدينة لم يعطوا أبا حمزة التأييد ضد بنى أمية رغم مقارناته بينهم وبين آبائهم الذين آووا النبى ونصروه من أذى قريش ولم يكن معه إلا بعض الشباب مثل هؤلاء الذى يعيبون عليهم من رفاقه كما كان يفعل أهل مكة مع الرسول .

وكان هذا الكلام يستهوى أفئدة السامعين إلى حين ، ولكن لا يستهويها أبداً ، وبخاصة فى مجتمع المدينة اللاهى المتحضر فى ذلك الوقت ، تشدد أبى حمزة فى رعاية القيم الأخلاقية والدينية « فمن زعم أن الله يكلفنا مالا طاقة لنا به فهو عدو الله » وتشدد فى أمر الزنا وشرب الخمر وأظهر الإعجاب بعمر بن الخطاب لإقامة حدها فى ثمانى عشر مرة دون اعتبار لشخص الشارب .

وعلى الرغم من إحساس أهل المدينة بعدالة هذا الحكم وصلاحه ، فإنهم لم يتجاوبوا معه لهذا السبب ، ولكنه كسب بعض الأنصار المؤمنين من أمثال عبد العزيز بن بشكست القارئ ، وأبى بكر بن محمد بن عبد الله بن عمر ابن الخطاب . وفى مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ ، زحف جيش شامى مكون من أربعة آلاف من القيسيين بقيادة عبد الملك بن محمد بن عطية من سعد هوازن فى طريقه إلى المدينة ، وكما حدث فى عهد يزيد الأول دفع لهم أجر مناسب بمثابة كفارة عما ينتظرهم من انتهاك الحرمات المقدسة إذ أعطى كل منهم مائة دينار ذهبى وفرساً وبغلا . وكان الخوارج قد شعروا بهذا الجيش

فخرجوا ينتظرونه فى وادى القرى وهناك التقوا فى معركة فاصلة قتل فيها كثير من الخوارج من أصحاب أبى حمزة ونجا هو فى ثلاثين من خاصته هربوا إلى مكة وبلغ ابن عطية المدينة فوجدها خالية من الخوارج بعد أن قضى أهل المدينة على بقيتهم الباقية التى قادها المفضل وقتلوا بشكست وغيره بعد أن عرفوا نتيجة المعركة[١] وأقام أبو حمزة يدافع عن مكة ولكنه لم يحتط لنفسه من غدر أهلها وكانت مقاومته عبثا ، إذ انتصر ابن عطية مرة أخرى واستمر القتل فى الأسرى وصلب زعماء الأباضية ومنهم أبو حمزة ، وبعد أن أقام مدة طويلة فى الطائف زحف إلى صنعاء حيث لقى عبد الله بن يحيى الكندى طالب الحق وهزمه وقتله واستولى على عاصمته بعد أن حاصرها ، ثم سيطر على حضر موت وحمل رأس طالب الحق إلى مروان بن محمد بالشام بأسرع ما استطاع ورجع إلى صنعاء لأن مروان قد ولاه إمارة الحج ذلك الموسم . ولكنه وهو فى طريقه خرج عليه رجلان من مراد فقتلاه ظنًّا منهما أنه لص[٢] .

وهكذا كان الأباضية خلال السنوات الأخيرة من عمر الدولة الأموية آخر جبهات المعارضة الدينية ، وعلى الرغم من لينهم فقد كانوا شديدى التمسك بالدين وأرادوا أن يكسبوا جماعة المسلمين لمذهبهم بالسلم فلم ينجحوا فى ذلك فاضطروا إلى استعمال القوة ، وقد تبع زوالهم زوال بنى أمية وإن ظل أتباعهم إلى اليوم فى المغرب ، وقد تفرقت عنهم جماعات صغيرة خالفت عن مقولتهم خلافات غير جوهرية كالحفصية والحارثية واليزيدية .

---

(١) الأغانى / جـ ٢٠ / ص ١٠٩

(٢) انظر الطبرى / جـ ٩ ص ١١٠ ، ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٥٨ ، الأغانى جـ ٢٠ / ١١٢ ، البداية والنهاية / جـ ١٠ / ص ٣٦ .

٢

كان الخوارج حزباً ثورياً يعتصم بالتقوى ويقيم مبادئه على أسس إسلامية صرفة مستمدة من القرآن الكريم ومن السنة النبوية وتقاليد الحكم وأنماط السلوك الخلقى فى عهد الخلافة الإسلامية الأولى .

وهم على هذا ليسوا حزباً سياسياً فحسب لا يعدو بحثه مسألة الخلافة كما يذهب إلى ذلك بعض المؤرخين(١) .

وهم إن اقترنت نظرتهم بادئ الأمر بمسائل الخلافة والحكم فإن ذلك كان نتيجة لصعوبة الفصل بين السياسة والدين فى التصور الإسلامى لنظام الحكم فى عهد الخلافة الراشدة ، وقد صدروا فى ذلك عن وجهة نظر مستمدة من الكتاب والسنة النبوية وتقاليد الخلافة الأولى ولكنهم سرعان ما مزجوا تعاليمهم السياسية بأبحاث لاهوتية فاتخذت تعاليمهم صبغة فلسفية خاصة .

وقد نبعت نظريتهم فى الخلافة عن مبدأ دينى نقدى عريض وليس عن مبدأ سياسى محض كما قد يتبادر إلى البعض . وهذا المبدأ العام الذى يمثل القاعدة السلوكية الأولى لدى الخوارج ويعد منبعاً أصيلا لتعاليمهم فى الأصول إلى غايتهم الأولى هو العود إلى الكلمة الأصيلة للدين كما فى الكتاب والسنة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر استناداً إليهما .

وهذا يعنى أنهم عالجوا السياسة على أساس من التقوى ؛ فما دام الله عز وجل يطلب من المؤمنين ألا يسكتوا على منكر فقد اتخذ هذا الأمر صفة المسئولية العامة فضلا عن المسئولية الفردية بتجنب الشر وفعل الخير ، وتعيّن على المؤمن أن يعمل حتى يسود العدل وينهزم المنكر فتغيير المنكر واجب على كل مؤمن بلسانه وبيده ، وقد خالفوا أهل الجماعة فى قولهم بأن الخلافة فى

---

(١) تاريخ الإسلام السياسى جـ ١ / ص ٤٢٠

قريش من هذا المنطلق إذ عدّوا قصرها على قريش أمراً لا يحقق العدل ولا المساواة اللذين جاء بهما الإسلام فهو منكر يجب على المؤمنين تغييره . وهم لا يعترضون على خلافة أبى بكر وعمر ، كما يصححون خلافة عثمان فى سنيه الست الأولى وخلافة علىّ إلى أن حكّم وبكفره بعد ذلك ، وأيضاً يطعنون فى أصحاب الجمل طلحة والزبير وعائشة ، ويكفرون الحكمين أباموسى وعمرو بن العاص، فقد قبض على عروة بن أدية وقدم إلى زياد بن أبيه فسأله زياد عن أبى بكر وعمر فقال فيهما خيراً وسأله عن عثمان فقال : كنت أتولاه على أحواله فى خلافته ست سنين ثم تبرأت منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر ، ثم سأله عن علىّ فقال أتولاه إلى أن حكّم ثم أتبرأ منه بعد ذلك وشهد عليه بالكفر فسأله عن معاوية فسبه سبًّا قبيحاً [١] ويذهب الشهرستانى إلى أن الخوارج مجمعون على التبرئ من عثمان وعلىّ وأنهم يقدمون ذلك على كل طاعة ولا يصححون المناكحات إلا على ذلك ، ويكفرون أصحاب الكبائر ويرون الخروج على الإمام إذا خالف حقًّا واجباً [٢] ، ومن هذا المنطلق أنكر الخوارج خلافة بنى أمية لاعتقادهم أنهم جائرون لا تنطبق عليهم شروط الخلافة ، وكان واجبهم فى نصرة الله على أساس هذا المبدأ إذا خولف عن أمره يؤدى حتّما إلى تصادم مع السلطة الحاكمة ، فهم يؤمنون بألا سلطان على البشر إلا لله ، ولهذا تتنافى فكرة الملك فى اعتقادهم مع إرادة الله فليس لأحد — قبل غيره حقوق تتصل بشخصه حتى تكون السلطة وراثية فى أبنائه وأهله ، ولهذا أنكروا عقيدة الشيعة لقولها بانحصار الخلافة فى علىّ وآله .

وعلى هذا لا تكون السلطة شرعية إلا إذا كانت تحكم باسم الله ووفق مشيئته أى أن تكون خاضعة للدين وللنقد القائم على أساس الدين . وهم بهذا يمثلون القطب السالب للحكومة الدينية إذ كان القطب الموجب هو قيام الجماعة الإسلامية فى هيئة منظمة متحدة على رأسها إمام يرمز ويعبر عن وحدة الأمة

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ١٧٨
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ١٧٢

الإسلامية . وفى التعارض بين الدولة والجماعة ، بين واجب أن يضع الإنسان الله والحق فوق كل شيء ، وواجب الخضوع لأمر الجماعة وإطاعة الإمام ، وقف الخوارج فى صف الدين بكل قوة .

أما عن فهمهم لماهية الدين فلا يختلفون عن سائر الناس ، وإنما يمتازون عنهم بشدتهم فى تقديم الدين على أى اعتبار آخر ، وتصلبهم بحيث لا يقبلون أدنى تساهل فى أمره ، فلا دولة على حساب الدين ، وحق لعلماء الغرب أن يطلقوا عليهم لقب متطهرى الإسلام (١) ، ذلك أنهم لا يعترفون بالدولة إذا لم يكن لها من مبرر إلا وجودها فى الواقع التاريخى (٢) .

ويرى الخوارج أن تكون الخلافة باختيار حر من المسلمين وهم يلقبون من أجل هذا بالجمهوريين ويمثلون بذلك المبادئ الديموقراطية المتطرفة (٣) .

ويمكن تلخيص نظريتهم فى الخلافة فى أنها حق لكل عربى حر وأنه إذا اختير الخليفة فلا يجوز له أن ينزل عن الخلافة وإذا جاز له استحلوا عزله أو قتله إذا اقتضت الضرورة (٤) .

وقد تطور الخوارج مع الأحداث فأدخلوا تعديلا على الشرط الأول واستبدلوا الإسلام والعدل بالعروبة والحرية وبخاصة بعد أن انضم إلى صفوفهم كثير من المسلمين من غير العرب فجعلوا الخلافة حقاً شائعاً بين جميع المسلمين الأحرار والأرقاء على السواء يناله كل مسلم كفء تجتمع فيه صفات العلم والعدل والزهد (٥) .

وقد شمل تشددهم السلوك ، فجعلوا الأعمال مكملة للإيمان ، والعمل بأمر الدين من صلاة وصيام وصدق وعدل جزءاً من الإيمان ، وليس الإيمان الاعتقاد

---

(١) تاريخ الأفكار السائدة فى الإسلام / ص ٣٦٠
(٢) الخوارج والشيعة / ص ٣٢
(٣) السيادة العربية / ص ٦٩ .
(٤) الملل والنحل جـ ١ / ١٧٥ ، والفرق بين الفرق / ص ٥٥
(٥) الطبرى / جـ ٩ / ص ١١٠ ، ابن الأثير / جـ ٥ / ص ١٤١

المجرد ، فمن اعتقد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ثم لم يعمل بفروض الدين أو ارتكب الكبائر فهو غير مؤمن ، فلم يفرقوا إذن بين المعصية والكفر وعندهم أن المخالفة الجزئية كالمخالفة الكلية ولهذا أكفروا أهل الجمل وصفين والحكمين وعثمان فى أخريات حكمه وعليّ منذ أن حكّم ومعاوية وأعوانه .

ولا يكاد الخوارج يتفقون إلا فى هذين الأصلين وحتى هذان الأصلان ليسا من اعتقادهم جميعاً إلا بقليل من التسامح ، إذ أن منهم من يرى ألا حاجة للأمة إلى إمام وإنما على الناس أن يعملوا بكتاب الله من أنفسهم ويظهر أن هذه الفكرة قد فهمت من بعضهم من الشعار المشهور الذى رفعه المحكمة الأول « لا حكم إلا لله » بدليل ما روى من أن عليًّا سمعهم يقولونها فقال « كلمة حق يراد بها باطل ، نعم إنه لا حكم إلا لله ، ولكن هؤلاء يقولون لا إمرة إلا لله » وإنه لا بد للناس من أمير بر أو فاجر يعمل فى إمرته المؤمن ويستمتع بها الكافر ويبلغ الله فيها الأجل ويجمع به الفيء ويقاتل به العدو وتأمن به السبل ويؤخذ به الضعيف من القوى حتى يستريح برٌّ ويستراح من فاجر » ويذكرا بن أبى الحديد أن الخوارج كانوا فى بدء أمرهم يقولون ذلك ويذهبون إلى أنه لا حاجة إلى الإمام ثم رجعوا عن ذلك القول لما أمر عليهم عبد الله ابن وهب الراسبي[1] وقد ظلت النجدات ترى ذلك إلى عهد متأخر وهم لا يجوزون نصب الإمام إلا بمقتضى[2] ، ولكننا على الرغم من هذا نستطيع أن نزعم أن الخوارج جميعاً متفقون على أصلين من أصل عقيدتهم هما أصل الخلافة وأصل الإيمان ، ولكنهم افترقوا إلى عشرين فرقة تخالف كل منها الأخرى فى بعض تعاليمها . وأشهر هذه الفرق فرقة الأزارقة وكان فقيهها نافع بن الأزرق ، وقد تميزت عن باقى فرق الخوارج بأنه لم تكن فرقة قط أكثر عدداً ولا أشد شوكة منها ، وقد كفر نافع المسلمين جميعاً ما عدا الأزارقة وقال إنه لا يحل لأصحابه المؤمنين أن يجيبوا أحداً من غيرهم إلى الصلاة إذا

---

(١) شرح نهج البلاغة / جـ ١ / ٢١٥

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٣

دعاهم إليها، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم ولا أن يتزوجوا منهم ولا أن يتوارث الأزرقى مع غيره . وهم فى اعتقاده مثل كفار العرب وعباد الأوثان لا يقبل منهم إلا السيف أو الإسلام ودارهم دار حرب تجب الهجرة عنها كما هاجر الرسول عن مشركى مكة ، وقد أحل قتالهم وقتل أطفالهم ونساءهم اعتقاداً منه بأن أطفال مخالفيه مشركون مخلدون فى النار كآبائهم ، ولا يجيز الأزارقة التقية فى قول أو عمل استناداً إلى قول الله عز وجل « إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » ولقوله تعالى فيمن هم على خلافهم « يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » (١) .

وكان نافع يستحل الغدر بمن خالفه ويكفر القعدة الذين لم يكونوا على رأيه فى القتال مع قدرتهم عليه ، وأوجب امتحان من ينضمون إلى الأزارقة ، وكفر مرتكب الكبيرة مستدلا بكفر إبليس الذى لم يرتكب إلا كبيرة واحدة حيث أمر بالسجود فأبى وقال « أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » (٢) .

وأسقط نافع حد الرجم عن الزانى المحصن لأنه لم يرد عليه نص فى القرآن وأيضاً فقد أسقط حد القذف عمن قذف المحصنين من الرجال مع إيجابه الحد على قاذفات المحصنات من النساء وحكم بقطع يد السارق فى القليل والكثير (٣) ومن بدع الأزارقة أيضاً أنهم جوزوا أن يبعث الله نبياً يعلم أنه يكفر بعد نبوته أو يكون كافراً قبل بعثه .

وقد انفرد النجدات بتعاليم خاصة أهمها أن المخطئ بعد أن يجتهد معذور وهم لذلك يسمون بالعاذرية وقال نجدة إن الدين أمران : أحدهما معرفة الله ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين وتحريم غصب أموالهم والإقرار بما جاء من عندالله جملة فهذا واجب معرفته على كل مكلف وما سواه فالناس معذورون بجهالته حتى تقوم عليه الحجة فى الحلال والحرام فمن استحل باجتهاده شيئاً محرما فهو معذور ، ومن خاف العذاب على المخطئ قبل قيام الحجة عليه فهو كافر (٤) .

---

(١) الكامل / جـ ٣ / ص ٦٩

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ١٨٦ (٣) نفس المرجع

(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٠ ، الفرق بين الفرق / ٦٧

واستحل نجدة دماء أهل العهد والذمة وأموالهم فى دار التقية ، وحكم بالبراءة ممن حرّمها ، وتولى أصحاب الحدود من موافقيه استناداً إلى العذر بالجهل ، وقال لعل الله أن يعذبهم بذنوبهم فى غير نار جهنم ثم يدخلهم الجنة ، وعلى هذا فلا تجوز البراءة عنهم ،وعظم جريمة الكذب على الزنا فقال من نظر نظرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك ، ومن زنا وشرب وسرق غير مصر عليه فهو غير مشرك كما أسقط حد الخمر [1] وذلك أقرب إلى دعواه من أن يكون غلظ على الناس فى حدها تغليظاً شديداً كما يقول الشهرستانى [2] .

وقد خالف نجدة نافعاً والأزارقة فى إجازته التقية استناداً إلى قوله تعالى « إلا أن تتقوا منهم تقاة » ، وقوله تعالى « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » [3] وخالفه أيضاً فى إجازة القعود مع الإيمان بأن الجهاد أفضل عملا بقوله تعالى « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً عظيما » وأيضاً يجيز النجدات عدم نصب الإمام إذ على الناس أن يتناصفوا فيما بينهم فإن رأوا أن ذلك لا يتم إلا بإمام يحملهم عليه فأقاموه جاز [4] .

وتتفق الصفرية مع النجدات فى أنهم لا يكفرون القعد ما داموا متفقين فى الدين والاعتقاد ، ولكنهم يجوزون التقية فى القول دون العمل ، ويخالف الصفرية الأزارقة فى أنهم لم يحكموا بقتل أطفال المشركين ولا بتكفيرهم أو تخليدهم فى النار ، وفرقوا بين الكبائر التى يلزم فيها الحد والتى لا حد عليها لعظم قدرها وفظاعتها حتى إن أية عقوبة فى الدنيا لا تكفر عنها ، ومن هذا اللون من الكبائر ترك الصلاة ، وفى الوقت الذى لم يكفروا مرتكب الكبيرة التى لها حد وقالوا لا يصح أن يسمى إلا باسم الحد كأن يقال للذى سرق سارق

---

(١) الفرق بين الفرق / ص ٦٨

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٢

(٣) الملل والنحل / جـ ا / ١٩٥ – ١٩٦

(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٩٢

وللذى قذف قاذف فحسب فلا يسمى كافراً أو مشركاً فإنهم كفروا مرتكب الكبيرة الثانية التى لا حد لها . وقد قال زياد بن الأصفر أحد زعمائهم « الشرك شركان : شرك هو طاعة الشيطان وشرك هو عبادة الأوثان ، والكفر كفران : كفر بالنعمة وكفر بإنكار الربوبية . والبراءة براءتان : براءة من أهل الحدود سنة وبراءة من أهل الجحود فريضة [١] .

ولم يسقط الصفرية الرجم كما أسقطه الأزارقة ، ونقل عن الضحاك ابن قيس أنه جوز تزويج المسلمات من كفار قومهم فى دار التقية دون دار العلانية[٢] .

ويختلف الأباضية عن جميع فرق الخوارج فى أنهم لم يغلوا فى الحكم على مخالفيهم ولم يلجئوا إلى العنف معهم إلا مضطرين ، ولعل هذا يرجع إلى طبيعة الظروف التى صحبت نشأتهم إذ لم يخرجوا إلا فى أيام مروان بن محمد بعد أن قضى الأمويون على الخوارج أوكادوا . وبعد أن دب اليأس إلى الأحزاب أو كاد فتحول نضالهم من ثم حول الحكم إلى آراء ومذاهب تكاد تكون علمية بحتة ، وكان الاعتدال طابعهم المميز فقد أحلوا التزويج من مخالفيهم ، وأن يتوارثوا مع غيرهم ، وكان لمسالمتهم أثر فى عدم الغلو فقالوا لا يحل قتل غير الخوارج أو سبيهم غيلة ، ولا يجوز قتالهم إلا بعد الدعوة وإقامة الحجة وإعلان القتال فإذا قاتلوهم وغنموا أموالهم لم يستحلوا منها غير السلاح والخيل ، أما الذهب والفضة أو غيرهما فإنهم يردونه إلى أعدائهم [٣] . وكانوا خلافاً للأزارقة يرون بلاد مخالفيهم من المسلمين ديار توحيد إلا معسكر السلطان من بنى أمية أو غيره من أمراء البغى فإنه دار بغى ، وعدوا مرتكب الكبيرة من أهل القبلة موحداً غير مؤمن فهو كافر كفر نعمة لا كفر ملة [٤]

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢١٨

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢١٦

(٣) الفرق بين الفرق / ص ٨٣

(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٢١٢

كما أجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم . وقرروا أن أفعال العباد . مخلوقة لله تعالى إحداثاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً وإن الاستطاعة عرض من الأعراض وهى قبل الفعل وبها يحصل ،ولم يسموا أنفسهم مهاجرين كالأزارقة كما لم يسموا إمامهم أمير المؤمنين وتوقفوا أيضاً فى أطفال المشركين وجوزا تعذيبهم على سبيل الانتقام وأجازوا أن يدخلوا الجنة تفضلا[١] .

هذه هى أهم تعاليم الخوارج ، وإن الناظر فى هذه التعاليم ليجد أنهم قد تشددوا وتصلبوا فى الغلو على مخالفيهم وفى مساواتهم بالكفار وعبدة الأوثان تماما كما اشتطوا فى حروبهم وبذلوا نفوسهم فى سبيل الذود عن مبادئهم حتى ضربوا المثل فى الشجاعة الخارقة والبطولة النادرة وشغلوا الدولة الأموية وكلفوها غالياً من الأرواح والأموال والجهد الذى كان يمكن أن يوجه لصالح الدين وانتشاره وللعمل من أجل التقدم الاجتماعى فى ذلك العصر ، ويرى بعض الدارسين أنه على الرغم من اشتطاطهم فى مذاهبهم التى أوردتهم حتفهم فإنهم كانوا المثل الأعلى فى الدفاع عن العقيدة والاستماتة فى سبيل الانتصار للمبدأ ، ولم تكن لهم مآرب شخصية يرمون إلى تحقيقها من وراء حركتهم كما كان لغيرهم من الأحزاب السياسية الأخرى من شيعة وأمويين وزبيريين [٢] .

ويعيب عليهم بعض المؤرخين أن سياستهم لم تكن موجهة نحو أهداف يمكن تحقيقها فضلا عن أنها منافية للمدنية فقد كان شعارهم « لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها » وهو أمر لم يكونوا يجهلونه إذ لم يكونوا يعتقدون بانتصار مبادئهم على الأرض ،وإنما يرضون بأن يموتوا مجاهدين ، فهم يبيعون حياتهم ويحملون أنفسهم إلى سوق ثمن أرواحهم فيه هو الجنة[٣] .

أما أنهم كانوا بلا هدف يمكن تحقيقه فهذه فرية لأن هدفهم كان فيما

---

(١) الملل والنحل / حـ ١ / ص ٢١٣

(٢) Nicelson, Lit., Hist. of Arabs. p. 211.

(٣) الخوارج والشيعة / ص ٣٧

يقرره هؤلاء المؤرخون تقرير الأمور العامة وفقاً لأوامر الله ونواهيه[١] .

وأما أن هذا الهدف مثالى وبعيد عن الواقع ولا يمكن تحقيقه فهذه فرية أخرى ، إذ أمكن تحقيق تلك الأهداف المثالية فى حكومة الراشدين من قبل ، وإن كان يلذ للمؤرخين من المستشرقين بخاصة أن يشيدوا بحكومة بنى أمية لقيامها على الأسس المادية التى لا يعرفون سواها . كما يلذ لهم أن يغمزوا مبادئ الإسلام التى استوحاها الخوارج بأنها منافية للمدنية .

فتعاليمهم ليست إلا تعاليم الإسلام الأول فى نقاوته ، وإن تميزت طريقتهم فى الدعوة إليها بالعنف الذى يعد انعكاساً للاضطهاد الفظيع الذى لا قوه على أيدى السلطة الحاكمة ، كما أن كثيراً من تشددهم وجفوتهم ليس إلا أثراً لما اقترنت به نشأتهم فقد كانوا بدواً فى الأكثر[٢] .

ويبدو التناقض واضحاً فى زعم هؤلاء المؤرخين أن الأساس الذى يستند إليه هذا التهور فى التقوى هو الإيمان الحق بأن الدنيا عبث وأن بقاءها قصير وأن يوم الساعة قريب وأنهم كانوا يبذلون كل طاقة عسكرية من أجل تحقيق سياسة خلو من كل سياسة ابتغاء الفوز بالجنة ، فهو قول يتناقض مع شعارهم الذى قرروه من قبل « لتكن عدالة ولو فنيت الدنيا بأسرها » .

فقد كانت العدالة محور سياستهم فاستماتوا فى سبيل تحقيقها ، وعلى الرغم من تعجلهم إلى الله وتناديهم بالرواح إلى الجنة فلم يكونوا بحال من الأحوال فراشاً لا يملك إلا أن يحوم حول النار حتى يرتمى فيها كما حاول مؤرخ مثل فلهوزن أن يصورهم[٣] .

وفضلا عن هذا فقد كانت لهم فلسفتهم الخلقية المميزة فتشددوا فى العبادة ووصفهم الشهرستانى بأنهم أهل صوم وصلاة[٤] وكانوا فى مجموعهم يبرعون

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٣٦ .

(٢) الفكر العربى / ص ١٤٤ ، فجر الإسلام / ص ٢٦١

(٣) الخوارج والشيعة / ص ٣٧

(٤) الملل والنحل / ج ١ / ص ١٧٣

من الكاذب والعاصى ، وكانت جباههم مقرحة لطول السجود ، وكانت أيديهم كثفنات الإبل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم واستقلوا ذلك فى جنب الله ، ومضى الشباب منهم قدما حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه وتخضبت بالدماء محاسن وجهه فأسرعت إليه سباع الأرض وانحطت إليه طير السماء .

وقد لاحظ بعض الدارسين أنهم قد وثقوا الصلة بين الأحكام الفقهية والمثل الخلقية العليا توثيقاً رائعاً ، وضرب لذلك مثلا قولهم إن ما يجرى على اللسان من كذب وغيبة وحقد وعداء وسباب وإقذاع مخرج من حالة الطهارة ، موجب للوضوء قبل الصلاة ولا تقل بحال فى نقضها للطهارة عن أثر القذارة الجثمانية[١] .

ومهما كان الأمر فقد كان الخوارج مؤمنين مخلصين فى إيمانهم قدر اجتهادهم ويكفى أنهم ضربوا مثالا رائعاً فى الديمقراطية والاعتداد بالمساواة والحرية حتى لم يأنفوا أن يجعلوا على رأسهم خليفة من الموالى كان معلم كتّاب ، ولم يفرقوا بين عربى ومولى فى ذلك التاريخ البعيد بينما لا زلنا نرى فى عالم المدنية الحر بشراً يستذلون بسبب ألوانهم وسلالاتهم .

وقد كان علىّ بن أبى طالب على الرغم من خروجهم عليه وتكفيرهم له ، يقدرهم ويثق فى إخلاصهم فقال فى آخر أيامه « لا تقاتلوا الخوارج بعدى فليس من طلب الحق فأخطأه كمن طلب الباطل فأدركه[٢] .

---

(١) العقيدة والشريعة / ص ١٧١

(٢) شرح نهج البلاغة / حـ ١ / ص ٤٠١

٣

كان التحكيم الذى أكره عليه علىّ إبان نزاعه مع معاوية فى صفين هو السبب المباشر لنشأة الخوارج فثاروا على علىّ إذ ارتضاه مضطرًّا تحت ضغط البعض من أنصاره ، بيد أن هذا السبب المباشر أوهى الأسباب لأن نزعة الخروج لم تكن تنقص هؤلاء الذين أصبحوا فيما بعد يعرفون باسم الخوارج ، فقد تكونت فى النفوس هذه النزعة الساخطة إبان حكم عثمان وما انتهى إليه أمر الجماعة المسلمة بعد مقتله من فرقة وتطامع فى الحكم والمغانم وتطلع إلى مراكز السيطرة والنفوذ مما يعد خيانة ظاهرة لجوهر الإسلام بوصفه ديناً وعقيدة وسلوكاً فى الحياة .

وقد انتهز قوم من الذين لجأوا إلى علىّ بعد الاشتراك فى السخط على عثمان فرصة التحكيم ليثوروا بالخليفة الجديد الذى ضيع حقه وسمح لنفس الآفة الطامعة أن تخدعه عنه فتحيّر فى أمره وأصبح وقد خلع نفسه بنفسه . وكانت فرصة التحكيم مناسبة للإعلان عما كان يعتمل فى نفوسهم من تذمر على ما آلت إليه الأوضاع التى لم تنته تماما بمقتل عثمان والتى استجدت فى خلافة علىّ القصيرة .

ونحن نظلم الخوارج إذا أرجعنا خروجهم إلى أزمة التحكيم فحسب ، فالحقيقة أنهم يمثلون تياراً أصيلا فى طبيعة تطور الدين ، وهو التعبير العميق الشعور الصادر عن النفوس الشديدة الإيمان بإزاء تباين التطبيق عن النظر الذى جاء به الدين الحق ، وخلاصة هذا التيار هو العودة إلى الكلمة الأصيلة للدين معبراً عنها فى القرآن الكريم دون تأويل ولا ترخيص بل بتشدد فى الفهم لا يقبل المساومة والالتواء[١] .

---

(١) مقدمة الخوارج والشيعة لعبد الرحمن بدوى / ص (و) .

ويتجلى هذا بوضوح فى إعلانهم قصر الطاعة العمياء على ما ورد فى القرآن والسنة فحسب من قواعد وأحكام وطرائق للسلوك وفى التمسك الشديد بعمود الدين فى مواجهة التيارات والفرق والأحزاب التى أصبحت فى اعتقادهم قد حادت عنه أو تأولت فيه .

ونحن نشعر بغير قليل من الحذر بإزاء كثير من الأحاديث النبوية المنسوبة إلى النبي صلى الله عليه وسلم عن نشأة الخوارج والتنبؤ بأوصافهم وسماتهم والحض على قتالهم والتنبؤ باستئصالهم على يد طائفة هى أولى بالحق . فقد كان لاستعار الصراع بين الدولة والفرق المعارضة من ناحية ولنزاع الفرق فيما بينها من ناحية أخرى نتائج مؤسفة فى وضع الأحاديث وتزييفها واستغلالها سلاحاً مشهوراً فى وجه الخصوم والمناوئين ، وهى أحاديث تربط بين ظهور الخوارج وبين رجل من تميم مشكوك فى اسمه وصفاته ومختلف على هذه الصفات بين الرواة . وكان هذا الرجل قد اعترض على الرسول فى الجعرانة وهو يقسم فيئاً جاءه من اليمن منصرفه من حنين فقال للرسول : « اعدل فإنك لم تعدل » ، والحادثة ممكنة الحدوث ولكن التنبؤ الذى تذيل به الحادثة بعيد عن أن يحدث إذ لا يجدر بالرسول من عدة وجوه .

وعلة هذا الربط كما لا يخفى إيجاد صلة بين نزعة الاعتراض التى أبداها هذا الرجل يوم اعترض على النبي ، وروح الاعتراض التى تجلت عند الخوارج على التحكيم ، وعلى الإمام فيما بعد ، وكلمات الحديث تتفق على أن سيخرج من ضئضئ هذا الرجل قوم يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، يقتلون أهل الإسلام ، ويدعون أهل الأوثان ويمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية[1] .

وليس هناك ما يدعو إلى اصطناع مثل هذه الصلة لأنها فى غير حاجة إلى إثبات ، فمما لا شك فيه أن نزعة الاعتراض هى السمة الغالبة على الخوارج ، والشيء الجدير بإنعام النظر أن الاعتراض على علىّ كان من طائفة القراء التى

---

(١) صحيح مسلم / جـ ٣ ص ١٠٩ – ١١٦

كانت أول من رأى إجابة أهل الشام إلى ما دعوا إليه من تحكيم كتاب الله ، أى الذين دفعوا عليًّا إلى وقف القتال أخذوا عليه أنه ترك أمر الخلافة إلى هوى متفاوضين من الناس فكأنهم قبلوا تحكيم كتاب الله ورفضوا تحكيم البشر وخرجت صيحتهم المعروفة لا حكم إلا لله .

ونلقى فى تفسير ما حدث بعد رفع المصاحف فى صفين ، وما كان بعدها من تحير فى أنصار علىّ رأيين متعارضين أولهما يقول إن جماعة القراء أوقفت القتال وأرغمت عليًّا على استدعاء الأشتر وتحكيم كتاب الله ، وإن جماعة البدو التى صارت فيما بعد كتلة الخوارج هى التى احتجت على وقف القتال ، ويقول بهذا الزعم المستشرق الألمانى برنوف ولكن فلهوزن لا يجد ضرورة لتوكيد وجود هوة بين جماعة القراء وجماعة الخوارج من أجل أن يوزع دور السقوط ودور النهوض على فريقين مختلفين ، وفى الحقيقة لا يستبعد إطلاقاً أن يكون نفس الأشخاص قد ضلوا السبيل فى أول الأمر ثم ثابوا إلى رشدهم من بعد[1] وذلك لأن القراء هم خير من يمثل اتجاه الخوارج فكراً وصلاحاً وتشدداً وتقوى وتوجيها ونقداً للناس وإثارة لحميتهم وإيماناً بالجهاد .

وقد شعروا بعد صفين بالخطأ الذى ارتكبوه وودوا لو رجعوا عن باطلهم ، وأيقنوا بما ظهر لهم أنه جوهر الإيمان ، وعدوا الحيرة التى طرأت عليهم ذنباً عظيما فوطنوا العزم على التكفير عنه بالعمل الذى يبدأ بالتوبة ، ولهذا طالبوا عليًّا وسائر القوم بأن يتوبوا عن باطلهم بالأفعال ولو لم يكن الأمر على هذه الصورة لكان عدوهم الألد مالك بن الأشتر من أحق الناس بلقب الخوارج فربما كان الوحيد الذى لم يترك نفسه تنساق فى الضلال واحتج على التحكيم مع أهل الشام .

فلا مقتضى إذن لافتراض وجود طائفتين مختلفتين تتقاسمان دور الإيقاف ودور الاعتراض ، وليس هناك مبرر للتفريق بين جماعة القراء وجماعة البدو

---

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٣

فليس ثمة مانع من أن يكون هؤلاء هم أولئك وبخاصة إذا كانت هناك قرائن أخرى تضم إلى ملامح الخوارج التى تنحل للقراء كقراءة القرآن والتفكير فيه آناء الليل وأطراف النهار والعكوف على العبادة والسهر ولبس البرنس فضلا عن وجود أسماء على سبيل التحديد عرفت فى طائفة القراء وصارت فيما بعد أشد الخوارج حماسة وحمية من مثل مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن الحصين الطائى[1] .

وقد ثبت بالقطع أن هذين الرجلين قد قالا لعلىّ وشاركهما فى قولهما الأشعث بن قيس عند رفع المصاحف « القوم يدعوننا إلى كتاب الله وأنت تدعونا إلى السيف » فقال علىّ « أنا أعلم بما فى كتاب الله .. انفروا إلى بقية الأحزاب .. انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله » ، فقالا : « لترجعنّ الأشتر عن قتال المسلمين وإلا لنفعلنّ بك كما فعلنا بعثمان » فاضطر إلى رد الأشتر بعد أن هزم الجمع وولوا مدبرينّ وما بقى منهم إلا شرذمة قليلة فيهم حشاشة قوة فامتثل الأشتر أمره[2] .

ويذكر الشهرستانى هذين الرجلين بأنهما كانا من أشد من كانوا مع على خروجاً عليه ومروقاً من الدين ، وأيضاً كان الأشعث بن قيس[3] .

وقد تنبه لهذه الحقيقة ابن أبى الحديد فى قوله « لما قال أهل الشام إننا قد رضينا واخترنا عمرو بن العاص ، وقال الأشعث والقراء الذين صاروا خوارج فيما بعد قد رضينا نحن واخترنا أبا موسى فقال لهم علىّ : « فإنى لا أرضى بأبى موسى ولا أرى أن أوليه »، فقال الأشعث وزيد ومسعر فى عصابة من القراء « إنا لا نرضى إلا به ، فإنه كان حذرنا ما وقعنا فيه » ، فقال علىّ « فإنه ليس لى برضاً ، وقد فارقنى وخذّل الناس عنى وهرب منى حتى أمنته بعد شهر ، ولكن هذا ابن عباس أوليه ذلك » ، قالوا : « والله ما نبالى أكنت أنت

(١) الخوارج والشيعة / ص ٢٤
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ١٧٠ - ١٧١
(٣) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٧٠

أو ابن عباس ولا نريد إلا رجلا هو منك ومن معاوية سواء ليس إلى واحد منكما أدنى من الآخر » قال علىّ : « فإنى أجعل الأشتر » فقال الأشعث : « وهل سعر الأرض علينا إلا الأشتر ؟ وهل نحن إلا فى حكم الأشتر ؟ » قال علىّ « وما حكمه ؟ » قال : « حكمه أن يضرب بعضنا بعضاً بالسيف حتى يكون ما أردت وما أراد »(١) . .

وابن أبى الحديد يفصل بوضوح بين الأشعث من ناحية وبين هذين الرجلين والقراء من ناحية أخرى ، ويبرز فى وضوح أيضاً موقفهما من رفع المصاحف والاعتراض على الأشتر وابن عباس وتأييدهما لأبى موسى وكان علىّ كارهاً له ثم يقرر فى وضوح كذلك أن القراء قد صاروا خوارج فيما بعد .

ولا بد لنا ونحن نحاول الوصول إلى الحقيقة فى نشأة هذه الفرقة من أن نشير إلى هذا الرأى الذى يعد اقتفاء لأثر سيف بن عمر ويحاول أن يقرن بين الشيعة والمحكِّمة الأولى قبل الخروج فى جيش علىّ بن أبى طالب ، وخلاصة هذا الرأى الذى يرمى إلى البحث عن أصول الخوارج لدى فرقة السبئية أنه ما دام قادة الخوارج الأول أو بعضاً منهم على الأقل كانوا يعارضون عثمان وولاته واشتركوا جميعاً فى مسئولية قتله وفاخروا بهذا الاشتراك ، فلا بد أن يكونوا من السبئية ، ويذكر سيف بن عمر بعضاً منهم صراحة فيمن خرجوا فى حروراء والنهروان ومنهم ابن ملجم وإن أسقط الأشتر ممن ذكر .

والحق أن الذين اشتركوا فى مسئولية الشغب على عثمان وقتله لم يكونوا جميعاً من السبئية حتى يصدق هذا الرأى وإنما لاذ بعلى كل الثوار على عثمان وهم طوائف شتى وغيرهم من الذين لم يشغبوا عليه كذلك .

ولقد كان لقب السبئية يطلق على طائفة بعينها ، واستعماله الدقيق إنما ينطبق فحسب على غلاة المتشيعين لعلىّ ، وكانوا ظاهرين ومتميزين عن بقية أنصار علىّ كما يتضح من قول الطبرى عنهم فى البصرة قبل الجمل « وأقبل

(١) ابن أبى الحديد / ج ١ / ١٨٩

القوم وأمامهم السبئية يخافون أن يجرى الصلح »[١] .

ولو أن المرء سلم بأن السبئية كانوا قتلة عثمان الحقيقيين ، وأنهم كانوا لهذا السبب التربة المشتركة التى نبتت فيها الشيعة والخوارج على السواء لبقى أن يفسر المرء لماذا بقى اسم السبئية علما على غلاة الشيعة وحدهم فيما بعد ؟ وسيكون معنى هذا أن الخوارج صاروا خوارج بعد خروجهم على السبئية وانفصامهم عنهم ، ولكن الحقيقة أنهم صاروا خوارج لخروجهم على الإمام ، وكان انفصالهم عن السبئية نتيجة لذلك « فقد أقبل السبئية والخوارج بعد أن فشا التحكيم يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويتضاربون بالسياط ، يقول الخوارج : يا أعداء الله أوهنتم فى أمر الله عز وجل ، وحكّمتم ، ويقول الآخرون (السبئية) : « فارقتم إمامنا وفارقتم جماعتنا »[٢] .

وحقيقة الأمر أن الخوارج لم ينشأوا فى أحضان السبئية ، ويبدو ذلك من التعارض الشديد بين مذهبيهما بما يقطع بأنهما لم ينشئا فى بيئة واحدة أبداً ، فبينما يقرن السبئية عقيدتهم بصاحبها تماما فالخوارج يفصلونها عنه فصلا تاما ، إذ أن السبئية يقرنون العقيدة بالأئمة ويتحمسون لهما معاً تحمساً يخرج إلى حد التقديس لأشخاصهم ، ولكن الخوارج يفرقون بين العقيدة وبين الأئمة تفريقاً تامًّا فتحمسوا للإسلام ولم يتحمسوا للأمة ، وحينما دب النزاع العنيف بين المحكمة وأنصار علىّ الغالين لام المحكمة هؤلاء على تأييدهم لعلىّ حتى ولو ضل السبيل ، وأصبحوا فى اعتقادهم عبيداً شأنهم شأن أهل الشام الذين تبعوا معاوية فى كل الأحوال دون أن يتساءلوا ما إذا كان على صواب ؟

وخلاصة القول إن الخوارج قد نشأوا نشأة إسلامية حقيقية وصادقة ، ولم يكن تيارهم الفكرى إلا تياراً إسلاميًّا يقصد قصدا جادًّا إلى الرجوع إلى الدين الحق فى تعاليم الإسلام الأولى على نقاوتها دون ترخص أو التواء ، كما جاء فى رسالة المستورد بن علفة وهو من كبار زعمائهم إلى سماك بن عبيد العبسى

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٢٠٧

(٢) الطبرى / جـ ٦ / ص ٣٥

عامل المغيرة بن شعبة على المدائن أثناء خروجه لعهد معاوية « إننا ندعوك إلى كتاب الله القوى العزيز ، وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهدى أبي بكر وعمر رضى الله عنهما ، والإنكار على عثمان وعلىّ لإفسادهما الدين الحق وإنكارهما لسلطان القرآن »[١] .

ومن هذا يظهر أن أصول مبادئ الخوارج لم تكن إلا تعاليم الإسلام الأولى فى المساواة والعدل التى عطلت ، كما أنهم لم يأتوا فى أمر الخلافة بغريب أو مستنكر أو بعيد عن روح الإسلام فهم يرون أن من حق الأمة إسقاط الإمام الذى يحيد عن الطريق القويم الذى سنه الله ومهده رسوله ويقررون أن الإمامة تحق لمن تختاره الأمة أيًّا كان ولو كان عبداً أسود ، وفى هذا نزعة إسلامية ديمقراطية .

وليس صواباً إذن ما فهمه بعض الباحثين المحدثين[٢] تأسيساً على مذهب بعض المستشرقين[٣] من أن هذه الروح ترجع إلى نزعتهم القبلية المتعصبة على قريش ومللهم من الخضوع للسلطان والحكم المركزي نتيجة استئثارها بالخلافة ، أو أنه يرجع إلى أنهم لم يعودوا ينظرون إلى قريش نظرة تقديس فرغبوا فى رئيس من دمائهم حتى يستطيعوا طاعته[٤] .

وهذا وهم باطل من أساسه ، فقد دعا الخوارج إلى الشورى وهى فكرة إسلامية عربية دعا إليها القرآن وأقرها النبى والشيخان واعتمدها ابن الخطاب أساساً لاختيار خليفته .

وكل ما يمكن أن يؤخذ عليهم هو هذه القسوة البالغة فى الاستعراض واستحلال قتل مخالفيهم من المسلمين ، وإن كان يمكن أن نلتمس لقسوتهم فى الحق عذراً ، لأنهم كانوا يوقنون فى أعماقهم بأن خير الإيمان الجهاد بالسيف

---

(١) الطبرى / ج ٦ / ١١٠

(٢) انظر / عبد العزيز الدورى ٪ مقدمة فى تاريخ الإسلام / ص ٧٠

(٣) العقيدة والشريعة / ص ١٧٠

(٤) Nicilison, Lirt. Hist. of Arabs. p. 208

فى سبيل إعلاء كلمة الدين كما يبدو فى حديث عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه إلى جماعة القراء : « إن الفرار ليس بأحد من الناس بأقبح منه بكم ، إنى سمعت عليًّا رفع الله درجته فى الصالحين وأثابه أحسن ثواب الشهداء والصديقين يقول يوم لقينا أهل الشام : « أيها المؤمنون إنه من رأى عدواناً يعمل به ومنكراً يدعى إليه فأنكره بقلبه فقد سلم وبرئ ، ومن أنكره بلسانه فقد أجر وهو أفضل من صاحبه ، ومن أنكره بالسيف لتكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الظالمين السفلى ، فذلك الذى أصاب سبيل الهدى ونور فى قلبه باليقين »[1] .

وليس شك فى أن الخوارج بهذا كله كانوا ثماراً للفكر الإسلامى فى إيمانهم وعقائدهم وسلوكهم بل وفى تسميتهم أيضا فقد قيل إنهم سموا بالخوارج من الخروج فى سبيل الله أخذاً من قوله تعالى « ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله » .

وإنهم سموا بالشراة أى الذين باعوا أنفسهم لله من قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله » وكان هذا هو الاسم الأثير لديهم ، كما كان اسم المحكّمة أثيراً لديهم أيضاً لأنه مشتق من شعارهم « لا حكم إلا لله » .

---

(١) الطبرى / ج ٦ ص ١٠٨

الفصل الثالث

الزبيريون

١

لا شك فى أن نشأة الحزب لا ترجع إلى الوقت الذى دعا فيه ابن الزبير إلى نفسه بمكة سنة ٦٣ هـ وإنما كانت قبل ذلك .. والتاريخ الصحيح لنشأة الحزب الزبيرى هو الفتنة التى أدت إلى قتل عثمان وخروج الزبير وطلحة وعائشة على علىّ بن أبى طالب .

ويمكننا أن نرجع إلى ما قبل ذلك التاريخ بعدة سنوات لنتتبع تكون نواة هذا الحزب بعد مقتل عمر مباشرة .

كان الزبير أحد الستة الذين عهد إليهم عمر بانتخاب خليفته من بينهم ، ولكنه كان واثقاً أن الأمر سيعدوه بالقطع إلى أحد رجلين هما علىّ وعثمان ، وخشى لو أنه وقف فى جانب علىّ أن يكون وقوفه اعترافاً بأحقية بنى هاشم فى الخلافة وأن تظل محصورة فيهم مما يتعارض وطموحه ، وبهذا نفسر وقوفه إلى جانب عثمان الشيخ المسن ، فإن فاتته الخلافة هذه المرة فربما لا تفوته بعد ذلك . وليس شك فى أن فرصة انحصار الخلافة فى البيت الأموى أقل من انحصارها فى بيت الرسول .

وقد تمخض عن الشورى حزبان كبيران هما الحزب الأموى الذى فاز بالخلافة عندما تولاها عثمان وحزب الهاشميين الذى سخط على ضياعها منه ولكنه دخل فيما دخل فيه الناس .

وبجانب هذين الحزبين الأساسيين كانت هناك نواتان لحزبين ناشئين هما : حزب الزبير الذى كان يسانده أهل الكوفة ، وحزب طلحة وكان سنده

أهل البصرة . وكان موقف هذين الحزبين لا يزال موقف المتفرج حتى تسنح الظروف ، وحدث أن عثمان لم يول الزبير ولاية من الولايات فخرج إلى الكوفة حيث نجح هناك فى إنشاء حزب زبيرى ، إذ التف الناس حوله كما التفوا من حول كبار الصحابة الذين أنشأوا لأنفسهم أرستقراطية دينية سداها المال ولحمتها السبق فى الإسلام وصحبة الرسول[١] .

وعندما حوصر عثمان اتفق الثوار جميعاً على خلعه ، ولكنهم اختلفوا فيمن يخلفه ، فكان هوى ثوار مصر فى علىّ ، وكان ثوار البصرة يرغبون فى طلحة ، بينما رغب ثوار الكوفة فى الزبير[٢] .

وكما فعل علىّ وغيره من الصحابة أرسل الزبير بابنه عبد الله ليدفع عن عثمان كيد الثوار ولكن هذا الدفع لم يجد شيئاً ، وقتل عثمان ولم يكن مقتله ليرضى أحداً من صحابة رسول الله ، وإن كانوا جميعاً يرون أن يتنازل عن الخلافة[٣]

وقد أبدى عبد الله شجاعة ملحوظة أثناء الحصار مما حدا بعثمان أن يعهد إليه بوصيته ، فكان آخر من خرج من الدار ، وقد أمره عثمان بأن يصير إلى أبيه فى وصيته بما أراد ، وأن يأتى أهل الدار فيأمرهم بالانصراف إلى منازلهم فخرج عبد الله آخرهم فما زال يدعى بها ويحدث الناس عن عثمان بآخر ما مات عليه[٤] وأفاد ابن الزبير من هذا الموقف فكان يفخر به دائما ، حتى لقد فخر به يوما من فوق منبر مكة فقال : « لقد استخلفنى أمير المؤمنين عثمان على داره فلقد كنت أنا الذى أقاتل بهم ولقد كنت أخرج فى الكتيبة وأباشر القتال بنفسى فجرحت بضعة عشر جرحاً وإنى لأضع اليوم يدى على بعض تلك الجراحات فأرجو أن تكون خير أعمالى[٥] .

---

(١) تاريخ الإسلام / جـ ١ / ص ٣٤٥

(٢) المختصر فى تاريخ البشر / جـ ١ / ص ١٦٩

(٣) البداية والنهاية / جـ ٧ / ص ١٩٨

(٤) الطبرى / جـ ٣ / ص ٤٢

(٥) تاريخ ابن عساكر / جـ ٧ / ص ٤٠٢

وبعد أن آل الأمر إلى علىّ وعزل ولاة عثمان جاءه الزبير وطلحة فقالا له : « هل تدرى على ما بايعناك يا أمير المؤمنين ؟ » فقال « على السمع والطاعة وعلى ما بايعتم عليه أبا بكر وعمر وعثمان » ، فقالا له : « ولكنا بايعناك على أنا شريكاك فى الأمر » قال على « لا ولكنكما شريكان فى القول والاستقامة والعون وعلى العجز والأولاد »[١] .

وأبى علىّ أن يستجيب لمشورة المغيرة بن شعبة فى تولية الزبير وطلحة العراقين فبهما الرجال والأموال ، ومتى تملكا رقاب الناس استمالا السفيه بالطمع وضربا الضعيف بالبلاء وقويا على القوى بالسلطان »[٢] . كما لم يستجب للزبير وطلحة نفسيهما عندما طلبا البصرة والكوفة صراحة[٣] فلما يئسا منه طلبا أن يأخذ بثأر عثمان من قاتليه ، فاحتج باستحالة تحقيق هذا المطاب فى تلك الظروف المضطربة ، ووعدهما بأن يفعل حين يهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق[٤] .

ولما رفض معاوية أمر العزل رأيا الفرصة قد سنحت لينكثا ببيعتهما فيجبرا عليًّا على أن يحارب فى جبهتين ، فطلبا السماح لهما بالخروج إلى مكة بحجة العمرة وأقسما لعلىّ أنهما لا يريدان غير مكة[٥] وكانت بها السيدة عائشة منذ حوصر عثمان فرأيا أن تحالفها معهما يضفى على تمردهما على الخليفة صبغة دينية فضلا عن الشعار الذى رفعاه وهو المطالبة بإقامة حد من الحدود الله « ياالثأر عثمان » .

ولم يكن ممكناً أن تكون المدينة مسرحاً للثورة ففيها أنصار الخليفة[٦] كما لم يكن من الممكن أن يسمح لهما معاوية بأن تكون الشام مسرحاً لثورة

---

(١) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ص ٤١
(٢) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ٦٢
(٣) البداية والنهاية / جـ ٧ / ٢٢٧
(٤) الطبرى / جـ ٥ / ١٦٧
(٥) المختصر فى تاريخ البشر / جـ ١ / ص ٢٤٢
(٦) الطبرى / جـ ٥ / ١٦٧

لا تدعو إليه واستقر رأيهم على البصرة بعد أن تعهد لهما ابن عامر واليها السابق لعثمان وابن خاله أن له بها صنائع وأمدهما بألف ألف درهم وبمائة من الإبل[١]

وكان خروج الزبير وطلحة إلى البصرة وتربص معاوية بالشام سبباً فى أن فكر علىّ فى نقل العاصمة إلى الكوفة، وعندما أبدى الحجازيون ألمهم لرحيل أمير المؤمنين عنهم اعتذر بعض الصحابة عن مرافقته وناشده عقبة بن عامر أن يمكث فكان جوابه «إن الأموال والرجال بالعراق، ولأهل الشام وثبة أحب أن أكون قريبا منها»[٢].

وعمل علىّ على أن يستميل إليه أهل الكوفة فقد كان أبو موسى واليها لعثمان قد رغب الناس عنه بعد أن بايعه، فعزله علىّ وولى مكانه قرظة بن كعب الأنصارى فزحف الأشتر إلى الكوفة لتأديب أبى موسى فأغار قرظة على بيت المال وقصر الإمارة واستولى عليهما، فخرج أبو موسى إلى مكة، ونجح حجر ابن عدى فى استمالة أهل الكوفة لمناصرة إمامه، فاستجابوا لندائه[٣].

وكان عبد الله بن الزبير من أشد الداعين إلى حرب علىّ إن لم يكن أشدهم على الإطلاق، فقد ثنى خالته السيدة عائشة عن الرجوع إلى المدينة، وشجع أباه على القتال يوم الجمل[٤]. واتخذ عبد الله من تأمير عثمان له على داره يوم الحصار سبباً كافياً لأحقيته فى الخلافة، فاستخلاف عثمان له دون سائر أصحابه الذين كانوا معه دليل على كفايته ومقدرته، وقد قاس ذلك على تأمير الرسول لأبى بكر فى الصلاة أثناء مرضه الأخير مما عدّه المسلمون ارتضاء له فى أمر الدين وكان سبباً فى ارتضائه لأمر الدنيا. وقد ظل ابن الزبير منذ ذلك اليوم يتحين الفرصة، وعمل فى تستر على أن يصل إلى هدفه فأوقع بين معاوية وبين علىّ حتى خاطب علىّ الزبير فى شأن ابنه عبد الله قائلا «لقد كنا نعدك

---

(١) مروج الذهب / جـ ٢ / ٢٤٢
(٢) الأخبار الطوال / ١٥٢
(٣) الطبرى / جـ ٥ / ١٥٩
(٤) ابن الأثير / جـ ٣ / ٢٠١

من بني عبد المطلب حتى بلغ ابنك ابن السوء ففرق بيننا »[١] .

وكان عبد الله يجتهد فى دعم الحزب الذى نكث بيعة علىّ وصولا إلى أغراضه ، وحتى صار وراء كل حركاته . ويبدو أن السيدة عائشة التى ربته واحتضنته كانت تسعى لتحويل الخلافة إليه ، فقد روى أن مروان بن الحكم لما سار إلى طلحة والزبير وقال لهما : «على أيكما أسلم بالإمرة وأوذن بالصلاة»؟ أرسلت إليه رسولا يقول له : « ما لك تريد أن تفرق أمرنا فليصل بالناس ابن أختى » ، فكان يصلى بهم حتى قدموا البصرة[٢] .

وفى البصرة عمل الزبير وطلحة على استمالة كعب بن سور سيد اليمن ، والمنذر بن ربيعة والأحنف بن قيس سيد مضر ، كما استمالا عبد الله بن عمر ولكنه رأى القعود نجاة وكان يرى لزوم السيدة عائشة بيتها حفاظاً على كرامتها وإشفاقاً على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم[٣] .

ولم تصغ السيدة عائشة لنداء عبد الله كما لم تصغ لنداء السيدة أم سلمة[٤] . وأيضاً لم يبال كل من طلحة والزبير بنصح الناصحين ، وسرعان ما خرجوا جميعاً إلى البصرة فى ستمائة رجل ، وما إن وصلوا إلى ماء الحوأب فى طريق البصرة حتى نبحتهم كلابه ، فسألت السيدة عائشة محمد بن طلحة : أى ماء هذا ؟ فقال هذا ماء الحوأب . فقالت : ما أرانى إلا راجعة . قال : ولم ؟ ، قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لنسائه «كأنى بإحداكن قد نبحها كلاب الحوأب وإياك أن تكونى أنت يا حميراء» فقال لها ابن طلحة « تقدمى رحمك الله ودعى هذا القول» وأتى عبد الله بن الزبير فحلف لها بالله أنها غادرته أول الليل وأتاها بخمسين رجلا شهدوا بذلك[٥] .

---

(١) ابن الأثير / ج ٣ / ٢٠٢

(٢) الطبرى / ج ٥ / ١٦٩ ، ابن الأثير / ج ٤ / ٨٨

(٣) الإمامة والسياسة / ج ١ / ٩٩ — ١٠٣

(٤) العقد الفريد / ج ٣ / ٩٦ — ٩٧

(٥) مروج الذهب / ج ٢ / ٣٤٣

واستأنف الجيش سيرته إلى البصرة ، وقد عرض لهم فى الطريق سعيد بن العاص والمغيرة بن شعبة ونصحا لهما بالرجوع فأبوا ، وعمد طلحة والزبير إلى الصلح مع عثمان بن حنيف أمير علىّ على البصرة على أن يكون لعثمان دار الإمارة ومسجدها وبيت المال وأن ينزل أصحابه حيث يشاءون من البصرة وأن ينزل طلحة والزبير وأصحابهما حيث شاءوا حتى يقدم علىّ فإن اجتمعوا دخلوا فيما دخل فيه الناس وإن تفرقوا لحق كل قوم بأهوائهم(١) .

ولكن طلحة والزبير أغارا على عثمان بن حنيف وهو يصلى بالناس العشاء وقبض جندهما عليه حيث ضرب ضرباً مبرحاً وأهين إهانة بالغة ، وهاجموا بيت المال ، وأدت هذه التصرفات إلى إعراض أهل البصرة عن طلحة والزبير(٢) ويظهر ذلك فى كتاب سعد بن سور إلى طلحة والزبير « فإن يك عثمان قتل ظالما فمالكما وله ، وإن كان قتل مظلوما فغيركما أولى به وإن كان أمره أشكل على من يشهده فهو على من غاب عنه أشكل(٣) .

وقد خلا سعيد بن العاص بطلحة والزبير فقال لهما : أصدقانى لمن تجعلان الأمر لو ظفرتما ؟ قالا : نجعله لأحدنا أينا اختاره الناس ، وقال : بل تجعلونه لولد عثمان ، فإنكم خرجتم تطلبون دمه ، فقالا : ندع المهاجرين ونجعلها لأيتام(٤) وهذا فى اعتقادنا هو الذى جعل الأمويين يتخاون عن مناصرة حركة طلحة والزبير .

وسار علىّ إلى البصرة حيث التقى بجيش طلحة والزبير فى مكان يقال له الخريبة ونشب القتال ودارت معركة الجمل التى انتهت بمصرع عشرة آلاف مسلم ، وقتل على أثرها طلحة والزبير ، وشيع علىّ عائشة مكرمة بعد أن اعتذرت له(٥) .

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ١٧٢ — (٢) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ٧٤

(٣) الإمامة والسياسة / جـ ٨ / ٤٨ — (٤) البداية والنهاية / جـ ٧ / ٢٣٦

(٥) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ص ٧٦ ، والعقد الفريد / جـ ٣ / ١٠٣ ، ابن سعد جـ ٣ / ٢٠

وهكذا تكونت لدى ابن الزبير بعض الدوافع التى جعلته يرى نفسه حقيقاً بالأمر فهو ربيب أم المؤمنين وابن أختها وكانت تكنى به[١] وحفيد أبى بكر ، وأبوه الزبير بن العوام أحد كبار الصحابة والعشرة المبشرين بالجنة وهو ابن عمة الرسول وحواريه ، وابن الزبير أول طفل يولد فى الإسلام ، وقد عهد إليه عثمان بوصيته دون غيره وجعلته خالته إماما للجند فصلى أصحاب الجمل خلفه وفيهم أبوه وطلحة .

ويذكر ابن عساكر أنه لم يكن أحب إلى عائشة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد أبيها من ابن الزبير ، وأنها ما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له وأنها أوصت له بحجرتها[٢] .

ويذكر كاترمير أنه لم يكن بين العرب الطامعين فى الخلافة فى القرن الأول الهجرى باستثناء علىّ رجل اجتمعت له الحقوق والمؤهلات سوى شخص واحد هو عبد الله بن الزبير[٣] .

ولكن هزيمة أصحاب الجمل ومقتل طلحة والزبير جعلت عبد الله يرجئ أطماعه إلى حين فقد نال منه مقتل أبيه ، وأصيب هو أيضاً بعدة جراحات ووقع فى الأسر ولم يخلصه سوى خالته لدى علىّ فعفا عنه ، وكان فى هذا كله صدمة قاسية له زاد من وقعها ظهور معاوية بن أبى سفيان على المسرح السياسى ، فطوى عبد الله أحزانه فى صدره ولم يجد غير مصانعة معاوية فكان هذا يحاسنه ويغدق عليه ، ولكن عبد الله كان يفيد من جميع التيارات حوله واستطاع بدهائه أن يجمع أهل المدينة وأن يؤلف منهم حزباً قوياً ، ووقعت حادثة كانت إفادته منها عظيمة الجدوى إذ مكنته من إثارة مشاعر أهل المدينة ضد معاوية عندما أراد أن ينقل منبر الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الشام محتجاً بأنه لا يجوز تركه كما لا يجوز ترك عصا الرسول بالمدينة بين قتلة عثمان ،

---

(١) البداية والنهاية / جـ ٨ / ص ٩١

(٢) ابن عساكر / جـ ٧ / ص ٤٠٢

(٣) Memoire Historique sur la vie D'Abd Allah Benzobair p. 62.

وطلب معاوية العصا من سعد القرظ وحرك المنبر فكسفت الشمس فيما يروى حتى رؤيت النجوم بادية فأعظم الناس ذلك فتركه ، وكان إحساس الناس فى الحجاز بهذه الحادثة سيئاً وشعر معاوية بخطئه فاعتذر بأن زاد فى المنبر ست درجات[١] .

وراح ابن الزبير يفيد من أخطاء معاوية على هذه الشاكلة موحيا إلى الناس بأن يقارنوا بين مظاهر الملك والترف التى استحدثها معاوية ، والبساطة والصلاح والتقوى التى بدا عليها هو فى المدينة.وفى الوقت الذى اضطهد فيه معاوية شيعة علىّ وكان يلعنه من فوق المنابر ، كان ابن الزبير يصادق الحسين ويحرص على ملازمته .

وكان أخشى ما يخشاه معاوية على الخلافة الأموية من بعده تلك الطائفة من أبناء كبار الصحابة فى المدينة ، وقد التف الناس من حولهم ، وكان ابن الزبير لا يظهر أملا فى الخلافة طالما كان الحسين بن علىّ موجوداً ، وقد أخذ معاوية يغدق على تلك الطائفة ، ويقضى حوائجها متغافلا عن كل أذى يأتيه من قبلها[٢] . ولم يكن أحد منهم يلقى من معاوية كما كان يلقى ابن الزبير ، فعامله معاملة خاصة بعد أن أمن الحسن الذى تنازل مختاراً عن الخلافة والتزم بموقفه أخوه الحسين فحفظ لهما معاوية هذا الصنيع ، ولم يريا فى عهده سوءاً[٣] وكان معاوية يلقى عبد الله مرحباً بابن عمة رسول الله وابن حواريه ، وكثيراً ما كان يمنحه مائة ألف درهم[٤] .

وكأنما رأى معاوية إخفاق سلاح المال فى استمالة عبد الله فرغب فى إخراجه من مكمنه بالإقناع والجدل والمناظرة ، ويصف ابن عبد ربه مجلساً من تلك

---

(١) النجوم الزاهرة / جـ ١ / ص ١٣٨ – ١٣٩
(٢) تاريخ الفخرى / ص ٩٢
(٣) الأخبار الطوال / ٢٣٨
(٤) تاريخ ابن عساكر / جـ ٧ / ١٩٨

المجالس التى ضمتهما لهذا الهدف ونافح كل منهما فيها عن حقه وشرفه وفخر على الآخر بمجده [١] .

ورسخ فى اعتقاد معاوية أنه ثعلب رواغ يدخل من جحر ويخرج من جحر آخر [٢] ولهذا لجأ إلى الإيقاع بينه وبين الحسين أكثر من مرة [٣] وكان مطمئناً إلى أن عبد الله لم يكن ليرفع عينيه إلى الخلافة طالما كان الحسين على قيد الحياة [٤] .

وكأنما أراد معاوية وهو ينظر إلى المستقبل ويعد يزيد للنهوض بأمر الخلافة أن يعقد بينه وبين عبد الله ما يشبه الصداقة أو الألفة أو أن يترك لابنه فرصة يمارس فيها منافسيه فى المستقبل ، وربما كان لهذا الغرض ما حرص عليه من إشراك ابن الزبير فى غزو القسطنطينية تحت قيادة يزيد ٥٠ هـ . ولكن معاوية يأمر برفع الحصار وقد أحس بدنو أجله ويتجه إلى العمل من أجل توطيد الأمر لولده بينما كان عبد الله يترقب وفاته ليعود الأمر شورى كما جرى بذلك الصلح بينه وبين الحسن عام الجماعة .

وأراد معاوية أن يستطلع رأى أهل الحجاز فيما هو مقدم عليه ، وبعد أن ضمن له المغيرة الكوفة وتردد زياد طالباً التروى فى الأمر [٥] وتظاهر معاوية بالحج واجتمع فى سنة ٥٠ هـ بتلك الطائفة من أبناء كبار الصحابة باستثناء الحسن والحسين ومحمد بن الحنفية .

وكان عبد الله بن الزبير لسان هذه الطائفة الناطق ، المعارض لما طرحه معاوية [٦] وأرجأ معاوية الأمر إلى أن توفى الحسن بن على [٧] فخلا له

---

(١) العقد الفريد / جـ ٢ / ١١٦
(٢) ابن عساكر / جـ ٧ / ٤٤
(٣) ابن عساكر / جـ ٧ / ٤٤
(٤) The Caliphate, p. 386
(٥) الطبرى / جـ ٦ / ص ١٦٩ — ١٧٠
(٦) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ص ١٢٦
(٧) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ١٢٧

الجو وبادر بأخذ البيعة ليزيد فى الشام وكتب ببيعته إلى الأمصار ثم رغب فى ا لحصول على بيعة أهل الحجاز .

ولم يكد مروان بن الحكم والى معاوية فى المدينة يطلب إلى أهلها البيعة ليزيد حتى ثارت هذه الطائفة فى وجهه ، وعمدت إلى معارضة المشروع والعمل على القضاء عليه فقال له ابن أبى بكر : أتريدون أن تجعلوها هرقلية كلما مات هرقل قام هرقل[١] .

وأبلغ مروان خليفته بالأمر فكان جزاؤه العزل وولى بدله سعيد بن العاص ولم يفت على معاوية أن تهاون مروان إنما كان لأنه نفسه يطمع فى الأمر . ورأى سعيد أن يأخذ الناس بالحزم والشدة حتى لا يكون مصيره كمروان فاستجاب له كثير من الناس مكرهين ولم يستعص عليه غير بنى هاشم .

ويبدو فى كتاب سعيد إلى معاوية أن ابن الزبير هو الذى قاد حركة المعارضة فى المدينة ضد مشروع البيعة ليزيد فقد جاء فيه : وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى هذا [٢] .

وانتهز معاوية موسم الحج ليأخذ بنفسه البيعة من المعارضين ، وقبل أن يبدأ رحلته بعث برسائل إلى أبناء الصحابة وطلب من واليه أن يتولى إرسال ردودهم إليه ، وكان كتاب معاوية إلى ابن الزبير متميزاً عن بقية الكتب إذ كان شعراً خالصاً ، وكأنما أراد أن يبلغ موضع التأثير من نفسه لما يعلمه عنه من فصاحته وبلاغته ، واشتمل الكتاب على تحذير من مغبة المعارضة واللؤم والغش ، وكان رد ابن الزبير شعراً أيضاً ، وأنكر فيه على معاوية ما حذره به ، وزاد فتوعده بأنه سيلقى أسداً فى عرينه [٣] .

---

(١) ابن الأثير / ج ٣ / ص ٢١٦
(٢) الإمامة والسياسة / ج ١ / ص ١٢٩
(٣) الإمامة والسياسة / ج ١ / ص ١٣٠

وعند قدومه إلى المدينة عمد معاوية إلى الشدة مع هؤلاء الرهط من أبناء الصحابة المتأبين عليه وأساء لقاءهم وسبّهم وكان أشد تحاملا على عبد الله ابن الزبير، فاستقبله « بلا مرحباً ولا أهلا خب ضب تلعة يدخل رأسه، ويضرب بذنبه، ويوشك بالله أن يؤخذ بذنبه ، ويدق ظهره»[١]. ورفض أن يستقبلهم فرحلوا عن المدينة إلى مكة وقصد معاوية إلى السيدة عائشة فشكا إليها أبناء الصحابة ولكنها أوصته بأن يعاملهم برفق فوعدها بذلك ، وولى وجهه نحو مكة حيث التقى بهم وأحسن لقاءهم ووصلهم ، ولكن هذه الوسائل جميعاً لم تجد معهم فتيلا وصارحوه برأيهم وتولى ابن الزبير التعبير عن هذا الرأى، فخير معاوية بين ثلاث : أن يصنع كما صنع رسول الله أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر فحسب [٢] حينئذ شمر معاوية عن ساعد الحزم وأمر منادياً بأن ينادى فى الناس ليجتمعوا بالمسجد فتوافدوا وأقام حرسيا على رأس كل رجل من أبناء الصحابة وأوصى صاحب حرسه أن يضرب أى رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب ، وصعد المنبر فأخبر الناس بأن أبناء الصحابة قد رضوا وبايعوا ليزيد ثم طلب البيعة من الناس فبايعوا جميعا ، وقد لام الناس أبناء الصحابة ولكنهم اعتذروا إليهم بأن معاوية كاد لهم وأرغمهم واستطاع معاوية أن يترضى سعيد بن عثمان بن عفان ومروان بن الحكم [٣] .

وطوى ابن الزبير كشحاً على مستكنة وانتظر، فقد كان هذا الذى استحدثه معاوية من البيعة لابنه وهو لا يزال على قيد الحياة أمراً لم يألفه العرب ولن يألفوه بسهولة فقد كان حقًّا ما قاله المغيرة بن شعبة من أنه وضع رجل معاوية فى غرز بعيد الغى على أمة محمد وفتق عليهم فتقاً لا يرتق أبدا ، وعلى الرغم من نجاح معاوية فى أخذ البيعة ليزيد من رءوس الناس فى الحجاز فإنه كان لا يزال يخشى ثلاثة من قريش على ابنه أو فى الحقيقة كان أخشى ما يخشاه منهم هو عبدالله

(١) ابن الأثير / جـ ٣ / ٢١٦ – ٢١٧
(٢) ابن الأثير / جـ ٣ / ص ٢١٧
(٣) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ١٢٨

ابن الزبير فقد كتب فى وصيته ليزيد « يا بنى .. إنى قد كفيتك الشد والترحال ووطأت لك الأمور وذللت لك الأعداء وأخضعت لك رقاب العرب وجمعت لك ما لم يجمعه أحد ، وإننى لست أخاف من قريش إلا ثلاثة : الحسين ابن علىّ ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، فأما ابن عمر فرجل قد وقذه الدين فليس ملتمسا شيئا قبلك ، وأما الحسين بن علىّ فإنه رجل خفيف ، وأرجو أن يكفيكه الله بمن قتل أباه وخذل أخاه وإن له رحما ماسة وحقًّا عظيماً وقرابة من محمد صلى الله عليه وسلم ولا أظن أهل العراق تاركينه حتى يخرجوه فإن قدرت عليه فاصفح عنه ، وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن أمكنته الفرصة وثب فذاك ابن الزبير فإن هو فعلها بك وظفرت به فقطعه إربا إربا[١] .

وبعد أن آل الأمر ليزيد بوفاة معاوية لم يكن ليزيد همة إلا بيعة هؤلاء النفر من أبناء الصحابة[٢] فكتب إلى واليه بالمدينة الوليد بن عقبة بن أبى سفيان كتابين يسيل أولهما لينا وتسامحاً يبلغه فيه بوفاة معاوية ويطلب منه أن يأخذ له البيعة من أهل المدينة ومن أبناء الصحابة خاصة وفيه يقول بعد كلام طيب عن هؤلاء « وليكن أول من يبايعك من قومنا وأهلنا الحسين بن على ، وعبد الله ابن عمر وعبد الله بن عباس وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر وليحلفوا لك على ذلك بجميع الأيمان اللازمة [٣] » أما الكتاب الثانى فعلى خلاف الكتاب الأول عنفاً وشدة ، وربما كان يرمى إلى أن يذيع واليه الكتاب الأول فى الناس على أن يكون الكتاب الثانى مشتملا على ما يريد أن يسره لواليه مما لا يستطيع الجهر به للناس فهو يقول فيه « أما بعد ، فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذاً شديداً ليس فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام [٤] » وأطلع الوليد بن عقبة — الذى ذهل لخبر وفاة معاوية — شيخ بنى أمية فى المدينة

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٣
(٢) الإخبار الطوال / ص ٢٤٠
(٣) الأخبار الطوال / ص ٢٤٠
(٤) الأخبار الطوال / ص ٢٤٠

مروان بن الحكم على الكتابين واستشاره فيما يجب أن يكون فأشار عليه بأن يدعوهم الساعة ويأمرهم بالبيعة فإن فعلوا قبل منهم وكف عنهم وإن أبوا ضرب أعناقهم قبل أن يعلموا بموت معاوية حتى لا يظهروا خلافا[١] .

وبعث الوليد إلى الحسين وابن الزبير يستدعيهما ، واستطاعا أن يتكهنا بما يمكن أن يكون وراء هذه الدعوة واتفقا على أن يذهب الحسين إلى دار الوالى يستطلع الأمر ولكنه خشى أن تكون هناك مكيدة فاصطحب نفراً من بنى هاشم انتظروه بالباب على أن ينجدوه إذا استغاث بهم ، ولما دخل الحسين على الوليد قرأ عليه الكتاب ونعى إليه معاوية ودعاه إلى بيعة يزيد وأجاب الحسين بأن مثله لا يبايع سرًّا ووعده إذا خرج إلى الناس ودعاهم للبيعة أن يدخل فيما دخل فيه الناس[٢] .

وأخلى الوليد سبيل الحسين على الرغم من لوم مروان له على تضييع هذه الفرصة فقد كان فى إمكانه أن يحبسه أو يقتله [٣] ، وكان ابن الزبير عندما جاءه رسول الوليد قد وعد بالحضور إليه ولكنه كمن فى داره متحرزاً بأصحابه وأنصاره فلما كثر عليه الطلب بعث أخاه جعفر بن الزبير إلى الوليد يخبره أن عبد الله استراب من كثرة الطلب والإرسال وتتابع الرجال ورجاه أن يكف عن أخيه فقد أفزعه وأنه سيأتيه غدا [٤] .

وفى نفس المساء خرج عبد الله وأخوه جعفر وتجنبا الطرق المعتادة قاصدين مكة وأخفق رجال الوليد فى تتبعهما ، ثم شغل عنهما بالحسين الذى توالت عليه رسله تستدعيه إلا أنه سرعان ما لحق بابن الزبير ولم يجد الوليد أمامه من أبناء الصحابة غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فبايعا كما بايع سائر الناس[٥]

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٦
(٢) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٦
(٣) البداية والنهاية / جـ ٨ / ص ١٤٧
(٤) الطبرى / جـ ٤ / ص ٢٥٢
(٥) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٧

٢

وفى مكة وجد ابن الزبير أمناً افتقده فى المدينة وفرصة ليكتسب عطف المسلمين وتأييدهم حينما أعلن أنه عائذ بالبيت [١] وخشى عمرو بن سعيد ابن العاص ما حل بسلفه الوليد بن عقبة نتيجة تساهله مع الحسين وابن الزبير فرأى أن يتبع سياسة عنيفة معهما ، ووجد فى عمرو بن الزبير شقيق عبد الله عوناً على ذلك فولاه شرطته وأخذ عمرو بن الزبير يضطهد من كان على هوى أخيه من أهل المدينة وكان ممن نالهم أذاه أخوه المنذر بن الزبير ومحمد ابنه [٢]

ولم يكن هذا ليثنى ابن الزبير عما قرر المضى فيه ، وأخذ يثير على يزيد وواليه حتى منع نائب الوالى فى مكة من أن يصلى بالناس [٣] وكان نتيجة ذلك أن غضب يزيد وأقسم ألا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير إلا إذا أتى إليه « وفى عنقه جامعة من فضة » ، وأراد عمرو بن سعيد أن ينال الحظوة عند يزيد بأن يقبض على ابن الزبير ويرسله إلى دمشق على الصورة التى أرادها يزيد ، وأصر عمرو بن الزبير على أن يقاتله فى جوف الكعبة على رغم أنف من رغم ، وقد حاول أبو شريح الخزاعى أن يمنع غزو ابن الزبير فى مكة التى أذن للنبى صلى الله عليه وسلم بالقتال فيها ساعة من نهار ثم عادت كحرمتها بالأمس فقال له عمرو نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ [٤] .

ومضى عمرو بن الزبير فى مقدمة ألفى رجل قاصداً أخاه فى مكة غير عابئ بحرمة البيت الحرام أو بعاطفة الأخوة وسبقه إلى أخيه كتاب منه يقول « بر بيمين الخليفة واجعل فى عنقك جامعة من فضة لا ترى ولا يضرب الناس بعضهم

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٧
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٨
(٣) البداية والنهاية / ج ٨ / ص ١٤٩
(٤) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٨

بعضاً واتق الله فإنك فى بلد حرام[١] » .

ولكن عبد الله لم يصغ إلى شىء من ذلك ونجح هو وأنصاره فى هزيمة جيش عمرو وقبض على أخيه وأودع السجن ، ولكن ابن الزبير على الرغم من هذا الانتصار الذى طير اسمه فى الحجاز وجمع إليه الساخطين على يزيد لم يكن ليغفل حقيقة هامة وهى وجود منافس خطير له هو الحسين بن علىّ الذى يزيد عنه فى الاستحواذ على قلوب الناس . يقول ابن كثير « انتصر ابن الزبير على من أراد هلاكه من الزيديين ، وضرب أخاه عمراً وسجنه واقتص منه وأهانه وعظم شأن ابن الزبير عند ذلك ببلاد الحجاز فاشتهر أمره وبعد صيته ، ومع هذا كله ليس هو معظما عند الناس مثل الحسين بل الناس إنما ميلهم إلى الحسين لأنه السيد الكبير وابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس على وجه الأرض يومئذ أحد يساميه ولا يساويه[٢] . وقد واتت ابن الزبير الفرصة عندما استخرج أهل الكوفة الحسين وخذلوه وقتله أعوان ابن زياد فى كربلاء ، فأفاد عبد الله من السخط الذى شمل المسلمين وأثار مشاعرهم بعد هذه الفاجعة فأخذ يغذى هذا السخط بخطبه وأحاديثه التى تنعى على يزيد الغدر بالحسين وتعرّض بلهوه وفسقه ، من مثل قوله فى هذا الصدد عن أهل العراق : إنهم دعوا الحسين لينصروه ويولوه عليهم فلما قدم عليهم ساروا إليه وقالوا له : « إما أن تضع يدك فى أيدينا فنبعث بك إلى ابن زياد .. ابن سمية سلما فيمضى فيك حكمه ، وإما أن تحارب فرأى والله إنه هو وأصحابه قليل فى كثير ، وإن كان الله عز وجل لم يطلع على الغيب أحداً أنه مقتول ، ولكنه اختار الميتة الكريمة على الحياة الذميمة ، فرحم الله حسيناً ، وأخزى قاتل حسين لعمرى لقد كان من خلافهم إياه وعصيانهم ما كان فى مثله واعظ وناه عنه ، ولكنه ما حمّ نازل ، وإذا أراد الله أمراً لن يدفع ، أفبعد الحسين نطمئن إلى هؤلاء القوم ونصدق قولهم ونقبل لهم عهدا ؟ لا والله نراهم لذلك أهلا ، أما والله لقد قتلوه ،

---

(١) نفس الموضع

(٢) البداية والنهاية / جـ ٨ / ص ١٥٠

طويلا بالليل قيامه ، كثيراً فى النهار صيامه ، أحق بما هم فيه منهم وأولى به فى الدين والفضل ، أما والله ما كان يبدل بالقرآن الغناء ، ولا بالبكاء من خشية الله الحداء ولا بالصيام شرب الحرام ، ولا بالمجلس فى حلق الذكر الركض فى تطلاب الصيد ، فسوف يلقون غيًّا »(١) .

ولكن ابن الزبير تمهل على الرغم من كل ذلك إذ كان عمرو بن سعيد يومئذ عامل مكة وكان أشد شيء عليه (٢) ورأى مروان بن الحكم ما فى إصرار يزيد على إرسال جامعة إلى ابن الزبير من سخف ، فردها بعد أن صرف ابن الزبير عامل البريد برفق . وعوّل ابن الزبير على أن يحظى ببيعة أبناء الصحابة وبخاصة ابن عمر ، وابن عباس ولم يستطع ابن عمر أن يتحلل من بيعته ليزيد على الرغم من محاولات ابن الزبير معه ومع زوجه ، فقد قال ابن عمر لزوجه وهى تحثه على مناصرة ابن الزبير « إنما خرج طمعا فى الدنيا وحدها » (٣) وكذلك أبى عليه ابن عباس مما أثلج صدر يزيد فأرسل يشكر ابن عباس ويستعينه على ابن الزبير ، ولكن ابن عباس رد عليه بأنه لم يفعل هذا من أجله ولا انتظاراً لحمده ووده وهو الذى قتل الحسين بن على (٤) ، ولم يرد يزيد غير أن يعزل عمرو بن سعيد بدسيسة من الوليد بن عقبة بحجة تهاونه مع ابن الزبير ، واستعاد الوليد مرة أخر وبلغ عمرو بن سعيد الشام ليدفع عن نفسه ويبسط الأمر ليزيد محتجًّا باتساع خطر ابن الزبير ، وأن أهل الحجاز مائلون إليه راضون عنه ولم يكن لديه من الجند ما يواجهه به فآثر ملاينته انتهازاً لفرصة يثب فيها به .

وأراد الوليد أن يبزّ سلفه وأن يثبت بعد همته ووقف ابن الزبير على حماسته ووقع الوليد بين نارين نار ابن الزبير فى مكة ونار نجدة بن عامر الحنفى فى اليمامة

---

(١) الطبرى / ج ٦ / ص ٢٧٣
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٤٣
(٣) الأغانى / ج ١ / ص ١٣
(٤) تاريخ اليعقوبى / ج ٢ / ص ٢٢١

وهو وإن لم ينضو تحت لواء ابن الزبير فإنه لم يخالفه[١] .

ورأى ابن الزبير أن يمكر بيزيد وبالوليد فأرسل إلى الخليفة « إنك بعثت إلينا رجلا أخرق لا يتجه لأمر رشد ، ولا يرعوى لعظة الحكيم ، ولو بعثت إلينا رجلا سهل الخلق لين الكتف رجوت أن يسهل من الأمور ما وعر منها » . فسرعان ما عزل الوليد وولى يزيد بدلا منه عثمان بن محمد بن أبى سفيان . وهو فتى غر حدث لم يجرب الأمور ولم يحنكه السن ولا يكاد ينظر فى شيء من سلطانه وأعماله [٢] وبدأ الوالى الجديد بأن أرسل وفداً من أشراف الأنصار والمهاجرة إلى الخليفة بدمشق ظنًّا منه أنهم يعودون بعد أن يكرم يزيد وفادتهم فيكونون ألسنة داعية ليزيد ومناهضة لابن الزبير ، وعلى الرغم من مبالغة يزيد فى إكرامهم فقد عادوا يشهِّرون به وبفسقه ومجونه وملاعبة الكلاب ومسامرة الخرّاب وزادوا بأن أشهدوا الناس على أنهم خلعوه [٣] .

وأيضاً لم تجد سفارة النعمان بن بشير إلى المدينة إذ أصمّ أهلها آذانهم عن دعاته فعاد إلى دمشق مخفقاً ولم تجد كذلك رسائل يزيد التى كتب بها إلى واليه وأمره أن يقرأها على الناس وكان منها رسالة وعيد تنتهى بهذه الكلمات : « فوالله لئن وضعتكم تحت قدمىّ لأطأنّكم وطأة أقيل بها عدوكم وأترككم أحاديث تنسخ أخباركم مع أخبار عاد وثمود » ولم يكد أهل المدينة يسمعون هذا التّهديد حتّى انهالوا على الوالى والخليفة معاً سبًّا مقذعاً ، فصاروا يخلعون عمائمهم ويخلعون معها يزيد حتّى استفحل الأمر وثاروا بالوالى وطردوه ، واتسعت ثورة الغضب فشملت بنى أمية - بيعاً فى المدينة وكان عددهم ألف رجل لاذوا بمروان بن الحكم الذى بعث يستنجد بالخليفة ، ولكن أهل المدينة صمّموا بإزاء ذلك على طرد بنى أمية من بلدهم ، فخرجوا بعد أن أخذوا عليهم المواثيق بألا يدلوا على عوراتهم وخرج وراءهم الصبيان والسفهاء يحصبونهم بالحجارة .

وقرأ يزيد رسالة مروان بن الحكم فسخر من بنى أمية الذين لم يقاوموا ،

---

(١) البداية والنهاية / جـ ٨ / ص ٢١٥

(٢) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٤٤

(٣) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٤٥

وأنفذ جيشاً من اثنى عشر ألفاً من كلب بقيادة مسلم بن عقبة المرّى بعد أن رفض عمرو بن سعيد القيام بهذه المهمة[١] وكذلك رفضها ابن زياد[٢] . والتقى مسلم ببنى أمية فى الطريق عند وادى القرى وتحلل عبد الملك بن مروان من الميثاق الذى أعطاه أبوه لأهل المدينة ودل مسلما على عورات أهل المدينة ونصحه ووضعا معا خطة لاقتحام المدينة ، وقدم مسلم إلى المدينة فأمهل أهلها ثلاثة أيام ثم سألهم عما عزموا عليه فأعلنوا إصرارهم على القتال ، وكانوا قد خندقوا واستعدوا وأبدى أهل الشام تحرجاً فى قتال إخوانهم من المسلمين ولكن مسلما أثارهم وتمكن من أن ينزل الهزيمة بأهل المدينة ولم يكتف بذلك وإنما أباح المدينة ثلاثة أيام أنزل فيها بهم من أعمال العنف والقسوة والتنكيل والنهب والإحراق والاعتداء ما لقب من أجله بالمسرف[٣] .

وفقدت المدينة فى هذه الوقعة ثمانين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه حتى لم يبق بها بدرى ، كما فقدت سبعمائة من قريش والأنصار وعشرة آلاف من سائر الناس ، ثم دعا مسلم الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم وأهليهم كيف شاء فمن امتنع عن ذلك قتله[٤] ثم استخلف مسلم على المدينة روح بن زنباع الجذامى ومضى إلى مكة ليلقى ابن الزبير وكان مسلم رجلا مسنًّا مريضاً فشعر فى الطريق بدنو أجله وفكر فى أن يعهد بأمر الجيش إلى أحد أمرائه فدعا إليه الحصين بن نمير وكلفه بالأمر من بعده .

وتجهز ابن الزبير وتحصن فى الكعبة وأحكم الدفاع عن مكة وشمل السخط المسلمين جميعاً بعد وقعة الحرة مما حدا بجماعات متباينة من المسلمين إلى أن تقرر الذود عن الكعبة جنباً إلى جنب مع ابن الزبير ، فقدم الناجون من أهل

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ٤٨
(٢) الفخرى / ص ١٠١
(٣) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ٥٥
(٤) الطبرى / جـ ٧ / ص ٥ - ١٢

المدينة وكثير من الخوارج وبعض الشيعة بقيادة المختار بن عبيد الثقفى ، وكذلك أرسل النجاشى جماعة من الحبش للدفع عن الكعبة وأعان ابن الزبير بهم ، فضمهم عبد الله إلى أخيه مصعب فكانوا يقاتلون معه واستمر القتال أياما من المحرم وشهر صفر كله إلى أن مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤ ه فرمى الحصين بن نمير بيت الله الحرام بالمجانيق وحرّقه أهل الشام بالنار (١) .

وكان عبد الله بن عمير الليثى قاضى ابن الزبير يصعد عندما يتوقف القتال فوق الكعبة فينادى بأعلى صوته : « يا أهل الشام هذا حرم الله الذى كان مأمناً فى الجاهلية يأمن فيه الطير والصيد فاتقوا الله يا أهل الشام » فيصيح جند الشام : الطاعة الطاعة الكرّة الكرّة الرواح قبل المساء ، وما لبثت أن اشتعلت النيران فى الكعبة (٢) .

وفى الرابع عشر من ربيع الأول توفى يزيد بن معاوية وقد علم عبد الله ابن الزبير بالنبأ قبل أن يعلم به الجيش الأموى فناداهم : « علام تقاتلون وقد هلك طاغيتكم » ولم يصدقه الحصين حتّى أتاه نعى يزيد فاتفق مع ابن الزبير على عقد مؤتمر فى الأبطح . والتقى ابن الزبير والحصين وكل منهما على صهوة جواده فراث فرس الحصين وجاء حمام الحرم يلتقط من روث الفرس فكف الحصين فرسه عن الحمام قائلا : أخاف أن يقتل فرسى حمام الحرم فقال ابن الزبير : تتحرجون من هذا وأنتم تقتلون المسلمين فى الحرم ؟ وبدأت المفاوضات فعرض الحصين على ابن الزبير الخلافة على أن يخرج معه إلى دمشق حيث يتولاها هناك ولكنه أبى (٣) .

وقد عاب كثير من المؤرخين على ابن الزبير إباءه ظانين أنه لو خرج إلى الشام ما اختلف عليه أحد ، ولكن الحقيقة أن ابن الزبير لم يكن لينال شيئاً فى الشام ، ولم يكن بنو أمية هناك ليدعوه ينتزع من أيديهم السلطان ،

---

(١) الطبرى / ج ٧ / ص ١٠٢
(٢) اليعقوبى / ج ٢ / ص ٢٢٤
(٣) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٥٥

ولم يكن ابن الزبير ليأمن غدر هؤلاء الذين أحرقوا بيت الله وقتلوا الآمنين وأفزعوهم فضلا عن أنه كان يغفل عاملا له خطره وهو السبب فى ازورار القرشيين عن علىّ بن أبى طالب عندما نقل عاصمة الدولة من الحجاز إلى الكوفة ، بل إن كثيراً من المؤرخين يذهبون إلى أن ثورة الحجاز لعهد ابن الزبير لم تكن إلا من أجل استعادة العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من السيادة [١] .

وخلف يزيد معاوية ابنه ولم يتجاوز الثامنة عشرة وكان شاباً زاهداً صالحاً يرى أن جده معاوية سلب حق علىّ بن أبى طالب ، وأن أباه لم يكن كفئاً لما تولى من أمر المسلمين ، وقد صرح بذلك من فوق منبر دمشق فقال : «أيها الناس إن جدى معاوية نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق منه بقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو علىّ بن أبى طالب وركب بكم ما تعلمون حتى أتت منيته فصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بخطاياه، ثم قلد أبى الأمر فكان غير أهل لذلك وركب هواه وأحلفه الأمل وقصر عنه الأجل وصار فى قبره رهيناً بذنوبه وأسيراً بجرمه» وبكى واستعبر حتى سالت دموعه على خديه وقال « وإن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء مصرعه ويأس منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأباح المحرم وضرب الكعبة وما أنا بالمتقلد ، ولا بالمتحمل تبعاتكم ، فشأنكم وأمركم ، والله لئن كانت الدنيا خيراً فلقد نلنا منها حظاً ، ولئن كانت شراً فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا منها » ورفض أن يولى أخاه خالداً أو يعهد إلى أحد ولزم بيته فمات بعد أيام [٢] .

وكان هذا معينا لابن الزبير على ألا يلقى معارضة تذكر من غير الأمويين ، وقد أشعر معاوية بن يزيد بنى أمية بحرج موقفهم فخشوا أن ينتهز ابن الزبير الفرصة لتحقيق أغراضه وألحوا على معاوية بن يزيد فى الأيام التى سبقت وفاته أن يعهد لكنه أبى ذلك فغضبوا عليه ، ويرى بعض المؤرخين أن معاوية

---

(١) فلهوزن / تاريخ الدولة العربية / ص ١٦٠

(٢) النجوم الزاهرة / جـ ١ / ص ١٦٤

قد لا يكون مات ميتة طبيعية لهذا السبب [١] .

وانشق الأمويون على أنفسهم واتسع نطاق الدعوة لابن الزبير فى الحجاز والعراق واليمن ومصر كما انضم إليه فريق من أهل الشام وأهل مكة والمدينة جميعاً ما عدا عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية فقد كانا يريان أن بنى هاشم أحق منه بالخلافة كما دخل أهل الكوفة فى طاعته ، وكان أهل البصرة قد أعطوا عبيد الله بن زياد بيعة مؤقتة فقام بسلطات نائب الخليفة بعد موت يزيد [٢] فرأوا مبايعة ابن الزبير خلاصاً من بنى أمية فسحوا بأيديهم فى حيطان المسجد بعد أن أجابوا رسول ابن الزبير إلى ما طلب قائلين : أيظن ابن مرجانة أننا ننقاد له فى الجماعة والفرقة [٣] .

وبدأ أهل البصرة يستهينون به ويحصبونه على المنبر ويسبونه [٤] ولم يكن يجمعهم على طاعته آنذاك إلا الخوف من خطر الخوارج [٥] ولكنهم لم يجدوا مناصا من طرده فهرب ناجيا بحياته إلى الشام [٦] على أن خروجه لم يقض على المتاعب إذ اشتعلت نيران العصبية بين مضر واليمن حتى اتفقوا على اختيار عبد الله بن الحارث ولكن الأمر لم يهدأ ، ففى خلال ستة أشهر أقاموا عليهم أربعة أمراء ولم تجد البصرة خلاصاً من كل هذا الاضطراب إلا فى أن تجيب سلمة بن حنظلة إلى مبايعة ابن الزبير [٧] وكتبوا إليه بهذا وسألوه أن يوجه إليهم رجلا من قبله يتولى أمور البصرة ويتصدى للخوارج ووقع اتفاقهم على المهلب ، ولكن سيطرة ابن الزبير لم تستقر فى البصرة إلا عندما بعث بأخيه مصعب والياً عليها . وأرسل ابن الزبير إلى الكوفة رجلا يدعو باسمه فما كاد يفد إليها حتى

---

(١) البداية والنهاية / ج ٨ / ص ٣٣٧
(٢) الأخبار الطوال / ص ٢٧٩
(٣) ابن الأثير / ج ٤ / ص ٥٦
(٤) الإمامة والسياسة / ج ٢ / ص ١٩
(٥) الأخبار الطوال / ص ٢٧٩
(٦) الطبرى / ج ٧ / ص ٢١
(٧) الطبرى / ج ٧ / ص ٢٣

وضع فى السجن، ولكن الكوفيين ما لبثوا أن ضاقوا بعمرو بن سعد بن أبى وقاص الذى ألهب بكاء النساء المشاعر ضده فعزلوه وقام خطيبهم ليعلن : « ألا حاجة لنا من بنى أمية ولا من ابن مرجانة ، إنما البيعة لأهل الحجاز » (١) واختاروا عامر بن مسعود وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره وظل والياً على الكوفة حتى عزله وولى مكانه عبد الله بن يزيد .

وكذلك فعل المصريون فسارعوا إلى بيعة ابن الزبير وكان أسرعهم إلى ذلك من يدينون بمبدأ الخوارج (٢) وبعث إليهم ابن الزبير عبد الرحمن بن عتبة ابن جحدم الفهرى ورحل معه إلى مصر بعض الخوارج الذين عاونوا ابن الزبير فى الدفاع عن الكعبة فأظهروا الدعوة له ودعوا إلى بيعته فتابعهم الناس وأصبحت مصر منذ ذلك الحين ولاية تابعة لابن الزبير (٣) .

وكذلك بايع الشام كله لابن الزبير ما عدا الأردن واستخلف ابن الزبير على أهل الشام الضحاك بن قيس الفهرى (٤) ، وبايع النعمان بن بشير لابن الزبير ، وكذلك بايع ناتل بن قيس الجذامى له فى فلسطين بعد أن أخرج منها روح بن زنباع الجذامى ، وأعلنت بلاد اليمن وخراسان والجزيرة طاعتها لابن الزبير (٥) .

وأرضى ابن الزبير مشاعر أهل المدينة فطرد عنها بنى أمية وأولادهم ونساءهم فرحلوا إلى الشام وكان على رأسهم شيخهم مروان بن الحكم ، وقد أخطأ ابن الزبير فى هذا التصرف ولم يكن يعلم أنه إنما يطلق بيده أخطر ما سيتهدده فى المستقبل القريب إذ أخذ بنو أمية المطرودون من المدينة يدفعون بمروان وينفخون فيه ليصير قادراً على منافسة ابن الزبير .

---

(١) مروج الذهب / ج ٣ / ٣١

(٢) الولاة والقضاة / ص ٤٠

(٣) النجوم الزاهرة / ج ١ / ص ١٦٥

(٤) العقد الفريد / ج ٣ / ص ١٤٥

(٥) البداية والنهاية / ج ٨ / ص ٢٣٩

وأوشك ابن الزبير أن يبسط سلطانه على الأمصار الإسلامية كلها حتى ليقال إن مروان بن الحكم نتيجة لذلك هم بأن يبايعه لولا أن منعه عبيد الله ابن زياد (١) وقد رأى ابن الزبير أن يعتمد على قيس ما دامت كلب هي التى تقود المعارضة ضد نفوذه فى الشام ، وكان ابن الزبير يعلم مدى ما بين قيس وكلب من العصبية التى أثمرها تقريب معاوية وابنه لكلب مما أثار حفيظة قيس وأحقادها ، وقد كان الرجل الذى عهد إليه ابن الزبير بتلقى بيعته فى الشام من سادة قيس وهو الضحاك الفهرى يطمع فى الأمر لنفسه فآثر أن يتخذ من الدعوة لابن الزبير سلما يرقى به إلى السلطان ، وقد نجح الضحاك فى بسط نفوذ ابن الزبير على الشام كله ما عدا الأردن ، فقد كان الإقليم الوحيد بالشام الذى أخلص لبنى أمية فلم يبايع للزبير ، ذلك أن حسان بن مالك بن بحدل الكلبي خال يزيد من معاوية، وكان عاملا لمعاوية ثم ليزيد، قاد حركة المعارضة ضد الزبير من هناك وسار إلى الأردن مستخلفاً على فلسطين روح بن زنباع الجذامى حيث طرده منها ناتل بن قيس وبايع لابن الزبير وكذلك وثبت قيس بابنه سعيد بن حسان فى قنسرين فطردته منها برئاسة زفر بن الحارث الكلابى(٢) وكان زفر زبيرى الهوى فتبعته قيس هناك فى ولائه للزبيريين . وقد راح حسان يدعو أهل الأردن إلى طاعة بنى أمية ونبذ طاعة ابن الزبير وبايعه أهل الأردن على شروط هى أن يجنبهم هذين الغلامين ابنى يزيد عبد الله وخالدا لأنهم كرهوا أن يأتيهم الناس بشيخ وأن يأتوهم بصبى (٣) .

وهكذا انقسم أهل الشام فيما بينهم ، فريق يؤيد ابن الزبير ، وفريق استمر على ولائه للدولة الأموية ، واتسعت شقة الخلاف حتى تضارب الناس فى المسجد فبينما تدعو قيس لابن الزبير ونصرة الضحاك كانت كلب تدعو إلى بنى أمية على خلاف بينهم ، فقوم يدعون لمروان وآخرون لخالد بن يزيد ، وأدركهم

---

(١) الطبرى / جـ ٧ ص ٣٤ ، العقد الفريد / جـ ٣ / ص ١٤٥

(٢) الأغانى / جـ ١٧ / ص ١١١

(٣) ابن الأثير / جـ ٤ / ٦١ – ٦٢

الحصين بن نمير عائداً من غزو الكعبة فحذرهم وأنذرهم ونصحهم بأن يقيموا أميرهم قبل أن يختلط عليهم أمرهم فتكون فتنة عمياء صماء [١] .

وعقد الأمويون مؤتمراً فى الجابية يتداولون فيه الموقف ليختاروا من يولونه الخلافة الأموية ، حتى يقاوم ابن الزبير ، وفى المؤتمر الذى عقد فى ذى القعدة من سنة ٦٤ هـ ، انتهى خلاف الأمويين باقتناع حسان بن بحدل الوصى على أبناء يزيد بمبايعة مروان بن الحكم على أن تكون الخلافة من بعده لخالد ابن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص واجتمع الناس على ذلك وخرج مروان ابن الحكم إلى مرج راهط ومعه كلب . وكان الضحاك آنذاك قد أخذ يدعو لنفسه فقضى على مكانته فى قلوب أنصاره . وعنّ للضحاك أن يشترك فى مؤتمر الجابية عسى أن يكون له من الأمر شىء فأرسل إلى بنى أمية يعتذر عما بدر منه آنفاً ثم رحل إلى الجابية [٢] .

وأثناء ذلك هجم يزيد بن أبى النمس الغسانى على دمشق فأخرج عامل الضحاك عنها ، وأخذ بيت المال وأمد به مروان وجهز الرجال ونشبت الموقعة فى مرج راهط بين القيسيين والكلبيين واستمر القتال عشرين يوما وانتهى بهزيمة قيس وقتل الضحاك بن قيس ومعه كثير من أشراف قبيلته [٣] .

وعلى الرغم من انتهاء مرج راهط بنصر الأمويين فإنها فى الوقت نفسه كانت عاملا من عوامل زعزعة ملكهم ، فإن قيسا لم تكن لتسكت ، وكان لا بد لها أن تثأر لقتلاها ، وكانت نتيجة مرج راهط المباشرة أن خلاص الشام لمروان ابن الحكم وفقد الزبير كل نفوذ له فيه ، وقتل النعمان بن بشير عامله على حمص واسترد الأمويون المدينة وهرب زفر بن الحارث الكلابى من قنسرين كما هرب ناتل بن قيس من فلسطين ، ولكن قبائل قيس ثبتت على ضفاف الفرات على عنادها برئاسة زفر بن الحارث وعاد الموقف شبيها بما كان عليه بعد مقتل عثمان إذ وقفت الشام وحدها أمام جميع الأمصار الإسلامية بل إن الموقف كان أسوأ

---

(١) ابن الأثير / ج ٢٤ / ٦١

(٢) الإمامة والسياسة / ج ٢ / ص ١١

(٣) الطبرى / ج ٧ ص ٣٤ — ٣٩

مما كان ، فلم يكن لمروان ثقة معاوية ولا حنكته .

وأخذ مروان يعد العدة لانتزاع هذه الأقاليم ، فجرد جيشاً بقيادته لطرد عبد الرحمن بن جحدم والى ابن الزبير فى مصر وسار ابنه عبد العزيز أمامه فى جيش إلى العقبة ، وآزر المصريون ابن جحدم فى حفر خندق حول الفسطاط فى شهر واحد ، ونزل مروان فى عين شمس واضطر ابن جحدم للخروج إليه فتحاربا فترة ثم رأيا أن يتهادنا حقناً للدماء واصطلحا على أن يقر مروان بن جحدم على ولاية مصر ، ودخل مروان الفسطاط فى غرة جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ ، وسرعان ما تحرر مروان من عهده لابن جحدم فعزله وفتح خزائنه وأعطى الناس فسارعوا إلى بيعته ، ولكن بعض المصريين تمسكوا بولائهم لابن الزبير ورفضوا مبايعة مروان فأقدم مروان على ضرب أعناقهم وكانوا ثمانين رجلا ، وقتل الأكدر بن حمام بن عامر بن صعب سيد لخم فسار زهاء ثلاثين ألفا من اللخميين مدججين بالسلاح حتى وقفوا بباب مروان ثائرين ، لولا أن توسط بعضهم فى الصلح وانصرف الثائرون ، وتصادف أن توفى فى ذلك اليوم الذى قتل فيه الأكدر عبد الله بن عمرو بن العاص فلم يستطع الناس أن يخرجوا به لتألب الجند على مروان فدفن فى داره[1] .

وأمضى مروان بمصر شهرين ثم غادرها فى رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية إلى الحكم الأموى ، وولى عليها ابنه عبد العزيز وزوده بالنصائح الهامة ثم قفل راجعاً إلى الشام[2] .

وعند عودته إلى الشام علم بخبر إرسال ابن الزبير بأخيه مصعب على رأس جيش إلى فلسطين ليحافظ على النفوذ بها ، فوجه مروان إليه جيشاً بقيادة عمرو بن سعيد بن العاص أعاده على أعقابه[3] .

وكأنما أراد مروان أن يتخلص من عمرو بن سعيد فعهد إليه بهذه المهمة ،

---

(١) الولاة والقضاة : ص ٤٥ – ٤٦

(٢) مصر فى عهد الولاة : ص ٨٠

(٣) ابن الأثير : جـ ٤ ص ٦٥

ولكنه عاد منها ظافرا ، ويلاحظ نفس الأمر بالنسبة لعبيد الله بن زياد إذ وجهه مروان إثر عودته إلى الشام على رأس جيش إلى العراق الذى كان قد مزقه النزاع بين الأحزاب والعصبية على أن تكون له المناطق التى يفتحها ، وأمره بأن يقصد فى طريقه العراق أرض الجزيرة حيث زفر بن الحارث والقيسيون فى قرقيسيا[١] .

كما أرسل بجيش آخر إلى الحجاز ، وفى طريق ابن زياد إلى قرقيسيا علم بوفاة مروان وتولية عبد الملك الخلافة الأموية ، وبعث عبد الملك إلى ابن زياد يقره على ما ولاه عليه أبوه ، واضطر عبيد الله أن يشتغل بقتال زفر بن الحارث ومن معه من قيس نحوا من سنة . وكان التوابون أثناء ذلك بزعامة سليمان بن صرد قد خرجوا وعبيد الله لا يزال عند جسر منبج على الفرات ، فسار إليهم الحصين ابن نمير فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ حيث حدثت مقتلة الشيعة فى عين الوردة .

وبعد أن أتم ابن زياد الصلح مع قيس سار إلى العراق من طريق الموصل ، وفى أثناء ذلك وثب المختار الثقفى بالكوفة بعد أن قاد فلول التوابين معلنا أنه سيثأر لمقتل الحسين من ابن زياد . وهزم ابن زياد جيشاً أرسله إليه المختار بعد قتال عنيف فى العاشر والحادى عشر من ذى الحجة سنة ٦٦ هـ ، ولكن ابن زياد لم يلبث أن انهزم أمام جيش ثان للشيعة بقيادة إبراهيم بن مالك الأشتر فى موقعة خازر مستهل سنة ٦٧ هـ . وقتل عبيد الله والحصين بن نمير وثأر المختار فى هذا اليوم لقتل الحسين كما استطاعت قيس أن تثأر من عبيد الله عندما انهزم عمير بن الحباب والقيسيون من خلفه منضمين إلى جيش إبراهيم بن الأشتر[٢] .

وهكذا كفى المختار الثقفى ابن الزبير مئونة لقاء الجيش الأموى ، ولم يكن عبد الملك يستطيع استئناف مهمة إخضاع العراق قبل مضى وقت طويل لاشتغاله بمشكلات فى الداخل منها توثب ناتل بن قيس بفلسطين من قبل

---

(١) البداية والنهاية : ج ٨ ص ٢٦٠

(٢) تاريخ الدولة العربية : ص ١٨٢

ابن الزبير ، وخرق الروم للهدنة والقحط الذى حل بأرض الشام ، فضلا عن رغبة عبد الملك فى ألا يزعج أهل العراق بأكثر من ذلك وأن يترك عدويه هناك يقتتلان .

وكان امتناع ابن الحنفية وابن عباس عن البيعة لابن الزبير سبباً فى هجوم ابن الزبير على بنى هاشم وإبعاد ابن الحنفية إلى رضوى وابن عباس إلى الطائف حيث توفى بها سنة ٦٨ هـ .

ومرّ أن ابن الزبير آزر حركة التوابين نكاية فى بنى أمية فلم يتعرض واليه على الكوفة لقمعها وسالمها وأبدى استعداده لمحالفتها [١] ، ولكن عامل خراجه إبراهيم بن محمد بن طلحة أثار أهل الكوفة من حيث لا يدري وأفقد ابن الزبير ولاءهم ، ومهدت أخطاء إبراهيم للمختار أن يدعم قوته وأن يثب بالكوفة وأن يطرد منها عبد الله بن مطيع عامل ابن الزبير وأصبح المختار خطراً يتهدد نفوذ الزبيريين فى العراق وتفوق نشاط الحركة المختارية هناك على حركة الزبيريين إذ أغدق المختار على أهل العراق واستمال عمال ابن الزبير بالرشى ، كما حقق لشيعة أهل العراق ما وعد به من الثأر للحسين ، وأنصف الموالى وتقرب إلى الأشراف ، بينما كان ابن الزبير شحيحاً حذراً لم يتمتع بلباقة المختار فأضر بابن الحنفية وآذاه وسجنه فأتاح الفرصة للمختار أن يبدو نصيراً لآل هاشم ، ولقد بلغ المختار أوج انتصاره بعد وقعة خازر سنة ٦٧ هـ ولكن هذا الانتصار وإن سر ابن الزبير لأنه كسر حدة بنى أمية إلا أنه ألقى عليه عبئاً ثقيلا بضرورة مواجهة خطر المختار المتفاقم فى العراق وأصبح الصدام معه قدراً محتوماً ، ورأى ابن الزبير أن يبعث قائداً كفئاً لمواجهة المختار فعزل الحارث بن أبي ربيعة عن البصرة وبعث بأخيه مصعب بن الزبير والياً عليها ، وقدم مصعب إلى البصرة فاتجه إلى مسجدها وخطب خطبته الشهيرة التى لم يستخدم فيها غير آيات القرآن الكريم إلى ختامها حيث لقب نفسه فيها بالجزار [٢] .

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ٥٤ ، وابن الأثير : جـ ٤ ص ٦٩

(٢) ابن الأثير : جـ ٤ ص ١١٢

وكان مسعد المصعب أن وقع الخلاف بين المختار وأشراف الكوفة فقدموا إليه يشكون المختار ويستنكرون سياسته ويطلبون قتاله ، وقاد مصعب جيشاً كبيراً بمعاونة المهلب ابن أبى صفرة ، واتجه إلى الكوفة حيث خاض معركة عنيفة عند حروراء مع قائد المختار أحمد بن شميط الذى قتل وانهزم جيشه بعد أن دس مصعب إليه عبد الرحمن بن مخنف ليثبط الناس فى الكوفة عن مؤازرة المختار[١] .

وفر المختار حيث اعتصم بالقصر فحاصره مصعب وقتله ونكل بأنصاره تنكيلا شديداً أثار مشاعر أهل العراق واستحق به لوم ابن عمر [٢] ، وانتهى الصراع بين ابن الزبير والمختار ليبدأ صراع جديد مع عبد الملك بن مروان الذى تأكد له أن ابن الزبير قد خرج منهوكا من حرب المختار فى الكوفة وأن الأزارقة قد أفقدوه كثيراً من قواه فى البصرة ، وكان عبد الملك قد تمكن من الخلاص من مشاكله فى ذلك الوقت ، ولكن عبد الله بن الزبير أخطأ عندما صرف أخاه مصعباً عن ولاية العراق سنة ٦٧ هـ وولى بعده ابنه حمزة الذى يقول عنه ابن الأثير : « إنه كان جواداً مخلطاً يجود أحياناً حتى لا يدع شيئاً يملكه ، ويمنع أحياناً مالا يمنع مثله وظهر منه بالبصرة خفة وضعف[٣] » .

ولم يكن ابن الزبير مدفوعاً فى عزل أخيه بخوف من الافتتان به أو استرابة فى إخلاصه إذ كان رجلا قديراً بشهادة أهل العراق ، ولكنه انتهز فرصة ما تحدث به الناس من زواجه وإسرافه فى هذا الزواج ليباهى بابنه بنى مروان مدفوعاً بعاطفة الأبوة ولكن ابنه نكس على حد قوله[٤] .

ولما أيقن عبد الله من خرق ابنه ونكسه عزله وأعاد مصعباً مرة أخرى ، ولكن ابن الزبير كان قد خسر كثيراً خلال هذه الفترة القصيرة التى عُزل فيها مصعب ، وقد شغل عبد الملك قليلا عن انتزاع العراق من ابن الزبير فلم يكد

---

(١) الطبرى : جـ ٧ ص ١١٦ ، ابن الأثير : جـ ٤ ص ١١٢
(٢) ابن الأثير : جـ ٤ ص ١١٧
(٣) ابن الأثير : جـ ٤ ص ١١٧
(٤) ابن الأثير : جـ ٤ ص ١١٧

يخرج لهذا الغرض ويعسكر فى بطنان حبيب من أعمال قنسرين سنة ٦٩–٧٠ ﻫ حتى ثار به عمرو بن سعيد فاضطر إلى الرجوع حتى لا يكون مهدداً من خلفه ، وكان عمرو قد خرج ساخطاً على نقض مروان لمواثيقه فى مؤتمر الجابية ، ولكن بنى مروان تدخلوا فى الأمر واتفقوا على أن يشرك عبد الملك عمرا فى أمره على أن تكون له الخلافة من بعده، ورضخ عبد الملك مضطرًّا ريثما ظفر به فقبض عليه وقتله وألقى برأسه إلى رفاقه المنتظرين وفى أثرهما حفنات من الدنانير [١] .

وكان ابن الزبير ينزل باجميرا عند تكريت ، وبعد أن فرغ عبد الملك من عمرو بن سعيد خرج فى العام التالى إلى بطنان حيث دبر ثورة كلب وربيعة التى ثارت بابن الزبير بزعامة خالد بن عبد الله بن أسيد فى بعض نواحى البصرة، ولكن مصعباً استطاع أن يقضى عليها وفر خالد بابنيه حتى لحق بعبد الملك وانصرف مصعب إلى البصرة سنة ٧١ ﻫ ثم عاد إلى باجميرا من جديد [٢] .

وتقدم عبد الملك فى العام التالى ٧١/ ٧٢ ﻫ لقتال مصعب فنزل مسكن وزحف مصعب ، وقبل أن يلتقى الجيشان عند دير الجاثليق راسل عبد الملك قواد مصعب وأشراف الكوفة ومناهم الأمانى حتى أفسدهم عليه إلا إبراهيم ابن الأشتر فإنه دفع إلى مصعب بالكتاب الذى أرسله إليه عبد الملك وكلهم أخفى الأمر عن مصعب إلا إبراهيم بن الأشتر فإنه لما جاءه كتاب عبد الملك أخذه وأعطاه لمصعب فوجده يمنّيه بولاية العراق وأخبره خبر القواد وأنهم أخفوا كتب عبد الملك وطلب من مصعب أن يقتلهم حتى لا يفسدوا الجيش فأبى مصعب ثم رجاه حبسهم فأبى أيضا [٣] .

ومن ذلك نرى أن مصعباً لم يتمتع بإخلاص جنده كما أنه اضطر إلى أن يحرم نفسه خبرة قائده المهلب الذى اضطرته حروب الأزارقة إلى التغيب عن شهود هذه الموقعة الفاصلة ولسوء حظه أن توفى الأحنف بن قيس فى الكوفة

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١١٧
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٣٥
(٣) الإمامة والسياسة / ج ٢ / ص ٢٠

وهو فى الطريق إلى المعركة [١] ، والتقى الجيشان عند دير الجاثليق ودارت معركة عنيفة قتل فيها إبراهيم بن الأشتر قائد مصعب ودارت الدائرة على جيش الزبيريين ، وأدرك مصعب أن هزيمته أصبحت محققة ولكنه صمد إلى النهاية وصمد ابنه عيسى إلى جواره ورفض أن يتخلى عن أبيه عندما دفعه إلى ذلك ، وظل يقاتل وأصحابه يتفرقون عنه ويخذلونه حتى بقى فى سبعة رجال ، وأثخن بالرمى وكثرت فيه الجراحات حتى لم يعد قادراً على أن يدفع عن نفسه ، وقيل إن زائدة بن قدامة الثقفى نظر إليه ثم حمل عليه فطعنه وهو يصيح يالثارات المختار ثم صرعه [٢] .

ودخل عبد الملك الكوفة بعد هذا النصر الرخيص ، فبايعه أهلها ، وولى عليها وعلى البصرة عمالاً من قبله [٣] ، وقضى عبد الملك شهوراً فى إخضاع الجزيرة واستسلم زفر بن الحارث فى قرقيسيا بعد حصار طويل ، واضطر ابنه الهذيل إلى اللحاق بعبد الملك ، وإن انقلب عليه وانضم لابن الزبير ، وتمكن عبد الملك من إخضاع نصيبين وعين الوردة وكان الخشبية من بقية أتباع المختار لا يزالون يدافعون عما بأيديهم هناك فاستسلموا وخضعوا واندمجوا فى جيشه [٤] .

وصفا الجو لعبد الملك ولم يعد فى يد ابن الزبير غير الحجاز ، وكان القضاء على نفوذه فى العراق مؤذناً بغروب شمس الخلافة الزبيرية ، فلم يكد مصعب يقتل حتى ذاع خبر هزيمته فى الحجاز على الرغم من تكتم عبد الله للخبر ، وتحدث بذلك العبيد والإماء فى سكاك المدينة ومكة [٥] .

واضطر عبد الله إلى أن يعلن الخبر فى خطبته الحزينة محاولاً أن يخفف من وقعه .. « ألا وإنه قد أتانا من العراق خبر أحزننا وأفرحنا . أتانا قتل مصعب

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٣٥
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٣٧
(٣) الطبرى / ج٧ / ص ١٨٨
(٤) الأغانى / ج ٥ / ص ١٥٠
(٥) مروج الذهب / ج ٣ / ص ٥٥

رحمة الله عليه ، فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لوعة يجدها حميمه ، فإن يقتل فإنا والله ما نموت على مضاجعنا كما يموت بنو أبي العاص وما نموت إلا قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف [١] .

وكان عبد الملك إثر وصوله الكوفة قد أقام بالنخيلة معسكراً أربعين يوماً وجه أثناءها بجيش قوى بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفى إلى الحجاز [٢] .

ولم يقصد الحجاج مكة رأساً ولا المدينة ، وإنما ذهب إلى الطائف حيث مكث عدة أشهر ، ومن هناك أخذ يبعث البعوث لمناوشة عبد الله فى سهل عرفة وكانت خيله تهزم خيل ابن الزبير وترجع منتصرة ، ثم استأذن عبد الملك فى حصار الزبير ودخول الحرم عليه واستمده ، وكان طارق بن عمرو مولى عثمان بن عفان قد احتل المدينة التى تداولها قواد عبد الملك وقواد ابن الزبير زمنا طويلا من قبل هزيمة دير الجاثليق ، فكان طارق قد أخرج منها عامل ابن الزبير فأمره عبد الملك بأن يلحق بالحجاج فلحق به فى خمسة آلاف ، وتقدم الحجاج وطارق فبلغا مكة فى ذى القعدة سنة ٧٢ هـ والمسلمون يستعدون لأداء الفريضة ، ولم يتمكن الحجاج من الطواف أو السعى كما لم يستطع ابن الزبير حتى إذا أوشك الموسم أن ينتهى بدأ الحجاج بن يوسف يقذف الكعبة بالمنجنيق إلا أن ابن عمر أرسل إليه ينهاه عن انتهاك البلد الحرام فى الشهر الحرام ، ورأى الحجاج أن يكف حتى ينتهى الناس تماماً من الحج [٣] .

وبعد انتهاء الموسم نادى الحجاج فى الحجاج بالانصراف التماسا للنجاة والسلامة وبدأ يقذف الحجارة ، وكان الوقت شتاء فأرعدت السماء وبرقت ، ونزلت الصواعق على جيشه حتى قتلت عدداً كبيراً منهم ، وشعر جند الشام بالخوف إذ عدوا هذه الظواهر مظهراً لغضب الله لانتهاكهم بلده فى الشهر الحرام ، فأمسك الشاميون عن

---

(١) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ١٤٠
(٢) الطبرى / جـ ٧ / ص ٢٠٢
(٣) ابن الأثير / جـ ٤ / ص ١٤٦

القذف ، وخشى الحجاج تخاذل جنده فشجعهم وأثار حماستهم وأخذ يقذف بنفسه، وأثناء ذلك نزلت صاعقة على جند ابن الزبير فقتلت فيهم كثيرين ونهض الحجاج حينئذ خطيباً فى جنده فقال : « ألا ترون أنهم يصابون وأنتم على الطاعة وهم على خلاف الطاعة » .

وتكاثرت الحجارة على الكعبة حيث اعتصم ابن الزبير وأصحابه فرأى كثير منهم ألا طائل وراء المقاومة فخرجوا إلى الحجاج يطلبون منه الأمان فأمنهم وبقى عبد الله فى قليل من أنصاره [1] ولم تزل الحرب دائرة وأصحاب عبد الله يتفرقون عنه حتى خرج عامة أهل مكة إلى الحجاج فى الأمان وفيهم حمزة وحبيب ابنا عبد الله . ولكن عبد الله ذلك الشيخ ذا الثلاثة والسبعين عاماً خجل من طلب الأمان وآثر أن يودع أمه وأن يخرج مقاتلا فى عدد قليل جدًّا وهو يرى انطباق الخضراء على الغبراء أحب إليه من طلب الأمان أو الإجابة إليه وقد حمله إليه أخوه عروة [2] .

وقد أراد الحجاج أن يشرك أهل الأمصار جميعا فى دم ابن الزبير فجعل على أبواب المسجد رجلاً من أهل كل بلد فكان عبد الله يحمل فى هذه الناحية مرة وفى هذه مرة فكأنه أسد فى أجمة [3] . واستمات عبد الله فى القتال وهو يحث من يقاتلون حوله حتى أصابه حجر فى جبينه فتكاثر عليه أهل الشام من كل باب حتى سقط صريعا فى الرابع عشر من جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ .

وقد ترك مصرعه رنة أسى فى أهل الكوفة وازدادوا أسى عندما صلبه الحجاج ليثير الرعب فى قلوب أنصاره ، ورفض رجاء أسماء بنت أبى بكر فى دفنه حتى سمح له عبد الملك فى ذلك .

وأخذ لعبد الملك البيعة من أهل مكة ثم رحل إلى المدينة بعد أن ولاه

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ١٤٧ – ١٤٨
(٢) الإمامة والسياسة / ج ٢ / ص ٢١
(٣) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٤٨

عبد الملك الحجاز ، وبمجرد سقوط مكة دانت لعبد الملك أمصار دولة الإسلام جميعا .

ويعزو كثير من المؤرخين إخفاق حركة الزبير إلى سبب رئيسى هو تمسكه بالحجاز الذى أصبح منذ قتل عثمان ركناً ميتاً ولم يكن من الممكن جعله مركزاً للحياة السياسية[1] على الرغم من اضطراره إلى ذلك تمشيا مع طبيعة الحركة التى ارتفع شأنه بسببها .

ويؤكد فلهوزن أن خصومة ابن الزبير للأمويين لم تكن ترجع إلى صبغة دينية ، وإنما كانت ذات لون سياسى بل هى على التحديد خصومة سياسية هدفها استعادة العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة وقد نهض بتحقيق هذا الهدف أعضاء طبقة الأشراف الإسلامية من أبناء كبار الصحابة يؤيدهم الرأى العام وكثرة قريش والأنصار وإن أبدوا وجهة نظرهم بمؤيدات تجلت فى اتهام خصومهم بالمروق عن الدين[2] وفى إقامة ابن الزبير فى الحرم الذى عاذ به حتى عندما كانت أبواب مجد الدنيا مفتوحة أمامه .

ويأخذ فلهوزن على ابن الزبير أنه أصبح بسبب هذا فى مكان ثانوى إلى أبعد حد ، إذ كان القتال من حيث الاسم يدور حول شخصه ، ولكنه لم يشترك فيه وتقررت نهاية القتال بدونه ولم يكن شأنه فى جزيرة العرب نفسها فى أثناء سنين طويلة أكبر من شأن نجدة الخارجى .

وربما أصاب فلهوزن إلى حد كبير فى تشخيص الحركة وأهدافها ، وأنها حركة سياسية تعبر عن الرغبة فى استعادة زعامة الحجاز ، ولكن اتخاذ الحجاز قاعدة لهذه الحركة كان أيضاً رمزاً لاستعادة الخلافة الإسلامية الأولى التى نشأت فى هذه البلاد والتى خالف عن تعاليمها بنو أمية بخروجهم عن نطاق الشورى الإسلامى وبالعمل على تحويلها إلى السنة الهرقلية مما لا يتفق مع تقاليد العروبة وروح الإسلام .

أما أنه أصبح فى مكان ثانوى لأن القتال كان يدور من حيث الاسم حول

---

(١) تاريخ الدولة العربية ص / ١٩٥

(٢) تاريخ الدولة العربية / ص ١٦١ – ١٦٢

شخصه فهذا أمر ليس له كل هذا الخطر ، فقد كان هذا شأن الكثيرين من الخلفاء الراشدين ورؤساء الحركات الثورية وكان فى أخيه مصعب غنى عنه وكفاية .

ولقد كره ابن الزبير انتقال الحكومة إلى الشام وآثر بقاءها فى الحجاز مسايرة لعصر الخلفاء الراشدين ، ولأنها بلاد العنصر العربى الخالص ولمكانة الأمويين فى الشام التى ترجع إلى ما يزيد عن نصف قرن وارتمائهم فى أحضان أصهارهم اليمنيين .

كما كره أن ينقل عاصمة دولته إلى العراق حيث لا يمكن لأية حركة هناك أن تزاحم الشيعة ، وحيث لا يمكن التعايش بين العنصر القرشى الخالص والموالى الذين انصرفوا عن ولاته إلى أحضان المختار .

٣

كان حزب الزبيريين حزباً ذا منهج عملى ناضل عن فكرته بالسيف واللسان ، ولكنه كان حزبا طارئا لم تمهله الظروف لينهض دعاته بإقرار نظريته مما جعله أشبه شىء بثورة طارئة أو بخروج وارتداد على السلطان ، لهذا لم يكد يسقط زعيمه حتى انتهى دون أن يكون له استمرار بعد ذلك ، شأن بقية الأحزاب .

وتدور تعاليم هذا الحزب حول مسألة الخلافة فيرى الزبيريون أن الخلافة حق لقريش وحدها كما أعلن ذلك أبو بكر يوم السقيفة ، فهم أول من عبدَ الله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول ، وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم فى ذلك إلا ظالم [١] وقد روى أبو بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » [٢] كما أثر عنه أنه قال : « الملك فى قريش والقضاء فى الأنصار والأذان فى الحبشة » وأنه قال أيضا :

---

(١) الطبرى / جـ ٣ ص ٢٠٨
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ١٦

« الأئمة من قريش ما حكموا فعدلوا ووعدوا فوفوا واسترحموا فرحموا » [١] .

ولا يقتصر اشتراط القرشية فى الخليفة على مجرد التبرك بالنبى صلى الله عليه وسلم لأنه ليس من المقاصد الشرعية إذ لا بد من المصلحة التى هى اعتبار العصبية التى تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة بوجودها لصاحب المنصب ليكون أبلغ فى انتظام الملة واتفاق الكلمة ، فإذا انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب ، وذلك أن قريشاً كانوا عصبة مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم ، وكان لهم على سائر مضر العزة بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك [٢] .

ولكن الزبيريين كانوا يرون أن ليس كل قريش بكفء لتولى هذا الأمر ، وإنما يقصرونها على الأكفاء ، ويرون أن عبد الله بن الزبير كان أكفأ من معاوية ومن غيره من الأمويين الذين يحكمون بسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمانية ، وكأنه لم يعد لقريش ولا للحجاز عامة شىء من الحكم بل استباحوا مدينة الرسول ، وقضوا بكون الخلافة لا بسلطان شرعى ، وإنما بسلطان السيف والقوة ، وكان اعتقاد الزبيريين إذن أن معاوية لم ينل الخلافة عن طريق شرعى ، وإنما نالها بالسيف وهو ليس كفئاً لها كما قال عبدالله : «فإن هذه الخلافة لقريش خاصة تتناولها بمآثرها السنية وأفعالها الرضية مع شرف الآباء وكرم الأبناء؛ فاتق الله يا معاوية وانصف عن نفسك . فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله ، وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ابن عم رسول الله ، وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله وعلىّ خلف حسناً وحسيناً وأنت تعلم من هما وما هما؛ فاتق الله يا معاوية وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك » [٣] .

ولم يكن الزبيريون يرون أسلوب التوريث الهرقلى الذى استحدثه معاوية

---

(١) تاريخ الخلفاء / ص ٦

(٢) مقدمة ابن خلدون / ص ١٩٤ — ١٩٥

(٣) الإمامة والسياسة / جـ ١ ص ١٢٦

حتى إذا مات هرقل قام هرقل كما قال عبد الرحمن بن أبى بكر [١] ، وإنما كانوا يرون أن يتبع أسلوب من الأساليب التى قررتها الخلافة الإسلامية الأولى ، كما صنع النبي – صلى الله عليه وسلم – أو كما صنع أبو بكر أو كما صنع عمر ، فقد قبض رسول الله ولم يستخلف أحداً فارتضى الناس أبا بكر ، فإن لم يجد معاوية رجلا مثل أبي بكر وخاف الاختلاف ، صنع كما صنع أبو بكر فقد عهد إلى رجل من قاصية قريش ليس من بنى أمية فاستخلفه ، أو إن شاء صنع كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أمية [٢] .

فالكفاءة شرط آخر يضاف للقرشية : فيزيد بن معاوية قرشي ولكنه ليس كفئاً ، فهو يزيد الخمور ويزيد الفجور ويزيد الفهود ويزيد القرود ويزيد الكلاب ويزيد الفلوات [٣] وعبد الله بن الزبير صالح تقى ليله قائم حتى الصباح ، وليله راكع حتى الصباح ، وليله ساجد حتى الصباح [٤] ، وهو أول طفل ولد فى المدينة فى الإسلام فحملته أمه أسماء إلى رسول الله فحنكه بتمرة فكان أول من دخل فى جوفه ريق رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فكبر الصحابة والمسلمون بمولده استكباراً ، وسماه رسول الله باسم أبيه [٥] .

وكان فرح النبي به عظيما لأن اليهود كانوا يقولون سحرناهم فلا يولد لهم ولد[٦] فقال الرسول لأمه : أرضعيه ولو بماء عينيك [٧] .

وكان عبد الله من السابقين فى الإسلام ، بايع النبى وهو ابن ثمان سنين ، وهو ربيب عائشة زوج الرسول وكانت تكنى بأم عبد الله [٨] . وعبد الله أمير

---

(١) ابن الأثير / ج ٣ / ص ٢١٦
(٢) ابن الأثير / ج ٣ / ص ٢١٧
(٣) أنساب الأشراف / ج ٤ / ص ٣٠
(٤) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٥٠
(٥) تاريخ ابن عساكر / ج ٧ / ص ٣٩٧
(٦) تاريخ الخلفاء / ص ٨٢
(٧) أنباء نجباء الأبناء / ص ٨٥
(٨) البداية والنهاية / ج ٨ / ص ٩١

إذا فر الصبيان فزعاً من صياح رجل بهم لم يفر، وإنما يصيح فيهم : « اجعلونى أميركم وشدوا بنا عليه » . فيفعلون [١] .

وهو جرىء ثابت الجنان مقول منذ حداثته؛ يلوذ الصبيان فزعاً من هيبة ابن الخطاب بالفرارة ، ولكنه يلزم مكانه ويجيب على سؤال عمر : مالك لم تفر معهم ؟ بأنه لم يجرم فيخافه ولم تكن الطريق ضيقة فيوسع له [٢] .

وهو منذ يفاعته مجاهد فى سبيل الله شهد مع أبيه فتح الشام واليرموك فى الرابعة عشرة من عمره ، وصحب أباه فى فتح مصر واشترك فى تدوين القرآن ، وأبلى بلاء حسناً فى فتح أفريقية حينما غير خطة عبد الله بن سعد بن أبى سرح فظفر بملكهم جرجير فى أول يوم بعد أن طال القتال دون حسم ، وحتى افتقد الخليفة عثمان خبر الجند ولم يرسل ابن الزبير إلا ليخبره خبرهم فإذا هو يأتيه بنصر من صنع يده يحمل نبأه وغنائمه [٣] وقد غزا اصطخر فى سبيل الله[٤] .

فعبد الله أكفأ من يزيد وأفضل منه ، ووالده خير من والده ، وأمه خير من أمه ، وخالته خير من خالته ، وعمته خير من عمته ، كما أقر بذلك النعمان ابن بشير رسول يزيد نفسه إلى ابن الزبير : « أبوك الزبير ، وأمك أسماء بنت أبى بكر ، وخالتك عائشة ، وعمتك خديجة ، أما إذا استشرتنى فلا أرى أن تبايع له ولست بعائد إليك بعد هذا أبدا [٥] .

وهو صاحب عهد الخليفة عثمان بن عفان يوم الدار وأميرها حينما حاصرها الثوار ، وفى هذا ما يشعر باستخلافه كما أناب رسول الله أبا بكر ليصلى بالناس فى مرضه الأخير فاستدل من هذا الإيحاء باستخلافه ، وقالوا إنما أنابه عنه فى دينهم أفلا ينيبونه فى دنياهم . وكان عبد الله يتحدث فى ذلك فيقول : والله

---

(١) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٥٠
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ص ١٥٠
(٣) أسد الغابة / ج ٣ / ١٦٢ ، الإصابة / ج ٣ ص ٧١
(٤) المعارف / ص ٦٤
(٥) الأخبار الطوال / ص ٢٧٣

لقد استخلفنى أمير المؤمنين عثمان على داره ، فلقد كنت أنا الذى أقاتل
ولقد كنت أخرج فى الكتيبة ، وأباشر القتال بنفسى فجرحت بضعة
جرحاً ، وإنى لأضع اليوم يدى على بعض تلك الجراحات فأرجو أن
خير أعمالى [١] .

ومن أجل ولائه لعثمان فقد صداقة الخوارج الذين امتحنوه فيه
النتيجة أن فقد حلفاء أشداء وكسب أعداء ألداء ، وبكى عبد الله
بكى مصعباً من فوق منبر مكة [٢] .

وهو صاحب الصلاة يوم الجمل إذ قدمته عائشة لإمامة أصحاب
فتخطت به أباه وطلحة [٣] ولم يكن أحب إليها بعد رسول الله وأبيها منه ،
وما سمعت تدعو لأحد من الخلق مثل دعائها له ، كما أوصت له بحجرتها [٤] .

وهى أسانيد تجعله جديراً بالخلافة وأحق بها من يزيد وأشباه يزيد ، ولكنها
أسانيد تدور حول شخصه أكثر ما تدور حول مبدأ عام تقوم عليه نظريتهم
فى الخلافة والحكم ، إذا استثنينا إصرارهم على أن يكون الحجاز قاعدة لدولتهم.

ويبقى أن نعلم هل كان باستطاعة ابن الزبير أن يتنازل عن الخلافة لقرشى
أكفأ منه وكيف تقاس هذه الكفاءة ، وبأى المقاييس ؟

إن هذا سبب هام من أسباب فشل الحزب الزبيرى ، فقد كان حزباً
يدور حول شخص بعينه وليس له مبادئ عامة مقررة يمكن أن يتولى الدعوة لها
دعاة بالفكر والمنطق وأدلته .

ولقد قيدت نظريتهم شرط القرشية بالكفاءة فإذا أمكن تبين الشرط الأول
وهو أمر ميسور ، فإنه يتعذر الحكم فيما يختص بالشرط الثانى .

وقد أسهمت عوامل أخرى فى فشل الحزب منها عوامل عامة وعوامل خاصة ،

---

(١) تاريخ ابن عساكر / ج ٧ / ص ٤٠٢
(٢) ابن الأثير / ج ٤ / ١٤٠
(٣) ابن الأثير / ج ٣ / ص ٨٨
(٤) تاريخ ابن عساكر / ج ٧ / ص ٤٠٢

فالعوامل العامة هى التطور الحضارى الذى شمل الحجاز حتى صار موطنا للأرستقراطية المترفة التى تخلفت فى الحجاز بعد انصراف العناصر السياسية فيه إلى الشام والعراق ، وقد مالت هذه الأرستقراطية إلى حياة اللهو والمجون ، ولم تكن مناصرة الحركات السياسية من شأنها ، كما أنها لم تكن تستطيع الاعتماد على نفسها من مواردها .

وليس شك فى أن قيام نظرية الخلافة الزبيرية على أساس عنصرى إنما يمثل قصوراً فى فهم الرسالة الإسلامية واستعداء للعناصر غير العربية من المسلمين التى ارتمت فى أحضان الحركات الأخرى القائمة على المساواة ، وأيضا كان قيامها على هذا الأساس العنصرى سببا فى امتزاج السياسة بالصراع القبلى وإحياء الإحن القديمة بين اليمنية والمضرية .

ومن هذه العوامل أيضا ظهور فرق وأحزاب تقوم على أسس فكرية ودينية كان اصطدامها بالزبيريين أصحاب العصبية أمراً محتوما ، الأمر الذى وزع قوتهم وشغلهم فأضاعوا سنين طويلة فى محاولة تأسيس دولتهم ثم فى سبيل المحافظة عليها ، وهى تسقط حصنا حصنا .

أما العوامل الخاصة فأهمها بخل ابن الزبير وحرصه الشديد الذى جعل كثيرا من العرب ينصرفون عنه ، والأمثلة على بخله ليست بحاجة لأن تروى فهى كثيرة وشهيرة ، فمما لا شك فيه أن الدعاية أمر لا بد منه لنجاح أية حركة سياسية ، وهذا يفسر قلة الشعراء حتى إننا لا نكاد نجد غير شاعر واحد لم يمسكه عليهم غير إيمانه الشخصى بقرشيته يدافع عن نظريتهم فى الخلافة . وكان لبخل ابن الزبير أكبر الأثر فى انصراف الناس عنه حتى إنهم كتبوا إلى عبد الملك أن أقدم إلينا ، وكان عبد الملك يشترى القادة قبل المعركة مثل ما صنعه قبل مسكن وكان يقول عن ابن الزبير : إن فيه لثلاث خصال لا يسود بها أبداً : عجب قد ملأه ، واستبداد برأيه ، وبخل التزمه فلا يسود بها أبدا [١]؛ فكان

(١) الإمامة والسياسة / ٢ / ص ٢٠

حريصا أشد الحرص حتى قيل عنه أيضا إنه كان يعطى مال الله كأنه يعطى ميراث أبيه [١] ، وكذلك قيل إنه كان عظيم الشح فلذلك لم يتم أمره [٢] .

ولا يمكن أن يغفل خطر الإخفاق الذى وقع فيه الزبيريون وهو ما وقع فيه بنو أمية من إيذاء آل بيت الرسول فحبس ابن الحنفية وأبعد ، وكذلك فُعل بابن عباس وسفك دم الشيعة فى الكوفة وأثير سخط المسلمين وتذمرهم .

---

(١) اليعقوبى / ج ٣ ص ٩

(٢) الفخرى / ص ١٠٥

الفصل الرابع

المتكلمون

١

يعد ظهور فرقة المرجئة نتيجة طبيعية للتطرف الشديد الذى اشتملت عليه عقائد الشيعة والخوارج ، فقد غالى كل من الفريقين فى آرائه وتعصب لمعتقداته إلى درجة باعدت بينه وبين فطرة الإسلام وبساطة حقائقه .

وكان من الطبيعى أن يسفر هذا الغلو المتطرف عن ظهور فرقة محايدة تلزم جانب القصد والاعتدال ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، وتقف موقفاً وسطاً بين الجانبين المتطرفين ، وتضع مفاهيم جديدة فى الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان من الكفر والإيمان فتتوسط فى هذه الأحكام بعيداً عن الصرامة والعنف اللذين اتسمت بهما عقائد الخوارج والشيعة .

ويظهر أن رجال المرجئة الأولين كانوا الغزاة الذين عادوا إلى المدينة إثر مقتل عثمان فوجدوا المسلمين يقتتلون فهالهم ما وجدوهم عليه ، فآثروا العزلة ولاذوا بالحيدة ، يدل على هذا قول ابن عساكر عنهم : « إنهم هم الشكاك الذين شكوا وكانوا فى المغازى فلما قدموا المدينة بعد مقتل عثمان وكان عهدهم بالناس وأمرهم واحد ليس بينهم اختلاف فقالوا : تركناكم وأمركم واحد ليس بينكم اختلاف ، وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون فبعضكم يقول قتل عثمان مظلوماً وكان أولى بالعدل وأصحابه ، وبعضكم يقول : كان علىّ أولى بالحق وأصحابه ، كلهم ثقة وكلهم عندنا مصدق ، فنحن لا نتبرأ منهما ولا نلعنهما ولا نشهد عليهما ونرجئ أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما » [1] .

---

(١) ابن عساكر / ج ٢٠ / ص ٥٧٧ « النسخة التيمورية » .

ويبدو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه فرقة المرجئة فى هذا النص واضحاً وهو إرجاء أمر الناس إلى الله يوم القيامة ، وترك الحكم له وحده ، وظاهر أنه مبدأ يدعو إلى المسالمة والتسامح ، لا يريد القائلون به أن يغمسوا أيديهم فى الفتن ، ولا أن يريقوا دماء فريق ويحقنوا دماء فريق آخر ، أو يحكموا بتخطئة حزب وبتصويب آخر ، ولا بكفر طائفة من الناس دون طائفة أخرى ، وإنما أمر هؤلاء وأولئك موكول إلى الله يحكم فيه وحده بما يريد .

وقد ذهب بعض الباحثين المحدثين إلى أن المرجئة — كما يبدو من ظروف نشأتهم — حزب دينى دعا إلى ظهوره هذا التطرف المذهبى الذى أدى إلى تلك الأحكام الجائرة من تكفير الخلفاء والصحابة والمسلمين [١] .

وحقًّا كان ظهور المرجئة نتيجة لهذا التطرف المذهبى ، ولكننا لا يمكننا أن نغفل أن السبب المباشر فى نشأتها كان اختلاف الفرق والأحزاب فى الرأى ، وأن السبب البعيد لاختلاف هذه الفرق والأحزاب هو مشكلة الخلافة التى كانت أساس الحياة السياسية : فتكون المرجئة قد نشأت نشأة سياسية ، إذ لولا الخلافة ما كانت خوارج ولا شيعة ، وإذاً لا تكون مرجئة .

وكلمة المرجئة مأخوذة من « أرجأ » بمعنى أمهل وأخر ، وقد سموا بالمرجئة لأنهم يرجئون أمر هؤلاء الذين اختلفوا وتنازعوا إلى يوم القيامة ، ولا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على هؤلاء أخذاً من قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه » أى أمهله وأخره .

ويشتق بعضهم اسم المرجئة من « أرجأ » بمعنى بعث الرجاء أو أعطاه ؛ وذلك لأنهم لم يقضوا على مرتكب الكبيرة بأنه من أهل النار أو من أهل الجنة ، وإنما أخروا الحكم عليه إلى يوم القيامة ، فهم بهذا يعطون الرجاء فى المغفرة ، فقد ذهبوا فى تقرير حكم مرتكب الكبيرة إلى أنه لا تضر مع الإيمان

---

(١) أدب المعتزلة / ص ٣٩ .

معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فهم إذن يرجون لكل مسلم مغفرة من الله[١] ؛ وذلك أخذاً من قوله تعالى: « وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » .

أو لأنهم يقولون بأن الإيمان تصديق فحسب أو تصديق بالقلب واللسان ، ويؤخرون ؛ العمل على النية والعقد [٢]، أى أنهم يقدمون القول ويرجئون العمل، أى يؤخرونه فإن المؤمنين — فى اعتقادهم — وإن لم يصلّوا ولم يصوموا ، نجاهم الله بإيمانهم ، أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى[٣] .

وقيل إن الإرجاء تأخير علىّ عليه السلام عن الدرجة الأولى إلى الرابعة [٤]، ويرجح أحمد أمين الرأى الأول (أى تأخير الحكم وإمهاله) لأنه أنسب لما ذكره ابن عساكر[٥] بينما يرجح نيكلسون الرأى الثانى — أى إرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة إلى يوم القيامة [٦] .

ونحن لا نكاد نرى خلافاً بين الرأى الأول والثانى والثالث فهى آراء متداخلة وترجع جميعها إلى إرجاء الحكم على المتنازعين من أصحاب على وأصحاب الزبير وطلحة ومعاوية وغيرهم ، ولما كان هؤلاء لدى بعض الفرق يعدون من مرتكبى الكبائر المختلف فى الحكم عليهم وعليها ، فبينما يرى الخوارج كفر علىّ وعثمان والقائلين بالتحكيم ، يكفر الشيعة أبا بكر وعمر وعثمان ومن ناصروهم ، وكلا الفريقين يكفر الأمويين .. كان الرأى الثانى بإرجاء الحكم على مرتكب الكبيرة تفصيلاً للرأى الأول وكان الرأى الثالث هو الحجة التى يقوم عليها الرأى الأول أيضا .

أما الرأى الأخير الذى يضع المرجئة فى تقابل تام مع الشيعة فلا نظن أنه

---

(١) نقد العلم والعلماء / ص ١٠٢ ، الملل والنحل / ١ ج ١ / ص ٢٢٢ .
(٢) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢٢٢ .
(٣) لسان العرب ، القاموس المحيط ، تاج العروس مادة / رجأ .
(٤) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢٢٢ .
(٥) فجر الإسلام / ٢٧٩ .
(٦) Hist. Litt., p. 220.

يمكن أن يكون سبباً فى التسمية فظاهر أنه نشأ بعد ظهور المرجئة .

هكذا يتبين أن المرجئة نشأت نشأة سياسية ، وكان لها عند نشأتها رأى سلبي فى السياسة القائمة ، فهى تسالم الجميع ولا تكفر طائفة منهم دون غيرها ، وتذهب إلى أن الخوارج والشيعة والأمويين جميعا مؤمنون ، فإذا كان بعضهم مخطئا وبعضهم مصيباً فإننا لا نستطيع أن نعين المخطئ أو المصيب [١]، ولهذا فلنترك أمرهم جميعا إلى الله ما داموا يشهدون بأن لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فليسوا إذن كفاراً ولا مشركين بل مسلمون نرجئ أمرهم إلى الله الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها [٢] .

وكان معنى هذا أنهم لا يقفون من بنى أمية موقف الفرق الأخرى؛ فلا يكفرونهم ولا يعارضونهم ، وإنما يتركونهم وشأنهم وفى هذا تأييد سلبي لهم .

وكانت نواة هذه الطائفة بين الصحابة فى الصد ر الأول ، إذ نرى فريقا منهم قد استنكف أن ينزلق فى النزاع الذى كان فى آخر عهد عثمان بن عفان ، مثل أبى بكرة وعبد الله بن عمر وعمران بن الحصين [٣] .

وروى أبو بكرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : «ستكون فتنة؛ القاعد فيها خير من الماشي ؛ والماشى فيها خير من الساعى إليها ، وإلا فإذا نزلت أووقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه» . فقال رجل : ومن لم تكن له إبل ولا غنم ولا أرض ؟ قال : « يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر ثم لينج إن استطاع النجاة » ، فقال رجل : يا رسول الله : أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بى إلى أحد الصفين أو إلى إحدى الفئتين ، فضربنى رجل بسيفه ، أو يجىء سهم فيقتلنى ، قال : «يبوء بإثمه وإثمك ، ويكون من أصحاب النار » [٤] .

---

(١) تاريخ مختصر الدول / ص ١٦٦ .
(٢) فجر الإسلام / ص ٢٨٠ .
(٣) شرح النووى / جـ ٨ ص ١٦٩ .
(٤) شرح النووى / جـ ٨ ص ١٦٩ .

وبعد مقتل عثمان اعتزلت طائفة من الصحابة الفتنة فلم يكونوا مع علىّ فى حروبه ولا مع خصومه ، وقالوا لا ندخل فى غمار الفتنة ، منهم عبد الله بن عمر وسعد بن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة ابن زيد بن حارثة الكلبى مولى رسول الله . وقال قيس بن أبى حازم : «كنت مع علىّ فى جميع أحواله وحروبه حتى قال يوم صفين : "انفروا إلى بقية الأحزاب .. انفروا إلى من يقول كذب الله ورسوله ، وأنتم تقولون صدق الله ورسوله" ، فعرفت أين كان يعتقد فى الجماعة فاعتزلت عنه »(١) .

وقد ترك عبد الله بن عمر المنازعة فى الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه ومحبتهم إياه ، ولم يقاتل فى شىء من الفتن ، ولم يشهد مع علىّ شيئاً من حروبه حين أشكلت عليه وإن كان ندم بعد ذلك على ترك القتال معه (٢) .

وأيضا اعتزل سعد بن أبى وقاص الفتنة ، ولم يكن مع أحد من الطوائف المتحاربة ، ولزم بيته ، وأراده ابنه عمر وابن أخيه هاشم بن عتبة أن يدعو إلى نفسه بعد مقتل عثمان فلم يفعل ، ولما اعتزل طمع فيه معاوية وفيمن شاركه الاعتزال ؛ فكتب يدعوهم إلى أن يعينوه على الطلب بدم عثمان بحجة أنهم لا يكفرون ما آتوه من خذلانه إلا بذلك فرفضوا إجابته ، وكان رد سعد عليه أبياتاً من الشعر استنكف فيها أن يجيبه إلى ما لم يجب إليه عليا (٣) .

وكذلك كان محمد بن مسلمة بعد أن اعتزل الفتنة إثر مقتل عثمان قد اتخذ سيفاً من خشب ، وكان يقول بذلك أمرنى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – (٤) .

ولم يكن هذا الاعتزال ليرضى علياً كما أسخط معاوية ، وقد أرجع علىّ اعتزال عبد الله بن عمر إلى الضعف ، واعتزال سعد بن أبى وقاص إلى الحسد ،

---

(١) الملل والنحل / ج ١ / ص ٢٢١ – ٢٢٢ .
(٢) أسد الغابة / ج ٣ / ص ٢٢١ .
(٣) أسد الغابة / ج ٢ / ٢٩٠ ، العقد الفريد / ج ١ / ٥٢ .
(٤) أسد الغابة / ج ٤ / ص ٣٣٠ .

بينما أرجع اعتزال محمد بن مسلمة إلى أنه موتور منه لقتله أخاه [١] .

ويذكر الطبرى أن أهل البصرة كانوا قبل الجمل فرقًا : فرقة مع طلحة والزبير ، وفرقة مع على ، وفرقة لا ترى القتال مع أحد الفريقين ، وجاءت عائشة — رضى الله عنها — حتى نزلت فى مسجد الحدان فى الأزد ، وكان القتال فى ساحتهم ورأس الأزد صبرة بن شيمان ، فقال له كعب بن سور : إن الجموع إذا تراءوا لم تستطع وإنما هى بحور تتدفق فأطعنى ولا تشهدهم واعتزل بقومك فإنى أخاف ألا يكون صلح [٢] .

ويذكر أبو الفرج أيضا أن خريماً والد الشاعر أيمن كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها [٣] .

وقد عرف هؤلاء الذين امتنعوا عن الاشتراك فى الفتنة بالمرجئة الأولى ، وقد جاء فى طبقات ابن سعد أن محارب بن دثار قاضى الكوفة فى ولاية خالد القسرى وخلافة هشام بن عبد الملك كان من المرجئة الأولى الذين يرجون عليًّا وعثمان ، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر [٤] ، وكذلك بريدة الأسلمى فقد عرض رجل بعلىّ وعثمان وطلحة والزبير لاستخراج رأيه فقال : قوم سبقت لهم من الله سوابق فإن يشأ يغفر لهم بما سبق لهم ، فعل ، وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله [٥] .

وبطبيعة الحال لم يكن إدراكهم المتسامح هذا ليرضى الخوارج المتشددين فى معارضة الدولة ، كما لم يكن ليرضى الشيعة ، وقد حمل الخوارج بشدة على النماذج السلبية حتى من الخوارج أنفسهم فأكفر الأزارقة كل من لا يجاهر بعدائه للجماعة الضالة ويهاجر عنها ، وتجاوزوا ذلك إلى قتل كل من يروى

(١) الإمامة والسياسة / جـ ١ / ٨٩ — ٩٠ .
(٢) الطبرى / جـ ٥ / ص ١٧٢ .
(٣) الأغانى / جـ ٢١ / ص ٥ .
(٤) ابن سعد / جـ ٦ / ق ١ ص ٢١٤ .
(٥) ابن سعد / جـ ٤ / ق ١ / ١٧٩ .

حديثاً عن الرسول يدعو إلى اجتناب الفتنة واعتزالها ، وكان استعراضهم للمسلمين يقوم على امتحانهم فى موقفهم من علىّ وعثمان [١] .

وكذلك كان إدراكهم المتسامح يتعارض تعارضاً مباشراً مع إدراك أولئك الذين يؤيدون مطالب العلويين ، إذ كان هنالك تناقض تام بين المرجئة والشيعة حتى صارت كلمة « المرجئ » مقابلة لكلمة « السبأى » كما يظهر من حديث إبراهيم النخعي عندما سئل فى أمر علىّ وعثمان فقال : «ما أنا بسبأى ولا مرجئ » [٢] .

وكأن الشيعة كانو يغيظون المرجئة بذكر علىّ وآله كما يقول أحد الشيعة :

إذا المرجى سرك أن تراه يموت بدائه من قبل موته
فجدد عنده ذكرى علىّ وصل على النبي وآل بيته [٣]

وقد وقف المرجئة بين هؤلاء وأولئك فى نظريتهم عن الخلافة ، فبينما ربط الخوارج بين الإيمان والعمل الصالح ، ورأوا أنهما وحدة لا تنفصم ، وأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار ، وبنوا على هذا أن بنى أمية مرتكبون للكبائر كفار ، وأوجبوا لهذا قتالهم وخلعهم ، ذهب الشيعة إلى أن الإمام يعين من يخلفه لأن النبي أوصى لعلىّ ، وعلىّ أوصى لابنه ، وهكذا فصل المرجئة العقيدة الدينية عن الرأى السياسى فلم يدينوا بالثورة على الساسة والحكام المخالفين لهم فى المذهب ؛ فكل من أعلن إسلامه مسلم لا تخرجه عن إيمانه معصية أو ارتكاب كبيرة ، ومع أنهم ينفرون من المعاصى فهم لا يقضون على العصاة بدخول النار أو الجنة وإنما يرجئون الحكم فى ذلك إلى الله يفعل بهم ما يشاء يوم القيامة .

ومن هنا كانت المرجئة فرقة ذات آراء سياسية وإن كانت سلبية فهم وإن لم يؤيدوا حكومة الأمويين فهم لا يعارضونها ولا يرون الثورة عليها ، وفى هذا اعتراف بشرعيتها [٤] ؛ فهى إما على الحق وإما أنها اجتهدت فأخطأت .

---

(١) ابن سعد / جـ ٥ / ص ١٨٢ .
(٢) ابن سعد / جـ ٦ / ص ١٩٢ .
(٣) البيان والتبيين / جـ ٢ / ص ١٤٩ .
(٤) العقيدة والشريعة / ص ٧٦ .

وخطأ المجتهد لا ينقص إيمانه .

والمرجئة بهذا التصور يشكلون كتلة المسلمين التى رضيت حكم بنى أمية مخالفين فى ذلك الشيعة والخوارج متفقين إلى حد ما مع طائفة المحافظين من أهل السنة ، وإن كانوا كما يرى « فون كريمر » قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء السنيين باعتقادهم أنه لا يخلد مسلم فى النار [١] .

وعلى الرغم من التوافق بين آراء المرجئة والبلاط الأموى فإننا نرى كثيراً من رجالهم يخرجون على الدولة ويلقون فى سبيل ذلك القتل والصلب والتنكيل ، فسعيد بن جبير ثار على عبد الملك والحجاج وقتل [٢] ، وغيلان بن مروان قتل وصلب ، ومثل به فى عهد هشام [٣] والحارث بن سريج خرج على هشام وواليه بخرسان . وكان كثير من الذين ناصروا ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج من المرجئة ، وكذلك كثير من الذين ناصروا يزيد بن المهلب فى ثورته على يزيد ابن عبد الملك كانوا من المرجئة أيضا .

وتفسير ذلك أن المرجئة اتجهوا بعد قليل من نشأتهم إلى البحث فى بعض الأمور اللاهوتية التى تتفق واتجاهاتهم السياسية كالإيمان والكفر ، وجرهم ذلك إلى البحث فى حرية الإرادة فراجعوا أنفسهم واتهموا سلبية أفكارهم ؛ فكانت بيئتهم حقلاً لبذور كثيرة نبتت متأثرة ببعض الآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بأولئك الذين ظلوا زمناً طويلا تحت المؤثرات الهلينية .

ووجد نتيجة لهذه الأبحاث أصناف من المرجئة انبتّت فيما بعد عنهم ، فجمع البعض إلى الإرجاء القول بالقدر ، كما جمع البعض الآخر إلى الإرجاء القول بالجبر بينما بقى بعض آخر على إرجائه الخالص .

وأغلب الظن أن الذين عارضوا الدولة لم يكونوا من المرجئة الخالصة ، وإنما كانوا

---

(١) Greseh. d'Herrseh Ideen, p. 25.

(٢) وفيات الأعيان / ج ١ / ص ٢٥٦ .

(٣) سرح العيون / ص ١٦٧ .

من مرجئة الجبرية ومرجئة القدرية ، وعلى قدر ما احتضنت الدولة الجبرية الخالصة التى عدت سيادة الأمويين قدراً مقدوراً فى الأزل نكلت بالمرجئة من هؤلاء الذين راحوا يبحثون أبحاثاً لا هوتية فى الجبر والاختيار ، وهل إرادة الإنسان حرة تعمل ما تشاء ، وتترك ما تشاء ، وتشكل عملها كما تشاء ؟ أو أننا مجبرون على عمل ما نعمل فلا نستطيع أن نعمل غيره ؟ وإن إرادتنا معلولة بعلل فإذا حصلت العلل حصل المعلول لا محالة .

ويتجلى ذلك فى أن من بين الدوافع التى دفعت بهؤلاء إلى التفكير فى هذه المباحث ما مالت إليه الدولة من مساندة القائلين بالجبر وأن سلطان الأمويين قدر مقدور من الله ، وأن سيادتهم مرسومة مقدما فى قضاء الله الأزلى ، وهذا يفسر فى نفس الوقت ما أخذ به هؤلاء القائلون بحرية الاختيار من عسف وتنكيل وقتل وصلب وتمثيل ، ولجوء هؤلاء إلى الثورة على الدولة مع كل ثائر ، إذ كان كثير من المرجئة فى ثورة ابن الأشعث على الحجاج مثل سعيد بن جبير [١] ، كما كان كثيرون منهم مع يزيد بن المهلب فى ثورته على يزيد بن عبد الملك ، بل إن المرجئة هم الذين أخرجوه ، فقد ذكر أبو الفرج أن ثابت قطنة وهو من زعماء المرجئة الجبرية قد حرضه على الخروج بقصيدة قال فيها :

إن امرأ حدبت ربيعة حوله ... والحى من يمن وهاب كئودا
لضعيف ماضمت جوانح صدره ... إن لم يلف إلى الجنود جنودا

وأن يزيد بن المهلب لما قرأ الكتاب المشتمل على قصيدة ثابت تلك قال : « إن ثابتاً لغافل عما نحن فيه ، ولعمرى لأطيعنه ، وسيرى ما يكون ، فاكتبوا إليه بذلك » [٢] .

وكان يزيد بن المهلب قد ولى خراسان للحجاج بعد وفاة أبيه المهلب ، وقد انسحب العداء الذى كان قائماً بين الحجاج وآل المهلب على الخليفة يزيد ابن عبد الملك الذى تزوج من بنت أخى الحجاج ، فكان يكره ابن المهلب

---

(١) الكامل للمبرد / ص ٣٩٧ .
(٢) الأغانى / جـ ١٣ / ص ٥٢ .

أيضا ، وقد استحكم العداء بين الحجاج وابن المهلب لأن هذا كان يعذب آل الحجاج مستظلا بظل سليمان بن عبد الملك ، فلما كان عهد عمر بن عبد العزيز حبس يزيد بن المهلب بسبب قضاء الأموال التى كتب إلى سليمان بأنها صارت إليه عند فتحه جرجان وطبرستان مبالغاً فى تقديرها ، وبعد وفاة عمر وتولى يزيد بن عبد الملك الخلافة لم يتوقع يزيد بن المهلب خيراً ، فهرب من سجنه واتجه إلى البصرة موطن المهالبة وأزد عمان والتف الناس حوله وفاوض والى البصرة عدى ابن أرطأة فى إطلاق المهالبة الذين كان قد حبسهم فرفض ، فجمع ابن المهلب قبائل اليمن وفرق فيهم الذهب وتمكن من خلع الوالى وإطلاق السجناء وجاهر يزيد بن المهلب بالدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وحث الناس على الجهاد متلقباً بالقحطانى داعياً إلى العودة لسياسة عمر بن عبد العزيز ، زاعما أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم .

واتبع عامة المسلمين فى البصرة ، وعلى رأسهم القراء دعوة يزيد ، وتبعهم عدد كبير من الموالى وأبو رؤبة المرجئ فى فرقة من المرجئة [١] حتى تضخم جنده . واستطاع أن يتغلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ثم خرج إلى الكوفة سنة ١٠١ هـ بعد أن استولى على واسط ، ووقف عند عقر قريباً من بابل القديمة ، وقد أرسل الخليفة إليه جيشاً كثيفاً من الشام بقيادة مسلمة بن عبد الملك فعبر يزيد الفرات وعسكر بهدوء قريباً من مسلمة وهم بمداهمته تحت جنح الليل ، ولكن أبا رؤبة زعيم المرجئة فى جنده ، وكان له تأثير على جمهور الجيش ، اعترض على مهاجمة أهل الشام ليلا بحجة أنهم قد دعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه ، وأن أهل الشام قد زعموا أنهم قابلو هذا منهم ، فليس لهم أن يغدروا حتى يرد عليهم أهل الشام ما زعموا أنهم قابلوه منهم .

فاضطر يزيد بن المهلب إلى الخضوع لرأيهم على كره منه ، ويشبه فلهوزن خضوعه للمرجئة بخضوع على لجنده يوم صفين [٢] . ولم يثبت أهل العراق ،

---

(١) الطبرى / جـ ٥ / ص ٣٤٠ .

(٢) تاريخ الدولة العربية / ص ٣٠٨ .

وفرت تميم الكوفة وقتل يزيد ورثاه ثابت قطنة شاعر المرجئة بعدة قصائد نعى فيها على جنده خذلانه وإسلامه [١] .

وقد كاد عمر بن عبد العزيز فى آخر عهده أن يهدئ من ثائرتهم ؛ فطلب مناظرة أئمتهم من أمثال عون بن عبد الله بن عتبة الهذلى ونجح فى أن يصرفه عن الاعتقاد فى آرائهم التى مالت آنذاك إلى العنف فصارت تستحل دماء المسلمين كما جاء فى أبيات لعون يقول فيها :

وقالوا مؤمن دمه حلال ... وقد حرمت دماء المسلمينا [٢]

ولا نكاد نمضى حتى عصر هشام بن عبد الملك حتى نجد للمرجئة نشاطاً حربياً آخر ضد الدولة إذ يتزعم أحد المرجئة ثورة عنيفة فى خراسان زلزلت تلك المنطقة تحت أقدام الأمويين بضع سنين وكانت ممهدة لنجاح العباسيين هناك [٣] ونعنى بها تلك الثورة التى قادها الحارث بن سريج والذى عد بين الموالى مهديا ومخلصاً وتنبأت بظهوره النبوءات حتى شغلت الأذهان عن رجل ذى أعلام سود يخرج من الشرق ويزيل عرش بنى أمية [٤] .

وقد ظهر الحارث بن سريج معتمداً على هذه النبوءات وعلى حديث مشهو ر رواه أبو داود يقول : « يخرج رجل من وراء النهر يقال له الحارث حراث على مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — وجب على كل نصره » [٥] .

ويرجع ظهور الحارث بن سريج إلى ضجر الموالى من النظم المالية المتعسفة التى ألزمتهم بدفع الجزية على الرغم من إسلامهم ، وقد ظل الأمر على هذه الصورة منذ عهد الحجاج إلى عهد عمر بن عبد العزيز ؛ فحطّ الجزية عمن أسلم ورفع

---

(١) الأغانى / ج ١٣ / ص ٥٤ .
(٢) الأغانى / ج ٨ / ص ٨٩ .
(٣) تاريخ الإسلام السياسى / ج ١ / ص ٤٤٣.
(٤) انظر / الكامل للمبرد ص ٥٨٥ ، والسيادة العربية / ص ١٢٣ — ١٢٤ .
(٥) المرجع السابق .

الضرائب الاستثنائية وغيرها من المظالم وقرر أن القاعدة الأساسية ألا خراج على من أسلم من أهل الأرض، فدخل كثير من الناس فى الإسلام وأصاب الخزانة نقص واضح فى نفس الوقت لم يعبأ به عمر ومضى فى سياسته العادلة ؛ فسوى بين الموالى والعرب فى المعاملة المادية ، وقد كتب عمر إلى ملوك السند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ، وكان قد بلغهم حسن سيرته فأسلم هؤلاء وتسموا بأسماء العرب ، وقد وفد على عمر رجل من الموالى يدعى أبا الصيداء مع رجلين من العرب فتكلم العربيان ولم يتكلم المولى فسأله عمر إذ كان من الوفد فأجاب بأنه من الوفد فطلب إليه عمر أن يتكلم فشكا من أن عشرين ألفاً من الموالى يغزون فى خراسان مع العرب بلا عطاء ولا رزق وأن مثلهم قد أسلموا من أهل الذمة يؤخذون بالخراج وإن أمير خراسان رجل عصبى جاف يقوم على المنبر فيقول لأهل خراسان : « أتيتكم حفيا وأنا اليوم عصبى والله لرجل من قومى أحب إلى من مائة غيرهم » فأعجب عمر بكلامه وقال : « إذن مثلك فليوفد » ثم كتب عمر لأمير خراسان الجراح ابن عبد الله الحكمى بأن ينظر من صلى قبله إلى القبلة فيضع عنه الجزية ، فسارع الناس إلى الإسلام فقيل للجراح إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية فامتحنهم بالختان فكتب بذلك إلى عمر ، فكتب هذا إليه : « إن الله بعث محمداً — صلى الله عليه وسلم — داعياً ولم يبعثه خاتنا » [١] .

فلما كان عهد يزيد بن عبد الملك عادت المظالم من جديد تثقل كواهل الموالى وكان والى خراسان فى هذه الفترة أحد أمراء بنى أمية المنعمين وهو سعيد ابن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص ، وكان همه بأمر الخليفة أن يمعن فى الإساءة إلى الأزد فغفل عن الموالى والسغد الذين ثاروا على العرب فى سمرقند ولحقوا بالترك وساعدوهم على العرب .

ولما تولى هشام بن عبد الملك حاول واليه أشرس بن عبد الله السلمى أن يهدئ من ثائرة السغد المعاندين واستمع إلى نصيحة أحد كتابه وهو من الموالى الأعاجم

---

(١) الطبرى / جـ ٨ / ١٣٢ .

يدعى عميرة اليشكرى، فبعث فى طلب أبى الصيداء صالح بن طريف، ذلك المولى الذى وفد من قبل على عمر بن عبد العزيز ونجح فى أن يجعله يحط الجزية عن بنى قومه ووجهه أشرس إلى الأعاجم سفيراً يحمل موافقته على أن يضع الجزية عن من أسلم ، وقد وفق أبو الصيداء فى دعوته توفيقاً كبيراً ودخل كثير من الموالى فى الإسلام ، ولكن الدهاقين الملتزمين بتحصيل أموال الخراج ضاقوا بذلك وشكوا إلى أشرس وقالوا له : « ممن نأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عرباً؟» وحاول أشرس أن يتخلص من مغبة عمله فبدأ ينفذ ما كان الجراح الحكمى قد فكر فيه من تضييق الطريق على الداخلين فى الإسلام بمطالبتهم بالاختتان وإقامة الفرائض وقراءة سورة من القرآن ، فعزل أشرس ابن أبى العمرطة عن حرب السغد فى سمرقند وعين مكانه عمالا آخرين أمرهم بأخذ الجزية ممن أسلم ، وامتنع هؤلاء عن دفعها ، واعتزل قوم من أهل السغد وكانوا سبعة آلاف فنزلوا قريباً من سمرقند ، وانضم إليهم أبو الصيداء وقدم معه من تميم والأزد وبكر وكان منهم ثابت قطنة وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز ولكن أمكن صرف هؤلاء العرب بالشدة عن القضية التى تعصبوا لها وفقد المتمردون سندهم وأخضعوا من جديد ولقوا من العمال فى جباية الجزية عنتا واستخفافاً (١).

ولم تنته المشكلة عند ذلك؛ فقد كان العود إلى سياسة الشدة سبباً فى إثارة السغد فى جميع أنحاء المنطقة وأصبحت المسألة فى نظرهم رغبة ملحة فى تحرير أنفسهم من سلطان العرب فاستجاشوا الترك فجاءهم الخاقان فى جيش كبير من الترك والفرس كما جاءهم خسرو بن يزدجرد ، وكان مركز الثورة فى واحة بخارى، وفى أخريات سنة ١١٠ هـ نهض أشرس على رأس الجيش العربى من مرو ليدرأ خطر الترك، ولكنهم سدوا أمامه طريق العبور على نهر بلخ فلم يتقدم إلى بيكند إلا بعد قتال عنيف ، وقطع الترك عنه الماء وكاد جيشه يهلك عطشاً حتى مات منه سبعمائة رجل ، وعجز بقية الجيش عن القتال ، وأخيراً قام الحارث ابن سريج ، وكان أميراً فى جيش أشرس، فحض الناس وقال لهم : القتل بالسيف

---

(١) الطبرى / جـ ٨ ص ١٣٧ .

أكرم فى الدنيا وأعظم أجراً عند الله من الموت عطشاً ، وتقدم ببعض الفوارس فخاطروا بأنفسهم وقتل بعضهم، ولكنهم استطاعوا أن يكشفوا الترك ويزيلوهم عن الماء حتى شرب الناس وقتل فى هذا اليوم من فرسان المسلمين ثابت قطنة وعبد الملك بن دثار الباهلى وغيرهما واستطاع العرب أن يشقوا طريقهم إلى بخارى فاتخذوها معسكراً ومنها حملوا على خوارزم ولكن فرقة من الجيش انقطعت فحاصرها الخاقان فاستماتت فى القتال ولكن الترك أعطوهم الأمان على أن يعودوا إلى الدبوسية ولا يلحقوا بالجيش الأساسى [١] .

وأنجد هشام أشرس بجند بقيادة الجنيد بن عبد الرحمن المرى وأفلحا معاً فى هزيمة الترك عند رزمان وفكا الحصار عن سمرقند وعادا بالجيش سالماً إلى خراسان ، ويبدو أن الحارث بن سريج هو الذى استطاع أن يحصل على الأمان للفرقة التى عادت إلى الدبوسية ، وكان الحارث أول أمره خارجيا متشددا فى الدين وإن لم يكن متشدداً فى متابعة الآراء المتطرفة التى تعصب لها الخوارج ثم تحول إلى الإرجاء ، وكان كاتبه الجهم بن صفوان أحد رءوس مرجئة الجبرية وأشهر متكلميها[٢] .

وقد انتهت عندهما فرقة المرجئة بالفعل إلى أن صارت جماعة ثائرة تؤكد شيئاً يمكن أن تتفق عليه كلمة الطوائف المختلفة لأهل الديانة من الثائرين وهى الدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الدولة الثيوقراطية ومعارضة الاستبداد الذى كان قائماً ونصر جانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف، وذلك بعد أن تحركت مسائل الخلاف حول الخلافة إلى المحل الثانى [٣] .

وكان الولاة القيسيون الذين عينتهم الحكومة قد أفقدوها فى خراسان كل ثقة عند الصديق والعدو، وأثمرت سياستهم سخطاً عميقاً بالغ التأثير وتذمراً واسعاً، بدأ الحارث ثورته مستندا إليه فحرض الموالى وأثارهم واعداً بإحقاق الحق

---

(١) الطبرى / جـ ٨ / ص ١٤١ .
(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٤٠ ، لسان الميزان / جـ ٢ / ص ١٤٢ .
(٣) تاريخ الدولة العربية / ص ٤٤٢ .

فيما وعدوا به من إسقاط الجزية وإشراكهم فى أعطيات المقاتلين وانضوى تحت رايته السوداء الدهاقون وأهل القرى وسار على آثار أبى الصيداء وكان من بقى من أصحاب أبى الصيداء من العرب فى عداد حاشيته فتولوا قيادة الحركة لإنصاف الأعاجم المسلمين باعتبارهم مواطنين فى الدولة الثيوقراطية، واشترك معهم كثير من القادة العرب من تميم والأزد واتسع نطاق الثورة فلم تعد قاصرة على المرجئة إذ كان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وظل لعدة سنوات فى أواخر ولاية الجنيد لا تعرف شىء من أخباره إلى أن ولى خراسان عاصم بن عبد الله فنجح الحارث فى ولايته فى أن يمد الثورة لتشمل إقليم طخارستان ووصل إلى الفارياب وسار منها إلى بلخ بعد أن قاتل حتى عبر النهر قتالا ظافراً، وفر أمامه عمال بلخ ومرو الروذ وهراه وأصبحت طخارستان جميعها خاضعة له وخضع له العرب الذين كانوا فيها وبخاصة من الأزد وبكر وانضم إليه جبغوية نائب ملك الترك فى طخارستان العليا وأمير الختل . ولم يبق فى يد الأمويين من خراسان سوى مرو وأبرشهر فى الغرب ، وتضخم جيش الحارث بعد انتصاراته فى طخارستان تضخماً شديداً واجتمع له فى هذا الجيش فرسان العرب ورجالة العجم فتقدم بهم الحارث إلى مرو وكان قد كاتب تميماً فيها وسوغ له ذلك أنه أصلاً من هناك[1] .

واضطر عاصم إلى أن يتقهقر أمام الحارث إلى أبرشهر وهى من أرض قيس، ولكن رجاله أقنعوه بالثبات بعد أن حلفوا له واستطاع أن يرد أول هجوم قام به الحارث ولكنه عندما بلغه إقبال أسد بن عبد الله القسرى ليحل محله على خراسان هم بأن ينضم إلى الحارث ولكن يحيى بن حصين رده عن ذلك ونجح يحيى أيضاً فى أن يرد بكرا عن مساندة الحارث فتخلت عنه وتميزت فى قتال الحارث الذى هزم مرة أخرى ورجع عبر النهر وحاصر هناك مدينة ترمذ، ولعله من المفيد هنا أن نذكر أن خراسان كانت فى تلك الفترة خاضعة للخليفة مباشرة، وقد رأى عاصم بن عبد الله أن تنضم خراسان إلى العراق حتى تتيسر إدارتها وإمدادها،

---

(١) الطبرى / جـ ٨ / ١٥٢ .

وقد كان هذا الرأى سبباً فى عزل هشام لعاصم عن ولايتها سنة ١١٧ ه وأمر خالد بن عبد الله القسرى بأن يبعث أخاه أسداً إليها، وقد استطاع أسد أن يرتفع فوق العصبية فأطلق سراح عمال الجنيد القيسيين الذين كان حبسهم عاصم على الرغم من عداء أسد لهم . وبدأ أسد قتاله مع الحارث فيما وراء النهر واسترد كثيراً من المدن التى استولى عليها الحارث ولم يتعرض أسد لترمذ التى كان الحارث يحاصرها مكتفيا بأن أهلها يدافعون عنها دفاع المستميت حتى يئس الحارث من فتحها وترك حصارها وقصد طخارستان وبدأ أصحابه يتفرقون عنه .

واتجه أسد لملاقاته فى طخارستان ودخل أسد بلخ واتخذها داراً ونقل إليها الدواوين والجند وأقام فيها ما يشبه القاعدة العسكرية وخلط فيها بين الجند ليتجنب العصبية واستمال الدهاقين . وإزاء هذا اضطر الحارث إلى الهرب إلى طخارستان العليا لائذاً بأصهاره فى قلعة التبوشكان ولكن هؤلاء لم يريدوا أن يعرضوا أنفسهم للضرر من أجله فأخرجوه ومن معه وأجروا مفاوضات مع أسد، وعلم أسد بنفاد مئونة القلعة من بعض المفاوضين الخائنين فأرسل جديع الكرمانى لمهاجمتها واضطر الكرمانى أهلها للتسليم بعد أن أجهدهم العطش والجوع ، وقتل الأسرى وبيع النساء والأولاد على الرغم من أصلهم العربى فى سوق بلخ فى مزاد علنى (١) .

وفى سنة ١١٨ ه أوقع أسد بحلفاء الحارث من الختل فى شمالى نهر بلخ، ولكنه اضطر للعودة بعدما استنجد الختل بخاقان الترك ، وما كاد يعبر النهر حتى ظهر أعداؤه على الضفة الأخرى وعبروا النهر وهاجموا طلائع أسد التى سرحها أمامه بالغنائم فأصابها العدو ونجح أسد فى آخر لحظة فى استنقاذ الجند وفر بهم إلى بلخ ، وتغنى الصبيان بالفارسية بأغنيات يغيظون أسداً بها، ولم يدع الحارث أسدا ينعم بالهدوء فجمع حلفاءه وعسكر فى جوزجان ومعه أصحابه من أهل السغد والبابية وملك السغد وأمير الشاش وصاحب الختل وجبغوبة أمير

(١) الطبرى / ج ٨ / ١٦١ .

الترك، فهاجمهم أسد من خلفهم وظفر العرب بالمعسكر وأطلقوا أسراهم فيه وغنموا غنائم كثيرة[١] .

وحال الشتاء دون المضى فى مطاردة الحارث وعاد هذا مع الخاقان إلى بلاده، ولكن الخاقان يقتل على يد أحد كبار رجاله ليظهر الخلاف بين الترك، وقد نعم العرب نتيجة لذلك بفترة هدوء وسقط فى هذه الفترة خالد بن عبد الله، وخلفه على العراق وال من قيس، ولكن هشاماً حال دون ذلك وعين خلفاً لأسد نصر ابن سيار الكنانى الذى نشأ بخراسان وخدم الدولة هناك طويلا ولم تكن له عشيرة قوية يستند إليها وإن كان أكثر ميلا إلى تميم فعزل عمال أسد وعين مكانهم عمالا من خندف وأعاد مقر الحكومة إلى مرو وتمكن من قتل كورصول الترقش الذى آلت إليه زعامة الترك بعد قتله الخاقان وصلبه نصر على شاطئ النهر[٢] .

وشعر الحارث بكثير من الحرج فى مواجهة جند نصر التميميين من أهل عصبيته وقد مهد هذا لنجاح نصر فى مصالحة أهل الشاش واشتراطه عليهم أن يخرجوا الحارث، ثم سار نصر إلى فرغانة وصالح أهلها ، وأخرج أهل الشاش الحارث فقصد الفارياب وأقام حينا يترقب حتى اندلعت نيران الفتنة التى أعقبت مقتل يزيد بن الوليد[٣] .

وكان من أهم أعمال نصر إصلاحه لنظام الخراج ، فصارت الجماعات غير المسلمة فحسب، هى التى تدفع الجزية ، وحدد الخراج حسب كل منطقة بمقدار ثابت وصار يؤخذ من جميع ملاك الأرض بحسب ما يملكونه دون تمييز بين المسلمين وغيرهم من الرعايا الخاضعين للدولة ، وأصبح المسلمون عرباً أو موالى يقفون من حيث المبدأ والقانون على قدم المساواة ، وفى أخريات سنة ١٢٦ هـ خرج الحارث من بلاد الترك وعاد إلى الظهور على المسرح من جديد ، وكان يزيد بن الوليد قد أمن الحارث قبل وفاته؛ لأن أم يزيد كانت

---

(١) الطبرى / جـ ٨ / ١٧٧ .
(٢) الطبرى / جـ ٨ / ١٨١ .
(٣) الطبرى / جـ ٨ / ١٢١ .

إحدى أميرات السغد [١] .

وحاول نصر أن يصالح الحارث وأن يحاسنه فدعاه إلى مرو واستجاب الحارث فنزلها فى رمضان سنة ١٢٧ وغمره نصر بأنواع التكريم والهدايا ولكنه ظل متمسكاً بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية وطالب بها نصراً [٢] .

ومضى نصر فى محاسنة الحارث إلى حد بعيد فأطلق أبناءه من الأسر ورد له أمواله وأجرى عليه خمسين درهماً كل يوم وأنزله قصرا، ولكن الحارث باع ما أهدى إليه وفرقه فى أصحابه ورفض ما عرضه عليه نصر من توليته إحدى الولايات وإعطائه مائة ألف دينار وأرسل إلى نصر يقول له: « لست من هذه الدنيا ولا من هذه اللذات ولا من تزويج عقائل العرب فى شىء وإنما أسأل كتاب الله عز وجل والعمل بالسنة واستعمال أهل العدل والفضل فإن فعلت ذلك ساعدتك على عدوك »، وكاتب الكرمانى عدو نصر. . . « إن أعطانى نصر العمل بكتاب الله وما سألته من استعمال أهل العدل والفضل عضدته وقمت بأمر الله وإن لم يفعل استعنت عليه وأعنتك إن ضمنت ما أريد من القيام بالعدل والسنة »، وخاطب نصراً بقوله: « خرجت من هذه المدينة منذ ثلاث عشرة سنة إنكاراً للجور وأنت تريدنى عليه » [٣] .

وقد انضم إلى الحارث ثلاثة آلاف رجل من تميم وبدأ خطره يعظم من جديد ورجاله يدعون بدعوته فى مساجد العراق وخراسان وكان يطمح فى أن يقضى على سلطان بنى أمية فى المنطقة كلها ، وقد ناظر نصراً وحكّما بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان فحكما بأن يعتزل نصر وأن يكون الأمر شورى فأبى نصر بطبيعة الحال وخرج الصراع بينهما بذلك إلى دوره الصريح فنزل الحارث معسكراً أمام مرو وحاول أن يستولى على المدينة فى أواخر جمادى الآخرة سنة ١٢٨ هـ وفشلت المحاولة وأسر داعية المرجئة الأكبر جهم بن صفوان

---

(١) الطبرى / ج ٨ / ١٨١ .
(٢) تاريخ الدولة العربية / ص ٤٥٩ .
(٣) الطبرى / ج ٩ / ١٨٩ .

وقتل . وكان جهم يتولى للحارث كتابة المنشورات التى تتضمن سيرته ومبادئه ويقرؤها على الناس ويدفع بها إلى من يقرؤها فى المساجد [١] .

ولما وصل الأمر إلى هذا الحد كاتب الحارث الكرمانى فانضم إليه فى قومه من الأزد وتحت ضغط الثوار فى مرو اضطر نصر إلى الجلاء عنها والنزول فى نيسابور ولكن الخلاف ما لبث أن ثار بين أتباع الحارث التميميين الذين كانوا لا يزالون يشعرون بالحقد على الكرمانى الذى قتل مئات من أنصار الحارث وأصهاره عندما سيره أسد بن عبد الله القسرى إلى قلعة التبوشكان وقد تزعم هذا الانشقاق أحد كبار مساعدى الحارث وهو بشر بن جرموز فخرج على التحالف يدعو إلى الكتاب والسنة وقال بشر للحارث : إنه إنما خرج معه مقاتلاً طلباً للعدل ، وأن انضمام الكرمانى له معناه أن القتال أصبح من أجل الغلبة والعصبية ، واعتزل بشر فى خمسة آلاف وكانت النتيجة أن الحارث ترك محالفة الكرمانى وانضم إلى بشر بعد أن بدأ بشر القتال .

ولكن الأزد وحلفاءهم هزموا تميماً ومضر آخر رجب سنة ١٢٨ هـ وأخرجوهم من مرو وقتل الحارث وصلب جسده[٢] .

وهكذا انتهى الحارث بن سريج الذى كان كما قيل عنه رجل شؤم ، إذ فرق كلمة المسلمين فى هذه المنطقة مهما كانت المبادئ التى دعا إليها ؛ فقد استعان بالترك على العرب المسلمين ثم فرق كلمة العرب بعد أن عاد إلى الظهور مرة أخرى ؛ فكان الممهد الحقيقى لأبى مسلم الخراسانى إذ أن نصراً فشل فى القضاء على الكرمانى الذى رد محاولات نصر وابن هبيرة لاسترداد مرو وظل نصر يستغيث بالدولة دون جدوى[٣] ، حتى ظهر بنو العباس ، وتجمعوا تحت لواء أبى مسلم فاستنجد نصر بربيعة فدخلت فى الفجوة بين مضر واليمن ، وبدأت المفاوضات بين نصر والكرمانى ولكنها توقفت بسبب أن ابن الحارث كان قد

---

(١) الطبرى / جـ ٨ / ٢١٣ .
(٢) الطبرى / جـ ٨ / ٢٣٥ .
(٣) الطبرى / جـ ٨ / ٢٣٩ .

انضم إلى نصر ضد الكرمانى فانتهز فرصة قتله فيها ثأراً لأبيه، وكان ذلك بإيعاز من أبى مسلم ، ولم تكد مدينة هراة تسقط فى يد أبى مسلم حتى أيقن العرب بالخطر فوادع أصحاب الكرمانى برئاسة شيبان بن سلمة الحرورى الخارجى نصراً وتمكن من دخول مرو آخر سنة ١٢٩ هـ ، ودخل مع الأزد فى هذه الهدنة علىّ بن جديع الكرمانى، ولكن أبا مسلم أوعز إلى على أن قتل أبيه إنما كان بتدبير نصر وتمكن أبو مسلم من ضم على إليه ومن تبعه من الأزد فى قتال نصر، واستمر القتال فى مرو وضواحيها مدة طويلة وانتهى بأن صار أبو مسلم سيد الموقف وهرب نصر إلى سرخس فطوس حتى نيسابور وكان ذلك بداية النهاية للدولة الأموية .

٢

كانت بيئة المرجئة الحقل الذى نبتت فيه طائفة القدرية على أثر اتجاه المرجئة إلى البحث فى الأمور اللاهوتية المتصلة بالسياسة كتحديد الإيمان والكفر ، وقد جر هذا إلى البحث فى الاختيار والجبر .

والجبر والاختيار موضوع قديم فى الدراسات القديمة ولكن البحث فيه لدى المسلمين لم يحدث إلا نتيجة لافتراق الفرق وحاجتها إلى الجدل فى آخر العصر الأموى واستمدادها لمنابع الثقافة العربية والإسلامية والأجنبية وهى تلك الروافد التى تكون منها تيار الثقافة فى هذا العصر .

والمنبع العربى يتبدى فى التيار الجاهلى الذى يتجلى فى الشعر والأيام والأنساب والتقاليد الجاهلية، وكان المسلمون يعبون من هذا الرافد عبًّا ، فسرعان ما ظهر من بينهم علماء كثيرون متخصصون فى معرفة الشعر وروايته والأنساب وتشعباتها وأخبار الجاهلية وآياتها من مثل عبيد بن شرية ودغفل بن حنظلة والنخار بن أوس ، العذرى، وغيرهم ممن بلغ حظًّا وافراً من المهارة فى هذه الفنون .

وكان الرافد الإسلامى يتجلى فى القرآن الكريم وحديث الرسول ــ صلى الله

عليه وسلم — وسيرته وغزواته ثم فى أحداث الفتوح وما أعقبها من حروب داخلية بين على وخصومه، وقد انشعب هذا الرافد شعبتين إحداهما تاريخية تعنى بتاريخ الإسلام وتسجيله على نحو ما يصور لنا ذلك أبان بن عثمان بن عفان وعروة ابن الزبير فى الاهتمام بمغازى الرسول وغير ذلك مما عنى به بعض من جمع أخبار أهل الكتب السماوية مثل وهب بن منبه، وشعبة دينية تعنى بقراءات القرآن وبالحديث النبوى وما يتصل بهما من تشريع وفقه .

وقد ألف أصحاب هذه الشعبة فى كل بلد إسلامى مدرسة كبيرة؛ فكانت فى مكة مدرسة ابن عباس وأشهر تلاميذه عطاء وعكرمة ، وبالمدينة سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ومولاه نافع وعبيد الله بن عتبة وعروة بن أذينة والزهرى، وباليمن طاوس، وبالكوفة تلاميذ ابن مسعود وعلى رأسهم الشعبى وسعيد بن جبير وشريح بن الحارث القاضى ، وبالبصرة ابن سيرين والحسن البصرى وقتادة وإياس بن معاوية ومالك بن دينار، وبخراسان الضحاك بن مزاحم، وبالشام شهر بن حوشب ومكحول والأوزاعى ، وبمصر الصابحى ويزيد بن عبد الله البربى[١]

وقد أخذت تنشأ حول هذين الرافدين طائفة من المعلمين العامين الذين كانوا يعلّمون الناشئة القرآن والشعر وما يتصل بهما ، وكان منهم معلمون لأولاد الخلفاء والخاصة من مثل عبد الصمد بن عبد الأعلى ومعلمون لأولاد العامة فى الكتاتيب .

وقد اشتهر الحجاج الثقفى وأبوه بأنهما كانا معلمين بالطائف كما اشتهر الكميت بن زيد بأنه كان يعلم الصبية بالكوفة ، وفى مكة كان هناك عطاء ابن أبى رباح وفى خراسان الضحاك بن مزاحم وفى الرى كان الطرماح ، وقد قال بعض من شاهدوه هناك : « لقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء »[٢] .

وقد التقى بهذين الرافدين الإسلامى والجاهلى جدول ثالث أجنبى جاء

---

(١) انظر / تاريخ الأدب العربى / العصر الإسلامى ص ٢٠٠ .

(٢) البيان والتبيين ج ٢ / ص ٣٢٣ .

العرب من ملابستهم للأمم الأجنبية فهم بعد الفتح قد أخذوا كل ما لدى هذه الأمم من معارف تطبيقية نافعة كتخطيط المدن وعمارة المبانى واستغلال الأرض وشق الترع والقنوات والنظم المالية فى جباية الخراج وضبط الدواوين وقام بهذا الفرس فى دواوين العراق وفارس وخراسان ، كما قام الروم بهذه المهمة فى مصر والشام وظلوا كذلك حتى عصر عبد الملك إذ عربت الدواوين وقد دفعتهم حروبهم مع الروم إلى إنشاء الأساطيل واقتباس كثير من أساليبهم الحربية .

ولم يقف تأثر العرب بالأجانب عند حد المعارف التطبيقية النافعة وإنما تحولوا إلى المعارف النظرية البحتة يدرسونها وكانت الثقافة الهلينية منتشرة فى البلاد التى فتحوها وهى مزيج من ثقافة اليونان وثقافات شرقية مختلفة دينية وغير دينية.

وكانت الإسكندرية مركز العالم الإغريقى إذ ورثت أثينا بعد أن أقفل ثيودوسيوس فى روما المدارس ، وانتهت المكايد المختلفة باضطرار أوريجن إلى مغادرة الإسكندرية فلجأ إلى فلسطين حيث أنشأ هناك فى قيصرية مدرسة على مثال مدرسة الإسكندرية وحول أورجين نشاطها إلى التخصص فى نقد النصوص وتركز نشاطها فى دراسة اللاهوت ونشأ على غرار هذه المدرسة مدرسة أخرى أسسها مانخيون فى أنطاكية سنة ٢٧٠ م . وقام على غرارها أيضا مدرسة فى نصيبين فى بيئة سريانية خالصة وعنيت بدرس اللغة الإغريقية لتكون همزة وصل بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية وحياة الكنيسة فى عمومها[١]

وقد استمر الجدل بين مدرسة الإسكندرية ومدرسة أنطاكية فيما يعرف بالنزاع الأريوسى حول علاقة المسيح بالله ، والنزاع حول شخصية المسيح المتجسد ، وقد مثلت مدرسة أنطاكية النزعة المتطرفة فى هذا الجدل ودافع عن تطرفها بإزاء مدرسة الإسكندرية نسطور الراهب الأنطاكى الذى دمغه مؤتمر أفسوس عام ٤٣١ م بالإلحاد وكان نتيجة ذلك أن لقى النساطرة اضطهاداً من الكنيسة الرسمية وهربوا وانتشرت تعاليمهم بين المسيحيين الذين يتكلمون السريانية .

---

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ٤٣ .

وفى سنة ٣٦٣ م سلمت مدينة نصيبين إلى الفرس كشرط من شروط السلام التى انتهت بها الحرب ، وعند تراجع أعضاء المدرسة إلى الأقاليم المسيحية تجمعوا فى الرها وافتتحوا مدرسة فيها أصبحت مركزاً للكنيسة النسطورية التى تستخدم اللغة الوطنية واوى إليها المتطرفون من الذين رفضوا قرارات أفسوس وبسبب طابعها النسطورى الواضح أغلقها الإمبراطور زينو ٤٣٩ م فهاجر أعضاؤها إلى فارس حيث استقبلوا هناك استقبالاً ودياً كانت نتيجته أنهم أيدوا الملكية الفارسية فى صراعها مع الإمبراطورية الرومية .

وأعاد النساطرة فتح أبواب مدرسة نصيبين فصارت بؤرة للنشاط النسطورى حتى عرفت شعوب المنطقة ، المسيحية فى صورتها النسطورية ، كما عرفت الفلسفة الهلينية بعد ذلك بفضل ترجمات عربية مأخوذة من النسخ السريانية[١].

وأنشأ كسرى أنوشروان فى أواسط القرن السادس مدرسة جند يسابور حيث استضاف فيها الفلاسفة اليونان الذين طردهم جوستنيان من أثينا وجلب لهم كتب الفلسفة والعلم من الهند .

وكذلك كانت فى حران مدرسة وثنية احتضنت الثقافة الإغريقية حتى أصبح العالم الهلينى مسيحياً فى عمومه .

وهكذا نجد القرون التى سبقت ظهور الإسلام مباشرة تشهد انتشار المؤثرات الهلينية انتشاراً واسعاً ثابتاً فى كل شكل من أشكال الثقافة المختلفة من علم إلى فلسفة إلى طراز بناء إلى رفاهات الحياة .

وبفضل التسامح لم تتغير الحياة الداخلية للمجتمعات المسيحية التى عاشت فى حرية تامة ؛ فكانت خاضعة فى دفع الجزية فحسب ، وبينما كان للنساطرة هذه المدارس العظيمة كان لليعاقبة الذين رفضوا أيضا نظرية الدولة الرسمية فى طبيعة المسيح أديرة بمثابة المدارس ، وكان أهمها ديرهم قنسرين وكان مركزا عظيما للدراسات الإغريقية ومن أشهر خريجى هذا المركز ساويرس سبنحت وتلميذه

---

(١) نفس المرجع ص ٥٢ .

يعقوب الرهاوى ، وكانا من بين الذين يعنون بالمنطق الأرسططاليسى والفلسفة اليونانية ، ويذكر أن يعقوب الرهاوى أباح لرجال الدين النصارى أن يعلموا أولاد المسلمين ، ومعنى هذا أن بعض المسلمين كانوا يتوقون إلى دراسة الفلسفة على أساتذة السريان ، ولكن هؤلاء كانوا يلقون حرجاً فى تعليمهم .

ولم يحدث الفتح الإسلامى أى تغيير فى مجرى هذه الدراسات ، ولم يكن حكام المسلمين يتدخلون فى شئونهم إلا عندما يستعدى أحد رجال الدين الخليفة على أحد زملائه وقد بدأ أثر الفكر الهلينى يظهر فى نهاية العصر الأموى فى صورة نقد للأفكار المقبولة فى علم التوحيد الإسلامى ، وأخذت هذه الآثار تنتقل إلى المسلمين نتيجة للاحتكاك بالمسيحيين الذين أثرت عندهم الدراسات الفلسفية والمنطق تأثيراً عظيما فى اللاهوت بحكم طبيعة موضوعات المناقشة فى المنازعات الأريوسية والنسطورية واليعقوبية — وقد سببت هذه التأثيرات صعوبات فى علم التوحيد لأنها صيغت صياغة جزئية فى صورة نظريات دينية شكلت فى مجتمع يجهل الفلسفة تماما[١] .

وكان طبيعيًّا أن يتصل المسلمون بهذه الفلسفة وبذلك المنطق إذ كانوا ناشرين لدينهم وكانوا يجادلون النصارى وغيرهم من أصحاب الملل ، وقد استشهد يوحنا الدمشقى المتوفى سنة ١٣١ هـ ، الذى أشرف على الشئون المالية لغير خليفة أموى ، بأنهم كانوا يجادلونه فى كثير من حقائق المسيحية وكثير من المسائل الفلسفية ؛ وله مصنفات مختلفة منها رسالة فى الردود على المسلمين جارية على هذا النهج : إذا قال لك العربى كذا فأجبه بكذا ، ويحتوى هذا الحوار على آرائه فى ألوهية المسيح وحرية الإرادة .

ولا شك فى أن كثيراً من آرائه قد تسرب إلى المسلمين والتاريخ يحدثنا بأن بعض مناقشاته كانت تدور فى مجلس الخليفة وأنه كان فصيحاً حتى سمى بصاحب اللسان الذهبى ، فكان يكتب اليونانية ويتكلم الآرامية والعربية وكان نديماً ليزيد بن معاوية وخلف والده سرجون فى الإشراف على شئون المال بدمشق

---

(١) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ٩٨ .

وظل بوظيفته حتى عهد هشام ثم انصرف عن العمل إلى الزهد فى دير القديس سابا على مقربة من بيت المقدس[١].

ومضى العرب يطلبون الوقوف على ما عند القوم من وجوه الاستدلال المنطق ليستعينوا به على دحض الشبه ويدعموا جدالهم بالحجج القاطعة ، وينبغى أن نلاحظ أن كثيرين من حملة هذه الثقافة الهلينية قد أسلموا وتحولوا يدافعون عن الإسلام ويردون على خصومه ، ولا تلبث هذه الثقافة أن تترجم وبين أيدينا أخبار تدل على أن العرب اهتموا بالترجمة منذ هذا العصر ، من ذلك ما يروى عن خالد بن يزيد بن معاوية من أنه درس الطب والكيمياء[٢] . وقد رأى له ابن النديم مصنفات منها كتاب الحرارت وكتاب الصحيفة الكبير والصغير وكتاب وصيته لابنه[٣] .

وفى أخبار عمر بن عبد العزيز أنه استخار الله ثم أمر ما سرجويه البصرى أن ينقل له من السريانية إلى العربية كتابا فى الطب للقس إهرن بن أعين[٤] ويروى أن سالماً مولى هشام بن عبد الملك ترجم بعض رسائل لأرسطاليس[٥].

وإذن فقد تحولت ألوان من الثقافة الهلينية إلى العرب ومن المؤكد أن هذا التحول لم يتأخر إلى العصر العباسى كى يتم أو كى تتم دورته ، فقد كان كل شىء فى هذا العصر الأموى يدفع إلى تمامه لا عن طريق الترجمة فحسب ، بل أيضا عن طريق المشافهة وانتقال الشعوب المفتوحة إلى الإسلام والعربية بكل كنوزها الفكرية ومعارفها العقلية[٦] ، وهكذا سرت تيارات عديدة من الثقافة الأجنبية إلى المسلمين الذين شغلوا بالبحث واجتلاب الأدلة للدفاع عن دينهم ومذاهبهم ، وقد كان معنى هذا أن دعم العقل العربى بمواد ثقافية كثيرة نجد آثارها فى العلوم

---

(١) تاريخ العرب (مطول) ج ٢ / ص ٣١٤ .

(٢) البيان والتبيين ج ١ / ص ٣٢٨ .

(٣) الفهرست / ص ٣٣٨ .

(٤) طبقات الأطباء : ج ١ ص ١٦٣ ، تاريخ الحكماء ص ٣٢٤ .

(٥) الفهرست / ص ١٧١ .

(٦) تاريخ الأدب العربى / العصر الإسلامى ص ٢٠٣ .

الإسلامية الخالصة كعلوم الفقه والتفسير والحديث وفى المناظرات التى كانت تنشب بين الآراء المختلفة فى الدين والسياسة وغير ذلك .

وقد أثار الخوارج جدالاً فى كل مكان مع على وابن عباس وعبد الملك وعمر بن عبد العزيز كما أثاروا جدالاً فيما بينهم ، ويشيد المبرد بقدرتهم على استظهار الأدلة والبراهين [١] .

وكذلك تجادل الشيعة وجادلوا غيرهم من الفرق المعاصرة وممن اشتهر بالقدرة على الجدال زيد بن على مؤسس الزيدية وقد ظهر منهجه فى الجدال عند شاعره الكميت الذى أخذ يقرر نظرية الزيدية فى شعره ويبسط أصولها ويدافع عنها بالحجج والبراهين .

وفى بيئات الفقهاء كثر الجدل فى مسائل الفقه وتروى أخبار كثير من المناظرات من مثل مناظرة قتادة والزهرى فى مجلس سليمان بن عبد الملك [٢] . ومناظرة ابن شبرمة وإياس بن معاوية التى تناولا فيها سبعين مسألة [٣] . وقد نشأ عن ذلك علم الاختلاف بين الفقهاء ، وكان أيوب السختيانى يقول : « لا يعرف الرجل خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف »[٤] .

وأداهم ذلك إلى تحكيم العقل فى آرائهم والتدقيق فى مسالك أدلتهم حتى نشأ بينهم من سموا بأهل الرأى ، لغلبة القياس على فقههم [٥] وقد عرفت مدرسة العراق بهذا الاسم حتى كانوا ينسبون إليها فيقولون ربيعة الرأى وهو شيخ مالك ويرجع كون العراق موطناً لمدرسة الرأى لقلة الحديث فى العراق ، بينما تركز نشاط أهله فى الحجاز فى الوقت الذى تأثر فيه العراق بالمدنيات الأجنبية وثقافاتها ، وكان لهذه المدرسة مميزاتها الواضحة لكثرة التفريعات حتى الخيالى منها

---

(١) الكامل / ص٥٦١ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٣) طبقات ابن سعد جـ ٧ / ق ٢ / ص ٥ .

(٤) البيان والتبين جـ ٢ / ٩٨ .

(٥) المعارف / ص ٢٤٨ .

مما ساقهم وراء الفروض فأكثروا من « أرأيت لو كان كذا ؟ » يسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ثم يفرعونها بهذا القول ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة شأنهم فى ذلك كشأنهم فى تطلب وجوه الإعراب وجوازات اللغة والتلفيق فى الفقه بين المسائل المختلفة حتى سماهم أهل الحديث بالأرأيتيين، فقال الشعبي : « والله لقد بغض هؤلاء القوم إلىّ المسجد حتى لهو أبغض إلى من كناسة دارى» قلت: « من هم يا أباعمر؟» ، قال « الأرأيتيون»[1] . وكانوا ينصحون من يلحف فى السؤال بالتوجه إلى العراق [2] وقد ضاق سعيد بن المسيب باعتراض لربيعة الرأى فى مسألة ، فسأله : أعراقى أنت؟ وليس هناك من علة لاتخاذ العراقيين لهذا المنحى فى تفريع المسائل غير انتشار المنطق هناك .

وقد تجادل المسلمون أيضا فى مسائل العقيدة وكانت أهم المسائل المعروضة للنقاش الفلسفى آنذاك هى مسألة الاختيار . وموقف القرآن الكريم صريح فى هذه المسألة فالله سبحانه وتعالى قدير على كل شىء ، عليم بكل شىء وكل الأشياء معلومة له ومحكومة به، وهكذا فلا بد أن تدخل فى ذلك أفعال العبادة، والثواب والعقاب اللذان يترتبان عليها: « ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها » ، « وكل شىء أحصيناه فى إمام مبين» ، ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين»، « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » ، « ولا ينفعكم نصحى إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون » . «أفمن حق عليه كلمة العذاب، أفأنت تنقذ من فى النار » ، « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وعلى الرغم من ذلك فإنه يظهر من الدعوة إلى السلوك الخلقى أن ثمة شيئاً من المسئولية التى تدل على وجود الحرية للإنسان وأنه لهذا يستطيع أن يعمل

---

(١) الموافقات جـ ٤ ص ١٨٦ .

(٢) الموافقات جـ ٤ / ص ١٨٧ .

ما يشاء وأنه مسئول عن عمله وهذه المسئولية تقتضى الحرية فلا معنى لأن يعذب ويثاب إذا كان مقدوراً عليه أن يجرح ما جرح .

وقد وردت آيات فى القرآن الكريم تشعر الإنسان بأنه مخير ومسئول عن عمله « إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً »، « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »، « فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » ، « ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما ، ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليا حكيما » .

وليس شك فى أن عدم تمشى الالتزام والمسئولية الخلقية من جهة مع القوة غير المحدودة من جانب الله من جهة أخرى لم يكن واضحاً فى ذهن المسلمين فى ذلك الوقت ، وكذلك التناقض الظاهرى بين الآيات التى تشعر بحرية الإنسان والآيات التى تشعر بالجبر دافعاً إلى البحث فى هذا الموضوع وإلى التطلع إلى ما لدى الشعوب المفتوحة من أفكار قد تصلح لحسم هذه المشكلات . وهذا هو التعليل الذى يفسر به التشابه الملحوظ فى مظاهر المسيحية البيزنطية الأساسية والتعاليم الإسلامية، فقد كان البحث فى كنه الله وصفاته هو أول شىء له المقام الأول فى كتابات كل من آباء الكنيسة الإغريق وأقدم علماء الدين العرب[١] .

ففى العراق على سبيل المثال كان التشابه قويًّا بين آراء المعتزلة التى غرس الحسن البصرى غراسها الأول وبين آراء النساطرة الدينية المتأثرة بالفلسفة الإغريقية، ولهذا يقول دى بور : « إن هناك دلائل متفرقة على أن طائفة من المسلمين الأولين الذين قالوا بالاختيار تتلمذوا لأساتذة مسيحيين »[٢] .

وقد يعزز هذا ما قيل من أن أول من تكلم فى القدر نصرانى من العراق وأسلم ثم عاد إلى نصرانيته وأخذ عنه معبد الجهنى وغيلان الدمشقى وهما من

(١) الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية / ص ٦٦ .
(٢) تاريخ الفلسفة فى الإسلام / ص ٤٩ .

مرجئة القدرية ويروى أن الجعد بن درهم مولى بنى الحكم أول من تكلم فى خلق القرآن بدمشق ثم طلب فهرب حتى نزل الكوفة فتعلم منه الجهم ابن صفوان ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان وكان أبان تلميذاً لطالوت وطالوت كان تلميذاً لختنه لبيد بن الأعصم اليهودى وكان طالوت يقول بخلق التوراة وكان زنديقاً[١] وهو أول من صنف فى ذلك ، ثم أظهر الجعد هذه الآراء فقتله خالد القسرى فى الكوفة لعهد هشام بن عبد الملك كما قتل فى عهده أيضا غيلان الدمشقى لقوله بالقدر[٢] .

ولكننا نجد آراء أخرى تحاول أن تثبت تتلمذ القائلين بالقدر لأساتذة من الفرس ، فيقال إن معبداً الجهنى الذى ظهر القول بالاختيار فى آرائه لأول مرة كان تلميذاً لسنبويه الفارسى الذى كان يعلم فى دمشق وأن عبد الملك قد حكم على سنبويه هذا بالإعدام[٣] .

ومهما يكن من أمر فإن هذه مسألة كان قد تكلم فيها من قبل فلاسفة اليونان ونقلها عنهم السريان كما تكلم فيها الزرد شتيون ، وبحثها النصارى أيضا . ولكن بحث الزرد شتيين لها لم يكن شاملاً ولا مستقلاً ، وإنما كان بحثاً جزئياً مفردا ولغرض التوفيق بين أبحاث ما وراء المادة والدين[٤] .

وقد سمى هؤلاء الذين يقولون بحرية الإرادة للإنسان وبأن له قدرة على أعماله بالقدرية وسماهم بذلك خصومهم لحديث ورد يقول : «القدرية مجوس هذه الأمة » وكان الذين يقولون بحرية الإرادة يرون أن أولى الناس بأن يطلق عليه اسم القدرية هم الذين يقولون بأن القدر يحكم جميع أعمال الإنسان من خير وشر

---

(١) ابن الأثير جـ ٧ ص ٢٦ .

(٢) سرح العيون ص ١٦٦ ، ١٨٨ .

(٣) Brown, Lit. Hist. of Persia, V. I., p.p. 279-281.

(٤) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ص ١٠٢ . وانظر علم الأخلاق لأرسطو ترجمة أحمد لطفى السيد ص ٢٦٥ – ٢٨٦ وإيران فى عهد الساسانيين ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ص ٤١١ ، وتراث فارس ص ٢٠٠ وزرادشت الحكيم ص ٧٩ .

وعلى كل حال فقد لصق الاسم بالطائفة الأولى وصار لقباً لها [١] .

والشيء الجدير بالملاحظة أن هؤلاءقد جمعوا القول بالقدر إلى الإرجاء؛ فمعبد الجهني مرجئ قدري ، وغيلان كذلك ، والجعد بن درهم أيضاً ، وقد ذهب الشهرستاني إلى أن واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصري وأستاذ عمرو ابن عبيد قد أخذ عنهم ونسج على منوالهم [٢] وعلى عكس هؤلاء القدرية طائفة الجبريةوكان رأسها جهم بن صفوان مرجئاً جمع إلى الإرجاءالقولبالجبر ، وكان يذهب إلى أن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل وأن الله قدرعليه أعمالاً لا بد أن تصدر عنه وأن الله يخلق فيه الأفعال كما يخلق في الجماد؛فكما يجري الماء ويتحرك الهواء ويسقط الحجر فكذلك تصدر الأفعال عن الإنسان يصدرها الله فيه وتنسب إلى الإنسان مجازاً وأن الثواب والعقاب جبر كما أن الأفعال جبر وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضا جبر [٣] . ولم يقتصر جهم علىمسألةالجبر فحسب وإنما تعرض لشيء آخر لا يقل عنه خطراً . وهو نفيأن يكون لله صفات غير ذاته وقال إنماورد في القرآن مثل سميع وبصير ليس على ظاهره بل هو مؤول لأن ظاهره يدل على التشبيه بالمخلوقوهو مستحيل على الله فيجب تأويل ذلك، فكانت نتيجة نفيهالصفاتأن قال بخلقالقرآن كما أنكر رؤية الله يوم القيامة وزعم أن الجنة والنار تفنيان بعد دخول أهلهما فيهما ؛ لأنه لا يتصور حركات لا تتناهى آخراً كما لا يتصور حركات لا تتناهى أولا [٤] .

وقد نهض كثير من العلماء لمقاومة هذه الحركة ونشطوا للرد على القدرية والجبرية نشاطاً عظيما،وسرعان ما ذابت فرقة المرجئة التي اشتملت على القول بهذين المذهبين في غيرها من المذاهب ، وكانت نتيجة هذا الذوبان ظهور

---

(١) فجرالإسلام ص ٢٨٤
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص٣١ ، ٦٢
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ١١٤
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١١٥ ، الفرق بين الفرق ص ١٢٨

فرقة المعتزلة التى كثيراً ما يسمى أصحابها بالقدرية لموافقتهم للقائلين بالقدر فى إثبات قدرة للإنسان توجب الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى ، ونفيهم أن تكون الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه كما أنهم يلقبون أحيانا بالجهمية لموافقتهم إياهم فى نفى صفات الله وفى خلق القرآن وفى قولهم إن الله سبحانه وتعالى لا يرى [(١)] .

وقد اتفق المعتزلة مع المرجئة بنوعيها فى التوقف عن الحكم على أحد الفريقين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين [(٢)] وفى قولهم إن مرتكب الكبيرة ليس كافراً .

ولهذا فقد زعمنا أن بيئة المرجئة هى التى أثمرت فرقة المعتزلة وأن المرجئة القدريين والجبريين على السواء هم أساتذة المعتزلة فى القدر ونفى الصفات .

وتعد شخصية الحسن البصرى مثالا حقيقيًّا لذوبان الأفكار واحتكاكها فى هذه الفترة من تاريخ فرقة المعتزلة ، فكما كان مركباً من أفكار مختلفة شاعت فى عصره فإن المعتزلة أيضا كانوا جماع الفرق التى اشتغلت بدرس اللاهوت من قبلها .

وقد كان للحسن مجلس مشهود فى مسجد البصرة يحضره الخاصة والعامة وكان إذا ألقى إليه سؤال فى قضايا الإيمان حاول أن يجيب عليه بالرأى ومن طريق المنطق ، ولم تكن أجوبته للتقرير فحسب بل للتعليل والإقناع أيضا .

وللحسن صلة وثيقة بنشأة الاعتزال فأشهر الروايات تذكر أن مذهب الاعتزال نبع فى مجلسه ، ويذكر الشهرستانى أن أحد الناس دخل عليه فقال : « ياإمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر ، والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة وهم وعيدية الخوارج وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وهم مرجئة الأمة ؛ فكيف

---

(١) تاريخ الجهمية والمعتزلة ص ٤٤ ، بغية المرتاد ص ٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، الصواعق المرسلة جـ ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٢ ، جـ ٢ ص ٣٢٧

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥

تحكم لنا فى ذلك اعتقاداً ؟ فتفكر الحسن فى ذلك وقبل أن يجيب قال واصل ابن عطاء : « أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق بل هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر » . ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن ، فقال الحسن أعتزل عنا واصل ؛ فسمى هو وأصحابه معتزلة[١] وقد تابعه على رأيه عمرو ابن عبيد .

ويضعف بعض الباحثين هذا الرأى من عدة وجوه أهمها أن انتقال واصل من حلقة المسجد إلى أخرى أو من أسطوانة إلى غيرها ليس بالأمر الهام الذى يصح أن تلقب به فرقة ، والأوجه أن تكون التسمية متعلقة بالجوهر لا بالعرض ومنها أن اختلاف الرواة فى الرواية يجعلها محلاً للنقد فبعضهم ينسب حادثة الانفصال إلى واصل بن عطاء ، وبعضهم ينسبها إلى عمرو بن عبيد[٢] .

وكذلك لا تتفق الروايات على من الذى أطلق اسم المعتزلة ، فهو تارة الحسن البصرى كما مر ، وتارة قتادة حينما مر بعمرو بن عبيد بن باب ، فقال : ما هذه المعتزلة ؟ [٣] .

وفى كثير من الكتب التى تعنى بمباحث الكلام يقال عن شخص مثلا : إنه كان يقول بالإعتزال أو هو من أهل الاعتزال ، وهذا يدل على أن اسم الاعتزال مذهب ذو مبادئ وليس مجرد انفصال من مجلس إلى مجلس آخر وإن الاعتزال معنى من المعانى وليس حركة جسمية[٤] .

وهناك رأى آخر فى تسميتهم يحفل بجوهر مذهبهم ويجعل التسمية متعلقة بمعنى اتجاههم ، دائرة حول آرائهم واتخاذها منحنى جديدا من التفكير ، وذلك

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٤

(٢) عيون الأخبار ص ٢٤٣ ، الأعلاق النفسية ص ٢٢٠ ، الأنساب ٥٣٦ ، شرح المقامات جـ ١ ص ٣٨٥

(٣) لسان العرب ، تاج العروس : مادة عزل .

(٤) فجر الإسلام ص ٢٨٨

لأنهم اعتزلوا آراء أهل الجماعة الذين يقولون بأن مرتكب الكبيرة مؤمن ، وآراء الأزارقة من الخوارج الذين يكفرونه ، ويستعرضون الناس قتلا[١].

وقريب من هذا المعنى ما ذهب إليه عبد القادر البغدادى من أن الحسن البصرى لما طرد واصلاً من مجلسه فاعتزل إلى سارية من سوارى مسجد البصرة وانضم إليه عمرو بن عبيد ، قال الناس يومئذ فيهما : « إنهما قد اعتزلا قول الأمة » وسمى أتباعهما من يومئذ بالمعتزلة[٢] .

ويفهم من قول المسعودى أنهم إنما سموا بالمعتزلة لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، فالمعتزلة على رأيه هم القائلون باعتزال مرتكب الكبيرة[٣] .

وقد تنبه بعض الباحثين المحدثين إلى وجود صلة وثيقة بين المعتزلة وبين فئة سميت بهذا الاسم من قبل مدرسة الحسن البصرى بزمان طويل تلك الفئة التى وقفت موقف الحياد من مشكلة علىّ ومعاوية لأنها رأت فئتين متقاتلتين أو متنازعتين ولم تقتنع برأى أحدهما ولم ترد أن تدخل فى القتال والنزاع بينهما لأنها لم تكون لها رأياً أو لأنها رأت أن كليهما غير محق[٤] .

وتذهب دائرة المعارف الإسلامية إلى أن المعتزلة لا بد أن تكون قد نشأت فى فلك سياسى كما نشأت حركتا الشيعة والخوارج ،وإن ذلك يرجع إلى بدء التيارات الإسلامية التى بدأت مع تولى علىّ للخلافة سنة ٣٥ هـ حينما وقفت طائفة من المسلمين على الحياد ولم يتخذوا موقفاً إيجابيًّا فى مشكلات السياسة القائمة ، فسمى هؤلاء بالمعتزلة ،ذلك الاسم الذى أصبح اصطلاحاً سياسيًّا يعنى اتخاذ موقف الحياد بين على وخصومه[٥] .

---

(١) لسان العرب ، تاج العروس ، مادة : عزل .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٩٧ – ٩٨ .

(٣) مروج الذهب جـ ٦ ص ٢٢

(٤) فجر الإسلام ص ٢٩٠

(٥) Shorter Encyclopeadia of Islam, pp. 421-422.

ذلك ما نراه من إطلاق المؤرخين كلمة الاعتزال كثيراً على هذه الطائفة والذى يجعلنا نميل إلى هذا الرأى ما نراه من إطلاق المؤرخين لكلمة الإعتزال على هذه الطائفة التى نزعت إلى الحيدة المبكرة عن الدخول فى المنازعات ، فلم يبايعوا عليًّا ولم يكونوا من أنصار عثمان ممن أورد أبو الفدا أسماءهم وعقب عليهم بقوله: « إن هؤلاء سموا بالمعتزلة لاعتزالهم بيعة على »[1] .

وقد مر بنا ما ذكره أبو الفرج من أن والد الشاعر أيمن بن خريم كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها [2] .

وكذلك كان سعد بن أبى وقاص من الذين اعتزلوا الصراع بين على والزبير وطلحة وقال لا أقاتل حتى تأتونى بسيف يستطيع أن يعقل وينطق ويبصر ليخبرنى أن هذا أصاب وأن ذاك أخطأ . وكذلك ذكر أبو الفرج أن أيمن بن خريم نفسه اعتزل النزاع بين عمرو بن سعيد وعبد الملك بن مروان وشاركه فى الاعتزال رجل من قومه يقال له إبن كوز ، وأنه قال فى ذلك أبياتاً منها :

فإنى تارك لهما جميعاً ومعتزل كما اعتزل ابن كوز[3]

وقد كان أيمن يدعو إلى الفرار من القتال والمسارعة إلى نيل أموال العطاء كما فى قوله :

إن للفتنة ميطاً عاجلا فرويد الميط منها تعتدل
فإذا كان عطاء فانتهز وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يوقدها فرسانها حطب النار فدعها تشتعل[4]

وقد جاءت كلمة الاعتزال والمعتزل دالة على الحيدة لدى المؤرخين فى الخصومة بين علىّ ومعاوية ، ومن ذلك قول جارية بن قدامة السعدى لطلحة والزبير : « أما أنت يا زبير فحوارى الرسول ، وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله

---

(١) الأخبار جـ ١ ص ١٧١ .
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٥ .
(٣) الاغانى جـ ٢١ ص ٦ .
(٤) العقد الفريد جـ ١ ص ١١٠ .

بيدك ، وأرى أمكما معكما — يريد السيدة عائشة—فهل جئتما بنسائكما ؟». قالا : لا ، قال : « فما أنا منكما فى شىء واعتزل »[١] .

ويذكر أن الأحنف أقبل من عند علىّ فسئل عن رأيه فى النزاع القائم فقال : الاعتزال واتبعته بنو سعد فاعتزل بهم إلى وادى السباع ونادى الأحنف يا لزيد : اعتزلوا هذا الأمر فنادى المنجاب بن راشد : يا للرباب لا تعتزلوا واشهدوا هذا الأمر[٢] .

وكذلك كتب قيس بن سعد عامل مصر لعلىّ : إن قبلى رجالا معتزلين قد سألونى أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس فنرى ونرى رأيهم ، فقد رأيت ألا أتعجل حربهم وأن أكف عنهم وأن أتألفهم فيما بين ذلك لعل الله يقبل بقلوبهم ويفرقهم عن ضلالتهم إن شاء الله[٣] ؛ وكذلك يذكر الطبرى أن زياد بن أبى سفيان كان ممن إعتزل ولم يشهد معركة الجمل[٤] ، كما يذكر أن طلحة والزبير لما توجها مع السيدة عائشة من مكة إلى البصرة لإثارة الناس على علىّ خرج معهم المغيرة وسعيد بن العاصى مرحلة من مكة ؛ فقال سعيد للمغيرة : ما الرأى ؟ قال الرأى والله الاعتزال فإنهم ما يعلم أمرهم فاعتزلا ورجعا إلى مكة[٥] .

وقد ذكر الطبرى فى حوادث سنة ٣٧ هـ أن جماعة من المسلمين شكوا فى أمر القتال الدائر بين علىّ ومعاوية فرأوا أن يستأنوا ويثبتوا حتى تجتمع الأمة فاعتزلوا .

وجاء أيضاً فى الطبرى قوله : إن علىّ بن الحسين قد اعتزل المدينة لما خلع أهلها يزيد بن معاوية وحاصروا من فيها من بنى أمية بدار مروان بن الحكم

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٧٦
(٢) الطبرى جـ ٥ ص ٢٠١
(٣) الطبرى جـ ٥ ص ٢٣٠
(٤) الطبرى جـ ٥ ص ٢٢٤
(٥) الطبرى جـ ٥ ص ١٦٧

كراهية أن يشهد شيئاً من أمرهم[١] .

إذن فقد كان لهذه الكلمة معنى سياسى هو الابتعاد عن الصراع الناشب بين على وخصومه وتجنب الانغماس فى الفتنة بالميل إلى أحد طرفى النزاع ، والاستمساك بالحيدة دون مناصرة فريق على فريق أو إبداء رأى فى الحكم على أحد الفريقين .

وعلى هذا فإنه يمكن أن نستنتج من ذلك أن إطلاق هذه التسمية القديمة على مدرسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد إنما كان إحياء للاسم القديم لا ابتكاراً، وأنه لمن العسير علينا أن نصدق أن هذا الاسم –وكان معروفا وله صبغة خاصة– يطلق لمناسبة انتقال واصل من سارية إلى سارية [٢] .

وإلى هنا يمكن أن يكون الشبه بين معتزلة واصل ومعتزلة الصدر الأول شبهاً فى الاسم فحسب فهل هناك شبه بينهما فى الناحية الفكرية الموضوعية ؟ وهل للآخرين نزعة سياسية دينية تشبه نزعة الأولين الذين كانوا يرون أن الحق ليس بجانب إحدى الفرقتين المتنازعتين فهما على باطل أو على الأقل لم ينكشف الحق فى جانب إحداهما ؟

إن أكثر الروايات التى تتعرض لسبب تسمية المعتزلة تذهب إلى أن محل الخلاف بين الحسن البصري وواصل بن عطاء كان أول ما كان حول مرتكب الكبيرة : أكافر هو أم مؤمن ؟ وهذه المسألة وإن كانت فى ظاهرها مسألة دينية بحتة إلا أن فى أعماقها شيئاً سياسيًّا خطيراً فقد خالفوا الأزارقة والمرجئة فى وصفهما لمرتكب الكبيرة . وكان لتعاليم الخوارج المتشددة نتائج سياسية خطيرة إذ أدت إلى وقوفهم أمام الأمويين موقفاً حزبيًّا إيجابيًّا لأن الأمويين فى نظرهم مرتكبون للكبائر، فهم كافرون مثلهم مثل عبدة الأوثان فيجب ألا يعترف بخلافتهم لأن أول شرط فى الخليفة أن يكون مؤمنا .

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص ٧

(٢) فجر الإسلام ص ٢٩٠ .

أما المرجئة فكانوا على نقيض الخوارج ، إذ جعلوا الإيمان مجرد الاعتقاد القلبي وليست التكاليف جزءاً من الإيمان فلا يخرج ارتكاب الكبائر الإنسان عن إيمانه وبهذا وسعوا دائرة المؤمنين إلى أقصى حد بينما ضيقها الأزارقة إلى الحد الذى لا يتسع إلا لهم ؛ فقد رأى المرجئة أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، وكان لهذا الرأى نتائجه السياسية إذ أنه طبق على كل الخلافات السياسية والدينية ، فليس عثمان على هذا الزعم ولا أنصاره ولا الخارجون عليه بكفار ، وليس علىّ وأتباعه وعائشة وأتباعها يوم الجمل بكفار وليس شيعة على ولا شيعة معاوية بكفار ، وإنما المسألة مسألة اعتقاد قلبى محض فمن اعتقد وعمل باعتقاده فهو مصيب سواء أنصر عثمان أم خرج عليه وسواء أكان مع علىّ أم مع معاوية .

والنتيجة السياسية المترتبة على ذلك أن خلفاء بنى أمية مؤمنون مهما ارتكبوا من الكبائر ، كما أن أعداءهم كذلك ، وهم بهذا لا يوافقون الخوارج على محاربتهم للأمويين ، وفى هذا الرأى — رأى الإرجاء — تأييد للدولة الأموية وإن كان تأييداً سلبيًّا فلم يعدّ الأمويون المرجئة على العموم أعداءهم كما لم يعدوهم أنصارهم إلا بمقدار ما يستفيد المحارب من المحايد [١] .

والمعتزلة بوقوفهم بين الخوارج والمرجئة موقفاً وسطاً بالقول بالمنزلة بين المنزلتين أو بعبارة أخرى بقول وسط بين الخوارج والمرجئة إنما يمثلون الخلفاء الشرعيين لأولئك الذين سبقوهم قبل مائة عام بالاعتزال السياسى .

وقد قال المعتزلة المتأخرون إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً لأن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت للمرء سمى مؤمناً وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً ، وليس هو بكافر مطلق أيضاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها ولكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٩٣

فيها، ولكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار [١] .

وبتطبيق هذه النظرة على الأعمال التى سبقت بين المسلمين يكون لها نتائج سياسية خطيرة أيضا إذا ما لاحظنا أن المعتزلة قد أتيح لها ما لم يتح للطائفة القديمة من الاعتماد على العقل المحض والتفكير مما جعلهم أكثر جرأة على نقد الرجال والمواقف، مما لم يتح للمرجئة المسلمين، فلم يجوّز واصل قبول شهادة علىّ وطلحة والزبير على باقة بقل، وجوز أن يكون عثمان وعلىّ على الخطأ ووافقه على ذلك عمرو بن عبيد [٢] .

ويرى بعض الباحثين أن الأمويين قد عدوا جرأة المعتزلة فى نقد الرجال نوعاً من التأييد لهم أكثر من تأييد المرجئة فإن تأييد المرجئة كان تأييدا سلبيًّا إذ تركوا الخلافات الحزبية دون نقد، وفى هذا تأييد لعلىّ ولمعاوية وأتباعهما، ولكن ما لدى الناس من شعور دينى كان يقضى برغم هذه الحيدة برفعة شأن علىّ ومن إليه، أما المعتزلة فهم بنقدهم الخصوم والأولياء قد أزالوا فكرة التقديس التى كانت شائعة عند جماهير الناس فعلى الرغم من أن المعتزلة وضعوا معاوية وأصحابه موضع النقد وتبرأ أكثرهم من معاوية وعمرو بن العاص [٣] . فقد رأى الأمويون فى ذلك من الكسب لهم أكثر من الخسارة [٤] وذلك بمعنى أنهم على الأقل يجعلون معاوية وعليا فى ميزان نقد واحد وما دامت القدسية التى كانت لعلى ومن إليه قد قضى عليها بالجرأة فإن كفة معاوية وآله ترجح فالدولة دولتهم والناس يخشون نقدهم ولا يخشون نقد غيرهم من مثل ما روى عن ابن كيسان الأصم من أنه كان يخطئ عليًّا فى كثير من أفعاله ويصوب معاوية فى بعض أعماله [٥] .

ويفسر هذا أن الأمويين لم يضطهدوا أحداً من المعتزلة بل على النقيض

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ ص ٦٥ .
(٢) الملل والنحل / جـ ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .
(٣) المنية والأمل / ص ٦ .
(٤) فجر الاسلام / ص ٢٩٥ .
(٥) المنية والأمل / ص ٣٣ .

من ذلك كان المعتزلة هم الذين هاجموا الوليد الثانى لما تهتك ، وساند بعضهم كعمرو بن عبيد يزيد بن الوليد فى حربه ضده[١] فلما ولى الخلافة قربهم وعلا شأنهم وأن بعض خلفاء بنى أمية المتأخرين كيزيد بن الوليد ومروان بن محمد اعتنقوا الاعتزال .

وهكذا يتضح أن هناك أوجه شبه كبيرة بين فئة المعتزلة الأولى والمعتزلة الثانية فيكون المعتزلة السابقون أجداد جميع المعتزلة اللاحقين أو أن مذهب الاعتزال الدينى قد سبقه اعتزال سياسى[٢] وأن كلا منهما قد انتحى منحى خالف به الطوائف المعاصرة المختلفة وأن لكل منها اتجاهاً سياسيًّا دينيا وإن أضافت الطائفة المتأخرة بفضل ما أتيح لها من ظروف الإحتكاك بالثقافات الأجنبية واستنادها إلى العقل أبحاثا لا هوتية بحتة فى صفات الله وفى القدر الذى عدوا فى أبحاثه تلاميذ لقدرية المرجئة . وبهذا يمكن أن تكون تسميتهم بالمعتزلة بسبب اعتزالهم قول الأمة بانتحائهم منحى جديداً ساروا فيه مخالفين غيرهم ، ويجب أن نشير هنا إلى أن بعض الروايات تزعم أن المعتزلة يرجعون فى أصلهم إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — إذ أخذ واصل وعمرو مذهب الإعتزال عن أبى هاشم وأخذه هذا عن أبيه محمد بن الحنفية وهذا عن أبيه علىّ بن أبى طالب الذى أخذه عن النبى — صلى الله عليه وسلم —[٣] .

وهذا يوافق ما رواه الشهرستانى إلى حد ، من أن واصلا أخذ الاعتزال عن أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية[٤] .

وكذلك يذكر المرتضى فى أماليه أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام علىّ ابن أبى طالب رضى الله عنه وخطبه وأنها تتضمن من ذلك ما لا مزيد عليه ولا غاية وراءه ، ومن تأمل المأثور فى ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٣٢

(٢) راجع الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٥٨

(٣) المنية والأمل ص ٤ — ٥

(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٦

المتكلمون من بعد فى تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول[1] .

وقريب من هذا ما يذكره ابن أبى الحديد من أن الحكمة والبحث فى الأمور الإلهية لم تكن من فن العرب ، ولا نقل فى جهاز أكابرهم وأصاغرهم شىء من ذلك أصلا ، وهذا من كانت اليونان وأوائل الحكماء وأساطين الحكمة ينفردون به وأول من خاض فيه من العرب علىّ عليه السلام ولهذا تجد المباحث الدقيقة فى التوحيد والعدل مبثوثة عنه فى فرش كلامه وخطبه ولا تجد فى كلام أحد من الصحابة والتابعين كلمة واحدة من ذلك ولا يصورونه ولو فُهـِّموه لم يفهموه ، وأنى للعرب ذلك ، ولهذا انتسب المتكلمون الذين لجوا فى بحار المعقولات إليه خاصة دون غيره وسموه أستاذهم ورئيسهم واجتذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها ، ألا ترى أن أصحابنا ينتمون إلى واصل بن عطاء وواصل تلميذ أبى هاشم بن محمد ابن الحنفية ، وأبو هاشم تلميذ أبيه محمد ومحمد تلميذ أبيه علىّ عليه السلام[2] وهناك ملامح مشتركة بين المعتزلة والشيعة فقد كان المعتزلة يلقبون فقهاءهم بلقب إمام ذلك اللقب الذى يقدسه الشيعة وأن الشيعة كانوا يؤثرون الاسم الذى آثرته المعتزلة وهو أهل العدل والتوحيد[3] .

وقد أخذ كثير من المعتزلة المتأخرين ينسبون إلى على والأئمة من آل بيته أنهم أول من قالوا بحرية الإرادة وأن المعتزلة لم يزيدوا فى ذلك شيئاً أكثر من شرحهم لتلك العقيدة التى وضع أساسها علىّ بن أبى طالب ، وذكروا الإمام علىّ فى الطبقات الأولى من طبقاتهم كما ذكروا أيضا قصة ذلك الشيخ الذى سأله عند انصرافه من صفين أكان المسير بقضاء الله وقدره ؟ ، وكيف أجابه الإمام بالإيجاب فأبدى الرجل ابتئاسه واحتسب عناءه وفقد الأمل فى الأجر فلما أنبأه الإمام بأن له أجرا فى مسيره ومنقلبه تحير الرجل وسأله كيف ذلك

(١) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٠٣

(٢) شرح نهج البلاغة جـ ٢ ص ١٢٨ – ١٢٩

(٣) العقيدة والشريعة ص ٨٤

والقضاء والقدر ساقانا وعنهما كان مسيرنا ؟

ففسر له الإمام أنه لوكان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد ولما كانت تأتى من الله لائمة لمذنب ولا محمدة لمحسن ولا كان المحسن بثواب الإحسان أولى من المسىء ولا المسىء بعقوبة المذنب أولى من المحسن فإن الله عز وجل أمر تخييرا ونهى تحذيراً ولم يكلف جبرا ولا بعث الأنبياء عبثاً، وما القضاء والقدر إلا أمر الله وإرادته فنهض الرجل مسرورا بما سمع وأنشد :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته ... يوم النشور من الرحمن رضوانا
أوضحت من ديننا ما كان ملتبسا ... جزاك ربك بالإحسان إحسانا[١]

وكذلك ذكروا فى الطبقة الثانية الحسين وعلى بن الحسين ومحمد بن على وقيل إن المعتزلة لم تضع الأصل الأول من أصولها الخمسة ، وهو التوحيد إلا للرد على غلاة الشيعة والرافضة الذين قالوا إن الله قدّ وصورة وجسم وأعضاء ، ويفسر هذا عداء الرافضة للمعتزلة ، وفى ذلك يقول ابن الخياط : « فهل كان على الأرض رافضى لا وهو يقول إن الله صورة ، ويروى فى ذلك الروايات ، ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلا من صحب المعتزلة منهم قديما فقال بالتوحيد فنفته الرافضة عنها ولم تقربه ؟ »[٢] .

وعلى خلاف الرافضة كانت الزيدية على صلة وثيقة بالمعتزلة فقد تتلمذ زيد ابن على لواصل بن عطاء ، وأخذ عنه أصول الاعتزال وأقامت الزيدية قواعدها الرئيسية على نظريات عقائد المعتزلة .

ولهذا السبب يمكننا أن نفهم الصلة بين المعتزلة وعلى بن أبى طالب وآل بيته فلم تكن نسبة المعتزلة إليه إلا نتيجة للصلة الوثيقة بين الزيدية والمعتزلة ، وأن الزيدية أرادوا بذلك أن يردوا مذهبهم الجديد إلى علىّ الذى امتاز من بين فقهاء الإسلام فى عصره بأنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ،

---

(١) طبقات المعتزلة ص ٧ — ١١
(٢) الانتصار والرد على ابن الراوندى ص ١٤٤

ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام .

وكان هذا سبباً فى أن تجاذبته كل فرقة من الفرق إلى نفسها . ففضلا عن المعتزلة اجتذبته الأشعرية والمرجئة والأحناف والمالكية .

٣

ومن المؤسف أنه ليس لدينا عن المرجئة إلا القليل النادر من الأخبار ، وربما يرجع ذلك إلى أن الدولة العباسية قد دمرت هذه الطائفة التى اتفقت آراؤها تماما مع رجال البلاط الأموى ، ومن لاذوا به [١] .

ولسبب آخر هو أن هذه الفرقة قد تدخلت فى فرق أخرى وذابت فيها فلم يعد لها ثمة وجود مستقل محسوس ، وكان ذلك بعد أن اتجهت المرجئة إلى البحث فى بعض الأمور اللاهوتية التى تتفق واتجاهاتهم السياسية . وأهم ما بحثوا فيه تحديد الإيمان والكفر والمؤمن والكافر وكان الدافع إلى هذا البحث أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم ، والشيعة كذلك ، ورأوا الشيعة فى غلوهم يعدون الاعتقاد فى الإمام ركنا سادساً من أركان الدين والإيمان ، فكانت النتيجة الضرورية أن يبحثوا ما الكفر وما الإيمان ؟ وقد رأى كثير من المرجئة أن الإيمان هو التصديق بالقلب وحده أى معرفة المؤمن لله بقلبه ، ولا عبرة بعد ذلك بنطقه بالشهادتين بلسانه ولا بقيامه بالعبادات — الدينية والمالية ، فكل هذا ليس من أصل الإيمان وإنما الأصل التصديق بالقلب وإذن فلا يضير المؤمن من أن يظهر الشرك أو اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام . وقد غلا جهم ابن صفوان أحد روءسهم فزعم أن الإيمان عقد بالقلب وإن أعلن الكفر باللسان بلا تقية وعبد الأوثان أو لزم اليهودية أو النصرانية فى دار الإسلام ، وعبد الصليب وأعلن التثليث فى دار الإسلام ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله عز وجل ولى الله عز وجل من أهل الجنة [٢] .

فقولهم إن الإيمان هو المعرفة بالله ورسله وإن من عرف أن لا إله إلا الله وأن

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٨١

(٢) الفصل ج ٤ ص ٢٠٤

محمداً رسول الله فهو مؤمن إنما هو رد منهم على الخوارج الذين يقولون بأن الإيمان معرفة بالله وبرسله والإتيان بالفرائض والكف عن الكبائر ، فمن آمن بالله ورسله وترك الفرائض وارتكب شيئاً من الكبائر كان مؤمنا عند المرجئة كافرا عند الخوارج ، وفيه أيضا رد على الشيعة الذين يعتقدون أن الإيمان بالإمام وطاعته جزء من الإيمان .

ولكن بعضهم وهم الذين يعرفون بالتومنية يرون الإيمان ركنين أولهما التصديق بالقلب وثانيهما الإقرار باللسان ولا بد من اجتماعهما معا[١] ؛ فالذى يصدق بقلبه ليس مؤمنا .

ومعنى هذا أن المرجئة سواء الذين حصروا الإيمان فى التصديق بالقلب والذين حصروه فى التصديق بالقلب والإقرار باللسان لا يعتدون بالعمل ركنا من الإيمان فمن كلماتهم الشهيرة أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة [٢] وترتب على ذلك أنهم رأوا الأعمال الظاهرة ليست من الإيمان لأنها تزيد وتنقص ، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص لأنه مجرد الاعتقاد القلبى مضافا إليه الإقرار باللسان عند بعضهم .

وقد نتج عن هذا أنهم لا يحكمون بالكفر على النصارى واليهود الذين امتلأ بهم البلاط الأموى وشغلوا المناصب العالية فى الدولة الأموية[٣] ذلك ما دام الايمان محله القلب وليس يطّلع عليه إلا الله الأمر الذى يدعو إلى مسالمة الناس جميعاً ، ونتج أيضا عن تعريفهم للإيمان على هذه الصورة أن مرتكب الكبيرة الذى يخلده الخوارج فى النار استناداً إلى قوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » وإلى قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » فإن المرجئة تأولوا الآية الأولى بأن الذى يعصى الله ورسوله ويكون مؤمنا فإنه تعدى بعض حدود الله أما الذى يتعدى حدوده كلها

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٩

(٢) خطط المقريزى ٪ ج ٤ ص ١٧١

(٣) Nicilson, Lit. Hist. of Arabs,p. 221.

فهو الكافر وهو المعنى فى الآية .

وقدتأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمنا لأنه مؤمن ولا يقتل مؤمنا لإيمانه إلا كافر ، وإذن فالكفار هم المخلدون فى النار ، أما المؤمنون العصاة فإما أن ينالوا عفو الله وإما أن يعذبهم على قدر ذنوبهم ثم يدخلهم الجنة ، وأهل السنة يوافقونهم على هذا . وقد ذهب المرجئة إلى أن الله لا يخلف وعده ولكنه قد يخلف وعيده لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفى به وإلا كان خلف الوعد نقصاً ، أما العقاب فعدل ، ولله أن يعفو أو يخفف العقوبة وليس فى هذا الخلف نقص وهم يخالفون المعتزلة فى هذا ، ويبدو أن اتجاه المرجئة إلى البحث اللاهوتى فى الإيمان قد جرهم إلى البحث فى حرية الإرادة والجبر ، فكانت بيئتهم هى الحقل الذى نبتت فيه هذه البذور جميعا نتيجة لتأثرهم بالآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بهؤلاء الذين ظلوا زمنا طويلا تحت المؤثرات الهلينية .

وكان من المرجئة أصناف مختلفة أصبحوا فيما بعد رؤساء لفرق أخرى قائمة بذاتها انبتّت عن بيئة المرجئة وأنتجت القدريين الأولين والجبريين الأولين أيضاً ، وعن هؤلاء المرجئة القدريين وجدت المعتزلة ، وعن جبرية المرجئة وجدت فرق جبرية خالصة ، وقد جعل الشهرستانى المرجئة أربع فرق هى مرجئة الخوارج ومرجئة الجبرية ومرجئة القدرية والمرجئة الخالصة[١] .

وكان اسم مرجئة الخوارج يطلق فى الغالب على الصفْرية الذين وقفوا أمام تشدد الأزارقة بتسامحهم وتحرجهم فى إطلاق لفظ الكفر على غير الأزارقة من المسلمين .

وانطلاقاً من قول القدرية بنفى الصفات الأزلية عن الله انحرف إلى القول بالجبر جهم بن صفوان الذى كان من رءوس المرجئة ووزيراً للحارث بن سريج وداعية له فأظهر بدعته فى القول بالجبر فى ترمذ فقتله عامل نصر بن سيار عليها سنة ١٢٠ هـ[٢] .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٢ (٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٠

ومن المرجئة الذين قالوا بالقدر يونس الأسوارى وهو أول من تكلم بالقدر[١] ، وعنه أخذ معبد الجهنى فى البصرة وقد قتله عبد الملك فى ذلك وعذبه الحجاج بعد أن نهى الحسن البصرى عن مجالسته[٢] وكذلك أخذ عن يونس غيلان إبن مسلم المعروف بغيلان بن أبى غيلان[٣] وقد قتل أيضاً فى القدر بعد أن ناظره الأوزاعى وأفتى بقتله فى عهد هشام بن عبد الملك[٤] .

وثابت أنه قد نسج على منوالهم فى القول بالقدر وإنكار إضافة الخير والشر إلى القدر واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى وتلميذه عمرو بن عبيد[٥] وهما رأس المعتزلة الذين وافقوا المرجئة فى التوقف عن الحكم على أصحاب الجمل وقالوا إن أحدهما مخطئ لا بعينه أو فاسق لا بعينه[٦] .

وهكذا يمكن أن يقال إن المعتزلة نشأت فى بيئة المرجئة القدريين وأنهم تابعوهم فى كثير من آرائهم التى تطورت عندهم فى ضوء الأبحاث اللاهوتية المستفيدة من الثقافات الأجنبية .

وللمعتزلة عدة أسماء ولكنهم يؤثرون أن يسموا بأهل العدل لقولهم بحرية الإنسان فى اختيار أعماله ، كما يسمون أنفسهم بأهل التوحيد لأنهم نفوا الصفات القديمة عن الله تعالى وقالوا هو عالم بذاته حى بذاته قادر بذاته لا بعلم وحياة وقدرة ، وهى صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلهية[٧] وقد بدا لهم أنه ينتج عن ذلك الإقرار بأشخاص متميزة تطابق الأقانيم التى فى الثالوث المسيحى .

---

(١) لسان الميزان جـ ٦ ص ٣٣٥

(٢) أسد الغابة جـ ٤ ص ٣٩٠

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٧

(٤) لسان الميزان جـ ٤ ص ٤٢٤

(٥) الملل والنحل جـ ١ ص ٣١ ، ٦٢ ، ونقد العلم والعلماء ١٠٢ والفرق بين الفرق ص ١٠٩

(٦) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥ — ٦٦

(٧) الملل والنحل جـ ١ ص ٥٨

وأيضاً أطلق عليهم خصومهم اسم القدرية لموافقتهم لهم فى القول حرية العبد واختياره وقدرته كما أطلق عليهم أيضا اسم الجهمية لموافقتهم لهم فى القول بنفى الصفات وبخلق القرآن وإن خالفوهم فى الحرية والاختيار .

وقد برئ المعتزلة من هذين الاسمين ونفوا عن أنفسهم التسمية الأولى بأنهم ينفون القدر والذين يثبتونه أحق بالنسبة إليه كما نفى بشر بن المعتمر تسميتهم بالجهمية فى قوله :

ننفيهم عنا ولسنا منهم ولاهم منا ولا نرضاهم
إمامهم جهم وما لجهم وصحب عمرو ذى التقى والعلم[1]

ويقوم مذهب الاعتزال على خمسة مبادئ أساسية من اعتنقها جميعاً وصدق بها كان معتزلياً ومن نقص منها شيئاً أو زاد عليها فقد فارق الاعتزال[2] .

وهذه المبادئ الأساسية هى التوحيد ، والعدل ، والوعد ، والوعيد ، والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[3] .

وأقوى هذه المبادئ الأصولية التى تجمع المعتزلة هو مبدأ التوحيد ، وهم يعدون أنفسهم أعمق الطوائف الإسلامية إيماناً بوحدانية الله وأشدهم دفاعا عن عقيدة التوحيد فقد تصدوا للرد على أصحاب الأديان والنحل المختلفة ، وردوا كل ما يتعارض مع وحدانية الله وأزليته فأنكروا أن يكون لله تعالى صفات غير ذاته[4] فإن وجود صفات قديمة خارجة عن الذات يؤدى إلى أن يكون هناك شيء قديم أزلى غير ذاته وهذا يقتضى التعدد والإقرار به وقد ترتب على هذا قولهم بخلق القرآن[5] ونفى قدمه حتى لا يشترك شيء معه فى القدم الذى هو أخص صفاته ، وكذلك أنكروا رؤية الله فى الجنة وتأولوا الآيات التى يفيد ظاهرها أن رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة أمر محقق[6] لأن رؤية الله

---

(١) العقد الفريد جـ ١ ص ١١١ (٢) الفصل جـ ٢ ص ١١٣
(٣) الانصار ص ١٢٦
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٥٨ (٥) المرجع السابق
(٦) الإبانة فى أصول الديانة ص ١٤ ، مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٦٣

تقتضى الإتصال ، والاتصال يقتضى الحضور فى جهة وفى نية وذلك يقتضى التجسيم والتشبيه وهما محالان على الله ولهذا فقد كفّروا كل من يثبت الرؤية على سبيل المقابلة أو على اتصال شعاع بصر الرائى بالمرئى (١) .

وقد قرر الشهرستانى مذهبهم فى التوحيد ، ونفى كل ما يوهم التعدد ، ويتعارض مع الأزلية بقوله : « إن الذى يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم والقدم أخص وصف ذاته ونفوا الصفات القديمة أصلا فقالوا هو عالم بذاته قادر بذاته حىّ بذاته لا بعلم وقدرة وحياة ، فهى صفات قديمة ومعان قائمة به لأنه لو شاركته الصفات فى القدم الذى هو أخص الوصف لشاركته فى الإلهية ، واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق فى محل وهو حرف وصوت كتب أمثاله فى المصاحف حكايات عنه فإنما وجد فى المحل عرض فقد فنى فى الحال ، واتفقوا على أن الإرادة والسمع والبصر ليست معانى قائمة بذاته ، ولكن اختلفوا فى وجوه وجودها ومحامل معانيها واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ونفى التشبيه عنه من كل وجه جهة ومكاناً وصورة وجسما وتميزاً وانتقالا وزوالا وتغيرا وتأثرا وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة فيها ، وسموا هذا النمط توحيداً (٢) .

والأصل الثانى من الأصول الأساسية لمذهب الاعتزال هو العدل وهو أصل مهم من أصولهم التى كان لها دور كبير فى نضج تفكيرهم الدينى وتفرعه ، وقد انتهى بحثهم فى عدل الله وهو أمر مقرر فى الشريعة الإسلامية إلى عدة قضايا كلامية هامة منها نفى القدر وإثبات حرية الإنسان وإرادته واختياره لأفعاله وهى قضية شغلت أذهان الفلاسفة والمفكرين ورجال الدين فى كل العصور (٣) ووجد فيها المسلمون تحيرا ناتجاً عن التناقض الظاهرى بين آيات القرآن التى يؤخذ منها أن الإنسان مجبر فى أفعاله وتلك الآيات التى تفيد أنه حر فيها وله

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٥٢

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٥٨ — ٥٩

(٣) فجر الإسلام ص ٣٨٣

إرادة مستقلة يمارس بها تلك الأفعال .

ويبدو أن الإتجاه العام كان حينئذ سلفياً تماما وملتزماً بالأحاديث الصريحة التى تنص على إثبات القدر ، وعلى الرغم من ذلك وجد القدريون الذين رأوا الإنسان حراً فى أفعاله مختارا لها ، وتتلمذ لهم المعتزلة فوقفوا موقفهم وقالوا : إن الله تعالى ليس له فى إكساب العباد ولا الحيوانات صنع ولا تقدير لا بإيجاد ولا بنفى [1] .

وأن الإنسان هو الذى يخلق أفعاله بمقتضى حريته واختياره ، وذلك نتيجة صحيحة لعدالة الله وتنزهه عن الظلم فما كان الله سبحانه ليعاقب إنساناً على عمل أجبره عليه ووجهه إليه لأن من أعان فاعلا على فعله ثم عاقبه عليه كان جائرا ، والجور منفى عن الله نفاه عن نفسه بقوله عز وجل: « وما ربك بظلام للعبيد » وبقوله : « وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون »، وبقوله : « فما كان الله ليظلمهم » ولقوله : « لا ظلم اليوم »[2] .

وهكذا يرى المعتزلة أن مناط التكليف ألا يعاقب الإنسان ولا يثاب إلا بمقتضى حرية واختيار يباشر بهما أفعاله وأن نفى القدر وإثبات حرية الإنسان واختياره فى أفعاله من مستلزمات العدل الإلهى ، ومع اتفاق المعتزلة على هذا المبدأ فقد اختلفوا فيما بينهم على الأفعال الاختيارية والاضطرارية والمتولدة اختلافا طويلا [3] .

ومن القضايا التى ساقهم إليها البحث فى عدالة الله وتنزيهه قضية الحسن والقبح العقليين فإنهم لما آمنوا بعدالة الله وأنه لا يفعل بمقتضى هذا العدل إلا ما فيه خير عباده وصلاحهم ، دعاهم ذلك إلى النظر فى الأعمال هل هى حسنة لذاتها ، وقبيحة لذاتها ، أم أنها تكتسب حسنها وقبحها بتوجيه من الشرع ؟

وقد حول المعتزلة هذه القضية إلى دفاع حار ويد عن سلطة العقل وتمجيده

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٩٢

(٢) الفصل ج ٣ ص ٩٨

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٩٥ — ٩٦

والاعتداد به واعتباره أساسيًّا فى تحسين الأشياء وتقبيحها فالحسن والقبح فى اعتقادهم صفتان ذاتيتان للأشياء ويجب معرفتهما بالعقل[١] قبل ورود الشرع بذلك فإذا ورد الشرع بتحسين أو بتقبيح فإن ذلك من قبيل الإخبار لا من قبيل الإثبات وهو بمثابة ألطاف للبارى تعالى فحسب[٢] . فالشرع لا يحسن الشيء بأمره به وإنما أمر به لحسنه ، وكذلك لا يقبح الشيء بنهيه عنه وإنما نهى عنه لقبحه ، فأمره ونهيه تابعان لما فى الشيء من حسن وقبح ذاتيين .

فالعقل إذن عند المعتزلة هو الحجة الأولى فى التحسين والتقبيح لأنه هو الذى يستطيع أن يدرك صفة الشيء الذاتية الأصلية ، وكان تقريرهم لهذه القضية نتيجة طبيعية لاستنادهم إلى العقل واعتباره المرجع الأساسى فى أحكامهم ومعارفهم لطول ممارستهم للفلسفة واطلاعهم على العلوم العقلية مما أكسبهم هذه الخاصية وجعلهم يؤمنون بمقدرة العقل على اكتناه الأشياء ومعرفة خيرها من شرها وحسنها من قبيحها قبل أن يرد الشرع بذلك[٣] .

وكذلك دعاهم إلى وضع هذه القضية ما رأوا من مغالاة بعض المسلمين وتوقفهم عند ما ورد من الحديث ولو كان موضوعاً ووقوفهم عند النص فإذا لم يجدوا نصًّا لم يجرؤوا على إبداء رأى مما جعل المعتزلة يحسون بالخطر الذى يصيب الناس من جراء شلل العقل إلى هذا الحد ، فبينما ذهب أهل السنة والجماعة إلى تقديم السمع على العقل اتجه المعتزلة إلى تقديم العقل على السمع وإلى أن المعارف كلها ضرورية وطبيعية يدركها العقل بالضرورة قبل ورود الشرائع ومن ثم فإن معرفة الله عندهم وإدراكه عن طريق النظر والاستدلال شيء ضرورى وواجب بالنسبة للعاقل المفكر المتمكن من النظر[٤] .

وبتمجيد المعتزلة لمكانة العقل الذى بلغ مرتبة التقديس اكتسبوا فى تاريخ

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ص ٥٩

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ص ٥٩

(٣) أدب المعتزلة ص ١٤٦

(٤) الملل والنحل جـ ١ / ص ٦٩ ، ٧٩ ، ٨٨ ، ٩٤ ، ٩٥

الفكر العربى مكانتهم الفريدة وفتحوا الطريق أمام نضجه وارتقائه حتى ليذهب بعض الدارسين من المستشرقين إلى أن مباحثهم فى ذات الله وصفاته كان لها أثر فى مذهب سبنيوزا ومن ثم فى الفكر الأوربى[١] .

والأصل الثالث من أصول اعتقادهم مرتبط بالأصل السابق وهو العدل فإنه لما كان الله عادلا ترتب على ذلك أنه لا بد منجز وعده ووعيده ، فمن نجا فبفعله استحق الثواب ، ومن خسر فبفعله استوجب العقاب ، والعقل من حيث الحكمة يقتضى ذلك[٢] .

فأهل الجنة للجنة بأعمالهم وأهل النار للنار بأعمالهم وكذلك العدل الإلهى يقتضى أن يجازى كل إنسان بعمله ، وهذا هو مفهوم الوعد والوعيد عندهم ، فالأمر بالطاعات كان لغاية لا بد أن تتحقق ، من قام بها استحق الثواب وهذا هو الوعد ، والنهى عن المعاصى كان لغاية لا بد أن تتحقق ومن أقبل على ما نهى عنه من معاصى استحق العقاب وهذا هو الوعيد .

وترتب على هذا إنكارهم للشفاعة التى تتعارض مع إنجاز الوعيد وتأولوا الآيات الورادة فى ثبوتها وتمسكوا بالآيات الواردة فى نفيها[٣] .

ويرتبط بهذا الأصل قولهم بالأصل الرابع وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين فإنهم لما حكموا على مرتكب الكبيرة بأنه ليس مؤمنا مطلقاً ولا كافراً مطلقاً وإنما فى منزلة بين المنزلتين حكموا أيضا بأنه مستحق للعذاب مخلد فى النار تحقيقاً لوعيده سبحانه وتعالى فى قوله : « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وقوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها » ولكنهم قيدوا ذلك بقولهم : « إن الله يخفف عنه العذاب فتكون دركته فوق دركة الكفار »[٤] .

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع جـ ١ / ص ٣٣٤

(٢) الملل والنحل / جـ ١ / ص ٥٦

(٣) الفصل / جـ ٤ / ص ٦٣

(٤) الملل والنحل / جـ ١ / ٦٥

ويقرر الشهرستانى هذ الأصل من عقائدهم بقوله : « واتفقوا على أن المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل معنى آخر وراء الثواب وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة استحق الخلود فى النار لكن يكون عقابه أخف من عقاب الكفار وسموا هذا النمط وعدا ووعيداً »[١] .

ويعد القول بالمنزلة بين المنزلتين الأصل الأول الذى ارتبط به ظهور المعتزلة كرد فعل مباشر لموقف كل من الخوارج والمرجئة ، ولم يكن قولهم بهذا الأصل خالصا للدين ، وإنما كان يتضمن تدخلا إيجابياً فى الموقف السياسى ، وقد قرر واصل هذه القاعدة فى الحكم على مرتكب الكبيرة بأنه فى منزلة بين المنزلتين أى منزلتى الكفر والإيمان بقوله : « إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمى المرء مؤمناً وهو اسم مدح والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمناً وليس هو بكافر مطلق أيضاً لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكارها لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالداً فيها »[٢] .

وقد تابع عمرو بن عبيد واصلاً فى تسمية مرتكب الكبيرة فاسقاً وكان عمرو يسميه منافقاً كما ذهب إلى ذلك الحسن البصرى وذلك إثر مناظرة بينهما حول تقرير الحكم على مرتكب الكبيرة[٣] .

ويبقى الأصل الخامس من أصول المعتزلة الاعتقادية وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والمعتزلة لا ينفردون بهذا الأمر دون عامة المسلمين فكلهم مطالب به لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » ولكن المسلمين يختلفون فى مدى ما يجب على المسلم أن يقوم به لتحقيق هذا الأمر فبعضهم يجعله واجباً باللسان فحسب وبعضهم يوجب السيف كذلك ومن هؤلاء المعتزلة إذ أجمعوا ما عدا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ / ٥٩

(٢) الملل والنحل جـ ١ / ٦٥

(٣) أمالى المرتضى جـ ١ / ص ١١٥ — ١١٦

عبد الرحمن بن كيسان الأصم على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب عند القدرة والإمكان باللسان واليد والسيف[١] .

وإذا وقفنا أمام هذه الأصول فى محاولة للتعرف على ما للإسلام فيها وما لغير الإسلام ، وما للفكر العربى وما لسواه من أنماط الثقافة الأجنبية والفكر الذى كانت البيئة العربية تموج به آنذاك لتبين لنا أن تلك العقائد قد استقطبت كل ذلك استقطاباً فوعته وانتقت منه كيف شاء لها الوعى والانتقاء .

ولنبدأ بالأصل الأول من أصولهم وهو التوحيد ، والتوحيد أصل من أصول الدين الإسلامى بل ركن من أركانه لا يتم إلا به ، فلا يستقيم للمسلم إسلامه إلا إذا كان مؤمناً بوحدانية الله وبتفرده . ولكن هل هذه الفروع التى تفرعت فى مباحث هذا الأصل ترجع كلها إلى الأصل الإسلامى أو أنها وفدت عليه من من الفكر الأجنبى ؟ .

يقول الشهرستانى إن فكرة نفى الصفات القديمة عن الله كانت فى بدئها غير نضيجة ، وكان واصل بن عطاء يشرع فيها على قول ظاهر وهو الاتفاق على استحالة وجود إلهين قديمين أزليين قال : « ومن أثبت معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين ، وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلاسفة وانتهى نظرهم فيها إلى رد جميع الصفات إلى كونه عالماً قادرا[٢] .

ويبدو من هذا أن المعتزلة فى بحثهم فى نفى الصفات والرؤية والجهة والتشبيه والتجسيم والحلول فى مكان والقول بخلق القرآن إنما كانوا متأثرين بمذاهب الفلسفة اليونانية ؛ فالأشعرى يؤكد أن المعتزلة أخذوا رأيهم فى ذات الله عن الفلاسفة ومنعهم الخوف من إظهاره تصريحاً فأظهروا معناه بنفى الصفات ، كما يقرر أن أبا الهذيل العلاف أخذ رأيه فى ذات الله عن أرسطاليس الذى قال فى بعض كتبه : « إن البارى علم كله ، قدرة كله ، حياة كله » فأعجب أبو الهذيل

---

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ / ص ٣١١

(٢) الملل والنحل ج ١ / ص ٦١

بذلك وقال : « علمه هو هو وقدرته هى هى »[١] .

وأيضاً كان لأفلوطين تأثير واضح على تفكير المعتزلة فى ذات الله ونفى الصفات القديمة عنه فقد تحدث عن وحدانية الله ونفى أن تطلق عليه صفة وراء ذاته فإن فى ذلك تشبيهاً له بالأفراد، فلا يصح لنا أن نقول إن لله علماً لأنه هو العلم[٢]

ويصرح الشهرستانى فى حديثه عن أبى الهذيل وعن رأيه فى صفات الله من حيث إنه سبحانه عالم بعلم وإن علمه ذاته، وإنه سبحانه قادر بقدره وإن قدرته ذاته وإنه حىّ بحياة وإن حياته ذاته ، بقوله : « وإنما اقتبس هذا الرأى من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات معانى قائمة بذاته ، بل هى ذاته وترجع إلى السلوب واللوازم »[٣]

وقد سبق لنا أن ذكرنا أن القول بنفى صفات الله قد ردده يحيى الدمشقى الذى كان له ولأبيه مكان ملحوظ فى بلاط الأمويين ، وكان ليحيى أثر كبير من ثم فى كثير من الأبحاث اللاهوتية التى بنى عليها أو على الكثير منها مذهب الاعتزال[٤] وفى اعتقادنا أن ذلك كان عن طريق التأثر بالقدرية والجهمية فى بيئة المرجئة .

فالبحث فى وحدة الله وفى ذاته وصفاته أمر سبقت إليه الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة وقد استعان المعتزلة بآرائها واستخدمتها فى تدعيم قواعدها الاعتقادية . وقد أداها القول بالتوحيد إلى القول بخلق القرآن حتى لا يتنافى مع وحدانية الله وجود شىء له صفة القدم والأزلية .

ويذهب ديلاسى أوليرى إلى أن المعتزلة قد عارضوا القول بقدم القرآن لأن النتائج التى تستنبط من ذلك بدت فى نظرهم كأنها تقر بأشخاص متميزة تطابق الأقانيم التى فى الثالوث المسيحى وتأثروا فى هذه الآراء بالشكل الذى عبر به القديس يوحنا الدمشقى عن مذهب الثالوث[٥] وقد روى ابن الأثير

---

(١) الانتصار / ص ٤١ / ٤٢

(٢) A. Weber, History of Philosophy, p. 198.

(٣) الملل والنحل ج ١ / ص ٦٧

(٤) المعتزلة / ص ٢٧

(٥) الفكر العربى ومكانه فى التاريخ / ص ١٠٠

أن أول من نشر القول بخلق القرآن بين المسلمين هو اليهودى لبيد بن الأعصم الذى كان يقول بخلق التوراة ثم أخذ عنه ابن أخته طالوت هذه المقالة وصنف فى خلق القرآن فكان أول من فعل ذلك فى الإسلام[١] .

وكذلك يذكر صاحب تاريخ بغداد أن بشرا المريسى وهو أحد المعتزلة القائلين بخلق القرآن كان أبوه يهوديًّا صباغاً بالكوفة[٢] .

ويذكر صاحب عيون الأخبار أن أول من قال بخلق القرآن هو المغيرة ابن سعيد العجلى وكان من أتباع ابن سبا[٣] .

فإن صحت هذه الروايات فإن القول بخلق القرآن يكون أثرا من آثار اليهودية وعلى هذا يكون المعتزلة قد تأثروا فى كثير من أفكارهم باللاهوت المسيحى واللاهوت اليهودى كما تأثروا بالفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة .

فلم تكن نشأتهم بمعزل عن تلك التيارات الثقافية المختلفة التى كانت تعج بها المنطقة من حولهم فى ذلك الحين ولكنهم عرضوا مذهبهم من خلال عقيدتهم الإسلامية وفى ضوء القرآن واستطاعوا بمقدرة فائقة أن يلائموا بين الثقافة الإسلامية والثقافة الهلينية وأن يسدوا الفجوة الواسعة بين الثقافتين .

ويصدق نفس هذا الكلام عن تأثرهم بالفكر الأجنبى فى قولهم بنفى القدر وإثبات حرية الإنسان ، وقد سبق أن ذكرنا أثر يحيى الدمشقى فى القدرية الذين تتلمذ لهم المعتزلة[٤] ويقول دى بور : ونحن نجد بين مذاهب المتكلمين الأولى فى الإسلام وبين العقائد المسيحية شبهاً قويًّا لا يستطيع أحد معه أن ينكر أن بينهما اتصالا مباشراً وأول مسألة قام حولها الجدل بين علماء المسلمين هى مسألة الاختيار ، وكان المسيحيون الشرقيون يكادون جميعاً يقولون بالاختيار[٥] .

---

(١) ابن الأثير / جـ ٧ / ص ٤٩
(٢) تاريخ بغداد / جـ ٧ ص / ٦١
(٣) عيون الأخبار / جـ٢ / ١٤٨ — ١٤٩
(٤) سرح العيون / ص ١٦٦
(٥) تاريخ الفلسفة فى الإسلا م / ص ٤٩

ويكاد يكون الأصل الثالث من أصولهم صدى للفكر الإسلامى المحض ، ورداً على مذهب أهل السنة فى ترتيبهم لقضية الوعد والوعيد على مفهومهم للعدل ؛ فالله تعالى عدل فى أفعاله فى مذهب أهل السنة بمعنى أنه متصرف فى ملكه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، والعدل على هذا المفهوم وضع الشىء موضعه بالتصرف فى الملك على مقتضى المشيئة والعلم ، والظلم ضده ، فلا يتصور منه جور فى الحكم ولا ظلم فى التصرف . وتأسيساً على مفهومهم للعدل فإن الوعد والوعيد كلامه الأزلى ، وعَدَ على ما أمر وأوعد على ما نهى ؛ فكل من نجا واستوجب الثواب فبوعده وكل من هلك واستوجب العقاب فبوعيده دون أن يجب عليه شىء من قضية العقل ، فى حين يرى المعتزلة العدل ما يقتضيه العقل من الحكمة وهو إصدار الفعل على وجه الصواب والمصلحة وأنه لا كلام فى الأزل وإنما أمر ونهى ، ووعد وأوعد بكلام محدث فمن نجا فبفعله استحق الثواب ومن خسر فبفعله استوجب العقاب ، والعقل من حيث الحكمة يقتضى ذلك [١] .

ونفس الأمر يصدق على اختلاف المعتزلة مع أهل السنة فى قولهم بالفكر قبل السمع وإنما كان ذلك لاعتدادهم الشديد بمكانة العقل وتمجيده وهو أثر إسلامى خالص لدعوة القرآن الكريم إلى التعقل والتفكير والتدبر فى ملكوت الله وفى النفس ، وقد عزز هذا الاعتداد ممارستهم للأنظار الفلسفية المتحررة من الجمود والتقيد بالنصوص الأمر الذى كان عليه طائفة من المحدثين المسلمين الذين ناصبوهم العداء .

ويعد الأصل الرابع من أصولهم وهو القول بالمنزلة بين المنزلتين وهو الأصل الذى ارتبط به ظهور مذهبهم صدى للصراع الدينى والسياسى الذى كان محتدما بين الفرق الإسلامية فى ذلك الحين والذى كان أساسه النزاع حول الخلافة وما جرت إليه من كبائر كقتل عثمان وحرب الجمل وصفين وما أعقب ذلك من تكفير الصحابة وإثارة مسألة مرتكب الكبيرة وحكمه وهل هو مؤمن أو كافر أو فاسق ؟

---

(١) الملل والنحل / جـ ١ / ٥٥ — ٦٦

وكان أهل السنة يحكمون بأنه مؤمن ولكنه فاسق يستحق العقاب ، والخوارج يتشددون فى الحكم فيذهبون إلى أنه كافر مخلد فى النار ، فى حين يذهب المرجئة إلى أنه مؤمن ، وأمره يوم القيامة موكول إلى الله تعالى .

وجاء واصل فقرر فى مجلس الحسن البصرى أن صاحب الكبيرة ليس مؤمناً مطلقاً ولا كافرا مطلقاً وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، فهذا الأصل إذن كان إضافة دينية للآراء السابقة فى مرتكب الكبيرة وهو فى الوقت نفسه رد فعل للتطرف الذى اتسمت به تلك الآراء .

وأيضاً فهو يتضمن تفسيرا سياسيًّا للأحداث والمشكلات التى احتدم فيها النقاش واختلفت حولها الفرق واتخذت على أساس منها مواقفها من الدولة واتخذت الدولة على أساسها موقفاً من هذه الفرق ، وكان موقف المعتزلة كما قدمنا موقفاً يفيد الأمويين بأكثر مما كانوا يفيدون من المرجئة ، إذ كان المعتزلة ينتقدون خصوم الأمويين ، ويحللون أعمالهم ، وهذا على الأقل يقضى على فكرة التقديس لخصومهم التى كانت شائعة بين جمهور المسلمين [١] .

ولا يغض من قيمة هذا الرأى ما بدا من تقرب المعتزلة من العلويين فإن ذلك كان نتيجة لاعتناق زيد بن على لمذهب الاعتزال ، ولقد رفض الشيعة زيدا لانضوائه تحت لواء رجل لا يرى جده على الحق كما جاء فى مناظرته لأخيه محمد الباقر [٢] .

وأيضاً يرجع الأصل الأخير من أصولهم إلى الإسلام الذى يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما أنه يعد أثرا لاختلاف الفرق إزاءه بين السلبية والإيجابية ، واختلاف درجات الإيجابية ومداها فيه ، فقد كان المرجئة سلبيين متراخين ، فى حين كان الخوارج متشددين متزمتين ، وجاء المعتزلة متحمسين فأوجبوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند القدرة والإمكان باللسان واليد والسيف وتجلت إيجابيتهم فى تكريس جهودهم للدفاع عن الدين بتقرير قواعد مذهبهم ،

---

(١) فجر الإسلام ص ٢٩٤

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢

وبالبحث فيها وعقد المناظرات والرد على خصوم الدين وتفنيد حججهم وإبطال مزاعمهم ، وكان واصل يرسل دعاته إلى شتى أنحاء العالم الإسلامى ليدعوا إلى الله وليدافعوا عن دينه (١) .

وكان واصل معدًّا إعدادا تاما لهذه المهمة ، يقول عنه صديقه عمرو بن عبيد : « ليس أحد أعلم بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة والرد عليهم منه» (٢) .

وكان واصل كثيراً ما ينتقل في الأمصار ليناقش هؤلاء المخالفين ويجادل المعاندين والملحدين ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، هو وزملاء له كثيرون وقد تعدى هذا المشافهة إلى التصنيف الذى اتجه إليه كبار المعتزلة من أمثال عمرو بن عبيد وأبى الهذيل العلاف وإبراهيم النظام وبشر بن المعتمر والجاحظ والقاضى عبد الجبار وغيرهم كثيرون فيما تبع ذلك العصر الذى نعنى به .

---

(١) Shorter Encyclopeadia of Islam, p. 423.

(٢) المنية والأمل / ص ١٩

الباب الثانى

شعر الفرق الإسلامية



الفصل الأول

شعر الشيعة

١

يرجع تاريخ الشعر الشيعى إلى ما قبل ظهور الشيعة حزباً له أفكاره ومعتقداته بسنوات طويلة ، فقد عبر هذا الشعر أول الأمر عن العواطف المطلقة التى أحاطت ببنى هاشم وبشخصية على بن أبى طالب منذ وفاة الرسول — صلى الله عليه وسلم — .

وربما لم تكن هذه العواطف خالصة لوجه على وآله وإنما توسلا لمصلحة خاصة كتلك التى حرص عليها أبو سفيان بن حرب غداة البيعة لأبى بكر عندما مر ببيت علىّ بن أبى طالب محرضا بنى هاشم على ألا يُطمعوا فيهم رهط أبى بكر أو رهط عمر إذ هم ليسوا بأحق منهم بالخلافة منشداً ذلك المعنى فى قوله :

بنى هاشم لا تطمعوا الناس فيكم ... ولا سيما تيم بن مرة أو عدى
فما الأمر إلا فيكم وإليكم ... وليس لها إلا أبو حسن على
أبا حسن فاشدد بها كف حازم ... فإنك بالأمر الذى يرتجى ملى [1]

ولقد ازورّ علىّ عن تحريض أبى سفيان الذى كان يطمع فى أن يظل الأمر فى بنى هاشم حتى لا تغلبهم عليه فيما بعد تيم أو عدى ، كما كان يطمع فى أن يختلف الناس فقد يكون لرهطه فى اختلافهم غنم ، ودخل علىّ بعد ذلك فيما دخل فيه الناس .

وبعد مقتل عمر ظهر فى مجلس الشورى ما يمكن أن يسمى بنواة الحزب

---

(١) شرح نهج البلاغة حـ ٦ ص ٧ .

الشيعى إذ رأى بعض الصحابة أن الأمر لا يجب أن ينصرف عن بنى هاشم، ولم يكد ينفض مجلس الشورى بمبايعة عثمان حتى ترددت أبيات لبعض ولد أبى لهب يتحسر فيها على انصراف الأمر عن بنى هاشم وعن علىّ بالذات وكان فى نظرهم أجدر بهذا الأمر من سواه لسبقه وفقهه وتقواه ، تقول الأبيات :

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف	عن هاشم ثم منها عن أبى الحسن
أليس أول من صلى لقبلتكم	وأعلم الناس بالقرآن والسنن(١)

وعلى قدر ما انتقد علىّ سياسة عثمان فى سنيه الأخيرة فإننا لا نجد صدى لهذا فى شعر الشيعة ، ويبدو أن علياً لم يكن ليقرّ أن يتجرأ شاعر من شيعته على أمير المؤمنين مهما جار عن القصْد أو أخطأ السبيل، وكان يبدو لهم أنه لا يلبث وقد طعن فى السن أن يموت وأن يشق علىّ من ثم طريقه إلى الحكم دون منازع ولهذا فقد ظل الشعر الشيعى محايداً لعثمان .

وما تكاد الثورة تنشب بعثمان وتنتهى بمقتله على أيدى الثوار ، حتى تشيع أبيات من الشعر فيما بين السبئية المشتركين فى الثورة تعلن إلقاء مهام الحكم على عاتق علىّ وتدعوه إلى أن يحذر مصير عثمان ، على هذا النحو :

خذها إليك واحذرن أباحسن	إنا نمرّ الأمر إمرار الرسن
صولة أقوام كأسداد السفن	بمشرفيات كغدران اللبن
ونطعن الملك بليّنٍ كالشطن	حتى يمرّن على غير عنن(٢)

ويرضخ علىّ لمطالب الثوار ويبايعونه ويبايعه غيرهم ، وتبقى طائفة من كبار الصحابة دون أن تبايعه ، ويدخل فى هذه الأثناء رجل على معاوية مسلماً عليه بالخلافة قائلا : أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة ، قصدتك بنعى عثمان ثم يضيف :

---

(١) شرح نهج البلاغة / حـ ٦ / ص ٨

(٢) الطبرى / حـ ٤ / ٧١

إن بنى عمك عبد المطلب هم قتلوا شيخكم غير الكذب
وأنت أولى الناس بالوثب فثب وسرّ مسير المحزئل المتلئب[١]

ولم يكن معاوية بحاجة إلى من يغريه بالوثوب ولا إلى من يقرر له أنه إنما يقوى بما لا يقوى به علىّ لأن معه قوماً لا يقولون إذا سكت ويسكتون إذا نطق ، ولا يسألون إذا أمر بخلاف تلك الشيعة التى تحيط بعلىّ ، يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت .

ولهذا فقليل معاوية إذن خير من كثير علىّ ، ولن يرضى علىّ إلا بسخط معاوية كما أنه لن يرضى بالعراق دون الشام ، وقد عبر معاوية عن هذه المعانى فى رده على الحجاج بن خزيمة الذى نعى إليه عثمان وقال فيه :

أتانىَ أمر فيه للناس غمة وفيه بكاء للعيون طويل
مصاب أمير المؤمنين وهذه تكاد لها صمّ الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصبة فريقان منهم قاتل وخذول
سألقحها حرباً عواناً ملحة وإنى بها من عامنا لكفيل[٢]

وحقّاً ، لقد سقطت ثمرة الفتنة التى انتهت بمقتل عثمان فى حجر علىّ ، وزج باسمه فيها وأشارت إليه أصابع الاتهام التى يحركها بنو أمية فقال حسان بن ثابت :

ياليت شعرى وليت الطير تخبرنى ما كان شأن على وابن عفانا
لتسمعن وشيكاً فى ديارهم الله أكبر ياثارات عثمانا[٣]

وتوالت اتهامات الأمويين لعلى وبنى هاشم بأنهم قتلوا عثمان ليخلوا لهم وجه الخلافة وقد انتهب علىّ ما كان فى دار الخليفة المقتول من سلاح وكراع ، وبنو أمية لا ينسون لهم هذا الصنيع أبد الدهر . وكان هذا الاتهام الصريح موجهاً

---

(١) الأخبار الطوال / ص ١٥٦
(٢) الأخبار الطوال / ص ١٥٦
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤

من الوليد بن عقبة أخى عثمان لأمه ويجرى على هذا النحو :

بنى هاشم إيه فما كان بيننا　　وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه
بنى هاشم ردوا سلاح ابن أختكم　　ولا تنهبوه لا تحل مناهبه
غدرتم به كيما تكونوا مكانه　　كما غدرت يوما بكسرى مرازبه
بنى هاشم لا تعجلوا بإقادة　　سواء علينا قاتلوه وسالبه
وإنا وإياكم وما كان منكم　　كصدع الصفا لا يرأب الصدع شاعبه
بنى هاشم كيف التعاقد بيننا　　وعند علىّ سيفه ونجائبه
لعمرك لا أنسى ابن أروى وقتله　　وهل ينسين الماء ما عاش شاربه
وإنى لمجتاب إليكم بجحفل　　يصم السميع جرسه وجلائبه[1]

وقد نهض الفضل بن العباس بن أبى لهب ليرد على الوليد ولينقض اتهامه نقضا ، فبنو هاشم أبرياء من دم عثمان ونهبه ، وإنما أهل مصر هم الذين نهبوه بعد أن قتلوه ولم يكن على ليشترك فى هذه الفعلة الشنعاء ليرقى منها إلى الخلافة إذ هو جدير بها دون حاجة تلجئه إلى مثل هذا السلوك المشين ، وليس هناك أجدر منه بعد النبى ، بينما الوليد الذى يتباكى على مقتل عثمان فاسق نزل بفسقه قرآن وهو من ثم ليس هناك ، وهو وحزبه أشقياء بافتئاتهم على علىّ :

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم　　أُضيع وألقاه لدى الروع صاحبه
سلوا أهل مصرٍ عن سلاح ابن أختنا　　فهم سلبوه سيفه وحرائبه
وكان ولىّ العهد بعد محمد　　علىّ وفى كل المواطن صاحبه
علىّ ولىّ الله أظهر دينه　　وأنت مع الأشقين فيما تحاربه
وقد أنزل الرحمن أنك فاسق　　فمالك فى الإسلام سهم تطالبه[2]

ويضطر علىّ إلى أن يدخل بأهل الكوفة معركة الجمل فى مواجهة أهل البصرة الذين استمالهم الزبير وطلحة بعد أن نكثا بيعته وخرجا عليه يطلبان بدم عثمان ،

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤ ، الأغانى / حـ ٥ / ص ١٢٠ ، الكامل للمبرد ص ٤٤٤

(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٣٤

وكان خروج السيدة عائشة معهما مثيراً لجمهور المسلمين فرأوا فيه خروجاً على ما أمر به النبي نساءه من أن يقرن فى بيوتهن .

ولقد كان بين السيدة عائشة والسيدة أم سلمة تلاوم فى خروجها ونصح لم تصغ إليه ، وقبل نشوب القتال يوم الجمل تقدم منها أحد أنصار على وهو جارية بن قدامة السعدى فقال : « والله يا أم المؤمنين لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح » وخرج شاب من بنى سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نسائهما بقوله :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم　　هذا لعمرك قلة الإنصاف
أمرت بجر ذيولها فى بيتها　　فهوت كشق البيد بالإيجاف[1]

وكانت السيدة عائشة قد أثارت الناس على عثمان وقالت : اقتلوا نعثلا فقد كفر ، فلما أحدق به الثوار رحلت إلى مكة بقصد الحج وحتى لا تحضر حصاره فلما انضمت إلى طلحة والزبير كان موقفها صعباً على الفهم وقيلت فى ذلك أبيات تنسب لابن أم كلاب كما تنسب أيضاً لعمار بن ياسر ، تقول :

منك البداء ومنك الغير　　ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام　　وقلت لنا إنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله　　وقاتله عندنا من أمر
ولم يسقط السقف من فوقنا　　ولم تنكسف شمسنا والقمر
وقد بايع الناس ذا تدرأ　　يديل الشبا ويقيم الصعر
ويلبس للحرب اثوابهـــا　　وما من وفى مثل من قد غدر[2]

وبعث عثمان بن حنيف بعمران بن حصين وأبى الأسود الدؤلى إلى أصحاب الجمل ليعلموا علمهم فأتيا عائشة وسمعا منها ثم أتيا طلحة والزبير وسمعا منهما ثم رجعا إلى عائشة فودعاها فودعت عمران وقالت يا أبا الأسود : إياك أن يقودك الهوى إلى النار ، كونوا قوامين لله شهداء بالقسط وسرحتهما فمضى أبو الأسود حتى دخل على عثمان بن حنيف فابتدره قائلا :

---

(١) الطبرى / حـ ٥ / ١٧٠

(٢) الطبرى / حـ ٥ / ص ١٧٢ ، مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٦

يا ابن حنيف قد أوتيت فانفرْ
وطاعن القوم وجالد واصبرْ
وأبرز لهم مستلئما وشمِّرْ (١)

فقال ابن حنيف أى والحرمين لأفعلن، وأمر مناديه فنادى فى الناس : السلاح السلاح فاجتمعوا إليه فقال أبو الأسود :

أتينا الزبير فدانى الكلام وطلحة كالنجم أو أبعد
وأحسن قوليهما فادح يضيق به الخطب مستنكد
وقد أوعدانا بجهد الوعيد فأهون علينا بما أوعدوا
فقلنا : ركضتم ولم ترملوا وأصدرتم قبل أن توردوا
فإن تلقحوا الحرب بين الرجا ل فملقحها جده الأنكد
وإن علياً لهم مصحر ألا إنه الأسد الأسود
ألا إنه ثالث العابد ين بمكة والله لا يعبد
فرخوا الخناق ولا تعجلوا فإن غدا لكم موعد(٢)

والتقى جيش علىّ بأتباع الزبير وطلحة فى موقعة الجمل ودارت الدائرة على الناكثين وكان علىّ قد ناشدهم الله فى الدماء ، فأبوا إلا الحرب . وسألهم علام يقاتلونه فأبوا إلا الحرب فبعث رجلا من أصحابه يقال له مسلم، معه مصحف يدعو إلى الله فرموه بسهم ، فقتلوه ، فحمل إلى علىّ ، ورثته أمه بقولها :

يارب إن مسلما أتاهم يتلو كتاب الله لا يخشاهم
فخضبوا من دمه لحاهم وأمه قائمـــة تراهم(٣)

وكانت السيدة عائشة تنادى بأرفع صوتها : أيها الناس عليكم بالصبر فإنما يصبر الأحرار ، فأجابها أحد أنصار على :

---

(١) ديوان أبى الأسود / ص ٢٣٠ ، شرح نهج البلاغة / حـ ٢ / ص ٤٩٨
(٢) ديوان أبى الأسود / ص ٢٣٩ ، شرح نهج البلاغة / حـ ٢ ص ٤٨٩
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٧

يا أم .. يا أم عققت فاعلموا والأم تغذو ولدها وترحم
أما تراكم من شجاع يكلم وتجتلى هامته والمعصم

وقال آخر :

قلت لها وهى على مهوات إن لنا سواك أمهات
فى مسجد الرسول ثاويات (١)

ودعا علىّ الزبير لقتاله فخرج إليه واعتنقا فقال له على : ويحك يا زبير ما أخرجك : فقال : دم عثمان ، فذكره علىّ بقول الرسول — صلى الله عليه وسلم — للزبير بأنه يقاتل عليًّا وهو له ظالم فاستغفر الزبير وأكد أنه لو تذكر ما خرج ولكنه الآن يستنكف أن يرجع وقد التقت حلقتا البطان ، وهو العار الذى لا يغسل ، ونصحه علىّ بأن يرجع بالعار خيراً من رجوعه بالعار والنار ، فرجع الزبير وهو يقول :

اخترت عارا على نار مؤججة ما إن لقوم لها خلق من الطين
نادى علىّ بأمر لست أجهله عار لعمرك فى الدنيا وفى الدين
فقلت : حسبك من عدل أبا حسن فبعض هذا الذى قد قلت يكفينى (٢)

ومضى الزبير فقتله عمرو بن جرموز فى وادى السباع ، وجاء عمرو عليًّا بسيف الزبير وخاتمه ورأسه فأوعده النار وعنف به فقال فى ذلك عمرو :

أتيت عليًّا برأس الزبير وقد كنت أرجو به الزلفهْ
فبشر بالنار قبل العيان وبئس بشارة ذى التحفهْ
لسيان عندى قتل الزبير وضرطة عنز بذى الجحفهْ (٣)

ويروى أن عليًّا عاتب طلحة . وناقشه فى خروجه حتى كاد يرجع هو الآخر ، وخشى مروان بن الحكم ذلك فرماه بسهم فقتله ، وقيل إنه سمع فى احتضاره يقول :

---

(١) مناقب آل طالب / حـ ٢ / ص ٣٤٥
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٧
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٨

ندامة هاندمت وضل حلمى ولهفى ثم لهف أبى وأمى
ندمت ندامة الكسعى لما طلبت رضا بنى حزم بزعمى[١]

وقتل محمد بن طلحة مع أبيه فى نفس اليوم وكان يدعى بالسجّاد لتعبده، ومرّ به علىّ بعد المعركة فقال هذا رجل قتله برّه بأبيه وطاعته وقال قاتله فى قتله :

وأشعث سجاد بآيات ربه قليل الأذى فيما ترى العين مسلم
شككت له بالرمح جيب قميصه فخر صريعاً لليدين وللفم
على غير شىء غير أن ليس تابعا علياً ومن لا يتبع الحق يندم
يذكرنى حاميم والرمح شارع فهلا تلا حاميم قبل التقدم[٢]

وبعد الجمل تفرغ علىّ لمعاوية وسعت بينهما الرسل عبثاً وأخذ بنو أمية يحرضونه على الخروج طلبا لدم عثمان ، وكان من ذلك ما بعث به إليه الوليد بن عقبة إذ أرسل إليه بهذه الأبيات :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فإنك من أخى ثقة مليم
قطعت الدهر كالسدم المعنى تهدر فى دمشق فما تريم
وليس أخو التراث بمن توانى ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حياً لجرّد لا أكف ولا سئوم
ولا نكل عن الأوتار حتى يبىء بها ولا برم جثوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا فهم صرعى كأنهم الهشيم[٣]

وفى نفس الوقت كان قيس بن عمرو المعروف بالنجاشى شاعر على يحرضه على المسير إلى أهل الشام بقوله :

فقل لهذا الإمام قد خبت الحر ب وتمت بذلك النعماء
وفرغنا من حرب من نكث العهد وبالشام حية صماء

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٤٩
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٠
(٣) الطبرى / حـ ٥ / ٨٢

تنفث السم ما لمن نهشته — فارمها قبل أن تعض — شفاء [١]

وأبى معاوية أن يبايع لعلىّ ، وأراد أن يستخرجه فكتب إليه بأبيات دعا كعب ابن جعيل إلى نظمها ، وهى أبيات تتعرض لعلىّ فى دهاء وخبث وتصفه بأنه لاعيب فيه إلا إيواؤه المحدثين والقاتلين، وهى تتسلل إلى هدفها على هذا النمط :

أرى الشام تكره ملك العراق — وأهل العراق لهم كارهينا
وكلا لصاحبه مبغضاً — يرى كل ما كان من ذاك دينا
إذا ما رمونا رميناهم — ودناهم مثل ما يقرضونا
وقالوا : علىّ إمام لنا — فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا : نرى أن تدينوا به — فقلنا لهم لا نرى أن ندينا
ومن دون ذلك خرط القتاد — وضرب وطعن يقر العيونا
وكل يسر بما عنده — يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىّ لمستعتب — مقال سوى ضمه المحدثينا
وإيثاره اليوم أهل الذنوب — ورفع القصاص عن القاتلينا
إذا سيل عنه زوى وجهه — وعمىّ الجواب عن السائلينا
فليس براض ولا ساخط — ولا فى النهاة ولا الآمرينا
ولا هو ساء ولا سره — ولابد من بعض ذا أن يكونا [٢]

وقد أمر علىّ شاعره النجاشى بأن يرد على أبيات كعب بن جعيل فكان رده هذه الأبيات :

دعن يا معاوى ما لن يكونا — فقد حقق الله ما تحذرونا
أتاكم علىّ بأهل العراق — وأهل الحجاز فما تصنعونا
على كل جرداء خيفانة — وأشعث نهد تسر العيونا
عليها فوارس تحسبهم — كأسد العرين حمين العرينا
يرون الطعان خلال العجاج — وضرب القوانس فى النقع دينا

---

(١) الأخبار الطوال / ص ١٥٤
(٢) الأخبا الطوال / ص ١٦٢

همو هزموا الجمع جمع الزبير وطلحة والمعشر الناكثينا
وقالوا يميناً على حلفة لنهدى إلى الشام حرباً زبوناً
تشيب النواصى قبل المشيب وتلقى الحوامل فيها الجنينا
فإن يكره القوم ملك العراق فقدماً رضينا الذى تكرهونا
نقولوا لكعب أخى وائل ومن جعل الغث يوماً سميناً
جعلتم علياً وأشياعه نظير ابن هند أما تستحونا[1] ! ؟

وتعد هاتان المقطوعتان نموذجاً لاستخدام الشعر فى المناقضات السياسية ، فقد عنى النجاشى بنقض أفكار كعب ومعانيه فكرة فكرة ومعنى معنى .

وسار علىّ لملاقاة معاوية على رأس جيش كثيف بلغ عدده تسعين ألفاً كما جاء فى رسالة رجل من أشياعه بعث بها إلى معاوية يهدده فيها بقوله :

أثبت معاوى قد أتاك الحافل تسعون ألفاً كلهم مقاتل
عما قليل يضمحل الباطل[2]

وأخذ أنصار علىّ يتهددون معاوية على هذه الصورة ويتوعدونه ، وفى ذلك يقول الأشتر النخعى :

بقّيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشن على ابن حرب غارة لم تخل يوماً من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا تعدو ببيض فى الكريهة شوس
حمىَ الحديد عليهم فكأنه ومضان برق أو شعاع شموس[3]

ونزل معاوية على الماء فى حين بات علىّ وجيشه عطاشاً ، وقال عمرو لمعاوية إن علياً لا يموت عطشاً ومعه تسعون ألفاً من أهل العراق ، وسيوفهم على عواتقهم ، فدعهم يشربون ، ولكن معاوية أبى ودار علىّ فى جنده ليلا فسمع من يقول :

أيمنعنا القوم ماء الفرات وفينا الرماح وفينا الجحف

---

(١) الأخبار الطوال / ص ١٦٢
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٧
(٣) شرح التبريزى للحماسة حـ ١ / ص ٣٩

وفينا علىّ له صولة إذا خوفوه الردى لم يخف
ونحن غداة لقينا الزبير وطلحة خضنا غمار التلف
فما بالنا الأمس أسد العرين وما بالنا اليوم شاه النجف[١]

وألقى أحد الجند فى خيمة الأشعث بن قيس ، وكان أحد أمراء جيش على ، برقعة فيها :

لئن لم يحل الأشعث اليوم كربة من الموت عنا للنفوس تعلت
ونشرب من ماء الفرات بسيفه فهبنا أناساً قبل كانوا فمرت[٢]

فلما قرأها حمى واستأذن علياً أن يهجم على الماء فى أربعة الآف ، فإما استباحوا الماء وإما هلكوا ، وأذن له علىّ فسار فى جنده يرتجز :

لأوردنّ خيلى الفراتا شعث النواصى أو يقال ماتا[٣]

وسرح علىّ الأشتر وراءه فى أربعة آلاف من الخيل وصاحب رايته وهو رجل من النخع يرتجز قائلا :

يا أشتر الخيرات يا خير النخع وصاحب النصر إذا غال الفزع
قد خرج القوم وعالوا بالفزع أنتسقنا اليوم فما هو بالبدع[٤]

وسار علىّ فى بقية الجند خلفهما ، ونجح الأشعث فى إزالة جند معاوية عن الماء ، وأغرق منهم خيلا ورجلا ، وأورد خيله الفرات فتغنى شاعر من شيعة علىّ بقوله :

كشف الأشعث عنا كربة الموت عيانا
بعد ما طار كلانا طيرة مست لحانا
فله المن علينا وبـه دارت رحانا[١]

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨
(٤، ٥) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٥٨

وتوادع الجيشان شهر المحرم فلما أوشك على الانتهاء بعث علىّ يحتج على أهل الشام بكتاب الله ويدعوهم إليه فلم يجيبوه إلى شيء من ذلك إلا السيف ، وفى غرة صفر أخذ الفريقان يُبرزان كل يوم رجلا من كبارهم للمبارزة ، واستمر الحال هكذا ثمانية أيام حتى خرج علىّ بنفسه فى اليوم التاسع يطلب معاوية فاقتتلا ضحوة من النهار ، وبرز أمام الناس عبيد الله بن عمر بن الخطاب فى أربعة آلاف يطلبون دم عثمان ، وابن عمر يتقدمهم مرتجزاً بقوله :

أنا عبيد الله ينميني عمر   خير قريش من مضى ومن غبر
غير نبي الله والشيخ الأغر   قد أبطأت فى نصر عثمان مضر
والربعيون فلا اسقطوا المطر[1]

فناداه علىّ : علام تقاتلنى ؟ والله لو كان أبوك حيًّا ما قاتلنى ، وقال له أتطلب بدم عثمان والله يطلبك بدم الهرمزان ؟ وأمر الأشتر بالخروج إليه فخرج يرتجز مفتخراً بعراقيته ويقول :

إنى أنا الأشتر معروف السير   إنى أنا الأفعى العراقى الذكر
لست من الحىّ ربيع أو مضر   لكننى من مذحج البيض الغرر[2]

فانصرف عنه عبيد الله وخشى مبارزته ، وتنادى الشعراء فى الفريقين ، يهددون ويتوعدون ، وكل يعتقد أن الحق فى جانبه من مثل قول أبى الطفيل عامر بن واثلة يصف أنصار على :

كهول وشبان وسادات معشر   على الخيل فرسان قليل صدودها
شعارهم سيما النبي وراية   بها انتقم الرحمن ممن يكيدها

ورد عليه خزيمة الأسدى يصف جيش معاوية :

ثمانون ألفاً دين عثمان دينهم   كتائب فيها جبرئيل يقودها
فمن عاش منكم عاش عبداً ومن يمت   ففى النار سقياه هناك صديدها[3]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٢
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٦٣
(٣) الأغانى حـ ١٣ ص ١٦٠

وتقدم عمار بن ياسر وهو يقول : إنى لأرى وجوهاً لا يزالون يقاتلون حتّى يرتاب المبطلون ، والله لو هزمونا حتّى يبلغونا سعفات هجر لكنا على الحق وكانوا على الباطل ، وقاتل عمار قليلا ثم عاد إلى موضعه ، واندفع من ثم يصيح هل من رائح إلى الجنة تحت العوالى ؟ والذى نفسى بيده لنقاتلنكم على تأويله كما قاتلناكم على تنزيله ، وارتجز وهو يتقدم قائلا :

نحن ضربناكم على تنزيله ... فاليوم نضربكم على تأويله
ضرباً يزيل الهام عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله
أو يرجع الحق إلى سبيله (١)

وتوسط القوم واشتبكت عليه الأسنة فقتله أبو حواء السكسكى وأبو الهادية العاملى ، واختلفا فى سلبه، فاحتكما إلى عبد الله بن عمرو بن العاص فقال لهما : اخرجا عنى سمعت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول ، وقد بغت قريش بعمار : « ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار » ، وقد رثاه الحجاج بن عربة الأنصارى بقوله :

يا للرجال لعين دمعها جارى ... قد هاج حزنى أبو اليقظان عمارُ
أهوى إليه أبو حوا فوارسـه ... يدعو السكون وللجيشين إعصار
فاختل صدر أبى اليقظان معترضاً ... للرمح قد وجبت فينا له النار
الله عن جمعهم لاشك كان عفا ... أتت بذلك آيات وآثار
من ينزع الله غلا من صدورهم ... على الأسرة لم تمسسهم النار
قال النبى له تقتلك شرذمة ... سيطت لحومهم بالبغى فجار
فاليوم يعرف أهل الشام أنهم ... أصحاب تلك وفيها النار والعار (٢)

فعبد الله بن عمرو بن العاص والحجاج بن عربة يشيران فيما تقدم إلى ما روى من أن النبى — صلى الله عليه وسلم — قال لعمار : تقتلك الفئة الباغية .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٣

(٢) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٦٤

ولما صرع عمار تقدم جيش علىّ وجمهوره من الأنصار وربيعة فاشتد القتال والتحم الفرسان وكان أكثرهم إخلاصاً لعلىّ الربعيون فدعا لهم ، وترحم على قتلاهم وأشاد ببلائهم وبلاء زعيمهم الحصين بن المنذر بن الحارث الذهلى فى قوله :

لمن راية سوداء يخفق ظلها إذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها فى الموت حتى يزيرها حياض المنايا تقطر الموت والدما
أذقنا ابن حرب طعننا وضرابنا بأسيافنا حتى تولى وأحجما
جزى الله قوما قاتلوا فى لقائه لدى الموت قدما ما أعز وأقدما
وأطيب أخباراً وأكرم شيمة إذا كان أصوات الرجال تغمغما
ربيعة أعنى أنهم أهل نجدة وبأس إذا لاقوا خميساً عرمرما[١]

وقد ظل القتال حتى جنهم الليل ليلة الهرير وأصبح القوم على القتال . وكسفت الشمس وارتفع القتام وتقطعت الألوية وغدا الأشتر يرتجز وهو يقول :

نحن قتلنا حوشبا لما غدا قد أعلما
وذا الكلاع قبله ومعبداً إذ قدما
إن يقتلوا منا أبا الـ يقظان شيخاً مسلما
فقد قتلنا منكم سبعين رأسا مجرما
أضحوا بصفين وقد لاقوا نكالا مؤلما[٢]

وكان الأشتر بطل صفين دون منازع وفى بلائه يقول النجاشى :

رأيت اللواء كظل العقاب يقحمه الشامى الأخزر
دعونا له الكبش كبش العرا ق وقد خالط العسكرَ العسكر
فرد اللواء على عقبه وفاز بحظوتها الأشتر[٣]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٧٠
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٧٠
(٣) الأخبار الطوال ص ١٩٨

وكان الأشتر على ميمنة علىّ وقد أشرف على الفتح حتى نادى أهل الشام اللهَ اللهَ فى الحرمات وانتهوا إلى خديعة رفع المصاحف على أسنة الرماح فرفع فى عسكر معاوية نحو من خمسمائة مصحف وفى ذلك يقول النجاشى :

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا ... عليها كتاب الله خير قران

ونادوا علياً يا ابن عم محمد ... أما تتقى أن يهلك الثقلان(١)

وانخدع أهل العراق فتركوا القتال على الرغم من علىّ وانتهى الأمر بكتابة صحيفة التحكيم، وفيها فوض الأمر إلى رجلين يحكمان بكتاب الله ودار الأشعث بن قيس بالصحيفة فى جند على يقرؤها هنا وهناك حتى استثار عروة بن أدية الذى رفع سيفه وأهوى به على الأشعث فوقعت الضربة بعجز فرسه وكادت الفتنة أن تقع فى جيش علىّ لولا أن تداركها بنو تميم فاعتذروا للأشعث ، وخاطب أحد بنى تميم عروة محذراً من مغبة فعلته بهذه الأبيات :

عرو يا عرو كل فتنة قوم ... سلفت إنما تكون فتيه

ثم تنمى ويعظم الخطب فيها ... فاحذرن غب ما أتيت عريه

أعلى الأشعث المعصب بالتا ... ج حملت السلاح يا ابن أديه

إنها فتنة كفتنة ذى العجل ... أيا عروة العصا والعصيه

فانظر اليوم ما يقول علىّ ... واتبعه فذاك خير البريه (٢)

واختار أهل الشام عمرو بن العاص بينما أكره علىّ على اختيار أبى موسى الأشعرى، وكان رجلا لا يطاول عمراً فى دهائه كما لم يكن رضا من على لأنه خذل الناس عنه فى البصرة وفر حتى أمنه ، وكان اختياره لا يلقى ترحيباً من أشياع علىّ المخلصين وفى ذلك يقول أيمن بن خريم وكان قد اعتزل لما تطورت الأمور :

لو كان للقوم رأى يهتدون به ... عند الخطوب رموكم بابن عباس

لكن رموكم بشيخ من ذوى يمن ... لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس(٣)

---

(١) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٧١

(٢) مروج الذهب / حـ ٢ / ص ٢٧٤

(٣) مروج الذهب / حـ ٢ / ٢٧٩ ، الأخبار الطوال ص ١٩٦

وأيمن فى هذا إنما يصور ميل علىّ وشيعته المخلصين فى اختيار ابن عباس أو الأشتر وكان علىّ قد لقى معارضة فى ذلك من الأشعث وغيره ، ولم ير مناصاً من الخضوع لرأيهم .

وكان ما كان من اختلاف الحكمين ، وأحدث شعار الخوارج الذى رفعوه بألا حكم إلا لله رد فعل عنيفا فى جند علىّ كما يبدو فى قول أشياعه الذين شهدوا التحكيم إذ يقول أحدهم :

رضينا بحكم الله لاحكم غيره وبالله ربّا والنبى وبالذكر
وبالأصلع الهادى على إمامنا رضينا بذاك الشيخ فى العسر واليسر
رضينا به حيًّا وميتاً فإنه إمام الهدى فى موقف النهى والأمر (١)

وقد لقى أبو موسى لوما كثيراً من شعراء علىّ ، كذلك الذى لقيه من الفضل بن العباس الهاشمى إذ قال فى أبيات منها قوله :

أبا موسى بليت وكنت شيخاً قريب العفو مخزون اللسان
وما عمرو صفاتك يا ابن قيس فيا لله من شيخ يمانى
فأمسيت العشية ذا اعتذار ضعيف الركن منكوب العنان
تعض الكف عن ندم وماذا يرد عليك عضك للبنان (٢)

وانتهت الحرب مع أهل الشام على هذه الصورة التى فقد فيها المنتصر ثمرة انتصاره بما أوقعته الخديعة فى جنده من الانقسام والفرقة ، ورأى علىّ أن يستنفر المحكمة الذين خرجوا عليه لمّا رضى التحكيم لقتال أهل الشام فأبوا ، واستحث أنصاره الذين ظلوا معه على الخلاص من هؤلاء قبل الخروج إلى أهل الشام ، فالتقى بهم علىّ فى النهروان بعد مناظرات ومفاوضات لم تثمر وأوقع بهم وقعة شديدة .

وتخلف عن وقعة النهروان شعر كثير ، كثرته من الرجز الذى كان الفرسان

---

(١) مروج الذهب / ج ٢ / ص٢٧٩
(٢) مروج الذهب / ج ٢ / ص ٢٧٩

ينشدونه فى البروز من مثل قول أحد المحكمة وقد خرج يبحث عن علىّ ليقتله :

أضربهم ولو أرى عليًّا ... ألبسته أبيض مشرفيا

فأجابه علىّ بقوله :

يا أيهذا المبتغى عليّا ... إنى أراك جاهلا شقيّا

قد كنت عن كفاحه غنيّا ... هلم فابرز ها هنا إليّا

وحمل عليه فقتله (١) .

وكذلك خرج غيره يقول قولا قريبا من ذلك :

أضربهم ولو أرى أبا حسن ... ألبسته بصارمى ثوب غبن

فلقيه علىّ بسيفه ، وهو يقول :

يا أيهذا المبتغى أبا حسن ... إليك فانظر أينا يلقى الغبن(٢)

ولكن جنده لم يوفوا له بوعدهم فتثاقلوا عن نصرته ، وقد أزمع بعد الخلاص من المحكّمة أن يسير إلى أهل الشام وأخذوا يعتذرون بكلال سيوفهم ونفاد نبالهم ثم تسللوا فلحقوا ببيوتهم ، ولم يبق معه إلا نفر يسير ، وانتهز الفرصة الحارث ابن راشد من بنى ناجية ، فمضى فى ثلاثمائة من ولد سامة بن لؤى وارتدوا جميعاً إلى النصرانية ، ونجح معقل بن قيس الرياحى الذى سرحه علىّ فى إثرهم فى هزيمتهم بسيف البحر وسبى عيالهم وذراريهم حين استنقذهم منه مصقلة بن هبيرة الشيبانى عامل علىّ على الأهواز فاشتراهم بثلاثمائة ألف وأعتقهم وأدى من المال مائتى ألف والتوى بالمائة الباقية وهرب إلى معاوية وقال أثناء ذلك يندم على ما فعل :

تركت نساء الحى بكر بن وائل ... وأعتقت سبياً من لؤى بن غالب

وفارقت خير الناس بعد محمد ... لمال قليل لا محالة ذاهب(٣)

وقضى علىّ ما بقى من أيامه غير مطاع فى جنده ، بينما كان معاوية قد استحوذ

(١) مروج الذهب ح ٢ ص ٢٨٤

(٢) مروج الذهب ح ٢ ص ٢٨٤

(٣) مروج الذهب ح ٢ ص ٢٨٦

على مصر ، وأخذ يرسل السرايا تغير على أطراف العراق حتى نجح عبد الرحمن ابن ملجم المرادى فى طعنه ثأراً لأهل خطيبته قطام التى اشترطت عليه قتله فى مهرها ، وفى ذلك يقول ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة　　كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة　　وضرب علىّ بالحسام المصمم
فلامهر أغلى من علىّ وإن غلا　　ولافتك إلا دون فتك ابن ملجم [(١)]

وقد رثى الشعراء من شيعة آل البيت عليًّا رثاء حارًّا عبروا فيه عن سخطهم على معاوية وأهل الشام واتهموهم بالتحريض على قتله كما ذهب إلى هذا أبو الأسود الدؤلى فى قوله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب　　فلا قرت عيون الشامتينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا　　بخير الخلق طرًّا أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا　　وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها　　ومن قرأ المثانى والمثينا
إذا استقبلت وجه أبى حسين　　رأيت البدر راق الناظرينا
لقد علمت قريش حيث كانت　　بأنك خيرهم حسباً ودينا [(٢)]

وتنسب تلك الأبيات إلى أم الهيثم ابنة أبى الأسود وفيها زيادات كثيرة يبدو أنها أضيفت فيما بعد ويرويها أبو الفرج على هذا النحو :

ألا ياعين ويحك فاسعدينا　　ألا تبكى أمير المؤمنينا
رزئنا خير من ركب المطايا　　وخيسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها　　ومن قرأ المثانى والمثينا
وكنا قبل مقتله بخير　　نرى مولى رسول الله فينا
يقيم الدين لا يرتاب فيه　　ويقضى بالفرائض مستبينا

---

(١) الطبرى / حـ ٦ / ص ٨٧ ، مروج الذهب / حـ ٢ ص ٢٩٠
(٢) ديوان أبى الأسود / ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، الأغانى حـ ١١ ص ١٧ ، الطبرى حـ ٤ ص ١١٦

ويدعو للجماعة من عصاه ... ويهنك قطع أيدى السارقينا
وليس بكاتم علماً لديه ... ولم يخلق من المتجبرينا
لعمر أبى لقد أصحاب مصر ... على طول الصحابة أرجعونا
وغرونا بأنهم عكوف ... وليس كذاك فعل العاكفينا
أفى شهر الصيام فجعتمونا ... بخير الناس طرًّا أجمعينا
ومن بعد النبى فخير نفس ... أبو حسن وخير الصالحينا
كأن الناس إذ فقدوا عليًّا ... نعام جال فى بلد سنينا
ولو أنا سئلنا المال فيه ... بذلنا المال فيه والبنينا
أشاب ذؤابتى وأطال حزنى ... أمامة حين فارقت القرينا
تطوف بها لحاجتها إليه ... فلما استيأست رفعت رنينا
وعبرة أم كلثوم إليها ... تجاوبها وقد رأت اليقينا
فلا تشمت معاوية بن صخر ... فإن بقية الخلفاء فينا
وأجمعنا الإمارة عن تراض ... إلى ابن نبينا وإلى أخينا
ولا نعطى زمام الأمر فينا ... سواه الدهر آخر ما بقينا
وإن سراتنا وذوى حجانا ... تواصوا أن نجيب إذا دعينا
بكل مهند عضب وجرد ... عليهن الكماة مسومينا (١)

ويظهر فى هذه الروايات إصرار شيعة علىّ على أن يولوا ابنه الأمر من بعده حتى يكون فيهم بقية الخلفاء إلى آخر الدهر . ولكن معاوية نجح فى أن يحمل الحسن على التنازل له فيخاوله الجو ولكن تنازل الحسن يكون له رنة حزن فى نفوس الشيعة وقد لامه عليه أخوه الحسين وراجعه فى أمره باكياً وكذلك راجعه فى هذا الأمر وفد من شيعة الكوفة بزعامة سليمان بن صرد الخزاعى وحجر بن عدى الكندى والمسيب بن نجية الفزارى وإن كنا لا نجد لهذا التنازل وذلك الأسى صدى فى الشعر الشيعى ، وإن كان صدى موت الحسن فى شعر الشيعة واضحاً ، وربما كان السبب فى ذلك أن الشيعة أخذوا ينتظرون ما أملهم به الحسن من

---

(١) مقاتل الطالبيين / ص ٤٣ ، ٤٤

موت معاوية ورد الأمر شورى بين المسلمين كما تقضى شروط الصلح ، فلما مات الحسن قبل معاوية على هذه الصورة الغامضة برز ذلك كله وكان له صدى فى شعرهم كما فى أبيات المفضل المطلبى :

أصبح اليوم ابن هند آمناً ظاهر النخوة إذ مات الحسن
رحمة الله عليه إنما طالما أشجى ابن هند وأرن
استراح القوم منه بعده إذ ثوى رهناً لأحداث الزمن
فارتع اليوم ابن هند آمناً أينما يقمص بالعير السمن [1]

وكذلك بكاه النجاشى بكاء المعول الثاكل فى قوله :

جعدة بكيه ولا تسأمى بعد بكاء المعول الثاكل
لم يسبل الستر على مثله فى الأرض من حاف ومن ناعل
كان إذا شبت له ناره يرفعها بالسند الغاتل
كيما يراها بائس مرمل وفرد قوم ليس بالآهل
يغلى بنىء اللحم حتى إذا أنضجه لم يغل من آكل
أعنى الذى أسلمنا هلكه للزمن المستخرج الماحل [2]

ورثى الحسن جملة من شعراء الشيعة رثاء حارًّا من مثل قول سليمان بن قتة :

يا كذب الله من نعى حسنا ليس لتكذيب نعيه ثمن
كنت خليلى وكنت خالصتى لكل حى من أهله سكن
أجول فى الدار لا أراك وفى الـ ـدار أناسى جوارهم غبن
بدلتهم منك ليت أنهم أضحوا وبينى وبينهم عدن [3]

وقد تردد أن الحسن قد مات مسموماً بيد زوجه ابنة جعدة الأشعث بن قيس بتدبير من معاوية . وفى أبيات لمحمد بن الحنفية يرثى فيها أخاه الحسن نراه

(١) مناقب آل طالب حـ ٣ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤

(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٣

(٣) مقاتل الطالبيين ص ٧٧ شرح نهج البلاغة حـ ٤ ص ١٨ ، شرح شافية أبى فراس ص ١٣٢

يصرح بموت أخيه مسموماً فيقول :

أأدهن رأسى أم تطيب مجالسى وخدك معفور وأنت سليب
أأشرب ماء المزن من غير مائه وقد ضمن الأحشاء منك لهيب
سأبكيك ما ناحت حمامة أيكة وما اخضرفى دوح الحجازقضيب
غريب وأكناف الحجاز تحوطه ألا كل من تحت التراب غريب [١]

وكان معاوية قد ضمن للحسن بعد الصلح بينهما ألا يساء إليه هو ولا إلى أحد من أنصاره ، ولكن هذا لم يمنع معاوية من أن يوحى إلى عماله بشتم علىّ على المنابر مما أثار طائفة من خلصاء الشيعة فشغب قوم منهم على المغيرة بن شعبة فى مسجد الكوفة وكان زعيمهم فى هذا الشغب حجر بن عدى الذى سكت عنه المغيرة ولم يسكت عنه زياد بن أبيه فأوقع به وبصحبه وأرسلهم إلى معاوية فى دمشق ومعهم وثيقة زائفة تتهمهم بالعمل على نقض حكمه بالقوة ، وكان أن صدق على اتهامهم ولكنه أخلى سبيل ستة منهم تبرأوا من علىّ وقتل الستة الآخرين .

وكان لهذا الحادث أثر كبير فى إثارة السخط والتذمر بين المسلمين عامة والشيعة بخاصة ، وقد رثى كثير من الشيعة حجراً رثاء أظهروا فيه الحقد على معاوية وعامله زياد على هذه الصورة التى تبدو فى أبيات وصفت فيها ابنته مسيره إلى دمشق ليلقى مصيره ، تقول :

ترفّع أيها القمر المنير لعلك أن ترى حجراً يسير
يسير إلى معاوية بن حرب ليقتله كذا زعم الأمير
ويصلبه على بابى دمشق وتأكل من محاسنه النسور
تجبرت الجبابر بعد حجر وطاب لها الخورنق والسدير
وأصبحت البلاد لها محولا كأن لم يحيها مزن مطير
ألا يا حجر حجر بنى عدى تلقتك السلامة والسرور

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٤

أخاف عليك ما أردى عليًّا — وشيخاً فى دمشق له زئير
يرى قتل الخيار عليه حقًّا — له من شر أمته وزير
ألا ياليت حجراً مات موتا — ولم ينحر كما نحر البعير
فإن تهلك فكل عميد قوم — إلى هلك من الدنيا يصير(١)

وكذلك رثاه عبد الله بن خليفة الطائى ، وكان من أنصاره ، وقد طلبه زياد فلم يظفر به ، يقول عبد الله :

فدع عنك تذكار الشباب وفقده — وأسآره إذ بان منك فأقصرا
وبك على الخلان لم يتخرموا — ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
وما كنت أهوى بعدهم متعللا — بشىء من الدنيا ولا أن أعمرا
أقول ولا — والله — أنسى ادكارهم — سجيس الليالى أو أموت فأقبرا
على أهل عذراء السلام مضاعفاً — من الله وليسق الغمام الكنهورا
ولاقى بها حجر من الله رحمة — فقد كان أرضى الله حجر وأعذرا
ولا زال تهطال ملث وديمة — على قبر حجر أو ينادى فيحشرا
فيا حجر من للخيل تدمى نحورها — وللملك المغزى إذا ما تغشمرا
ومن صادع بالحق بعدك ناطق — بتقوى ومن أن قيل بالجور غيرا
فنعم أخو الإسلام كنت وإننى — لأطمع أن تؤتى الخلود وتحبرا
وقد كنت تعطى السيف فى الحرب حقه — وتعرف معروفاً وتنكر منكرا(٢)

ولقى الذين تخلوا عن نصرة عدى من أهل الكوفة لوماً عنيفاً على إسلامهم له وبخاصة أولئك الذين ينتمون إلى قومه من كندة كمحمد بن قيس ابن الأشعث الذى لامه عبيدة الكندى بقوله :

أسلمت عمك لم تقاتل دونه — فرقاً ولو لا أنت كان منيعا(٣)

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ١٥٧ ، الأغانى حـ ١٦ ص ١٠ ، مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٨

(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٥٩

(٣) الطبرى حـ ٦ ص ١٦٠

وانتهز معاوية وفاة الحسن ليدعو لبيعة يزيد لولاية عهده متحللا من وعده الذى قطعه على نفسه بإعادة الأمر إلى المسلمين ليختاروا من يرضونه .

وقد مهد معاوية لهذا الأمر باستلحاق زياد بن أبيه إلى نسب أبى سفيان على ما فى ذلك من مخالفة دينية سافرة ، ولقى هذا الاستلحاق سخرية من الشيعة وتندرًا كما فى قول يزيد بن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن حرب ... مغلغلة عن الرجل اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زانى
فأشهد أن رحمك من زياد ... كرحم الفيل من ولد الأتان [١]

وكذلك تندر خالد النجارى بهذا الاستلحاق متعجبًا من اجتماع ثلاثة رجال مختلفى النسب فى الأخوة فى قوله :

إن زيادًا ونافعًا وأبا ... بكرة عندى من أعجب العجب
إن رجالا ثلاثة خلقوا ... من رحم أنثى مخالفى النسب
ذا قرشى فيما يقول وذا ... مولى وذا ابن عمه عربى [٢]

وانطلق شعراء بنى أمية يخوضون معركة ولاية العهد ، ويروجون لها ، وكان الفارس المجلى فى تلك المعركة مسكين الدرامى الذى نعى فى قصيدة له على عبدالله بن عامر ، ومروان بن الحكم وسعيد بن العاصى معارضتهم لبيعته وتلكؤهم فيها [٣]

وقد حمل عبد الله بن همام السلولى الشيعى على هذه البيعة حملة شعواء تجاوزت السخرية والتهكم إلى إظهار الحقد والغيظ على بنى أمية فى قوله :

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا
إذا مامات كسرى قام كسرى ... نعد ثلاثة متناسقينا
فيالهفا لو ان لنا ألوفا ... ولكن لا نعود كما عنينا
إذًا لضربتموا حتى تعودوا ... بمكة تلعقون بها السخينا

---

(١) مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٢
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٣١٢
(٣) الأغانى ج ١٨ ص ٧١

خشينا الغيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما روينا
لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأرانب غافلينا[١]

وكان لهذه الأحداث المتتابعة من موت الحسن هذه الميتة الغامضة ، وقتل حجر ابن عدى وأصحابه واستلحاق زياد والبيعة ليزيد صدى مؤلم بين الناس . ومات معاوية وقد كسبت دعوة الشيعة نجاحًا بعيدًا ، ثم كان عنف يزيد بأبناء كبار الصحابة وإرغامهم على البيعة له مثيرًا لهم وداعيًا إلى العداء الصريح الذى حدا بعبدالله بن الزبير إلى أن يعوذ بالحرم فى مكة ، وبالحسين بن علىّ إلى أن يستجيب لدعوة أهل الكوفة الذين ألحوا عليه فى القدوم إليهم لمبايعته .

وقدّم الحسين أمامه إلى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ولكن عبيد الله بن زياد أخذ الشيعة بالشدة وطلب مسلما وجد فى طلبه وأرغمه على الخروج قبل الأوان وبعد أن بعث يستقدم الحسين واستجار مسلم بهانئ بن عروة المرادى فاستقدمه ابن زياد وحبسه . ونجح عبيد الله فى أن يخذل الناس من حول مسلم مستعينًا فى ذلك بأشراف الكوفة كمحمد بن قيس بن الأشعث الذى نعى عليه عبيدة الكندى تقاعسه عن نصرة مسلم كما تقاعس من قبل عن نصرة حجر بن عدى فى قوله :

وقتلت وافد آل بيت محمد وسلبت أسيافًا له ودروعا[٢]

ولكن مسلما لم يستسلم ، وقاوم إلى النهاية وحيدًا ، وقاتل قتال الأبطال ، ورد شرطة ابن زياد وهو يرتجز بقوله :

أقسمت لا أقتل إلا حرّا وإن رأيت الموت شيئًا نكرا
أخاف أن أكذب أو أغرا أو يخلط البارد سخنًا مرا
رُدّ شعاع الشمس فاستقرا كل امرئ يوما ملاق شرا[٣]

---

(١) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٢٩
(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٦٠
(٣) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٠ ، مقاتل الطالبيين ص ١٠٤ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١١

وظل يقاتل حتى أعطى له الأمان ، وجرد من سلاحه ، وسيق إلى ابن زياد حيث أمر بقتله فذبح ثم ألقى به من فوق القصر وصلب ، وقتل هانئ بن عروة المرادى وصلب معه فى السوق ، وفى ذلك يقول سليم بن سلام الحنفي :

إن كنت لا تدرين ما الموت فانظرى إلى هانئ فى السوق وابن عقيل
إلى بطل قد هشم السيف وجهه وآخر يهوى من طمار قتيل
ترى جسدا قد غير الموت لونه ونضح دم قد سال كل مسيل
فتى هو أحيا من فتاة حيية وأقطع من ذى شفرتين صقيل[١]

وكان الحسين قد أتاه كتاب مسلم قبل مقتله بشهر فصادف خروج مسلم انتقال الحسين من مكة على الرغم من معارضة آل بيته الذين نصحوا بألا يغتر بأهل العراق الذين قتلوا أباه وخذلوا أخاه ، وكان بين الناصحين عبد الله بن العباس الذى قدر ارتياح عبد الله بن الزبير لهذا الخروج ومدى إفادته منه فقال فى هذا الصدد :

يا لك من قبرة بمعمر خلالك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى هذا الحسين خارجاً فاستبشرى[٢]

وفى سهل كربلاء لقى الحسين بن على مصرعه بعد أن قاتل فى اثنين وثلاثين فارساً وأربعين راجلا منهم ثمانية عشر من أبناء هاشم وبعض من انضم إليه من جيش أعدائه ، وقد صور الشعر مصارعهم تصويراً تاماً ، وكان أولهم على بن الحسين الذى اقتحم وهو يرتجز :

أنا علىّ بن الحسين بن علىّ نحن وبيت الله أولى بالنبى
من شبث وشمرّ الدنى أضربكم بالسيف حتى يلتوى

---

(١) طبقات ابن سعد حـ ٤ ص ٢٩ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٦ ، الإرشاد ص ١٩٧

(٢) الطبرى حـ ٦ ص ٢١٧ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٠ ، ابن الأثير حـ ٤ ص ١٧

ضرب غلام هاشمى علوى ولا أزال اليوم أحمى عن أبى
والله لا يحكم فينا ابن الدعى[1]

وكان الحسين نفسه يرتجز فى قتاله ، فلما شعر بحرج موقفه أنشد وهو يحتسب نفسه :

يا دهر أف لك من خليل كم لك فى الإشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيل والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر فى ذاك إلى الجليل وكل حى سالك السبيل[2]

وكان الحسين آخر من قتل ، فساب وترك فى العراء متجرداً كما سبى أعداؤه النساء سبى الرقيق .

وللشيعة فى رثاء الحسين أشعار جمة ملتهبة بنيران الكمد والحزن والفجيعة والندم على خذلانه وخير مثال لذلك قول عبيد الله بن الحر وقد شهد مصرعه ومصرع صحبه حتى إننا نعده أول من وضع تقاليد البكائين للحسين ، يقول :

يقول أمير غادر حق غادر ألا كنت قاتلت الشهيد ابن فاطمه
فياندمى ألا أكون نصرته ألا كل نفس لا تسدد نادمه
وإنى لأنى لم أكن من حماته لذو حسرة ما إن تفارق لازمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا على نصره سقيا من الغيث دائمه
وقفت على أجداثهم ومجالهم فكاد الحشى ينفض والعين ساجمه
لعمرى لقد كانوا مصاليت فى الوغى سراعاً إلى الهيجا حماة خضارمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
فإن يقتلوا فكل نفس تقية على الأرض قد أضحت لذلك واجمه
وما إن رأى الراءون أفضل منهم لدى الموت سادات وزهراً قماقمه

---

(١) الطبرى ح ٦ ص ٢٥٦ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٣ ، الإرشاد ص ٢٢٠ ، ابن الأثير ح ٤ ص ٣٣

(٢) الطبرى ح ٦ ص ٢٤٠

أتقتلهم ظلما وترجو ودادنا ... فدع خطة ليست لنا بملائمه
لعمرى لقد راغمتمونا بقتلهم ... فكم ناقم منا عليكم وناقمه
أهم مرارًا أن أسير بجحفل ... إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه
فكفوا وإلا زرتكم فى كتائب ... أشد عليكم من زحوف الديالمه[(١)]

ولما أدخل رأس الحسين إلى يزيد أقبل عليه بعض من شركوا فى دمه يقول :

أوقرْ ركابى فضة أو ذهبا ... فقد قتلت الملك المحجبا
قتلت خير الناس أما وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسبا[(٢)]

وأذكى مقتل الحسين نار التشيع ووحد صفوف الشيعة وانتقل بمبادئهم من طور إلى طور . من طور النظر إلى طور العمل بعد أن امتزجت دماؤهم بمبادئهم وتغلغلت فى قلوبهم عقائدهم وأصبح الموقف مشحوناً وعلى وشك الانفجار . فهؤلاء آل النبي يقتلون بالجملة حتّى ليتبجح من ولغ فى دمهم فيطالب الفضة والذهب أجراً ، ومن قبل الحسين لقّى الحسن مصرعه بالسم ومن قتلهما هو الذى أودى بأبيهما من قبل غيلة فما أشد حزن الشيعة وما أجدرهم بأن يتأسوا بهم طلباً للسلوى والعزاء . يقول أحدهم :

تأس فكم لك من سلوة ... تفرج عنك غليل الحزن
بموت النبي وقتل الوصى ... وقتل الحسين وسم الحسن[(٣)]

وقد وقع الشيعة عقب مقتل الحسين فريسة لتأنيب الضمير ، وفتح الباب إلى التفكير فى التكفير عنه ، وقد نتج عن هذا التفكير قيام حركة التوابين التّى قادها سليمان بن صرد والتّى ظلت سرية حتّى وفاة يزيد فانطلقت من عقالها تندد بقتلة الحسين وتعلن العزم على الثأر له ، ولكن التوابين يلقون الهزيمة أمام جيش الشام ولا ينجو منهم إلا القليل ، ويتولى المختار الثقفى قيادتهم بعد

---

(١) الطبرى حـ ٦ ص ٢٧٠
(٢) العقد الفريد حـ ٤ ص ٣٨١ ، مقاتل الطالبيين ص ١١٩
(٣) مروج الذهب حـ ٢ ص ٣٠٣

سليمان فيُخرج والى ابن الزبير عن الكوفة ويجعل دعوة الشيعة فيها إلى ابن الحنفية صراحة وسرعان ما تتكون حول دعوته نظرية الشيعة الكيسانية المتأثرة بأفكار السبئية الغالية .

واحتضنت هذه الحركة الموالى كما احتضنت معهم أفكارًا متطرفة فى الحلول والتناسخ والرجعة والغيبة والعلم بالباطن والغيب وزاد المختار على ذلك شعوذات خاصة كالقول بالبداء واتخاذ الكرسى والحمائم البيض التى زعم أنها ملائكة تقاتل فى صفوفه .

ومن مخاريق المختار ما يرويه الطفيل بن جعدة فى شأن الكرسى الذى اتخذه المختار أنه خرج ذات يوم فإذا جار له زيات عنده كرسى ركبه الوسخ « فقلت فى نفسى لو قلت للمختار فى هذا شيئا ، فأخذته من الزيات وغسلته فخرج عود نضار قد شرب الدهن وهو أبيض فقلت للمختار : إنى كنت أكتمك شيئاً وقد بدا لى أن أذكره لك : إن أبى جعدة كان يجلس على كرسى عندنا ويروى أن فيه أثرًا من على قال سبحان الله أخرته إلى هذا الوقت أبعث به فأحضرته عنده وقد غشى فأمر لى باثنى عشر ألفًا ، ثم دعا : الصلاة جامعة ؛ فاجتمع الناس فقال المختار : إنه لم يكن فى الأمم الخالية أمر إلا وهو كائن فى هذه الأمة مثله ، وإن كان فى بنى إسرائيل التابوت فإن هذا فينا مثل التابوت فكشفوا عنه وقامت السبئية فكبروا ثم لم يلبثوا أن أرسل المختار الجند لقتال ابن زياد وخرج بالكرسى على بغل وقد غشى فقتل أهل الشام مقتلة عظيمة فزادهم ذلك فتنة » [(١)]

وقد قال أعشى همدان فى ذلك :

شهدت عليكم أنكم سبئية	وأنى بكم ياشرطة الشرك عارف
وأقسم ماكرسيكم بسكينة	وإن كان قد لفت عليه اللفائف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سمت	حمام حواليه وفيكم زخارف
وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت	شبام حواليه ونهد وخارف [(٢)]

---

(١) بن الأثير حـ ٤ ص ١٠٨

(٢) ابن الأثير حـ ٤ ص ١٠٨ ، الحيوان) ج ٢ ص ٢٧١ ، الطبرى حـ ٦ ص ١٤١

وكان إذا حارب يضع الكرسى فى براح الصف ويقول : « قاتلوا ولكم الظفر والنصر وهذا الكرسى محله فيكم محل التابوت فى بنى إسرائيل وفيه السكينة واليقين والملائكة [١] وفى السخرية من هذا الكرسى أيضا قال المتوكل الليثى شاعر بنى أمية :

أبلغ أبا إسحاق إن جئته ... أنى بكرسيكم كافر
تنزو شبام حول أعواده ... وتحمل الوحى له شاكر
محمرة أعينهم حوله ... كأنهن الحمص الحادر [٢]

وقد أقبل المختار بعد معركة جبانة السبيع إلى القصر ومعه سراقة بن مرداس أسيراً ، فقال آسره للمختار : إنى أسرت هذا ، فقال له سراقة : كذب ، ما هو الذى أسرنى ، إنما أسرنى غلام أسود على برذون أبلق ، عليه ثياب خضر ما أراه فى عسكرك الآن ، وسلمنى إليه فقال المختار أما إن الرجل قد عاين الملائكة فخلوا سبيله ، ونادى سراقة المختار :

أمنن علىّ اليوم يا خير معد ... وخير من حل بتجر والجند
وخير من لبى وحنا وسجد

ثم استعطفه بقوله :

نصرت على عدوك كل يوم ... بكل كتيبة تنعى حسينا
كنصر محمد فى يوم بدر ... ويوم الشعب إذ لاقى حنينا
فأسجح إن ملكت فلو ملكنا ... لجرنا فى الحكومة واعتدينا
تقبل توبة منى فإنى ... سأشكر إذ جعلت النقد دينا

فلما انتهى إلى المختار قال : أصلح الله الأمير أحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت الملائكة تقاتل معك على الخيول البلق من السماء والأرض فقال له المختار : اصعد المنبر فأعلم الناس ، فصعد فأخبرهم بذلك ثم نزل فخلا به

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ٢٣٩
(٢) الطبرى حـ ٦ ص ١٤١

فقال له المختار : إنى قد علمت أنك لم ترشيئاً وإنما أردت ماقدعرفت أن لا أقتلك فاذهب عنى حيث شئت لا تفسد علىّ أصحابى فخرج سراقة إلى البصرة فنزل عند مصعب وقال :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى رأيت البلق دهما مصمتات
كفرت بوحيكم وجعلت نذراً علىّ قتالكم حتى الممات
أرى عينىّ ما لم تبصراه كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا أقول لهم كذبتم وإن خرجوا لبست لهم أداتى [١]

وقد كان بعض الشعراء الأمويين يمدحونه خوفا من بطشه وكأنهم من شيعته على شاكلة قول عبد الله بن همام السلولى الذى قال فيه ، وفى إمامه :

دعا يا لثارات الحسين فأقبلت كتائب من همدان بعد هزيع
وآب الهدى حقاً إلى مستقره بخير إيابٍ آية ورجوع
إلى الهاشمى المهتدى المهتدى به فنحن له من سامع ومطيع [٢]

وكان المختار يصطنع لوناً من السجع يوهم به أنه يوحى إليه من مثل قوله : « أما ورب المرسلات عرفا لتقبلن بعد صف صفا ، وبعد ألف قاسطين ألفا » ، ومثل قوله وهو فى السجن : « أما ورب البحار ، والنخل والأشجار ، والمهامه والقفار ، والملائكة الأبرار ، والمصطفين الأخيار ، لأقتلن كل جبار بكل لدن خطار ، ومهند بتار ، بجموع الأنصار ، ليس بمثل أغمار ، ولا بغرر أسرار ؛ حتى إذا أقمت عمود الدين ، وزايلت شعب صدع المسلمين ، وشفيت غليل صدور المؤمنين ، وأدركت ثأر النبيين ، لم يكبر علىّ زوال الدنيا ، ولم أحفل بالموت إذا أتى » [٣] .

---

(١) الطبرى حـ ٧ ص ١٢٣ ، طبقات الشعراء ص ٣٧٦ ، ابن الأثير حـ ٤ / ص ١٠٠

(٢) الطبرى حـ ٧ ص ١٢٥

(٣) ابن الأثير حـ ٤ / ص ٧٣ ، ١٠٨ .

ويروى أن ابن الحنفية قد تبرأ من المختار حين نمى إليه أنه لبس على الناس أنه من دعاته ورجاله وتبرأ من الضلالات التى ابتدعها ومن التأويلات والمخاريق المموهة [١] .

ولكن المختار ينتهز فرصة اضطهاد ابن الزبير لمحمد بن الحنفية وحبسه مع رهط من بنى هاشم وقد قدموا بقصد الحج وتوعدهم بالقتل والإحراق إن لم يبايعوا ، وضرب لهم أجلا . فأشار عليه بعض أتباعه بأن يستنجد بالمختار الذى كان يعرض خدماته على ابن الحنفية آنذاك ليقوى به مركزه ، ولم يكن ابن الحنفية يستجيب له ولكنه فعل أمام اضطهاد ابن الزبير . وانتهز المختار الفرصة فأثار عاطفة أهل الكوفة ، حتى بكوا وطلبوا أن يسيروا لنصرة المهدى ابن المهدى وبعث المختار بجيش يقوده أبو عبد الله الجدلى ، ودخل هذا الجيش المسجد الحرام ، وجنده ينادى بيالثارات الحسين وكسروا باب السجن وقد أحيط به الحطب المشتعل ، وأطلقوا ابن الحنفية وأنصاره واستأذنوه فى قتال ابن الزبير فلم يستحل القتال فى الحرم ، واضطر ابن الزبير إلى أن يغض الطرف ويخفض صوته ، ووزع ابن الحنفية فى جند المختار بعض المال وعادوا أدراجهم إلى الكوفة .

وفى استنقاذ ابن الحنفية من سجن الزبير يقول شاعر الكيسانية كثير بن عبد الرحمن .

فمن ير هذا الشيخ بالخيف من منى	من الناس يعلم أنه غير ظالم
سمى النبي المصطفى وابن عمه	وفكّاك أغلال ونفاع غارم
أبى فهو لا يشرى هدى بضلالة	ولا يتقى فى الله لومة لائم
ونحن بحمد الله نتلو كتابه	حلولا بهذا الخيف خيف المحارم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن	وحيث العدو كالصديق المسالم
فما فرح الدنيا بباق لأهله	ولا شدة البلوى بضربة لازم

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٣٧ .

تخبر من لا قيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم فى سجن عارم[١]

وقد سقط المختار آخر الأمر ، وسيطر ابن الزبير على البصرة والكوفة ولكن أثر هذه الشخصية الغريبة لم يسقط فى السياسة والعقيدة ، فقد أدى مقتله إلى تطور بالغ فى تاريخ الشيعة إذا اتجهت الشيعة بعد مصرعه إلى الدعوة والمقاومة السرية ووضع مبدأ التقية الذى أخذ به ابن الحنفية نفسه عندما لحق بعبد الملك بعد خلاصه من سجن ابن الزبير ، كما أخذ به شاعره كثير الذى مضى فى ركابه ، ويمكن أن يقال إن الشيعة لزمت حالة الكمون بعد سقوط المختار وسيطرة عبد الملك على الأقاليم المختلفة وتوحيدها وقد ظلت الدولة تحته نحواً من عشرين عاما يسوسها بحذر ومهارة ودهاء وارتدعت الشيعة فى عهده وعهد خلفائه إلى عهد هشام بن عبد الملك الذى نسميه بطور النظر فى تاريخ العقيدة الشيعية .

ولا نسمع أن الشيعة أتت أحداثاً هامة خلال الفترة التى سبقت عهد هشام ابن عبد الملك حتى خروج زيد بن على ، إلا ما كان من خروج بعض الجعفرية على خالد القسرى ، وهو يخطب على المنبر ، ولم يكن يعلم بخروجهم ، وكانوا يتصايحون لبيك جعفرا ، فلما بلغه خبرهم دهش ولم يعلم ما يقول فزعا ، فقال أطعمونى ماء ، ثم خرج الناس إليهم فأخذوا ، فجعل يجىء بهم إلى المسجد ويؤخذ طن قصب فيطلى بالنفط ويقال للرجل : احتضنه ، ويضرب حتى يفعل ثم يحرق حتى حرقوا جميعا ، فلما قدم يوسف بن عمر دخل عليه الكميت فمدحه وذكر فعل خالد بهم فقال :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن ... كمن حصنه فيه الرتاج المضبب

وما خالد يستطعم الماء فاغرا ... بعدلك والداعى إلى الموت ينعب[٢]

ولكنه لا يلبث حتى يهجوه هجاء مراً بعد قتل زيد بن علىّ على يد شرطته بقوله :

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣١ .

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٦ .

يعز على أحمد بالذى أصاب ابنه أمس من يوسف
خبيث من العصبة الأخبثين وإن قلت زانين لم أقذف[١]

ولما خرج زيد بن علىّ على هشام بن عبد الملك وقتل ، دفنه بعض أنصاره خفية فى قاع قناة حبس عنها الماء ثم أطلق ، ولكن بعض العبيد دلوا يوسف ابن عمر على مكانها فاستخرجت وأخذت إلى الكناسة حيث صلبت وبقيت جثته مصلوبة إلىأن مات هشام، فقال حكيم بنعياش الكلبى شاعر بنى أمية :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أر مهديًّا على الجذع يصلب
وقستم بعثمان عليًّا سفاهة وعثمان خير من علىّ وأطيب[٢]

وكان لمقتله وصلبه رنة حزن وأسى فى شعر الشيعة فبكوه معولين منذرين من مثل قول المفضل المطلبى :

ألا يا عين لا ترقى وجودى بدمعك ليس ذا حين الجمود
غداة ابن النبى أبو حسين صليب بالكناسة فوق عود
يظل على عمودهم ويمسى بنفسى أعظم فوق العمود
تعدى الكافر الجبار فيه فأخرجه من القبر اللحيد
فظلوا ينبشون أبا حسين خضيبا بينهم بدم جسيد
فطال به تلعبهم عتوًّا وما قدروا على الروح الصعيد
وجاور فى الجنان بنى أبيه وأجداداً هم خير الجدود
فكم من والد لأبى حسين من الشهداء أو عم شهيد
ومن أبناء أعمام سيلقى هم أولى به عند الورود
دماء معاشر نكثوا أباه حسيناً بعد توكيد العهود
فسار إليهم حتى أتاهم فما أرعوا على تلك العقود
وكيف تضن بالعبرات عينى وتطمع بعد زيد فى الهجود
وكيف لها الرقاد ولم تراءى جياد الخيل تعدو بالأسود

(١) الهاشميات ص ١٥٧
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٣٦٠

تجمع للقبائل من معد ... ومن قحطانْ فى حلق الحديد
كتائب كلما أردت قتيلا ... تنادت أنْ إلى الأعداء عودى
بأيديهم صفائح مرهفات ... صوارم أخلصت من عهد هود
بها نسقى النفوس إذا التقينا ... ونقتل كل جبـــار عنيد
ونحكم فى بنى الحكم العوالى ... ونجعلهم بها مثل الحصيد
وننزل بالمعيطيين حـــرباً ... عمارة منهم وبنو الوليد
وإن تكمن ظروف الدهر فيكم ... وما يأتى من الأمر الحديد
نجازيكم بما أوليتمونا ... قصاصا أو نزيد على المزيد
ونترككم بأرض الشام صرعى ... وشتى من قتيل أو طريد
تنوء بكم خوامعها وطلس ... وضارى الطير من بقع وسود
وليست بآيس من أن تصيروا ... خنازيراً وأشباه القرود[١]

وعلى هذه الصورة من اللوعة والحزن كان بكاء الشيعة لزيد وحسرتهم على قتله ونبش قبره وصلبه والتلعب بجسده ، ولوكان زيد أول من فعل به ذلك لهان الخطب ولكن أعمامه وأبناء أعمامه لقوا نفس المصير فقتلوا وصلبوا وتخاذل الناس عنهم بعد أن أعطوهم المواثيق والعهود ، وكيف لعين الشاعر أن تضن بالعبرات أو تطمع فى الهجود بعد زيد ؟ وكيف نومه على الفراش ، ولم تحشد الكتائب لحرب الجبارين ومجازاتهم بمثل ما قدموا قصاصاً أو يزيد على ذلك حتى تتركهم فى عقر دارهم فى الشام صرعى وقتلى مجندلين ومشردين تنهشهم السباع والطيور .

وهكذا ذهب فى البكاء والتحريض شعر الشيعة فى رثاء زيد وكان بعض من رثاه يلتفت إلى خذلان أهل الكوفة له واعتذارهم عن نصرته بحجة أن يوسف ابن عمر قد احتجزهم ليلتها فى المسجد ، يقول أبو ثميلة الأبار :

أبا الحسين أعار فقدك لوعة ... من يلق ما لاقيت منها يكمد
فغدا السهاد ولو سواك رمت به الـ ... أقدار حيث رمت به لم يشهد

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٤٩

ونقول : لا تبعد وبعدك داؤنا — وكذاك من يلق المنية يبعد
كنت المؤمل للعظائم والنهى — ترجى لأمر الأمة المتأود
فقتلت حين رضيت كل مناضل — وصعدت فى العلياء كل مصعد
فطلبت غاية سابقين فنلتها — بالله فى سير كريم المورد
وأبى إلهك أن تموت ولم تسر — فيهم بسيرة صادق مستنجد
والقتل فى ذات الإله سجية — منكم وأحرى بالفعال الأمجد
والناس قد أمنوا وآل محمد — من بين مقتول وبين مشرد
نصب إذا ألقى الظلام ستوره — رقد الحمام وليلهم لم يرقد
يا ليت شعرى والخطوب كثيرة — أسباب موردها وما لم يورد
ما حجة المستبشرين بقتله — بالأمس أوماغدرأهل المسجد [١]

وشاع فى رثاء زيد الندم على خذلانه وعدم نصرته كما جاء فى شعر الكميت ابن زيد من مثل قوله :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه — ألهفى لهف للقلب الفروق
حذار منية لا بد منها — وهل دون المنية من طريق [٢]

وكان زيد قد كتب إلى الكميت عند خروجه أن اخرج معنا يا أعيمش ألست القائل :

ما أبالى إذا حفظت أبا القا — سم فيكم ملامة اللوام ؟

فكتب إليه الكميت بقوله :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة — تظل لها الغربان حولى تحجل [٣]

وقد حدثت مناقضة بين شاعر من شعراء الأنصار وأحد شعراء الشيعة على إثر وصول رأس زيد بن على إلى المدينة بعد وفاة هشام ، فقد حمل الشاعر الأنصارى

---

(١) مقاتل الطالبيين ص ١٥٠
(٢) الهاشميات ص ١٥٧
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ ، الهاشميات ص ١٣٧

على زيد حملة شعواء قال فيها :

ألا يا ناقض الميثا ق أبشر بالذى ساكا
نقضت العهد والميثا ق قِدماً كان قد حاكا
لقد أخلف إبليس الـــــذى قد كان مناكا

فلما قيل له : ويلك أتقول هذا لمثل زيد ؟ قال : « إن الأمير غضبان فأردت أن أرضيه » فرد عليه شاعر من الزيدية بقوله :

ألا يا شاعر السوء لقد أصبحت أفاكا
أتشتم ابن رسول اللّـــــه وترضى من تولاكا
ألا صبحك الله بخزى ثم مساكا
ويوم الحشر لا شك بأن النار مثواكا[1]

وقد لقى يحيى بن زيد مصير أبيه ، وكان نصر بن سيار قد دفعه إلى التنقل من مكان إلى آخر حتى التجأ إلى عربى نبيل فى بلخ ودل عليه هناك فقبض عليه ، وصادف ذلك وفاة هشام فأمر الوليد بن يزيد بإطلاق سراحه ، ويبدو أن نصر بن سيار كان قد جعله فى سلسلة وضيق عليه تضييقا شديداً قبل أن يطلق سراحه بأمر الخليفة ، وفى هذا يقول رجل شيعى من بنى ليث يذكر ما صنع بيحيى :

أليس بعين الله ما تصنعونه عشية يحيى موثق فى السلاسل[2]

وبعد إطلاق سراحه ، لم يتركه عمال نصر فطاردوه ، واضطروه إلى القتال واستطاع بسبعين رجلا معه أن يهزم جيشاً أرسله نصر بن سيار ، وقوى الأمل فى نجاحه فيما أخفق فيه أبوه ، يقول أبو نميلة الآبار متمنياً أن يقر به عين أمه ريطة :

فلعل راحم أم موسى والذى نجاه من لجج خضم مزبد
سيسر ريطة بعد حزن فؤادها يحيى ويحيى فى الكتائب مرتدى[3]

---

(١) الطبرى حـ ٨ ص ٢٧١
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٥٥
(٣) مقاتل الطالبيين ص ١٥٢

ولكن نصر بن سيار يبعث إليه بجيش آخر فيقتل يحيى فى المعركة إثر إصابته بسهم فى صدغه بقرية أرغونة ، وأمر الخليفة الذى أفرج عنه من قبل بجز رأسه وصلبه ثم بإحراقه حتى يصير رماداً وإلقائه فى الماء .

وكانت حركة عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب آخر حركات الشيعة فى عهد بنى أمية ، وكان شيعة الكوفة قد انتهزوا الصراع الدائر بين مروان بن محمد وإبراهيم بن الوليد على الخلافة فأغروا عبد الله بالخروج ولكنهم ما لبثوا أن انفضوا من حوله ، وتركوه قائماً بين بعض الزيدية الذين رأوها فرصة سانحة للانتقام لزيد ويحيى وبخاصة أن عبد الله كان زوجا لبنت زيد بن على ، وخرج بهم عبد الله إلى بلاد الجبل حيث عظم أمره هناك ثم استقر قليلا فى أصبهان ومنها توجه إلى اصطخر من إقليم فارس حيث تمكن من إخضاع منطقة شاسعة جداً وفصلها عن جسد الدولة وانضمت إليه طوائف مختلفة جد الاختلاف جمعها العداء لبنى أمية ، وخاض عبد الله حرباً عنيفة ضد جيوش مروان بن محمد حتى هزم أمامها آخر الأمر وفر إلى كرمان حتى بلغ هراه ولكنه لم يجد ترحيباً من أبى مسلم الخراسانى ، فغدر به أبو مسلم وقتله .

ولم يسجل الشعر الشيعى شيئاً من أحداث حركته وإن مدحه فأكثر مدحه إبراهيم ابن هرمة[1] وليس هناك سبب لذلك غير أن تشيعه كان متهما لزندقته وطموحه الشخصى الذى دفعه إلى تسخير عناصر مختلفة تمام الاختلاف فى عدائه للدولة الأموية .

٢

لو تصفحنا ما بين أيدينا من شعر الشيعة فى عصر بنى أمية لوجدناه يذهب فى عدة أغراض تستغرقها منازع حب آل البيت حبًّا قد ينتهى إلى الزهد فى الدنيا وتمثله مقربا إلى الجنة ، ومنازع الثورة على بنى أمية ثورة تطوى فى داخلها حقدا

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ٧٢ ، مقاتل الطالبيين ص ١٦١

شديداً ودعوة ملحة إلى سفك دمائهم كما سفكت دماء شهداء الشيعة علىّ والحسن والحسين وزيد بن على ويحيى بن زيد وغيرهم من زعماء الشيعة ودعاتها البارزين، وهم دائماً يبكون هؤلاء الشهداء بكاء حاراً حتى لتستحيل كثرة شعرهم بكائيات مغرقة فى اللوعة والحزن وتحريضاً على الثأر لهم وحملات على بنى أمية ينعتون فيها بنعوت تخرجهم عن دائرة الإيمان والإسلام ، وتصمهم بالظلم والجبروت والاغتصاب ، وجدالا عن الحق المغتصب جدالا عقلياً وعاطفياً وتعبيرا عن عقيدتهم فى الإمام الذى إن اختلفوا حول شخصه فهم لا يختلفون فى ضرورة كونه من آل البيت الذين آلت إليهم الإمامة نصاً وتعييناً .

وقد امتلأت قلوبهم بالحب لآل البيت حبا يملك على نفوسهم أهواءها ومشاعرها وتعبدا بهذا الحب الذى تمكن من قلوبهم فصار ركنا من أركان إيمانهم لاعتقادهم بأن حب على وآله مظهر من مظاهر حبهم لله تعالى لنبيه — صلى الله عليه وسلم — .

وهذا أبو الأسود الدؤلى وقد عابه قوم على تشيعه يعلن حبه للرسو وعمه العباس وحمزة ووصى النبى علىّ ، وهو يقرن حبه إياهم بحب الله ويؤكد أنه حب متأصل فى نفسه منذ شرح الله صدره للإسلام لم ينحرف عنه وسيظل عاكفا عليه حتى يبعث يوم القيامة حافظا له ويتوجه باللوم لمن عاب تشيعه من العثمانية فيصمهم بالسماجة والخسة ، ويعود يؤكد حبه لآل البيت وثباته عليه ويقينه من صوابه ، فإن كان حبه لهم رشادا فى نظر لائميه فالحمد لله الذى هداه إليه وإن كان ضلالا فى اعتقادهم فهو صواب ورشاد فى اعتقاده، يقول :

أحب محمدا حبا شديدا	وعباسا وحمزة والوصيا
وجعفر إن جعفر خير سبط	شهيد فى الجنان مهاجريا
أحبهم كحب الله حتى	أجىء إذا بعثت على هويا
هوى أعطيته منذ استدارت	رحى الإسلام لم يعدل سويا
يقول الأرذلون بنو قشير	طوال الدهر لا تنسى عليا

فقلت لهم وكيف يكون تركى | من الأعمال ما يقضى عليا
بنو عم النبي وأقربوه | أحب الناس كلهم إليا
فإن يك حبهم رشدا أصبه | ولست بمخطئٍ إن كان غيا
هم أهل النصيحة من لدنى | وأهل مودتى ما دمت حيا
رأيت الله خالق كل شيء | هداهم واجتبى منهم نبيا
هم آسوا رسول الله حتى | تربع أمره أمراً قويا
وأقواما أجابوا الله خوفاً | له لا يجعلون له سميا
مزينة منهم وبنو غفار | وأسلم أضعفوا معه بليا
يقودون الجياد مسومات | عليهن السوابغ والمطيـــا[1]

ولقد عاب عليه بنو قشير تشككه فى قوله « فإن يك حبهم » فقال يرد عليهم أما سمعتم قول الله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين »[2] وكان أبو الأسود يتقرب إلى الله بحب آل البيت ، وقد سأله زياد بن أبيه عن حبه لعلى فقال إن حب على يزداد فى قلبى كما يزداد حب معاوية فى قلبك فإنى أريد الله والدار الآخرة بحبي عليا وتريد الدنيا وزينتها بحبك معاوية[3] .

وقد حاول معاوية أن يفتن أبا الأسود عن حبه لآل البيت فلم يوفق وأخفقت هداياه التى كان يبعث بها إلى أبى الأسود ، وكان قد أهداه ذات يوم هدايا فيها حلوى فسألته ابنته من أين هذه الهدية ، فقال بعث بها معاوية يخدعنا عن ديننا ، فقالت ابنته على البديهة :

أبالشهد المزعفر يابن حرب | نبيع عليك أحسابا ودينا
معاذ الله كيف يكون هذا | ومولانا أمير المؤمنينا[4]

---

(١) ديوان أبى الأسود الدولى ص ١٧٦
(٢) مقدمة الديوان ص ٣٩
(٣) تأسيس الشيعة ص ٤٤ ، ديوان أبى الأسود ص ٧٨
(٤) ديوان أبى الأسود ص ٧٨

وكان أبو الأسود شأن كثيرين مثله يعتد اعتدادا شديداً بحب آل البيت جعله يلاحى في سبيله بني أمية وولاتهم وأصهاره من بني قشير وأصدقاء له كثيرين انتقصوا لديه عليًّا فكان يرد عليهم وكأنه يرد على كل لائميه في هذين البيتين إذ يقول :

أمفندي في حب آل محمد   حجر بفيك فدع ملامك أو زد
من لم يكن بحبالهم متمسكا   فليعترف بولاء من لا يرشد[1]

وهذا عبد الله بن كثير السهمي يرد على من يعيبون عليه تعلقه بآل البيت فيرى هذا الذي يعدونه عليه ذنباً إنما هو كفارة الذنب في قوله :

إن امرءاً أمست معايبه   حب النبي لغير ذي ذنب
وبني أبي حسن ووالدهم   من طاب في الأرحام والصلب
أيعد ذنباً أن أحبهم   بل حبهم كفارة الذنب[2]

وهذا أخوه كثير بن كثير السهمي وقد سمع عمال خالد القسري يلعنون عليا وأبناءه على المنابر يحتج على ذلك ويلعن لاعنيهم في قوله :

لعن الله من يسب عليا   وحسينا من سوقة وإمام
أيسب المطيبون جدوداً   والكرام الأخوال والأعمام
يأمن الظبي والحمام ولا يأ   من آل الرسول عند المقام
طبت بيتا وطاب أهلك أهلا   أهل بيت النبي والإسلام
رحمة الله والسلام عليهم   كلما قام قائم بسلام[3]

ولم يكن هذا الحب مقصوراً على الشيعة فحسب وإنما كان هنالك من المسلمين من كان يستشعر حب آل البيت ويؤمن بحقهم على الرغم من اختلافه معهم في المذهب والرأي وليس أدل على ذلك من النعمان بن بشير الأنصاري

---

(١) ديوان أبي الأسود ص ٢٥٣

(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٠

(٣) معجم الشعراء ص ٣٤٨ ، المؤتلف والمختلف ١٦٩ ، والحيوان ج ٣ ص ١٩٤

وهو عثمانى الهوى ، وشهد مع معاوية صفين ، ولم يكن معه من الأنصار غيره ، ولكنه على الرغم من ذلك كان يؤمن بحق آل البيت فى الخلافة كما يبدو فى قوله وقد غضب من هجاء الأخطل للأنصار .

وإنى لأغضى عن أمور كثيرة ... سيرقى بها يوما إليك السلالم
أصانع فيها عبد شمس وإننى ... لتلك التى فى النفس منها أكاتم
فما أنت والأمر الذى لست أهله ... ولكن ولى الحق والأمر هاشم
إليهم يصير الأمر بعد شتاته ... فمن لك بالأمر الذى هو لازم
بهم شرع الله الهدى فاهتدى بهم ... ومنهم له هاد إمام وخاتم(١)

وقد دفع هذا الحب ببعض الشيعة دفعاً إلى استشعار التقوى وعبادة الله حق عبادته ، بل لقد دفع نفراً منهم إلى الزهد فى الحياة ومتاعها الزائل ، من مثل حرب بن المنذر بن الجارود الذى قنع من دنياه باليسير القليل من الطعام الكفيل بإقامة أوده وقنع من دنياه بكفن الكتان ، وحسبه من دنياه وأخراه أنه يحب آل البيت استجابة للآية الكريمة : « قل ما أسألكم عليه أجرا إلا المودة فى القربى » يقول حرب :

فحسبى من الدنيا كفاف يقيمنى ... وأثواب كتان أزور بها قبرى
وحبى ذوى قربى النبى محمد ... فما سألنا إلا المودة من أجر(٢)

فحبهم لآل البيت مما يتزودون به ويتقربون به إلى الله ، بل ويطلبون به النجاة من العذاب كما يذهب إلى ذلك شاعر الكيسانية السيد الحميرى حيث يقول :

إنى امرؤ حميرى غير مؤتشب ... جدى رعين وأخوالى ذو ويزن
ثم الولاء الذى أرجو النجاة به ... يوم القيامة للهادى أبى حسن(٣)

وهذا الكميت لا يرى شيعة إلا آل البيت ، ولا مذهباً إلا مذهبهم ،

---

(١) الأغانى ج ١٤ ص ١٢٣ .
(٢) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٥
(٣) البيان والتبيين ج ٣ ص ٣٦٠

فإليهم تتطلع نوازع قلبه ولبه وهو لا يبالى بمن يكفرونه لحبهم ويقطعون بإساءته فهم لا يعيبونه عن رشاد ولكن عن خبث وضلال ويسخرون من حبه آل البيت وهو يعجب من سخريتهم ، وينعتونه بالترابى نسبة إلى أبى تراب ، وهو يعتز بهذا النعت غاية الاعتزاز فيقول :

فمالى إلا آل أحمد شيعة ... ومالى إلا مشعب الحق مشعب
ومن غيرهم أرضى لنفسى شيعة ... ومن بعدهم لا من أجل وأرجب
إليكم ذوى آل النبى تطلعت ... نوازع من قلبى ظماء وألبب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم ... وطائفة قالوا مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم ... ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
يعيبوننى من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا : ترابى هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب[١]

وكان بعض الشيعة يرى حب آل البيت دينا وبغضهم كفرا ، فهم أئمة أهل التقى وخير أهل الأرض كما يذهب إلى ذلك الحزين الكنانى فى مديح على ابن الحسين إذ يقول :

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم ... أوقيل من خير أهل الأرض قيل هم[٢]

وقد استتبع هذا الحب المخلص الجارف لآل البيت عداء شديدا لغاصبيهم حقوقهم من بنى أمية ، ورأيا سيئا فى عثمان ، ويظهر ذلك فى قول أبى العباس الأعمى الأموى عن صديقه الشيعى أبى الطفيل عامر بن واثلة :

لعمرك إننى وأبا طفيل ... لمختلفان والله الشهيد
أرى عثمان مهتديا ويأبى ... متابعتى وآبى ما يريد[٣]

---

(١) الهاشميات ص ٣٧
(٢) زهر الآداب ج ١ ص ٧٣
(٣) الأغانى ج ١٥ ص ٥٧

وامتلأ شعر الشيعة بالسخط والمرارة عليهم وعلى ولاتهم الذين يعنفون بأئمتهم فيقتلونهم وينبشون قبورهم ويصلبونهم على الأعواد فى الأسواق .

وكما أظهروا العداء لبنى أمية أظهروه لغيرهم من الفرق ، فإن كان بنو أمية قد فعلوا ذلك فإن الزبيريين أيضاً ليسوا بأهل لما يدعونه من ولاية أمر المسلمين ، وكذلك الخوارج الذين فرقوا شيعة على وقتلوه وتسببوا فى خذلانه أمام أهل الشام والمرجئة الذين يرجون عليا ولا يقطعون بإيمانه وصواب مذهبه .

ولكن عداءهم لبنى أمية بطبيعة الحال كان أشد ، وهذا الكميت شاعر الزيدية يحمل عليهم حملة شعواء ، ويجاهر بلعنهم دون تقية ودون خوف لسلطانهم أو جبروتهم ويأمل فى الرضا من آل هاشم لتتم به نعمة الله على المسلمين ، يقول الكميت فى الحملة على بنى أمية :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعا
ألا أف لدهر كنت فيه ... هدانا طائعا لكم مطيعا
أجاع الله من أشبعتموه ... وأشبع من بجوركم أجيعا
ويلعن فذ أمته جهارا ... إذا ساس البرية والخليعا
بمرضى السياسة هاشمى ... يكون حيا لأمته ربيعا
وليثا فى المشاهد غير نكس ... لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ... ويترك جدبها أبدا مريعا[1]

فهو يتمنى أن يكون الأمر لإمام هاشمى يغير ظلم الأمويين جميعا سواء فى ذلك معاوية أو الوليد أو غيرهما ، وهو يدعو الأمة إلى أن تستيقظ من غفوتها فتنفض عنها هذا الظلم المنيخ وهذه السوءات التى ما كانت لتظهر لو كانوا يقظين ، فقد عطلت الأحكام حتى لكأن المسلمين على غير دين الإسلام ، وقد أعادها بنو أمية جاهلية عمياء والمسلمون يكتفون بالتشدق بالدين ويتركون لبنى أمية أن يعبثوا بالدين كما يشتهون لأنهم ركنوا إلى الدنيا واستوحشوا فراقها على الرغم

---

(١) الهاشميات ص ٣ ، الأغانى جـ ١٥ ص ١١٤ .

من أنهم يلاقون فيها ما هو أمر من الموت والقتل ، وكيف لا وأمور الناس أضحت مضيعة يتلعب بها بنو أمية ، وإلا فهل يجمعهم وإياهم كتاب يقضى بالحق والعدل ؟ وكيف وهم يختلفون عنهم فريق يسمن وفريق يهزل؟ وما دام الأمر كذلك فلا صلاح لأمر الدنيا لفساد أمر الدين وقد أصبح يعنى بأمره ونهيه ذلك البرذون المركول هشام بن عبد الملك ، ولو كان يتدبر بآيات الكتاب لنهته عما يأتيه من الخطايا ، أم أن على قلوب أقفالها؟ هؤلاء هم ملوك السوء من بنى أمية الذين طال ملكهم ، فاستحدثوا البدع وأحلوا الحرام وحرموا الحلال وسفكوا دماء المسلمين ، فحتام يا رب هذا العناء .... يقول الكميت :

ألا هل عم فى رأيه متأمل ... وهل مدبر بعد الإساءة مقبل
وهل أمة مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل
فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى ننتحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعالَ أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
ونحن بها مستمسكون كأنها ... لنا جنة مما نخاف ومعقل
أرانا على حب الحياة وطولها ... تجدّ بنا فى كل يوم ونهزل
فتلك أمور الناس أضحت كأنها ... أمور مضيع آثر النوم بهل
فياساسة هاتوا لنا من حديثكم ... ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول
أأهل كتاب نحن فيه وأنتم ... عن الحق نقضى بالكتاب ونعدل ؟
فكيف ومن أنى وإذ نحن خلفة ... فريقان شتى تسمنون ونهزل ؟
أتصلح دنيانا جميعا وديننا ... على ما به ؟ ضاع السوام المؤبل
كأن كتاب الله يعنى بأمره ... وبالنهى فيه الكودنى المركل
ألم يتدبر آية فتدله ... على ترك ما يأتى أم القلب مقفل ؟
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتى م حتى م العناء المطول؟
لهم كل عام بدعة يحدثونها ... أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا

كما ابتدع الرهبان ما لم يجيء به   كتاب ولا وحى من الله منزل
تحل دماء المسلمين لديهم   ويحرم طلع النخلة المتهدل
فيارب هل إلا بك النصر يرتجى   عليهم وهل إلا عليك المعول[١]

وليس شك فى أن الكميت أثار بهذه القصيدة ثائرة هشام بن عبد الملك وأحفظه حتى عظم أمرها عليه، واستنكرها وأقسم ليقطعن لسانه ويده[٢].

وقد لا يعنف الشعر الشيعى ببنى أمية كل هذا العنف وإنما يسلك سبيلا معتدلا فى إظهار عدائه وكراهيته لهم كما فعل المفضل المطلبى فى أبيات توجه بها إلى بنى أمية راجيا أن يكفوا عن بنى عمهم فلا ينبشون أحقاد الماضى الدفينة ولا يطمعون فى أن يهينوهم وأن يكرمهم هؤلاء فى مقابل ذلك، وهو يصرح فى هدوء ودون انفعال بالكراهية المتبادلة بين الفريقين وهو لا يلومهم لأنهم يكرهون بنى هاشم إذ أن ذلك أمر مفروغ منه فلكل وجهته ومذهبه فى بغض صاحبه، يقول :

مهلا بنى عمنا مهلا موالينا   لا تنبشوا بيننا ما كان مدفونا
لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم   وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
مهلا بنى عمنا عن نحت أثلتنا   سيروا رويداً كما كنتم تسيرونا
الله يعلم أنا لا نحبكم   ولا نلومكم أن لا تحبونا
كل له نية فى بغض صاحبه   بنعمة الله نقليكم وتقلونا[٣]

وقد مر بنا كيف افتك جند المختار محمد بن الحنفية ورهطا من بنى هاشم من سجن عارم الذى حبسهم فيه عبدالله بن الزبير وأزمع إحراقهم فيه بعد أن امتنع ابن الحنفية عن البيعة له، وقد أغاظ هذا الصنيع عبد الله بن الزبير فكتب إلى مصعب أن يسير نساء كل من خرج لذلك، فأخرجهن وأخرج فيهم امرأة أبى الطفيل عامر بن واثلة الكنانى الشيعى وابنا له صغيرا يقال له يحيى، وكان

(١) الهاشميات ص ١٢٣
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠
(٣) شرح حماسة التبريزى جـ ١ ص ٧٤

أبو الطفيل من أمراء هذا الجيش الذى افتك ابن الحنفية فقال فى ذلك :

فإن يك سيرها مصعب فإنى إلى مصعب مذنب
أقود الكتيبة مستلئما كأنى أخو عرة أجرب
علىّ دلاص تخيرتها وفى الكف ذو رونق يقضب[1]

وفخر أبو الطفيل بانتصاره ذاك يوم عارم وزها بإنقاذ ابن الحنفية من براثن بنى الزبير فى مواضع كثيرة من شعره من مثل قوله :

ولما رأيت الباب قد حيل دونه تكسرت باسم الله فيمن تكسرا[2]

وهجا أبو الطفيل عبد الله بن الزبير منتصراً لعبد الله ولعبيد الله ابنى العباس ورأى فى ذلك ما يفخر به وكان عبد الله قد خشى خطرهما عليه بمكة بعد أن قال له عبد الله بن صفوان « إن عبد الله يفقه الناس وعبيد الله يطعمهم فما أبقيا لك » فأحفظه ذلك وأرسل صاحب شرطته عبد الله بن مطيع وقال له انطلق إليهما فقل لهما : أعمدتما إلى راية ترابية قد وضعها الله فنصبتماها ؟ بددا عنى جمعكما ومن ضوى إليكما من ضلال أهل العراق وإلا فعلت وفعلت فقال عبد الله لابن مطيع : قل لابن الزبير : يقول لك ابن عباس ثكلتك أمك ، والله ما يأتينا من الناس غير رجلين طالب فقه أو طالب فضل فأى هذين تمنع ؟

فقال أبو الطفيل فى ذلك :

لا درّ درّ الليالى كيف تضحكنا منها خطوب أعاجيب وتبكينا
ومثل ما تحدث الأيام من غير يا ابن الزبير عن الدنيا تسلينا
كنا نجىء ابن عباس فيقبسنا علما ويكسبنا أجراً ويهدينا
ولا يزال عبيد الله مترعة جفانه مطعما ضيفا ومسكينا
فالبر والدين والدنيا بدارهما ننال منها الذى نبغى إذا شينا

(١) الأغانى ج ١٣ ص ١٦٠
(٢) نفس الموضع

إن النبي هو النور الذى كشفت — به عمايات باقينا وماضينا
ورهطه عصمة فى ديننا ولهم — فضل علينا وحق واجب فينا
ولست فاعلمه أولى بهم رحما — يا ابن الزبير ولا أولى به دينا
ففيم تمنعهم عنا وتمنعنا — عنهم وتؤذيهم فينا وتؤذينا ؟
لن يؤتى الله من أخزى ببغضهم — فى الدين عزًّا ولا فى الأرض تمكينا(١)

وهكذا يصدر الشيعى فى مواجهة الزبيريين عن حب وتقدير لآل الرسول لفضلهم وبرهم ولأنهم عصمة الدين وأهل الفضل على المسلمين وليس ابن الزبير فى مقامهم ولا هو أهل لما يدعيه من الأمر دونهم ، فرحمه ليس أولى من رحمهم ودينه ليس كدينهم فلماذا يطاولهم ويمنعهم عن الناس ويمنع الناس عنهم ويؤذى الناس فيهم والله لا يؤتى من أبغض آل بيت رسوله عزًّا فى الدين ولا مكنة فى الأرض إذ ليس له جزاء بغضهم غير الخزى والذلة والمهانة .

ولم يكن موقف الشيعة من الخوارج خيراً من موقفهم من الزبيريين ، وإنما كان أكثر شدة وحنقا ، لأن الخوارج هم الذين قتلوا عليًّا وكفروه ، ولقد كاد علىّ أن يجتث أصولهم يوم النهروان ، وهكذا فقد ظلت البغضاء والكراهية حية ومتبادلة بين الفريقين .

وقد سجل شعر الشيعة هذه الكراهية ، وهذا الكميت بن زيد يصوب فعل علىّ بهم يوم النهروان فيقول :

إنى أدين بما دان الوصى به — يوم النخيلة من قتل المحلّينا
وبالذى دان يوم النهر دنت به — وشاركت كفه كفى بصفينا
تلك الدماء معاً يا رب فى عنقى — ومثلها فاسقنى آمين آمينا(٢)

فهو لا يبرأ من دمائهم وإنما يتمنى أن يسقيه الله مزيداً من دمائهم تلك، فهم محلون للحرمات ، وكان الوصى محقًّا فى اجتثاث أصولهم يوم النهروان ويوم النخيلة .

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ١٦١
(٢) تهذيب الكامل جـ ١ ص ٨٦ .

ومن ذلك أيضاً قول السيد الحميرى شاعر الكيسانية فى خروجهم على علىّ وتجبرهم فى أمرهم وتمردهم على تحكيم كتاب الله ، وكيف انتقم الله منهم فتركوا طعمة لجوارح الطير ، يقول :

خوارجُ فارقوه بنهروان	على تحكيمه الحسن الجميل
على تحكيمه فعموا وصموا	كتاب الله فى فم جبرئيل
فمالوا جانباً وبغوا عليه	فما مالوا هناك إلى مميل
فتاه القوم فى ظلم حيارى	عماة يعمهون بلا دليل
فضلوا كالسوائم يوم عيد	تنحر بالغداة وبالأصيل
كأن الطير حولهم نصارى	عكوفاً حول صلبان الأبيل [١]

وكان إرجاء المرجئة الحكم على علىّ شأنه فى ذلك شأن عثمان ومعاوية والخوارج وأصحاب الجمل محنقاً للشيعة الذين لا يضعون أحداً من هؤلاء جميعاً فى مقام على أوفى مقام يدانيه ، ولهذا حمل الشيعة على المرجئة لهذه السلبية التى لا تنصف الشيعة من أعدائهم .

وقد استغل السيد الحميرى فى هجومه على المرجئين خبراً سمعه من بعض المحدثين يقول : إن النبى — صلى الله عليه وسلم — كان ساجداً فركب الحسن والحسين وهما طفلان آنذاك على ظهره فقال عمر بن الخطاب : نعم المطى مطيكما . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — ونعم الراكبان ، فساق السيد الخبر ليستدل به على مكانة السبطين وأمهما وأبيهما من النبى ولينتقض بذلك رأى المرجئة فى تسويتهم ما بين على وذريته وغيرهم ممن يرجئون الحكم عليهم ، فقال :

أتى حسن والحسين النبى	وقد جلسا حجزة يلعبان
ففداهما ثم حياهما	وكانا لديه بذاك المكان
فراحا وتحتهما عاتقاه	فنعم المطية والراكبان
وليدان أمهما برة	حَصان مطهرة للحَصان

(١) مناقب آل طالب ج ٢ ص ٣٧١ — ٣٧٢ .

وشخصهما ابن أبى طالب   فنعم الوليدان والوالدان
خليلى لا ترجيا واعلما   بأن الهدى غير ما تزعمان
وإن عمى الشك بعد اليقين   وضعف البصيرة بعد العيان
ضلال فلا تلججا فيهما   فبئست لعمركما الخصلتان
أيرجى على إمام الهدى   وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حرب وأشياعه   وهوج الخوارج بالنهروان
يكون إمامهم فى المعاد   خبيث الهوى مؤمن الشيصبان[١]

وبطبيعة الحال لم يكن هذا موقف كل الشيعة من المرجئة ، وإنما هو موقف الغلاة من الكيسانيين ، أما الزيدية فلم تكن لتعادى المرجئة هذا العداء وهم يذهبون مذهب المعتزلة فى تصحيح خلافة المفضول وجواز أن يكون على أو غيره على الخطأ ومما يؤكد ذلك ما ترويه الروايات من أن المرجئة لم يكونوا يعدلون بزيد أحدا[٢] .

وعلى هذا يختلف موقف الشيعة الزيدية من المرجئة وبخاصة الإيجابيين منهم الذين خرجوا على بنى أمية من مثل الحارث بن سريج وجهم بن صفوان فى خراسان فلقوا منهم كل عطف وتأييد لقضيتهم التى خرجوا من أجلها ، وتشهد بذلك أبيات للكميت يستنفر بها أهل مرو من المرجئة للثورة على بنى أمية حين ولى خالد القسرى أخاه أسداً على خراسان سنة ١١٧ هـ .

وفى تلك الأبيات ينصح الكميت أهل خراسان على بعد الدار بأن يجدُّوا فى ثورتهم ، ويعتذر للحارث بن سريج عن إعانته بالجند والمال لأن من قبله من الشيعة قد أجهدهم اضطهاد بنى أمية ، ولولا ذلك لزارته من العراقين خيل تردى بالفرسان ، ويتوجه إليهم بألا يهنوا وألا يرضوا بالخسف وألا يخدعهم أسد عن حقهم بوعوده الكاذبة فهم لا يغلبون من قلة وقد ناهزوا السبعين ألفا : وكانت أبيات الكميت كأنها منشور ثورى ألقى به إلى ثوار المرجئة يقول :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٥

(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢٨ .

ألا أبلغ جماعة أهل مرو / على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدى سلاما / ويأمر فى الذى ركبوا بجد
وأبلغ حارثاً عنا اعتذرا / إليه بأن من قبلى بجهد
ولولا ذاك قد زارتك خيل / من المصرين بالفرسان تردى
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف / ولا يغرركم أسد بعهد
وكونوا كالبغايا إن خدعتم / وإن أقررتم ضيما لوعد
وإلا فارفعوا الرايات سوداً / على أهل الضلالة والتعدى
فكيف وأنتم سبعون ألفاً / رماكم خالد بشبيه قرد[١]

وهكذا كان الشيعة يرون أنفسهم فوق من عداهم ، ولا يرون لأحد معهم حقًّا فى ولاية أمر المسلمين ولا فضلا يسامى فضلهم وفضل أئمتهم الهداة من آل البيت ، يقول المفضل المطلبى فى هذا الصدد :

ما بات قوم كرام يدعون يدا / إلا لقومى عليهم منة ويد
نحن السنام الذى طالت شظيته / فما يخالطه الأدواء والعمد[٢]

فهم عصمة الدين يقضون نهارهم فى التعبد والمكابدة والصوم وليلهم فى الصلاة والتهجد ، وقد قضى القرآن الكريم بولايتهم وفضلهم ولكن قوما نفسوا عليهم هذا الفضل وأسرع فيهم البلاء وتعرضوا للمحن ولكنهم أبداً لا يقاسون بغيرهم ولا يقاس غيرهم بهم ، فبينهم وبين كل من عداهم بون شاسع وغيرهم أرض لأرجلهم وهم لرءوس غيرهم ولعيونهم سماء سامقة الرفعة والعلاء كما يقول أيمن ابن خريم فيهم :

نهاركم مكابدة وصوم / وليلكم صلاة واقتراء
وليتم بالقران وبالتزكى / فأسرع فيكم ذاك البلاء
أأجعلكم وأقواما سواء / وبينكم وبينهم الهواء
: وهم أرض لأرجلكم وأنتم / لأرؤسهم وأعينهم سماء؟[٣]

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٢
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٥
(٣) الأغانى جـ ٢١ ص ٦ .

وحقاً لم يكن هناك من بين الفرق فرقة تعرضت للمحن وأسرع فيها البلاء كما حدث للشيعة إذ أخذوا يفتقدون أئمتهم واحداً إثر واحد فيقتلون بعد أن يخذلهم الذين أحبوهم ووالوهم واستخرجوهم ليلقوا مصيرهم المفجع حتى لا يكاد ينجو منهم إلا عدد قليل، ومن نجا من القتل لم ينج من السجن أو الاضطهاد والتعذيب ومن قتل لم ينج من الصلب والتنكيل والتمثيل .

ولو أخذنا نقرأ فى شعر الشيعة لوجدناهم محزونين على أئمتهم وشهدائهم الذين سفكت دماؤهم دون أن يرعى قاتلوهم فيهم إلاً ولا ذمة ولا رحما لرسول الله ولا قربى ، وقد تحول شعراؤهم يبكون ويندبون مصيرهم بدموع لا ترقأ ، وربما كان هذا الطابع أهم ما يميز الشعر الشيعى فى هذا العصر [1]

فهو دموع وبكاء وعبرات وزفرات وشكاية حارة وحداد قاتم على ما نزل بالأسرة العلوية من محن وبلاء وتعذيب واضطهاد ولا يستطيع الشيعة فضلا عن الشعراء منهم أن يكفوا معها عن سكب الدموع وتصعيد الزفرات كما لا يستطيعون مغالبة البكاء على من يسقط من أفراد هذه الأسرة شهيداً حتى ليضرب المثل برقة دموع الشيعة فيقال :

أرق من دمعة شيعية تبكى علىّ بن أبى طالب[2]

وإذا كنا نجد فى الأدب الشيعى موضوعاً لا ينضب معينه ولا يمل كتاب الشيعة ترديده وهو موضوع محن آل البيت [3] فأجدر بالشعر الشيعى أن يكون حينئذ بكائيات خالصة .

وهذا المعنى الذى مر بنا فى شعر أيمن بن خريم حول إسراع البلاء فى آل البيت لفضلهم وتزكيهم ليس إلا صدى لما شاع بين الشيعة من أحاديث تنسب إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – تتنبأ بالقدر السيىء الذى سوف تنكب به ذريته وكذلك إلى ما يروى من روايات مأثورة عن علىّ يتجلى فيها الوضع والاختلاق .

---

(١) تاريخ الأدب العربى / العصر الإسلامى ص ٣١٥

(٢) مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٧٩

(٣) العقيدة والشريعة / ص ١٧٨

وهى أحاديث وروايات لا تكتسب قيمة ما إلا من حيث كونها مؤثرة فى الشيعة حتى ليصبح من سمات الشيعى الحق أن يكون ضاوى الجسد قد برحت به صنوف المشقة والحرمان وجفف شفاهه الصدى ، لا تكف عيناه عن تذراف الدموع فهو بائس شقى ألف العناء والاضطهاد كالأسرة التى يدافع عن حقها ويعانى الآلام من أجلها حتى دخل فى روع المسلمين أن آل البيت قد خصتهم العناية باحتمال آلام الشقاء وعذاب الاضطهاد ، وأخذ الناس بالرواية التى تزعم أن السليل الحقيقى لآل البيت لا بد أن يبتلى بالمحن على سبيل الاختبار حتى إذا تبين أنه يعيش فى نعمة ودعة حامت الشكوك حول صحة نسبه [١] .

وقد اتخذ الشيعة فيما بعد ذكرى كربلاء عيداً من أعياد الحزن يصورون فيه تاريخ محنهم تصويراً أخاذاً نزعوا فيه منزعاً مسرحيًّا كما عنوا عناية شديدة بكتب المقاتل التى لا تبعد عن كونها قوائم بأسماء الشهداء ومراثيهم التى تنحل إلى بكاء صرف ودموع سخينة من مثل رثاء سليمان بن قتة للحسين فهو لا يكتفى فيها بالبكاء وإنما يجعل الدنيا كلها من حوله تبكى فليست منازل آل البيت كعهده بها وإنما تغير حالها والشمس أضحت مريضة بفقد الحسين والبلاد اقشعرت من هول الفجيعة والرزء العظيم والسماء تبكى معولة والنجوم تنوح فى صلاة حزينة من أجله ، يقول سليمان :

مررت على أبيات آل محمد ... فلم أرها كعهدها يوم حلت
وكانوا رجاء ثم صاروا رزية ... وقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الشمس أضحت مريضة ... لفقد حسين والبلاد اقشعرت
وقد أعولت تبكى السماء لفقده ... وأنجمها ناحت عليه وصلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها ... وإن أصبحت منهم برغمى تخلت
فإن قتيل الطف من آل هاشم ... أذل رقاب المسلمين فذلت [٢]

وهذا أبو الأسود الدؤلى يكاد يؤمن بأن آل البيت قد سبقت لهم هذه اللعنة

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٧٨ .

(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢١ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٤٠ .

الخاتمة كما يعلم ذلك الراسخون فى الكتاب والعالمون بالأحزاب ، فعلى الشيعى أن يكون لهم جنة يرجى بذلك حوض الرسول والفوز فى الآخرة وليخلص نفسه بهذه التضحية فداء لآل البيت فيقول فى رثاء الحسين ومن أصيب من بنى هاشم معه :

أقول لعاذلتى مرة وكانت على ودنا قائمة
إذا أنت لم تبصرى ما أرى فبينى وأنت لنا صارمة
ألست ترين بنى هاشم قد افنتهموا الفئة الظالمة
فأنت تزينتهم بالهدى وبالطف هام بنى فاطمة
فلو كنت راسخة فى الكتا ب بالأحزاب خابرة عالمة
علمت بأنهم معشر لهم سبقت لعنة جائمة
سأجعل نفسى لهم جنة فلا تكثرى لى من اللائمة
أرجى بذلك حوض الرسو ل والفوز والنعمة الدائمة
لتهلك إن هلكت برة وتخلص إن خلصت غانمة (١)

وتزخر كتب المقاتل والمناقب الشيعية بقصائد لا حصر لها فى رثاء الحسين وغير الحسين من آل البيت وهى تدور فيها عدة معان بأعيانها من مثل الخجل من رسول الله يوم القيامة إذا سألهم عما فعلوه بعترته وآله كهذه الأبيات التى تنسب إلى أبى الأسود الدؤلى :

ماذا تقولون إن قال النبى لكم ماذا فعلتم وأنتم آخر الأمم
بعترتى وبأهلى بعد مفتقدى منهم أسارى وقتلى ضرجوا بدم
هل كان هذا جزائى إذ نصحت لكم أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى (٢)

وكذلك التحرج فى طلب شفاعته — صلى الله عليه وسلم — وقد أسلموا أبناءه للظالمين يقتلونهم ويسبون نساءهم سبى الرقيق ، من مثل قول أسماء بنت عقيل :

---

(١) ديوان أبى الأسود الدؤلى ص ١٨٠ — ١٨١ .
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢٦٢ .

ماذا تقولون إن قال النبى لكم — يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتم عترتى أو كنتم غيباً — والحق عند ولى الأمر مجموع
أسلمتموه بأيدى الظالمين فما — منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف إذ حضروا — تلك المنايا ولا عنهن مدفوع (١)

وقد بكت عليهم الملائكة الزهر فى السموات فى ركوعهم وسجودهم كقول القائل :

هلا بكيت على الحسين وأهله — هلا بكيت لمن بكاه محمد
فلقد بكته فى السماء ملائك — زهر كرام راكعون وسجد (٢)

وذكرت روايات كثيرة أن الجن أعولت بمقطعات كانت ترثى بها الحسين وآله الذين قتلوا معه ، وأنه تجاوبت بإعوالهن الأرض وأن بعض الجن خفوا لنصرته يوم كربلاء وكذلك سمعت الملائكة وهى تنوح بعد الواقعة (٣) .

ولا تقتصر قصائد الرثاء الشيعية على مجرد البكاء وإنما تتعداه إلى التحريض على الأخذ بثأر الشهداء ومن دافعوا عنهم من رفاقهم وهو تحريض يتحول إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء حتى يغسل الشيعة عنهم عار القعود عن نصرتهم ويتحول ذلك عند طائفة منهم إلى ما يمكن أن نسميه غريزة الدم المسفوح (٤).

ومن خير من يصورون تلك الغريزة عوف بن عبد الله الأحمر الأزدى ، وله فى الحسين قصيدة طويلة رثاه بها وحض الشيعة فيها على الطلب بدمه وكانت مكتمة فى عهد بنى أمية لا تروى إلا سرًّا وفيها يقول عوف (٥) :

صحوت وقد صحوا الصبا والعواديا — وقلت لأصحابى أجيبوا المناديا
وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى — وقبل الدعا : لبيك لبيك داعيا
ألا وانعَ خير الناس جدًّا ووالداً — حسيناً لأهل الدين إن كنت ناعيا

---

(١) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢٦٢ .
(٢) مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢٦٣ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٠ وما بعدها ، مناقب آل طالب جـ ٣ ص ٢١٩ .
(٤) تاريخ الأدب العربى العصر الإسلامى ص ٢١٦ .
(٥) تاريخ الأدب العربى لبروكلمان جـ ١ ص ٣٣٢ .

وأضحى حسين للرماح دريئة ... وغودر مسلوباً لدى الطف ثاويا
فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عنه الشانئين الأعاديا
ودافعت عنه ما استطعت مجاهداً ... وأعملت سيفى فيهم وسنانيا
سقى الله قبراً ضمن المجد والتقى ... بغربيه الطف الغمام الغواديا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة ... أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا [١]

وكذلك يذهب سليمان بن قتة فى رثاء أبى بكر بن الحسين وهو ممن قتل بكربلاء بيد عبد الله بن عقبة الغنوى بأن للشيعة قطرة من دم لدى غنى لن يسكتوا عن طلبها فيقول :

وعند غنى قطرة من دمائنا ... سنطلبها يوما بها حيث حلت [٢]

وعلى هذا النحو كان كل شاعر شيعى يطوى نفسه على حزن عميق ورغبة فى الاشتفاء بسفك دماء من قتل أئمتهم الشهداء ولكن ذلك لم يكن متاحاً لهم وسيوف بنى أمية مصلتة ، وولاتهم يتعقبونهم ويعدون عليهم أنفاسهم ومن ثم نشأت بين الشيعة نظرية التقية وهى تعطى الشيعى الحق فى إخفاء عقيدته وكتمانها حتى لا يعرض نفسه للخطر بل لا مانع يمنعه من مصانعة خصومه ومدحهم على الرغم من إسراره العداوة والبغضاء وهو لا يعد مع ذلك منافقاً أو ضعيف الاعتقاد .

وهكذا كانت التقية نظرية خلقية أفردت الشيعة بصفة بارزة وطبعت روحهم بطابع خاص وترتبط هذه النظرية ارتباطاً وثيقاً بالضرورة الحتمية التى تنجم عما يبذله الشيعة من جهود سرية وقد جعلوها مبدأ من مبادئهم الأساسية وعدوها واجباً ضرورياً يجب على كل شيعى أن يرعاه من أجل الصالح المشترك لهم جميعاً .

ويرى بعض الباحثين أن الشيعة أصبحت بفضل مبدأ التقية مدرسة للمخاتلة والغدر كما أن عجز الشيعى عن المجاهرة بعقيدته الحقيقية التى يؤمن بها فى نفس

(١) معجم الشعراء ص ١٢٦ .
(٢) مقاتل الطالبيين ص ١٢٢ .

الوقت أصبح مدرسة للسخط الكامن الذى يكنه الشيعة لخصومهم الأقوياء وهو سخط مبعثه عاطفة من الحقد الجامح والتعصب الثائر [١] .

وحقًّا كان السخط على الخصوم ولعنهم أمراً يكاد يبلغ حد الفريضة عند الشيعة ومن قصر فيه عد آثما . وقد تذرع بالتقية شعراء الشيعة ككثير الكيسانى الذى تابع محمد بن الحنفية فى أخذه بالتقية فمضى فى ركابه إلى عبد الملك وأصبح من مداحه، وراح يثيره على ابن الزبير متمنياً له النصر عليه وإزالة سلطانه عن الحجاز والعراق جميعاً حتى إذا رأوه يعد لحرب مصعب استحثه على المبادرة بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه ... حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه ... بكت فبكى مما شجاه قطينها [٢]

وظل يمدح عبد الملك ، وعبد الملك يرى شعره يسبق السحر ويغلب الشعر [٣] ثم يرتحل إلى مصر فيمدح عبد العزيز بن مروان ، وقد جعل هذا بعض الباحثين المعاصرين يعدونه من الشعراء المنافقين [٤] وهو بالقطع لم يكن منافقاً ولا كان مديحه نفاقاً وإنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه، ويذكر أبو الفرج أن آل مروان كانوا يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك [٥] .

وكان الكميت يذهب مذهب التقية ، ويروى أبو الفرج عن أخيه ورد ابن زيد أنه قال إن الكميت أرسله إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين فقال له إن الكميت أرسلنى إليك وقد صنع بنفسه ما صنع فتأذن له أن يمدح بنى أمية فقال أبو جعفر نعم هو فى حل فليقل ما شاء [٦] كما يروى أيضا أن

---

(١) العقيدة والشريعة ص ١٨١ .
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .
(٣) الأغانى جـ ٨ ٣٤ .
(٤) انظر حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٦ .
(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦ .
(٦) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠ .

أبا جعفر راجعه فى قوله :

فالآن صرت إلى أمية والأمور إلى المصاير

فاعتذر الكميت لقوله، ذلك وأكد أنه ما أراد به إلا الدنيا فقال له أما وقد قلت ذلك فان التقية لتحل [١] .

وكذلك احتج ابنه المستهل على من عيره بقول أبيه هذا بأنه إنما أراد اليوم صرت إلى أمية والأمور إلى مصايرها أى بنى هاشم [٢] وعلى الرغم من هذه التقية الفنية فإن أمره لم يكن يخفى على بنى أمية الذين لم يروا بأساً من مديحه لهم على الرغم من تشيعه ويظهر هذا واضحاً عندما أنشد هشام بن عبد الملك قول الكميت :

فبهم صرت للبعيد ابن عم   واتهمت القريب أى اتهام

مبدياً صفحتى على الم   وقف المعلم بالله قولى واعتصامى

فقال هشام : استقتل المرائى [٣] .

ومع كل هذا فإن الشعر الشيعى يسجل لنا مبادئ الشيعة وعقائدها بدقة ووضوح ويمثلها أصدق تمثيل، ويعبر عنها تمام التعبير ؛ فبينما نجد فى شعر كثير كل مبادئ الكيسانية وأفكارها نجد النظرية الزيدية ماثلة فى شعر الكميت .

وقد اعتنق كثير مذهب الكيسانية وأصبح أكبر بوق لهذه النظرية بكل ما فيها من غلو وتطرف وعبر شعره عن أفكارها تعبيراً واضحاً فى دعوتها لابن الحنفية وفى زعمها أنه المهدى المنتظر وأنه ورث عن علىّ علم الباطن ، وأن به قبساً من روح الله وهو قبس ينتقل فى أئمتهم إماما بعد إمام حتى إذا ما توفى قالوا برجعته ، وقد سقط إلى هذه الفرقة كثير من أفكار السبئية كالقول بالتناسخ وأن قبس النبوة لا يزال ينتقل فى علىّ وأبنائه فهم دون غيرهم ولاة الحق . وفى ذلك يقول كثير :

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء
على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيّب لا يرى عنهم زماناً ... برضوى عنده عسل وماء[١]

فالأئمة الحقيقيون أصحاب الولاية الشرعية على المسلمين هم على والحسن والحسين ومحمد بن الحنفية على تساو فى هذه الولاية وهو يأبى إلا أن يسمى مقتل الحسين فى كربلاء غيبة ، أما ابن الحنفية فهو غائب فى جبل رضوى يطعم العسل ويشرب الماء وسيقود الخيل يوما فيقوض الحكم الأموى ويرد الأمر إلى نصابه فهو المهدى المنتظر الذى خبروا خبره كما يقول كثير :

هو المهدى خبرناه كعب ... أخو الأخبار فى الحقب الخوالى[٢]

وهو الوصى الذى أوصى له على وهو لم يمت وإنما تغيب فترة من الزمن ثم يعود ، وفى ذلك يقول السيد الحميرى :

ألا قل للوصى فدتك نفسى ... أطلت بذلك الجبل المقاما
ألا حى المقيم بشعب رضوى ... وأهدِ له بمنزله السلاما
أضر بمعشر والوك منا ... وسموك الخليفة والإماما
وعادوا فيك أهل الأرض طرًّا ... مغيبك عنهم سبعين عاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ... ولا وارت له أرض غظاما
لقد أمسى بمورق شعب رضوى ... تراجعه الملائكة الكلاما
وإن له به لمقيل صدق ... وأندية تحدثه كراما
هدانا الله إذ حرتم لأمر ... به ولديه نلتمس التماما
تمام مودة المهدى حتى ... تروا راياتنا تترى نظاما[٣]

---

(١) ديوان كثير ج ٢ ص ١٨٤ الملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ ، الأغانى ج ٨ ص ٣١ .
(٢) الأغانى ج ٨ ص ٣٢ .
(٣) الأغانى ج ٨ ص ٣١ .

وقد صور شعر الكيسانية تطرفهم فى عقيدتهم وبراءتهم من الذين اغتصبوا الخلافة دون على وآله كأبى بكر وعمر وعثمان أو ادعوها كالخوارج كما فى قول كثير :

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنينا[١]

وبينما كان شعر الكيسانية يصور غلوهم المتشدد كان شعر الزيدية يمثل مذهبهم المعتدل خير تمثيل متأثراً فى ذلك الاعتدال بما ثقفه أمامهم من فكر معتزلى على يد أئمة المعتزلة الواصلية .

وكان زيد لا يقيد الخلافة بفرع الحسين جده بل يطلقها فى أبناء فاطمة كلهم سواء أكانوا من فرع جده أم كانوا من فرع الحسن وكذلك كان الكميت على مذهب إمامه لا يتقيد بشخص من أبناء فاطمة كما تقيد كثير بابن الحنفية وقد أدى هذا به ، إلى أن ينطلق مدافعاً فى قصائده عن النظرية الشيعية الزيدية نفسها ملتزما بما يلتزمه إمامه فتبعه يدعو بدعوته ويستن به فى كل ما يأخذ وما يدع من الآراء والأفكار .

ومن هذا القبيل ما ذهب إليه زيد من تصحيح خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على ، اتساقاً مع نظريته فى جواز إمامة المفضول مع قيام الفاضل والأفضل لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها[٢] .

وقد أحدث هذا المبدأ انقساما فى شيعة زيد فخرجت عليه جماعة عرفت بالرافضة وأسقطت حقه فى الإمامة وقد ذهب الكميت مذهب إمامه وتابعه فى نصرة هذا المبدأ فقال فى التوقف عن الحكم بكفر الخلفاء تاركاً ذلك لله مع إنكار سبهم :

أهوى علياً أمير المؤمنين ولا أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٤ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٥٠ .

ولا أقول إذا لم يعطيا فدكا بنت النبي ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان به يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[١]

والكميت هنا يفصل بين تشيعه وبين تكفير أبي بكر وعمر فهما إن كانا قد منعا ميراث النبي عن ابنته، وكان الشيعة يرون خلافاً لما رآه أبو بكر وعمر من أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وأن ما تركه صدقة ، ليتخذوا من أنه يورث سلما تطرد لهم به فكرة ميراث الخلافة فإن زيداً لم يأخذ بهذه الفكرة بل فوض ذلك إلى الله ولم يستحل لنفسه محاسبة الشيخين عليه، وجرى الكميت على رأى إمامه فلم يكفرهما ولم يخطئهما ، بل توقف فى الحكم عليهما وتركه لله يقضى فيه بما شاء .

ويكاد يكون ديوان الهاشميات الذى نظمه الكميت تقريراً خالصاً لنحلة الزيدية فهو فضلا عن عرضه لمبادئ الزيدية يقررها تقريراً قوامه الجدل والاحتجاج .

ففى الهاشميات نجد تقرير الشروط التى اشترطها زيد بن على فى الإمام وهى أن يكون من أبناء فاطمة وأن يكون عالما زاهداً شجاعاً سخياً[٢] .

وهذه الصفات الأربعة تتردد عند الكميت كثيراً ولا يمل تكرارها من مثل قوله فى بنى هاشم :

الحماة الكفاة فى الحرب إن لف ضراما وقودها بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النا س فمأوى حواضن الأيتام
غالبين هاشميين فى الع لم ربوا من عطية العلام
وهم الآخذون من ثقة الأ مر بتقواهم عرى لا انفصام[٣]

وإلى جانب هذه الصفات كانت صفة أخرى تدور فى شعره الهاشمى وهى صفة العدل، وهى صفة مقدمة عند زيد وإن لم تذكرها كتب الفرق فإنه لا تكاد تخلو

---

(١) الهاشميات ص ١٥٦ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٤٩ .
(٣) الهاشميات ص ٢ .

منها هاشمية من الهاشميات ولا يكتفى الكميت بتقرير صفة العدل واتصاف الأئمة المهديين بها ، وإنما يلجأ كثيراً إلى المقارنة بين عدلهم وجور بنى أمية وإن الأخيرين لا يتقون الله فى رعاية أمور المسلمين بل يعاملونهم معاملة السائمة وهو يريد بتلك المقارنة هدم نظام الأمويين وتحطيمه ، يقول :

القريبين من ندى والبعيدين من الجور فى عرى الأحكام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السيـ ـرة طبِّين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعية الأغنام
لا كعبد المليك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كرأى ذوى الثلة فى الثائجات جنح الظلام
جز ذى الصوف وانتقاء لذى المخـ ـة وانعق ودعدعا بالبهام
فهم الأرأفون بالناس فى الرأ فة والأحلمون فى الأحلام
أخذوا القصد واستقاموا عليه حين مالت زوامل الآثام[1]

وتبدو صورة الناس تحت حكم بنى أمية كالغنم يجز صوفها ويحتلب لبنها وتؤكل لحومها ولا يكتفى الرعاة الجائرون بكل هذا وإنما يصيحون بها ويزجرونها ويقسون عليها بينما بنو هاشم عدول لا يجورون ولا يظلمون وإنما يقسطون بين الناس فى سياستهم الحكيمة .

ونلقى فى شعر الكميت تقريراً لمسألة وصاية الرسول — صلى الله عليه وسلم — لابن عمه علىّ يوم غدير خم ، وهى عقيدة للشيعة جميعاً لا تقتصر على الزيدية ويقول الكميت بها ولكنه لا ينتهى كما انتهوا إلى أن أبا بكر وعمر قد غصباه حقه وإنما شرط الوصية بالطاعة ليتسق ذلك وما تدين به الزيدية فى قوله :

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان له الولاية لو أطيعا[2]

وترى كل الفرق الشيعية أن لا حق لأحد فى الخلافة غير بنى هاشم ولكنهم كانوا يجادلون عن هذا الحق جدالا عاطفيًّا قوامه إظهار الحب لبنى هاشم وتقرير قرابتهم للنبى ، ووصيته إلى علىّ فحسب ، وذلك خلال مديحهم لأئمتهم أو

(١) الهاشميات ص ٢ ، ٣.
(٢) الهاشميات ص ١٥٢ .

رثائهم لهم أو فى حملتهم على خصومهم من بنى أمية أو بنى الزبير كما رأينا ذلك فى شعر كثير الكيسانى .

ولكن الهاشميات تنهج نهجاً جديداً يعد فيه صاحبها رائداً من رواد الشعر العقائدى فقد انطلق مدافعاً عن نظرية الزيدية فى قصائد هى أشبه ما تكون بالمقالات العقائدية وصدر فيها عن ذوق عقلى محض يحفل بالفكر قبل العواطف والمشاعر فإذا بقصائده حجاج وجدال وصدى لما اشتهر به إمامه زيد من اقتدار على الجدل والإقناع وهو اقتدار اكتسبه من تلمذته على واصل بن عطاء رأس المعتزلة.

فالهاشميات إذن مناظرات فى حقوق الهاشميين لا تستند إلى الإقناع العاطفى الذى نلقاه عند بقية شعراء الشيعة وإنما تعتمد أولا وقبل كل شىء على الإقناع العقلى القائم على النظر العقلى المحض مستعينا فى استدلاله بما يتأتى له من آيات القرآن الكريم والقياس المنطقى على نظام التوريث فى الإسلام قاصداً أن يظهر بنى أمية غاصبين لحق بنى هاشم متناقضين مع أنفسهم فى زعمهم أن النبى لا يورث وفى ادعائهم أنهم ورثة الخلافة لقرباهم من رسول الله ويمضى يفند زعمهم بافتراض أن النبى لا يورث وفى هذه الحالة تكون الخلافة حقًّا مشاعًا للمسلمين جميعاً لا حكرة لقريش ولصار من حق القبائل العربية على اختلافها إذن أن تطالب بها ، يستوى فى ذلك شريفها ووضيعها ولكان الأنصار أيضاً أصحاب حق فيها ؛ لأنهم آووا ونصروا ، ولكن هذا لم يحدث فالافتراض إذن يسقط من أساسه والنتيجة أن الخلافة منصب موروث وأن بنى هاشم أحق الناس بها ، يقول الكميت :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم	فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية	تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آياً وآياً تتابعت	لكم نصب فيها الذى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا	وبالفذ منها والرديفين نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا	وما ورّثتهم ذاك أم ولا أب
يرون لهم فضلا على الناس واجباً	سفاها وحق الهاشميين أقرب

ولكن مواريث ابن آمنة الذى ... به دان شرق لكم ومغرب
فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ... ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم ... ونعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعلك ولخم والسكون وحمير ... وكندة والحيان بكر وتغلب
ولا نتشلت عضويين منها يحابر ... وكان لعبد القيس عضو مؤرب
وما كانت الأنصار فيها أذلة ... ولا غيبا عنها إذا الناس غيب
هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم ... فإن ذوى القربى أحق وأقرب (١)

وهو يستهل هذه الأبيات التى تدور حول تقرير حق الهاشميين فى الخلافة بأن خاتم النبى — صلى الله عليه وسلم — وهو خاتم الخلافة الذى تجوز به أمورها إنما هو خاتم الهاشميين وإن كان بنو أمية يستخدمونه اليوم غصباً من أصحابه وهو يقرر حقهم عن طريق الاستدلال بالقرآن الكريم فى سورة حاميم وغيرها من الآى الحكيم من مثل قوله تعالى : « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » وقوله عز وجل : « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » وقوله سبحانه : « فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى » فهذه آيات ناطقات بحق بنى هاشم وفيها عذاب ونصب لبنى أمية إذ لا يستطيعون تأويلها ولا صرفها عن وجهها فالخلافة إذن حق بنى هاشم بحكم القرآن وقد اغتصبه بنو أمية فتولوا أمر المسلمين دون وجه حق مدعين أن آباءهم أورثوها إياهم ، ولكنه ميراث باطل لأن صاحب الحق الأول فى ذلك هو النبى — صلى الله عليه وسلم — فهو الذى يورث وبنو هاشم أولى بميراثه من غيرهم لأنهم آله الأقربون ، وبنو أمية يدعون زوراً ميراث الخلافة وفى الوقت نفسه يزعمون أن النبى لا يورث وهذا تناقض واضح على أنه إن لم يورث لكان معنى ذلك أن الخلافة حق للجميع وليست مقصورة على قريش ولطلبتها القبائل العربية من مثل بكيل

(١) الهاشميات ص ٣٧ .

وأرحب وعك ولخم والسكون وحمير وكندة وبكر وتغلب ولطلبت نصيبها يحابر ولكان لعبد القيس منها نصيب موفور بل لكان للأنصار الحظ الأوفر وهم الذين نصروا رسول الله .

إذن فالخلافة ميراث بدليل اختصاص قريش بها وما دامت ميراثا فلنتبع قانون المواريث ولنرجع بها إلى أهلها الحقيقيين ولنردها عليهم من أيدى المغتصبين فهى تركة الرسول وبنو هاشم أقرباؤه الذين حرمتهم منها الفئة الباغية التى ادعت لنفسها إرثها ومنعتها آل الرسول صاحبها الأول فهو أولى منهم به وأولى بميراثه .

وبهذا الجدل الصرف والاحتجاج الخالص يتحول الشعر الشيعى عند الكميت وفى هاشمياته بالذات حججاً وأدلة وأقيسة تماما كمقالات المتكلمين وبالأخص المعتزلة عندما يقررون مسألة من مسائلهم وكان هذا لونا مبتكراً لم يعرف لشاعر من قبل وإن عرفه شعراء بعده تأثراً به فظهر الجدال فى شعر مروان بن أبى حفصة الذى كان بوقاً للعباسيين وناظره فى حقهم محمد بن يحيى التغلبى العلوى (١) .

ولكننا لا ننتظر حتى العصر العباسى لنجد آثار النهج الذى نهجه الكميت وإنما كان له آثار باكرة تجلت فى نزوع شاعر كإبراهيم بن المهاجر البجلى وهو من دعاة آل العباس فى عهد مروان بن محمد إلى الاستدلال على بنى أمية استدلالا كميتيًّا إذا صح لنا أن نقول ذلك على هذه الصورة فى قوله :

أيها الناس اسمعوا أخبركم ... عجباً زاد على كل العجب
عجباً من عبد شمس إنهم ... فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا ... دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه ... يحرز الميراث إلا من قرب (٢)

وهكذا يذهب شعر الشيعة فى عدة أغراض متميزة تستغرقها منازع واضحة من حب آل البيت وتفضيلهم على من عداهم من الفرق والطوائف والأحزاب

---

(١) الأغانى ج ٩ ص ٩٤ .
(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٣٤ .

واستشعار الولاء لهم وحدهم ولاء قد يؤدى ببعضهم إلى الزهد فى الدنيا وببعضهم الآخر إلى الثورة على بنى أمية ثورة تطوى فى أحنائها حقداً شديداً ورغبة ملحة فى الثأر وسفك دماء الظالمين الذين سفكوا دماء أئمتهم وزعماء حركاتهم ودعاتهم البارزين وهم دائما يبكون شهداءهم ويغرقون أشعارهم فى ألوان قاتمة من الحزن واللوعة والتفجع واصمين أعداءهم بالكفر والجور والاستبداد والطغيان مناضلين عن حقهم المغتصب وعن نظريتهم الشيعية كيسانية كانت أو زيدية حتى لتمثل الأولى بوضوح فى شعر كثير وتمثل الثانية على أدق صورة فى شعر الكميت الذى استحال شعره فى الانتصار للهاشميين حجاجاً عقلياً صرفاً قائماً على النظر العقلى المحض والقياس المنطقى والاستدلال .

٣

ويتميز شعر الشيعة بمميزات خاصة تفرده عن بقية شعر الفرق الأخرى، وأولى هذه المميزات أنه شعر كثير استطاع أن يواكب أحداث الشيعة جميعها مما يجعله بمثابة وثيقة تاريخية كما أتيح له أن يعبر عن أغراض مختلفة اتخذها الشيعة وسيلة إلى تحقيق هدفهم كما قرر حقيقة مذهبهم بكل تفاصيله مما يجعله وثيقة مذهبية جليلة الخطر ولا سيما أنه يكمل أحياناً بعض أفكارهم التى لا نكاد نجدها بتمامها فى كتب الفرق .

ويتميز شعر الشيعة أيضاً بأن كثيراً من النحل قد دخل إليه فهناك ديوان منسوب لأبى طالب عم النبى تدور أشعاره حول ما وقع بين النبى وقريش من أحداث ، وأكثر هذا الشعر منحول لتوافر الدواعى عند الشيعة المحدثين لتزيين سيرة النبى فى أول البعثة بمكة بكثير من الأشعار بعد أن كثرت الأشعار فى سيرته بالمدينة فضلا عن أن شيعة علىّ قد أرادوا أن يشيدوا بمعاونة أبيه للنبى ليتسنّ لهم وضعه ووضع علىّ فى مكان بارز .

ويستنتج بعض الباحثين أن هذا الشعر قد وضع من قديم لأنه لم يزل يذكر

بنى هاشم وحدة واحدة لم تفترق بعد إلى علويين وعباسيين وأنه لهذا السبب قد ظنت صحة هذا الشعر إذ روى أكثره ابن إسحاق المتوفى سنة ١٥١ ﻫ فى سيرة النبى[١].

ولا شك أن الشعر المنسوب إلى على بن أبى طالب أحدث من ذلك وضعاً ولا شك أيضًا فى أن عليًّا كان على سليقة من الشعر يقول أبياتاً من الرجز فى النزال شأنه فى ذلك شأن الكثيرين ، ولكن المشكوك فيه هو اشتمال الديوان المنسوب إليه على أشعار صحيحة .

ولم يخف ذلك عن القدامى فعرفوا كثيراً من الشعر المنحول على على[٢] ويذكر ابن قتيبة أنه رأى ديواناً منحولا عليه[٣] ويروى أن الزمخشرى لا يرى لعلى شعراً غير بيتين اثنين[٤] واسم الديوان المنسوب إلى على أنوار العقول لوصى الرسول من تصنيف أحد أربعة رجال يختلف الباحثون فى تعيينه أولهم سعدى ابن تاجى وثانيهم قطب الدين سعيد بن وهبة الله الراوندى وثالثهم هو قطب الدين أبو الحسن محمد بن الحسين بن الحسن البيهقى النيسابورى الحيدرى ورابعهم الشريف المرتضى[٥] وقد نسب الشعر تقريباً لجميع الأئمة العلويين فنسب إلى الحسن وإلى الحسين وإلى ابن الحنفية أيضًا . كما نحل شعر كثير منسوب إلى غير قائل وإلى الجن كذلك .

وشعر الشيعة شعر سياسى إذ أن جميع أغراضه السابقة من مدح وهجاء ورثاء وتحريض وتقرير للمذهب والعقيدة لا يستهدف غير الدفاع عن حقهم المسلوب فى الخلافة ؛ وحتى شعرهم الذى ذهب فى أغراض أخرى من مديح اضطرارى لبنى أمية يمضى فى هذه الوجهة أيضًا فقد كان تقية وحفاظاً على الدم من أجل الاستمرار فى العمل والتمكين للمذهب والانتصار له ، ولهذا نستطيع

---

(١) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٧٥ .

(٢) معجم الشعراء ص ٢٧٩

(٣) عيون الأخبار ص ٣ ، تفسير الطبرى ج ٦ ص ١١٠

(٤) الموازنة بين الشعراء ص ٢٩

(٥) بروكلمان تاريخ الأدب العربى ج ١ ص ١٨٠ .

أن نعد شعر الشيعة كله شعراً سياسياً مذهبياً لأنه يدعو بمختلف الوسائل إلى نظرية اعتقادية فى الخلافة وضرورة توارثها فى آل البيت .

ولما كان مذهبهم يدور حول الخلافة وهى فى اعتقادهم منصب موروث يستند إلى أسس مستمدة من القربى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتشترط فيه شرائط العلم والزهد والشجاعة والسخاء والعدل وكلها صفات لها طابع دينى فإننا نستطيع أن نزعم أن شعر الشيعة شعر سياسى دينى ، لأن الشيعة قد صبغت الخلافة أو معناها الدينى بصبغة الملك الوراثى فكان شعرهم تبعاً لذلك شعراً سياسياً مصبوغاً بصبغة الدين .

ويبدو أن عنصر السياسة كان أقوى لديهم من عنصر الدين فقد صانعوا بنى أمية وغير بنى أمية ومهما كان من أمر التقية وأنها تجيز مدح الخصوم والأعداء ونوال عطاياهم فهى مصانعة فى سبيل المذهب آخر الأمر أو بعبارة أخرى كان نجاح مذهبهم سياسياً غاية تبرر وسيلتهم وليس كذلك الخوارج فى شعرهم لأن عنصر السياسة لم يتغلب لديهم على عنصر الدين ، وقد مدح الكميت بنى أمية حفاظاً على دمه وهو فى نفس الوقت قد بخل بدمه عن نصرة إمامه وأيضاً فإن أيمن بن خريم مدح الأمويين واتصل بعبد الملك بن مروان وشخص إلى مصر فمدح واليها عبد العزيز بن مروان ثم تركه مغضباً إلى الكوفة لمدح بشر ابن مروان[1] .

وقد نكل أيمن عن الحرب وآثر السلامة على المنافحة عن دينه وتعلل باعتزال الفتنة وإن لم يعتزل العطاء فى مثل قوله : —

إن للفتنة ميطاً بيننا ... فرويد الميط منها تعتدل
فإذا كان عطاء فارتهم ... وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يسعرها جاهلها ... حطب النار فدعها تشتعل[2]

وكان كثير على كيسانيته يمدح عبد الملك ويستوهبه ويشيد بإنعامه عليه وكان

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٤

(٢) العقد الفريد جـ ١ ص ١١٠

يعلل ذلك بأنه إنما يسخر منهم ويجعلهم حيات وعقارب ويأخذ أموالهم [١] وكان يحصل على أموالهم حقاً ولكنه فى نفس الوقت كان يخدم سياستهم بمديحه لهم وبتجافيه عن الزبيريين أعداء إمامه وهجائهم فكان ذلك يرضى بنى أمية وفى نفس الوقت لا يغضب الشيعة لثقتهم فى ولائه لمذهبهم وإنه إنما يمدح بنى أمية تقية من ناحية وجرياً وراء الكسب من ناحية أخرى كما كان إمامه يصانع بنى أمية إن كان فى مصانعتهم جدوى له ولمذهبه وكذلك كان السيد الحميرى يمدح بنى العباس وهو على كيسانيته ويرى فيهم مخلصاً من بنى أمية فهم هاشميون على أقل تقدير.

ولكن الصبغة الدينية على الرغم من ذلك واضحة فى شعرهم وضوحاً بيناً ويتجلى هذا فى إشادتهم بحب آل البيت واستقائهم من هذا الحب سعادة ومثوبة وقربى من الله سبحانه وتعالى كما رأينا — فى قول أبى الأسود الدؤلى : —

أحبهم كحب الله حتى ... أجىء إذا بعثت على هويًّا

كما يجدون فى حبهم زاداً يقنعون به عن متاع الدنيا ويميلون بوحى منه إلى الزهد فيها كما رأينا فى قول حرب بن المنذر بن الجارود : —

فحسبي من الدنيا كفاف يقيمنى ... وأثواب كتان أزور بها قبرى

وحبي ذوى قربى النبي محمد ... فما سالنا إلا المودة من أجر

ولا يزيدهم اللوم إلا تمادياً واستغراقاً فى هذا الحب الذى يعده اللوام ذنباً ويعده الشيعة كفارة للذنوب كما فى قول عبد الله بن كثير السهمى : —

أيعد ذنباً أن أحبهم ... بل حبهم كفارة الذنب

أو يندفعون بوحى من هذا الحب فى ملاحاة خصومهم والحملة عليهم وينعتونهم خلال ذلك بنقائص الصفات التى يكسبونها أئمتهم فإذا اتصف أئمتهم بالعدل والعلم والزهد والسخاء والشجاعة فبنو أمية جائرون لا يجيدون تدبير أمور الرعية طامعون ناهبون لأموالهم باخلون بها وهم على كل حال بعيدون عن روح الدين

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤ .

وسماحته وعدله ورحمته بعداً يسلكهم فى ملة أخرى غير ملة الإسلام .

فإذا ما رثوا أئمتهم اجتهدوا فى أن يسبغوا عليهم قداسة دينية هائلة يسمون بها فوق غيرهم من البشر ويصورونهم شهداء فى سبيل إعلاء كلمة الله وإحقاق الحق ، وأنهم قتلوا بأيدى الجبابرة الجائرين المغتصبين فصارت دماؤهم حلا للشيعة يجب سفكها ثأراً لهم وهو واجب لا يقل قداسة عن أى واجب آخر من الواجبات الدينية ، كما يبدو فى أبيات عبدالله بن الحر التى يندم فيها على عدم نصرة الحسين ويدعو لأولئك الذين أتاح لهم الحظ أن يذودوا عنه وأن يقتلوا بين يديه بعد أن أدوا واجبهم ونصروا ابن بنت نبيهم ، وإنه كثيراً ما يهم بالخروج للثأر له من الفئة الزائغة عن الحق ويبدو أنه لا بد خارج يوما فى كتائب شديدة الوقع على الظالمين يقول ابن الحر : —

فيا ندمى ألا أكن من حماته ألا كل نفس لا تسدد نادمه
سقى الله أرواح الذين تآزروا على نصره سُقيا من الغيث دائمه
تأسوا على نصر ابن بنت نبيهم بأسيافهم آساد غيل ضراغمه
أهم مراراً أن أسير بجحفل إلى فئة زاغت عن الحق ظالمه[1]

وهكذا ينطبع الشعر الشيعى على اختلاف أغراضه بطابع السياسة الدينية أو — السياسة المصبوغة بصبغ دينى كما ينطبع بطابع آخر هو طابع الحزن القاتم الذى يرين على أشعارهم مهما اختلفت أغراضها فهم فى مديح أهل البيت يستشعرون الولاء لهم لأنهم أصحاب حق مغلوبون على أمرهم وهم فى رثائهم يبكونهم ويستشعرون اضطهاد خصومهم لهم وجورهم عليهم ، وكذلك فى نزوعهم إلى التحريض على الثورة وهو تحريض يتحول لديهم إلى رغبة شديدة فى سفك الدماء وكل هذا بطبيعة الحال ينبعث عن إحساس مرير بالنقمة والحزن الشديد .

وشعرهم فى هذا المجال ملتهب حار لأنه تعبير عن عواطف صادقة وتنفيس عن نفوس مكلومة ومسلوبة ومغصوبة الحق فهم محزونون كثير و البكاء مضطهدون

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٢٧٠ .

ولهذا برغوا فى تصوير ما نزل بهم من نكبات ووازنوا بين حالهم وحال غاصبيهم وانعكس حزنهم القاتم على الطبيعة وعناصرها فاستلهموها والتصقوا بها وبثوها شجونهم فإذا كل شيء فى الحياة أسود قاتم وإذا الشعر دموع سخينة لا ترقأ فالشمس مريضة والأرض محمرة والبلاد ترتعش هولا من مقتل الحسين وهذه هند ابنة حجر بن عدى تخاطب القمر وتناجيه أن يصحب أباها فى مسيره إلى دمشق ، والأرض قد محلت بعد الخصب كأن لم يحيها المزن المطير وهو التصاق بالطبيعة وسكب للمشاعر الحزينة عليها يجعلنا نرى بوضوح حرارة عواطفهم وصدقهم فى شعرهم .

فإذا ما كان شعرهم بصدد مجادلة الخصوم عن حقهم رأينا شعرهم ينأى عن حب آل البيت والعاطفة الملتهبة ويلتحم بالعقل التحاما شديداً فإذا هو حجاج عقلى خالص يستعان فيه بأدلة منتزعة من الكتاب والسنة ليقرر حق الهاشميين فى الخلافة والسلطان ثم ينتهى إلى إظهار المشاعر نحو أصحاب الحق الحقيقيين بعد أن يثبت لهم بالإقناع المنطقى والاستدلال العقلى .

ويتميز شعر الشيعة أيضًا بطابع شعبى موغل فى الخيال إلى حد الخرافة الأسطورية وهو أثر من آثار التطرف فى المذهب والغلو فى الاعتقاد وكذلك هو أثر من آثار الاضطهاد الشديد الذى تعرضوا له .

وتلقانا أمثلة لهذه الخرافات التى كانت تجد تصديقاً يقينيًّا بين الشيعة فى شعر مجهول القائل فى أكثر الحالات من ذلك ما أشاعته السبئية من أفكار التناسخ والحلول والرجعة والقول بالقبس الإلهى فى علىّ وقد أدى ذلك ببعضهم إلى الاعتقاد فى ألوهيته وقد رفع أمر هؤلاء إلى علىّ فأمر علىّ بإحراقهم فى حفرتين فقال قائلهم :

لترم بى الحوادث حيث شاءت ... إذا لم ترم بى فى الحفرتين[1]

ونفى علىّ ابن سبأ إلى المدائن ، فلما قتل علىّ رفض ابن سبأ أن يصدق أنه قتل وزعم أن المقتول شيطان على صورته وأن عليًّا صعد إلى السماء كما صعد

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٣ .

عيسى وأنه ينزل إلى الأرض فينتقم من أعدائه كما زعم فريق من أتباعه أنه فى السحاب وأن الرعد صوته والبرق سوطه ، وكان من سمع من هؤلاء صوت الرعد قال عليك السلام يا أمير المؤمنين ؛ وقد عجب من ذلك أحد الشعراء فندد بهذا الغلو وسخر منه ، فقال إسحاق بن سويد العدوى : —

برئت من الخوارج لست منهم　　من الغزّال منهم وابن باب
ومن قوم إذا ذكروا عليًّا　　يردون السلام على السحاب
ولكنى أحب بكل قلبى　　وأعلم أن ذاك من الصواب
رسول الله والصديق حبًّا　　به أرجو غداً حسن الثواب[١]

وكان الغلاة من الشيعة يزعمون أيضًا أن المواد النورانية لعلى وآل بيته متحدة بعرش الله ، فذهبوا فى إحدى خرافاتهم إلى أن الحسن والحسين كانا يحملان تعويذتين حشوهما من زغب جناح الملك جبريل[٢] .

وقد غلب العنصر الأسطورى على أشخاص الأئمة العلويين وكان ذلك نتيجة للتعارض التام بين ما يسبغه عليهم الشيعة من تقديس مبالغ فيه وما يلقونه من الأمويين من اضطهاد شديد ومن ذلك ما ذهب إليه الشيعة فى تعليل وفاة زياد بن أبيه وكيف أنه أصيب فى يده ببثرة حكها فتسببت فى موته فقد عزوا ما وقع له إلى إصراره على لعن علىّ من فوق المنابر ويستدلون على ذلك برؤيا يزعم بعضهم أنه رآها ورأى فيها شبحاً يدعى ذا الرقبة برز لزياد فاقتص منه لعلىّ كما قال عبد الله بن السائب فى ذلك : —

ما كان منتهياً عما أراد بنا　　حتى تأتى له النقاذ ذو الرقبه
فأسقط الشق منه ضربة ثبتت　　لما تناول ظلما صاحب الرحبه[٣]

ويذهب بعض الباحثين الغربيين إلى أن الشيعة استعاروا الأسطورة القديمة التى نسبت حمرة الشمس إلى دم أدونيس الذى قتله الخنزير البرى فنسبتها

---

(١) الفرق بين الفرق ص٢٢٣ .
(٢) الأغانى ج ١٤ ص ١٦٣ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٣٢٨ .

الأسطورة الشيعية إلى دم الحسين الذى سفك فى كربلاء وادعت أن غروبها قبل مقتله لم يكن أحمر اللون [١] فهم يزعمون أنه لما قتل الحسين بكت عليه السماء معولة وكانت علامة ذلك حمرة أطرافها وإن حمرة أطراف السماء لم تكن قبل قتل الحسين فلما قتل ارتفعت حمرة من قبل المشرق وحمرة من قبل المغرب فكادتا تلتقيان فى كبد السماء ستة أشهر وكسفت الشمس كسفة يوم مقتله وبدت الكواكب نصف النهار حتى ظن أنها الشمس وأمطرت السماء دما ورماداً .

وفى هذا المعنى يقول السيد الحميرى الكيسانى : —

بكت الأرض فقده وبكته　　باحمرار له نواحى السماء
بكتا فقده أربعين صباحاً　　كل يوم عند الضحى والمساء[٢]

وكذلك زعم الشيعة أن الملائكة قاتلت معه فى كربلاء وأن الجن ساعدته وندبته وناحت بشعر كثير فى رثائه من مثل قولهم : —

احمرت الأرض من قتل الحسين كما　　اخضر عند سقوط الجونة العلق
يا ويل قاتله ، يا ويل قاتله　　فإنه فى شفير النار يحترق[٣]

وقد اشترك فى رثائه رجال الجن ونساؤهم ومن نوحهن هذه المقطوعة الطريفة : —

نساء الجن يبكين من الحزن شجيات
ويسعدن بنوح للنساء الهاشميات
ويندبن حسيناً عظمت تلك الرزيات
ويلطمن خدوداً كالدنانير النقيات
ويلبسن ثياب السود بعد القصبيات[٤]

وتروى فى نقل رأس الحسين من كربلاء إلى الشام قصة غريبة تكشف عن حقيقة الإيمان الأسطورى بتقديس الحسين ، ذلك أنه لما قتل الحسين

---

(١) العقيدة والشريعة ص ٢٢٠
(٢) مناقب آل طالب ج ٣ / ص ٢١٢ ، ٢١٣
(٣) نفس المرجع ج ٣ ص ٢١٩
(٤) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٩

واحتز رأسه قعد حاملو الرأس بأول مرحلة من الطريق وانغمسوا فى المعاصى وجلسوا يشربون النبيذ ويتحيون بالرأس ، فإذا قلم من حديد يخرج عليهم من حائط فيكتب بالدم هذا البيت : —

أترجو أمة قتلت حسيناً   شفاعة جده يوم الحساب

وما كادت الجماعة تشهد هذا حتى فرت هاربة وتركت الرأس ، وفى رواية أخرى أنهم وجدوا ذلك مكتوباً فى كنيسة ويروون أيضاً عن أنس بن مالك أن رجلا من أهل نجران احتفر حفرة فوجد فيها لوحاً من ذهب مكتوب فيه هذا البيت الذى ذكرناه وبعده هذان البيتان :

فقدقدموا عليه بحكم جور   فخالف حكمهم حكم الكتاب

ستلقى يا يزيد غداً عذاباً   من الرحمن يا لك من عذاب

فلما سئل أصحاب الكنيسة : منذكم هذا فى كنيستكم ، قالوا : قبل أن يبعث نبيكم بثلاثمائة عام . ويذهب استشراف الخيال الشيعى إلى أبعد من هذا فينسبون إلى سعد بن أبى وقاص أن قس بن ساعدة الأيادى قال قبل مبعث الرسول : —

تخلف المقدار منهم عصبة   ثاروا بصفين وفى يوم الجمل

والتزم الثأر الحسين بعده   واحتشدوا على ابنه حتى قتل[١]

وهكذا وجد خيال الشيعة فى مقتل الحسين منطلقاً رحباً للجموح والغلو والإغراب ، مما يكشف عن بواطن الوجدان الشيعى الحقيقى كشفاً نفسيًّا دقيقا .

وقد أداهم الاضطهاد الذى لا قوه على أيدى خصومهم إلى أن يعتقدوا عقيدة الرجعة وهى إحدى العناصر الجوهرية فى نظرية الإمامة عند كافة الفرق الشيعية باستثناء الزيدية التى رأت خروج الإمام شرطاً لصحة إمامته .

ولا تختلف تلك الفرق التى تعتقد فى الرجعة إلا فى شخص الإمام الخفى الذى قدرت له العودة وقد ساعد على وجود هذه العقيدة وذيوعها ما مهدت به

---

(١) مناقب آل طالب ج ٣ ص ٢١٨

السبئية من إنكار موت علىّ واتجهت بعد ذلك عقيدة الرجعة إلى محمد بن الحنفية وآمن الكيسانيون بحياته ورجعته .

ولم تجد البيئة السبئية غضاضة فى إطلاق لفظ المهدى على الخلفاء وكذلك استخدمه شعراء بنى أمية فى مديحهم للخلفاء الأمويين بإفراط يلفت النظر كما فى أشعار جرير مما يعد أثراً واضحاً من آثار الشيعة على وجدان هؤلاء الشعراء ومن يتلقون شعرهم .

ولكن الشيعة كانوا يستخدمون الكلمة للدلالة على عقيدة آمنوا بها إيماناً شديداً، ولم تكن تلك العقيدة وما ينطوى فيها من آمال سوى زفرة الأسف والانتظار يصعدونها فى غمرات ظروف سياسية واجتماعية لا تتفق وما يعتلج فى ضمائرهم من رغبات إذ أن ظروف الحياة أظهرت تناقض الواقع مع مقتضيات المثل التى كانوا يصبون إليها والأحلام التى استشرفوها فتجلت لهم الحياة بملابساتها المخيبة لآمالهم آثاما ومعاصى ومخالفات للدين وللعدل ، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أنهم لم يكونوا دائما أو فى أكثر الحالات فى الموضع الذى يتيح لهم أن يغيروا هذا الواقع بالقوة المادية فلا أقل من أن يغيروه بقوة الخيال والأمل فى مخلص من آل البيت يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ويعيد سنن النبى التى درست ويرد حق أسرته المهضوم .

وقد وجد شعراء الشيعة فى هذه العقيدة مجالا خصباً لآمالهم وأخيلتهم الجامحة فعبروا عن الأمل فى عودة المهدى تعبيراً معجباً وصوروه تصويراً رائعاً وأيضاً فقد عبروا عن سوء حالة المسلمين التى ألجأت إلى القول بهذه العقيدة .

وإذا ما قرأنا أبياتاً للحارث بن عبد الله الحشرج الجعدى يصور فيها حالة المسلمين ، وما كانوا عليه فى ذلك العصر من فرقة وتحير وفتنة استوى فيها السفيه والعاقل والجاهل والعالم وما أصبح الناس فيه من ضلال وعماية لم يستكثر على الشيعة المضطهدين أن يستشعروا الحاجة إلى مخلص يغير هذا الواقع الأليم الذى تصوره الأبيات على هذا النحو :

أبيت أرعى النجوم مرتفقاً   إذا استقلت تجرى أوائلها

من فتنة أصبحت مجللة قد عم أهل الصلاة شاملها
من بخراسان والعراق ومن بالشام كلٌّ شجاه شاغلها
فالناس منها فى لون مظلمة دهماء ملتجئة فى غياطلها
يمسى السفيه الذى يعنف بالـ جهل سواء فيها وعاقلها
والناس فى كربة يكاد لها تنبذ أولادَها حواملها
يغدون منها فى كل مبهمة عمياء تمنى لهم غوائلها
لا ينظر الناس منها فى عواقبها إلا التى لا يبين قائلها
كرغوة البكر أو كصيحة حبـ ـلى طرقت قوابلها
فجاء فينا أزرى بوجهته فيها خطوب حمر زلازلها(١)

ولننظر أيضاً فى أبيات لدعبل الخزاعى يرثى فيها الشيعة ويندد ببنى أمية وبزياد بن أبيه ولكنه يعزى فيها نفسه ويحملها على الصبر انتظاراً لمهدى يرد للشيعة حقهم ويسعد الناس بحكمه العادل ، يقول : —

فلولا الذى أرجوه فى اليوم أوغد لقطع قلبى إثرهم حسراتى
خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزى على النعماء والنقمات
فيا نفس طيبى ثم يانفس أبشرى فغير بعيد كل ما هو آت
فإن قرب الرحمن من تلك مدتى وأخر من عمرى لطول حياتى
شفيت ولم أترك لنفسى رزية ورويت منهم منصلى وقناتى(٢)

وتمنى السيد الحميرى أن يطول عمره أيضاً ليحظى بشهود رجعة ابن الحنفية ويدرك دولته العادلة حتى مع الذين بغوا عليه ، فيقول : —

ومالى أن أمر به ولكن أؤمل أن يؤخر يوم فقدى
فأدرك دولة لك لست فيها بجبار فتوصف بالتعدى

---

(١) الطبرى جـ ٩ ص ٣٨
(٢) معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٠٩

على قوم بغوا فيكم علينا لتعدى منهم يا خير معد
لتعل بنا عليهم حيث كانوا بغور من تهامة أو بنجد[١]

وقد أخذ الشعراء يصورون صفات المهدى ويرسمون سماتها وصفاً شيقاً ، فهو هاشمى مرضى السياسة يكون بمثابة الربيع لأمته والأسد المحامى عنها والمقوم لاعوجاجها كما فى قول الكميت :

بمرضى السياسة هاشمى يكون حيا لأمته ربيعا
وليثاً فى المشاهد غير نكس لتقويم البرية مستطيعا
يقيم أمورها ويذب عنها ويترك جدبها أبداً مريعا[٢]

والمهدى فى شعر الكيسانية حىّ لا يذوق الموت ولا يلبث أن يعود قائداً للخيل من هناك حيث كان ينعم فى غيبته برضوى بكل ما هو طيب وعنده عسل وماء يسقاهما : —

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء[٣]

وهو طوراً آخر فى شعب من شعاب رضوى المورقة يحظى بصحبة الملائكة الأبرار وبحديثهم الشهى وذلك لأنه حىّ لم يمت ولم توار عظامه أرض ما ، وإنما هو هناك فى مقيل ومنتدى من منتديات الكرام كما يقول السيد الحميرى :

لقد أمسى بمورق شعب رضوى تراجعه الملائكة الكلاما
وما ذاق ابن خولة طعم موت ولا وارت له أرض عظاما
وإن له به لمقيلَ صدق وأندية تحدثه كلاما[٤]

وسيظل فى غيبته هذه سنين وأشهراً حتى يظن ضعاف الإيمان موته ولحده

---

(١) الأغانى جـ ٧ / ص ٤
(٢) الهاشيميات ص ٣
(٣) ديوان كثير جـ ٢ ص ١٨٥
(٤) الأغانى جـ ٧ ص ٦

ولكنه هناك فى رضوى بين نمور وأسد تحرسه وآرام وعين تروح وتغدو آمنة بين سباع لا تفترسها ولا تؤذيها لأنها آمنت به فراحت ترتع فى كل مكان بلا خوف ، يقول السيد :

تغيب عنهم حتى يقولوا تضمنه بطيبة بطن لحد
سنين وأشهراً ويرى برضوى بشعب بين أنمار وأسد
مقيم بين آرام وعين وحفان تروح خلال ربد
تراعيها السباع وليس منها ملاقيهن مفترسا بحد
أمنّ به الردى فرتعن طوراً بلا خوف لدى مرعى وورد(١)

فهذه طوابع تطبع الشعر الشيعى على اختلافه ، فهو شعر سياسى حقّاً ، ولكنه وإن توسل بالدين ليسبغ على دعوته السياسية صبغاً دينيًّا فإن اللون السياسى فيه أكثر وضوحاً وهو شعر عاطفى حزين حزناً بالغاً متميزاً حتى ليصدق عليه أنه بكائيات حزينة وهو شعر وجد فيه لأول مرة الحجاج العقلى المحض الذى يستند إلى الإستدلال والقياس ويستحيل فى شعر الكميت إلى مناظرات عقلية صرفة وأخيراً فهو شعر ينطبع بطوابع شعبية واضحة أملاها غلو فى العقيدة وتطرف فى المذهب كما أدت إليها ظروف الاضطهاد والسحق التى نزعت بهم إلى الأحلام الهروبية بمخلص يغير الواقع القاسى الذى يتناقض بشدة مع مثلهم ورغباتهم .

وحقّاً فإن أسلوبهم خلال هذه الموضوعات المتنوعة ذات الطوابع المختلفة يختلف فى وضوح باختلاف الباعث وأشعارهم فى حب آل البيت رقيقة الأسلوب حارة العاطفة متدفقة الإحساس من مثل قول الكميت فى الهاشميين : —

ومن غيرهم أرضى لنفسى شيعة ومن بعدهم لا من أجل وأرجب
إليكم ذوو آل النبى تطلعت نوازع من قلبى ظماء وألبب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم وطائفة قالوا مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفيرهاتيك منهم ولا عيب هاتيك التى هى أعيب

(١) الأغانى ج ٧ ص ٤

يعيبوننى من خبهم وضلالهم ... على حبكم بل يسخرون وأعجب
وقالوا ترابى هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب[١]

ويزداد شعرهم رقة فى الأسلوب وعذوبة وصفاء فى الرثاء حتى ليصير دموعاً خالصة من مثل قول عبد الله بن خليفة فى رثاء حجر بن عدى إذ يقول : —

فدع عنك تذكار الشباب وفقده ... وأسآره إذ بان منك فأقصرا
ويك على الخلان لما تخرموا ... ولم يجدوا عن منهل الموت مصدرا
وما كنت أهوى بعدهم متعللا ... بشىء من الدنيا ولا أن أعمرا
أقول ولا والله أنسى ادكارهم ... سجيس الليالى أو أموت فأقبرا[٢]

ولكن أسلوبهم يتحول فى الخصومة إلى سهام قوية مهتاجة تسدد إلى صدور الخصوم وتصب الويل والثبور وتندد بالظلم والعسف والبعد عن سنن الدين وتعطيل أحكامه من مثل قول الكميت فى بنى أمية : —

فقد طال هذا النوم واستخرج الكرى ... مساويهم لو كان ذا الميل يعدل
وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتنحل
كلام النبيين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية نفعل[٣]

وأحياناً يجنح الهجوم إلى السخرية المرة كما فى قول عبد الله بن همام السلولى فى تولية العهد ليزيد بن معاوية حين قال : —

فإن تأتوا برملة أو بهند ... نبايعها أميرة مؤمنينا[٤]

وكسخرية يزيد بن مفرغ الحميرى من استلحاق معاوية لزياد فى قوله : —

أتغضب أن يقال أبوك عف ... وترضى أن يقال أبوك زانى[٥]

فإذا ما جنحوا للحجاج مع الخصوم جاء الأسلوب رائقاً من شوائب العاطفة

---

(١) الهاشميات ص ٢٧ وما بعدها
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٦٠
(٣) الهاشميات ص ١٢٣
(٤) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣٢٩
(٥) مروج الذهب جـ ٢ ص ٣١٢

حرًّا من إيحاءات الشعور بحيث لا يسمح بمرور شيء غير الفكر المجرد والنظر العقلى المحض فى هدوء ورزانة وصبر على المناظرة والجدل والاحتجاج والتقرير ولكنه قد يسف ولا يسقط وإن مال إلى النثرية حتى عده بعض النقاد خطابة وليس شعرا(١) ولم يكن ذلك إلا نتيجة لغرابة هذا الاتجاه عن الذوق الشعرى المألوف فى أساليب الشعر التصويرية ونحن لا نستطيع بحال أن نحاكم شاعراً مذهبيًّا كالكميت إلى هذا الذوق المألوف لأنه لم يكن يعنى بفنه كشاعر وإنما عنى به كداعية يدعو لمذهب ونحلة معينة .

وهكذا عبر شعر الشيعة عن أحداثهم وعقائدهم تعبيراً شاملا جيداً فى موضوعاته ومعانيه وأساليبه ولم يقصر الأساوب عن النهوض بالتعبير إلا فيما نلاحظه بشأن تلك الأشعار ذات المضمون الشعبى المجهولة القائل ففيها ركاكة واضحة وضعف بين وهو أمر طبيعى فى كل الفنون الشعبية التى لا تخضع لمراحل الصقل والتهذيب والتنميق . أما بقية شعرهم فتساوق الأسلوب فى الجودة مع المعانى إلى حد كبير معتمد على القرآن اعتماداً ملحوظاً بحكم حرصهم على صبغ سياستهم وأفكارهم بصبغ دينى شرعى وفى هجومهم بوجه خاص على سياسة بنى أمية المجافية للمثل الدينية والخلقية التى أتى بها الإسلام حتى لقد لاحظ عبد الملك بن مروان ذلك حين قال لبعض شعراء بنى أمية : يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد ومرة بالجبل الوعر ومرة بالبحر الأجاج ألا قلتم كما قال أيمن بن خريم فى بنى هاشم : —

نهاركم مكابدة وصوم ... وليلكم صلاة واقتراء(٢)

على أنه يلاحظ أن شعرهم كثير ، بل لا نعدو الحقيقة فى زعمنا أن شعرهم هو أكثر شعر وجد لفرقة من الفرق فى عصر بنى أمية على الإطلاق ، وعلى الرغم من ذلك فهو شعر متمايز لتمايز الشعراء الشيعيين أنفسهم فلم يختلط شعر شاعر منهم بشعر شاعر آخر إلا فيما ندر فقد كان لكل منهم نزعاته الخاصة الأصيلة التى يصدر عنها وكان تشيع كل منهم مكملا لها كما سنتعرض لذلك فى درسنا لشعرائهم .

---

(١) أمالى المرتضى جـ ١ ص ٤٢ ... (٢) الأغانى جـ ٢١ ص ١٠

الفصل الثانى

شعر الخوارج

١

يمكننا أن نؤرخ لشعر الخوارج منذ النهروان وهى المعركة التى دارت بين على بن أبى طالب والمحكِّمة الأولى منهم الذين انحازوا عنه إلى حروراء رافضين أن يحكم الرجال رافعين شعارهم بألا حكم إلا لله ، مبايعين عبد الله بن وهب الراسبي إماماً لهم .

وقد اضطر علىّ إلى قتالهم بعد أن لم تجد مفاوضاته معهم وأصروا على موقفهم أو يتوب علىّ مما وقع فيه من الحيرة والخديعة ، وقوى عزمه على قتالهم أنه كان أزمع أن ينهض لقتال أهل الشام بعد أن انتهت مهزلة التحكيم إلى ما انتهت إليه وخشى أنصاره أن يتركوا ظهورهم وديارهم معرضة لانقضاض المحكمة الذين تجرأوا فقتلوا عامله على المدائن وبقروا بطن امرأته كما قتلوا رسولا أرسله إليهم علىّ ليتبين الأمر .

ورفض المحكمة أن يدفعوا إلى علىّ بالقتلة وضربوا عرض الحائط بدعوته لهم إلى العودة لحرب أهل الشام وأجابوه بأنهم لا يأمنون أن يبايعوه اليوم فيحكم غداً وتهيئوا لقتاله وتنادوا بالرواح إلى الجنة ، ونهى علىّ أصحابه أن يبدأوهم بقتال حتى خرج منهم أخنس بن العيزار الطائى ، وهو ينشد :

ثمانون من حيّ جديلة قتلوا ... على النهر كانوا يخضبون العواليا

ينادون ألا حكم إلا لربنا ... حنانيك فاغفر حوبنا والمساويا

هم فارقوا من جار فى الله حكمه ... فكلٌّ على الرحمن أصبح ثاويا(١)

---

(١) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ .

وقد نفذ إليه سيف علىّ فأرداه فخرج إمامهم عبد الله بن وهب الراسبى وهو يرتجز معلناً عن نفسه بقوله :

أنا ابن وهب الراسبى الشارى   أضرب فى القوم لأخذ الثار
حتى تزول دولة الأشرار   ويرجع الحق إلى الأخيار[١]

وبرز بعد ذلك مالك بن الوضاح مرتجزاً :

إنى لبايع ما يفنى بباقية   ولا يريد لدى الهيجاء تربيضا[٢]

وقد قتل المحكمة جميعاً ولم يفلت منهم غير عدة أشخاص يعدون على الأصابع وكان بين القتلى زعماء الخوارج من أمثال إمامهم عبد الله بن وهب الراسبى ، وزيد بن حصن الطائى ومالك بن الوضاح وفيهم يقول أبو بلال مرداس بن أدية :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى   ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة   وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيارب سلم نيتى وبصيرتى   وهب لى التقى حتى ألاقى أولائكا[٣]

وقد أثمرت موقعة النهروان سخطاً مؤرثاً عند الخوارج حتى أصبح لها ما لكربلاء من الأثر عند الشيعة ، فكثر بكاء القتلى منهم يوم النهر وظلوا يتربصون بعلى حتى قتلوه بيد عبد الرحمن بن ملجم المرادى وزهوا بهذا القتل زهواً عجيباً كما يبدو فى قول عمران بن حطان الذى يصوب فيه صنيع ابن ملجم على هذا النحو :

لله در المرادى الذى سفكت   كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربته   معطى مناه من الآثام عريانا
يا ضربة من تقى ما أراد بها   إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأذكره يوماً فأحسبه   أوفى البرية عند الله ميزانا[٤]

كما سجل الشعر أن قتل علىّ كان ثأراً بقتلى النهروان ، أو على وجه الدقة ثأراً

---

(١) الموضع نفسه .
(٢) مناقب آل طالب جـ ٢ ص ٣٧١ .
(٣) العقد الفريد جـ ٢ ص ٣٩٩ .
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٥ ، خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٣٦ .

بقتلى النهروان من آل قطام ابنة علقمة من تيم الرباب ، وهى فتاة أراد ابن ملجم أن يتزوجها وكان أبوها وأخوها قتلا يوم النهروان وكانت ترى رأى الخوارج ، فلم تقنع من ابن ملجم إلا بقتل علىّ صداقاً لها فضلا عن ثلاثة آلاف درهم وعبد وأمة . وفى ذلك يقول ابن أبى مياس المرادى :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب علىّ بالحسام المصمم
فلا مهر أغلى من علىّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم (١)

وقد قام الخوارج بعدة حركات محدودة استهدفت الثأر لقتلى النهروان ، كان أهمها معركة النخيلة التى قاتلوا فيها أهل الشام ، ثم هزمهم شيعة الكوفة عندما استنهضهم معاوية ليكفوه مئونتهم .

ولكن هزيمتهم لم تفت فى عضدهم فسرعان ما نصبوا المستورد بن علفة إماماً وكان من الذين ارتثوا يوم النهروان فلما بلغه قتل علىّ عاد إلى الكوفة يفكر فى الانتقام ، وصادف ذلك أن كان المغيرة بن شعبة يسير سيرة لينة فى الناس بالكوفة ، وقد استغل الخوارج إغضاءه فأخذوا يجتمعون لتبادل الرأى فى الثأر لإخوانهم فى دار حيان بن ظبيان الذى كان يحرضهم ويحثهم على الثأر من الظالمين بمثل قوله :

خليلىّ مابى من عزاء ولا صبر ولا أربة بعد المصابين بالنهر
سوى نهضات فى كتائب جمة إلى الله ماتدعو وفى الله ما تفرى (٢)

وأسفرت هذه الاجتماعات عن اتعادهم الخروج غرة شعبان من سنة ٤٣ هـ بيد أن المغيرة شعر بالخطر فقام باعتقالهم حيث قضوا فى سجنه قرابة عام .

ومن داخل السجن تسربت أبيات لمعاذ بن جوين وجه بها إلى إخوانه الخوارج وإلى إمامه المستورد بن علفة الذى نجا من الاعتقال ، والأبيات تحث

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٨٧ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٠ .

الخوارج على أن يتحولوا عن ديار الجاهلين الذين يضطهدونهم ، وأن يقاتلوهم متمنياً أن يكون حرًّا طليقاً حتى يشاركهم فى قتال الكفار المحلين من أهل القبلة وتفريق شملهم على هذا النحو :

ألا أيها الشارون قد حان لامرئ ... شرى نفسه لله أن يترحلا
أقمتم بدار الجاهلين جهالة ... وكل امرئ فيكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنما ... إقامتكم للذبح رأياً مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التى ... إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر سابح ... شديد القصيرى دارعاً ليس أعزلا
ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم ... فيسقينى كأس المنية أولا
يعز على أن تخافوا وتطردوا ... ولمّا أجرد فى المحلين منصلا
ولمّا يفرق جمعهم كل ماجد ... إذا قلت قد ولى وأدبر أقبلا
مشيحاً بنصل السيف فى حمس الوغى ... يرى الصبر فى بعض المواطن أمثلا
وعز على أن تضاموا وتنقصوا ... وأصبح ذا بث أسيراً مكبلا
ولو أننى فيكم وقد قصدوا لكم ... أثرت إذن بين الفريقين قسطلا
فيارب جمع قد فللت وغارة ... شهدت وقرن قد تركت مدلا[1]

واستجاب الخوارج لهذا النداء الحار فخرج بهم المستورد حتى نزل الحيرة ثم تركها وعاد مستتراً إلى الكوفة فى دار صهره سليم بن محدوج من عبد القيس ، وشعر المغيرة بأنهم يدبرون أمراً فخطب محذراً الناس وخشى المستورد على صهره الذى لم يكن من الخوارج ، وقرر الارتحال واتعد وأصحابه بهرسير من ضواحى المدائن فتتاموا بها ثلاثمائة رجل ، ومن هناك مضوا فى أرض جوخى حتى بلغوا المذار بجوار البصرة وتتبعهم جيش من شيعة الكوفة أرسله المغيرة فى أعقابهم وكأنه يريد أن يفنى هذان الحزبان بعضهم بعضاً ولحق بهم هذا الجيش بعد أن ضللوه طويلا فى المذار حيث دارت وقعة عظيمة هزم فيها الخوارج ، ولكنهم لم ييأسوا فحاول فلهم أن يخدع جيش الشيعة بالانقضاض على مؤخرته ولكن الطليعة بقيادة أبى الرواغ قضت عليهم عند قرية ديلمايا ، وقتل المستورد كما

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٠٧

قتل قائد جيش الشيعة معقل بن قيس الرياحى إثر مبارزة مستميتة[١] .

وقد ظل الخوارج بعد مغامرة المستورد عدة سنوات لا يفكرون فى عمل جديد فقد تولى زياد بن أبيه البصرة سنة ٤٥ هـ وسار فى الناس سيرة بطش وجبروت ، وأخذ الخوارج بكل شدة ثم جمعت إليه الكوفة بعد وفاة المغيرة بن شعبة سنة ٥٣هـ فأخذ أهلها بنفس القسوة التى أخذ بها أهل البصرة فضعفت شوكة الخوارج ولم تقم لهم قائمة إبان ولايته حتى خلفه على الكوفة ابن أم الحكم الثقفى ، فنهض الخوارج من جديد فبايعوا حيان بن ظبيان فى محاولة للتكفير عن إخلادهم إلى الهدوء فى ولاية زياد ولم يكن هؤلاء يزيدون عن مائة رجل ، ولذلك رفض إمامهم الجديد أن يخرج بهم إلى حلوان وكان هدفه أن يقاتل بهم فيما يجاور الكوفة حتى يلحقوا بربهم لا يبغى من وراء ذلك شيئاً سوى الاستشهاد ، فعول على السير بهم إلى بانقيا واضطروا إلى موافقته ، وهناك قتلهم جيش أرسله الوالى وكان ذلك فى نهاية سنة ٥٩ هـ وكانت هذه هى نهاية الخوارج فى الكوفة .

وليس شك فى أن سلطان الشيعة ونشاطهم قد بز نشاط الخوارج فى الكوفة التى لم تكن لتتسع لأى نشاط عدا نشاط الشيعة ، وربما كان ذلك سبباً فيما نجده من قلة شعر الخوارج فى الكوفة إذ لحقه ما لحق أصحابه من اضطهاد فقد دون فى عصر كان للشيعة فيه سلطان قوى وكان أكثر من دونوه من الشيعة كأبى الفرج والمسعودى فأهملت آثارهم وترك أكثرها نهباً للضياع وبدت شخصياتهم الأدبية مبتورة لا يتناسب ما يروى لهم من الشعر مع شهرتهم التى اكتسبوها . ويكفى لكى نعلم مدى ما انصب عليهم من اضطهاد أن ابن قتيبة لم يشر إلى أحد منهم فى كتابه الشعر والشعراء إلا ما كان من ذكر الطرماح بصدد سرقاته عن غيره بينما لا يشير ابن سلام فى طبقاته إليهم من قريب أو بعيد .

فإذا ما تركنا شعر الخوارج فى الكوفة إلى شعر البصريين منهم ، لم نجد شيئاً ذا قيمة حتى ولاية عبيد الله بن زياد سنة ٥٥ هـ .

فقد سلك الخوارج فى البصرة مسلكاً جعل المؤرخين لا يفرقون بينهم وبين

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١١٨

عامة اللصوص والسفاحين ، وكان الشرفاء من الخوارج أمثال أبى بلال يتبرءون منهم ويسخطون عليهم ، ويكاد الجاحظ يعنيهم وقد قرنهم إلى اللصوص فى قوله « لأنك لا تعرف فقيهاً من أهل الجماعة لا يستحل قتال الخوارج كما أنا لا نعرف أحدهم لا يستحل قتال اللصوص »[١] .

وقد ابتدأ خوارج البصرة نشاطهم منذ النهروان عندما خفوا برئاسة مسعر ابن فدكى التميمى لمؤازرة إخوانهم أهل الكوفة ثم أعقب ذلك خروج سهم بن غالب التميمى والخطيم الباهلى سنة ٤١ هـ فى سبعين رجلا وقد قتلوا رجلا من بنى بجير ، وعندما تولى زياد البصرة سنة ٤٥ هـ خافه سهم ففر إلى الأهواز حيث قتل أحد المسلمين هناك استعراضاً وتجاسر على دخول البصرة ولكن أنصاره خذلوه فاستتر وطلب أمان زياد ، ولكنه لم يؤمنه وصلبه . وكذلك لقى نفس مصيره زميله الخطيم بعد أن نفى إلى البحرين ثم وضع تحت الرقابة فى البصرة ولكنه أثار شبهات زياد فقتله .

ثم خرج قريب الأزدى وزحاف الطائى فى سبعين رجلا أيضاً فقتلا شيخاً من بنى ضبيعة ، واشتد زياد فى شأنهم وعاملهم معاملة المجرمين الذين يعكرون صفو الأمن وكانت حالة الفوضى التى سادت البصرة ملائمة لنشاطهم ولكنه كان نشاطاً ينقصه التنظيم والهدف وتكاد الفترة منذ النهروان وعام ٦٤ هـ تكون فترة دراسة ودعوة وتذكر لشهداء العقيدة ، ومحاولات جزئية للثأر سبقت تبلور المذهب على الصورة التى نراها فيما بعد هذا التاريخ .

ولهذا فإننا نجد الشعر فى تلك الفترة لا يمثل إلا الرغبة فى الثأر من المحلين الكافرين والهجرة عن ديارهم .

وقد اهتم عبيد الله بن زياد بتفتيت وحدة الخوارج فاتخذ منهم جماعة لنفسه واستخدمهم ضد زملائهم فكانوا حرباً عليهم وأنتج ذلك شعوراً عند هذا الفريق لم يكفر عنه إلا الثورة بابن زياد ، وقد انتهى أمر هؤلاء بأن ذبحهم حراس ابن زياد فى عيد الفطر سنة ٥٨ هـ وأخذ ابن زياد من بقى منهم بالشدة والقسوة .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٨٧ .

وكان أبو بلال مرداس بن أدية التميمى أبرز شخصية بين خوارج البصرة ، وتكاد شخصيته النبيلة تكون شخصية أسطورية فذة فى تاريخ العقائد ففضلا عن إيمانه العميق بمبادئ الخوارج فقد كان له تفرد واضح فى آرائه الخاصة كرفضه لاشتراك النساء فى الحروب وإنكاره للاستعراض واستنكاره لأعمال العنف الهوجاء التى اقترفها الخوارج بالبصرة ويروى فى نبله قصص غريب منه هذه القصة التى تصور عودته إلى محبسه بعد أن تأكد من انتواء الأمير قتله وفاء لسجانه الذى كان يسمح له بمغادرة السجن كل ليلة والعودة إليه فى الصباح . وقد استحق بهذا الوفاء عفو الأمير . ولكن أخاه عروة كان من رءوس الخوارج ولم يجبن عن مواجهة ابن زياد وعن اتهامه بالظلم والبطش فأخذه فصلبه بعد أن مثل به وأرسل إلى ابنته فقتلها كما قتل زميلة لها خارجية تدعى البجاء وصلبها عارية فى سوق البصرة .

وكانت هذه الأعمال ذات أسر سيئ على نفس أبى بلال الذى قرر الخروج فى أربعين رجلا اندفع بهم إلى الأهواز سنة ٦٠ هـ . وكان أبو بلال نبيلا فى خروجه فلم يعتد على أحد كما لم يتعرض بسوء لأموال الخراج التى صادفته فى طريقه فلم يأخذ منها غير عطائه وعطاء رفاقه ، وأرسل عبيد الله فى أعقابه بألفى رجل بقيادة ابن حصن التميمى ، وفى آسك دارت معركة مجيدة بين جيش ابن زياد ورجال أبى بلال الأربعين الذين أرغموا ابن حصن على الفرار بعد أن استحر فى جيشه القتل .

وقد أشاد شاعر الخوارج عيسى بن فاتك الحبطى بهذا الانتصار المؤزر الذى أحرزته فئة قليلة على جيش جرار مرجعاً السبب فى ذلك إلى قوة إيمانهم وتقواهم فى قوله :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
بقية يومهم حتى أتاهم ... سواد الليل فيه يراوغونا
يقول بصيرهم لما أتاهم ... بأن القوم ولوا هاربينا

أألفا مؤمن منكم زعمتم ويقتلهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا[١]

وهالت الهزيمة ابن زياد فقذفهم بثلاثة آلاف رجل بقيادة عباد بن الأخضر التميمى وتلقاهم أبو بلال فى صحبه ، ويبدو أنهم أيقنوا بالفناء فطلبوا إلى عباد أن يمنحهم الأمان حتى يصلوا فأمنهم وبينما هم ساجدون انقض عليهم عباد وجنده فقطعوهم إرباً إرباً وهم لا يريمون عن سجودهم .

وقد أصبح أبو بلال بعد هذا الحادث قديس الخوارج بمعنى الكلمة ، تمثلوه فى إيمانه القوى وإن لم يتمثلوه فى رقة نفسه ودماثة طبعه فأثار مقتله على هذا النحو الفظيع من الغدر حفيظة الخوارج ودفعهم إلى الاستماتة فى الجهاد دفعاً ، كما يبدو فى تلك الأبيات التى قالها عمران بن حطان إثر استشهاده وهى تقول :

لقد زاد الحياة إلىّ بغضاً وحبًّا للخروج أبو بلال
أحاذر أن أموت على فراشى وأرجو الموت تحت ذرا العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفى كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنى لها والله رب البيت قالى[٢]

وقد اضطر الخوارج بإزاء شدة ابن زياد إلى مغادرة البصرة عقب مقتل أبى بلال ، ووجدوا فى دعوة نافع بن الأزرق لهم إلى مؤازرة ابن الزبير فى حماية الأماكن المقدسة خلاصاً من عنف ابن زياد ، وفى مكة أتيح لهم أن يشتركوا فى الذود عن الكعبة وأن يساندوا عبد الله بن الزبير الذى حصرته جيوش الشام ، ورفع الحصار بوفاة يزيد بن معاوية وظهر الخلاف بين الخوارج وابن الزبير ، وتأكدوا أنه ليس رجلهم المأمول وأعقب ذلك أن ثار الخلاف فيما بينهم هم أنفسهم فعاد نافع بن الأزرق ومعه جماعة من رءوسهم إلى البصرة بينما اتجه أبو طالوت وابن الأسود وأبو فديك إلى اليمامة .

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٧٤ .
(٢) الخزانة ج ٢ / ٤٤٠ .

وصادف دعوة نافع وجماعته إلى البصرة هروب عبيد الله بن زياد منها وقيام الصراع القبلي الذى أعقب فراره ، فانتهز الخوارج الفرصة واقتحموا سجون البصرة واستنقذوا إخوانهم منها ، وأصبح نافع وتحت إمرته ثلاثمائة من الخوارج يدينون له بالطاعة فخرج بهم إلى الأهواز فى نهاية شوال سنة ٦٤ هـ ، وهناك تمكن من السيطرة على المنطقة وانتشر عماله فى السواد يجبونه حتى عظم أمره واشتدت شوكته ، وتزعم إحدى الروايات أنه تتام له هناك زهاء ثلاثين ألف فارس ممن يرى رأيه ، منهم جماعة كبيرة من رءوس الخوارج مثل عطية بن الأسود الحنفى وأبناء الماحوز وقطرى بن الفجاءة وعبيدة بن هلال اليشكرى وصالح بن مخراق العبدى وعبدربه الكبير وعبد ربه الصغير وصخر بن حبناء التميمى [١] .

ولما اصطلح أهل البصرة على ولاية عبد الله بن الحارث القرشى المعروف ببيّه اجتمعوا على الخوارج المقيمين بالبصرة ، واضطروهم إلى الفرار ليلحقوا بنافع فى الأهواز إلا قليلا منهم لم يكن يرى رأيه فى الهجرة كعبد الله بن الصفار وعبد الله بن إباض وقد كان نافع متشدداً فى مذهبه تشدداً غالياً فقد أوجب الهجرة عن ديار المحلين وجعلها ديار كفر وحرب ، كما كفر القعد وأباح الاستعراض وقتل الأطفال .

وقد نتج عن هذا الغلو افتراق الخوارج إلى أربع فرق كبيرة ، كانت الأزارقة أكبرها وأسرعها إلى الفناء لأنها بنت مناهجها على العمل أكثر من النظر فتميزت عن بقية الفرق بكثرة حروبها وعنفها .

ولم يكن للنجدات تشدد الأزارقة وغلوهم ، وكذلك لم يكن لهم ما كان للأزارقة من شأن فى كثرة الحروب وعنفها ، فقد اقتصر نشاطهم على تلك المنطقة المحددة فى اليمامة مما يلى البصرة ، ولكنهم نجحوا فى بسط سلطانهم على شمال البحرين وجزء من اليمن وعمان لفترة قصيرة ، وكاد نجدة يبسط سلطانه على الجزيرة العربية كلها مستغلا ضعف ابن الزبير لولا ما حاق به من تفرق أصحابه واختلافهم عليه وتكفيرهم له .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٩ .

وما لبث أبو فديك أن تولى أمر هذه الفرقة بعد أن قتل نجدة حتّى شغب عليه عطية الحنفى وظل أمرهم يتدهور حتّى هزموا أمام جيش من أهل العراق وسقطت دولة النجدات بعد سبع سنين من قيامها فى سنة ٧٢ هـ .

ولا نجد لهذه الفرقة أثراً يذكر فى الشعر ، ويبدو أنه لم يكن بينهم شاعر عقائدى يعبر عن آرائهم ولكننا نجد آثارهم ماثلة فى شعر خصومهم الذين سجلوا عليهم إشاعتهم للذعر فى المنطقة عند ابتداء قيام دولتهم ، فأخبار نجدة تذهب إلى أنه كان يغير على العرب فى جميع الجهات وأنه لم يزل كذلك حتّى ملأ يديه وفعل ذلك ببنى أسد وطىء ، ولما أغار على بنى معن تذامروا ونهضوا للانتقام من النجدات واتبعوهم مستقتلين ، وحملوا عليهم فهزموهم وقتلوا منهم مقتلة عظيمة حتى إن الرجل من بنى معن كان ينتهى إلى الرجل من النجدية فيأخذ منه سيفه فيضرب به عنقه ، وقد وصف إياس بن مالك الطائى هذه المعركة فى قوله :

سمونا إلى جيش الحرورى بعدما تناذره أعرابهم والمهاجر
بجمع تظل الأُلم ساجدة له وأعلام سلمى والهضاب النوادر
فلم ادركناهم وقد قلصت بهم إلى الحى خوص كالحنى ضوامر
أنخنا إليهم مثلهن وزادنا جياد السيوف والرماح الخواصر
كلا ثقلينا طامع بغنيمة وقد قدر الرحمن ما هو قادر
فلم أر يوماً كان أكثر سالباً ومستلباً سرباله لا يناكر
وأكثر منا يافعاً يبتغى العلا يضارب قرناً دارعاً وهو حاسر
فما كلت الأيدى ولا انأطر القنا ولا عثرت منا الجدود العواثر (١)

وفى الوقت الذى سقطت فيه دولة النجدات ، كان الأزارقة يخوضون حرباً نظامية شديدة مع جيوش الدولة .

وكان نافع قد نجح فى إخضاع الأهواز وكورها وما وراءها من بلدان فارس وكرمان حتّى صار له جيش عظيم فقرر أن يعود إلى البصرة ، وبلغت أخبار زحفه أهل

(١) شرح حماسة التبريزى جـ ١ / ص ٢٣٤ .

البصرة ففزعوا إلى الأحنف بن قيس يشكون إليه أمرهم فحرضهم وجعلهم تحت قيادة مسلم بن عبيس بن كريز ، وخرج مسلم يدافع نافعاً عن أرض البصرة ولما جاز بهم الجسر خيرهم بين الرجوع والتقدم إلى الأزارقة ، ووصف لهم بأسهم وقسوتهم فرجع منهم قوم ومضى الباقون معه ، فلما صاروا بمكان يقال له دولاب على نهر الدجيل برز لهم الأزارقة فقاتلوهم قتالا شديداً حتى تكسرت الرماح وعقرت الخيل وكثرت الجراح والقتلى وتضارب الجندان بالسيوف والعمد فقتل ابن عبيس وقتل نافع وخلفه على قيادة الخوارج عبيد الله بن الماحوز بينما خلف مسلماً الربيع بن عمرو الغدانى الشهير بالأجذم فقاتل الخوارج نيفاً وعشرين يوماً قتالا صارماً حتى قتل فتدافع أهل البصرة الراية كلهم يخشى العطب ثم اشتد القتال شدة لم يعهدها أهل البصرة فطاعنوا الخوارج بالرماح حتى تقصفت ثم ضاربوهم بالسيوف حتى لم يبق لأحد منهم قوة وحتى كان الرجل منهم يضرب الرجل فلا يغنى شيئاً من الإعياء فتراموا بالحجارة وظلوا كذلك حتى اجتمع أهل البصرة على الحجاج بن باب الحميرى ولكنه امتنع خوفاً عن أخذ الراية فدفعها إليه كريب بن عبد الرحمن منددا بجبنه فأخذها ، وناهض الخوارج حتى انتقضت الصفوف والخوارج أقوى عدة بالدروع والجواشن ، ويذكر أن الحجاج بن باب كان يغمض عينيه ويحمل عليهم حتى يغيب بينهم ، وهو يطعنهم حتى يظن أنه قتل ثم يرفع رأسه وسيفه يقطر دماً ويفتح عينيه فيرى الناس كراديس كل قوم يقاتلون فى ناحية حتى التقى الحجاج بعمران بن الحارث الراسبى ، فاختلفا الضربات حتى قتلا معاً ، وجال الناس بينهما جولة ثم تحاجزوا ، وأصبح أهل البصرة وقد هرب عامتهم ، وقد أشادت أم عمران بن الحارث الراسبى الذى قتل الحجاج بن باب بابنها ونعت على أهل البصرة فرارهم وتجاوزت النعى عليهم إلى اتهامهم بالكفر فى قولها :

الله أيد عمراناً وطهره ... وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سرا وإعلاناً ليرزقه ... شهادة بيدى ملحادة غدر

ولى صحابته عن حر ملحمة وشد عمران كالضرغامة الذكر (١)

ونهض حارثة بن بدر الغدانى لقيادة أهل البصرة، ومناهم بزيادة فريضتهم، وندب الناس وهم على حال سيئة ، وقد فشت فيهم الجراحات ولهم أنين لا ينقطع ولم تكن الخيل تطأ غير القتلى؛ وبينما هم كذلك إذ أقبلت من اليمامة كتيبة جامة فاجتمعت كبكبة واحدة وحملت على أهل البصرة ، فنكص حارثة بن بدر برايته ، وانهزم وهو يرتجز يائسا :

أكرنبّوا ودولبوا وحيث شئتم فاذهبوا

وتتابع الناس فى إثره منهزمين ، والخوارج يتبعونهم ، فألقى أهل البصرة بأنفسهم فى دجيل فغرق منهم خلق كثير من الأزد الذين كان عليهم قبيصة ابن أبى صفرة أخو المهلب ، فقال شاعر الأزارقة يذكر من غرق منهم .

يرى من جاء ينظر فى دجيل شيوخ الأزد طافية لحاها (٢)

وقد رثا الخوارج نافعاً ، وندد شاعرهم بمن شمت بمقتله مقرراً أن لا شماتة فى الموت وهو حتم لا محالة من وقوعه فقال :

شمت ابن بدر والحوادث جمة والظالمون بنافع بن الأزرق

والموت حتم لا محالة واقع من لا يصبحه نهاراً يطرق

فلئن أمير المؤمنين أصابه ريب المنون فمن تصبه يعلق (٣)

وسجل الشعر هذه الموقعة الهامة فى تاريخ الأزارقة الحربى فى أبيات مختلفة الرواية والنسبة تقول :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد وفى العيش ما لم ألق أم حكيم

من الخفرات البيض لم أر مثلها شفاء لذى بث ولا لسقيم

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر غير حليم

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٤ .

(٢) الأغانى ج ٦ ص ٤ .

(٣) الأغانى ج ٦ ص ٤ .

ولوشهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طفت ع الماء بكر بن وائل وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريماً على فتى أعز نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم يك موطناً له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم(١)

وكان حارثة بن بدر قد انحاز بمن بقى من أهل البصرة فعبر بهم النهر وتحصن عند نهر تيرى ليحول دون الخوارج والعبور ، وظل كذلك ثلاثة أيام إلى أن وافاه جيش أرسله عمر بن عبد الله بن معمر والى البصرة الجديد الذى خلف ببه فى أعقاب هزيمة دولاب ، وكان هذا الجيش بقيادة أخيه عثمان ولكنه لا يلبث أن يلقى الهزيمة أمام الخوارج ويقتل فى وقعة دراس ليعود حارثة بن بدر إلى التقاط الراية من جديد ويغطى انسحابه فى عدد قليل من جنده ثم يرجع بهم مرة أخرى ليجثم فى موضعه السابق من نهر تيرى ، وقد استحق حارثة بفضل بسالته فى حماية جنده أن يشيد به أكثر من شاعر من قومه من مثل ذلك التميمى الذى قال فيه :

فلولا ابن بدر للعراقين لم يقم بما قام فيه للعراقين إنسان
إذا قيل من حامى الحقيقة أومأت إليه معد بالأكف وقحطان(٢)

وبطبيعة الحال تختلف صورته عند الأزارقة حتى ليقول فيه شاعرهم :

ألم تر أن حارثة بن بدر يصلى وهو أكفر من حمار
ألم تر أن للفتيان حظاً وحظك فى البغايا والعقار(٣)

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٥ ، الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٨٢ .
(٢) شرح نهج البلاغة ج ١ ص ٣٨٣ .
(٣) المرجع السابق .

وقد راح جند حارثة يتخلون عنه منسلين إلى البصرة ، وغرق حارثة عندما وثب جندى كامل الشكة فى سفينته فانقلبت به فى اليم وانفتح الطريق أمام الخوارج إلى البصرة وتحصنوا عند الموقع الذى كان حارثة يحرسه ، ولم يعد أمامهم لدخول البصرة غير عبور الفرع الآخر من دجيل . وازداد فزع البصريين فتقدموا إلى الأحنف من جديد يستنجدون به ويطلبون مساعدته فأشار عليهم بأن يطلبوا من عبد الله بن الزبير إرسال المهلب بن أبى صفرة من خراسان لمعالجة أمر الخوارج . وقد نهض المهلب بالمهمة الموكولة إليه ونجح فى طرد الخوارج من ناحية دجلة وجبى خراج كورها وطاردهم فى بطء والتقى معهم فى عدة معارك ترجح النصر فيها بينهما وبخاصة فى سولاف ، وقد رأى الخوارج أن يتراجعوا بعدها عبر النهر واتبعهم المهلب ثم التقى بهم فى سلى وسلسبرى ، وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتل قائد الخوارج عبيد الله بن الماحوز فارتحلوا على أثر ذلك إلى الأهواز وبايعوا الزبير بن علىّ وظل المهلب يطاردهم حتى تولى مصعب أمر البصرة فبعث بالمهلب إلى الجزيرة لحماية حدود العراق من خطر أهل الشام .

وولى مصعب حرب الخوارج عمر بن عبيد الله بن معمر فقاتلهم عند سابور وإصطخر وهزمهم واضطرهم إلى الانسحاب نحو أصفهان وكرمان ، ولكنهم تجمعوا وزحفوا خلال فارس متجهين من جديد نحو البصرة فنهض مصعب بنفسه للقائهم فانحرفوا نحو الكوفة فى طريقهم إلى المدائن وخرج القباع والى الكوفة للقائهم فعادوا ينحرفون ناحية البصرة واتجهوا من هناك يضربون فى جبال ميديا حتى انتهى بهم المسير إلى الرى .

وقد نجح عتاب بن ورقاء التميمى الوالى الأموى فى صدهم عن دخول أصفهان ، واضطرهم إلى الانسحاب بعد أن قتل أميرهم الزبير بن علىّ فبايعوا قطرى بن الفجاءة .

وكان قطرى شجاعاً وشاعراً وقد استحق بمكانته الحربية أن يصير قائداً

عاماً للأزارقة وبدأ عمله بأن عاد بهم إلى كرمان ليستعدوا ثم زحف بهم عبر دجلة حتى بلغوا سولاف وعادوا يزعجون أهل البصرة الذين تضرعوا تحت ضربات قطرى إلى مصعب أن يرميهم من جديد بالمهلب فهو أعلم بحربهم ، ولم يجد مصعب بدًّا من ذلك .

ودارت بين المهلب وبينهم مناوشات استمرت ثمانية أشهر كان الجيشان يتوقفان خلالها متوادعين فيتساءلون فيما بينهم عن أمور الدين والدنيا ، وكثيراً ما كان الفريقان يتحادثان فى الشعر ويتبادلان الآراء فى تفضيل شاعر على آخر كما كانوا يتناشدون الشعر حتى يملوا فيفترقوا .

وفى تلك الأثناء وقعت معركة مسكن بين مصعب وعبد الملك بن مروان وبلغ الأزارقة نبأ مقتل مصعب وهزيمة جيشه فأخذوا يتندرون بأهل البصرة وكأنما يفضحون ولاءهم الأعمى لمن ولى عليهم مهما كان لونه ، وتنبأوا لهم بأنهم سيصبحون أولياء لعدو الأمس وقد كان ذلك عندما بايع المهلب الناس لعبد الملك فى الغد.

وتولى حرب الخوارج ولاة أمويون نحّوا المهلب مثل خالد بن عبد الله بن أسيد الذى ولى البصرة ونهض لحرب الخوارج ولكنه وضع نفسه موضعاً حرجاً عند نهر تيرى استنقذه منه المهلب فعاد الخوارج إلى كرمان كما عاد خالد إلى البصرة وترك قيادة الجيش لأخيه عبد العزيز والى فارس ، وتمكن الخوارج من هزيمة عبد العزيز هزيمة منكرة فى دار بجرد وأسروا امرأته فأقاموها فيمن يزيد ، وقد تعرض عبد العزيز للوم شديد وتقريع بالغ فى مثل تلك الأبيات التى ندّدت به على هذا النحو :

عبد العزيز فضحت جيشك كلهم ... وتركتهم صرعى بكل سبيل
من بين ذى عطش يجود بنفسه ... وملحب بين الرجال قتيل
هلا صبرت مع الشهيد مقاتلا ... إذ رحت منتكث القوى بأصيل
وتركت جيشك لا أمير عليهم ... فارجع بعار فى الحياة طويل
ونسيت عرسك إذا تقاد سبية ... تبكى العيون برنة وعويل[1]

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٩٤ ، ابن الأثير ج ٥ ص ١٣٣ .

وفى نفس الوقت كان أبو فديك قد هزم أمية أخا خالد وعبد العزيز فى البحرين ، وعمل أبو فديك متعاوناً مع قطرى ، وتعقب الأزارقة أهل البصرة الذين فروا أمامهم إلى قنطرة اربك ، واستولوا على الأهواز كلها من جديد وتقدموا حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة وعاد الموقف سيرته عام ٦٥ﻫ . واضطر عبد الملك إلى أن يعزل خالداً وضم البصرة إلى أخيه بشر بن مروان والى الكوفة وولى المهلب حرب الخوارج وجعله تابعاً له مباشرة ولم تنجح محاولات بشر لإفساد الرأى على المهلب بمن دسهم عليه لهذا الغرض كما فشلت الحملة التى بعث بها إلى الرى فباءت بالهزيمة أمام الخوارج وكان على رأسها الزبير ابن خزيمة الخثعمى فلقيها الخوارج بجلولاء حيث أبادوها عن آخرها وقد لام أعشى همدان قائدها لوما جارحاً فى قوله :

أمرت خثعم على غير خير ... ثم أوصاهم الأمير بسير
أينما كنتم تعيفون للنا ... س ما تزجرون من كل طير
ضلت الطير عنكم بجلولا ... ءو غرتكم أمانى الزبير[1]

وقد نجح المهلب فى كشف الأزارقة عن الفرات واتبعهم حتى بلغوا الجبال . ولكن أهل العراق ما لبثوا أن عادوا بمجرد أن بلغهم نبأ وفاة بشر .

وتولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى سنة ٧٥ ﻫ فرد الفارين من أهل العراق إلى رامهرمز ويبدو أنه استعمل العنف فى ذلك وتجاوزه إلى قتل الممتنعين عن العودة نظراً لشدة قتال الأزارقة . وتذكر الروايات أنه قتل رجلا يدعى عمر ابن ضابئ لتقاعسه عن اللحاق بالمهلب وقد قال عبد الله بن الزَبير الأسدى فى ذلك :

أقول لعبد الله لما لقيته ... أرى الأمر أمسى واهياً متشعبا
تخير فإما أن تزور ابن ضابئ ... عميراً وإما أن تزور المهلبا
هما خطتا خسف نجاؤك منهما ... ركوبك حوليًّا من الثلج أشهبا
فأضحى ولو كانت خراسان دونه ... رآها مكان السوق أو هى أقربا[2]

---

(١) الأغانى ﺟ ٥ ص ١٥٠ .

(٢) الأغانى ١١ ص ٤٠ .

وقد اهتم الحجاج بأمر الخوارج حتى قدم إلى الميدان بنفسه ، واستطاع المهلب أن يدفع الأزارقة إلى الفرار أمامه عائدين إلى فارس وتبعهم إلى أرجان ثم السروان حتى كازون فى نواحى سابور . واستمر القتال هناك أكثر من عام انسحب بعده الأزارقة من فارس عائدين إلى كرمان ، وظل المهلب يطاردهم حتى انتهوا إلى جيرفت .

وقد ذكرت هذه المواقع التى خاضها المهلب أمام الخوارج فى قصيدة طويلة لكعب الأشقرى وكان بجيش المهلب وحمل إلى الحجاج أنباء فرار الخوارج وهزيمتهم ، وقد ذكر فيها ما عاناه جند العراق من شدة الخوارج فى القتال ، وتفاقم أمرهم وخشية الناس من التعرض لقتالهم فى مثل قوله :

واستسلم الناس إذ حل العدو بهم ... فما لأمرهم ورد ولا صدر
كنا نهون قبل الموت شأنهم ... حتى تفاقم أمر كان يحتقر
لما وهنّا وقد حلوا بساحتنا ... واستنفر الناس تارات فما نفروا
نادى امرؤ لا خلاف فى عشيرته ... عنه وليس به عن مثلها قصر[1]

ومضى يعدد انتصارات المهلب عليهم فى سابور ودشت بارين وجبرين والأهواز ولم يستكثر على الخوارج أن يصفهم بالبطولة والبسالة فى قوله :

نلقى مساعير أبطالا كأنهم ... جن نقارعهم ما مثلهم بشر
نسقى ونسقيهم سماً على حنق ... مستأنفى الليل حتى أسفر السحر
قتلى هنالك لا عقل ولا قود ... منا ومنهم دماء سفكها هدر
حتى تنحوا لنا عنها تسوقهم ... منا ليوث إذا ما أقدموا جسروا
لم يغن عنهم غداة التل كيدهم ... عند الطعان ولا المكر الذى مكروا

وقد فخر أعشى همدان بتصدى المهلب لهم وإحباطه لخططهم ثم جعل يتحدث عن هزيمتهم الأخيرة فى كرمان وكيف أنها كانت اشتفاء من الخوارج وإدراكاً للثأر منهم فقال :

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٠ .

لما زواهم إلى كرمان وانصدعوا	وقد تقاربت الآجال والقدر
سرنا إليهم بمثل الموج وازدلفوا	وقبل ذلك كانت بيننا مئر
وزادنا حنقاً قتلى نذكرها	لا تستفيق عيون كلما ذكروا
إذا ذكرنا جروزاً والذين بها	قتلى مضى لهم حولان ما قبروا
تأبى علينا حزازات النفوس فما	نبقى عليهم وما يبقون إن قدروا
ولا يقيلوننا فى الحرب عثرتنا	ولا نقيلهم يوماً إذا عثروا
لا عذر يقبل منا دون أنفسنا	ولا لهم عندنا عذر لو اعتذروا

وعاد يفخر بالمهلب ويشيد به ويجعله مخلصاً من أهل الكفر والغدر فى قوله :

لولا المهلب للجيش الذى وردوا	أنهار كرمان بعد الله ما صدروا
إنا اعتصمنا بحبل الله إذ جحدوا	بالمحكمات ولم نكفر كما كفروا
جاروا عن القصد والإسلام واتبعوا	ديناً يخالف ما جاءت به النذر [١]

وقد سأل الحجاج كعباً كيف فاتهم قطرى ؛ فقال إنهم كادوه فتحول عن منزله وظن أنه قد كادهم وأنهم لم يتبعوه لأن الليل حال بينه وبينهم . وكان على المهلب أن يقضى فى مناوشة الأزارقة بعد فرارهم إلى جيرفت ثمانية عشر شهراً حتى يقهرهم تماماً .

وقد اعتقد الحجاج أنه إنما تعمد أن يطيل الحرب حتى يحتفظ لنفسه بالقيادة ويستغل إدارته لإقليم فارس فى جباية خراجه أطول مدة ممكنة ، فأخذ الحجاج يضغط عليه ورفع منه إدارة الإقليم وجباية الخراج ولكن المهلب لم يتأثر بذلك فقد كانت خطته تعتمد على الترقب والانتظار للفرص .

وكتب الحجاج أثناء هذه الفترة إلى المهلب يحضه على مناجزة الأزارقة ويستبطئه ويضعفه ويعجزه فى تأخيره أمرهم وطلبهم ، ورد المهلب على رسوله بأن البلاء فى أن الأمر إلى من يملكه لا إلى من يعرفه ، وطلب أن يتركه له الأمر يدبره كما يراه وإلا فللحجاج أن يبعث مكانه من يراه ، وكتب بمثل ذلك إلى عبد الملك من

---

(١) الطبرى ٧ ص ٢٧٣ ، والأغانى ج ١٣ ص ٥٥

فوره ، فكتب عبد الملك إلى الحجاج بألا يعارض المهلب فيما يراه ، ولا أن يعجله وقد ذكر ذلك شاعر المهلب كعب بن معدان الأشقرى فى حضرة رسول الحجاج ، وفى أبياته ما يشعر بقسوة القتال وشدة بأس الأزارقة إذ يقول :

إن ابن يوسف غره من غزوكم ... خفض المقام بجانب الأمصار
لو شاهد الصفين حين تلاقيا ... ضاقت عليه رحيبة الأقطار
من أرض سابور الجنود وخيلنا ... مثل القداح بريتها بشفار
من كل جندى غذى بلبانه ... وقع الطباق مع القنا الخطار[1]

وجاءت المهلب الفرصة عندما دب الخلاف بين الأزارقة فأخذ فريق منهم فى الشغب على قطرى والمخالفة عنه لأمور شرعية . وكان هؤلاء المعارضون من الموالى بزعامة عبد ربه الصغير أحد موالى قيس بن ثعلبة وكان معلم كتّاب وبايعه المعارضون إماماً وانضم إليه بعض العرب بزعامة عمرو القنا ، ولا يمكن أن يكون المهلب بعيداً عن إثارة هذا الخلاف ، وقد انقسمت قوة الأزارقة بهذا إلى قسمين ، فانحاز عبد ربه بأكبرهما وبقى قطرى فى قلة من الجند . وابتدأ القتال بين فريقى الأزارقة واستمر شهراً ، وبقى المهلب هادئاً حتى لا يكون هجومه عليهم دافعاً للم شعثهم . ولم يفلح صالح بن مخراق العبدى الذى فطن إلى خطورة الموقف فى أن يعيد الأزارقة إلى اجتماع الكلمة بمحاولته نقل القتال إلى جيش المهلب ، ولكنه لا يلبث حتى يختلف هو الآخر مع قطرى فيقتله أحد القطريين .

وقد ضاعت سدى صرخات الشعراء الأزارقة الذين حاولوا الوقوف فى وجه الفتنة فأخفقوا وأعلنوا استنكارهم لما وقع كما فى هذه الأبيات التى تنسب إلى زيد ابن جندب الإيادى تارة وإلى الصلت بن مرة تارة أخرى والتى تقول :

قل للمحلين قد قرت عيونكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهرب
كنا أناساً على دين ففرقنا ... قرع الكلام وخلط الجد باللعب

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٨ .

ما كان أغنى رجالا ضل سعيهم ... عن الجدال وأغناهم عن الخطب
إنى لأهونكم فى الأرض مضطرباً ... مالى سوى فرسى والرمح من نشب[1]

ونجح عبد ربه وحزبه فى إخراج قطرى فيمن تبعه من جيرفت ، فخندق قطرى على باب المدينة واستمر يناوشهم قليلا ثم ارتحل إلى طبرستان ، واستطاع المهلب أن يهزم عبد ربه وأن يقضى على أتباعه قضاءً تامًّا وعاد إلى البصرة فدخلها دخول الفاتحين .

وكوفئ المهلب على نجاحه بولاية خراسان سنة ٧٨ هـ وقد تردد انتصاره على الأزارقة من أتباع عبد ربه فى شعر شاعره كعب الأشقرى من مثل قوله فى قصيدة يمدح فيها عبد الملك ويشيد بقومه من الأزد ، وإن لم يبخل على الخوارج بأن يشيد ببطولتهم .

سلوا أهل البطائح من قريش ... عن العز المؤيد أين سارا
ومن يحمى الثغور إذا استدرت ... حروب لا ينون لها غرارا
لقومى الأزد فى الغمرات أمضى ... وأوفى ذمة وأعز جارا
هم قادوا الجياد على وجاها ... من الأمصار تقذفن المهارا
بكل مفازة وبكل سهب ... بسابس لا ترون لها منارا
إلى كرمان يحملن المنايا ... بكل ثنية توقدن نارا
شواذب لم يثبن الثأر حتى ... رددناها مكلبة مرارا
ويشجرن العوالى السمر حتى ... ترى فيها عن الأسل ازورارا
غداة تركن مصرع عبد رب ... يثرن عليه من رهج عصارا
ويوم الزحف بالأهواز ظلنا ... نروّى منهم الأسل الحرارا
فقرت أعين كانت حديثاً ... ولم يك نومها إلا غرارا
صنائعنا السوابغ والمذاكى ... ومن بالمصر يحتلب العشارا
فهن يبحن كل حمى عزيز ... ويحمين الحقائق والذمارا

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥٠ .

طوالات المتون يصبن إلا ... إذا سار المهلب حيث سارا
فلولا الشيخ بالمصرين ينفى ... عدوهم لقد تركوا الديارا
ولكن قارع الأبطال حتى ... أصابوا الأمن واجتنبوا الفرارا[١]

وقد صور الشعراء الأمويون هزيمة الأزارقة فى مواضع كثيرة من شعرهم ، فهذا الطفيل بن عامر بن واثلة يصف ما أنزله المهلب بعبد ربه من العقاب ويصم قطرياً بالكفر والضلال فيقول :

لقد مس منا عبدَ ربٍ وجنده ... عقاب فأمسى سبيهم فى المقاسم
وما قطرى الكفر إلا نعامة ... طريد يدوى ليله غير نائم
إذا افرّ منا هارباً كان وجهه ... طريقاً سوى قصد الهدى والمعالم
فليس بمنجيه الفرار وإن جرت ... به الفلك فى لج من البحر دائم[٢]

ووجه الحجاج بعد ذلك جيشاً إلى قطرى فى طبرستان بقيادة سفيان بن الأبرد الكلبى ، وكان هذا الجيش من أهل الشام قد نجح وشيكاً فى القضاء على الشبيبية عند نهر دجيل ، وخف لمؤازرته إسحق بن محمد بن الأشعث فى جيش من أهل الكوفة ، وجعفر بن عبد الرحمن بن مخنف بجيش من الرى ، وسارت هذه الجيوش الثلاثة فى طلب قطرى مجتمعة حتى لحقوا به فى شعب من شعاب طبرستان فقاتلوه حتى تفرق عنه أصحابه ، وانجلت المعركة عن قتل قطرى وأخذ رأسه إلى الحجاج فأرسلها إلى عبد الملك .

واتجه سفيان بن الأبرد الكلبى إلى عبيدة بن هلال الذى تحصن فى جماعة من الأزارقة بقصر قوس حتى أحاط بهم ، وأمر مناديه فنادى « أيما رجل قتل صاحبه ثم خرج إلينا فهو آمن » وقد سخر عبيدة من سفيان فى أبيات له رفض فيها نداءه تقول :

لعمرى لقد قام الأصم بخطبة ... لذى الشك منها فى الصدور غليل

---

(١) الأغانى جـ ٣ ٥٩ — ٦٠ .
(٢) الطبرى جـ ٧ ص ٢٧٤ .

لعمرى لئن أعطيت سفيان بيعتى ... وفارقت دينى إننى لجهول
إلى الله أشكو ما ترى بجيادنا ... تساوك هزلى مخهن قليل
تعاورها القذّاف من كل جانب ... بقومس حتى صعبهن ذلول
فإن يك أفناها الحصار فربما ... تشحط فيما بينهن قتيل
وقد كن مما أن يقدن على الوجى ... لهن بأبواب القباب صهيل[1]

وواضح من الأبيات أن جيش الشام قد أطال الحصار وأحكمه حتى أجهدهم وأجهد جيادهم وتذكر الروايات أنهم أكلوا جيادهم ثم لم يجدوا بدًّا من الخروج إلى أهل الشام فقاتلوهم حتى قتلوا عن آخرهم وبعث برءوسهم إلى الحجاج .

وفى الوقت الذى كان فيه الأزارقة يهددون البصرة كان إخوان لهم من الخوارج المعروفين بالصفرية قد قدموا من ناحية الموصل يهددون الكوفة بزعامة صالح بن مسرح وكانت جمهرة هؤلاء الخوارج من ربيعة سكان هذه النواحى الواقعة على جانبى الدجلة وعلى الأخص من بنى شيبان بن بكر .

وكان صالح قد قام بتربية رفاقه تربية دينية وعسكرية طوال عشرين عاماً لم يتعجل فيها الخروج حتى كان صفر من سنة ٧٦ ﻫ فبدأوا يغيرون على النواحى القريبة فى دارا ونصيبين وسنجار فتصدت لهم قوات قيسية بعثها إليهم والى الجزيرة محمد بن مروان ولكنهم على الرغم من قلة عددهم الذى لم يتجاوز المائة والعشرين خدعوا الجيش القيسى المؤلف من ألف رجل عن نفسه وهزموه هزيمة منكرة فى سوق دوغان ولكنهم لم يصبروا فى لقائهم الثانى معه عند آمد فأخلوا أرض الجزيرة منحرفين ناحية الكوفة حيث وقعوا فى نفوذ الحجاج الذى أرسل إليهم جيشاً كوفيًّا من ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة الحارث بن عميرة الهمذانى والتقى بهم فى قرية المدبج من أرض الموصل فى جمادى الأول سنة ٧٦ ﻫ حيث انهزموا وقتل قائدهم صالح بن مسرح وآلت قيادتهم إلى قائد شاب خارق

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ٢٧٥ .

الشجاعة هو شبيب بن يزيد الشيبانى الذى اتجه بهم إلى الموصل واستطاع أن يفزع المنطقة ثم مضى إلى أرض جوخى مستغلاً طبيعتها الملائمة لما يشبه حرب العصابات واستطاع أن يهزم جيش الدولة مرتين فى خانقين والنهروان كما لم يتمكن جيش ثالث من أربعة آلاف رجل بعث به الحجاج بقيادة الجزل بن سعيد أن ينال أمامهم شيئاً فعزله الحجاج وولى مكانه سعيد بن المجالد الهمدانى ولكنه هزم أيضاً أمام شبيب ورفاقه هزيمة منكرة وتولى القائد السابق الجزل ابن سعيد قيادة الفل وإن لم يغن به شيئاً فأثبتته الجراحات فحمل مثخنا إلى المدائن .

ومضى شبيب فعبر الدجلة عند الكرخ ومزق فى طريقه جيشاً اعترضه ثم عبر الفرات إلى خفان يقتل من يعترضه ، وعندما خرج الحجاج للقائه بنفسه بظاهر البصرة تلقى نبأ ظهوره بأطراف الكوفة فعاد على وجهه إليها ليجد شبيباً فى مائتى رجل أمامها . ولما كان الليل دخل فى أصحابه الكوفة حتى انتهوا إلى السوق وشد شبيب حتى ضرب باب القصر وأتاح لزوجه غزالة أن تصلى ركعتين بمسجد الكوفة تحقيقاً لما كانت قد نذرت .

وقد أتاح شبيب بمراوغته وشجاعته لبعض شعراء الخوارج أن يسخروا من الحجاج كسخرية عمران بن حطان الشاعر الصفرى الذى طلبه الحجاج فكتب إليه عمران متهكماً بعجزه عن أن ينال غزالة التى دخلت وزوجها الكوفة فلم يقدر على مواجهتها وتحصن دونها مغلقاً عليه باب القصر ، تقول أبيات عمران :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ... ربداء تجفل من صفير الصافر

هلا برزت إلى غزالة فى الضحى ... بل كان قلبك فى جناحَىْ طائر

صدعت غزالة قلبه بفوارس ... تركت مدابره كإست الدابر[1]

وظل شبيب يناوىء جيوش الدولة ويهزمها واحداً إثر واحد فيما يشبه الأساطير

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٥ .

فقد هزم جيشاً ضخماً بقيادة زائدة بن قدامة الثقفى ، وقتل زائدة ثم أرهق جيشا تتبعه بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث حتى عزله الحجاج استبطاء ، وأحل محله عثمان بن قطن الذى لقى وجيشه هزيمة منكرة ، وعاد ابن الأشعث بفلول جيشه إلى الكوفة ، ونجح شبيب فى أن يضيع على الحجاج خراج مناطق واسعة وأن ينتهب دور الأموال فى طريقه وأن يضم إليه كل ساخط على الحجاج حتى كثر جنده وأتاحت له الميول الخارجية لمطرف بن شعبة والى المدائن وتحرجه من قتال الخوارج أن يستولى على المدائن ، وبهذا أصبح له مركز منيع استطاع منه أن يهزم جيشاً بقيادة عتاب بن ورقاء وأن يقتله كما مزق جيشاً آخر اعترضه ثم قطع الجسر وعسكر دون الكوفة من جديد حتى بنى مسجداً لزوجه وبات يهدد ملك الأمويين وينازعهم سلطانهم وإمارة المؤمنين كما جاء فى قول شاعره عتبان بن وصيلة الشيبانى فى أبيات وجه بها إلى عبد الملك :

ألا أبلغ أمير المؤمنين رسالة	وذو النصح لو يرعى إليه قريب
فإنك إن لا ترض بكر بن وائل	يكن لك يوم بالعراق عصيب
ولا صلح ما دامت منابر أرضنا	يقوم عليها من ثقيف خطيب
فإن يك منكم كان مروان وابنه	وعمرو ومنكم هاشم وحبيب
فمنا سويد والبطين وقعنب	ومنا أمير المؤمنين شبيب
فوارسنا من يلقهم يلق حتفه	ومن ينج منهم ينج وهو سليب (١)

وإزاء هذا كله لم يجد الحجاج بدًّا من أن يطلب جيشاً شاميًّا فأتاه جيش يقوده سفيان بن الأبرد الكلبى فى أربعة آلاف فى الوقت المناسب ، وشهد الحجاج بنفسه التقاء الفريقين وبرز فى القتال خالد بن عتاب بن ورقاء الذى ثأر لأبيه فقتلت غزالة وكان لنبأ مقتلها أثر سيء على شبيب الذى خاض معركة أخرى فى الأنبار انسحب على إثرها بقية فرسانه المخلصين بعد أن تخلى عنه جمهور رجاله متابعين مصقلة بن مهلهل الضبى الذى نافسه بسلطان صالح ابن مسرح .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٢٢٨.

وفكر شبيب فى اللحاق بالأزارقة فى كرمان فعبر دجيل عند الأهواز متجهاً إليهم ولكن سفيان تصدى له معترضاً طريقه وزاحفه شبيب نحواً من ثلاثين زحفاً واستمر القتال وامتد إلى الجسر حيث قاتل شبيب ببسالة إلى أن سقط غريقاً فى النهر .

ولم ينته على الرغم من تلك الهزيمة نشاط الصفرية وإن توقف نشاطهم قليلا فى عهد عمر بن عبد العزيز الذى سلك معهم سبيل اللين ومقارعة الحجة بالحجة ولكنهم استأنفوا عملهم فى عهد هشام بن عبد الملك فخرجوا فى جماعات قليلة العدد بقيادة بهلول بن بشر ثم بقيادة الصحارى بن شبيب واتخذ نشاطهم أسلوباً آخر فى إبان انهيار الدولة الأموية فقد عولوا على أسلوب الثورة الشاملة إذ ثار سعيد بن بحدل الشيبانى فى العراق بعد اغتيال الوليد الثانى ولكنه قضى نحبه بعد إعلان الثورة بقليل فخلفه الضحاك بن قيس الشيبانى ، ونجح فى الاستيلاء على أرمينية وأذربيجان وعلى الرغم من اتحاد واليّى العراق المتنابذين فى ذلك الحين على حربه فقد نجح أيضاً فى هزيمتهما معاً هزيمة منكرة ففر أحدهما وهو ابن الحرشى إلى مروان بن محمد بينما فر الثانى وهو ابن عمر بن عبد العزيز إلى واسط ولكن الضحاك استماله كما استمال القائد الأموى منصور بن جهور فدخلا فى طاعته وتوليا بعض أعماله وأسلما على عقيدة الخوارج وصليا خلف الضحاك حتى جعل بعض الشعراء يتندر بذلك فى قوله :

ألم تر أن الله أظهر دينه ... فصلت قريش خلف بكر بن وائل[(١)]

ولم يصل ابن عمر خلف الضحاك فحسب ، وإنما عمل له فأدار النصف الشرقى من دولته الشاسعة وكذلك انضم إلى الضحاك سليمان بن هشام بن عبد الملك بفرقته المعروفة بالذكوانية ، وتذكر الروايات أن جيش الضحاك صار قوامه مائة وعشرين ألف رجل تراجع أمامهم جيش يقوده عبد الله بن مروان بن محمد فأقبل الخليفة بنفسه لمواجهته وتمكن من قتله وهزيمة جنده .

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٦٢ .

وآلت قيادة الخوارج إلى الخيبرى . وخاض مع جند مروان معركة أشرف فيها على الانتصار ولكنه قتل فانخذل جنده ، وخلفه أبو دلف الشيبانى فناوش الأمويين أشهراً دون انتصار حاسم ، ولما سقطت الكوفة من أيديهم ، وحصروا بين جيش ابن هبيرة ، وجيش آخر بقيادة عامر بن ضبارة ، فروا إلى الأهواز حيث انضموا إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر وطاردهم مروان فتفرقوا وقتل أبو دلف فى قتاله مع أمير عمان سنة ١٣٤ ﻫ

وعلى الرغم من كثرة الحروب والوقائع التى خاضها الصفرية ضد الدولة فإن شعرهم لا يواكب هذه الأحداث أدنى مواكبة ، ويبدو أن سبب ذلك يرجع إلى أن أشهر شعرائهم وهما عمران بن حطان والطرماح بن حكيم كانا من القعد ولم يكونا يريان الخروج فلم يتح لهما اعتدالهما وقعودهما أن يشتركا فى حروبهم وأن يسجلاها ، ولسنا نجد فى شعرهما ذكراً لمواقع محددة إلا ما كان من تقريع عمران للحجاج على جبنه عن مواجهة غزالة وزوجها وكان مثلهما فى إيثار القعود حبيب بن حدرة الذى كان من أصحاب الضحاك ، وإن كان قد ندم على خذلانه لإخوانه فى رثائه لملحان الشيبانى عامل الضحاك على الكوفة ، إذ يقول :

كَأَين كملحان من شارأخى ثقة ... أو ابن علقمة المستشهد الشارى
من صادق كنت أصفيه مخالصتى ... فباع دارى بأغلى صفقة الدار
إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم ... أشكو إلى الله خذلانى وإخفارى[1]

وكانت آخر حركات الخوارج فى العصر الأموى حركة الأباضية التى نشأت بأخرة حول عبد الله بن أباض التميمى ، واستغلت مواسم الحج فى الترويج لمذهبها ، وكانت أولى حركاتهم فى جنوب الجزيرة العربية عندما خرج عباد الرعينى فى اليمن محكماً سنة ١٠٧ﻫ ثم أعقبه خروج عبد الله بن يحيى الكندى فى حضرموت لعهد مروان بن محمد .

وقد بويع عبد الله إماماً للخوارج الأباضيين سنة ١٢٩ﻫ ، ولقب بطالب الحق ، وزحف إلى اليمن حيث توقف بصنعاء ، وهناك جاءه الخوارج من كل

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٦٥ .

مكان ، وارتفع شأنه هناك بسبب تحببه إلى أهل اليمن ، ولعدم تشدده فى تعاليمه التى لا تكاد تختلف عن مذهب أهل السنة فى شىء إلا ما يذهب إليه من تكفير مرتكب الكبيرة . وقد اتخذ القرآن الكريم إماماً ودعا إليه وإلى سنة النبى .

ويرجع الفضل فى ارتفاع شأن الأباضية بوجه خاص إلى داعيتها وخطيبها وقائد جندها الفذ أبى حمزة الشارى الذى كان فى الواقع أهم من عبد الله ابن يحيى نفسه وقد قاد جيشاً قوامه ألف رجل بينهم عدد كبير من وجوه أهل اليمن . واتجه بجيشه إلى مكة فى موسم الحج سنة ١٢٩ هـ حيث اضطر الأمير الأموى عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك إلى الفرار أمامه ، وقد تحدث بذلك بعض شعراء الحجاز فنعى على الأمير جبنه وتقاعسه فى قوله :

زار الحجيج عصابة قد خالفوا ... دين الإله ففر عبد الواحد
ترك الإمارة والحلائل هاربا ... ومضى يخبط كالبعير الشارد
ترك القتال وما به من علة ... إلا الوهون وعرفة من خالد
لو كان والده تخيّر أمة ... لصقت خلائقه بعرق الوالد[1]

ومن المدينة بعث عبد الواحد بجيش قوامه ثمانية آلاف مقاتل بقيادة عبد العزيز بن عمر بن عثمان بن عفان ، وقد رغب أبو حمزة إليه عن القتال زاعماً أنه ليس من هدفه ، وأن هدفه الوحيد أن يمضى لقتال مروان بن محمد . ولكن عبد العزيز أبى عليه ذلك ، وأصر على قتاله فنزل أبو حمزة قديداً والتقى بجيش المدينة الذى ضم عدداً كبيراً من وجهاء قريش المتعجرفين فى ثيابهم الفاخرة ، ويبدو أنهم تصوروا الخوارج رعاعاً لن يلبثوا طويلا حتى يفروا أمامهم ، ولم يبدأهم أبو حمزة بقتال إلا بعد أن هاجموه ، فوثب بهم وثبة نكراء وامتلأ الميدان بجثث القرشيين ممثلى الحكومة الكافرة ، وبينما لم يسمح بمطاردة فل الجيش المدينى صب غضبه على القرشيين وقتل الأسرى منهم حتى لتعد معركة قديد بمثابة مذبحة للغطرسة الأموية ، وقد تركت قديد فى الشعر آثاراً

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٠ .

كثيرة ، وحزناً شديداً فى نفوس أهل المدينة وكانت النائحات ينحن فى المدينة بمثل هذا الشعر :

ما للزمان وماليه ... أفنت قديد رجاليهْ
فلأبكينّ سريرة ... ولأبكين علانيهْ
ولأبكينّ إذا خلو ... ت مع الكلاب العاويهْ
ولأثنينّ على قديدَ ... بسوء ما أبلانيه[١]

وقد فقد الأباضيون فى قديد فرساناً بكوهم بكاء حارًّا من مثل قول أبى حمزة إثر الموقعة :

يا لهف نفسى ولهف غير نافعة ... على فوارس بالبطحاء أنجاد
عمرو وعمرو وعبد الله بينهما ... وابناهماخامس والحارث السادِ[٢]

وقد صور شاعر الأباضية عمرو بن الحصين ما كان فى يوم قديد تصويراً بارعاً . وما كان من دخولهم مكة وقد استهل قصيدته باستشعار الهلع خوفاً من الموت قبل إتمام الجهاد فقال :

ما بال همك ليس عنك بعازب ... يمرى سوابق دمعك المتساكب
وتبيت تكتلئ النجوم بمقلة ... عبرى تسر بكل نجم دائب
حذر المنية أن تجىء بداهة ... لم أقض من تبع الشراة مآربى
فأقود فيهم للعدا شنج النسا ... عبل الشوى أسوان ضمر الحالب
متحدراً كالسيل أخلص لونه ... ماء الحسيك مع الجلال اللاتب
أرمى به من جمع قومى معشراً ... بوراً إلى جبرية ومعايب
فى فتية صبر تألفهم به ... لف القداح يد المفيض الضارب
فندور نحن وهم وفيما بيننا ... كأس المنون تقول هل من شارب؟
فنظل نسقيهم ونشرب من قنا ... سمر ومرهفة النصول قواضب[٣]

---

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٢ .
(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٠ .
(٣) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٣ .

ومن ثم أخذ يصف الخوارج وتقواهم ، وعباداتهم وصلاتهم وتلاوتهم وجهادهم فقال :

كم من أولى مقة صحبتهم شروا ... فخذلتهم ولبئس فعل الصاحب
متأوهين كأن فى أجوافهم ... ناراً تسعرها أكف حواطب
تلقاهم فتراهم من راكع ... أو ساجد متضرع أو ناحب
يتلو قوارع تمترى عبراته ... فيجودها مرى المرىء الحالب
سبر لجائفة الأمور أطبة ... للصدع ذى النبأ الجليل مدائب
ومبرئين من المعايب أحرزوا ... خصل المكارم أتقياء أطايب
عدوا صوارم للجلاد وباشروا ... حد الظباة بآنف وحواجب
ناطوا أمورهم بأمراخ لهم ... فرمى بهم قحم الطريق اللاحب
متسربلى حلق الحديد كأنهم ... أسد على لحق البطون سلاهب

ثم وقف عند المعركة وما كان من بلاء الشراة فيها ودخولهم مكة إثر انتصارهم فقال :

قيدت من اعلى حضرموت فلم تزل ... تنفى عداها جانباً عن جانب
تحمى أعنتها وتحوى نهبها ... لله أكرم فتية وأشايب
حتى وردن حياض مكة قطنا ... يحكين واردة اليمام القارب
ما إن أتين على أخى جبرية ... إلا تركنهم كأمس الذاهب
فى كل معترك لها من هامهم ... فلق وأيد علّقت بمناكب
سائل بيوم قديد عن وقعاتها ... تخبرك عن وقعاتها بعجائب[1]

وقد انفتح الطريق أمام أبى حمزة إلى المدينة فدخلها دون قتال وألقى من فوق منبر الرسول خطبته الشهيرة التى أشاد فيها برجاله الشبان وبتقواهم وتخبتهم وبسالتهم مستعرضاً كل الذين تولوا خلافة المسلمين مصدراً حكمه عليهم . وقد مكث فى المدينة قرابة ثلاثة أشهر جهد خلالها فى أن يستهوى الأفئدة إليه

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٣ .

ولكن مهمته كانت صعبة فى مجتمع كالمجتمع المدنى اللاهى فلم يستجب له إلا القليل وهو يتشدد فى أمر الكبائر كإمامه ويحرص أشد الحرص على رعاية القيم الدينية والأخلاقية .

وفى مستهل جمادى الأولى سنة ١٣٠ هـ زحف جيش شامى مكون من أربعة آلاف من القيسيين يقوده عبد الملك بن محمد بن عطية فى طريقه إلى المدينة . وذاع خبر هذا الجيش وبالغ أهل الحجاز فى تقدير قوته ومضى شعراؤهم يخوفون الخوارج ويتوعدونهم بمثل قول أبى صخر الهذلى :

قل للذين استضعفوا لا تعجلوا ... أتاكم النصر وجيش جحفل
عشرون ألفاً كلهم متسربل ... يقدمهم جلد القوى مستبسل
دونكمُ ذا يمين فاقبلوا ... وواجهوا القوم ولا تستخجلوا
عبد المليك القلبى الحول ... أقسم لا يفلى ولا يرجل
حتى يبيد الأعور المضلل ... ويقتل الصباح والمفضل[١]

ولما أيقن أبو حمزة بقدوم جيش ابن عطية خرج فى جنده ينتظره فى وادى القرى والتقى الجيشان وتضعضع الأباضيون أمام جيش الشام وقتل جمهورهم ، واستطاع أبو حمزة أن ينحاز فى ثلاثين رجلا إلى المدينة ثم فر منها إلى مكة بعد أن استخلف عليها رجلا من أعوانه يدعى المفضل ، ولكن أهل المدينة ثاروا بالمفضل بقيادة عمر بن عبد الرحمن بن أسيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ونجحوا فى هزيمة الشراة والانتقام منهم ثأراً بما لقوه على أيديهم يوم قديد حتى ليقول شاعرهم سهيل أبو البيضاء مولى زينب بنت الحكم بن العاص :

ليت مروان رآنا ... يوم الاثنين عشيه
إذ غسلنا العار عنا ... وانتضينا المشرفيه[٢]

وكان بين القتلى فى المدينة عبد العزيز بن بشكست النحوى فأنشد بعض

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٨ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٠٩ .

أهل المدينة فى ذلك :

لقد كان بشكست عبد العزيز من اهل القراءة والمسجد
فبعداً لبشكست عبد العزيز وأما القران فلا يبعد[١]

وفى مكة أقام أبو حمزة فى رجال قليلى العدد يدافعون عنها عبثاً ، والتقى بهم ابن عطية أسفلها ودارت معركة على فم الشعب قتل فيها أبو حمزة وقتلت امرأته مريم الجعيداء التى اشتركت مع زوجها فى القتال وكانت ترتجز بقولها :

أنا الجعيداء وبنت الأعلم من سال عن اسمى فاسمى مريم
بعت سوارىَّ بسيف مخذم[٢]

وصلب أبو حمزة مع من صلب من الشراة ، ثم زحف ابن عطية إلى الطائف ومنها إلى صنعاء حيث هزم عبد الله بن يحيى وقتله واستولى جيش الشام على صنعاء ثم على حضر موت ، وحمل رأس طالب الحق إلى مروان بن محمد ، وتغنى شاعر الأمويين بهذا الانتصار فقال أبو صخر الهذلى :

قتلنا دعيا والذى يكتنى الكنى أبا حمزة الغاوى المضل اليمانيا
وأبرهة الكندى حاضت رماحنا وبلجا صبحناه الحتوف القواضيا
وما تركت أسيافنا منذ جردت لمروان جباراً على الأرض عاديا[٣]

وقد رثى شاعر الأباضية عمرو بن الحصين إمامه طالب الحق وشيخه أباحمزة فى قصيدة طويلة استهلها بالبكاء على هذا النحو :

هبت قبيل تبلج الفجر هند تقول ودمعها يجرى
إن أبصرت عينى مدامعها ينهل واكفها على النحر
أنى اعتراك وكنت عهدى لا سربَ الدموع وكنت ذا صبر
أقذىً بعينك لا يفارقها أم عائر ؟ أم مالها تذرى ؟
أم ذكر إخوان فجعت بهم سلكوا سبيلهم على خير
فأجبتها بل ذكر مصرعهم لا غيره عبراتها تمرى

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١١٠ .
(٢) الأغانى ج ٢٠ ص ١٠٩ .
(٣) الأغانى ج ٢٠ ص ١١١ .

وخلص من ذلك إلى التحسر على أصحابه الشهداء متمنياً أن يسلك سبيلهم فى الشهادة وأخذ يشيد بسلوكهم وتقواهم و بسالتهم وكأنه ينظم خطبة أبى حمزة شعراً بقوله :

يا رب أسلكنى سبيلهم ذا العرش واشدد بالتقى أزرى
فى فتية صبروا نفوسهم للمشرفية والقنا السمر
تا لله ألقى الدهر مثلهم حتى أكون رهينة القبر
أوفى بذمتهم إذا عقدوا وأعف عند العسر واليسر
متأهلين لكل صالحة ناهون من لاقوا عن النكر
صُمُتٌ إذا احتضروا مجالسهم وزُنٌ لقول خطيبهم وقر
ألا تجيبهمو فإنهمو رجف القلوب بحضرة الذكر
متأوهون كأن جمر غضى للخوف بين ضلوعهم يسرى
تلقاهم إلا كأنهم لخشوعهم صدروا عن الحشر
فهمُ كأن بهم جوى مرض أو مسهم طرف من السحر
لا ليلهم ليل فيلبسهم فيه غواشى النوم بالسكر
إلا كذا خاسا وآونة حذر العقاب وهم على ذعر

وما يزال يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وانكبابهم على العبادة انكبابا لا ينامون معه إلا اختلاساً وآونة بعد أخرى ، ثم يعود إلى التفجع على أصحابه من شهداء الأباضية فيقول :

كم من أخ لك قد فجعت به قوّام ليلته إلى الفجر
متأوه يتلو قوارع من آى القران مفزع الصدر
نصب تجيش بنات مهجته من خوف جيش مشاشة القدر
ظمآن وقدة كل هاجرة ترّاك لذته على قدر
ترّاك ما تهوى النفوس إذا رغب النفوس دعت إلى النذر

ومضى بعد ذلك يشيد ببسالتهم فى القتال واحداً بعد واحد فذكر من رجال الشراة المختار وابن الحصين وبلج وأبرهة وعمرو والمسيب وذكر ما امتاز به

كل منهم من مهارة واقتدار ، وذكر غيرهم من الشراة الذين لم يسمهم بأسمائهم فقال :

فى مخبتين ولم أسمهم — كانوا يدىّ وهم أولو نصرى
وهم مساعر فى الوغى رجح — وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا — بعهود لا كذب ولا غدر
فتخالسوا مهجات أنفسهم — وعداتهم بقواضب بتر
وأسنة واثنين فى لدن — خطية بأكفهم زهر
تحت العجاج وفوقهم خرق — تخفقن من سود ومن حمر
فتفرحت عنهم كأنهم — لم يغمضوا عيناً على وتر
فشعارهم نيران حربهم — مابين أعلى الشحر فالحجر
صرعى فخاجلة تنوبهم — وجوامع لحمائهم تفرى[١]

وهكذا يخيل إلينا ونحن نقرأ قصيدة عمرو بن الحصين هذه أننا نقرأ فى خطبة أبى حمزة فى المدينة ، وهى قصيدة طويلة تبلغ خمسة وخمسين بيتاً . وهو طول نفس لم نعهده فى قصيدة ما للخوارج مما يجعلنا نعتقد أن ذلك يرجع إلى خصيصة فى الشاعر نفسه أتته من مزاجه الفارسى الواضح فى ميله إلى الاستقصاء والسرد القصصى .

ولعله اتضح لنا أن شعر الخوارج بعامة شعر قليل وأنه لم ينهض تماماً بتصوير وقائعهم . كما لم يستطيع أن يواكب أحداثهم مواكبة دقيقة ومفصلة وليس لذلك من سبب إلا أن الشعر لم يكن لديهم فنًّا ينقطعون له أو يتنافسون فى تجويده . وإنما هو تعبير عن مشاعرهم فى أحوال خاصة ، وهم فى تعبيرهم هذا لا يستمدون الأحداث الجزئية والوقائع المعينة ولكنهم يستمدون ينبوعاً واحداً ومبادئ واحدة ، ويتغنون بعاطفة واحدة وينزعون إلى هدف واحد قصروا شعرهم عليه .

وكان لهذا أثر واضح فى شعرهم تبين فى نسبة شعر بعضهم إلى البعض الآخر ،

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١١١ — ١١٣

هذا إلى أن حياتهم القائمة على الجهاد والحرب والانتقاض على الدولة ، ومناوءتها ، لم تفسح لهم فرصاً للإكثار أو الإطالة . وهم فى هذا أشبه ما يكونون بالشعراء الصعاليك الجاهليين أو بشعراء الفتوح الإسلاميين .

وما أرانا بحاجة إلى أن نعود فنكرر أن الاضطهاد الذى أصابهم قد أصاب شعرهم وكان له أكبر الأثر فى ضياع جزء كبير منه .

وبينما يقصر شعر الخوارج عن تسجيل الأحداث التاريخية تسجيلا دقيقاً فإنه لا يقصر فى تصوير إيمانهم بعقيدتهم ومبادئهم وأفكارهم تصويراً رائعاً وإن لم يصور شعرهم تلك العقيدة وهذه المبادئ والأفكار فى حد ذاتها أدنى تصوير كما رأينا وكما سنرى .

٢

يكاد شعر الخوارج كله يذهب فى عدة أغراض محددة يجمعها الجهاد فى سبيل العقيدة ، وقد ألهمهم هذا الجهاد وإن لم تلهمهم تلك المبادئ المجردة التى جاهدوا من أجل تحقيقها ، ولهذا فلسنا واجدين لديهم شعراً مذهبياً بمعنى الكلمة وإنما هو شعر يذهب فى مجموعه فى تصوير حروبهم وتمجيد أبطالهم وقوادهم والإشادة بشجاعتهم وتفانيهم فى الاستشهاد وطلب الثواب والجنة جزاء جهادهم واستعذاب فظائع ما يتكبدون زلفى إلى الله مطنبين فى تمجيد شهدائهم وتقديسهم.

ولم يذهب شعرهم هذا المذهب إلا لأنهم عاشوا حياتهم كلها يحاربون الجيوش الأموية طوال العصر ، وكأنهم عاشوا للقتال فحسب مستحلين دماء إخوانهم المسلمين وكان لزاماً أن تطبع هذه الحياة شعرهم بطوابع تميزه عن شعر الفرق الأخرى .

فشعرهم شعر ثوار ترافقهم السيوف فى حلهم وترحالهم مستعذبين الموت غير آبهين بالدنيا ولهذا فقد جاء شعرهم فى كثرته حماسياً ، ولكنها حماسة غير تلك الحماسة التى يعرفها الشعر العربى والتى تدفعها العصبيات القبلية القائمة على الذحول والثارات ، فهى حماسة من لون آخر ، يحركها تعصب شديد

لعقيدتهم التى تعمقوها مؤمنين بها إيماناً يفوق كل إيمان ، واثقين أنها وحدها هى العقيدة الصحيحة ، وأن كل من انحرف عنها فقد انحرف عن الإيمان إلى الكفر ، معتقدين بأن عليهم أن يرخصوا أنفسهم وأرواحهم فى سبيلها حتى يفوزوا برضوان الله وثوابه ، وعلى هذا التصور يصبح جهاد الجماعة الضالة عن العقيدة الصحيحة فريضة دينية واجبة ومقدسة .

ونكاد نشعر ونحن نقرأ فى أشعارهم بإيمانهم بأن الإسلام لا يتجاوز حدود معسكراتهم وأن من عداهم من المسلمين ضال ومحل وكافر كما فى قول سبرة بن الجعد فى حديثه عن نفسه :

رأى الناس إلا من رأى مثل دينه ملاعين ترّاكين قصد المخارج[١]

فزقوا بهذا التصور شمل الجماعة الإسلامية واقتضاهم هذا الاعتقاد أن تظل سيوفهم مشرعة فى وجه الجماعة أبداً ، وهذا غلو لاشك فى تطرفه ومجانبته لروح الاعتدال والقصد وكان الخوارج غالين أيضاً فى رفضهم للحياة الدنيا رفضاً تامًّا ، تلك الحياة التى أحبها غيرهم وانخدعوا بها وساروا فى طريقها . ولكن الخوارج باعوها وجاهدوها كما جاهدوا طلابها ووطنوا أنفسهم على طلب الشهادة فى ميدان الجهاد عن عقيدتهم ، فكان بينهم من إذا طعن فأنفذه الرمح جعل يسعى به إلى قاتله وهو يقول : وعجلت إليك رب لترضى[٢] ومنهم من استقبل الموت فى النهروان بقوله : حبذا الرواح إلى الجنة ، ولهم فى استصغار شأن الحياة والتهوين من أمرها أخبار كثيرة وشعر من ذلك ما أنشده رجل منهم قدمه الحجاج إلى القتل فقال :

ما رغبة النفس فى الحياة وإن عاشت قليلا فالموت لاحقها
وأيقنت أنها تعود كما كان براها بالأمس خالقها
يوشك من فر من منيته فى بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرماً والموت كأس والمرء ذائقها[٣]

---

(١) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٣ .
(٢) الكامل ص ٥٦٤ .
(٣) الكامل ص ٤٣ .

ويربط الطرماح بين تكفير كل من لم يسلك سبيل الخوارج ، وهو يعده من أهل النار ، بطلب الاستشهاد فيعد الاستشهاد الخلاص الوحيد لهؤلاء من عذاب الجحيم إذ يقول :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له ... إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد ... إلا المنيب بقلب المخلص الشارى(١)

وبهذه الصورة كان الموت قعصاً بالرماح أمنية كل خارجى حتى يفوز بالاستشهاد وبما عند الله من الثواب ، وتكاد رغبتهم فى الموت فى سبيل عقيدتهم تغلب رغبتهم فى تحقيق أهدافهم التى خرجوا انتصاراً لها وحتى ليصبح رفض الحياة وطلب الموت لديهم هدفاً يطلب لذاته لا يعتوره حزن أو أسف ، ولا يسلم إلى يأس ، حتى لنشعر أن الموت عندهم على هذه الصورة لون من ألوان الأمل وضرب من الأمانى لأنه لا يعنى لديهم غير دخول الجنة ولقاء الإخوان الأبرار الأتقياء الذين تقدموهم على الطريق .

ونحن نقرأ شعرهم فى هذا الموضوع فنشعر بأن الاستشهاد غاية تلتقى عندها أحلام الشراة ، يقول البهلول بن بشر :

من كان يكره أن يلقى منيته ... فالموت أشهى إلى قلبى من العسل
فلا التقدم فى الهيجاء يعجلنى ... ولا الحذار ينجينى من الأجل(٢)

ولكى ينال الخارجى هذه الغاية فهو حريص على التأهب لها تأهباً والعناية بها كما لا يعنى بالنصر أو الظفر ، من مثل قول يزيد بن حبناء الأزرقى :

أبيت وسربالى دلاص حصينة ... ومغفرها والسيف فوق الحيازم
أريد ثواب الله يوماً بطعنة ... غموس كشدق العنبرى بن سالم(٣)

وهم لا يكتفون بانتظار تحقق هذا الأمل وإنما يتعجلونه تعجلا يضيق بالحياة الدنيا ويتصورها جاثمة كالأزل لا تريد أن تزول وأن العيش أيضاً لا يريد أن ينقضى

(١) الديوان ص ١٤٩ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٢) أنساب الأشراف جـ ٨ ص ٢٣١ .
(٣) الكامل / ص ٥٦٥ .

وهم لهذا يتلومون السيوف التى لا تقربهم من حمامهم على الرغم من كثرة قراعهم وتعرضهم للأخطار كما فى قول قطرى بن الفجاءة :

إلى كم تعاريني السيوف ولا أرى   معاراتها تدعو إلىّ حماميا
أقارع عن دار الخلود ولا أرى   بقاء على حال لمن ليس باقيا
ولو قرب الموت القراع لقد أنى   لموتى أن يدنو لطول قراعيا[١]

وقريب من هذا قول زياد الأعسم الذى كان يشعر بمنتهى الملل من الحياة ويستبطئ زوالها فى قوله :

أقيم على الدنيا كأنى لا أرى   زوالا لها وأحسب العيش باقيا[٢]

وتدور أشعار كثيرة لهم على فكرة تعجل الموت واستطالة الحياة ، والحرص على التخلص منها بالاستشهاد الذى يحقق لهم هدفين فى وقت واحد هما اللحاق بالله سبحانه وتعالى واللحاق بإخوانهم السابقين ، وتدعى الشهادة عند بعضهم بالتقى كما فى قول أبى بلال مرداس بن أدية عند خروجه راغباً فى الاستشهاد ليحقق أهدافه :

أبعد ابن وهب ذى النزاهة والتقى   ومن خاض فى تلك الحروب المهالكا
أحب بقاء أو أرجى سلامة   وقد قتلوا زيد بن حصن ومالكا
فيا رب سلم نيتى وبصيرتى   وهب لى التقى حتى ألاقى أولئكا[٣]

فهو يخرج طلبا للاستشهاد حتى يلحق بعبد الله بن وهب ويزيد بن حصن وغيرهما من الذين سبقوه من رفاقه داعياً ربه أن ينيله طلبته فيقتل فى سبيل عقيدته ، وكذلك يقول الطرماح :

كيف أرجى الحياة بعدهم   وقد قضى مؤنسىّ فانطلقوا
قوم شحاح على اعتقادهم   بالفوز مما يخاف قد وثقوا[٤]

---

(١) أمالى المرتضى ج ٣ ص ٩٠ .
(٢) أنساب الأشراف ج ٧ ص ١٠٢ .
(٣) الكامل ص ٥٨٦ .
(٤) الديوان ص ١٥٧ ، الأغانى ج ١٠ ص ١٥٢ .

فهذه الفكرة بطبيعة الحال ليست إلا انعكاساً للثورة على الواقع السيء فإذا الموت يبرق لهم من مكمنه على أنه المخلص الوحيد ، وهو على هذه الصورة الرائعة من الاستشهاد أنجح الوسائل فى مقاومة الحياة السيئة والعيش الزائف ولا سبيل إلى الانتصار على هذه الحياة إلا بالموت الذى يخاصهم من الأذى كما يقول الطرماح فى صفة الشراة :

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما فى المصاحف[١]

ويذهب إلى نفس المعنى قطرى بن الفجاءة فى قوله :

وما للمرء خير فى حياة إذا ما عد من سقط المتاع[٢]

ولهذا كانوا يتعجلون هذا الخلاص ابتغاء للانتصار على هذه الحياة ، وهو انتصار لا يعدله لديهم انتصار آخر ، وفى هذا تبرير لما نراه من حرصهم الشديد على الموت حتى ليخيل إلينا أنه كان أشد من حرصهم على الظفر فى المواقع إذ أن الظفر بعدوّهم لم يكن ليخلصهم من سوءة الحياة مادام الأمر بتمامه لا يكون فيهم لكى يقيموا الحياة الحقيقية . بينما الظفر بالموت يتيح لهم انتصاراً حقيقيًّا يخلصهم من سوء الحياة وزيفها ولهذا نجد بعضهم يتمنى أن يسبقه عدوه إلى قتله كما فى قول معاذ بن جوين الطائى :

ويا ليتنى فيكم أعادى عدوكم فيسقينى كأس المنية أولا[٣]

وقد دار لهم شعر كثير حول فكرة السأم من الحياة ، والتهافت على حياض الموت كالفراش فى تهافته على النار ، وكأنهم يسعون جاهدين إلى اختصار المسافة بينهم وبين الموت المقرب من الله والإخوان وحتى لتبدو صورة الحياة فى شعرهم ملولة ومملة وحتى ليشعر الواحد منهم بالسآمة عندما يجد أن رأسه لا يزال فوق كتفيه ، لم يحمل عنه ثقله فتى من أعدائه لا فرق فى ذلك عندهم بين رجل وامرأة كما فى قول تلك الأزرقية الباسلة أم حكيم والتى ذكرت فى شعر قطرى ،

---

(١) الديوان ص ١٥٥ الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

(٢) شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٥٠ .

(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٠٧ .

وذكرت الروايات أنها كانت تتقدم الصفوف فى المعارك وهى تنشد :

أحمل رأساً قد سئمت حمله ْ   وقد سئمت دهنه وغسله ْ

ألا فتى يحمل عنى ثقله ْ (١)

وهكذا تستحيل الحياة لديهم ذميمة دنيئة مملة ولا خير فيها حتى ليتنكبها كل منهم زاهداً فيها طالباً الموت حتى يلتقى بالله وبإخوانه فى الجنان كما تصور ذلك أبياتاً للحويرث الراسبى تقول :

أقول لنفسى فى الخلاء ألومها   هبلت دعينى قد مللت من العمر

ومن عيشة لا خير فيها دنيئة   مذممة عند الكرام ذوى الصبر

سأركب حوباء الأمور لعلنى   ألاقى الذى لاقى المحرق فى القصر (٢)

وتكاد الأبيات تفصح عن صراع فى دخيلة الشاعر بين ميله للبقاء وحب العيش ورغبته فى الخلاص من الحياة ، وهو صراع لا يدل على شك الشاعر أو تردده فى اعتقاده بقدر ما يدل على صدقه فى موقفه من نفسه ، فهو إذن صراع إنسانى طبيعى لا يدينه إظهاره كما لا يسمو بغيره أن يستره ويخفيه . ويبلغ عمران بن قحطان الصفرى ذروة الشعور فى استبطائه الموت فى قوله :

أفى كل عام مرضة ثم نقهة   وينعى ولا ينعى ؟ متى ذا إلى متى ؟ (٣)

وحقًّا هو استبطاء للموت وليس استبطاء للاستشهاد إذ كان الشاعر من رءوس القعد الصفريين الذين لا يرون القتال ولا يخفون إليه ، وكأن هؤلاء القعدة قد رأوا فى طلب الموت قعصاً بالرماح غاية عسيرة على النفوس الإنسانية فثاروا على هذه الغاية وتغلب حب الحياة لديهم على الرغبة فى الخلاص منها ، وكانت نتيجة ذلك أن ظهر فى الشعر الخارجى نزوع إلى التلاوم النفسى بلغ عند البعض مبلغ الشعور بالخذلان ، كما يصور ذلك قول

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٦ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٧ ص ٨٧ .

(٣) شرح نهج البلاغة ج ٣ ص ٥٦ .

حبيب بين حدرة وقد ظن بنفسه التقصير لأنه لم يلحق بإخوانه الذين تقدموه :

إخوان صدق أرجيهم وأخذلهم   أشكو إلى الله خذلانى وإغفارى[١]

وهكذا كان أولئك الذين ضنوا بأرواحهم عن البذل فى ميادين القتال يقعون فريسة للإحساس بالذنب الذى يعصف بأمنهم للحياة ويجعلهم يضيقون بتلك الحياة التى آثروها ويتمنون الخلاص منها . وقد اشتد التلاوم أيضاً بين الخوارج المتشددين ممن لا يرى القعود اعتقاداً من بعضهم أن كل ما هو دون طلب الموت ولقائه مباشرة تقصير وتردد وجبن حتى لا يسلم البطل المراوغ منهم من أن يظن به الضعف والخور كما ظن ذلك أحد الخوارج بقائده قطرى بن الفجاءة فى تنقله من بلد إلى بلد إذ رأى فى هذه المراوغة إيثاراً من قطرى للسلامة مدفوعاً إليه بحبه للحياة الذى لم يبرأ منه فتوجه إليه باللوم على هذه المراوغة ، واضطر قطرى أن يدافع عن نفسه وأن يفسر موقفه بإزاء هذا الاتهام فقال :

«هربنا نريد الخفض من غير علة   وللحرب نار لا تفل ومخلب»

فقولا لأصحاب القران نصيحة   دعوا الظن إن الظن بالناس يكذب[٢]

وكذلك توجه إليه آخر عندما هم بالنزوح إلى كرمان بالأزارقة ، فندد به ونعى عليه أن يفر أمام الكفار والمبطلين وهو على الحق ، وكأنما يرميه بالتحير والشك فى اعتقاده ، كما خوفه من العار الذى يلحق به فى لجوئه إلى الفرار بقوله :

أيا قطرى الخير إن كنت هارباً   ستلبسنا عاراً وأنت مهاجر

فحتى متى هذا الفرار مخافة   وأنت ولى والمهلب كافر[٣]

وهكذا غلا الخوارج وبخاصة الأزارقة منهم فى رفض الحياة والتعلق بالموت ، ورأوا الاستشهاد غاية قصوى لجهادهم فى سبيل عقيدتهم كما يقول قطرى :

هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها   إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر[٤]

---

(١) الطبرى ج ٩ ص ٦٥ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٧ ص ٦١ .

(٣) الأخبار الطوال ص ٢٨٦ .

(٤) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .

وقد رأى الخوارج كل ما هو دون طلب الشهادة تقصيراً وجبناً لا يليقان بالخارجى الحق وقد جعلهم ذلك لا يبكون شهداءهم ، ولا يرثونهم بالصورة التى نجدها عند شعراء الفرق الأخرى إذ كان قتلهم يحقق فى رأيهم سعادتهم وغاية حياتهم ، وهى غاية طلبوها وسعادة حلموا بها ، ولذلك مضوا يمجدون قتلاهم ويسبغون عليهم صفات مثالية سامية ، مصورين استشهادهم زلفى إلى الله راسمين فيهم مثلا أعلى للتقوى والصلاح والانكباب على عبادة الله خوفاً من عذابه والترامى على حياض الموت طمعاً فى جنته وثوابه كما رأينا فى رثاء عمرو بن الحصين لشهداء موقعة قديد ، فهو ليس رثاء تقليديًّا تطيف به خيالات الحزن وتسكب فى أحنائه الدموع ، وإنما هو رثاء من لون جديد تطيف به خيالات الاطمئنان إلى إرادة الله ،والتسليم بقضائه وتمثل الشهداء فى تقواهم ،واحتذاؤهم فى بسالتهم وتمنى حظهم فى الشهادة والقرب من الله ، وهو لا يزال فى مرثيته الرائعة تلك يصور خشوعهم وخشيتهم من النار وتعبدهم وانحناء أصلابهم على أجزاء القرآن وقوارع الآيات حتى إذا مر أحدهم بآية فى ذكر الجنة بكى شوقاً إليها وإذا مر بآية قارعة من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، ويمضى فيصور انصرافهم عن الدنيا ولذاذاتها واحتسابهم أنفسهم لربهم حتى إذا أشرعت الرماح وسلت السيوف ورعدت الحرب بصواعق الموت تهافتوا على الاستشهاد شوقاً إلى الجنة .

ولا ريب فى أن هذه الصورة جديدة فى الرثاء تخالف ما ألفناه عند غيرهم من الشعراء فهم لا يبكون فيمن يرثونهم خلال المروءة التقليدية ، وإنما يبكون فيهم المثل الأعلى للخارجى كما يرونه من التقوى والصلاح والزهد فى الدنيا ومتاعها ، مصورين إقبالهم على الموت فى بسالة وشجاعة منقطعة النظير ، لأن ذلك يفتح أمامهم أبواب الفراديس فهو من ثم موت موصول بآمالهم فى حياة الخلد والرضوان. ولننظر فى بعض أبياته التى رثى فيها رفاقه من الأباضية الذين ذكرهم بأسمائهم لنر تلك الصورة التى يرسمها لهم ونستلهمها من النموذج المثالى للخارجى الحق . يقول :

كخليلك المختار أذك به … من مغتدٍ فى الله أو مر
خوّاض غمرة كل متلفة … فى الله تحتَ العنبر الكدر
ترّاك ذى النخوات مختضباً … بنجيعه بالطعنة الشزر
وابن الحصين وهل له شبه … فى العرف أنى كان والنكر
بشهامة لم تحن أضلعه … لذوى إخوته على غمر
طلق اللسان بكل محكمة … رآب صدع العظم ذى الوقر
لم ينكفل فى جوفة حزن … تغلى حرارته وتستشرى
ترقى وآونة يخفضها … بتنفس الصعداء والزفر
ومُخالطى بلجٌ وخالصتى … سم العدو وجابر الكسر
نكل الخصوم إذاهم شغبوا … وسداد ثلمة عورة الثغر
والخائض الغمرات يخطرفى … وسط الأعادى أيما خطر
بمشطب أو غير ذى شطب … هام العدا بذبابه يفرى
وأخيك أبرهة الهجان أخى الـ … حرب العوان ملقح الجمر
بمرشة فرع تثج دماً … ثج الغوى سلافة الخمر
والضارب الأخدود ليس لها … أحد ينهنها عن السمر
وولى حكمهم فجعت به … عمرو فواكبدى على عمرو
قوّال محكمة وذى فهم … عف الهوى متثبت الأمر
ومسيّب فاذكر وصيته … لا تنس أما كنت ذا ذكر
فكلاهما قد كان محتسباً … لله ذا تقوى وذا بر
فى مخبتين ولم أسمهم … كانوا يدىّ وهم أولو نصرى
وهم مساعر فى الوغى رجح … وخيار من يمشى على العفر
حتى وفوا لله حيث لقوا … بعهود لا كذب ولا غدر[1]

فهم فى أمر الله يخوضون الغمرات المتلفة ويتركون الكماة مخضبين فى دمائهم وليس لهم شبه فى شهامتهم ولا فى صفاء قلوبهم ونقاء صدورهم ولا

(١) الأغانى ج ٢٠ ص ١١٢ .

فى طلاقة ألسنتهم بالقرآن الحكيم ولا فى خلو ضمائرهم من الحقد والشحناء ، وهم سهام العدو سداد الثغرات وإخوان الحرب العوان وأصحاب الأفهام والعفاف واليقين ، وهم محتسبون فى سبيل الله ، أتقياء أبرار ، مساعر القتال وخيار من يمشى على الأرض والموفون بعهدهم لله دون كذب أو غدر . وهم فتية صبر على الكفاح مهرة فى النضال لا يجود الدهر بأمثالهم فى بسالتهم ولا فى وفائهم بذمتهم ولا فى عفتهم وتأهلهم لكل صالحة ونهيهم عن المنكر وصمتهم فى مجالسهم ووزنهم لقول خطيبهم وتقديرهم لما يسمعون من القول ، لا يتحدثون هذراً ولا ينطقون فى مجالس أذكارهم إلا رمزاً راجفى القلوب متأوهين كأن جمر الغضا يسرى فى ضلوعهم من خوف الله؛ كأن بهم جوى مرض أو مسهم طرف من السحر، وهم قوامون بالليل لا يلبسهم فيه غواشى النوم إلا سنات مختلسة ينفضون منها رءوسهم مذعورين ويظلون قائمين إلى الفجر يتأوهون من هول ما يقرأون من قوارع الكتاب مفزعى الصدر تجيش مهجهم بالخوف والظمأ ، وهم تراكون لما تهواه نفوسهم من الرغب لا يسرهم من عيشهم غير طعنة فى ثغرة النحر تنهمر معها دماؤهم تجرى(١) .

ولسنا نعرف شبهاً لهذا اللون من الرثاء وما يتضمنه من طلب الشهادة والتغنى بها والحرص عليها واتخاذها غاية فى سبيل الله إلا لدى شعراء الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام(٢) .

وتكاد تكون هذه الغاية محوراً تدور عليه حياة الشراة ، وشعرهم ، بل لا نظننا مغالين إذا قلنا إنها هى التى تكيف حياتهم وتسيّر على عسرها وغلوها سلوكهم ونشاطهم الفنى .

وانطلاقاً من هذه الغاية السامية ، تحولت كثرة شعر الخوارج الذى اتخذ الإنسان الخارجى موضوعاً ، عن الأغراض التقليدية للشعر العربى إلى أغراض جديدة تتحدد على أساس هذه الغاية السامية وبالقياس إليها فحسب سواء بسواء كما رأينا فى الرثاء .

---

(١) راجع الأبيات فى الأغانى ج ٢٠ ص ١١١ / ١١٢

(٢) انظر كتابنا : « شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام » ص ٢٧٤ وما بعدها.

فالمديح القديم تحول فى شعرهم ثناء بالشجاعة والتقوى على الجماعة الخارجية المثالية التى تحرص على الاستشهاد بدافع من روح التقوى المتطرفة ، وإذا أخذنا نقرأ فى شعرهم فلن نجد ثناء بغير هاتين الصفتين ، وهما تدوران فى شعرهم دوراناً واسعاً من مثل قول الطرماح بن حكيم فى تقواهم :

لله در الشراة إنهم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا
يرجِّعون الحنين آونة ... وإن علا ساعة بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوب واجفة ... تكاد عنها الصدور تنفلق
قوم شحاح على اعتقادهم ... بالفوز مما يُخاف قد وثقوا[1]

ومن طريف وصفهم بالشجاعة قول الطرماح متمنياً أن يحين أجله مجاهداً فى زمرتهم وأن يموت قعصاً فيصبح غذاء للنسور وتذرو الرياح العاصفة أعظمه كالهشيم .

أذا العرش إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومى سعيداً بعصبة ... يصابون فى فج من الأرض خائف
عصائبُ من شتى يؤلف بينهم ... هدى الله نزّالون عند المواقف
فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزالون عند التزاحف
فأقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمى ... كضغث الخلا بين الرماح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقيله ... دوين السماء فى نسور عواكف[2]

ويتجلى الربط بين هاتين الصفتين فى وضوح فى هذين البيتين اللذين تركهما سبرة بن الجعد فى أبيات أخرى للحجاج يعلمه بعودته إلى صف الخوارج والبيتان يقولان :

إلى عصبة أما النهار فإنهم ... هم الأسد أسد الغيل عند التهايج
وأما إذا ما الليل جن فإنهم ... قيام بأنواح النساء النواشج[3]

---

(١) ديوان الطرماح ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٢) ديوان الطرماح ص ١٥٥ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .
(٣) مروج الذهب جـ ٣ ص ١٨٣ .

وهذان البيتان يكادان يكونان شعاراً على الخوارج فهم فى نهار المعارك أسد قساة القلوب لا يرحمون أعداءهم ، فإذا ما جن الليل فإن هذه القسوة تستحيل رقة وخشوعاً وحياء من الله فإذا هم يشهقون وينشجون خوفاً من النار وحنيناً إلى الجنة .

وهكذا يرتبط الثناء عليهم بالبسالة والشجاعة بتقواهم ، بل إن شجاعتهم لتعزى إلى تقواهم كما تدل على ذلك أبيات عيسى بن فاتك الحبطى يوم آسك ، فلا يكاد الشراة ينتهون من صلاتهم حتى يثبوا إلى ظهور الجياد العتاق ويتجمعون ويحتشدون ثم يعملون سيوفهم فى الجند المرتزقة الذين استأجرهم بنو أمية ، وهم جند لا يدفعون عن عقيدة ، ولا يذبون عن حرمة مثلهم ، وهذا هو السبب الذى يبرر انتصار الفئة القليلة على الفئة التى تفوقها فى العدد أضعافاً مضاعفة :

فلما أصبحوا صلوا وقاموا ... إلى الجرد العتاق مسومينا
فلما استجمعوا حملوا عليهم ... فظل ذوو الجعائل يقتلونا
أ ألفا مؤمن فيما زعمتم ... ويهزمهم بآسك أربعونا
كذبتم ليس ذاك كما زعمتم ... ولكن الخوارج مؤمنونا
هم الفئة القليلة غير شك ... على الفئة الكثيرة ينصرونا[1]

فالخوارج فى شعرهم فرسان أتقياء لا يعرف لهم الشعر صفة أخرى ، ولم يثن عليهم إلا بهما ، وهذا معنى ما نقوله من أن المديح القديم قد تحول إلى ثناء بهاتين الصفتين فحسب ، ويخلو شعر الخوارج من المديح النمطى إلا فيما ندر ، وفى حالات خاصة ولا نكاد نجد لشاعر منهم فيه شيئاً سواء أكان فى الخوارج أم فى غيرهم ، وكان رفضهم للتقية وإعلانهم لمبادئهم والزود عنها جهاراً بحد السيف حفيظاً لهم من مديح الولاة والخلفاء وغيرهم من الناس . فهذا عمران ابن حطان يقف يرما على الفرزدق وهو ينشد مادحاً فيقول له :

أيها المادح العباد ليعطى ... إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم ... وارج نفع المنزل العواد

---

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٧٤ .

لا تقل فى الجواد ما ليس فيه　　وتسمى البخيل باسم الجواد[١]

فهم لا يرون أحداً خليقاً بالتفضل والرجاء غير الله الغنى فلا يسألون غيره ، ولا يتكلفون مدح إنسان بما ليس فيه انتجاعاً وتمدحاً .

وطبيعى أن يتحول الهجاء عندهم إلى نقض هاتين الصفتين اللتين قام الثناء بهما مقام المديح ، فكانوا يهجون أعداءهم بصفات الكفر والفجور والغدر والضلال والجبن والخور فهذا حبيب بن حدرة من أصحاب الضحاك بن قيس يرى كل من لا يدين بدين الخوارج عاصياً محلا متولياً للجبارين الذين يدعون إلى سبيل الضلال والهلاك فى قوله :

يارب إنهم عصوك وحكموا　　فى الدين كل ملعّن جبار
يدعو إلى سبل الضلالة والردى　　والحق أبلج مثل ضوء نهار[٢]

وهم دائماً يرمون أعداءهم بالكفر ، ويستبيحون دماءهم ، وكثيراً ما يلجأ شاعرهم إلى عقد مقارنة بينهم وبين أعدائهم كما فى قول قطرى بن الفجاءة :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا　　تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم　　بجنات عدن عنده ونعيم[٣]

وأعداؤهم ملاحدة غادرون بينما هم صالحون مخبتون مطهرون كما فى قول امرأة منهم فقدت ابنها فى وقعة دولاب :

الله أيد عمراناً وطهره　　وكان عمران يدعو الله فى السحر
يدعوه سرًّا وإعلاناً ليرزقه　　شهادة بيدى ملحادة غدر[٤]

وكان لوم الخوارج المنحرفين لا يخرج بهم عن دائرة الإيمان ، وإنما يُرمون بأن الدنيا قد خدعتهم وغرتهم فالتوت بهم عن مبدئهم فانخذلوا وخذلوا رفاقهم ، فعندما خذل سبرة بن الجعد مبدأه ، وصار نديماً للحجاج يتردد عليه فى قصره ،

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ٥ .
(٢) الكامل / ص ٥٧٨ .
(٣) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .
(٤) الأغانى جـ ٦ ص ٤ .

تلومه قطرى بن الفجاءة على هذا الخذلان ، ولمنادمته لعدو عقيدته الذى لا ينى يحارب إخوانه ويغرى بهم قائده المهلب فيطاردهم فى كل مكان وكتب قطرى إلى سبرة بأبيات منها قوله :

لشتان ما بين ابن جعد وبيننا	إذا نحن رحنا فى الحديد المظاهر
نجاهد فرسان المهلب كلنا	صبور على وقع السيوف البواتر
وراح يجر الخز عند أميره	أمير بتقوى ربه غير آمر
أباالجعد أين العلم والحلم والنهى	وميراث آباء كرام العناصر؟
ألم ترأن الموت – لا شك – نازل	ولا بد من بعث الألى فى المقابر
حفاة عراة والتراب لديهم	فمن بين ذى ربح وآخر خاسر
فإن الذى قد نلت يفنى وإنما	حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتكُ مغضباً	على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتبْ توبة تهدى إليك شهادة	فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسرْ نحونا تلق الجهاد غنيمة	تفدك ابتياعاً رابحاً غير خاسر
هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها	إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر(١)

وقطرى هنا يقارن بين سبيل الخوارج والسبيل التى التوت بسبرة عن مبدئه ، فراح مفتونا بالدنيا يجرجر أذيال متاعها الزائل عند أمير فاجر مباعداً بين نفسه وبين ما عليه إخوانه الشراة الذين يجاهدون الفئة الضالة فى صبر وجلد مؤمنين بأن الموت حتم وبأن البعث حق فشتان ما بين الخلود الذى يدقون بابه بسيوفهم والدنيا الفانية التى ابتاعها سبرة بانحرافه وخذلانه وهو لم يصل بعد إلى حد الكفر فهو عاص فحسب يمكنه إذا ثاب وأناب أن يهتدى إلى طريق الصواب فيرزقه الله الشهادة ، وهى تجارة لن تبور بل هى الغاية القصوى لما يتمناه الشارى الحق من ثواب الله إذا ما ابتغى غيره ما يفنى من متاع الدنيا وزينتها .

ولم يكد سبرة يقرأ هذه الأبيات حتى بكى وركب جواده واتخذ سلاحه فلحق بقطرى وطلبه الحجاج فما قدر عليه . ولم يرعه إلا كتاب قطرى وقد سجل سبرة

---

(١) مروج الذهب ج ٣ / ص ١٨٣

فى أسفله أبياتاً تقول :

فمن مبلغ الحجاج أن سميره قلى كل دين غير دين الخوارج
رأى الناس إلا من رأى مثل دينه ملاعين تراكين قصد المخارج
فأقبلت نحو الله بالله واثقاً وما كربتى غير الإله بفارج[١]

وقد تعرض بعض الخوارج ممن كان يرى القعود لغضب الأزارقة الذين لايجيزونه ، ولكنه غضب لا يتحول إلى هجاء بمعنى الهجاء وإنما هو غضب يقف عند اللوم والاعتذار ونحس فى هذا اللوم معنى الحرص على الملوم والإبقاء عليه ، فقد كانوا يحسون بتعاطف وتراحم قويين بينهم ويصور ذلك ما رواه المبرد من أن أبا خالد القنانى استحب القعود فلامه قطرى بن الفجاءة بقوله :

أبا خالد يا أنفر فلست بخالد وما جعل الرحمن عذراً لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهدى وأنت مقيم بين لص وجاحد[٢]

وقطرى يحمسه هنا ويستحثه على الخروج والهجرة عن ديار الكافرين ، ولكن أبا خالد يعتذر بخشيته على بناته الضعاف اللائى سيتعرضن من بعده لقسوة الحياة فكتب إليه معتذراً بقوله :

لقد زاد الحياة إلى حباً بناتى أنهن من الضعاف
أحاذر أن يرين الفقر بعدى وأن يشربن رنقا بعد صافِ[٣]

وهكذا يتخذ الهجاء لديهم لوناً جديداً ، فإذا هو بالنسبة لأعدائهم هجاء حاد بالكفر والإلحاد والضلال ومجافاة روح الإسلام ، أما إذا كان فيما بينهم فهو نقد لروح التخاذل والإخلاد إلى الدعة ، وحض على الاستمساك بمبادئهم والذود عنها بالسلاح مع التذكير بفناء الدنيا وزوالها والإشادة بما أعده الله للمخلصين فى نصرة عقيدتهم والاستشهاد دونها من ثواب وأجر . وطبيعى أن يفخر

(١) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩ .
(٣) المرجع نفسه .

الخارجى بتقواه و بشجاعته وأن يتحول الفخر التقليدى فى شعره إلى إشادة بالذات الخارجية المؤمنة الباسلة وبإيثارها وتضحياتها من أجل المبدأ وفخرها بما قدمت فى سبيله من مثل قول قطرى بن الفجاءة يوم دولاب مفتخراً بشجاعته إلى أم حكيم :

فلو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير لئيم[١]

ولا يلبث حتى يفخر على الكفار بجماعة الخوارج المؤمنة التى باعت نفوسها لله فى مقابل جنته ونعيمه ويفخر باستحلالهم لحرمات أعدائهم بقوله :

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم[٢]

ففخرهم إذن لا يخرج عن دائرة الإيمان والشجاعة فى مجموعه ، لكننا لا نعدم أن نجد منهم من يفخر بقبيلته وينجرف فى الخصومات القبلية المستعرة ، كما يتجلى ذلك فى شعر الطرماح وفخره على تميم بقومه من اليمن ، وهى حالة خاصة به ليس من العدل أن نسحبها على شعر الخوارج جميعه ، كما ذهب إلى ذلك بعض الباحثين فوصف الخوارج فى كثرتهم بالعصبية بدعوى أن حزب الخوارج ضم منذ نشأته عنصراً عديداً ومؤثراً من الأعراب الذين لم ينسوا عصبياتهم بعد[٣] . وفى الحق ، أن الإحساس الدينى المتطرف الذى تميزت به روح الخوارج لم يسمح لأى إحساس قبلى أو جنسى بالبروز إلى جواره إلا عند الطرماح بالذات وهو لا يصلح أن يكون نموذجاً أو مثالا على الخوارج لأنه لا يمثل تلك الروح الخارجية تمثيلا صادقاً بانزلاقه إلى المشاركة فى المنازعات القبلية والتعصب لقومه على تميم وإسرافه فى هجائها وتكالبه على جمع المال واستخلاصه والاعتداد به مما يتجافى وروح الخوارج التى نعرفها لهم .

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .   (٢) نفس المرجع .
(٣) انظر : أدب الخوارج ص ١٠٠ .

ويمكننا بعد استبعاد شعر الطرماح فى العصبية أن نزعم أن العصبيات القبلية والجنسية قد فنيت فى عقيدتهم المذهبية فناء تامًّا ، وليس أدل على ذلك من أن بنى تميم والأزد كانوا يقاتلون ويهجون بنى قرابتهم فى جيوش الحكومة الأموية ، وأن الشاعر الأباضى المولى عمرو بن الحصين نسى فارسيته وجنسيته القومية فى سبيل مذهبه حتى خلا شعره تماما من كل أثر لجنسيته إلا ما كان من الآثار الفنية التى لا تخفى فى شعره من حيث الصياغة والأداء .

ونستطيع أن نزعم بأن الموضوعات الشعرية التقليدية قد تحولت فى شعر الخوارج إلى موضوعات جديدة يقوم مقام المحور الذى تدور عليه تلك الغاية السامية التى استهدفوها فلم يستلهموا غير مبادئهم وإيمانهم وقصروا فنهم الشعرى على أنفسهم فلم يمدحوا غيرهم واقتصر رثاؤهم على إخوانهم وأصدقائهم الذين قتلوا فى سبيل عقيدتهم ، ومضى هجاؤهم لأعدائهم يرمونهم بالكفر والضلال والبعد عن روح الإسلام وتعاليمه وحقيقته بينما كان لرفاقهم نقدا لروح التخاذل عندهم ، وكانت عناصر هذه الموضوعات جميعا لا تخرج عن إثبات الصفتين اللتين اتصف بهما الخوارج عملا من التقوى والشجاعة فى المدح والفخر والرثاء ونقضهما فى هجاء الأعداء وفى الدعوة للاستمساك بهما فى نقد سلوك المنحرفين من رفاق العقيدة والمذهب .

وفضلا عن هذه الموضوعات العريضة نجد فى شعرهم أثارة من غزل طفيف يتوجه به الخارجى إلى حليلته فى سياق الفخر بانتصاره لعقيدته وذوده عنها معلقاً عليه أسباب تعلقه بالحياة كما فى قول قطرى :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش ما لم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر غير حليم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير لئيم(١)

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .

وبينما نجد قطريا يذهب إلى أن حياته قمينة بأن يزهد فيها بدون أم حكيم نجد عمران لا يهنأ بحياة الخفض فى ظل حبه لزوجه ولا يأمن لهذه الحياة ما دام الموت قائماً له بالمرصاد ، يتربص به . وهى فكرة تفزعه حتى تدفع به إلى أن يلوذ بنفسه فحسب وأن يشغل بها عن العناية بزوجه أو مواساتها ، فكل شىء باطل ما دام آخرته الموت ولا يليق بمن يؤمن بحتمية الموت أن يذوق خفض العيش ولا أن يطمح به الأمل فيغتر بعيشه ، حتى لا يفجعه الأجل وما وراءه من خطب جلل ، حيث يفر المرء من أخيه وصاحبته وبنيه ، لكل امرئ يومئذ شأن يغنيه ، يقول عمران مخاطبا زوجه جمرة :

ياجمر ياجمر لايطمح بك الأمل	فقد يكذب ظن الآمل الأجل
ياجمر كيف يذوق الخفض معترف	بالموت ، والموت فيما بعده جلل
كيف أواسيك والأحداث مقبلة	فيها لكل امرئ عن غيره شغل[1]

وكأنما كانت جمرة تقف والموت متقابلين فى نفس عمران فيثير هذا التقابل نغمة شجية حزينة عندما يرتطم فى نفسه إحساسان عميقان ، أولهما مثالى يتجلى فى رفض الحياة الفانية واحتقارها والرغبة فى الموت من أجل العقيدة اقتداء بمن تقدموه ، ويتجسد هذا الإحساس فى أبى بلال مرداس بن أدية وثانيهما إنسانى واقعى يبدو فى حب زوجه الجميلة التى كان وجودها يزين الحياة فى ناظريه وطبيعى أن يتخلف عن هذا الارتطام أسى وتفجع وحزن ولا يزال الإحساس الأول يضنيه ويتراءى له مهما تخايلت الدنيا أمامه متجسدة فى زوجه الجميلة ، فإذا هو يصيح بها : ألا سبيل إلى حياة الخفض ما دام الناس يموتون كما مات مرداس وغير مرداس ، وأن عليها إذا لم تعترف بهذه الحقيقة أن ترحل إلى أرض أهلها لا يموتون :

إن كنت كارهة للموت فارتحلى	ثم اطلبى أهل أرض لا يموتونا
فلست واجدة أرضا بها بشر	إلا يروحون أفواجا ويغدونا
ياجمر قد مات مرداس وإخوته	وقبل موتهمُ مات النبيونا
يا جمر لو سلمت نفس مطهرة	من حادث لم يزل يا جمر يعيينا

(١) الأضداد ص ٧٥ .

إذا لدامت لمرداس سلامته   وما نعاه بذات الغصن ناعونا

ولا يمكن أن يكون هذا الشعر غزلا مما تألف ، وكأنما طغت العقيدة على نفوسهم وقلوبهم فلم يعد فيها مكان للمرأة يتغزلون فى مفاتنها ومحاسنها ولكنها تثير فى نفوسهم إحساسا بالتقابل بين الحياة الزائفة الفانية وما أعده الله بعدها من خلود فى الجنان أوفى السعير . وكان هذا يقودهم إلى مزيد من التأمل ويمسح على شعرهم فى المرأة بأسى عميق وصادق .

وهكذا يختلف شعرهم عن شعر غيرهم من حيث نظرتهم إلى المرأة ، وليس شك أن تختلف نظرتهم إلى المرأة عن نظرة الغزلين جميعا أولئك الذين كانوا يرون فى المرأة كائنا جميلا محببا فحسب فقد كان للمرأة فى حياة الخوارج العملية أثر كبير نحسه فى شعر عمران عن جمرة وفى شعر قطرى عن أم حكيم وكانت المرأة تلعب فى تاريخهم دائما دورا عمليًّا خطيرا إذ نزلت ميادين القتال وتحملت عسف الولاة وبطشهم .

٣

استلهم شعر الخوارج جهادهم وإن لم يستلهم المبادئ التى خرجوا للجهاد فى سبيلها ، ولهذا كنا لا نجد لهم شعرا مذهبيًّا بمعنى الكلمة كما رأينا ذلك فى شعر شاعر كالكميت الزيدى .

وقد يبدو غريبا أن يعجز الخوارج — وهم أول من فتح ميدان الفقه والفلسفة الدينية فى تاريخ الفكر الإسلامى — عن نقل مبادئهم وتعاليمهم إلى ميدان الشعر . فلم يتحول الشعر لديهم كما تحول لدى الكميت إلى مجالات العقل والمنطق باستدلالاته وحججه وبراهينه وإنما ظل يدور فى مجاله العاطفى تعبيرا عن الذات وما يعتلج فيها من عاطفة ومشاعر وأحاسيس .

وفى اعتقادنا أن السبب فى ذلك يكمن فى طبيعة الخوارج المتشددة فى إيمانها إلى حد التطرف والغلو بل إلى حد التعصب الشديد . وهى طبيعة لا تميل — بطبيعة الحال —

إلى أن تسلك سبل المنطق ، ولا تتفق اتجاهاتها ووسائله ولا تميل بحكم ميلها العاطفي إلى اصطناع أدواته .

فهي طبيعة عاطفية مغرقة في الروحانية نظرا لتعلقها بمثل أعلى للإيمان والعقيدة وبينما كان سلوكهم حماسيًّا متأثرا مندفعا ، كان دعاؤهم يستند أيضا إلى الحماسة والتأثير العاطفي الذي لا يحفل بالمنطق أو بالفكر ولا تدعمه غير العواطف الملتهبة الصادقة ، حتى كان كلامهم أسرع إلى قلوب الناس من النار إلى اليراع وحتى ليكاد يقع في خاطر من يستمع إليهم أن الجنة ما خلقت إلا لهم وحتى يخشى الخلفاء من أن تفسد ألفاظهم رعاياهم .

وهم لم يكونوا يخاطبون العقول والأفهام ولا يعنون بالقصد إليها وإنما اتجهوا بدعائهم إلى القلوب فعالجوها بوسائل التأثير العاطفي ، وجاء شعرهم لهذا تعبيرا عن شعورهم لا عن عقائدهم إذ ليس في مقدور من يقرأ أشعارهم أن يستخرج منها عقائدهم وإنما يستطيع فحسب أن يتبين قوة مشاعرهم الدينية وأن يرى خلالها صورتهم المثالية وما تميزوا به من طول تعبد وأن يرى جباههم التي قرحها طول السجود وأن يسمع زفراتهم وشهيقهم وهم يتلون القرآن حتى مطلع الفجر وأن يعاين بريق سيوفهم واشتراع رماحهم حتى عند أولئك الذين آثروا القعود منهم أو الذين شغلوا عن العقيدة بمسائل أخرى كالطرماح .

وتتميز مشاعرهم بحرارة الإيمان الذي لا يعرف الدرس والتمحيص أو التعليل والتحليل ، فهو إيمان قوي في بساطته جميل في سذاجته دون حجاج أو استدلال أو اصطناع لأدوات الفكر والمنطق ولهذا كنا نرى عنايتهم في تأييد مذهبهم تنصب على الأسلوب العاطفي الخطابي والتقريري .

ونكاد نعتقد أن خلافاتهم الفقهية التي دارت بين فرقهم لم يكن لها من هدف سوى خدمة نشاطهم العملي في الجهاد وفي توجيه حروبهم وحياتهم . فلم تظهر في شعرهم إلا نادراً وإن ظهرت كان ظهورها وسيلة لتصوير إيمانهم بها فحسب .

ولهذا فإننا نقول إن شعرهم كان مرآة صادقة لمشاعرهم وعواطفهم لا لمبادئهم ومعتقداتهم .

فعندما يثنى عمران بن حطان على ابن ملجم لقتله على بن أبى طالب ويعده أوفى البرية عند الله ميزانا نراه يبرر صنيعه ويرضى عنه تبريرا عاطفيًّا محضا قوامه أن عليًّا شر الخلق وحسب ، دون أن يفكر فى تبرير ذلك تبريراً عقائديًّا أو عقليًّا وكان يمكنه أن يتحدث فى هذا المجال عن خطأ على فى قبول التحكيم وعن تصورهم لتحيره وشكه وغير ذلك مما يدخل فى إطار تصورهم للمسألة التى كانت سببا فى نشأة فرقتهم ولكنه يكتفى من كل ذلك بهذا التبرير العاطفى الساذج الذى يظهر فى قوله :

يا ضربة من شقى ما أراد بها　　إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبه　　أوفى البرية عند الله ميزانا
لله در المرادى الذى سفكت　　كفاه مهجة شر الخلق إنسانا[1]

ومثله فى هذا كل شعراء الخوارج فى دفاعهم عن عقيدتهم لا يزيدون على تقرير ما آمنوا به فحسب حتى إنهم لا يزالون يبدأون ويعيدون فى معانيهم ، ولولا ما يتدفع فيها دائما من صدق العاطفة وحرارة الشعور لأحسسنا ونحن نقرأ شعرهم بغير قليل من السأم .

وهذا هو السبب فى أن شخصياتهم الشعرية قلما تمايز أو تتباين ، وكأنما هى صور متعددة من نمط واحد ، فليس هناك فرق كبير بينهم فى المعانى ولا فى الصياغة حتى ليبدو صورا متشابهة ، ومن ثم أشكلت نسبة كثير منه إلى أصحابه الحقيقيين ووقع الأقدمون فى ذلك ، وخير مثال على هذا تلك القصيدة التى ذكرنا أبياتا منها فى وقعة دولاب ، فقد نسبها المبرد لقطرى بن الفجاءة[2] بينما ذكر صاحب الأغانى أن المدائنى ينسبها إلى صالح بن عبد الله العبشمى ، وأن ابن خداش ينسبها إلى عمرو القنا كما أن وهب بن جرير ينسبها إلى حبيب ابن سهم[3] ، ويذكر أبو الفرج أيضا أن الهيثم بن عدى ينسبها إلى عمرو القنا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٥ خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٣٦ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩　　(٣) الأغانى جـ ٦ ص ٥

بينما ينسبها أبو مخنف إلى عبيدة بن هلال اليشكرى[١] وتذكر القصيدة فى صور مختلفة من حيث ترتيب أبياتها وبعض عباراتها ، وهى حسب رواية المبرد تجرى على هذا النحو :

لعمرك إنى فى الحياة لزاهد ... وفى العيش مالم ألق أم حكيم
من الخفرات البيض لم ير مثلها ... شفاء لذى بث ولا لسقيم
لعمرك إنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم
ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم
غداة طغت علماء بكر بن وائل ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها ... وأحلافها من يحصب وسليم
وظلت شيوخ الأزد فى حومة الوغى ... تعوم وظلنا فى الجلاد نعوُم[٢]
فلم أر يوما كان أكثر مقعصاً ... يمج دما من فائظ وكليم
وضاربة خداً كريما على فتى ... أعز نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطنا ... له أرض دولاب ودير حميم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا ... تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم ... بجنات عدن عنده ونعيم[٣]

والإقواء فى البيت السابع بيّن مما يجعلنا نرجح أن البيت قد أضيف إلى القصيدة بدليل ذكر الأزد فيه ، ويروى المبرد بيتا آخر لا نجده فى رواية أبى الفرج يقول :

فواكبدا من غير جوع ولا ظما ... وواكبدا من وجد أم حكيم

هذا ، بينما لا نجد فى رواية المبرد تلك الأبيات الثلاثة التى تستهل بها القصيدة فى رواية أبى الفرج وهى :

إذا قلت تسلو النفس أو ينتهى المنى ... أبى القلب إلا حب أم حكيم

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٢ .
(٢) (كذا).
(٣) الكامل ص ٥٢٩ .

منعمة صفراء حلو دلالها أبيت بها بعد الهدو أهيم
قطوف الخطا مخطوطة المتن زانها مع الحسن خلق فى الجمال عميم[1]

وواضح أيضا ما فى البيتين الثانى والثالث من الإقواء ، وهما يتفقان مع البيت السابع الذى لاحظنا عليه الإقواء فى رواية المبرد فى حركة الضم ، بينما تتفق الأبيات جميعها فى الروايتين من حيث انتهاء رويها بحركة الكسر .

ونجد بقية الأبيات وقد نالها تغير واضح فى رواية الأغانى عن صورتها فى رواية المبرد ، فالبيت الثالث فى رواية المبرد الذى يقول :

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر جد لئيم

يروى فى رواية الأغانى هكذا :

لعمرك إنى يوم ألطم وجهها على نائبات الدهر غير حليم

والبيت الرابع فى رواية المبرد الذى يقول :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير ذميم

يرويه أبو الفرج على هذا النحو :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت طعان فتى فى الحرب غير لئيم

وكذلك تتغير صورة البيت الخامس فيحذف عجزه فى رواية المبرد ليصير عجزا للبيت السادس بينما يحذف صدر البيت السادس فى رواية المبرد ، وتضيف الرواية صدراً للبيت غير موجود عند المبرد ، ويصير صدر البيت السادس فى رواية المبرد صدرا للبيت السابع فى رواية الأغانى بينما يحور صدر البيت السابع فى رواية المبرد ليصير عجزا للبيت السابع على ما به من إقواء — فى رواية الأغانى هكذا :

غداة طفت علماء بكر بن وائل وألافها من حمير وسليم
ومال الحجازيون نحو بلادهم وعجنا صدور الخيل نحو تميم
وكان لعبد القيس أول جدها وولت شيوخ الأزد فهى تعوم[2]

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٢ .

(٢) الأغانى جـ ٦ ص ٥ .

ونحن أمام هذه الروايات المختلفة نميل إلى الظن بأنه كانت هناك قصيدتان جاء فيهما ذكر أم حكيم متحدتان فى الوزن والقافية ولكنهما مختلفتان فى حركة الروى بين الكسر والضم ، وأن أبياتهما قد تداخلت بسبب وهم الرواة لاتحاد الوزن والقافية ودوران الأبيات حول معركة دولاب وذكر أم حكيم فيهما ، ويؤكد ذلك قول أبى الفرج « ولبعض الشراة قصيدة فى هذا الوزن وعلى هذه القافية ، وفيها ذكر لأم حكيم هذه أيضا »[١] .

وعلى هذه الصورة أشكلت نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين . وما هذا إلا لعدم تميز شخصياتهم أو تباينها حتى ليبدو شعرهم وكأنه صور متعددة من نمط واحد ، وسبب ذلك فناؤهم فى عقيدتهم وتطرفهم جميعا فى الإيمان بها ، وخضوعهم لسلطانها وقصرهم اهتمامهم عليها ، فاتحد لذلك معينهم الذى نهلوا منه جميعا ، وتأثروا شعورا مشتركا وأحداثا واحدة مما ساعد على قوة المشابهة الفنية وإن لم تصل إلى حد التماثل التام .

ويجمع شعر الخوارج أنه شعر ملتهب حار تشيع فيه حرارة الإيمان وقوة العقيدة وفداء المذهب والاستخفاف بالحياة وطلب الموت فى سبيل المبدأ . وقد كان شعراؤهم من كبار دعاتهم المناضلين الذين باشروا الجهاد وتمرسوا به فجاء تعبيرهم حماسيًّا كسلوكهم حارًّا مندفعا اندفاعهم فى ميادين القتال ، وقد تأتى لهم أن يحتفظوا بنقاوة طبائعهم فلم تفسدها الحضارة ولا الترف ، فظلوا على فطرتهم السليمة لا تعوزهم الصرامة ولا الصراحة النقية ، وأخذوا أنفسهم أخذا شديدا فى الخضوع لعقيدة متطرفة خالصة لا تعرف الهوادة ولا الدنية ولا تصطنع التقية تدارى بها الجبن أو تتقنع بها رهبة أو رغبة أو ممالأة . ويكفى للتدليل على مدى صدقهم وصراحتهم أن أهل الحديث يعدونهم أصدق أهل الأهواء حديثا ، وقد أوقع صدقهم أصحاب الحديث فى حرج بالغ بين أن يأخذوا عنهم الحديث أو أن يتركوه ، ولكنهم انتهوا إلى الأخذ عنهم معتذرين عن ذلك بأن ليس فى أهل الأهواء أصح حديثا من الخوارج[٢] وقد انعكست

---

(١) الأغانى ج ٦ ص ٢ .
(٢) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ١٢٧ .

صراحتهم وصدقهم على أدبهم فكان له نغم خاص له قوته وأثره فى النفوس بجبروت الحق وجلال الصدق وقسوته وجماله فصدر شعرهم مباشرة عن نفوس صادقة بخلاف غيرهم من الفرق الأخرى إذ كان الغالب فيها ألا يكون لشعراء المذهب دور فى زعامته وإنما يقتصر دورهم على الدعاء لهؤلاء الزعماء مخلصين فى ذلك أو مأجورين ، ومن ثم كان شعرهم صورة لهم لأنه لا يدور حول أشخاص ، وإنما يدور حول عقيدة هم أنفسهم قادة نضالها وزعماؤها ، فجاء شعرهم لذلك قويًّا واضحا صادقا ملتهبا كشأنهم أنفسهم حتى ليمكن أن يعد أصدق صورة أدبية لمذهب سياسى لا يشاركه فى ذلك شعر آخر. فهو كما سبق منا القول تعبير حقيقى عما كانوا عليه بالفعل ، فلم يكن الشعر عندهم حرفة تجود ولا صناعة تحذق لذاتها أو لوجه البراعة الفنية والتميز فى مضمار التجويد والسبق ، ولكنه كان وسيلة لخدمة مذهبهم وثمرة له ، ولهذا السبب ولظروف جهادهم الذى لم يوفر لهم استقراراً ولا هدوءا جاء شعرهم غالبا مقطعات أو قصائد قصيرة تنشأ عند الحاجة إليها كأنها خطبة مرتجلة ، وقد وسم هذا شعرهم من وجه آخر بالبساطة والوضوح والعفوية ، كما كان أيضا سببا فى أنهم لم يخلفوا لنا دواوين خاصة لكل شاعر كالكميت مثلا ، وإذا استثنينا الطرماح — وديوانه يجمع بين شعره الخارجى وفنون أخرى — فإننا لا نجد لأحد منهم ما يكون ديوانا خاصًّا به كما رأينا عند الكميت ولكننا إذا جمعنا شعرهم كله فإنه يكون بلا شك ديوانا للإيمان بالعقيدة الخارجية وسلوك الخوارج .

وثمة أمر آخر يجمع شعرهم وهو اقتصارهم على تصوير حياتهم وإيمانهم بعقيدتهم وبطولاتهم وشجاعتهم واستهانتهم بالحروب وتقواهم وزهدهم ، فدار شعرهم فى دائرة إيمانهم وجهادهم ، ولم يتجاوز هذه الدائرة إلى الارتزاق ولم يتناول فنونا أخرى إلا فيما ندر ، وبوحى من عقيدتهم حولوا الفنون التقليدية من المدح والرثاء والهجاء والفخر والنسيب فنًّا عقائديًّا خارجيًّا لا يستوحون فيه غير إيمانهم وبسالتهم وتقواهم ولهذا لم يحتاجوا إلى تقليد السابقين أو مجاراة المعاصرين إذ وفرت لهم حياتهم مادة لفنهم استلهموها فتفرغوا لعقيدتهم ولإيمانهم بها ولم

يشتغلوا بغير ذلك من المدائح أو الأهاجى ولم ينتجعوا بشعرهم كما لم يستخدموه فى ابتزاز الهبات والعطايا فقد كان ذلك كله دبر آذانهم ولم ينجرفوا فى غمار الخصومات القبلية أو العصبيات الجنسية إذ حال فناؤهم فى عقيدتهم دون استشعارهم الولاء لعصبية أولجنس فاقتصر تعصبهم على عقيدتهم ولجماعتهم فحسب ولم يستشعروا ولاء إلالهما . وليس أدل على فناء تلك العصبية من تعرض بعضهم لبنى جنسه وقومه وحيه فى القتال وأخذه بما يأخذ به غيره من النكال طالما خالف عن اعتقاد عقيدته .

وما ذاك إلا لأن إيمانهم بعقيدتهم قد استغرق كل نفوسهم واستنفد كل ولائهم فلم يعد يشغل وجدانهم سوى انتماءاتهم المذهبية ، وكأنما صهرتهم العقيدة فى بوتقة واحدة فأذابت كل تميز وقضت على كل تباين يرجع إلى الدم أو الجنس فقد أجرت فى نفوسهم جميعا تيارا واحدا مشتركا سما بها عن التعصب لقبيلة أو لجنس .

وكان لتوفر شعرهم على التعبير عن إيمانهم بعقيدتهم وتصويره لأنفسهم وقصره على ذلك أثر كبير فى صبغ أدبهم بصبغ شخصى قوى فلم يجعلوا الإحساس بالغير مركز شعورهم ، ويبدو هذا واضحاً فى عدم تميز سمات أعدائهم وخصومهم من أمويين وشيعة وزبيريين فجميع من عداهم — على إطلاقهم — كفار ظالمون دون تفريق وكأنهم لا يحسون فى شعرهم إلا بأنفسهم ولا يدور شعرهم إلا من حولها . ولهذا لم يستمدوا المعانى والموضوعات التقليدية فكان شعرهم جديداً فى معانيه لأنه أثر لمذهب جديد وجد بوجود الإسلام وأسس على آراء وأفكار إسلامية جديدة مستمدة من روح الدين وكتابه وسنة نبيه ، والاقتداء بأصحاب رسول الله فى محاولة للعودة إلى نقاء الدين وصلاح الحكم ومحاربة الفساد ودفع الظلم عن الناس وأيضا كان شعرهم تعبيراً عن أخلاق تحلوا بها وعواطف مهذبة ورقيقة وقوية اتصفوا بها .

وأيضا جاءت أساليبهم جديدة مطبوعة بطوابعهم فكان أسلوبهم ممثلا لصلابتهم واندفاعهم فى جزالته وقوته ، معبراً عن حماستهم وصراحتهم وجرأتهم

فى صدقه والتهابه وحرارته ، مبينا عن تقواهم وتعبدهم وتدارسهم القرآن وحفظه باعتمادهم على آيه فى صياغة شعرهم اعتماداً يبلغ حد التضمين وترجمة معانيه شعراً كما فى قول عمران بن حطان إذ يرفض التفاضل بالأحساب والأنساب والاعتداد بالتمربى معبرا عن روح الخوارج فى نظام الحكم وشكل الدولة الإسلامية التى يحلمون بتحقيقها :

فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر [١]

وفى هذا تضمين لقوله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [٢] ومن أمثلة ذلك أيضا تلك الفكرة التى تدور عليها أبيات عيسى بن فاتك الحبطى يوم آسك عن انتصار الفئة القليلة المؤمنة على الفئة الكثيرة الظالمة وذلك فى قوله :

هم الفئة القليلة غير شك على الفئة الكثيرة ينصرونا [٣]

ففى ذلك إشارة إلى قوله تعالى : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » [٤] وإلى قوله تعالى : « يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون » [٥].

وليس هذا بغريب عليهم ، فقد كانوا ينكبون على القرآن الكريم انكبابا لا يتركون قراءته ولامدارسته فى سلم أو حرب حتى إن عبيدة بن هلال اليشكرى كان إذا تهادن الفريقان فى حرب المهاب لهم ينادى جماعة المهاب فيخرج إليه فتيان من العسكر فيقول لهم أيما أحب إليكم : أقرأ عليكم القرآن أم أنشدكم الشعر ؟ فيقولون : أما القرآن فقد عرفناه مثل معرفتك ولكن تنشدنا ، فيقول لهم : يافسقة قد والله علمت أنكم تختارون الشعر على القرآن ثم لا يزال ينشدهم حتى يملوا [٦] .

وكما لم يستلهموا المعانى القديمة فإنهم لم يستوحوا التقاليد الفنية المألوفة فى شكل

---

(١) الكامل ص ٥٨٩ .
(٢) سورة الحجرات آية ١٣ .
(٣) الطبرى ج ٦ ص ١٧٤ .
(٤) سورة البقرة آية ٢٤٩ .
(٥) سورة الأنفال آية ٦٥ .
(٦) الأغانى ج ٦ ص ٦ .

القصيدة وهيكلها ولم يحاكوا الجاهلين فى نظامها وتعدد موضوعاتها وأغراضها ، فقد ألزمهم إخلاصهم لعقيدتهم وتوفرهم عليها وحدها أن خلص شعرهم للتعبير عن إيمانهم بها فحسب دون أن تكون لهم غايات أخرى مما وفر لقصيدتهم وحدة فنية ميزتها عن القصيدة التقليدية المعاصرة ، فقد تستهل بعض قصائدهم بالديباجة الغزلية أو الطللية ولكنها تستحيل إلى صورة تتلاءم وغايتهم فإذا النسيب حديث إلى الحليلة وإذا هو ينتهى إلى الفخر إليها بالجهاد أو إنبائها بالحرص على الاستشهاد أو تحذيرها من الاغترار بالدنيا وتنفيرها منها لفنائها وزيفها ، وقد ساعد على تحقيق الوحدة الفنية للقصيدة الخارجية ما أصاب هيكل القصيدة التقليدى نتيجة لظروف القتال والجهاد فإذا هى مقطوعة سريعة ذات موضوع واحد ، ومعان من واد واحد .

وعلى الجملة ، فإن شعر الخوارج يتسم بسمات واضحة تميزه عن غيره من الشعر ، وأهم هذه السمات أنه مرآة صافية لحياتهم وإيمانهم بعقيدتهم وتقواهم وشجاعتهم وأن روحا حماسية تسوده فى صور متشابهة أشكلت نسبة كثير منه إلى أصحابه الحقيقيين ، ويرجع ذلك إلى توحد نشاطهم ولصدورهم عن منبع واحد فى ثقافتهم ، وأن هذا الشعر وإن صور إيمانهم بعقيدتهم فإنه لم يصور العقيدة ذاتها ، ولم ينبر للدفاع عنها بحجج أو أدلة لأنه دار فى مجال العواطف المستندة إلى المثالية الدينية ، وجاء تعبيرهم عن إيمانهم صادقا لذلك وملتهبا ، لأن هؤلاء الذين فاض عنهم هذا الشعر كانوا من كبار القادة والزعماء الذين عانوا النضال وأحسوه فجاء شعرهم تعبيرا حقيقيًّا ولم يكن صنعة يجودونها لوجه البراعة بقدر ما كان تنفيساً عن مشاعرهم ، ولأنهم لم يكونوا يصطنعون التقية أو المداراة جاء شعرهم أيضًا واضحًا وقويًّا .

وقد أداهم إخلاصهم لعقيدتهم إلى الاقتصار على تصوير إيمانهم بها ولم يتجاوزوا ذلك إلى الارتزاق بالشعر أو إلى الانغماس فى الخصومات القبلية أو التعصب الجنسى ، فى حين تحولت الفنون التقليدية من هجاء ورثاء وفخر ومدح إلى فن عقائدى خارجى لم يستلهموا فيه غير عقيدتهم وحياتهم فصبغ ذلك

شعرهم بلون شخصي قوي ، ولم يحوجهم ذلك إلى محاكاة الأقدمين ، أو مجاراة المعاصرين ؛ فكان شعرهم جديداً في معانيه وموضوعاته وغاياته وأسلوبه الذي اتسم بسماتهم من القوة والوضوح والصلابة والصدق والرقة في غير ضعف ، كما تأثرت صياغته بالقرآن الكريم الذي عكفوا على حفظه وتدارسه وتفهمه حتى بلغ ذلك بهم أن يضمنوا شعرهم معانيه كما سادت أشعارهم تأثرات إسلامية كثيرة استمدوها من روح الإسلام ، وأخلاقياته .

ولم يحفل شعرهم بتأثر التقاليد الفنية الموروثة أو بالمحافظة على هيكل القصيدة التقليدي وقد ساعد على ذلك ظروف القتال والتمرس بالحروب الأمر الذي لم يفسح لهم مجالا للإكثار ولا للإطالة فصارت القصيدة عندهم في أغلب الأحيان مقطوعة قصيرة ذات هدف وحيد مما أكسبها وحدة موضوعية وفنية لاحتوائها على موضوع واحد أو اشتمالها على معان جزئية من واد واحد ، ونتج عن ذلك أن اختفت المقدمة الغزلية أو الطللية بصورتها التقليدية من قصائدهم الطويلة على ندرتها ، وأصبح الغزل الذي يساق في مفتتحها حديثا إلى الحليلة عن العقيدة أو عن الجهاد في سبيلها أو طلب الموت خلاصا من فساد الحياة وزيفها .

وقد برز في شعرهم ذكر لنباهة المرأة ونزوعها منازع الرجال الكفاة في الحرب من مثل أم حكيم وغزالة وجمرة ومريم الجعيداء وقطام وغيرهن . وهي ظاهرة لا نلحظها في شعر غير شعر الخوارج وهي في حقيقة الأمر صدى لما كانت عليه المرأة الخارجية من قيام على تفدية العقيدة والتضحية من أجلها واحتمال النكال والوبال وتمزيق الأوصال في صبر وإيمان في سبيلها .

وهكذا فإن شعر الخوارج في اعتقادنا يعد أصدق تعبير أدبي عن الإيمان بمذهب سياسي قائم على أسس دينية لا يشاركه في هذا الوصف شعر آخر ، ولا نغلو إذا ما قلنا إنه صورة رائعة للشعر الإسلامي القوي الجديد في عصر بني أمية وفي غيره من العصور إن صح أن نتعرض لغير هذا العصر .

الفصل الثالث

شعر الزبيريين

١

بدأت نواة الحزب الزبيرى تتبلور من حول شخصية الزبير بن العوام بعد خروجه إلى الكوفة فى عهد عثمان بن عفان ، حتى إذا ما حوصر الخليفة واتفق الثوار على خلعه ولم يتفقوا على من يخلفه كان هوى أهل الكوفة فى استخلاف الزبير [١] .

وقد استطاع عبد الله بن الزبير منذ أن أمّره عثمان على داره يوم حوصر أن يعمل على أن يبدو على درجة عالية من الكفاءة والمقدرة ، متحينًا الفرصة للوصول إلى تحقيق أهدافه .

وقد اتخذ من دعم الحزب الذى نكث بيعة علىّ سبيلا يصل به إلى أغراضه حتى صار وراء كل حركاته ، ولكن مقتل طلحة والزبير وهزيمة أهل الجمل أمام علىّ دفعت عبد الله بن الزبير إلى أن يرجئ تحقيق أهدافه إلى حين ، وكان لظهور معاوية بن أبى سفيان ظهوراً سافرا على مسرح السياسة أكبر الأثر فى إخلاده إلى الصمت وركونه إلى الهدوء مؤقتا . ولكنه ما لبث أن عاد يجمع من حوله أهل المدينة ليؤلف منهم حزباً معارضا قويًّا ضد سياسة معاوية مستغلاً إثارة المشاعر الدينية ضد تصرفاته ، منتقدا ما أحاط به معاوية نفسه من مظاهر الملك والترف ، وكان بانتهاجه نهج الصلاح والبساطة يوحى إلى أهل المدينة بأن يقارنوا بين ما هو عليه وما عليه معاوية .

---

(١) المختصر من أخبار البشر ج ١ ص ١٦٩ .

وقد أخذت تظهر فى هذه الفترة المتأخرة من حكم معاوية معارضة شديدة حمل لواءها أبناء كبار الصحابة ، فعمل عبد الله على توثيق أواصر الود والصداقة معهم ، وبخاصة مع الحسين بن علىّ الذى حرص على ملازمته فى الوقت الذى كان فيه معاوية يلعن أباه من فوق المنابر .

وقد كان معاوية يخشى على الخلافة الأموية من بعده هذه الطائفة من أبناء كبار الصحابة والتفاف الناس من حولهم ، فراح يغدق عليهم ويقضى حوائجهم مطمئناً إلى ما أعطاه له الحسن من الأمان بتنازله مختارا عن الخلافة ، وإلى أن الحسين لن يخرج عن إرادة أخيه ، واثقا من أن الزبير لن يرفع عينيه إلى الخلافة طالما كان الحسين على قيد الحياة .

ومع إحساسه بدنو أجله ، أخذ معاوية يعمل على توطيد الأمر من بعده لولده يزيد ، فزار المدينة سنة ٥٠ هـ متظاهرا بالحج ، واجتمع إلى أبناء الصحابة باستثناء أبناء علىّ وقد لقى معاوية من ابن الزبير الذى تكلم بلسانهم معارضة شديدة وتذكيرا بالصلح الذى أجراه مع الحسن والذى تعود به الخلافة من بعده شورى بين المسلمين .

وأرجأ معاوية الأمر حتى توفى الحسن فبادر فى نفس العام إلى أخذ البيعة ليزيد فى الشام وكتب بيعته إلى الأمصار ، ولكن أبناء الصحابة لم يستجيبوا لدعاء مروان بن الحكم والى معاوية على المدينة ، فأبلغ مروان الخليفة بمعارضتهم فكان جزاءه العزل وولى مكانه سعيد بن العاص فأخذ الناس بالحزم والشدة حتى لا يلقى مصير سلفه .

ويبدو من كتاب سعيد إلى معاوية أن ابن الزبير هو الذى قاد حركة المعارضة فى المدينة ضد مشروع البيعة ليزيد فقد جاء فيه : وأما الذى جاهر بعداوته وإبائه لهذا الأمر فعبد الله بن الزبير ، ولست أقوى عليهم إلا بالخيل والرجال أو تقدم بنفسك فترى رأيك فى هذا[١] .

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ١ ص ١٢٩

وبعث معاوية بعدة رسائل إلى المعارضين من أبناء الصحابة واشتملت رسالة ابن الزبير على تحذيره مغبة المعارضة واللؤم ورد ابن الزبير منكرا على معاوية ما حذره وتوعده بأنه سيلقى أسداً فى عرينه ، واختتم رده بهذا البيت :

وأقسم لولا بيعة لك لم أكن لأنقضها لم تنج منى مسلما[١]

وحينئذ قدم معاوية إلى المدينة وعمد إلى الشدة مع هؤلاء الرهط المتأبين عليه وكان بطبيعة الحال أشد تحاملا على عبد الله بن الزبير فرحلوا إلى مكة ، وأوصته السيدة عائشة بأن يرفق بهم فقصد مكة وأظهر لهم الرفق والمحاسنة ، ولكن هذه الوسائل جميعا لم تجد معهم .

وكان ابن الزبير لسانهم الناطق فى هذه المرة أيضًا ، فخيّر معاوية بين أن يصنع صنيع الرسول أو صنيع أبى بكر أو صنيع عمر وأدرك معاوية ألا فائدة ، فجمع الناس فى المسجد وصعد المنبر وأقام على رأس كل واحد من هذا الرهط حرسيا ، وأمره أن يضرب رأسه إذا فاه بكلمة ، وأعلن للناس أن أبناء الصحابة جميعا قد رضوا بيعة يزيد وطلب له البيعة من الناس فبايعوا .

وآل الأمر إلى يزيد بعد وفاة أبيه ، فلم يكن يشغله شىء غير بيعة هؤلاء النفر من أبناء الصحابة ، فكتب إلى واليه بالمدينة الوليد بن عقبة بأن يأخذ له البيعة منهم ، فبعث الوليد يستدعى الحسين وعبد الله بن الزبير فأجاب الحسين دعوته فى نفر من بنى هاشم ووعد بالبيعة إذا خرج للناس ، أما ابن الزبير فقد أرسل أخاه جعفر إلى الوليد يرجئه إلى الغد وانسل فى نفس المساء إلى مكة وسرعان ما لحق به الحسين ولم يجد الوليد من هؤلاء النفر غير عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس فبايعا كما بايع الناس .

وفى مكة أعلن ابن الزبير أنه عائذ بالبيت ، وخشى عمرو بن سعيد بن العاص والى المدينة ما حل بسلفه نتيجة لتساهله مع الحسين وابن الزبير فرأى أن يتبع سياسة عنيفة معهما ، فولى عمرو بن الزبير شرطته وأمره بهدم دور بنى

---

(١) الإمامة والسياسة ج ١ ص ١٣٠ .

هاشم وآل الزبير ففعل وبلغ منهم كل مبلغ حتى ضرب محمد بن المنذر بن الزبير مائة سوط وكذلك فعل بعروة بن الزبير لولا أن تحملها عنه محمد ولحق عروة بأخيه، وضرب عمرو الناس ضربا شديدا فهربوا منه إلى عبد الله بن الزبير(١).

وانتهز عبد الله الظروف فأخذ يثير على يزيد وواليه حتى منع نائب الوالى فى مكة من أن يصلى بالناس ، وكانت نتيجة ذلك أن غضب يزيد وأقسم ألا يقبل بيعة عبد الله بن الزبير إلا إذا أتى إليه وفى عنقه جامعة . وأراد عمرو ابن سعيد أن ينال الحظوة عند يزيد فسير عمرو بن الزبير فى مقدمة ألفى رجل قاصدا أخاه فى مكة بعد أن بعث إليه برسالة يدعوه فيها إلى أن يبر بيمين الخليفة وأن يجعل فى عنقه جامعة من فضة ، ويحذره عاقبة تأبيه ، ولكن عبد الله لم يعبأ بتهديده وتمكن من هزيمة الحملة وقبض على أخيه فأودعه السجن وأقامه تحت السياط حتى قتل وأمر بألا يجهز أو يغسل وبأن يدفن فى مقابر المشركين بدعوى أنه مات مرتداً عن الإسلام(٢) .

وقد بدأ الشعر يسجل أحداث الزبيريين منذ ذلك الحين فحسب، وكانت أولى الأصداء التى ظهرت للحركة الزبيرية فى الشعر ما ندد به بعض الشعراء الأمويين بانتقام عبد الله بن الزبير من أخيه ، فقد تهكم به الضحاك بن فيروز الديلمى وسخر مما يدعيه من الزهد والصلاح ، ورماه بقطع الرحم ، وبأنه لا يرجى خيره وإلا كان أخوه أولى بذلك ، قال الضحاك :

تخبرنا أن سوف تكفيك قبضة ... وبطنك شبر أو أقل من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئا قضمته ... كما قضمت نار الغضا حطب السدر
فلو كنت تجزى أو تبيت بنعمة ... قريبا لردتك العطوف على عمرو(٣)

وكان عمرو بن الزبير صديقا للشاعر الأموى عبد الله بن الزَبير الأسدى ، فرثاه عبد الله ولام أخاه على ما فعله به كائداً له فى قوله :

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٥ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٥٥ ، ج ١٣ ص ٣٧ .
(٣) مروج الذهب ج ٢ ص ٩٩ .

أيا راكبا إما عرضت فبلغا ... كبير بنى العوام إن قيل من تغنى
ستعلم إن جالت بك الحرب جولة ... إذا فوّق الرامون أسهم من تعنى
فأصبحت الأرحام حين وليتها ... بكفيك أكراشا تجر على دمن
عقدتم لعمرو عقدة وغدرتم ... بأبيض كالمصباح فى ليلة الدجن
وكبلته حولا يجود بنفسه ... تنوء به فى ساقه حلق اللبن
فما قال عمرو — إذ يجود بنفسه ... لضاربه حتى قضى نحبه — دعنى
تحدث من لاقيت أنك عائذ ... وصرعت قتلى بين زمزم والركن
جعلتم لضرب الظهر منه عصيكم ... تراوحه والأصبحية للبطن
تعذر منه الآن لما قتلته ... تفاوت أرجاء القليب من الشطن
فلم أر وفداً كان للغدر عاقدا ... كوفدك شدوا غير موق ولا مسنى
وكنت كذات الفسق لم تدر ماحوت ... تخير حاليها أتسرق أم تزنى
جزى الله عنى خالدا شرما جزى ... وعروة شرًّا من خايل ومن خدن
قتلتم أخاكم بالسياط سفاهة ... فيالك للرأى المضلل والأفن
فلو أنكم أجهزتم إذ قتلتم ... ولكن قتلتم بالسياط وبالسجن
وإنى لأرجو أن أرى فيك ما ترى ... به من عقاب الله ما دونه يغنى
قطعت من الأرحام ماكان واشجا ... على الشيب وابتعت المخافة بالأمن
وأصبحت تسعى قاسطا بكتيبة ... تهدم ما حول الحطيم ولا تبنى
فلا تجزعنْ من سنة قد سننتها ... فما للدماء الدهر تهرق من حقن[1]

وواضح أنه يعرض بعبد الله وبما ادعاه من أنه عائذ بالبيت ويندد بقتله أخاه تحت السياط وإهراقه دماء المسلمين بين زمزم والركن ، وقد راح يتوعده بمثل ما قدم من النكال والعقاب .

وعلى الرغم من هذا الانتصار الذى طير اسم عبد الله بن الزبير فى الحجاز وجمع إليه الساخطين على يزيد فإنه لم يكن ليغفل حقيقة هامة وهى وجود منافس

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٣٨ .

خطير له هو الحسين بن على، ولكن الفرصة واتت ابن الزبير عندما نجح أهل الكوفة فى استخراج الحسين وما حدث من خذلانه وقتله على يد أعوان ابن زياد فى كربلاء .

وقد أفاد ابن الزبير من السخط الذى أثار مشاعر المسلمين بعد هذه الفاجعة فشمر للأمر الذى أراده ولبس المعافرى وشبر بطنه، وقال إنما بطنى شبر وما عسى أن يسع الشبر ، وجعل يظهر عيب بنى أمية ويدعو إلى خلافهم[1] .

وأخذ عبد الله ينعى فى خطبه وأحاديثه فى مجالسه على يزيد غدره بالحسين كما راح يعرض بفسقه ولهوه ، وقد أثمرت هذه السياسة فالتف حوله أصحابه وناشدوه أن يظهر بيعته إذ لم يبق أحد بعد الحسين ينازعه الأمر[2] .

ولكنه استمهلهم حتى تتكشف الأمور وضاق يزيد ببطء عمرو بن سعيد فى معالجة أمر ابن الزبير واستجاب فيه إلى دسيسة من الوليد بن عقبة فعزله وولى الوليد مكانه ، وعول الوليد على أن يبز سلفه فأظهر الشدة ووقف ابن الزبير على حماسته وأراد أن يمكر به فأرسل إلى يزيد يعرض عليه أن يبعث برجل رشيد سهل الخلق ليسهل ماوعر من الأمر ، واستجاب يزيد فعزل الوليد وولى بدلا منه عثمان بن محمد بن أبى سفيان وهو فتى غر لا يكاد ينظر فى شيء من أعماله وقد بدأ عهده بأن أرسل وفدا من أشراف الأنصار والمهاجرين إلى الخليفة فى دمشق ظنًّا منه أنهم يعودون ألسنة داعية ليزيد ومناهضة لابن الزبير . ولكن خاب ظنه عندما عادوا يشهرون بفسقه وبمجونه وبملاعبته الكلاب والقرود ومسامرته الخراب وزادوا فأشهدوا الناس على أنهم خلعوه كنعالهم وأثوابهم وعمائمهم[3] .

ولم تجد سفارة النفر الركب التى أنفذها يزيد إلى ابن الزبير برئاسة النعمان ابن بشير الأنصارى ومعه عشرة من وجوه العرب ، وقد أقبلوا حتى قدموا مكة وكان النعمان يخلو بابن الزبير فى الحجر كثيرا ، فقال له عبد الله بن عضاة،

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٨ .

(٢) الطبرى ج ٦ ص ٢٧٤ .

(٣) ابن الأثير ج ٤ ص ٤٥ ، الأغانى ج ١ ص ١٢ .

وكان أحد الوفد يوما : يا ابن الزبير إن هذا الأنصارى والله ما أمر بشىء إلا وقدأمرنا بمثله إلا أنه قد أمر علينا وإنى والله ما أدرى ما بين المهاجرين والأنصار ؛ فقال ابن الزبير : يا ابن عضاةمالى ومالك ، إنما أنا بمثابة حمامة من حمام مكة أفكنت قاتلا حماما من حمام مكة، قال نعم وما حرمة حمام مكة ؟ يا غلام ائتنى بقوسى وأسهمى فأتاه بهما فأخذ سهما فوضعه فى كبد القوس ثم سدده إلى حمامة من حمام المسجد وقال : يا حمامة أيشرب يزيد بن معاوية الخمر ؟ قولى نعم فوالله لئن فعلت لأرمينك يا حمامة ، أتخلعين يزيد بن معاوية وتفارقين أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — وتقيمين فى الحرم حتى يستحل بك ؟ والله لئن فعلت لأرمينك . فقال ابن الزبير : ويحك أو يتكلم الطائر ؟ قال ابن عضاة : لا ، ولكنك يا ابن الزبير تتكلم ، أقسم بالله لتبايعن طائعا أوكارها أو لتعرفن راية الأشعريين فى هذه البطحاء ثم لا أعظم من حقها ما تعظم، فقال ابن الزبير : أو يستحل الحرم ؟ قال ابن عضاة : إنما يستحله من ألحد فيه . وإزاء هذا التهديد لم ير ابن الزبير غير أن يحبس الوفد شهرا ثم رده إلى يزيد ولم يجبه بشىء[1].

وكان نتيجة ذلك كله أن أخذ شعراء بنى أمية يسخرون من ابن الزبير ومن لياذه بالبيت ، وشبره بطنه متندرين بذلك من مثل قول أبى العباس الأعمى :

مازال فى سورة الأعراف يدرسها حتى فوآدى مثل الخز واللين
لوكان بطنك شبرا قد شبعت وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكين[2]

وعقب عودة الوفد إلى دمشق أرسل يزيد إلى واليه على المدينة بعدة رسائل أمره بأن يقرأها على الناس ، وكان فيها رسالة وعيد شديد ، ولم يكد أهل المدينة يسمعونها حتى انهالوا على الوالى والخليفة سبًّا مقذعا ، وصاروا يتنادون بخلع يزيد ، واستفحل الأمر فثاروا بالوالى وطردوه ، واتسعت الثورة فشملت بنى أمية جميعا فى المدينة وكان عددهم يزيد على ألف رجل لاذوا بمروان بن الحكم الذى بعث يستنجد بالخليفة وصمم أهل المدينة على طرد بنى أمية فأخذوا

---

(٢) الأغانى ج ١ ص ١١ .
(٢) الأغانى ج ١ ص ١١ .

عليهم العهود بألا يدلوا على عوراتهم وأخرجوهم وخرج وراءهم الصبيان يحصبونهم بالحجارة ، ورفض عبد الله بن عمر أن يضم عيال بنى أمية إليه فضمهم على ابن الحسين ووجه بهم مع امرأته إلى الطائف .

وكان لإخراج بنى أمية من المدينة صدى قوى فى الشعر فبكاهم كثير من شعرائهم وتحسروا على ذكرياتهم فيها وكان أشدهم حزنا وأكثرهم بكاء أبو قطيفة الذى يقول فى ذلك :

بكى أحد لما تحمل أهله ... فسلع فدار المال أمست تصدع
وبالشام إخوانى وجل عشيرتى ... فقد جعلت نفسى إليهم تطلع[1]

وقد أخرج أبو قطيفة فيمن أخرجوا من بنى أمية فقال يحن إلى مشاهد المدينة :

ألا ليت شعرى هل تغير بعدنا ... قباء وهل زال العقيق وحاضره
وهل برحت بطحاء قبر محمد ... أراهط عز من قريش تباكره
لهم منتهى حبى وصفو مودتى ... ومحض الهوى منى وللناس سائره[2]

وقد بين أبو قطيفة ما كان من إكراه بنى أمية على مفارقة المدينة ، وجعله فى شعره قدراً مقدورا لا يمكن دفعه فقال :

ألا ياليت شعرى هل تغير بعدنا ... جنوب المصلى أم كعهدى القرائن
وهل أدؤر حول البلاط عوامر ... من الحى أم هل بالمدينة ساكن
إذا برقت نحو الحجاز سحابة ... دعا الشوق منى برقها المتيامن
فلم أتركها رغبة عن بلادها ... ولكنه ما قدر الله كائن
أحن إلى تلك الوجوه صبابة ... كأنى أسيرٌ فى السلاسل راهن[3]

وقد كثر تغنى أبى قطيفة بالمدينة وحنينه إليها وإلى أهلها حتى سمح له عبد الله بن الزبير بالعودة إليها بعد أن شاعت له أبيات فى ذلك المعنى تقول :

---

(١) الأغانى ج ١ ص ١٣ .
(٢) الأغانى ج ١ ص ٤ .
(٣) الأغانى ج ١ ص ١٥ .

ليت شعرى وأين منى ليت ... أعلى العهد يلبن فبرام
أم كعهدى العقيق أم غيرته ... بعدى الحادثات والأيام
وبأهلى بدلت عكا ولخما ... وجذاما وأين منى جذام
وتبدلت من مساكن قومى ... والقصور التى بها الآطام
كل قصر مشيد ذى أواسى ... يتغنى على ذراه الحمام
أقطع الليل كله باكتئاب ... وزفير فما أكاد أنام
نحو قومى إذ فرقت بيننا الدا ... ر وحادت عن قصدها الأحلام
خشية أن يصيبهم عنت الد ... هر وحرب يشيب منها الغلام
فلقد حان أن يكون لهذا الد ... هر عنا تباعد وانصرام[1]

فلما سمع ابن الزبير هذه الأبيات قال : أحسن والله أبو قطيفة وعليه السلام ورحمة الله وبركاته من لقيه فليخبره أنه آمن فليرجع ، فأخبر بذلك فانكفأ إلى المدينة فلم يصل إليها حتى مات .

وقد نعى أيمن بن خريم الأسدى خروج بنى أمية من المدينة وتحسر عليهم وترحم على منازلهم من مثل قوله :

كأن بنى أمية يوم راحوا ... وعرى عن منازلهم صدار
شماريخ الجبال إذا تردت ... بزينتها وجادتها القطار[2]

وقد أقام بنو أمية بذى خشب عشرة أيام ، وسرحوا حبيب بن كره إلى يزيد فى دمشق فأخبره الخبر فاغتاظ يزيد وسخر من إذعان بنى أمية وعجزهم عن المقاومة ، ولكن حبيباً أنبأه بأن الناس كثروهم فلم يكن لهم بهم طاقة ، حينئذ نهض يزيد يندب الناس حتى اجتمع منهم اثنا عشر ألفا جلهم من كلب أمر عليهم صخر بن أبى الجهم القينى ولكنه مات قبل أن يخرج الجيش[3] .

ويذكر أن كثيرين من القادة تحاشوا القيام بهذه المهمة من مثل عمرو بن

(١) الأغانى جـ ١ ص ١٤ .
(٢) الأغانى جـ ١ ص ١٥ .
(٣) الأغانى جـ ١ ص ١٣ .

سعيد وابن زياد (١) وأخيرا نهض بهذه المهمة مسلمة بن عقبة المرى الذى زعم ليزيد أنه رأى رؤيا صاح به فيها صائح أنه صاحبها حتى يدرك ثأر بنى أمية من أهل المدينة قتلة عثمان (٢) .

والتقى مسلم ببنى أمية المطرودين من المدينة عند وادى القرى فدلوه على عورات المدينة ، ودخلها مسلم فأمهل أهلها ثلاثة أيام ثم سألهم عما اعتزموه فأبدوا إصرارهم على القتال وكانوا قد خندقوا واستعدوا وظهر بين أهل الشام تحرج فى قتال إخوانهم من المسلمين ، ولكن مسلما أثارهم ودفعهم إلى الانقضاض عليهم حتى تمكن أن ينزل بأهل المدينة هزيمة نكراء وأباح ، على أثر ذلك ، المدينة ثلاثة أيام وأنزل بأهلها من أعمال العنف والقسوة والتنكيل والنهب والإحراق والاعتداء ما استحق بسببه أن يلقب بالمسرف ؛ وتذكر الروايات أن المدينة فقدت فى هذه الوقعة ثمانين من أصحاب الرسول — صلى الله عليه وسلم — حتى لم يبق بها بدرى ، كما فقدت سبعمائة من قريش والأنصار وعشرة آلاف من سائر العرب وقد انبرى مسلم يدعو الناس إلى البيعة ليزيد على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم كيف شاء ومن امتنع عن ذلك قتله (٣) .

وقد تركت هذه الوقعة التى عرفت باسم وقعة الحرة ، أثرا عميقا فى نفوس الناس وبخاصة فيمن كان لهم هوى فى عبد الله بن الزبير أو من أصيب أهلهم وأقاربهم فيها ، ويظهر هذا الأثر فى تلك الأبيات التى رثى فيها عبيد الله بن قيس الرقيات ضحاياها وتفجع عليهم ويذهب بعض الدارسين إلى أنها صنعت لتنوح بها النائحات (٤) يقول عبيد الله بن قيس :

ذهب الصبا وتركت غيتيه ... ورأى الغوانى شيب لمتيه
وهجرننى وهجرتهن وقد ... عنت كرائمها يطفن بيه

---

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٤٨ ، الفخرى ص ١٠١ .
(٢) الأغانى ج ١ ص ١٣ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ١٢ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٥١ .
(٤) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥٤ .

إذ لمّى سوداء ليس بها وضح ولم أفجع بأخوتيه
الحاملين لواء قومهم والذائدين وراء عورتيه
إن الحوادث بالمدينة قد أوجعننى وقرعن مروتيه
وجببنى جبّ السنام فلم يتركن ريشا فى مناكبيه
وأتى كتاب من يزيد وقد شد الحزام بسرج بغلتيه
ينعى بنى عبد وإخوتهم حل الهلاك على أقاربيه
ونعى أسامة لى وإخوته فظللت مستكا مسامعيه
كالشارب النشوان قطّره سمل الزقاق تفيض عبرتيه
سدما يعزينى الصحيح وقد مر المنون على كريمتيه
كيف الرقاد وكلما هجعت عينى ألم خيال أخوتيه
تبكى لهم أسماء معولة وتقول ليلى وارزيتيه
والله أبرح فى مقدمة أهدى الجيوش علىّ شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوقَ نسوتهم بنسوتيه (١)

وواضح أن أقارب لعبيد الله كانوا من قتلى الحرة وأنه يهدد فى آخر الأبيات بأن يهدى الجيوش إلى بنى أمية حتى تفجعهم بإخوتهم ويسوق نسوتهم بنسوته .

وقد أصبح واضحا للعيان بعد وقعة الحرة التى اتسعت بها الجروح فى الحجاز أن بنى أمية وإن كانوا قرشيين فإنهم إنما يحكمون بالسيف وبسيوف كلب وغيرها من قبائل الشام اليمنية ، وأنهم أداروا ظهرهم للحجاز وجعلوا حاضرة الشام قصبة لخلافتهم التى تلقفها بعضهم عن بعض دون سلطان شرعى وإنما بسلطان السيف والقوة إذ لولا ذلك ما ولى الخلافة أموى من أبناء الطلقاء، فبين أبناء الصحابة من يفضلونه بسابقة آبائهم فى الإسلام وبسيرتهم الفاضلة ، فضلا عن أن يكون رجلا كيزيد بمجونه وفسقه ، ولولا هذا ما استباحوا مدينة الرسول وحكموا قبائل الشام فى رقاب أهل الحجاز .

---

(١) الديوان ص ١٨٩ .

واتجه الجيش الذى نكب المدينة إلى مكة حيث يعوذ ابن الزبير ، ولكن قائده شعر بدنو أجله فى الطريق ، فاستخلف على الجيش الحصين بن نمير ، وكان ابن الزبير قد تجهز وتحصن فى الكعبة وأحكم الدفاع عن مكة ، وكان السخط قد شمل المسلمين جميعا بعد وقعة الحرة مما حدا بجماعات متباينة إلى أن تهب لتزود عن الكعبة جنبا إلى جنب مع ابن الزبير ، فقدم إليها كثير من العرب من بينهم أولئك الذين نجوا من الحرة ، وبعض الخوارج كما أن نجاشى الحبشة أرسل جماعة من الأحباش للذود عن البيت الحرام الذى ضرب جيش الشام حوله حصارا شديدا ، واستمر القتال أياما من المحرم وشهر صفر كله إلى أن مضت ثلاثة أيام من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ فرمى الحصين بن نمير بيت الله الحرام بالمجانيق وحرقه أهل الشام بالنار وفى ذلك يقول أبوحرّة المدينى :

ابن نمير بئس ما تولّى　　　قد أحرق المقام والمصلى(١)

وكان أهل الشام يرتجزون بقولهم :

خطارة مثل الفنيق المزبد　　　نرمى بها أعواد هذا المسجد(٢)

غير أن الأنباء جاءت بوفاة يزيد فرفع الحصار ، ودارت مفاوضات بين ابن الزبير وقائد جيش الشام لم تسفر عن شىء ، وقد عرض الحصين على ابن الزبير أن يبايع له بالخلافة إذا ما خرج معه إلى الشام ، ولكنه أبى أن يتخلى عن الحجاز .

وقد خلف يزيد ابنه معاوية وكان حدثا زاهدا يرى أن جده اغتصب الخلافة دون حق فخلع نفسه منها ولم يعهد ، وما لبث أن توفى بعد أيام ، وقد بدا وقتذاك أن حكم بنى أمية قد انتهى حتى ليقول ابن عرادة فى خراسان .

---

(١) الطبرى ٧ ص ١٠٢ ، أخبار مكة للأزرقى ص ٣٧ .

(٢) الطبرى جـ ٧ ١٠٤ .

أبنى أمية إن آخر ملككم جسد بحوارّين ثمّ مقيم
طرقت منيته وعند وسادة كوب وزق راعف مرثوم
ومرنةٌ تبكى على نشوانة بالصنج تقعد تارة وتقوم[١]

وقد أشعر معاوية بن يزيد بنى أمية بحرج موقفهم ثم توفى دون أن يعهد فخشوا أن ينتهز ابن الزبير الفرصة لتحقيق أهدافه .

وقد بدا آنذاك كأن الزبير هو القرشى الذى اختير للجماعة فأبوه من كبار الصحابة المقدمين وأمه أسماء بنت أبى بكر وأخت عائشة زوج الرسول — صلى الله عليه وسلم — وهو فضلا عن ذلك من وجوه المسلمين الأتقياء الذين جاهدوا فى سبيل الله وأبلوا فى الفتوحات بلاء حسنا .

وقد ساعدت الظروف ابن الزبير واتسعت الدعوة له فى الحجاز واليمن ومصر وسرعان ما ظاهرته قيس فى الشام والجزيرة وتبعته خراسان بقيادة عبد الله بن خازم السلمى القيسى ، وقد وجدت قيس فى ابن الزبير أملا قرشيًّا يرجح كفتها على كفة اليمنية التى اعتمد عليها بنو سفيان فى إقامة ملكهم هربا من أطماع النزارية .

وكانت كلب اليمنية الضاربة فى دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام أولى القبائل التى استظهر بها معاوية فى قتال علىّ وأعوانه المضريين ، ثم أصهر إليهم بزواجه من ميسون بنت بحدل أم يزيد ، فلم يترددوا فى مناصرته للصهر ولأن نائلة بنت الفرافصة زوج عثمان كانت منهم فهبوا معه يطالبون بدم عثمان وقد أغدق عليهم معاوية ، واختصهم بالعطاء إلى أن عزت اليمن وغلبت مضر حتى إن الروايات تذكر أن رجلا يمنيًّا قال لقد هممت ألا أدع بالشام أحداً من مضر ، بل هممت ألا أحل حبوتى حتى أخرج كل نزارى بالشام[٢] .

ويجب أن نلاحظ أن عداء قيس وكلب كان أقدم عهداً من ذلك وأنه

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٠٦ .
(٢) الأغانى ج ١٨ ٧٠ .

يرجع إلى الفترة التى نزح فيها كثير من عشائر قيس وبطونها وبخاصة من كلاب وعامر وسليم إلى الشمال حيث زاحمت قبيلة كلب فى الشام وتغلب فى الجزيرة ، ونتج عن ذلك اصطدام المصالح الاقتصادية فى الرعى وغيره ثم أرث الأمويون هذا العداء بتوليهم لكلب وتغلب فاصطدمت المصالح السياسية أيضا ، فكان طبيعياً أن تقف فى الصفوف المعادية حين تواتيها الفرصة .

وقد سنحت الفرصة حين بدا انهيار بنى أمية بوفاة معاوية بن يزيد ، ودعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، فسرعان ما حطبت قيس فى حبله وظاهرته معلنة الثورة على الأمويين تحت إمرة الضحاك بن قيس فى الشام وزفر بن الحارث الكلابى فى قرقيسيا بالجزيرة .

وكادت الأمصار الإسلامية كلها فى تلك الفترة تكون تابعة لابن الزبير فقد أسلم له الحجاز قياده ، ولم يشذ عن البيعة له فيه غير محمد بن الحنفية وعبد الله بن عباس وطرد أهل البصرة عبيد الله بن زياد وأجابوا سلمة بن حنظلة التميمى إلى بيعة ابن الزبير واختار أهل الكوفة عامر بن مسعود واليا ، وكتبوا بذلك إلى ابن الزبير فأقره عليهم وبايع أهل مصر لابن الزبير فأرسل إليهم عبد الرحمن ابن عتبة بن جحدم الفهرى واليا وأعلنت بلاد اليمن وخراسان والجزيرة طاعتها لابن الزبير ، وكذلك نجح الضحاك بن قيس الفهرى فى أن يبسط نفوذ ابن الزبير على الشام كله ما عدا الأردن الذى كان الإقليم الوحيد المخلص لبنى أمية نظرا لوجود حسان بن مالك بن بحدل الكلبى خال يزيد بن معاوية والذى كان عاملا لمعاوية ويزيد عليها ، فقاد حركة المعارضة ضد ابن الزبير من هناك ، وكان حسان قد استخلف روح بن زنباع على فلسطين فطرده منها ناتل بن قيس فبايعه أهلها لابن الزبير ، وكذلك وثبت قيس بسعيد بن حسان فى قنسرين وطردته منها بقيادة زفر بن الحارث الكلابى .

وقد بدا حينئذ أن الأمر قد أوشك أن يصير إلى ابن الزبير حتى لقد همّ مروان ابن الحكم شيخ بنى أمية بأن يبايعه لولا أن منعه عبيد الله بن زياد ، ونصحه بالتروى وعلى الرغم من أن المعارضة الوحيدة التى كان يلقاها ابن الزبير لم تتجاوز إقليما واحداً هو الأردن الذى استجاب أهله لحسان بن مالك فإن الأمر فى حقيقته

كان صراعاً ضارياً بين القيسية والكلبية حتى أصبح أمر الخلافة رهنا بما يتمخض عنه هذا الصراع .

وكان واضحا أن موقف قيس أقوى من موقف خصومها ، فموقفها هو موقف الأمصار الإسلامية جميعها فيما عدا الأردن بينما كانت منقسمة على نفسها ، فقوم منهم يدعون لخالد بن يزيد وقوم يدعون لمروان بن الحكم .

ورأى الأمويون أن يعقدوا مؤتمرا فى الجابية لبحث هذا الخلاف بناء على مشورة الحصين بن نمير ، وقد انتهى المؤتمر بالاتفاق على مبايعة مروان بن الحكم على أن تكون الخلافة من بعده لخالد بن يزيد ثم لعمرو بن سعيد بن العاص .

ويبدو أن النجاح الذى حالف الضحاك بن قيس قد أغراه بأن يحوّل الدعوة عن ابن الزبير إلى نفسه ، وقد زعمت بعض الروايات أن الأمويين دسوا إليه ابن زياد فزين له ذلك وأوحى إليه بشهود مؤتمر الجابية حتى يكون له فى الأمر شىء [1] .

ويبدو أنها كانت خطة محكمة فقد انتهز ذلك أحد قادة الأمويين فهجم على دمشق وأخرج عامل الضحاك منها ، واحتوى بيت مالها وأمد به مروان ليجهز به الرجال ويعد به لمعركة فاصلة ، وقد كان لموقف الضحاك أثر فى القضاء على مكانته فى قلوب الكثيرين من أنصاره .

ودارت معركة راهط التى استمرت عشرين يوما ، وأوقعت فيها كلب وقبائل قضاعة ومن انضم إليهم من تغلب هزيمة ساحقة بقيس ، وقتل الضحاك وهرب زفر بن الحارث الكلابى من قنسرين حتى دخل قرقيسيا وهو يبكى قتلى مرج راهط ويعلن إصراره على الثأر معتذرا عن فراره فى قوله :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط — لمروان صدعا بيننا متنائيا

أرينى سلاحى لا أبالك إننى — أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا

أتانى عن مروان بالغيب إنه — مقيد دمى أو قاطع من لسانيا

---

(١) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ١١ .

فني العيش منجاة وفي الأرض مهرب   إذا نحن رفّعنا لهن المثانيا
فلا تحسبوني إن تغيبت غافلا   ولا تفرحوا إن جئتكم بلقائيا
فقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كما هيا
أتذهب كلب لم تنلها رماحنا   وتترك قتلى راهط هي ما هيا
لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط   لحسان صدعا بيننا متنائيا
أبعد ابن عمرو وابن معن تتابعا   ومقتل همام أمنى الأمانيا
فلم تر منى نبوة قبل هذه   فراري وتركي صاحبيّ ورائيا
عشية أعدو بالقران فلا يرى   من الناس إلا من عليّ ولا ليّا
أيذهب يوم واحد إن أسأته   بصالح أيامي وحسن بلائيا
فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا   وتثأر من نسوان كلب نسائيا
ألا ليت شعري هل تصيبنّ غارتي   تنوخا وحيّ طيء من شفائيا

فرد عليه عمرو بن مخلاة الحمار الكلبي بقوله :

لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط   على زفر داء من الداء باقيا
تبكي على قتلى سليم وعامر   وذبيان مغرورا وتبكى البواكيا
دعا بسلاح ثم أحجم إذ رأى   سيوف جناب والطوال المذاكيا
عليها كأسد الغاب فتيان نجدة   إذا شرعوا نحو الطعان العواليا(١)

وقد تخلف عن وقعة مرج راهط شعر كثير حاول فيه كل من الفريقين أن يعبر عن موقفه فقد ذهب شعر القيسيين فى التمسك بطاعة ابن الزبير والإشادة بعصبيتهم والإصرار على الانتقام من خصومهم ، ورثاء قتلاهم وقد صور زفر ابن الحارث الكلابي كبير قيس قسوة المعركة تصويراً قدر فيه شجاعة خصومه وصبرهم على القتال فى صدق الفارس النبيل إذ يقول :

وكنا حسبنا كل بيضاء شحمة   ليالى لاقينا جذام وحميرا
فلما قرعنا النبع بالنبع بعضه   ببعض أبت عيدانه أن تكسرا

(١) الطبرى ج ٦ ص ٤١ .

ولمـا لقينا عصبة تغلبية ... يقودون جردا للمنية ضمرا
سقيناهم كأسا سقونا بمثلها ... ولكنهم كانوا على الموت أصبرا(١)

ولكنه استنكر الهزيمة وزوال نفوذ ابن الزبير ، وما كان من ارتفاع شأو اليمنية بقيادة حسان بن مالك بن بحدل وتوعد خصومه بيوم فاصل فى قوله :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل ... فيحيا ، وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ... ولمّا يكن يوم أغر محجل
ولمّا يكن للمشرفية فوقكم ... شعاع كقرن الشمس حين ترحّل(٢)

وقد أخذ شعراء كلب وأحلافهم يفخرون بما تحقق لهم من النصر على القيسية ويشيدون ببلائهم وبسالتهم وإيقاعهم برجال قيس من مثل قول عمرو بن المخلاة الكلبي :

ويوم ترى الرايات فيه كأنها ... حوائم طير مسـتدير وواقع
أصابت رماح القوم بشرا وثابتا ... وحرنا وكل للعشيرة فاجع
طعنا زيادا فى استه وهو مدبر ... وثورا أصابته السيوف القواطع
وأدرك هماما بأبيض صارم ... فتى من بنى عمرو طوال مشايع
وقد شهد الصفين عمرو بن محرز ... فضاق عليه المرج والمرج واسع
فمن يك قد لاقى من المرج غبطة ... فكان لقيس فيه خاص وجادع(٣)

وعمرو هنا فخور جذلان بما أنزله قومه بوجوه قيس من مثل بشر بن يزيد المرى ، وثابت بن خويلد البجلى وزياد بن عمرو العقيلي وعمرو بن محرز الأشجعى وكل منهم رئيس عشيرة من قيس .

وقد ظلت كلب وأحلافها تفخر بهذا اليوم فخرا عالى الصوت حتى إنها فخرت على بنى أمية أنفسهم ، ومنت عليهم ذبها عن ملكهم ضد قيس كما فعل عمرو بن مخلاة الحمار الكلبي فى قوله :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٤١ .
(٢) الطبرى ج ٦ ص ٤٢ ، شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٢٦٣ .
(٣) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٢٦٢ .

ضربنا لكم عن منبر الملك أهله يجيرون إذ لا تستطيعون منبرا
وأيام صدق كلها قد عرفتم نصرنا ويوم المرج نصرا مؤزرا
فلا تكفروا حسنى مضت من بلائنا ولا تمنحونا بعد لين تجبرا
فكم من أمير قبل مروان وابنه كشفنا غطاء الغم عنه فأبصرا
ومتسلم نفّسن عنه وقد بدت نواجذه حتى أهلّ وكبّرا
إذا افتخر القيسى فاذكر بلاءه بزراعة الضحاك شرقى جوبرا
فما كان فى قيس من ابن حفيظة يعد ولكن كلهم نهب أشقرا(١)

ونجد نفس هذه النغمة العالية عند أكثر من شاعر كلبى ، مما يدل على نزوع اليمنية إلى التسلط على الدولة لقاء ما قدمت لها من مؤازرة أمام قيس حتى استبرئت الشام لبنى أمية الغرباء عليه كما زعم جواس بن القعطل الكلبى :

صبغت أمية بالدماء رماحنا وطوت أميــة دوننا دنياها
أأمىّ رب كتيبة مجهولة صيد الكماة عليكم دعواها
كنا ولاة طعانها وحرابها حتى تجلت عنكم غماها
فالله يجزى — لا أمية — سعينا وعُلا شددنا بالرماح عراها
جئتم من الحجز البعيد نياطه والشــام تنكر كهلها وفتاها
إذ أقبلت قيس كأن عيونها حدق الكلاب وأظهرت سيماها(٢)

وبهزيمة قيس فى مرج راهط خلا وجه الشام لمروان بن الحكم وتمت له البيعة فيه ، وتحولت الخلافة من بيت السفيانيين إلى المروانيين . ولكن الموقف عاد شبيها بما كان عليه الأمر بعد مقتل عثمان إذ وقفت الشام وحدها أمام الأمصار الإسلامية مجتمعة ونجح مروان فى أن ينتزع مصر من طاعة ابن الزبير ، وأن يولى أخاه عبد العزيز عليها .

وفى هذه الأثناء أرسل عبد الله بن الزبير أخاه مصعبا على رأس حملة إلى فلسطين فى محاولة لإعادة نفوذه إليها فوجه إليه مروان بجيش بقيادة عمرو ابن سعيد بن العاص أعاده على أعقابه ، كما وجه مروان بجيش إلى العراق

(١) شرح التبريزى للحماسة / ج ٢ / ص ٢١٢ .
(٢) شرح الحماسة للتبريزى ج ٢ / ص ٢١٦ .

بقيادة عبيد الله بن زياد على أن يؤدب فى طريقه زفر بن الحارث ومن تبعه من القيسيين فى قرقيسيا ، وكان عمير بن الحباب السلمى قد انضم إليه وأخذ يغير غارات كثيرة على كلب فى أيام متعاقبة مثل يوم الغوير ويوم الهيل ويوم كآبة ويوم الإكليل ويوم السماوة ويوم دهمان[1] ووالت قيس غاراتها على تغلب ونكل عمير بن الحباب بها فى غير موقعة وبخاصة يوم ماكسين الذى أسر فيه القطامى فلما عرفه زفر أعطاه مائة من الإبل مما جعله ينوه به طويلا فى شعره[2].

وفى قرقيسيا جاءت ابن زياد الأنباء بوفاة مروان وتولية عبد الملك ، وأقره عبد الملك على ما ولاه أبوه فمضى ابن زياد فاشتغل بقتال القيسية نحوا من عام خرج أثناءه التوابون بزعامة سليمان بن صرد وتلقاهم الحصين بن نمير فى عين الوردة حيث حدثت مقتلة الشيعة وتم الصلح بين ابن زياد وزفر ، وسار فى طريقه إلى العراق ومعه حليفه القيسى عمير بن الحباب ؛ وفى هذه الأثناء وثب المختار الثقفى بالكوفة وتولى قيادة فلول التوابين ورفع شعار الثأر للحسين ، وبعد أن نجح ابن زياد فى هزيمة جيش للمختار انهزم أمام جيش آخر بقيادة إبراهيم ابن الأشتر ، وقتل ابن زياد فى هذه الوقعة المعروفة بخازر سنة ٦٧ هـ وكان من أسباب الهزيمة خيانة القيسيين بزعامة عمير بن الحباب إذ انضموا أثناء القتال إلى صف العدو انتقامًا من ابن زياد .

وكفى المختار بذلك ابن الزبير مئونة لقاء الجيش الأموى ، وكان لانتصار ابن الأشتر على عبيد الله وهزيمته ومقتله صدى فرح وابتهاج فى شعر الزبيريين يمثله قول سراقة بن مرداس البارقى عقب المعركة إذ يقول :

أتاكم غلام من عرانين مذحج ... جرىء على الأعداء غير نكول
فيا ابن زياد بؤ بأعظم مالك ... وذق حد ماضى الشفرتين صقيل
ضربناك بالعضب الحسام بحده ... إذا ما أبأنا قاتلا بقتيل
جزى الله خيرا شرطة الله إنهم ... شفوا من عبيد الله أمس غليلى[3]

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٢١ .
(٢) الأغانى جـ ٢٠ ص ١٢٨ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٦ .

وقد احتاج عبد الملك بعد هزيمة ابن زياد إلى أن يؤجل إخضاع العراق ، إلى أن ينتهى الصراع بين ابن الزبير والمختار الثقفى وبخاصة أنه شغل عنهما بتمرد ناتل بن قيس بإيعاز من ابن الزبير فى فلسطين ، وبخرق الروم للهدنة بالقحط الذى حل فى هذه الفترة بالشام .

وكان المختار قد نجح فى دعم نفوذه بين الشيعة فارتفعت أسهمه فى الكوفة بوصفه نصير بن هاشم وتمكن من طرد عامل ابن الزبير منها وأغدق على أهل العراق واستمال عمال ابن الزبير بالرشى وأفاد من أضرار ابن الزبير بابن الحنفية الذى تولاه وتوج انتصاراته بالثأر للحسين من قاتليه فى موقعة خازر .

وبقدر ما كان انتصار المختار على الجيش الأموى فى خازر كسبا لابن الزبير فإنه كان فى نفس الوقت نذير خطر بات يتهدد نفوذه فى العراق وأصبح الصدام بين الزبيريين وحركة المختار قدرا محتوما .

وقد انبرى شعراء الزبيريين يهاجمون حركة المختار ، ويقذفونها بالخداع ويصفونها بالضلال والشعوذة متعرضين بالهجاء لمخاريق المختار التى ادعاها وموه بها مثل اتخاذه الحمام والكرسى وزعمه أنه بمنزلة التابوت عند اليهود وغير ذلك من أساليب التأثير على العامة .

وقد تهكم به أعشى همدان ، وأعلن توليه لعبد الله بن الزبير فى قوله :

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وأنى بكم يا شرطة الشرك عارف

وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لفت عليه اللفائف

وإن ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ونهد وخارف

وإنى امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيا ضمنته المصاحف

وتابعت عبد الله لما تتابعت ... عليه قريش شمطها والغطارف (١)

واستطاع مصعب أن يستغل الخلاف بين المختار وأشراف الكوفة الذين لجأوا إليه وحالفوه ضد المختار ، فقاد جيشا ضخما واتجه به إلى الكوفة حيث

(١) الطبرى ج ٦ ص ١٤١ .

دارت فى حروراء معركة ضارية وفاصلة بين الأرستقراطية القرشية والحركة المختارية انتهت بمقتل المختار ودخول الكوفة فى طاعة ابن الزبير من جديد . وبسقوط المختار أصبح ابن الزبير وجهاً لوجه أمام الأمويين .

وكان عبد الملك قد تمكن أثناء فترة الصراع بين المختار والزبيريين أن يعالج المشكلات التى عرضت له وأن يعد نفسه للقاء الزبيريين لقاء فاصلا ، مدركا أنهم خرجوا من صراعهم مع المختار منهوكى القوى.

وقد حدث فى هذه الأثناء أن مصعبا بعد انتصاره على المختار تزوج بسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وأمهر كل واحدة منهما ألف درهم فكتب أنس بين زنيم الليثى إلى عبد الله بن الزبير :

أبلغ أمير المؤمنين رسالة ... من ناصح لك لا يريد خداعا
بضع الفتاة بألف ألف كامل ... وتبيت قادات الجيوش جياعا
لولا أبى حفص أقول مقالتى ... وأبث ما أبثثكم لا رتاعا[1]

فلما وصلت الأبيات إلى عبد الله جزع وعزله ودعا ابنه حمزة فولاه مكانه ، ولكن حمزة لم يكن كفئا لهذا المنصب فى تلك الظروف العصيبة التى تربص فيها عبد الملك بالعراق فقد كان حدثا غرًّا مخلطا جوادا إلى حد السفه ، وقد وفد عليه كثير من الشعراء فمدحوه ونالوا عطاءه من مثل موسى شهوات الذى يقول فيه :

حمزة المبتاع بالمال الثنا ... ويرى فى بيعه أن قد غبن
فهو إن أعطى عطاء فاضلا ... ذا إخاء لم يكدره بمن
وإذا ما سنة مجحفة ... برت الناس كبرى بالسفن
حسرت عنه نقيا عرضه ... ذا بلاء عند مخناها حسن
نور صدق بيّن فى وجهه ... لم يدنس ثوبه لون الدرن
كنت للناس ربيعا مغدقا ... ساقط الأكناف إن راح أرجحن[2]

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ١١٩ .

(٢) الأغانى ج ٣ ص ١١٧ .

وقد ظهر تخليط حمزة وجهله بالبصرة ، وتذكر الروايات أطرافا كثيرة من سيرة الحمق التي سارها في حكمه ، من ذلك أنه زار يوما فيض البصرة ، فلما رآه استقله ثم زاره بعد ذلك فوافاه جازرا فعجب لذلك ، حتى أفهمه الأحنف أنه يفيض ثم يعود ، وتهكم به بعض الشعراء وبجهله أمر الماء الجازر في قوله :

يا ابن الزبير بعثت حمزة عاملا　　　يا ليت حمزة كان خلف عمان
أزرى بدجلة حين عب عبابها　　　وتقاذفت بزواخر الطوفان[1]

واستمر حمزة في سيرته تلك ، وخاط تخليطا شديدا حتى وفدت إلى أبيه الوفود في أمره ، وكتب إليه الأحنف بأمره وبما ينكره الناس منه ، وبخشيته أن تفسد عليه طاعتهم ، وكتب إليه عبد العزيز بن شبيب إذا كان لك بالبصرة حاجة فاصرف ابنك عنها وأعد إليها مصعبا[2] .

ولم يجد عبد الله بدًّا من إعادة مصعب ولكنه كان قد خسر كثيرا خلال تلك الفترة القصيرة إذ وجد عبد الملك في ولاية حمزة فرصته للاتصال بقواد الزبيريين واستمالتهم. وأخذ يعد من ثم للقضاء على سلطانهم نهائيًّا في العراق فخرج فعسكر في بطنان حبيب من أعمال قنسرين سنة ٦٩ / ٧٠ ه . وخرج مصعب فعسكر له في باجميرا عند تكريت . إلا أن عمرو بن سعيد بن العاصي وثب في هذه الأثناء بدمشق مطالبا بحقه في الخلافة الذي كفاه له مؤتمر الجابية فاضطر عبد الملك إلى أن يعود أدراجه حيث قضى على تمرده ، ثم عاود الكرة في العام التالي ٧٠ / ٧١ ه فنزل بطنان حبيب ولكنه تردد في ملاقاة مصعب ، وكأنه لم يكن قد استوثق بعد من استمالة قواده تماما واكتفى بإهاجة قبائل كلب وربيعة ضد مصعب في بعض نواحي البصرة ، مما حدا بمصعب أن يترك معسكره في باجميرا ليخمد هذا التمرد ، ثم عاد سريعا فعسكر في باجميرا من جديد .

وقد صور الشعر تردد عبد الملك في النهوض لمصعب وأخذ عليه إمهاله له ، وأجمع شعراء الأمويين في هذه الفترة على تحريض عبد الملك على الزبيريين

---

(١) الأغاني ج ٣ ص ١٢٠ .　　(٢) الأغاني ج ٣ ص ١١٩ .

والتعجيل بالقضاء على سلطانهم من مثل أعشى ربيعة الذى رأى بنى الزبير غير أكفاء للنهوض بسلطان الخلافة لضعفهم وبخلهم ؛ فقال :

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل النتاج بحملها فأحالها
أوكالضعاف من الحمولة حملت مالا تطيق فحملت أحمالها
قوموا إليهم لاتناموا عنهم كم للغواة أطلتم إمهالها
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقا فانهض بيمنك فافتتح أقفالها[1]

وكان أبوالعباس الأعمى الأموى يثير على الزبيريين أيضاً ، ويلوم على عبد الملك أنه أطمعهم وأمد لهم فى مثل قوله :

أبنى أمية لا أرى لكم شبها إذا ما التفت الشيع
سعة وأحلاما إذا نزعت أهل الحلوم فضرها النزع
وحفيظة فى كل نائبة شهباء لا ينهى لها الربع
الله أعطاكم وإن رغمت من ذاك أنف معاشر رفعوا
أبنى أمية غير أنكم والناس فيما أطمعوا طمعوا
أطمعتم فيكم عدوكم فسما بهم فى ذاكم الطمع
فلو أنكم كنتم لقومكم مثل الذى كانوا لكم رجعوا
عما كرهتم أو لردهم حذر العقوبة إنها نزع[2]

وتروى الروايات أن عبد الملك لما هم بالخروج إلى مصعب لاذت به زوجه عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، وتمنت عليه ألا يخرج لحرب مصعب وقد ذكر آل الزبير خروجه ، وبكت وبكى جواريها معها ، فجلس عبد الملك فقال : قاتل الله ابن أبى جمعة — يعنى كثيرا — فأين قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان عليها عقد در يزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها[3]

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٦٣.

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ٥٩ .

(٣) الأغانى ج ٨ ص ٣٤ .

وقبل أن يتقدم عبد الملك لقتال مصعب رأى أن يستبرئ الجزيرة ليؤمن طريقه إلى العراق حيث ظلت قيس هناك توالى غاراتها على حافائه ، وبخاصة تغلب بعد أن قتلت عمير بن الحباب فى إحدى غاراته عليها بالحشاك إلى جانب نهر الثرثار سنة ٧٠ هـ .

وكان زفر بن الحارث الكلابى قد ثأر لعمير وقتل فى بنى كعب بن زهير مقتلة عظيمة وأوقع ببنى فدوكس وقتل رجالهم واستباح أموالهم ، حتى همت تغلب واليمن بالرحيل يريدون عبور دجلة فلحق بهم زفر بالكحيل جنوبى الموصل حيث فتك بهم فتكا ذريعاً فقتل رجالهم وبقر نساءهم وغرق فى دجلة أكثر ممن قتل بالسيف وكان الدم فى دجلة قريبا من رمية سهم ، وظلت المعركة طوال الليل حتى أصبحوا فوجه زفر بابنه الهذيل وبتميم بن عمير بن الحباب فى جماعة وأمرهم بألا يلقوا أحدا إلا قتلوه ، ومضى زفر إلى رأس الأثيل حيث وجد عسكرا من اليمن وتغلب فقاتلهم بقية ليلتهم حتى هربت تغلب ، وتسمى تغلب هذه الليلة بليلة الهرير ، وحق لزفر أن يفخر بصنعه وبثأره لعمير فى قوله :

ولما أن نعى الناعى عميرا … حسبت سماءهم دهيت بليل
وكان النجم يطلع فى قتام … وخاف الذل من يمنى سهيل
وكنت قبيلها يا أم عمرو … أرجل لمتى وأجر ذيلى
فلو نبش المقابر عن عمير … فيخبر عن بلاء أبى الهذيل
غداة يقارع الأبطال حتى … جرى منهم دما مرج الكحيل
قبيل يهدون إلى قبيل … تساقى الموت كيلا بعد كيل [١]

وقد قضى عبد الملك فى الجزيرة شهورا ، وحاصر زفر فى قرقيسيا ونجح أخيرا فى استمالته إليه ، وضم ابنه الهذيل إلى جيشه ، وتم له إخضاع نصيبين وعين الوردة وكانت فلول الخشبية من أتباع المختار لا يزالون يدافعون فيها عما بأيديهم ، فاستسلموا واندمجوا فى جيشه ليثأروا من الزبيريين [٢] .

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٥٦ .
(٢) الأغانى جـ ٥ ص ١٥٠ .

ولما أصبح طريقه آمنا نزل عبد الملك بمسكن ، وزحف مصعب من باجميرا إلى دير الجاثليق فوافاه هناك عبد الملك ، وحينئذ اكتشف مصعب ، وقبل أن تبدأ المعركة ، خيانة قواده ، ولم يستجب لابن الأشتر فى قتلهم أو حبسهم عن الاشتراك فى المعركة ، واضطر إلى أن يخوض معركة يعرف نتيجتها مقدما بعد أن خانه قواده ، وغاب عنه المهلب لاشتغاله بحرب الأزارقة ولوفاة الأحنف ابن قيس فى الكوفة وهو فى طريقه إليه .

ودارت فى دير الجاثليق معركة فاصلة قتل فيها إبراهيم بن الأشتر ودارت فيها الدائرة على جيش الزبيريين وصمد مصعب إلى النهاية ورفض ابنه عيسى أن يتخلى عنه ، فظل يقاتل وأبوه ، وأصحابهما يتفرقون عنهما ويخذلونهما حتى بقى مصعب فى سبعة رجال مثخنين بالرمى وكثرت فيه الجراحات حتى لم يعد قادرا على الدفاع عن نفسه ، فطعنه رجل ، ذكر ابن الأثير أنه زائدة بن قدامة الثقفى وأنه صاح به وهو يطعنه : يا لثارات المختار[1] . ولكن أبا الفرج يذكر أن ذلك الرجل هو عبيد الله بن زياد بن ظبيان وأن الشاعر عبد الله بن الزَّبير الأسدى وكان صديقا لمصعب اكتشف ذلك فهجاه بقوله :

أبا مطر شلت يمين تفرعت بسيفك رأس ابن الحوارى مصعب[2]

وبعد هذا النصر الرخيص دخل عبد الملك الكوفة ، فبايعه أهلها وولى عمالا من قبله على العراقيين . وكان صدى هزيمة مصعب قد تردد فى آفاق البلاد ، ولم ينجح عبد الله بن الزبير فى ستره على الرغم من تكتمه الشديد . فكان لذلك رنة أسى وحزن فى شعر الزبيريين ومن خير ما يمثل ذلك قول عبيد الله ابن قيس الرقيات فى هزيمة مصعب وتنديده بالقبائل التى تخلت عن نصرته فخذلته وباءت بالخزى والذلة واللوم :

لقد أورث المصرين خزيا وذلة قتيل بدير الجاثليق مقيم
فما نصحت لله بكر بن وائل ولا صبرت عند اللقاء تميم

---

(١) ابن الأثير ج ٤ ص ١٣٧ .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٣٦ .

ولو كان بكريًّا تعطف حوله ... كتائب يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن ... بها مضرى يوم ذاك كريم
جزى الله كوفيا هناك ملامة ... وبصريهم أن المليم مليم
وإن بنى العلات أخلوا ظهورنا ... ونحن صريح بينهم وصميم
فإن تفن لا يبقوا أولئك بعدنا ... لذى حرمة فى المسلمين حريم[١]

وبطبيعة الحال كان لهزيمة دير الجاثليق رنة فرح فى شعر الأمويين ، فبمقتل مصعب فيها آذنت شمس الخلافة الزبيرية بمغيب ، وقد ابتهج بذلك شعراء بنى أمية وفخروا به من مثل قول عدى بن الرقاع العاملى :

لعمرى لقد أصحرت خيلنا ... بأكناف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنا ... ومعتدل النصل والثعلب
إذا ما منافق أهل العرا ... ق عوتب ثمت لم يعتب
دلفنا إليه لدى موقف ... قليل التفقد للغيب
فقد منا واضح وجهه ... كريم الضرائب والمنصب
أعين بنا ، ونصرنا به ... ومن ينصر الله لم يغلب[٢]

وأصبح أمام عبد الملك أن ينهض لمعركة فاصلة مع الخلافة الزبيرية فى قصبتها ، فوجه بالحجاج بن يوسف الثقفى على رأس جيش لجب إلى الحجاز[٣]

وبعد أن قضى الحجاج شهورا فى الطائف ناوش خلالها ابن الزبير فى سهل عرفه استأذن عبد الملك فى دخول الحرم على ابن الزبير واستمده فأمدّه بطارق ابن عمرو فى خمسة آلاف ، وتقدما معا فبلغا مكة فى ذى القعدة سنة ٧٢هـ والمسلمون يستعدون لأداء الفريضة فلم يتمكن أحد من الفريقين من الطواف أو السعى حتى إذا أوشك الموسم أن ينتهى قذف الحجاج الكعبة بالمجانيق ، ولكنه كف لما نهاه عبد الله بن عمر عن انتهاك البلد الحرام فى الشهر الحرام منتظرا انتهاء الموسم.

---

(١) الطبرى ج ٧ ص ١٨٧ .
(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٨١ .
(٣) الطبرى ج ٧ ص ٢٠٢ .

ثم بدأ الحجاج يقذف الحجارة غير حافل بالرعد والبرق والصواعق ، وتكاثرت الحجارة على الكعبة حيث اعتصم ابن الزبير وأصحابه ؛ فرأى كثير منهم ألا طائل وراء المقاومة ، فطلبوا أمان الحجاج ، وبقى عبد الله فى عدد قليل ، وظلت الحرب دائرة وأصحابه يتفرقون عنه حتى خرج عامة أهل مكة إلى الحجاج فى الأمان وفيهم حمزة وحبيب ابنا عبد الله ، ولكن عبد الله أبى أن يقبل أمانا ناله له أخوه عروة ، وأحيط به واستمات فى المقاومة حتى أصابه حجر فى جبينه فتساقط عليه أهل الشام فصرعوه ، ثم صلبه الحجاج ليثير الرعب فى قلوب أنصاره ورفض رجاء أمه فى دفنه .

وقد كان لمقتل عبد الله وصلبه على هذه الصورة صدى حزين بين أهل الحجاز ، والقرشيين بخاصة ؛ وقد رثاه غير شاعر رثاء حارًّا مشيدين بشجاعته وصلاحه من مثل قول أحدهم :

نعى الناعى الزبير فقلت تنعى … فتى أهل الحجاز وأهل نجد
خفيف الحاذ ، نسال الفيافى … وعبدا للصحابة غير عبد[١]

وقد ندد الشعر الزبيرى بتخلى القبائل عن عبد الله ، وخذلانه من مثل قول جعفر بن الزبير وكان من أشد المخلصين ذبًّا عن أخيه حتى جمد الدم على يديه ، وهو يجالد أهل الشام :

لعمرك إنى يوم أجلت ركائبى … لأطيب نفسا بالجلاد لدى الركن
ضنين بمن خلفى شحيح بطاعتى … طراد رجال لا مطاردة الحصن
غداة تحامتنا بجيت وغافق … وهمدان تبكى من مطاردة الضبن[٢]

وكان الحجاج قد بعث برأس عبد الله إلى عبد الملك فجلس إلى سريره ، وأذن للناس فدخلوا عليه ، فقام عبد الله بن الزَّبير الأسدى فاستأذنه فى الكلام ، فقال :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ٤٠٧ .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ١٠١ .

مشى ابن الزبير القهقرى فتقدمت ... أمية حتى أحرزوا القصبات
وجئت المعلى يا بن مروان سابقاً ... أمام قريش تنفض العذرات
فلا زلت سباقاً إلى كل غاية ... إلى المجد نجاء من الغمرات

فقال عبد الملك : كيف قلت أبياتك فى المحل ، وفى الحجاج ، فأنشده :

كأنى بعبد الله يركب درعه ... وفيه سنان زاعبى محرّب
وقد فر عنه الملحدون وحلقت ... به وبمن أسناه عنقاء مغرب
تولوا فخلوه فشال بشلوه ... طويل من الأجذاع عار مشذّب
بكفىّ غلام من ثقيف نمت به ... قريش وذو المجد التليد معتّب

فقال له عبد الملك : لا تقل غلام ، ولكن قل همام [١] . ويبدو أن الخيانة لعبت دوراً كبيراً فى هزيمة عبد الله ، وأن أصابع عبد الملك والحجاج هى التى خذلت الناس عنه ، فقد ذكر أبو الفرج أن قوماً من شيعة بنى أمية كانوا يتجسسون لعبد الملك فقتلهم عبد الله بن الزّبير فهجاه عبد الله بن الزبَير الأسدى منددا بما يزعمه أنه عائذ بالبيت فقال :

أيها العائذ فى مكة كم ... من دم أهرقته فى غير دم
أيدٌ عائذة مفصمة ... ويدٌ تقتل من حلّ الحرم ؟[٢]

وبنهاية عبد الله سقطت الخلافة الزّبيرية التى قامت لمدة تسعة أعوام ، وكانت منافساً خطيرا لسلطان الأمويين لاعتدادها بالقرشية وبالكفاءة وبالإسلام ، ولتمسكها بأرض الحجاز ومحاولتها استعادة العاصمة القديمة للدولة ما كان لها من سيادة ولاعتصامها بالحرم ولياذها به ، ورفضها الخروج عنه إلى الشام ، وحقاً كان الزبيريون كابوسا مخيفاً بالنسبة للأمويين إذ نازعوهم ميراث قريش ، فكان فى الخلاص منهم راحة وطمأنينة عبر عنها نابغة بنى شيبان شاعر بنى أمية بقوله لعبد الملك :

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ٤٢ .
(٢) الأغانى ج ١١ ص ٤٢ .

أزحت عنا آل الزبير ولو　　كانوا هم المالكين ما صلحوا
آل أبي العاص آل مأثرة　　غر عتاق بالخير قد نفحوا
خير قريش وهم أفاضلها　　فى الجد جد وإن هم مزحوا
أما قريش فأنت وارثها　　تكف من غربهم إذا طمحوا[١]

وكان للقضاء على عبدالله واجتماع الناس على عبد الملك أكبر الأثر فى استنقاذ تغلب من مخالب قيس ، غير أن بقية بقيت لهذه الحروب الدامية بينهما ؛ فعلى الرغم من أن عبد الملك حاول أن يصلح بينهما إلا أنه لم يحكم عقدة الصلح تماما.

وتصادف أن الأخطل دخل على عبد الملك وعنده الحجاف بن حكيم السلمى فسأله عبد الملك إن كان يعرفه ؟ فقال : نعم هذا الذى أقول فيه :

ألا سائل الحجاف هل هو ثائر　　بقتلى أصيبت من سليم وعامر
أجحاف إن تهبط عليك فتلتقى　　عليك بحور طيبات الزواجر
تكن مثل أنداء الحباب الذى جرى　　به البحر تزهاه رياح الصراصر

وكان الأخطل يشير بذلك إلى قتل تغلب لعمير بن الحباب ، وكان الجحاف ممن فتكوا بتغلب تحت لوائه ، وقد فعل الغضب بالجحاف فعله ، والأخطل ينشد قصيدته حتى إذا فرغ منها أجابه الجحاف :

نعم سوف نبكيهم بكل مهند　　ونبكى عميراً بالرماح الخواطر

ووثب يجر مطرفه ، وافتعل عهدا من عبد الملك على صدقات بكر وتغلب ، وقاد ألف فارس من قومه سار بهم حتى أتى الرصافة ؛ فكشف لهم أمره ، وأنشدهم قول الأخطل ، وأثار حفيظتهم على تغلب فتابعوه ؛ ونزل بهم وادياً لبنى تغلب يدعى البشر أغاروا عليه ليلا ، فقتلوا الرجال وبقروا النساء ؛ وكان بين القتلى ابن للأخطل ، كما وقع الأخطل نفسه فى الأسر غير أنه موه على بنى سليم فادعى أنه من عبيد تغلب فأطلقوه وهم لا يعرفونه ؛ ولما رأى الجحاف أنه خرج بذلك على ميثاقه لعبد الملك لحق بأرض الروم خوفا منه ، ومكث زمناً

(١) الأغانى ج ٧ ص ١٠٦ .

فيهم ، وقال فى ذلك :

فان تطردونى تطردونى وقد مضى　　من الورد يوم فى دماء الأراقم
لدن ذر قرن الشمس حتى تلبست　　ظلاماً بركض المقربات الصلادم[١]

ولما سكن غضب عبد الملك ، كامته القيسية فى أن يؤمنه ، فلان وتلكأ ، فخُوف عبد الملك شره على المسلمين إن طال مقامه بأرض الروم ؛ فأمنه ؛ غير أنه ألزمه دفع ديات القتلى يوم البشر ، فلجأ إلى الحجاج فأداها له . فلما قدم على عبد الملك سأله أن ينشده بعض ما قاله فى غزواته فأنشده قوله :

صبرت سليم للطعان وعامر　　وإذا جزعنا لم نجد من يصبر

فقال عبد الملك : كذبت ، ما أكثر من يصبر ، فقال الجحاف :

نحن الذين إذا عَلوا لم يفخروا　　يوم اللقاء وإذا عُلوا لم يضجروا

فقال عبد الملك : صدقت ، ثم لقيه الأخطل ، فقال الجحاف :

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى　　على القتل أم هل لا منى لك لائم ؟
أبا مالك إنى أطعتك فى التى　　حضضت عليها فعل حرّان حازم
فإن تدعنى أُخرى أجبك بمثلها　　وإنى لطبّ بالوغى جد عالم[٢]

وتزعم الرواية ، أن الأخطل قال له : أراك والله شيخ سوء ، وقال جرير فى ذلك معرضاً بالأخطل وهزيمة تغلب يوم الكحيل :

فإنك والجحاف يوم تحضه　　أردت بذاك المكث والورد أعجل
بكى دوبل لا يرقئ الله دمعه　　ألا إنما يبكى من الذل دوبل
وما زالت القتلى تمور دماؤهم　　بدجلة حتى ماء دجلة أشكل[٣]

فرد عليه الأخطل لائماً على بنى مروان تساهلهم مع قيس ، مهدداً بالتخلى عن مؤازرتهم فى قوله :

لقد أوقع الجحاف بالبشر وقعة　　إلى الله منها المشتكى والمعوّل

---

(١) لأغانى ج ١١ ص ٥٧ وما بعدها .
(٢) الأغانى ج ١١ ص ٥٧ .
(٣) الأغانى ج ١١ ص ٥٧ .

فسائل بني مروان ما بال ذمة　　وحبل ضعيف لا يزال يوصّل
فإلاّ تغيّرها قريش بملكها　　يكن عن قريش مستراد ومرحل(١)

وقد مال الجحاف بعد ذلك إلى السلم وتأله وحج ونسك .

وما سقنا هذه الأحداث إلا لندل على أن السياسة قد اختلطت بالعصبية وما جرته من ذحول وثارات ، إذ اشتعلت العصبيات ونشبت الوقائع بين القبائل القيسية من جهة والقبائل اليمنية وتغلب من جهة ثانية ، وسل الشعراء ألسنتهم فى الفريقين مدافعين عن قبائلهم ومهاجمين لخصومهم فاخرين ومتهاجين هجاء مريراً .

ولم يقتصر الأمر على التناقض العصبي بعد اختلاط العصبية بالسياسة فكان هوى قيس المضرية مع آل الزبير الذين كانت دعوتهم القرشية رمزاً لسيادة مضر على قبائل اليمن المتحالفة مع الأمويين .

ومن ثم اختلطت فى شعر الشعراء العصبية بالسياسة ، فتراصّ شعراء قيس وعلى رأسهم زفر بن الحارث وعمير بن الحباب وجهم القشيرى وابن الصفّار المحاربى، ووقف أمامهم شعراء كلب من أمثال جوّاس بن القعطل وعمرو بن مخلاة الحمار ومنذر بن حسان وشعراء تغلب وعلى رأسهم الأخطل . وأخذ كل فريق يريش سهام الوعد والوعيد والتهديد والتخويف الشديد ، ويصبغ هذا العداء العصبي بصبغ سياسى ، ويدل على ذلك ما جاء فى قصيدة الأخطل التى مدح فيها عبد الملك منوهاً بجوده فقد مضى بعد ذلك يفصل الحديث عن حربه لمصعب ومهارة عبد الملك فى قيادة الجيوش والظفر بخصومه ، مادحاً أسرته ، منوها بشرفها ، وأنفتها وبأسها وحلمها وصلابتها ، غير ناسٍ أن يضع قومه التغلبيين موضع حلفاء الدولة مشيدا بنضالهم وبوقوفهم فى صفها وانتصارهم على أعدائها ، وبطبيعة الحال كان عليه أن يحمل على أعداء قومه وأعداء الدولة من قيس فيحذر ممدوحه من زفر بن الحارث زعيمها ، وكان قد دخل فى طاعته بغية

(١) نفس الموضع .

أن يُحفظه عليه وعلى قبيلته ، يقول :

بنى أمية إنى ناصح لكم فلا يبيتنْ فيكم آمناً زفر
واتخذوه عدوًّا إن شاهده وما تغيب من أخلاقه وعر
إن الضغينة تلقاها وإن قدمت كالعرّ يكمن حيناً ثم ينتشر
وقد نصرت أمير المؤمنين بنا لما أتاك ببطن الغوطة الخبر
يُعرِّفونك رأس ابن الحباب وقد أضحى وللسيف فى خيشومه أثر
فلاهدى الله قيساً من ضلالهم ولا لعاً لبنى ذكوان إن عثروا
ضجوا من الحرب إذ غضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر[١]

وكذلك يفعل جرير وقد اتخذ موقف المدافع عن قيس ، فقد سارعت عشيرته اليربوعية بالبيعة لابن الزبير ، فاتفق هوى عشيرته مع قيس فراح يفخر على الأخطل وقومه ، بما أنزلته قيس بهم من فتك يوم البشر ، فيقول :

إنى رأيتكم والحق مغضبة تخزون أن يذكر الجحاف أو زفر
قوماً يردون سرح القوم عادية شعث النواصى إذا مايطرد العكر
قادوا إليكم صدور الخيل معلمة تخشى الطعان وفى أعطافها زور
فما منعتم غداة البشر نسوتكم ولاصبرتم لقيس مثل ماصبروا
تهجون قيساً وقد جزّوا دوابركم حتى أعزّ حصاك الأوس والنمر
ياخزر تغلب إن اللؤم حالفكم ما دام فى ماردين الزيت يعتصر
تسربلوا اللؤم خلقاً من جلودهم ثم ارتدوا بثياب اللؤم واتزروا[٢]

وكان تصادف أن مجاشعيًّا قتل الزبير بن العوام حين لجأ بعد موقعة الجمل إلى مجاشع ، وتصادف أيضاً أن النوار زوج الفرزدق لجأت حين غاضبته إلى عبد الله بن الزبير واستجارت بامرأته بنت منظور بن زبّان فخرج الفرزدق عائذاً بحمزة بن عبد الله بن الزبير ومدحه بشعر منه قوله :

---

(١) ديوان الأخطل ص ١٠٥ .

(٢) د ن جرير ص ٢٦٠ .

يا حمز هل لك فى ذى حاجة عرضت — أنضاؤه ببلاد غير ممطور
فأنت أولى قريش أن تكون لها — وأنت بين أبى بكر ومنظور
بين الحوارىّ والصديق فى شعب — نبتن فى طيب الإسلام والخير[١]

ولكن أمر النوار جعل يقوى بينما ضعف أمر الفرزدق فى هذا النزاع مما حدا به إلى أن يقول فى ذلك معرضا بابن الزبير وابنه :

أما بنوه فلم تقبل شفاعتهم — وشفعت بنت منظور بن زبّانا
ليس الشفيع الذى يأتيك مؤتزراً — مثل الشفيع الذى يأتيك عريانا[٢]

وتذكر الروايات أن ابن الزبير زجر الفرزدق ، ووصف قومه من مجاشع بأنهم جالية العرب وأنهم وثبوا على البيت قبل الإسلام بمائة وخمسين عاماً فاستلبوه ، وسيرتهم قريش من أرض تهامة مطرودين ، مما أحفظ الفرزدق فهجا ابن الزبير مفتخراً عليه بقومه محذراً إياه من أن يؤذيه فى قوله :

فإن تغضب قريش ثم تغضب — فإن الأرض ترضاها تميم
هم عدد النجوم وكل حى — سواهم لا تعد لهم نجوم
فلولا بنت مرّ من نزار — لما صح المنابت والأديم
بها كثر العديد وطاب منكم — وغيركم أحذّ الريش هيم
فمهلا عن تذلل من عززتم — بجولته وغرّ به الحميم
أعبد الله مهلا عن أذاتى — فإنى لا الضعيف ولا السؤوم
ولكنى صفاة لم تؤنس — تزلّ الطير عنها والعصوم
أنا ابن العاقر الخور الصفايا — بصور حين فتّحت العكوم[٣]

وهكذا كانت إعانة ابن الزبير النوار على الفرزدق من الأسباب التى دفعت به إلى الوقوف فى وجه قيس حليفته ضد شاعرها المحامى عنها جرير ، فاشتبكا

---

(١) الأغانى ج ٣ ص ١٢٠ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) الأغانى ج ٨ ص ١٨٢ .

فى الهجاء من ناحية بينما اشتبك جرير والأخطل شاعر تغلب عدوة قيس من ناحية أخرى .

وقد وقف الشعراء الثلاثة حياتهم على تنمية تلك النقائض القبلية وتكريسها مستلهمين فى ذلك ظروف العصر وأحداثه السياسية ، وكان عملهم من العوامل التى ساعدت على امتزاج العصبية بدخولها وثاراتها مع السياسة بأحزابها واتجاهاتها الأمر الذى هيأ لاشتعال نيران الهجاء طوال العصر ولنمو فن النقائض نمواً واسعاً .

٢

ليس للشعر الزبيرى غير موضوع واحد هو السياسة ، من دعوة إلى تعاليمهم وبيان لمذهبهم فى الخلافة وما يقوم عليه من دعائم ، وما تستوجبه الدعوة من إشادة بالتعاليم وبيان لمذهبهم فى الخلافة وما يقوم عليه ، وما تستوجبه الدعوة من إشادة بالتعاليم والدعائم وبصاحب الدعوة وصفاته والاحتجاج له بإضفاء المميزات التى تراها الدعوة شرطاً لازماً لمن يلى ذلك المنصب الخطير ، وما يتبع ذلك من الرد على خصوم الدعوة وصاحبها والحملة عليهم على اختلافهم بين أمويين وخوارج وشيعة وغير هؤلاء من القبائل التى انحازت إلى الدولة وتخلت عن مناصرة آل الزبير .

ووراء هذه الموضوعات لا نكاد نجد للشعر الزبيرى غاية أخرى ، وقد عبر شعر الزبيريين عن كل تلك الموضوعات تعبيراً دقيقاً حتى إننا لا نكون مغالين إذا ما قلنا إنه كان سجلا وافياً لحركتهم بكل تفاصيلها .

فقد سجل الشعر عقيدة الزبيريين الأساسية ، وما تقضى به من ضرورة كون الخلافة فى قريش فهى عز العرب ورمز وجودهم ، ولا حياة لهم بدونها ، وهى عماد الخلافة فإذا ما زالت عنها سقط ركنها سقوطاً لا ترتفع بعده ، كما يقول ابن قيس الرقيات :

إن تودع من البلاد قريش ... لا يكن بعدهم لحى بقاء
لو تقفى وتترك الناس كانوا ... غنم الذئب غاب عنها الرعاء[١]

والتاريخ شاهد على أن الملك كان موفورا لقريش قبل أن تتفتت وحدتها ويتفرق شملها إذ كانت آنذاك سيدة العرب وأمرها جميع ، فلما تفرقت طمع فيها الطامعون واشرأب إلى سلطانها سائر القبائل ، وشمت فيها الأعداء ، واشتهى فناءها الخصوم كما يقرر ذلك شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات فى قوله :

حبذا القوم حين قومى جميعٌ ... لم تفرق أمورَها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ما ... لك قريش وتشمت الأعداء
أيها المشتهى فناء قريش ... بيد الله عمرها والفناء[٢]

وقريش فضلا عن ذلك ، سادنة الكعبة وصاحبة أمر البيت الحرام ، خصها الله بهذا الشرف دون جميع العرب . فكرامتها من كرامة البيت وهى آمنة بجوار الحرم يجرى لها الثراء مع أولئك الذين تهوى أفئدتهم إليه فيأتون رجالا وعلى كل ضامر من كل فج عميق وهم تجار العرب ومركز الثقل فى الغنى والجاه حتى استحقوا حسد العرب :

لم نزل آمنين يحسدنا النا ... س ويجرى لنا بذاك الثراء

كان هذا حال قريش قبل أن تمزقها الأهواء ويغريها جاهها وسلطانها ألا تعبأ بوحدتها فجرت خلف المطامع وهجرت الحجاز إلى دمشق وربوع الشام وتركت وراءها مكة وما حولها فتفرقت قريش بلداناً وشيعاً مخلفين وراءهم وطنهم وديارهم مقفرة تبكى ساكنيها كما يقول شاعرهم :

أقفرت بعد عبد شمس كداء ... فكدى فالركن فالبطحاء
فمنى فالحجاز من عبد شمس ... مقفرات فبلدح فحراء

ومعنى هذا أن اعتقاد الزبيريين بضرورة كون الخلافة فى قريش ليس أمراً متعلقاً بفكرة مجردة وإنما هو واقع عملى أيضاً بحيث تكون عاصمة تلك الخلافة

(١) الديوان ص ١٨٢   (٢) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٢ .

التى يعنون فى الحجاز ، وبحيث تعتمد فى قيامها على العناصر القرشية الصميمة ، وليس على كلب وأخواتها من قبائل الشام اليمنية التى ظاهرت دولة الأمويين وكرست السلطان بعيداً عن الحجاز حتى تحول مصراً كالأمصار لا يتميز عنها فى شىء ولا تمتد إليه عناية الأمويين وحلفائهم من اليمنية إلا بالقمع والإرهاب حتى لم يسلم من أذاهم بيت الله الحرام نفسه فحرقوه بأيدى حلفائهم من اليمنية من أمثال عك ولخم وجذام ولكن الزبيريين الذين يعرفون حق حرمته أعادوا بناءه من جديد ، وكذلك لم يسلم من أذاهم أهل الحرم فاستبيح حماهم وأعلنت مكة والمدينة بلدين مستباحين لنهب الجند الشاميين ونكالهم وفتكهم كما يقول شاعر الزبيريين :

ليس لله حرمة مثل بيت ... نحن حجابه عليه الملاء
خصه الله بالكرامة فالبا ... دون والعاكفون فيه سواء
حرّقته رجال لخم وعك ... وجذام وحمير وصداء
فبنيناه بعد ما حرّقوه ... فاستوى السَّمك واستقل البناء

فاعتداد العقيدة الزبيرية بالقرشية لا ينفصل عن اعتدادها بالحجاز ، وما يشتمل عليه من الأماكن المقدسة ، وهذا يضفى على الفكرة العصبية صبغاً دينيًّا مقدساً ، حتى يمكن القول بأن العقيدة الزبيرية إنما كانت تمثل الخلافة كما تراها الأرستقراطية العربية المضرية الحجازية المسلمة أقوى تمثيل ، وهى بهذا منصب لا يجدر به إلا عربى قرشى يعتز بمضريته وبموطنها الأصلى ومركز فخارها الدينى فى الأماكن المقدسة بالحجاز .

ولهذا فقد التزم شعر الزبيريين بتصوير الخليفة تصويراً يجمع له فيه هذه الصفات فعبد الله بن الزبير ابن الحجاز : درج ببطاحه وجباله وحول البيت وأركانه ، وهو من قريش أعز معدن من معادنها ، وأوفى فرع فيها وأوفاها حظًّا من السلطان والحكم والقضاء ، وأعلمها بها ، وأصحها فى دائها ، وأشرفها نسباً وأتمها إذا نسبت إلى آبائها وكل بلاد غير بلاده ضيق فضاؤها كما يقرر كل ذلك شاعر آل الزبير فى قوله لعبد الله :

أنت ابن معتلج البطا ح كديها وكدائها
فالبيت ذى الأركان فالـ ـمستنّ من بطحائها
فمحل أعلاها إلى عرفاتها فحرائها
من سرها فيها ومعد ن برها ووفائها
أوفى قريش بالعلا فى حكمها ، وقضائها
ولأنت أعلمها بها وأصحها فى دائها
وأتمها نسبا إذا نسبت إلى آبائها
إن البلاد سوى بلا دك ضاق عرض فضائها[١]

وعلى هذه الصورة احتج شعر الزبيريين للدعوة الزبيرية ، ودافع عن جدارة الزبيريين ورأس دعوتهم عبد الله واستدل على أحقيته بالخلافة بقرشيته ، لأن قريشاً أصل الخلافة والحكم والقضاء ، وسادنة البيت ، وقاطنة الحجاز مهبط الوحى وبؤرة الإسلام ، كما احتج بكفاءته ، فهو أعلم قريش بشئونها ، وأصح أعضائها ، وأتمها نسباً ، وأكثرها برًّا ، وأشدها وفاء ، وأوفرها تقوى وصلاحا وخيرا .

وعبد الله فضلا عن ذلك ابن حوارى الرسول وابن عمته ، كما يقول شاعرهم :

بابن الحوارى الذى لم يعده هل الوقيعة[٢]

وهو فضلا عن ذلك أيضاً ابن أسماء بنت أبى بكر ، وأخت عائشة ، وهو فتى قريش كما يقول شاعرهم :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[٣]

وقد أشاد الشعر الزبيرى بتدين عبد الله وأخيه مصعب وبقوة إيمانهما ، وقيام

---

(١) الموشح ص ١٨٦
(٢) مروج الذهب ج ٣ ص ٥٢
(٣) ديوان ابن قيس الرقيات ص ١٨٩

ملكهما القوى على دعائم وتعاليم الإسلام ، لا على البطش والزهو والخيلاء ، كما نوه بروحانيتهما وبأنهما من الهداة الذين يكشفون الظلم ، وأشاد بصلاحهما وتقواهما وباتقائهما الله فى جميع الأمور ، فكل منهما يعتمد على التقوى فى حكمه ويعدها سبباً لكل فلاح ونجاح ، كما يقول ابن قيس الرقيات فى مصعب ابن الزبير :

إنما مصعب شهاب من الله ه تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء
يتقى الله فى الأمور وقد أفلـ ـح من كان همّه الأتقاء

وآل الزبير يستهدفون قيام حكم إسلامى ولهذا فقد تقبلوا بيعة المسلمين على أساس تعاليم الإسلام ومبادئه ، فبايعهم الناس بيعة الإسلام ، كما بايعتهم الجموع المباركة على الجهاد فرسانا فى سبيل الإسلام يتقدمون زحفهم ، ويحمون ظهورهم تحت قيادة قائد مؤمن ناسك مبارك وفارس شديد المراس أيضاً ، لا يكاد يمزق كتيبة حتى يميل على غيرها فيفتك بها فتكاً ذريعاً :

على بيعة الإسلام بايعن مصعباً كراديس من خيل وجمعا مباركاً
تدارك أخرانا وتمضى أمامنا وتتبع ميمون النقيبة ناسكا
إذا فرغت أظفاره من كتيبة أمال على أخرى السيوف البواتكا

وكان ضرورياً والمصالح الحزبية تحتك وتتصادم أن يعنى الشعر الزبيرى بالحملة على خصوم الدعوة الزبيرية ، والطعن عليهم والتنديد بهم وإثارة الأحقاد ضدهم ، وقد حمل شعر الزبيريين على بنى أمية وملكهم حملات شعواء ، وأعلنهم بالعداء وهددهم بالويل والثبور وعاب عليهم ما ارتكبوا من شرور كقتل الحسين بن على حفيد الرسول صلى الله عليه وسلم فى كربلاء وهو أمر استخدمته دعوة الزبيريين فى بداية قيام حكمهم ، فضربوا على نغمة الحزن على الحسين وشهروا ببنى أمية تشهيراً ، وقد صور ذلك عبيد الله بن قيس فى قوله :

---

(١) الديوان ص ١٨٤

(٢) ديوان ابن قيس ١٥٩

كيف نومى على الفراش ولمّا ... تشمل الشامَ غارةٌ شعواء
تـُذهل الشيخ عن بنيه وتبدى ... عن عراها العقلية العذراء
أنا عنكم يابنى أمية مزوّر ... وأنتم فى نفسىَ الأعداء
قتلىً بالطف قد أوجعتنى ... كان منكم ـ لئن قتلتم ـ شفاء[1]

وكان لاصطدام حركة الزبيريين بحركة المختار فى العراق أصداء فى شعر الزبيريين فندد شعرهم بالمختار وسخر منه ومن شعوذاته وكذب ترهاته وتوعده وشيعته من الكيسانيين بالقتال حتى الموت كما جاء فى قول سراقة البارقى ، وكان قد وقع فى أسر المختار للخلاص منه بأن زعم أنه رأى الملائكة تحارب فى صفه ثم لاذ بمصعب حيث رمى المختار من البصرة بالشعوذة والدجل على هذا النحو من السخرية :

ألا أبلغ أبا إسحاق أنى ... رأيت البلق دهما مصمتات
أُرى عينىّ ما لم تبصراه ... كلانا عالم بالترهات
إذا قالوا أقول لهم : كذبتم ... وإن حرجوا لبست لهم أداتى
كفرت بوحيكم وجعلت نذرا ... على قتالكم حتى الممات[2]

وقذف شعرهم حلفاء بنى أمية من قبائل اليمن الشامية وتغلب بحمم هجائه مستنكراً تطاولهم إلى الوقوف ضد دعوة الزبيريين منددا بتجرئهم على إستباحة الحرم وتحريق البيت كما يقول ابن قيس :

حرّقته رجال لخم وعك ... وجذام وحمير وصداء

ولج شعر القيسية فى مضمار الصراع مع قبائل اليمن فعبر عن سخط قيس على سياسة الأمويين واعتزازهم باليمنية، وشعر قيس إنما يصدر فى ذلك عن إيمان بالفكرة الزبيرية فى تصور القيسين ابن الزبير منقذاً لمضر من سيطرة اليمنية واستفحال أمرها ، وخليفة يمثل آمالها فى الارتفاع بها وبالعصبية المضرية

---

(١) الديوان ص ١٨٣ ١٨٤ ، الأغانى ج ٥ ص ٧٨
(٢) الطبرى ج ٧ ص ١٢٣ ابن الأثير ج ٤ ص ١٠٠ ج ٥ ص ٧٨

إلى حيث تشتهى من السطوة والسلطان .

ويبدو ذلك بوضوح فى ما مر بنا من شعر القيسية ، وبخاصة فى تلك الأبيات التى قالها زفر بن الحارث واستنكر فيها بشدة انتصار حسان بن بحدل زعيم الكلبية فى مرج راهط وانخذال ابن الزبير زعيم المضرية أمامه . وتوعد كلباً وعيداً مليئاً بالأمل فى النصر والظفر والإيمان بأن الحق سيعلو يوماً وإن تأخر ، يقول :

أفى الله أما بحدل وابن بحدل فيحيا وأما ابن الزبير فيقتل
كذبتم وبيت الله لا تقتلونه ولمّا يكن يوم أغرّ محجل
ولمّا يكن للمشرفية فوقكم شعاع كقرن الشمس حين ترحل[١]

ويلحق بهذا الضرب من ضروب شعر الزبيريين لون طريف من ألوان الكيد للخصوم والحملة عليهم ، وهو نوع من الهجاء يشتبك بضرب آخر من ضروب الشعر هو الغزل . وقد لجأ الشعر الزبيرى إلى هذا اللون بقصد العبث بخصوم الدعوة عبثاً يشتمل على الإهانة والسخر ويحمل على الغضب والحنق . لأن هذا اللون يذكر نساء الخصوم بما لا يحسن ذكره فى صورة الغزل ، أى أنه يتوسل بالغزل الفاضح إلى الهجاء المقذع وإلى التشهير بهم . وقد سمى هذا اللون بالغزل الكيدى [٢] أو بالغزل الهجائى[٣] .

وبهذه الوسيلة احتال شعر الزبيريين فى إغاظة خصومهم ، وكيف لا يغتاظ عبد الملك والوليد ، والناس تهامس بأبيات تصور أم البنين فى أحضان شاعر زبيرى ينال منها كل ما يريد وكأنها امرأة مبتذلة هلوك لا يمسكها طهر ولا عفاف وإنما تمعن مع ضجيعها فى اللهو إلى طلوع الفجر لا يوقظهما من نشوتهما إلا مناد ينادى لصلاة الصبح .

وتمكر الأبيات بعبد الملك فى خبث ، وتعبث به ، فتقدم إشارة تشير إلى أن هذا كله إنما حدث ذات ليلة فى المنام :

---

(١) شرح التبريزى للحماسة ج ١ ص ١٢٣
(٢) أدب السياسة فى العصر الأموى ص ٢٢٥
(٣) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥٢

أتتنى فى المنام فقلـ ـت هذا حين أعقبها
فلما أن فرحت بها ومال علىَّ أعذبـُها
شربت بريقها حتى نهلت وبتُّ أشربها
وبتُّ ضجيعها جذلا ن تعجبنى ، وأعجبها
وأيقظنا مناد فى صلاة الصبح يرقبها[1]

وليس شك فى أن مثل هذه الأبيات قد أحفظ زوجها الوليد كما أحفظ أباه ، وأباها عبد العزيز بن مروان ، كما أغاظ بنى أمية جميعاً ونال منهم .

هذه إذن أغراض شعر الزبيريين وموضوعاته ، لا تخرج عن هدف الدعاء للعقيدة السياسية والإشادة بها وبرجالها والاحتجاج لحقهم بتعديد الميزات التى يتميزون بها ، والصفات التى تحليهم ، والحملة على خصومهم وهجائهم والتنديد بأعمالهم وتهديدهم والتحريض عليهم والعبث بأعراضهم بقصد الكيد لهم والنيل منهم .

٣

ويتميز الشعر الزبيرى بأنه شعر قليل ، وذلك لأن الحزب الذى صدر عنه كان حزباً قصير العمر ، فلم تعمر نظريته ، ولم تتأصل بالقدر الذى يتيح للإنتاج الشعرى أن يكثر وأن يتتابع فى التعبير عنها والانتصار لها ، وقد ساعد على قلة الإنتاج الشعرى أسباب شخصية تتصل برأس هذه الدعوة وعدم تقديره لدور الشعر فى الدعاء ، ولبخله الذى جعل الشعراء يزورون عنه إلى خصومه الذين يغدقون عليهم حتى لم ينج من شحه أقرب الناس إليه .

ويذهب كل شعر الزبيريين فى مجال واحد هو مجال السياسة ، فقد شغل فحسب بالدعوة إلى مذهبهم والدفاع عنه والتنويه بصاحبه وآله ، وبالحملة على

(١) ديوان ابن قيس الرقيات ص ٢١٨ .

خصومهم ، وقد رأينا كيف أشاد بعبد الله ومصعب وفاخر بنسبهما وحسبهما وبإسلامهما وتقواهما وصلاحهما ، مما يجعلهما جديرين بما يحاولان من السلطان ، لتمتعهما بشرف النسب القرشي ورعايتهما لتعاليم الإسلام وشعائره وحرماته .

وقد يجدر بنا أن نلاحظ أيضاً أن صورة الخصوم فى الشعر الزبيرى تفتقد هذين العنصرين الأساسيين فى الفكرة الزبيرية ، فالقبائل اليمنية على إسلامها ليست جديرة بالسلطان لأنه حق مضر وذروة شرفها قريش ، وبنو أمية على قرشيتهم ليسوا أكفاء لآل الزبير الذين يرعون حرمات الله ، ولا يقوم ملكهم على القوة والجبروت مثلهم وإنما على البر والتقوى والصلاح ، وكذلك فإن بلادهم التى اتخذوها مركزا للسلطان وقاعدة للحكم ليست فى قداسة الأرض التى جعلها الله مثابة للناس وأمناً ، وأمر الناس باستقبالها فى صلاتهم .

وبهذا يكتسب الشعر الزبيرى خصيصة مميزة وهى أنه شعر يصدر عن السياسة التى تعتد بعنصر الدين فهو شعر يعبر عن السياسة الدينية إذن .

وقد تجلت الملامح الدينية فى شعرهم ، فانطبع بطابع إسلامى واضح يبدو فى عدة مظاهر منها الإلحاح على وصف عبد الله ومصعب بصفات دينية ، كما جاء فى أبيات للنابغة الجعدى شبه فيها عبد الله بن الزبير فى سيرته العادلة بالصديق وعمر وعثمان وأشاد برعايته لمبادئ الإسلام فى التسوية بين سائر الناس كما يقول :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم

وسويت بين الناس فى العدل فاستووا ... فعاد صباحا ، حالك اللون مظلم[1]

ومن ذلك أيضاً تصوير الزبيريين ، ومن ناصرهم من العرب ، وتابعهم من المسلمين فى صورة دينية خالصة ، كتسمية الحزب الزبيرى بحزب الله ، ووصف من اتبعوا تعاليمه بأنهم شرطة الله فى قول سراقة البارقى بعد مقتل ابن زياد يوم خازر :

---

(١) تهذيب الكامل ج ١ ص ٢٢٥

جزى الله خيراً شرطة الله إنهم شفوا من عبيد الله أمس غليلى[١]

ومن ذلك أيضاً ، وصف أعدائهم بأنهم شرطة الكفر فى قول أعشى همدان متهكما بمخاريق الكيسانية :

شهدت عليكم أنكم سبيئة وأنى بكم يا شرطة الشرك عارف[٢]

ويشيد شعرهم باعتدادهم بما أنزل الله من الوحى والاعتماد عليه فى إقامة حكمهم من مثل قول أعشى همدان :

وإنى امرؤ أحببت آل محمد وتابعت وحيا ضُمِّنته المصاحف
وتابعت عبد الله لما تتابعت عليه قريش شمطها والغطارف[٣]

وشعر الزبيريين باستثناء القليل منه ، وهو الجزء الذى انتجع به أصحابه كرم آل الزبير ورفدهم ، يتميز بحرارة العاطفة وصدق الإحساس ، وذلك لأنهم أصحاب عقيدة آمنوا بها إيماناً عميقاً فجاء شعرهم قويًّا متدفقاً ، وأوضح مظهر لهذه الحرارة حملاتهم الشعواء على خصومهم ، وتوعدهم إياهم ، فليس هناك فى شعر الفرق المعارضة للأمويين ما يمكن أن يمثل حقد الموتورين منهم كما تمثله أبيات عبيد الله بن قيس الرقيات التى يقول فيها :

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشام غارة شعواء
تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن براها العقيلة العذراء[٤]
أنا عنكم يا بنى أمية مزو رٌ وأنتم فى نفسىَ الأعداء

أو كقوله بعد وقعة الحرة :

والله أبرح فى مقدمة أهدى الجيوش علىّ شكتيه
حتى أفجعهم بإخوتهم وأسوق نسوتهم بنسوتيه[٥]

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ١٤٦ .
(٢) الطبرى جـ ٦ ص ١٤١ .
(٣) الطبرى جـ ٦ ص ١٤١
(٤) الديوان ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، الأغانى جـ ٥ ص ٧٨ .
(٥) الديوان ص ١٨٩ .

وليس شك فى أنه حقد دفين لا يقنع بما هو دون استصال بنى أمية وملكهم وحلفائهم من قبائل الشام اليمنية وبخاصة كلب التى بلغ من حقد زفر بن الحارث الكلابى زعيم قيس عليها ما جعله يقول :

فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا وتثأر من نسوان كلب نسائيا[١]

وسر هذه الحرارة الشعورية أنه شعر عقيدة ، وليس شعراً مزور العاطفة تمدحاً واستعطافاً وأنه يصدر فى المقام الأول عن إحساس عرقى شديد التعصب لعصبية بعينها وإن كان الإسلام قد خفف إلى حد ما من غلوائه إلا أن مذهبهم قد استطاع أن يحتوى الإسلام وأن يزعم الصدور عن تعاليمه وأن يزاوج بينه وبين العصبية ليستخرج من امتزاجهما إحساساً أرستقراطيا مستعلياً ، وقد تميز عن شعر المعارضين جميعا فى هذا الغرض بلجوئه إلى الغزل الكيدى نكاية فى الخصوم وهو اتجاه قبلى جاهلى السمات فى إفحاشه وإقذاعه على الرغم من الاحتيال فى الاستخفاء وراء الحلم والمنام .

وشعرهم بسبب من حرارة العاطفة العصبيةوتدفقها لم يسلك مسلك البرهنة ولا الاحتجاج للمذهب وإنمااتجه إلىدعمهبالتأثير العاطفىولم يلجأإلى التدليلالعقلى ولهذا فقد جاء شعرهم غنائيًّا صرفاً بعيداً كل البعد عن اصطناع أساليب الجدل والمنطق إذ لم تفسح العقيدة فيه مجالا للرأى ، فالدعوة لحكم قريش وجدارتها بالسلطان وتميزها عن بقية العصبيات لا تستند إلى أسانيد عقلية ولا منطقية ، وإنما تقوم على أسس عرقية عاطفية فحسب ، فضلا عن مجافاتها لروح العدل والمساواة التى جاء بها الإسلام ، ولهذا كان الاحتجاج لآل الزبير احتجاجاً عاطفيًّا خالصاً ، فابن الزبير خير من مسح الركن فعالا وخيرهم بنياناً وهو هجان قريش إذا القوم قالوا من الفتى ، ومن الهجان ؟ ومصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء إلى غير هذا من ألوان الاحتجاج الذى لا يستند على أسس سوى العاطفة .

---

(١) الطبرى جـ ٦ ص ٤١ .

وحقاً كانت العاطفة الحارة سمة من سمات الشعر الزبيرى ، وبخاصة العاطفة الحزينة التى تكاد تسود شعرهم جميعاً ، وهى تشبه من بعيد عاطفة الشيعة وإن كانت لا تمثلها لا ختلاف مصدرهما ولا شك فى أن ذواء الحلم الزبيرى بهذه السرعة وسوء الحظ الذى منوا به فى فترة نفوذهم القصيرة كانت من أهم الأسباب الفاعلة فى انطباع شعرهم بطابع العاطفة الحزينة من مثل قول ابن قيس الرقيات مصوراً الحال التى آلت إليها قريش بتفرقها وتمزق وحدتها .

لو بكت هذه السماء على قو ... م كرام بكت علينا السماء
عين فابكى على قريش وهل ير ... جع ما فات ، إن بكيت البكاء
معشر حتفهم سيوف بنى العلا ... ت يخشون أن يضيع اللواء
ترك الرأس كالثغامة منى ... نكبات تسرى بها الأنباء[(١)]

أو فى قوله وقد تخلت بكر بن وائل وتميم عن نصرة مصعب أمام عبد الملك :

فما نصحت لله بكر بن وائل ... ولا صبرت عند اللقاء تميم
ولو كان بكرياً تعطف حوله ... كتائب يغلى حميها ويدوم
ولكنه ضاع الذمام ولم يكن ... بها مضرى يوم ذاك كريم[(٢)]
وإن بنى العلات أخلوا ظهورنا ... ونحن صريح بينهم وصميم

ولكن هذه العاطفة الحزينة سرعان ما تنقلب إلى حقد دفين ، واستعلاء بعيد ، واعتزاز شديد وهدير متدفق عند الحديث عن قريش أو ذكر الحجاز فى مواطن الفخار من مثل قول عبيد الله بن قيس :

إن البلاد سوى بلا ... دك ضاق عرض فضائها
فاجمع بنىّ إلى بنيـ ... ـك فأنت خير رعائها
نحن الفوارس من قريـ ... ـش يوم جد لقائها[(٣)]

وكان من نتائج هذا المسلك أن جاء شعرهم رصيناً ، جزل الأساليب ، قوى التركيب ، متين السبك ، تقليدى الإطار ولكنه فى نفس الوقت رقيق اللفظ

---

(١) الديوان ص ١٨٢ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٨٧ .
(٣) الموشح ص ١٨٦ .

أنيق التعبير رائق النغم سلس التدفق ، وهو من هذه الناحية شعر الأرستقراطية العربية الذى يمثلها خير تمثيل فى فخامة ألفاظه ورقتها فى نفس الوقت واستعلاء عاطفته وتقليدية إطاره .

وهكذا يمكننا أن نزعم أن الشعر الزبيرى شعر يتميز بميزات خاصة تميزه دون غيره من الشعر فى أغراضه وموضوعاته وطرائق تعبيره وأدائه .

فشعر الزبيريين شعر قليل بفعل ظروف عامة ترجع إلى قصر عمر الحزب ، وعدم تأصل أفكاره كما ترجع إلى ظروف خاصة برأس هذا الحزب وشحه وعدم تقديره لرسالة الشعر ودور الشعر الأساسى فى الدعاء .

وقد ترك الإسلام آثاراً واضحة فى صبغ هذا الشعر بصبغه ، وانطباعه بطوابع جلية منه فى تأييد المذهب والترويج له بإضفاء صفات إسلامية على رجاله والاعتداد بقيم إسلامية فى نظام حكمهم ، وهجاء خصومهم بنقيضها ، والتنديد بمخالفتهم عنها ، وعلى الرغم من وجود هذه الملامح الإسلامية فإن ملامح جاهلية قد برزت فى شعرهم ، وبخاصة فى الهجاء ، والحملة على الخصوم وهى أثر من آثار الصراع القبلى الذى استشرى بين القبائل المضرية الموالية والقبائل اليمنية المتحالفة مع الأمويين . ومن مظاهر هذا الاتجاه اعتدادهم بالعصبية واللجوء إلى الإفحاش فى تناول أعراض الخصوم والاحتيال للكيد لهم بالغزل الهجائى .

ويسرى فى شعرهم إحساس متدفق ، وعاطفة متأججة ناتجة عن شدة التعصب للدم وقوة الإحساس والتميز ، وهى عاطفة قوية لم تفسح مجالاً للاستدلال العقلى أو اصطناع أساليب الجدال والمنطق . فكان قوام الاحتجاج للمذهب وسائل عاطفية محضة وهى عاطفة يغلب عليها الحزن والتحسر للظروف السيئة التى منيت بها حركتهم ، ولقصر عمر سلطانهم ، ولكنها عاطفة قوية مستعلية فى مواضع الفخار مليئة بالحقد الدفين والتصميم على الثأر واستئصال العدو .

وإذا جاز لنا أن نقول إن شعر الزبيريين صدر عن إحساس الأرستقراطية العربية وعبر عن غاياتها وآمالها فإنه يمكننا أن نقول إنه كان أرستقراطياً فى فنيته بما توافر له من فخامة وأناقة ورقة .

الفصل الرابع

شعر المتكلمين

١

كان ظهور المرجئة صدى للاختلاف الشديد بين عقائد الشيعة وعقائد الخوارج ، وتطرف كل من الفريقين فى آرائه وأفكاره ، وقد اعتمدت هذه الفرقة فى نشأتها على رأى محايد فى الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان من حيث الكفر والإيمان .

وكان أبرز ما تتصف به أفكارها لزوم جانب القصد والاعتدال والتوسط بين الجانبين المتطرفين فى وضع مفاهيم جديدة للحكم على عقيدة المسلم بعيداً عن الصرامة والعنف اللذين اتصفت بهما عقيدة كل من الخوارج الوعيدية والشيعة الغالية .

وقد صح لدينا خلافاً للبعض أن المرجئة ليست فرقة دينية خالصة كما زعموا وإنما هى فرقة سياسية محايدة كما تدل على ذلك ظروف نشأتها إذ كان رجالها الأولون من الغزاة الذين عادوا من الثغور إثر مقتل عثمان وتوقف حركة الفتح فهالهم ما وجدوا عليه المسلمين من اختلاف وتنازع فى أمر على وعثمان ، فآثروا الحيدة ولاذوا بالعزلة وأعلنوا أنهم لا يتبرءون من أحدهما ، ولا يشهدون على أيهما ، وإنما يرجئون أمرهما إلى الله حتى يكون الله هو الذى يحكم بينهما[1] .

وكان فريق من صحابة الصدر الأول قد استنكفوا الانزلاق فى هذا النزاع من مثل أبى بكرة الذى كان يروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثا يتوقع فيه أن تحدث فتنة يكون القاعد فيها خيرا من الماشى ، والماشى فيها خيرا من

---

(١) ابن عساكر جـ ٢٠ ص ٥٧٧ .

الساعي ، ودعا من يشهد هذه الفتنة إلى أن يجهد فى تجنبها ، وأن يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر[١] .

وبتأثير هذا الجو تجنبت طائفة من كبار الصحابة الفتنة التى تلت مقتل عثمان فلم يكونوا مع علىّ ولا مع خصومه ، وكان أشهرهم عبد الله بن عمر وسعد ابن أبى وقاص ومحمد بن مسلمة الأنصارى وأسامة بن زيد وقيس بن أبى حازم[٢]

وقد ترك عبد الله بن عمر أمر هذا النزاع مع كثرة ميل أهل الشام إليه ، ولم يقاتل فى شىء من الفتن ، ولم يشهد مع علىّ شيئا من حروبه ، وكذلك فعل محمد ابن مسلمة الذى اتخذ سيفا من خشب ، وكان يقول « بذلك أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٣] .

ولزم سعد بن أبى وقاص بيته ولم يستجب لمحاولات ابنه وابن أخيه اللذين ألحا عليه فى أن يدعو لنفسه ، ولزم السلامة حتى طمع فيه معاوية ، كما طمع فى ابن عمر وابن مسلمة ، وكتب إليهم يدعوهم إلى التكفير عن خذلانهم عثمان بإعانته على الطلب بدمه فرد عليه سعد بأبيات يستنكر فيها أن يجيبه إلى ما أباه على علىّ بن أبى طالب يقول فيها :

معاوىّ داؤك الداء العياء	وليس لما تجىء به دواء
أيدعونى أبو حسن علىّ	فلم أردد عليه ما يشاء
وقلت له أعطنى سيفا قصيرا	تميز به العداوة والولاء
أتطمع فى الذى أعيا عليّا	على ما قد طمعت به العفاء
ليوم منه خير منك حيّا	وميتا أنت للمرء الفداء[٤]

وعلى الرغم من أن هذه الأبيات تبدو من انتحال الشيعة لما فيها من تقديم علىّ على معاوية ، فإن الأبيات ليست إلا صدى للموقف الذى وقفه سعد بن

---

(١) صحيح مسلم جـ ٨ ص ١٦٩

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢١ – ٢٢٢

(٣) أسد الغابة جـ ٤ ص ٣٣٠ .

(٤) أسد الغابة جـ ٢ ص ٢٩٠ .

أبى وقاص من الفريقين المتنازعين ، ولتحرجه عن الإنضمام إلى أحدهما ، وهو لا يملك سيفاً يميز به المصيب والمخطئ أو الجدير بولايته والحقيق بعدواته .

وتذكر الروايات أن أهل البصرة كانوا قبل الجمل فرقا ، فرقة مع طلحة ابن الزبير ، وفرقة مع علىّ وفرقة أخرى لا ترى القتال مع أحد من الفريقين وكان القتال فى ساحة الأزد ، فدعا كعب بن سور بصبرة بن شيمان رأس الأزد ونصحه بألا يشهد الفريقين وأن يعتزل بقومه[1] .

كما يذكر أبو الفرج أن خريما والد الشاعر أيمن كان ممن اعتزلوا حرب الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها[2] .

وهؤلاء جميعا اشتبهت عليهم القضايا فتحيروا فيها فاعتزلوا الطائفتين ولم يقاتلوا ولم يتيقنوا من الصواب[3] ، فوقفوا موقف الحيدة من الصراع العنيف بين علىّ ومعاوية فى صفين وبين علىّ والخارجين عليه فلم يعينوه ، ولم يطالبوه بدم عثمان ولم يعينوا الخارجين عليه أيضا ، وإنما سالموهم جميعا أو تجنبوهم جميعا لأنهم لم يكونوا من رأى الشيعة الغالية فى تكفير أبى بكر وعمر وعثمان وبنى أمية بحجة أنهم مغتصبون لحق آل البيت فى الخلافة كما لم يكونوا أيضا من رأى الخوارج فى تكفير على وعثمان ومعاوية وغيرهم من أهل صفين وغير أهل صفين من عامة المسلمين الذين لا يجاهرون بعدواتهم للجماعة الضالة ولا يهاجرون عنها ، وأيضا فإن هؤلاء لم يكونوا من رأى بنى أمية فى قتالهم للخوارج وللشيعة ، وقد عرف هؤلاء الذين تحرجوا عن الإشتراك فى الفتنة وأحداثها بالمرجئة الأولى ، وقد جاء فى طبقات ابن سعد أن محارب بن دثار الذهلى قاضى الكوفة فى ولاية خالد القسرى وخلافة هشام بن عبد الملك كان من المرجئة الأولى الذين يرجون عليّا وعثمان ، ولا يشهدون بإيمان وكفر[4] .

وكذلك كان بريدة الأسلمى فقد عرّض رجل بعلى وعثمان وطلحة والزبير

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٧٢ .

(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٥ .

(٣) شرح النووى على صحيح مسلم جـ ١٨ ص ١١ .

(٤) ابن سعد جـ ٦ ص ٢١٤ .

لإستخراج رأيه فقال له : «قوم سبقت لهم من الله سوابق فإن يشأ أن يغفر لهم ما سبق لهم فعل ، وإن يشأ يعذبهم بما أحدثوا فعل ، حسابهم على الله »[١]

وهذه الحيدة هى التى تقوم على أساسها عقيدة المرجئة وقد أرجعت تسميتهم بهذا الاسم إلى أنهم لزموا الحياد فلم يقضوا على شيعى أو خارجى أو أموى بخطأ وإنما أرجأوا أمرهم إلى الله أى أخروه أو أنهم لم يقضوا على مرتكب الكبيرة بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار وإنما منحوه الرجاء فى المغفرة بتأخيرهم الحكم عليه إلى يوم القيامة ما داموا يذهبون إلى أنه لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكأنهم بهذا يرجون لكل مسلم مغفرة من الله[٢] أو لأنهم بقولهم إن الإيمان تصديق فحسب أو تصديق بالقلب واللسان ولا شأن له بالأعمال قدّموا القول وأرجأوا العمل أى أخروه كأن المسلمين لو تركوا العبادات لنجوا بإيمانهم أو لأنهم يعتقدون أن الله أرجأ تعذيبهم على المعاصى .

فاسمهم مشتق من الإرجاء على هذه المعانى التى ذكرنا والتى تدور جميعا حول الحكم على عقيدة المسلم الإيمانية إما بتأخيره أو بإعطائه الرجاء فى المغفرة أو بإرجاء العمل أى بتأخيره على الإيمان . ولهذا كنا لا نرى تناقضا بين هذه المعانى جميعها لأنهانابعة عن التحرج عن الانغماس فى التحيز إلى فريق من المتنازعين على فريق آخر أوالحكم على أحدهما بالخطأ أو بالصواب دون غيره .

وتتمثل هذه المعانى فى شعرهم بوضوح وليس أدل على ذلك من قول شاعرهم ثابت قطنة :

نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أو عندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والكافرون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنبا بالغ أحدا ... م الناس شركا إذا ماوحدوا الصمدا
كل الخوارج مخط فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أمّا على وعثمان فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا

---

(١) ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٧٩ .
(٢) الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٢ ، نقد العلم والعلماء ص ١٠٢ .

وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى على وعثمان بسعيهما ... ولست أدرى بحق آية وردا
الله يعلم ماذا يحضران به ... وكل عبد سيلقى الله منفردا[(١)]

فهم لا رأى لهم فى الأمور المشتبهة ، ولذا فهم لا يكفرون أحدا من المسلمين على نحو ما يصنع الخوارج بتكفيرهم عامة المسلمين . وبزعمهم أن دارهم دار حرب وبتشددهم بإكفار القعد منهم وتجاوزهم ذلك إلى قتل كل من يروى حديثا يحذر من الفتنة ، وقيام استعراضهم الناس على امتحانهم فى موقفهم من عثمان وعلى[(٢)] ثم هم يرجئون الحكم على مرتكب الكبيرة أى يؤخرونه ويجعلونه لله ، ويرجئون العمل عن الإيمان إذ أن الإيمان عندهم ألا يشرك الناس بالله الواحد الصمد وهو فى غنى عن العمل خلافا للخوارج الذين يرونهما شيئا واحدا لا وزن لأحدهما بدون الآخر ، وعلى هذا فإن الخوارج مخطئون فى هذا التصور ، وعثمان وعلى وغيرهما مؤمنون ولا يستطيعون الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك جميع المسلمين لا يصح التعرض لهم بحكم إذ يكفى أن يكونوا مسلمين ، أما عملهم فذلك موكول إلى ربهم ، ولو لم يصوموا أو يصلوا أو يحجوا فهم مسلمون . ولا يصح أن يطردوا من حظيرة الإسلام فإذا كان بعضهم مخطئا وبعضهم الآخر مصيبا فإنهم ليعجزون بالفعل عن تبين من هو المخطئ ومن هو المصيب ولذا فهم يتركون أمرهم جميعا إلى الله ويرجئون أمرهم جميعا إلى الذى يعرف سرائر الناس ويحاسبهم عليها .

وهكذا يبدو أن الأفكار لم تكن تخدم أحدا من المهتمين بأمر السياسة بقدر ما كانت تخدم الأمويين ؛ فالمرجئة لا يقفون منهم موقف الفرق الأخرى فلا يكفرونهم ولا يعارضونهم كما أنهم لا يجاهرون بمناصرتهم ، وإنما يتركونهم وشأنهم ، وفى هذا تأييد سلبى لهم ولكنه تأييد وليس معارضة على أى حال .

وقد كانت آراء المرجئة لهذا مثارا لمناظرات وجدل كثير فى العراق وبخاصة

---

(١) الأغانى / جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) ابن سعد / جـ ٥ ص ١٨٢ .

فى الكوفة دار الشيعة إذ كان فيها أيضا كثير من المرجئة الذين أخذوا يتحاورون ويتناقشون يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلا كان يأتى النخعى فيتعلم منه فسمع قوما يذكرون أمر علىّ وعثمان فقال أنا أتعلم من هذا الرجل وأرى الناس مختلفين فى أمر علىّ وعثمان فسأل إبراهيم النخعى عن ذلك فقال : ما أنا بسبئ ولا مرجئ [١] .

وهذه الرواية تضع المرجئة على نقيض الشيعة تماما أو على وجه الدقة على نقيض غلاتها حتى لنرى بعض مؤرخى العقائد يرجعون تسمية المرجئة إلى أنهم أرجأوا عليًّا أى أخروه عن الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة [٢] .

وقد حدث هذا منطقيًّا نتيجة لسلبية المرجئة وسكوتهم عن تصويبه أو تخطئته ، فما دام لم يتبين لهم صواب عمله أو خطؤه وجب أن يسبقه فى الدرجة من ثبت عملهم بالقطع وهم النبى صلى الله عليه وسلم ثم أبو بكر ثم عمر ويأتى بعد ذلك علىّ وعثمان ومعاوية وكافة المسلمين المرجئين فى الدرجة الرابعة .

وليس شك فى أن هذا يتعارض مع عقيدة الشيعة الغلاة الذين كانوا يكفرون الصديق والفاروق كما يمس ما كانوا يخلعونه على علىّ من مظاهر التقديس وشارات التبجيل ، وليس شك أيضا فى أن موقف المرجئة من بنى أمية وسلبيتهم تجاههم قد أزعج الشيعة المتشددين كما أزعجتهم هذه التسوية التى أدت إليها نظرية الإرجاء بين علىّ وعثمان ومعاوية وكافة المسلمين ، الأمر الذى نتج عنه عداء شديد بين المرجئة والشيعة الغالية حتى بدوا على طرفى نقيض ، كما يصور لنا هذا قول أحد شعراء الشيعة الغلاة :

إذا المرجىّ سرك أن تراه ... يموت بدائه من قبل موته
فجدِّد عنده ذكرى علىّ ... وصلّ على النبى وأهل بيته [٣]

وواضح أن الشيعة كانوا يغيظون المرجئة بذكر علىّ وآل بيته ، وإظهار التقديس

---

(١) ابن سعد جـ ٦ ص ١٩٢ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٢ .
(٣) البيان والتبيين جـ ٢ ص ١٤٩ .

لهم مما ينقض رأيهم فى التوقف عن تصويبه أو تخطئته ، وتأخيره إلى الدرجة الرابعة تاليا للنبى ولأبى بكر وعمر ، كما يبدو ذلك فى رد محارب بن دثار الذهلى وهو أحد أئمتهم على بعض من عاب عليه ذلك من الشيعة ، يقول :

يعيب علىَّ أقوام سفاها ... بأن أرجو أبا حسن عليّا
وإرجائى أبا حسن صواب ... عن العمران برًّا أو شقيا
فإن قدمت قوما قال قوم ... أسأت وكنت كذابا رديّا
إذا أيقنت أن الله ربى ... وأرسل أحمدا حقا نبيا
وأن الرسل قد بعثوا بحق ... وأن الله كان لهم وليا
فليس علىَّ فى الإرجاء بأس ... ولا لبس ولست أخاف شيا[1]

فالذين يعيبون عليه إرجاء على سفهاء لا يعلمون شيئا ، فإرجاؤه له وتأخيره عن أبى بكر وعمر ، والتوقف عن الحكم له أو عليه هو الصواب بينما لو عمد فقدم قوما على قوم كما يفعل غلاة الشيعة بتقديمهم عليًّا على من سواه لاتهم بالكذب والإساءة من قوم آخرين ، وما دام لا يعرف المخطئ من المصيب فليس له أن يقدم أحدا على أحد وما دام يؤمن بالله وبرسوله وبأن الرسل جميعا بعثوا بالحق وبنصر الله فليس عليه بأس ولا يخاف شيئا .

وقد رد منصور النمرى الشيعى على محارب بأبيات هجاء مقذعة مستنكرا عليه أن يرجئ عليًّا لأنه بإرجائه إياه إنما يرجىء نبيًّا أو كالنبى ، فقال :

يود محارب لو قد رآها ... وأبصرهم حواليها جثيّا
وإن لسانه من ناب أفعى ... وما أرجى أبا حسن عليّا
وإن عجوزه مصعت بكلب ... وكان دماء ساقيها جريّا
متى ترجى أبا حسن عليا ... فقد أرجيت يالكع نبيّا[2]

وقد تعرض المرجون لنبال الشيعة الغالية الذين ساءهم إرجاء على ، وتسويتهم بينه وبين عثمان ومعاوية والخوارج ، كما فى أبيات السيد الحميرى التى يقول فيها :

---

(١) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ .

(٢) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ – ١١

خليليّ لا ترجيا واعلما ... بأن الهدى غير ما تزعمان
وإن عمى الشك بعد اليقين ... وضعف البصيرة بعد العيان
ضلال فلا تلجحا فيهما ... فبئست لعمركما الخصلتان
أيرجى على إمام الهدى ... وعثمان ما أعند المرجيان
ويرجى ابن حرب وأشياعه ... وهوج الخوارج بالنهروان
يكون إمامهمُ فى المعاد ... خبيث الهوى مؤمن الشيصبان[١]

وهكذا ، لم ترض أفكار المرجئة الخوارج كما لم ترض غلاة الشيعة ، وهذا معنى ما ذهبنا إليه من أن ظهور هذه الفرقة لم يكن إلا نتيجة للتطرف الشديد لأفكار الغلاة من الشيعة والمتشددين من الخوارج .

وقد وقفت المرجئة بين هؤلاء وأولئك فى نظريتهم عن الخلافة فبينما ربط الخوارج بين الإيمان والعمل ورأوا أنهما وحدة لا تنفصم وأن مرتكب الكبيرة كافر مخلد فى النار ورتبوا على هذا أن بنى أمية بوصفهم مرتكبى كبيرة ، كفار ،وأوجبوا قتالهم وخلعهم ، وذهب الشيعة إلى أن الإمام يعين من يخلفه لأن النبى أوصى لعلىّ ، وعلىّ لابنه فجاء معاوية واستحل ما ليس حقًّا له، فهو لهذا مغتصب وضال ، فإن المرجئين فصلوا بين العقيدة الدينية والرأى السياسى فلم يتعرضوا للحكام المخالفين لهم فى الرأى ، ولم يدينوا بالثورة عليهم فكل من أعلن إسلامه مسلم لا يخرجه عن إيمانه معصية أو كبيرة ، ومع أنهم ينفرون من المعاصى فهم لا يقضون على العصاة بدخول الجنة أو النار ، وإنما يرجئون الحكم فى ذلك إلى الله يفعل بهم ما يشاء يوم القيامة .

ومن هنا كانت المرجئة فرقة ذات آراء سياسية ، وإن كانت سلبية ، فهم وإن لم يؤيدوا حكومة الأمويين فهم لا يعارضونها ، ولا يرون الثورة عليها ، وفى هذا اعتراف بشرعيتها[٢] فهى إما على الحق وإما أنها اجتهدت فأخطأت وخطأ المجتهد لا ينقص من إيمانه .

---

(١) الأغانى ج ٧ ص ١٥ .

(٢) العقيدة والشريعة ص ٧٦

وخطر المرجئة بهذ التصور يرجع إلى أنهم يشكلون كتلة المسلمين التى رضيت بحكم بنى أمية مخالفين الشيعة والخوارج ، ويتفقون إلى حد ما مع طائفة المحافظين من أهل السنة ، وإن كانوا قد ألانوا من شدة عقائد هؤلاء باعتقادهم أن المسلم لا يخلد فى النار .

والذى لا شك فيه أن المرجئة أخذت تفقد تدريجيًّا ما كانت تتصف به من سلبية تجاه الحكم الأموى ، وقد حدث هذا نتيجة لاتجاههم إلى البحث فى بعض الأمور اللاهوتية التى تتفق واتجاهاتهم السياسية كبحثهم فى الإيمان والكفر وما قد يجرهم إليه هذا المبحث من البحث فى حرية الإرادة فراجعوا أنفسهم واتهموا سلبية أفكارهم ، وكانت بيئتهم حقلا لبذور كثيرة متأثرة ببعض الآراء المسيحية والإغريقية الممتزجة بالفلسفة اليونانية عن طريق الاختلاط بأولئك الذين ظلوا زمنا طويلا تحت المؤثرات الهلينية .

وقد انقسمت فرقة المرجئة نتيجة لذلك إلى أربع طوائف متميزة هى مرجئة الخوارج ومرجئة القدرية ومرجئة الجبرية والمرجئة الخالصة[١] ويبدو أن المرجئة الخالصة هى التى استمرت فى سلوكها السلبى تجاه بنى أمية بينما مالت المرجئة الجبرية إلى تأييدهم تأييدا مطلقا والتماس الأعذار لهم ، وتبرير أعمالهم . كما حدث فى ثورة عمرو بن سعيد بن العاص على عبد الملك فى حمص ، فقد استقدمه ليصالحه ثم غدر به وقتله ، ونادى فى أصحابه « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذى لا يمكن تجنبه »[٢] .

وليس شك فى أن مرجئة الجبرية كانت وراء عبد الملك وغيره من خلفاء بنى أمية ممن ذهبوا إلى أن حكمهم قدر مقدور من الله ، وأن سيادتهم مرسومة مقدما فى قضاء الله الأزلى .

وليس شك أيضا فى أن مرجئة القدرية كانت وراء كل الحركات الثورية المناهضة لخلفاء بنى أمية ، فقد ثار بعض أئمتهم على الدولة كسعيد بن جبير الذى

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢١ .

(٢) الإمامة والسياسة جـ ٢ ص ٢٥ .

خرج على عبد الملك والحجاج وقتل ، وغيلان الدمشقى الذى طلب ومثل به فى عهد هشام بن عبد الملك وكذلك كان كثير منهم بين من ناصروا ابن الأشعث فى ثورته على الحجاج .

ومع ازدياد خطر المرجئة القدرية واتجاهها إلى المشاركة الإيجابية فى مناهضة الأمويين الجائرين حاول بعض خلفاء بنى أمية استمالتهم كما فعل عمر بن عبد العزيز حينما طلب أئمتهم فى الكوفة من أمثال عون بن عبد الله بن عتبة الهذلى وناظرهم فى آرائهم [(١)] .

وقد استطاع أن يقنع عونا ، وأن يجعله يبرأ من المرجئة ، وخرج من عنده يهاجم مبادئهم على هذا النحو :

وأول من نفارق غير شك — نفارق ما يقول المرجئونا
وقالوا مؤمن من أهل جور — وليس المؤمنون بجائرينا
وقالوا مؤمن دمه حلال — وقد حرمت دماء المسلمينا[(٢)]

وقد اشترك كثير من المرجئة فى ثورة يزيد بن المهلب على يزيد بن عبد الملك ومن أبرز هؤلاء أبو رؤية المرجئ ، ولا نبالغ إذا قلنا إن المرجئة كانت صاحبة اليد الطولى فى إخراج يزيد ، وليس معنى أن بعض المرجئة الجبريين كانوا على رأس تلك الثورة أنها كانت ثورة للمرجئة الجبريين فإن هذا يتناقض مع ما زعمنا من سير هذه الفئة فى ركاب الأمويين وترويجها لسياستهم . ولكن الذى حدث أن هؤلاء الجبريين من المرجئة كانوا بحيث مكنتهم ظروف حياتهم فى خراسان واشتباك حياتهم بحياة أولئك المظلومين من الموالى بحيث ينتقضون على السياسة الجبرية التى شايعوا بها الأمويين .

وليس أدل على ذلك من أن شاعر المرجئة الجبرية ثابت قطنة كتب إلى يزيد ابن المهلب يحرضه على الخروج بقصيدة قال فيها :

---

(١) ابن سعد جـ ٦ ص ٢١٨ .
(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٢٨ والأغانى جـ ٨ ص ٨٩ .

إن امرأ حدبت ربيعة حوله والحى من يمن وهاب كثودا
لضعيف ما ضمنت جوانح صدره إن لم يلف إلى الجنود جنودا

فلما قرأ يزيد الكتاب المشتمل على القصيدة قال : والله لأطيعنّه[١]
وقد يبدو غريبا أن يميل شاعر من مرجئة الجبرية الذين عرفوا بمساندتهم للدولة والادعاء بأزلية سلطانها المقدور إلى مناصرة خارج عليها ولكن العجب يزول إذا ما تبينا دوافع أخرى كالعصبية اليمنية التى كانت تربط الشاعر بشخصية الثائر وبقبليته .

وقد بدا أثر المرجئة فى ثورة المهالبة واضحا إذ اتخذ يزيد الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه وسيرة عمر بن عبد العزيز شعارا لثورته ، وحث الناس على الجهاد زاعما أن جهاد أهل الشام أعظم ثوابا عند الله من جهاد الترك والديلم ، وقد تبعه عامة المسلمين فى البصرة وعلى رأسهم القراء كما تبعه عدد كبير من الموالى حتى تضخم جنده واستطاع أن يتغلب على البلاد التابعة للبصرة مثل الأهواز وفارس وكرمان ، ثم خرج إلى الكوفة بعد أن استولى على واسط ووقف عند العقر قريبا من بابل القديمة ، وهناك أرسل إليه الخليفة بجيش شامى كثيف بقيادة مسلمة بن عبد الملك فاضطر يزيد إلى عبور الفرات وعسكر قريبا من مسلمة وهم بمداهمته تحت جنح الليل ، ولكن أبا رؤبة زعيم المرجئة فى جند يزيد — وكان له تأثير على جمهور الجيش — أبى الغدر بجيش مسلمة بحجة أنهم قد دعوهم إلى كتاب الله وسنة نبيه فعليهم أن ينتظروا ردهم ، واضطر يزيد إلى الخضوع لرأى المرجئة على كره منه ، تماما كما خضع على بن أبى طالب لجنده يوم صفين[٢]

ولم يثبت أهل العراق ، وفرت تميم الكوفة ، وقتل يزيد ورثاه شاعر المرجئة ثابت قطنة ، ولم يكن شهد الوقعة ، بعدة قصائد استنكر فيها خذلانه وإسلامه ، وتوعد مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد ، وكانا على رأس جيش الشام بمثل قوله :

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٥٢ .
(٢) تاريخ الدولة العربية ص ٣٠٨ .

أبى طول هذا الليل أن يتصرما ... وهاج لك الهمّ الفؤاد المتيما
أرقت ولم تأرق معى أم خالد ... وقد أرقت عيناى حولا مجرما
على هالك هدّ العشيرة فقدُه ... دعته المنايا فاستجاب وسلّما
على ملك يا صاح بالعقرجبّنت ... كتائبه واستورد الموت معلما
أصيب ولم أشهد ولوكنت شاهدا ... تسليت إن لم يجمع الحى مأتما
وفى غُير الأيام يا هند فاعلمى ... لطالب وتر نظرة أن تلوما
فعلىّ إن مالت بى الريح ميله ... على ابن أبى ذبان أن يتندما
أمسلم أن تقدر عليك رماحنا ... نذقك بها قىء الأساود مسلما
وإن تلق للعباس فى الدهر عثرة ... نكافيه باليوم الذى كان قدما
قصاصا ولا نعدو الذى كان قدأتى ... إلينا وإن كان ابن مروان أظلما
ستعلم إن زلت بك النعل زلة ... وأظهر أقوام حياء مجمجما
من الظالم الجانى على أهل بيته ... إذا أحصرت أسباب أمروأبهما(١)

وكان أبورؤبة المرجئ بعد قتل يزيد قد تولى القيادة ، فقاتل أهل الشام ساعة من النهار ونجح أهل الشام فى أن ياسروا نحوا من ثلثمائة جاء الأمر بقتلهم منهم ثلاثون من تميم قبل أن يعفو مسلمة عن الباقين ، وأخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيرا فقتلهم ثأرا ، وكان من بينهم عدى بن أرطأة الفزارى ، فقال ثابت قطنة يستنكر صنيع معاوية ، مبينا أنه خالف فى ذلك عن أمره فى قوله :

ما سرنى قتل الفزارى وابنه ... عدى ولا أحببت قتل ابن مسمع
ولكنها كانت معادى زلة ... وضعت بها أمرى على غير موضع(٢)

واستنكر الفرزدق قتل هؤلاء النفر من تميم بيد معاوية بن يزيد المهلبي وبخاصة ابنى مسمع ، كما استنكر على أعدائه أن يبكوا قتلاهم من مثل المنتوف أحد موالى بكر بن وائل بقوله :

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٤٩ .

تبكى على المتوف بكر بن وائل — وتنهى عن ابنى مسمع من بكاهما
غلامين شبا فى الحروب وأدركا — كرام المساعى قبل وصل لحاهما
ولو كان حيا مالك وابن مالك — إذا أوقدوا نارين يعلو سناهما(١)

فرد عليه الجعد بن درهم بقوله :

تبكّى على المنتوف فى نصر قومه — ولسنا نبكى الشائدين أباهما
أراد فناء الحى بكر بن وائل — فعز تميم لو أصيبت قناهما
فلا لقيا روحا من الله ساعة — ولا رقأت عينا ستحى بكاهما
أفى الغش نبكى إن بكينا عليهما — وقد لقيا بالغش فينا رداهما(٢)

ولا نكاد نمضى حتى عصر هشام بن عبد الملك حتى نجد للمرجئة الجبرية نشاطاً حربيًّا ملحوظا ضد الدولة إذ يتزعم أحد رءوسهم ثورة عنيفة فى خراسان زلزلت المنطقة تحت أقدام الأمويين بضع سنين ومهدت لنجاح بنى العباس هناك ، وقد قاد الحارث بن سريج هذه الثورة طلبا للعدل ، وانتصارا لمبادئ الإسلام الأساسية فى المساواة بين كافة المسلمين ودفاعا عن حقوق الموالى من الأعاجم الذين ظلمهم الأمويون باسم الإسلام ، وقد استطاع الحارث أن يمكن لنفسه بينهم حتى عدوه مخلّصا ومنقذا .

وقد سبق ظهور الحارث نبوءات وأحاديث غريبة تزعم أنه سيزيل عرش بنى أمية وتدعو الناس إلى تأييده ومناصرته ، ونلقى الحارث بن سريج فارسا فى جيش أشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان لهشام بن عبد الملك سنة ١١٠ ﻫ يحارب جيش السغد وحلفاءهم من الترك والفرس عند « بيكند » بعد أن ضيق أشرس عليهم السبل فى الدخول إلى الإسلام باشتراط الختان والقيام بالفرائض وقراءة سورة من القرآن .

وكان السغد يرمون بذلك إلى التحرر من سلطان العرب ، وكانوا قد تمردوا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٧١ .
(٢) الطبرى جـ ٨ ١٩٠ .

من قبل على النظم المالية المتعسفة ، فثاروا على أشرس وناصرهم جماعة من العرب ، وجماعة المرجئة فى خراسان ، ولكن أمكن صرف هؤلاء جميعا عن مناصرة قضيتا الموالى ففقدوا سندهم وأخضعوا .

وقد دفعتهم الهزيمة إلى استجاشة الترك والفرس لملاقاة جيش أشرس فى موقعة فاصلة ، وقد نهض أشرس لملاقاتهم من مرو ولكنهم تمركزوا فى بخارى وسدوا عليه طريق العبور على نهر بلخ ، وقطعوا عنه الماء حتى فقد سبعمائة من رجاله ماتوا عطشا ، وكاد جيشه يهلك عن آخره لولا تقدم الحارث بن سريج وحض الناس على الفداء وتقدم الصفوف فاتبعوه حتى نجح العرب فى كشف الترك ، وإزالتهم عن الماء ، وقد قتل فى هذا اليوم شاعر المرجئة وفارسها ثابت قطنة .

واستطاع العرب أن يشقوا طريقهم إلى بخارى فاتخذوها معسكرا ومنها حملوا على خوارزم ، ولكن فرقة من جيش العرب انقطعت فحوصرت من الترك واستماتت فى القتال حتى منحها الخاقان أمانا يمكنها من العودة إلى الدبوسية على ألا تلحق بالجيش العربى ، ويبدو أن الحارث بن سريج هو الذى حصل لهذه الفرقة على الأمان .

وقد أنجد هشام أشرس بجند بقيادة الجنيد بن عبد الرحمن المرى فأفلحا معا فى هزيمة الترك عند رزمان وفك الحصار عن سمرقند والعودة بالجيش إلى مرو .

وكان الحارث أول الأمر خارجيًّا ثم تحول إلى القول بالإرجاء والجبر وكان الجهم بن صفوان أحد رءوس المرجئة الجبرية وأشهر متكلميها من أعوانه ، وقد انتهت عند هذين الرجلين الأفكار السلبية لمرجئة الجبرية إلى أن أصبحت أفكاراً ثورية ملتزمة بالدفاع عن الأسس التى تقوم عليها الحكومة الثيوقراطية ، ومعارضة الاستبداد ونصر جانب الحق الذى قدسه الدين على جانب الظلم والعسف .

وقد بدأ الحارث ثورته معتمدا على السخط البالغ والتذمر الشديد اللذين أشعلهما استبداد الولاة القيسيين وسوء النظم المالية ، فاستند إلى الموالى وأثارهم واعدا إياهم بتحقيق مطالبهم فى إسقاط الجزية وإشراكهم فى أعطيات الجند ، وانضوى تحت رايته السوداء الدهاقين وأهل القرى ، وكثير من العرب الذين ناصروا

قضية الموالى من قبل وكثرتهم من أتباع أبى الصيداء ، و رفع الحارث شعار إنصاف الأعاجم المسلمين واتسع نطاق ثورته فلم تعد مقصورة على المرجئة إذ كان الحارث يقبل كل من يؤيده .

وقد نجح الحارث فى أن يخضع إقليم طخارستان ووصل إلى الفارياب ، وانضم إليه العرب الذين كانوا فيها من الأزد وبكر ، كما انضم إليه جبغوية نائب ملك الترك وناصره أمير الختل أيضا حتى بلغ جنده سبعين ألفا [١] .

ولم يبق فى يد بنى أمية فى تلك المنطقة غير مرو وأبرشهر ، ولكن الحارث تمكن من انتزاع مرو وشن غاراته من هناك على أبرشهر ، وكاد يخلو له وجه خراسان لولا وصول أسد بن عبد الله القسرى واليا على خراسان من قبل أخيه خالد والى العراق بدلا من عاصم بن عبد الله .

ونجح أسد فى استرداد كثير من المدن من يد الحارث واستطاع أن يقلص نفوذه فى خراسان حتى لاذ بطخارستان العليا لدى أصهاره فأوقع بهم أسد كما أوقع بحلفائه من الختل والسغد والبابية وأهل الشاش ، وحال الشتاء دون مطاردة الحارث ، وقد ولى نصر بن سيار خراسان فى هذه الفترة ، فعمل على إخراج الحارث بصلحه مع أهل الشاش واشتراطه عليهم إخراجه فقصد الفارياب .

وفى أخريات سنة ١٢٦ هـ عاد الحارث للظهور على المسرح من جديد ، وحاول نصر أن يحاسنه فدعاه إلى مرو ، وغمره بالتكريم ولكنه ظل متمسكا بمطالب المرجئة كما كان يفهمها من الناحية العملية من اتباع كتاب الله وسنة رسوله واستعمال أهل العدل والفضل .

ومن العراق أتت من الكميت شاعر الزيدية صيحة تحرض الحارث وصحبه على المضى قدما نحو إزالة ملك بنى أمية ، معتذرا عن نجدته ، بما يلقاه الشيعة من عسف بنى أمية وظلمهم محذرا لهم من أن يخدعهم أسد عن مطالبهم ، فى صورة منشور على هذه الصورة :

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٢ .

ألا أبلغ جماعة أهل مرو   على ما كان من نأى وبعد
رسالة ناصح يهدى سلاما   ويأمر فى الذى ركبوا بجد
وأبلغ حارثا عنا اعتذارا   إليه بأن من قبلى بجهد
ولولا ذاك قد زارتك خيل   من المصريين بالفرسان تردى
فلا تهنوا ولا ترضوا بخسف   ولا يغرركم أسد بعهد
وكونوا كالبغايا إن خدعتم   وإن أقررتم ضيما لوعد
وإلا فارفعوا الرايات سودا   على أهل الضلالة والتعدى
وكيف وأنتم سبعون رجلا   رماكم خالد بشبيه قرد[1]

وفى مرو شاعت دعوته بين التميميين ، فالتف من حوله ثلاثة آلاف رجل ، وبدأ خطره يعظم من جديد ، وأخذ رجاله يدعون له فى مساجد العراق وخراسان وعظم شأنه حتى ناظر نصر بن سيار وحكم بينهما مقاتل بن حيان وجهم بن صفوان فحكما باعتزال نصر على أن يصير الأمر شورى ، وأصبح الصراع بينهما صريحا ، فخرج الحارث من مرو وحاول الاستيلاء عليها ، وفشلت محاولته ، وأسر داعيته جهم بن صفوان وقتل .

وانضم إلى الحارث كثير من الأزد بزعامة الكرمانى عدو نصر ، وكان جهم يتولى للحارث كتابة المنشورات التى تتضمن سيرته ومبادئه لتقرأ على الناس فى المساجد ، وكان نصر بن سيار يرد على دعاء المرجئة بأبيات يسفه فيها دعواهم ، ويستنكر مبادئهم التى تنتهى إلى تعطيل أحكام الدين وأوامره ونواهيه ، فيلعنهم ويقول بكفرهم ويدعو إلى قتالهم على هذا النحو :

فامنح جهادك من لم يرج آخرة   وكن عدواً لقوم لا يصلونا
واقتل مواليهم منا وناصرهم   حينا تكفرهم والعنهم حينا
والعائبين علينا ديننا وهم   شر العباد إذا خابرتهم دينا
والقائلين سبيل الله بغيتنا   لبعد ما نكبوا عما يقولونا

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ٢٢٢ .

فاقتلهم غضبا لله منتصرا	منهم به ودع المرتاب مفتونا
إرجاؤكم لزّكم والشرك فى قرن	فأنتم أهل إشراك ومرجونا
لا يبعد الله فى الأحداث غيركم	إذ كان دينكم بالشرك مقرونا
ألقى به الله رعبا فى نحوركم	والله يقضى لنا الحسنى ويعلينا[1]

وقد اضطر نصر إلى الجلاء عن مرو تحت ضغط الثوار ، ونزل بجنده فى نيسابور ، ولكن الخلاف ما لبث أن وقع بين أتباع الحارث اليمنيين ، وبين أتباع الكرمانى ، وتزعم الانشقاق بشر بن جرموز أحد كبار مساعدى الحارث ، فخرج على تحالف الحارث والكرمانى بدعوى أنه لم يخرج إلا طلبا للعدل ، وإن انضمام الكرمانى إليه يعنى أن القتال أصبح من أجل الغلبة والعصبية ، واعتزل بشر فى خمسة آلاف من المرجئة ، فاضطر الحارث إلى أن يتبعه ويتخلى عن نصرة الكرمانى ومن معه من الأزد ، ودار القتال فهزم أصحاب الحارث أمام الكرمانى وصحبه ، وأخرجوا من مرو ، وقتل الحارث ، وصلب جسده فى آخر رجب سنة ١٢٨ هـ .

وعلى الرغم من خطر حركة الحارث ونتائجها التى تعد تمهيدا لظهور العباسيين فإن صورتها فى الشعر شاحبة جدًّا ، ويبدو أن أصحاب الحارث قد اعتمدوا على النثر فى الدعوة إلى مبادئهم ، كما كان شأن جهم بن صفوان إذ كان يقص فى المواقع ويكتب منشورات الدعاء لمبادئ المرجئة وأحداثها بعامة لتقرأ على الناس فى المساجد ، كما كان يوجه المناظرات التى يجادل فيها المنكرين والمعارضين .

ولا يقتصر الأمر على حركة الحارث فحسب ، فإن صورة المرجئة وأحداثها بعامة غير كاملة ولا واضحة فى الشعر كما رأينا ، فلا نكاد نجد غير أبيات قليلة تسجل بعض تلك الأحداث الكثيرة التى حفل بها تاريخ الإرجاء فى عصر بنى أمية فضلا عن التعبير عن الآراء .

ونفس الأمر يصدق على نثرهم فإن صاحب الفهرست يذكر أن لغيلان

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٣ .

المرجئ سائل فى ألفى ورقة[١] وعلى الرغم من أنها تدور كلها فى المواعظ[٢] فإنها تحمل آراءه فى الإرجاء ومن المؤسف أنه ليس لدينا عن المرجئة إلا القليل أيضا من الأخبار ، وليس شك فى أن ذلك يرجع إلى تدمير العباسيين للمرجئة وآثارها ، لاتفاق آرائها مع آراء الأمويين ، ولأن هذه الفرقة أيضا قد تداخلت فى فرق أخرى ، وذابت فيها فلم يعد لها ثمة وجود مستقل محسوس .

وطبيعى إذن ألا يحمل إلينا الشعر فى هذه الظروف صورة صادقة لمبادئ المرجئة وأفكارها ولكننا نحاول أن نرسم صورة تقريبية لهذه الأفكار من واقع الأشعار القليلة التى وصلت إلينا .

والفكرة الأساسية عند المرجئة هى تحديد الإيمان والكفر ، والمؤمن والكافر ، وكان دافعهم إلى هذا أنهم رأوا الخوارج يكفرون من عداهم وغلاة الشيعة كذلك ورأوا الخوارج فى غلوهم يعدون كل كبيرة كفرا والشيعة فى غلوهم يعدون الاعتقاد فى الإمام ركنا من أركان الإيمان ، وقد فارق المرجئة آراء الفرقتين جميعا بفروعهما كما يقول أبو عاصم الليثى الذى كان خارجيًّا ثم أرجأ :

فارقت نجدة والذين تزرقوا ‏ ‏ ‏ وابن الزبير وشيعة الكذّاب
والصفْرَ الآذان الذين تخيروا ‏ ‏ ‏ دينا بلا ثقة ولا بكتاب[٣]

وقد رأى المرجئة خلافا لكل من الخوارج والشيعة أن الإيمان لا يخرج عن التصديق بالقلب واللسان ، لا عبرة بعد ذلك للقيام بالعبادات والفرائض إذ هى ليست من أصل الإيمان . وعلى هذا فهم لا يعتدون بالعمل ركنا من أركان الإيمان ، لأنه ينقص ويزيد والإيمان عندهم لا ينقص ولا يزيد ، فلا تضر إذن مع الإيمان معصية ولا تنفع مع الكفر طاعة فهم لا يكفرون أحدا من المسلمين ما دام يؤمن بألا إله إلا الله وبأن محمدا رسول الله مهما ارتكب من الذنوب والكبائر كما يقول شاعرهم ثابت قطنة :

---

(١) الفهرست ص ١٧١ .
(٢) عيون الأخبار جـ ٢ ص ٣٤٥ .
(٣) تهذيب الكامل جـ ١ ص ١٢٢

المسلمون على الإسلام كلهم والكافرون استووا فى دينهم قددا
وما أرى أن ذنبا بالغ أحدا م للناس شركا إذا ما وحدوا الصمدا[١]

وقد نتج عن تعريفهم للإيمان على هذه الصورة أن خالفوا الخوارج فى شأن مرتكب الكبيرة الذى يخلدونه فى النار استنادا إلى قوله تعالى : « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها » وإلى قوله تعالى : « ومن يقتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالدا فيها » .

وقد تأول المرجئة الآية الأولى بأن الذى يعصى الله ورسوله ويكون مؤمنا فإنه تعدى بعض حدود الله ، أما الذى يتعدى حدوده كلها فهو الكافر ، وهو المعنى فى الآية ، كما تأولوا الآية الثانية بأن المراد بها من يقتل مؤمنا لإيمانه ولا يقتل مؤمنا لإيمانه إلا كافر .

وعلى هذا كان الخوارج فى رأيهم مخطئين فى مقالتهم بتكفير مرتكب الكبيرة كما يقول شاعر المرجئة ثابت قطنة :

كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا[٢]

وكان طبيعيا أن ينسحب هذا الحكم على الرجال الذين وضعهم كل الخوارج والشيعة موضع الاتهام ، وحكموا بتكفيرهم من مثل على وعثمان وغيرهما ، فهم مسلمون مهما كان الذنب المنسوب إليهم ، وأمرهم مرجأ إلى الله سبحانه متروك له يقضى فيه بما يشاء ، وقد عبر عن ذلك ثابت قطنة فى أبياته الشهيرة التى تقول :

نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ونصدق القول فيمن جار أو عندا
... أما علىّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا شق العصا وبعين الله ما شهدا
يجزى على وعثمان بسعيهما ولست أدرى بحق آية وردا
الله يعلم ما يحضران به وكل عبد سيلقى الله منفردا[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ٥٠ .
(٤) الأغانى جـ ١٣ص ٥٠ .

وقد اتجه المرجئة نتيجة لبحثهم فى الإيمان إلى البحث فى حرية الإرادة والجبر ، فكانت بيئتهم هى الأرض التى نبتت فيها هذه البذور ، وظهر بين المرجئة أصناف مختلفة أصبحوا فيما بعد رءوسا لفرق أخرى قائمة بذاتها ، وأنتجت فيما أنتجت القدريين الأولين والجبريين الأولين ، وليس بين أيدينا من الشعر ما يمكن أن يوضح آراء مرجئة القدرية فى حرية الإرادة ، كما لا نعرف لهم شعراء بأعيانهم فيما عدا ذا الرمة .

أما مرجئة الجبرية فقد أشار شاعرهم ثابت قطنة إلى رأيهم الذى لا يرى للإنسان إرادة ما أمام إرادة الله الرشيدة ، وأنه لا يملك من أمر نفسه شيئا ، فلا يستطيع دفعا لما قضى الله به ، يقول ثابت :

وما قضى الله من أمر فليس له ... رد وما يقض من أمر يكن رشدا[١]

والمرجئة بعامة يعتقدون أن الله لا يخلف وعده ، ولكنه قد يخلف وعيده لأن الثواب فضل من الله لا بد أن يفى به ، وليس كذلك العقاب ، لأنه عدل ولله أن يعفو أو يخفف وقد أشار إلى هذا ثابت قطنة فى قوله :

من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر التقىّ إذا وفّى الحساب غدا[٢]

وهكذا يبدو شعر المرجئة قاصرا عن حمل مبادئهم والتعبير عن أفكارهم تعبيرا شاملا ودقيقا نظرا لقلة ما وصل إلينا منه ، وهذه الأشعار على قلتها تحمل خصائص فنية مميزة أهمها أنها تجول فى مجال العقل الخالص ، وتتوسل بالبرهنة والتدليل ولا تعتد بإثارة العاطفة والأحاسيس فى التعبير عن مبادئ العقيدة وأفكارها ، ونستطيع لهذا أن نعد هذه الأشعار القليلة وثيقة طريفة أودعت فيها الأصول العامة والخطوط العريضة والقواعد الأساسية لعقيدة الإرجاء .

وهى من هذا القبيل تشبه إلى حد كبير مقالة الهاشميات التى أودع فيها الكميت أصول عقيدة الزيدية وآراءها ، بل لا نغالى إذا قلنا إنها أكثر بعدا عن الشعر

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٠ .

(٢) نفس المرجع .

المألوف من الهاشميات لشدة جنوحها نحو التقرير الفكرى المجرد وانعدام التصوير الفنى فيها تماما، ولهذا تميزت هذه الأشعار بأنها تقريرية تماما ، لا فسحة فيها للتعبير بالصور ولا لجوء فيها إلى الخيال ، وقد كان ذلك سببا فى أن الصياغة مالت تماما إلى النثرية بشكل ملحوظ لولا ما توافرلها من الإيقاع الموسيقى .

فهى أشعار من لون طريف ، وهى كما سبق القول عن الهاشميات غريبة على الذوق العربى الذى يعرف الشعر غناءوعاطفة وتصويرا أكثر مما يعرفه فكرا وتعقيلا . وهى ليست إلا ثمرة من ثمار العقل العربى الذى أمدته روافد فكرية متعددة ، فدعمته دعما .

٢

كانت بيئة الإرجاء حقلا نبتت فيه طائفة القدريين الأولين وطائفة الجبريين الأولين ، وقد عرف من بين المرجئة الذين قالوا بالقدر يونس الأسوارى ويقال إنه أول من تكلم بالقدر[١] ، وعنه أخذ معبد الجهنى فى البصرة، وقتله عبد الملك بن مروان فى ذلك بعد أن عذبه الحجاج ونهى الحسن البصرى عن مجالسته[٢] كما أخذ عنه كذلك غيلان بن أبى غيلان المعروف بغيلان الدمشقى[٣] وقد ذكر الشهرستانى ، وابن النديم[٤] أنه كان مرجئا بينما ذكر غيرهما أنه كان قدريًّا[٥] وقد قتل غيلان فى القدر بعد أن ناظره الأوزاعى فأفتى بقتله فى عهد هشام بن عبد الملك ، ونسج على منوال هؤلاء فى القول بالقدر ، وإنكار

---

(١) لسان الميزان جـ ٦ ص ٣٣٥

(٢) أسد الغابة جـ ٤ ص ٣٩٠ .

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٢٧ .

(٤) الفهرست ص ١٧١

(٥) لسان الميزان جـ ٤ ص ٤٢٤ ، المعارف ص ٢٤٤

إضافة الخير والشر إليه واصل بن عطاء تلميذ الحسن البصرى وتلميذه عمرو ابن عبيد [١].

وقد اصطف أمام القدرية أصحاب مذهب الجبر يناضلون عن مذهبهم وأن كل شيء بقضاء وقدر ، فاتجه جهم بن صفوان وهو من رءوس المرجئة الجبرية إلى القول بأن الإنسان مجبور لا اختيار له ولا قدرة ، وأنه لا يستطيع أن يعمل غير ما عمل ، وأن الله قدر عليه أعمالا لابد أن تصدر عنه ، وقد خلقها الله فيه كما يخلق فى الجماد ، وتنسب إلى الإنسان مجازا ، وأن الثواب والعقاب جبر ، كما أن الأفعال جبر والتكليف جبر [٢] وقد أظهر جهم بدعته بترمذ فقتله عامل نصر بن سيار هناك سنة ١٢٠ هـ [٣].

وعلى قدر ما كانت الكوفة تمج بمناقشات المرجئة ومناظراتهم ، كانت البصرة تمور بالمحاولات الجدلية فى القدر والجبر ، وكان زعيم القائلين فيها بالقدر غير منازع الحسن البصرى ، ويروى أن عطاء بن سيار ، ومعبدا الجنى كانا يأتيانه فيقولان : إن هؤلاء الملوك ، يعنيان بنى أمية ، على قدر الله فيقول : كذب أعداء الله [٤].

وقد وجه الحسن البصرى إلى عبد الملك برسالة طريفة رداً على سؤاله إياه عما يشاع عنه من قوله بالقدر وقد تحمس الحسن فيها لمذهب القدر واحتج بما يسنده من القرآن الكريم والحديث الشريف [٥].

وزعم صاحب المنية والأمل أن الحجاج كتب إليه يسأله عن رأيه فى القدر فكتب إليه رسالة ضمنها ما كان يراه من حرية الإرادة والعدل على الله [٦].

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٣١ ، ٦٢ ، نقد العلم والعلماء ص ١٠٢ الفرق بين الفرق ص ١٠٩

(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١١٤

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٤٠

(٤) المعارف ص ٢٢٥

(٥) مصورة الرسالة فى دار الكتب المصرية برقم ٥٢٢١ أدب .

(٦) المنية والأمل ص ١٢

ويبدو أن الحسن كان دائم الجدال فى هذه المسألة معنيًّا بإثارتها فى مجالسه ، فقد روى عن أيوب السختيانى أنه كان يقول : نازلت الحسن فى القدر غير مرة [١] .

وقد ظهر فى مجالس الحسن كثير من أفكار القدرية كفكرة العدل على الله وهى فكرة تتصل مباشرة بحرية الإرادة ، ومسئولية كل إنسان عن عمله ، وكان الحسن يؤمن بها كما آمن بحرية الإرادة والعمل [٢] .

وأيضاً ظهرت فى مجالسه مسألة مرتكب الكبيرة ، وذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق بينما ذهب تلميذه واصل بن عطاء إلى أنه بين الإيمان والفكر فى منزلة بين المنزلتين [٣] وقد أثار ذلك جدالا عنيفا بين واصل وأصحابه من القدرية . ويروى أن الحسن كان يجمع بين واصل وتلميذ له آخر وهو عمرو بن عبيد ليتناظرا فى هذه المسألة ، وروى المرتضى فى أماليه إحدى مناظراتهم [٤] وقد استطاع واصل أن يقنع عمرو بن عبيد برأيه [٥] وبذلك فارقا معا مذهب الحسن وسمّيا ومن تبعهما بالمعتزلة .

وقد أدى تفاعل الأفكار المتناقضة واحتكاكها إلى ذوبان فرقة المرجئة التى احتوت فى شقيها القول بالجبر وبحرية الإرادة ، وكانت نتيجة هذا الذوبان ظهور فرقة جديدة هى فرقة المعتزلة التى انبثقت عن القدرية ، وظلت تعرف بهذا الاسم لموافقتها للقائلين بالقدر فى إثبات قدرة للإنسان توجب الفعل بانفرادها واستقلالها دون الله تعالى وتنفى أن تكون الأفعال بقدر الله تعالى وقضائه ولانطلاقها أيضاً فى جزء من مقولتها مما زعمه الجهمية الجبريون من نفى أن يكون

---

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ١٢٢ .

(٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٠٦ .

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٦٤ .

(٤) أمالى المرتضى ج ١ ص ١١٤

(٥) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٦٥ .

لله صفات غير ذاته وتأويل ما ورد منها فى القرآن على غير الظاهر ، ومن القول بخلق القرآن[١].

وقد أصبحت هذه الأفكار التى آلت إلى المعتزلة عن فرقتى المرجئة من المبادئ الأساسية لمذهب الاعتزال ، ولهذا زعمنا أن بيئة المرجئة هى التى أثمرت الاعتزال ، وأن المرجئة القدريين والجبريين على السواء هم أساتذة المعتزلة فى القول بالقدر ونفى الصفات .

وقد ارتبطت نشأة الاعتزال ارتباطاً وثيقاً بمجلس الحسن البصرى وهو رأس القدرية وخصم لا يستهان به للقائلين بالجبر . وتذكر الروايات أنه كان أول من أطلق كلمة المعتزلة على تلميذه واصل بن عطاء وبعض أصحابه على أثر مناظرة فى مرتكب الكبيرة . وكان الخوارج يرونه كافراً بينما كان المرجون يرونه مؤمناً . ولكن الحسن ومن تابعوه من القدريين كانوا يرونه منافقاً فأظهر واصل ابن عطاء القول بأنه غير مؤمن وغير كافر وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين . وقد أثار هذا القول جدلا عنيفاً بين الحسن وتلاميذه ، ودفع الحسن عمرو بن عبيد لمجادلة واصل فأقنعه برأيه وبذلك فارقا معاً مذهب الحسن وسميا ومن اتبعهما باسم المعتزلة[٢] .

ولكن بعض الروايات تنسب إطلاق اسم المعتزلة إلى قتادة . كما أن بعضها ينسب حادثة الانفصال تلك إلى واصل ، وبعضها ينسبها إلى عمرو بن عبيد[٣] ولهذا فقد ضعّف بعض الدارسين أن تكون التسمية بسبب حادثة الانفصال هذه لتعلقها حينئذ بالعرض دون الجوهر ، وذهبوا إلى أن الأوجه أن تكون التسمية راجعة إلى معنى من المعانى وليست بسبب حركة جسمية[٤].

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ١١٥

(٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ١٩

(٣) عيون الأخبار ص ٢٤٣ ، الأغلاق النفسية ص ٢٢٠ ، الأنساب ص ٥٣٦ شرح المقامات ج ١ ص ٣٨٥

(٤) فجر الإسلام ص ٢٨٨ .

ومن هنا ظهرت تفسيرات عديدة لما يمكن أن يكون سبباً فى إطلاق هذه التسمية كأن يكون ذلك راجعاً إلى اعتزالهم لآراء الجماعة القائلة بأن مرتكب الكبيرة مؤمن ولآراء الخوارج التى تذهب إلى أنه كافر[١] أو أن واصلا وعمرا حينا طردا من مجلس الحسن وانضم إليهما من تابعهما على رأيهما من أصحابهما قال الناس يومئذ فيهما : إنهما قد اعتزلا قول الأمة وسمى أتباعهما من يومئذ بالمعتزلة[٢] أو لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين فهو فى منزلة بين المنزلتين .

ومهما كان السبب فى إطلاق هذه التسمية عليهم ، فإنها لم تكن تسمية مستحدثة ، فقد أطلقت قبل ذلك على طائفة من المسلمين شاءت أن تقف موقف الحيدة من الصراع بين على ومعاوية لأنها وجدت فئتين متقاتلتين ، ولم تقتنع برأى أحدهما ، ولم ترد أن تدخل فى القتال بينهما لأنها لم تكن قد كونت لها رأياً أو لأنها رأت أن كليهما غير محق فيما ذهب إليه .

ومعنى هذا أن التسمية بالمعتزلة قد نشأت فى فلك سياسى وأنها ترجع إلى بدء التيارات الإسلامية التى بدأت مع تولى على الخلافة حينما وقفت طائفة من المسلمين على الحياد ، ولم يتخذوا موقفاً إيجابيًّا فى مشكلات السياسة القائمة فسموا بالمعتزلة ، وأصبح اسمهم اصطلاحاً سياسيًّا يعنى اتخاذ موقف الحياد بين على وخصومه[٣] .

وقد أطلق المؤرخون كلمة الاعتزال على هؤلاء الذين لم يبايعوا عليًّا ، ولم يكونوا من أنصار عثمان ممن أورد أبو الفداء أسماءهم ، وعقّب عليهم بقوله : إن هؤلاء سموا بالمعتزلة لاعتزالهم بيعة على[٤] .

وقد ذكر أبو الفرج أن والد الشاعر أيمن بن خريم كان ممن اعتزلوا حرب

---

(١) انظر لسان العرب ، تاج العروس فى مادة : عزل .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٩٧–٩٨

(٣) Short Encyclofaedia of Islam pp. 421-422,

(٤) المختصر فى أخبار البشر جـ ١ ص ١٧١

الجمل وصفين وما بعدهما من الأحداث فلم يحضرها(١) .

وأيضاً كان سعد بن أبى وقاص من الذين اعتزلوا الصراع بين على وأصحاب الجمل وبين على ومعاوية ، وقال : لا أقاتل حتى تأتونى بسيف يستطيع أن يعقل وينطق ويبصر ليخبرنى أن هذا أصاب وأن ذاك أخطأ ، ويذكر أبو الفرج أن أيمن بن خريم اعتزل النزاع بين عمرو بن سعيد وعبد الملك ، وشاركه فى الاعتزال رجل من قومه يقال له ابن كوز فقال أيمن فى ذلك أبياتاً فيها قوله :

فإنى تارك لهما جميعا ومعتزل كما اعتزل ابن كوز(٢)

وكان أيمن من المعتزلة الأولين الذين لا يرون الانزلاق إلى نصرة فئة على فئة بينما كان يسارع إلى نيل أموال العطاء متجنباً أى قتال فى أى صف كما فى قوله :

إن للفتنة ميطا عاجلا فرويد الميط منها تعتدل
فإذا كان عطاء فانتهز وإذا كان قتال فاعتزل
إنما يوقدها فرسانها حطب النار فدعها تشتعل(٣)

وقد رفض أن يشترك فى قتال ابن الزبير ، على الرغم من إغراء عبد الملك له بالمال ، وقال فى ذلك أبياتاً تعبر عن مذهبه فى اعتزال الفتنة منها :

ولست بقاتل رجلا يصلى على سلطان آخر من قريش
له سلطانه وعلى إثمى معاذ الله من سفه وطيش
أأقتل مسلماً فى غير ذنب فليس بنافعى ما عشت عيشى(٤)

وجاءت كلمة المعتزلة والاعتزال دالة على الحيدة فى المواقف السياسية

(١) الأغانى جـ ٢١ ص ٥ .
(٢) الأغانى جـ ٢١ ص ٦
(٣) العقد الفريد جـ ١ ص ٢٥
(٤) ابن سعد جـ ٦ ص ٢٥

المشتملة على صراع بين طائفتين مختلفتين[١] ولهذا فقد بدا أن إطلاق هذه التسمية على مدرسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد لم يكن إلا إحياء للاسم القديم الذى كان معروفاً وله صبغة خاصة مما يحول بيننا وبين أن نصدق أنه إنما أطلق لمناسبة انتقال واصل من سارية إلى سارية ، فليس شك إذن فى أن الاعتزال يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعانى والأفكار التى قال بها أولئك الذين سموا بالمعتزلة وبالظروف السياسية التى وجدت فيها هذه الأفكار ، وقد ذهب بعض الدارسين إلى أن حركة الاعتزال بدأت فى نهاية القرن الأول انعكاساً أورد فعل للتطرف المذهبى للشيعة والخوارج من ناحية ثم للتراخى الذى وسم به موقف جماعة المرجئة من ناحية أخرى[٢].

وتجمع الروايات على أن محل الخلاف بين الحسن البصرى وواصل بن عطاء إنما كان حول مرتكب الكبيرة أكافر هو أم مؤمن ، وهى مسألة وإن كانت فى ظاهرها مسألة كلامية بحتة إلا أن فى أعماقها شيئاً سياسيًّا خطيراً .

فالمعتزلة الجدد بقولهم إن مرتكب الكبيرة ليس مؤمناً خالصاً وليس كافراً خالصاً وإنما هو فى منزلة بين المنزلتين ، قد وقفوا بين الخوارج والمرجئة موقفاً وسطا واعتزلوا رأيهم جميعا ، وهم بهذا يمثلون الخلفاء الشرعيين لأولئك الذين سبقوهم بمائة عام تقريباً بالاعتزال السياسى للفريقين المتنازعين .

ويبدو الخطر السياسى لأفكار المعتزلة إذا ما طبق مبدؤهم فى مرتكب الكبيرة على الأعمال التى سبقت بين المسلمين من قبل ، والرجال الذين قاموا بها ، فإن مرتكب الكبيرة الذى يضعونه بين الكفر والإيمان إذا خرج من الدنيا على كبيرته من غير توبة فهو من أهل النار خالدا فيها[٣].

فهم يتفقون مع الخوارج فى تأييد عذاب العاصى حتى ليعدهم البعض من الخوارج كما فعل إسحق بن سويد القدرى فى قوله :

---

(١) راجع الطبرى ج ٥ ص ١٧٦، ٢٠١ ، ٢٢٤ ، ج ٧ ص ٧ .

(٢) Hamiliton, Or-Mohammedanism, p. 99.

(٣) الملل والنحل ج ١ ص ٦٥ .

برئت من الخوارج لست منهم   من الغزّال فيهم وابن باب[١]

وهم بهذا أكثر جرأة من المرجئة السلبيين الذين قالوا بإيمانه ، وقد تبدت جرأة المعتزلة فى نقد الرجال والمواقف ، فلم يجوز واصل قبول شهادة على وطلحة والزبير على باقة بقل ، كما جوز أن يكون عثمان وعلىّ على الخطأ ووافقه على ذلك عمرو بن عبيد[٢] بل وافقه على ذلك أيضاً الشيعة الزيدية من أتباع تلميذه زيد بن على [٣].

وهكذا نستطيع أن نزعم أن هناك أوجه شبه بين المعتزلة الأول والمعتزلة المتأخرين وأن مذهب الاعتزال الكلامى قد سبقه اعتزال سياسى وأن كلا منهما قد انتحى منحى خالف به الطوائف المعاصرة المختلفة ، وإن أضاف المتأخرون بفضل ما أتيح لهم من الاحتكاك بالثقافة الأجنبية ، واستنادهم إلى العقل أبحاثاً لاهوتية بحتة فى صفات الله وفى القدر ولهذا يمكننا أن نرجع تسميتهم بالمعتزلة إلى اعتزالهم قول الأمة بانتحائهم منحى جديدا ساروا فيه مخالفين لغيرهم ، وإن كان اتجاههم ليس إلا نتيجة لذوبان الأفكار القدرية والجبرية التى عرفت قبل نشأتهم .

ولكنهم على الرغم من هذا يبرءون من تسمية البعض لهم بأسماء هذه الفرق فيدفعون تسميتهم بالقدرية بأنهم ينفون القدر بينما يثبته غيرهم والذين يثبتونه أولى بأن ينسبوا إليه ، وكذلك ينفون عن أنفسهم أن يسموا بالجهمية نتيجة لاتفاقهم معها فى القول بنفى صفات الله ، وقد برئ أحد رءوسهم من الجهمية بقوله :

ننفيهم عنـــا ولسنا منهم   ولاهم منا ولا نرضاهـــم
إمامهم جهم وما لجهـــم   وصحب عمرو ذى التقى والعلم[٤]

وإذا ما تأملنا طبيعة التكوين الفكرى للمعتزلة والمبادئ التى استغرقتهم

---

(١) الفرق بين الفرق ٩٩ ، البيان والتبيين جـ ١ ص ١٣ . .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٦٥ ٦٦
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠
(٤) العقد جـ ١ ص ١١٠

لتبين لنا أنهم أصحاب فكر قومته ثقافة عقلية خالصة ترتكز على دعائم من الفلسفة والمنطق ويستهدف الدفاع عن عقيدة التوحيد بالدليل المنطقى الذى أضحى طابع العقل العربى فى هذا العصر الذى غمرته التيارات الفكرية والمذهبية وانتشرت فيه ألوان الثقافة والمعارف والآراء المختلفة ولم تكن طبيعتهم الفكرية ولا اتجاههم العقلى ليسمحان لهم بالإكثار من الشعر أو الافتنان فيه كما لم تكن طبيعة هدفهم إلى الدفاع عن عقيدة التوحيد بالدليل والبرهان لتسمح لهم بذلك فهذا مجال يختلف عن مجال الشعر وللشعر مجال خاص هو التعبير الفنى عن التجارب النفسية التى ينفعل بها الشاعر انفعالا خاصاً . وليس شك فى أن هذا هو السبب فى أننا لا نجد للمعتزلة شعراً كثيراً جيدا بخلاف النثر الذى امتلكوا نواصيه وارتفعوا فيه إلى قمة سامقة وقد كان متوقعاً أن يبلغ المعتزلة بالشعر المذهبى الذى وطأ أكنافه الكميت فى هاشمياته خطوات أبعد فى مجال العقل والفكر والمنطق ولكنه يبدو أنه لم يتح لهم الشاعر القمين بهذه المهمة فانصرفوا بكل ثقلهم إلى النثر حيث عدوا من أئمة البيان .

وما بين أيدينا من شعر المعتزلة فى العصر الأموى لا يتجاوز أن يكون مقطوعات وأبياتاً يسيرة فى كتب الأدب والتاريخ ، ويكفى للتدليل على قلة شعرهم واهتمامهم بالنثر من دونه أننا لا نجد حتى بعد هذا العصر الذى نعنى به ديوان شعر مكتملا أو مجموعة من القصائد المكتملة التى يمكن أن تكون فى مجموعها صورة واضحة عن نمط شعرى معين نستطيع أن نستخلص منه خصائص مدرسة أو اتجاه أو مذهب [١] .

وعلى الرغم من هذا ومن قصر الفترة التى عاشها الاعتزال فى العصر الأموى فإننا نجد هذا الشعر القليل يصطبغ بصبغة عقليتهم ويتضمن بصورة أو بأخرى بعض اتجاهاتهم الفكرية ومبادئهم الأساسية التى قام عليها مذهبهم ، كما أننا يمكننا أن نتعرف على بعض انطباعاتهم المذهبية وسماتهم الخاصة التى أثرت دون ريب فى الشعر العربى من بعد تأثيرات هامة بما احتوت عليه من جدة

---

(١) أدب المعتزلة ص ٣٢٩ .

وطرافة نتيجة لاحتكاكها بالأفكار والثقافات المختلفة حتى يمكن القول بأن الأدب العربى قد تأثر بالهلينية عن طريق المعتزلة[١] وليس شك فى أن من ينظر فى شعر المعتزلة فيما بعد عصر بنى أمية يستطيع أن يرى مبادئهم وأفكارهم ماثلة فيه مثولا واضحاً كما أنه سيجد روح الاعتزال يشيع حتى فى الموضوعات التقليدية غير المذهبية ممثلا فى استخدام اصطلاحاتهم ومعانيهم وتعبيراتهم وطرائقهم فى التفكير، ولكننا وقد وضعنا نهاية العصر الأموى حداً تاريخياً لهذه الدراسة فإننا سنحاول من خلال أشعارهم القليلة فى هذه الفترة أن نبين ما يمكن أن يطبع شعرهم ويميزه عن غيره من مقومات وخصائص . ولعل أهم خصيصة تميز شعرهم هى تلك الخصيصة التى تميز فكرهم إطلاقاً وهى التعقيل فقد حولوا قضية الحسن والقبح العقليين التى ساقهم إليها البحث فى عدالة الله وتنزيهه إلى دفاع حار ومجيد عن سلطة العقل والاعتداد به مرجعاً أساسياً فى تحسين الأشياء وتقبيحها حتى صار لديهم الحجة الأولى فى الحكم على الأشياء ، واكتناه حقيقتها والتمييز بين خيرها وشرها حتى قبل أن يرد بذلك الشرع مخالفين أهل السنة فى تقديمهم العقل على السمع وقولهم بأن المعارف ضرورية وطبيعية يدركها العقل بالضرورة ، ومن ثم فقد ذهبوا إلى أن معرفة الله وإدراكه عن طريق النظر والاستدلال شىء ضرورى وواجب بالنسبة للعاقل المفكر المتمكن من النظر وقد كان العقل دائماً سبيلهم إلى التدليل على صحة عقيدتهم ومبادئهم ، كما كان طريقهم إلى الدفاع عنها ضد خصومها ، حتى إنهم ليدلون بتمجيدهم للعقل على خصومهم الحمقى الذين لا يقدرونه حق قدره ، فقد عبر واصل بن عطاء فيما نسب إليه من شعر عن ضرورة صون العقل عن مهاترات هؤلاء الجهال مبيناً أن العاقل يشقى معهم بعقله :

تحامق مع الحمقى إذا مالقيتهم ... ولا تلقهم بالعقل إن كنت ذا عقل
فإن الفتى ذا العقل يشقى بعقله ... كما كان قبل اليوم يشقى ذوو الجهل[٢]

---

(١) مقدمة نقد النثر ص ١١
(٢) معجم الأدباء ﺟ ١٩ ص ٢٤٧ .

وقد سلك شعر المعتزلة سبيل الاستدلال العقلى لتأييد عقيدة التوحيد والدفاع عنها أمام خصومها ، وهى أقوى مبادئهم الأصولية التى تجمعهم ، فالمعتزلة يعدون أنفسهم أعمق الطوائف الإسلامية إيماناً بوحدانية الله وأشدهم دفاعاً عن عقيدة التوحيد ، وأعنفهم تصدياً للرد على أصحاب الأديان والنحل المختلفة لرد كل ما يتعارض مع وحدانية الله وأزليته ، أو ما يتنافى مع أنه سبحانه وتعالى قادر بذاته وعالم بذاته وحى بذاته لا بقدرة وعلم وحياة .

وقد لجأ شعرهم فى سبيل ذلك إلى معالجة موضوعات جديدة لم يسبق للشعر العربى أن عالجها من قبل وهى موضوعات تمثل لنا روح المعتزلة وثقافتهم ومنهجهم العقلى فى التدليل على وحدانية الله ، ومقدرتهم على الإقناع بالحجة الدامغة والبرهان القاطع ومهارتهم فى انتزاع الدليل بعد عرض المقدمات المسلمة المحسوسة .

ومن هذه الموضوعات ما عالجه صفوان الأنصارى فى قصيدة رائعة تعد من أروع ما أثر عن المعتزلة من شعر فقد استغل معرفته بعالم الأرض وطبيعته ومكنوناته وما يوجد فى باطن الأرض وعلى سطحها من مخلوقات عجيبة ومعادن غريبة وثمينة ليدل على وجود إله واحد متفرد بالألوهية والخالق وليرد على بشار بن برد الذى هاجم المعتزلة وعلى رأسهم واصل بن عطاء بعد أن تزندق وانحرف إلى القول بمذهب الديصانية المجوسى ، وذهب إلى أن العالم يقوم على أصلين هما النور والظلمة[١] وأن أولهما مصدر الخير وثانيهما مصدر الشر ، وقد جر ذلك بشاراً إلى أن يعذر إبليس فى زعمه أن النار خير من الطين [٢] وذكر مثل ذلك فى شعره فقال :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النار[٣]

---

(١) الانتصار ص ٣٠ – ٣١

(٢) انظر البيان والتبيين جـ ١ ص ١٠

(٣) الأغانى جـ ٣ ص ٢٤ ، البيان والتبين جـ ١ ص ٩

وقد بلغ بشارا أن واصل بن عطاء ينكر عليه مذهبه وقوله فهجاه بقوله :

مالى أشايع غزّالا لـــه عنق كنقنق الدو إن ولى وإن مثلا
عنق الزرافة ما بالى وبالكـــم أتكفرون رجالا أكفروا رجلا[1]

وكان بشار قبل أن يدين بالرجعة ويكفر الأئمة صديقاً لواصل بن عطاء وكان قد مدحه وذكر خطبته التى ارتجلها مجانباً الراء بقوله :

تكلف القول والأقوام قد حفلوا وحبّروا خطبا ناهيك من خطب
فقام مرتجلا تغلى بديهتـــــه كمرجل القين لمّا حفّ باللهب
وجانب الراء لم يشعر به أحد قبل التفصح والإغراق فى الطلب[2]

فلما دان بشار بالرجعة زعم أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقيل له ، وعلى بن أبى طالب فقال :

وما شر الثلاثـــــة أم عمرو بصاحبك الذى لا تصبحينا[3]

وقد رأى صفوان أن يسفه ما مال إليه بشار من القول بمذهب الديصانية وأن يناظره فى النار والطين أيهما أفضل وأجدر بالتقديم مناظرة عقلية تدحض ما زعمه من إظلام الأرض ، وإشراق النار وجدارتها لذلك بالتقديم ، فلجأ إلى الأرض يعدد فوائدها ومنافعها ويتحدث عن مكنوناتها ودفائنها حديث عالم خبير ، فإذا ما انتهى من كل هذا وملأ عقل سامعه وقلبه بدقة تلك المخلوقات قرر النتيجة التى استهدف الوصول إليها وهى أن الطين الذى عدد بعض مفاخره والذى خلقنا منه خير من النار ، وفى هذا إبطال لدعوى بشار ، فإذا ما كسب الجولة وأفحم مناظره انتهى إلى تقرير نتيجة أسمى ، وهى أن هذا الذى ذكره لهو أوضح برهان على وحدانية الله وتفرده ، يقول صفوان :

زعمت بأن النار أكرم عنصرا وفى الأرض تحيا بالحجارة والزند

(١) الأغانى ج ٣ ص ٢٤ ، البيان والتبيين ج ١ ص ٩ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ١٠ .
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٥٩ .

ويخلق في أرحامها وأرومهـا أعاجيب لا تحصى بخط ولا عقد
وفى القعر من لج البحار منافع من اللؤلؤ المكنون والعنبر الوردى
كذلك سر الأرض فى البحر كله وفى الغيضة الغناء والجبل الصلد
ولا بد من أرض لكل مطير وكل سبوح فى الغمائر من جد
كذاك وما ينساح فى ا لأرض ماشياً على بطنه مشى المجانب للقصد
ويسرى على جلد يقيم حزوزه تعمج ماء السيل فى صبب حرد[١]

فصفوان يبدأ استدلاله بضربة خاطفة جديرة بأن تنقض دعوى بشار ابتداء إذ يثبت زعمه بأن النار أكرم عنصرا ، ويتبع ذلك بقوله إن هذه النار التى يفضلها على الأرض لا يمكن لها أن تحيا وتستمر إلا فوق الأرض سواء أكانت فى صورتها المألوفة أم بعناصرها الأولية من الحجارة أو من العيدان التى يقدح بها شررها ، والله سبحانه وتعالى يخلق فى أرحام الأرض وفى أصول الأشجار أعاجيب لا يحصيها خط ولا عد ، ولا تقتصر الأرض على اليابسة فحسب وإنما تمتد تحت البحار ولجها حيث يكمن فى أحشائها الأؤلؤ المكنون .

وهكذا الأرض مليئة بالأسرار والمنافع فى البر والبحر والرياض والجبال ومهما طوف طائر فى الجو أو سبح سابح فى البحر فلا بدله من أن يسكن إلى الأرض ويقر فوقها ويأوى إليها ، لا فرق فى ذلك بين ما يسعى فوقها على بطنه وما يسرى على جلده مندفعاً بقوة السيل المنحدر . ويمضى صفوان فيعدد منافع الأرض ومكنوناتها :

وفى قلل الأجبال خلف مقطم زبرجد أملاك الورى ساعة الحشد
وفى الحرة الرجلاء تلقى معادنا لهن مغارات تبجس بالنقـد
من الذهب الإبريز والفضة التى تروق وتصبى ذا القناعة والزهد
وكل فلز من نحاس وآنـك ومن زئبق حى ونوشادر يسدى
وفيها زرانيخ ومكر ومرتـك ومن قرقشيشا غير كاب ولامكدى

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٦ .

وفيها ضروب القار والشب والنهى وأصناف كبريت مطاولة الوقد
ترى العرق منها فى المقاطع لائحا كما قدت الحسناء حاشية البرد
ومن إثمد جون وكلس وفضة ومن توتياء فى معادنه هنـدى
وفى كل أغوار البلاد معادن وفى ظاهر البيداء من مستوى نجد
وكل يواقيت الأنام وحليها من الأرض والأحجار فاخرة المجد(١)

فنى الأرض نجد الزبرجد والمعادن المختلفة التى تنفجر بمعدنى الذهب والفضة المتداولين فى النقد ، واللذين يفتنان الزاهد ذا القناعة عن زهده وقناعته ويزريان بهما كما يحفل باطن الأرض بالنحاس الأبيض والزئبق والنوشادر وحجارة الزرنيخ والمغرة وغيرها من الأحجار النافعة والعناصر المفيدة ، كالقار والشبّ والزجاج وأصناف الكبريت والمعادن التى ترى عروقها تلوح ممتدة فى باطن الأرض وكذلك الكحل الأسود والجير وأخلاطه والتوتياء وغير ذلك من المعادن والجواهر واليواقيت والحلى والأحجار الكريمة المطمورة فى أنحاء الأرض ، ويمضى صفوان فيعدد مزايا الأرض ومعالمها وأماكنها المقدسة فى قوله :

وفيها مقام الخل والركن والصفا ومستلم الحجاج من جنة الخلد
وفى صخرة الخضر التى عند حوتها وفى الحجر المهمى لموسى على عمد
وفى الصخرة الصماء تصدع آية لأم فصيل ذى رغاء وذى وجد

ثم ينتهى إلى تقرير تلك النتيجة التى ساق كل هذه الأدلة للوصول إليها وهى أن الأرض التى هى الطين خير من النار وأكرم عنصرا ، وأن الأرض بهذه الصورة الرائعة من التدبير المحكم والنفع العظيم هى أوضح برهان على وحدانية الله وتفرده ، يقول :

مفاخر للطين الذى هو أصلنا ونحن بنوه غير شك ولا جحد
فذلك تدبير ونفع وحكمـة وأوضح برهان على الواحد الفرد

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٧ .

وبعد أن انتهى صفوان من تقرير هذا المبدأ الأساسى من مبادئ الاعتزال تقريراً يقوم على الاستدلال العقلى المحض استدار إلى بشار هاجياً ومعنفاً ومسفها لآرائه ولعقيدته فى التناسخ ، ساخرا من تهجمه على الأئمة وتكفيرهم ، وهجائه للمعتزلة ، ولواصل بن عطاء الذى على الرغم من إحسانه إليه فقد نعته بأنه غزال قاصداً تحقير شأنه ، إذ كان يبيع الغزل فى سوق الغزالين ، وليس شك فى أنه دفاع حار عن واصل ينبع من إحساس عامر بحبه والإعجاب به ، فيقول :

أتجعل عمرا والنطاسى واصلا ... كأتباع ديصان وهم قمش المد
وتفخر بالميلاء والعلج عاصم ... وتضحك من جيد الرئيس أبى جعد
وتحكى لدى الأقوام شنعة رأيه ... لتصرف أهواء النفوس إلى الرد
وسميته الغزّال فى الشعر مطنباً ... ومولاك عند الظلم قصته مردى
فيا ابن حليف الطين واللؤم والعمى ... وأبعد خلق الله من طرق الرشد
أتهجو أبا بكر وتخلع بعــده ... عليًّا وتعزو كل ذاك إلى برد
كأنك غضبان على الدين كله ... وطالب ذحل لا يبيت على حقد
رجعت إلى الأمصار من بعد واصل ... وكنت شريدا فى التهائم والنجد
أتجعل ليلى الناعطية نحلــة ... وكل فريق فى التناسخ والرد
عليك بدعد والصروف وفرتنى ... وحاضنتى كسف وزاملتى هند
تواثب أقماراً وأنت مشوه ... وأقرب خلق الله من شبه القرد

فصفوان يستنكر على بشار هجومه على المعتزلة وتشنيعه على واصل ، ويفضح قصده فى أن يصرف الناس عن مذهبه إلى المذاهب الفاسدة ، ويرد عليه هجاءه واصلا ، وينعى عليه أن أباه كان طياناً وأن مولاه كان ملاحاً ويستنكر هجومه على الخلفاء وتكفيره الأئمة ويتهمه بأنه موتور من الدين كله وأنه جحد فضل واصل عليه إذ أعاده إل بلده بعد أن كان بعيداً شريداً فى الأرض ، ثم يندد بمذهبه فى التناسخ ساخراً منه سخرية مرة ولاذعة فى تساؤله عما إذا كان يزعم أن ليلى الناعطية — وهى امرأة من الغالية ذات عقل وتدبير — تحمل روح نحلة؟ ويهدى

إليه نصيحة ساخرة بأن يلزم هاته النسوةمن دعد إلى هند معرضاً بفسقه وعبثه على أن يترك هؤلاء الرجال الذين لا يستطيع أن يساميهم إذ بينه وبينهم ما بين الأرض والقمر مشبهاً إياه فى قبحه ودمامته بالقرد .

وواضح أن هذا الجزء من القصيدة قد بدت فيه الروح الشاعرية التى افتقدت فى باقى القصيدة وذلك بفضل ما أفاضه الشاعر من عاطفة الحب للأئمة والخلفاء ولرجال مذهبه ولعقيدته ، ومن عاطفة البغض الشديد الذى تبدى فى صورة ساخرة من بشار الذى يزرى على عقيدته ويشنع على رجالها . وهو أمر خلت منه الأجزاء الأولى من القصيدة إذ كانت كلها حجاجا عقلياً صرفاً واستدلالا تقود فيه المقدمات المحسوسة والملموسة إلى النتائج التى استهدف الشاعر الوصول إليها .

والقصيدة بتمامها قصيدة مذهبية ممثلة لروح المعتزلة وسلوكهم فى الرد على أصحاب الديانات الباطلة والنحل الفاسدة ، والمعتزلة فى كل هذا يعتمدون على الأدلة العقلية والبراهين المادية ، ويستخدمون من الموضوعات ما تساعدهم عليه ثقافاتهم الواسعة وإلمامهم بعجائب الخلق .

وهو اتجاه جديد فى الشعر العربى لم يعرف به غير المعتزلة الذين ظلوا يعالجون أمثال هذه الموضوعات فيما بعد ، كما نرى عند بشر بن المعتمر(١) فى تصديه للتدليل على وحدانية الله تعالى وقدرته وتفرده بالخلق والإبداع من خلال تصوير الحيوان والوحش والطير وصفاتها وأحوالها واتخاذها براهين ساطعة على قدرته وتنزيهه عن الشرك وأحكامه لصنعه وإبداعه لخلقه ، وهى أمور تعد قوام عقيدة التوحيد التى هى أهم الأصول التى تقوم عليها عقيدة الاعتزال ،

وقد صور شعر المعتزلة إيمانهم بأصل آخر من أصول عقيدتهم وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد عدوه أصلا من أصولهم وإن لم ينفردوا به دون عامة المسلمين ، إذ كلهم مطالب به إذعانا لقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » .

---

(١) انظر الحيوان جـ ٦ ص ٢٨٤ .

ولكن المعتزلة لا يتساهلون فى هذا الأمر كما قد يفعل غيرهم من عامة المسلمين على تفاوت فى مداه . إذ يجمعون فيما عدا ابن كيسان الأصم على ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر عند القدرة والإمكان بالسيف واليد واللسان[١] .

وفى الحقيقة أن المعتزلة لم يقصروا فى هذا الأمر ، وإنما تميزوا بالاشتداد فيه ، والاجتهاد فى القيام به حتى صار لهم فى كل مكان دعاة أشداء لا يفل عزمهم طاغية أو جبار ولا يثنى همتهم كيد أو ائتمار . ولا يعبأون بقيظ الصيف ولا بصقيع الشتاء ولا يأبهون لبعد الشقة عن الأوطان ولا يبخلون بالجهد والمشقة ومعاناة الأخطار وكد السفر فى سبيل الدفاع عن الدين فى تفان وإخلاص نادرين حتى نصرهم الله على أعدائهم وأظهرهم عليهم فصاروا أوتاد دين الله فى كل مكان من الأرض وأهل الفتيا وأرباب الجدل وفرسان البلاغة وأئمة البيان الذين لا يشق لهم غبار ولا يدانيهم من خطباء العرب سحبان ولا غير سحبان ولا أحد من فصحاء بنى عامر ولا حتى النخار العذرى أو دغفل السدوسى ولا القالة الأعلون من رهط مكحل . ومن عجب أن يأتى بشار فيلقب واصلا بالغزال فكيف ذلك وهو واحد عصره وكهف اليتامى وملجأ المعوزين وليس لهم غيره ، فمن غير واصل ورفاقه من رجال المعتزلة يستطيع أن يتصدى للخوارج وللرافضة وللمرجئة وللمتجبرين الضالين عن جادة الصواب ، ومن للأمر بالمعروف ولإنكار المنكر وحماية دين الله من أعدائه الكافرين غير هؤلاء الرجال الذين يصيبون فصل القول فى كل منطق والذين تعرفهم من رزانتهم ووقارهم فى مجالسهم كأنما على رءوسهم الطير ، تعرفهم بسيماهم وفى سعيهم إلى الحج رجالا وعلى كل ضامر يأتون من كل فج عميق ، كما تعرفهم من طول ركوعهم حتى ليقضى الرجل منهم ليلة فى ركعة واحدة وتعرفهم أيضاً من صدقهم ، وبعدهم عن النفاق ومن أنهم لا يقولون ما لا يفعلون ومن قص أهدابهم وإحفاء شواربهم ومن عمائمهم المكورة فوق رءوس اشتعل شيبها حتى لتكاد تضىء ومن شعيرات بين الشفة السفلى والذقن مصلومة عن اللحى ومن قمصانهم الرحيبة . فهذه

---

(١) مقالات الإسلاميين ج ١ ص ٣١١ .

علامات تحيط بوصفهم وسيماهم رجالا دعاة للخير والمعروف قساة على الشر والنكر كما تصور ذلك أبيات شاعرهم صفوان الأنصارى التى تقول :

له خلف شعب الصين فى كل ثغرة ... إلى سوسها الأقصى وخلف البرابر
رجال دعاة لا يفل عزيمهم ... تهكم جبار ولا كيد ماكر
إذا قال مرّوا فى الشتاء تطاوعوا ... وإن كان صيفاً لم يخف شهر ناجر
بهجرة أوطان وبذل وكلفة ... وشدة أخطار وكد المسافر
فأنجح مسعاهم وأثقب زندهم ... وأورى بفلج للمخاصم قاهر
وأوتاد أرض الله فى كل باقع ... وموضع فتياها وعلم التشاجر
وما كان سحبان يشق غبارهم ... ولا الشدق من حيّ هلال بن عامر
ولا الناطق النخّار والشيخ دغفل ... إذا وصلوا إيمانهم بالمخاصر
ولا التمالة الأعلون رهط مكحّل ... إذا نطقوا فى الصلح بين العشائر
بجمع من الجفين راض وساخط ... وقد زحفت براؤهم للمحاضر
تلقب بالغزّال واحد عصره ... فمن لليتامى والقبيل المكاثر
فمن لحروريّ وآخر رافض ... وآخر مرجىّ وآخر حائر
وأمر بمعروف وإنكار منكر ... وتحصين دين الله من كل كافر
يصيبون فصل القول فى كل منطق ... كما طبقت فى العظم مدية جازر
تراهم كأن الطير فوق رءوسهم ... على همة معروفة فى المعاشر
وسيماهم معروفة فى وجوههم ... وفى المشى حجاجا وفوق الأباعر
وفى ركعة تأتى على الليل كله ... وظاهر قول فى مثال الضمائر
وفى قص أهداب وإحفاء شارب ... وكور على شيب يضىء لناظر
وعنقفة مصلومة ولنعلـــه ... قبالان فى ردن رحيب الخواطر
فتلك علامات تحيط بوصفهم ... وليس جهول القوم فى جرم خابر[1]

وواضح أن وراء الأبيات عاطفة مشبوبة وإحساسا صادقا بالحب للمعتزلة والإيمان بعقيدتهم والولاء المخلص لمذهبهم ، ويتجلى ذلك فى إشادته الحارة بتمسكهم

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٤ ، ١٥ :

بدينهم وجهادهم فى سبيله وتفانيهم فى الذود عنه والتضحية بهجرة الأوطان وبذل النفس والنفيس والاستهانة بالخطر والجهد فى سبيل إعلاء كلمة الدين ورفع رايته .

ولا ريب فى أن هذه العاطفة قد طبعت الأبيات بطابع الصدق . فلا تزيد ولا مبالغة وإنما هى صورة صادقة لما كان عليه رفاقه من المعتزلة وما كانوا يبذلون من جهد مخلص للدفاع عن دينهم وما كانوا يتميزون به من قدرات بلاغية فائقة كانت لهم خير معين على أداء رسالتهم . وهى أمور تحدثنا عنها مصادر التاريخ ، ولكن عاطفة الشاعر الصادقة وهبت هذه الحقائق النبض الذى أصبحت بفضله عملاً فنيًّا يمكن أن يوصف بالجمال .

وقد أشاد غير شاعر بجهاد المعتزلة فى مجابهة المخالفين ، ومجادلة الملحدين ونوهوا أكثر مانوهوا بواصل بن عطاء وما اشتهر به من بلاغة وعارضة قوية واقتدار على الكلام وقدرة فائقة على تصريف وجوه القول على الرغم من لثغة قبيحة كانت فى لسانه تجعله يتحرج من النطق بحرف الراء فكان يتجنبه دون أن يتردد فى كلامه . وقد أشاد شعر المعتزلة بنضاله وتحمله الانتقال من مكان إلى مكان سعياً فى سبيل الدفاع عن العقيدة من مثل قول صفوان الأنصارى :

ملقن ملهم فيما يحاوله ... جمّ خواطره جوّابَ آفاق(١)

وقد تغنى الشعراء ببلاغته وسبقه الخطباء المصاقع الذين خطبوا قبله لدى عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق وهم خالد بن صفوان وشبيبً بن شبّة والفضل بن عيسى فقال بشار :

أبا حذيفة قد أوتيت معجبة ... من خطبة بدهت من غير تقدير
وإن قولا يروق الخالدين معاً ... لمسكت مخرس عن كل تحبير(٢)

وقال صفوان الأنصارى مفتخراً بمهارته وإسقاطه الراء وظهوره على من سبقه من الخطباء :

---

(١) معجم الأدباء جـ ١٩/٢٤٩ والبيان والتبيين جـ ١ ص ١٢ .

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٤

فسائل بعبد الله فى يوم حفلة ... وذاك مقام لا يشاهده وغد
أقام شبيبا وابن صفوان قبله ... يقول خطيب لا يجانبه القصد
وقال ابن عيسى ثم قفاه واصل ... فأبدع قولا ماله فى الورى ند
فما نقصته الراء إذ كان قادراً ... على تركها واللفظ مطرد سرد
ففضّل عبد الله خطبة واصل ... وضوعف فى قسم الصلات له الشكر
فأقنع كل القوم شكر حبائهم ... وقلل ذاك الضعف فى عينه الزهد(١)

وكذلك أشاد أبو الطروق الضبي المعتزلى بواصل الخطبة واجتنابه الراء على كثرة ترددها فى الكلام فقال :

عليم بإبدال الحروف وقامع ... لكل خطيب يغلب الحق باطله(٢)

وقال آخر مشيداً بنفس المقدرة :

ويجعل البر قمحاً فى تصرفه ... وخالف الراء حتى احتال للشعر
ولم يطق مطرا والقول يعجله ... فعاذ بالغيث إشفاقاً من المطر(٣)

وفى الاعتداد به والتغنى بصفاته وشخصيته يقول أسباط بن واصل الشيبانى :

وأشهد أن الله سماك واصلا ... وأنك ميمون النقيبة والشيم(٤)

وكما أشاد شعر المعتزلة ببلاغة واصل واقتداره وجهاده أشاد بزهده وانصرافه عن متاع الدنيا ولذائذها إلى العبادة والدعوة إلى طريق الله لا تخدعه مفاتن الحياة ولا يبهره بريق المال وفى ذلك يقول صفوان الأنصارى :

ولا مس دينارا ولا مس درهماً ... ولا عرف الثوب الذى هو قاطعه(٥)

وكذلك كانت صورة صاحبه ورفيق جهاده عمرو بن عبيد الذى وصفه أبو جعفر المنصور بقوله :

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩ .
(٢) وفيات الأعيان ج ٥ ص ٦٠ والبيان والتبيين ج ١ ص ٩ .
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ١٢ .
(٤) البيان والتبيين ج ١ ص ١٨ .
(٥) البيان والتبيين ج ١ ص ١٥ .

كلكم يمشى رويد كلكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد(١)

وقد كان أبو جعفر يبالغ فى إجلال عمرو وتعظيمه حتى لقد حزن عليه حين وفاته حزناً شديداً وقال فى رثائه أبياتاً عدّها الخليفة الوحيد الذى رثى واحدا من رعيته(٢) وفيها يقول :

صلى الإله عليك من متوسد قبرا مررت به على مرّان
قبراً تضمن مؤمناً متخشعاً عبد الإله ودان بالقرآن
وإذا الرجال تنازعوا فى شبهة نصل الحديث بحجة وبيان
ولو أن هذا الدهر أبقى صالحا أبقى لنا عمراً أبا عثمان(٣)

وعلى هذه الصورة أشاد شعر المعتزلة برجال الاعتزال وبتقواهم وزهدهم وحكمتهم وبلاغتهم واقتدارهم على الخطابة والجدل ومحاجة أهل النحل والبدع وتسخير هذه المهارات فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهو أحد المبادئ الأصولية فى عقيدة الاعتزال .

وليس شك فى أن الدارس لشعر المعتزلة بعامة يشعر بغير قليل من الأسى لقلة شعرهم وليس لذلك من سبب إلا أنهم وجدوا النثر أفسح مجالا للتعبير عن ثقافتهم وأطوع استجابة لأن يحمل خصائص مذهبهم لما تتسم به ثقافاتهم وآراؤهم من سمات عقلية محضة كان النثر دائماً أكثر توفيقاً فى التعبير عنها ، وقد بلغ المعتزلة فى التعبير به أقصى درجات الدقة والروعة والجمال ، ودفعوا إليه بطاقة فكرية وأدبية هائلة استطاعوا بها أن يطوره وأن يفتحوا أمامه الطريق إلى آفاق جديدة رحيبة وأن يطوعوه للتعبير عن مضامين مختلفة كما كان لهم فضل السبق فى تناول مشكلات الألفاظ وصفاتها ومواقعها من الجملة وعلاقاتها بالمعانى ومناسبتها لأحوال السامعين وأقدارهم ، وما إلى ذلك من الأمور التى تعد

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٣١ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٣٢ ، والمنية والأمل ص ٢٤ .
(٣) نفس المرجع .

الدعائم الأولى لعلم البلاغة العربي .

فالنثر إذن كان أكثر ملاءمة للمعتزلة من الشعر فى التعبير عن معتقداتهم وثقافتهم العقلية الخالصة ، كما كان أكثر اتفاقاً ومهمتهم وطبيعة تكوينهم الفكرى إذ لم يكونوا معنيين بالتعبير عن تجاربهم النفسية والشعورية شأن الخوارج ، كما لم يكونوا مهتمين بالدفاع عن عقيدة تقوم على العاطفة المجردة شأن الشيعة وإنما كان جل نشاطهم وعنايتهم مرجها إلى الدفاع والتدليل على عقيدة تستند إلى الفكر الخالص وتحتكم إلى العقل وحده وتتوسل إلى ذلك بالمناقشة والجدل والنظر فى الأدلة واستخدام الأقيسة المنطقية والبراهين العقلية ، ولهذا كان النثر بطواعيته ويسره وتخففه من القيود الفنية التى تحكم الشعر أنسب القوالب الأدبية لطبيعة الهدف الذى يرمون إليه وهو تقرير عقائدهم والدفاع عن مذهبهم ولهذا كان لجوءهم إلى الشعر قليلا ونادرا ، ولأن الفترة التى شهدت دعوتهم فى عصر بنى أمية كانت قصيرة جداً كان شعرهم أكثر قلة وندرة ، إذا ما قورن بشعرهم فى العصور اللاحقة على قلته ، ونستطيع على الرغم من ذلك أن نلاحظ من خلال ما بأيدينا من شعرهم فى عصر بنى أمية خصائص معينة تطبع هذا الشعر بطابع خاص .

فهو شعر يذهب برمته فى تقرير العقيدة والدفاع عنها ويتوسل إلى ذلك من حيث موضوعه بوسيلتين ، أولاهما معالجة الموضوعات التقليدية المألوفة من مدح وفخر ورثاء وهجاء . وثانيهما معالجة موضوعات جديدة لم يطرقها الشعر العربى من قبل ، ولكننا نلمح فى معالجته للموضوعات التقليدية تأثيرات مذهبية واضحة ، فعناصر المديح والفخر والرثاء فى شعرهم مقتبسة من صفاتهم التى غلبت عليهم كالبلاغة واللسن والقدرة على الارتجال وقوة البديهة والاقتدار على التصرف والتفانى فى الدعوة لدين الله وتوحيده والمهارة فى الفتيا والمناقشة والجدل والاعتدال بالعقل والتصدى للضالين من أصحاب النحل الفاسدة والبدع المنكرة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإخلاص فى التعبد والتهجد والزهد فى عرض الدنيا والبعد عن النفاق والمراءاة . والتحلى بالوقار والرزانة وجلال السمت والهيئة

وكذلك يتوسل هجاؤهم لخصومهم بقلب هذه العناصر فيرمونهم غالباً بالجهل والضلال والحيرة والزيغ والمعصية والكفر .

إلا أنهم كثيراً ما يلجأون إلى العناصر التقليدية فيرمونهم بصفات اللؤم والخسة والدناءة ويلمزونهم لمزاً جارحاً كما فعل صفوان ببشار بن برد إذ عيره بالعمى وشبّهه بالقرد، وتهكم بإخونه تهكماً مرًّا ، كأن يخاطب أم بشار بأنها ولدت جرذا أعمى وضبعاً أعرج وأرنباً قصير اليدين ، وأن الثلاثة الأخوة من أم واحدة وآباء مختلفين فلؤمهم لؤم خئولة إذن :

ولدْت خلدا وذيخا في تشتمه وبعده خزرا يشتد في العضد
ثلاثة من ثلاث فرقوا فرقا فاعرف بذلك عرق الخال من ولد[1]

وطبيعي أن يصدر شعرهم في هذه الموضوعات جميعاً عن عاطفة حارة نابعة من صدق عقيدتهم وولائهم لها سواء أكان ذلك في مديح رجالهم أورثائهم أو في الفخر بهم والإشادة بمناقبهم أم في كراهية خصوم عقيدتهم وهجوهم .

أما في موضوعات شعرهم الجديدة فكانوا أوثق اتصالا بمقالتهم المذهبية فهي موضوعات عقائدية خالصة تقوم على تقرير بعض المبادئ التي تدل دلالة قريبة وواضحة على طابع فكري ومذهبي خاص . وتعالج بطريقة عقلية محضة من حيث سوق الأفكار الجزئية التي يتكون منها المضمون الشعري العام في إطار فكرة عقلية واحدة ، ومن حيث استخدام النظر العقلي وأدواته للوصول إلى النتيجة المنطقية التي ترمي إليها تلك الأفكار الجزئية وتقريرها حتى يمكننا الزعم بأن المعتزلة قد تأثروا في شعرهم القليل الذي بين أيدينا بما تمرسوا به من إدمان النظر العقلي واستخدام المنهج العقلي للاستدلال .

وينبغي أن نشير أيضاً إلى أن المعتزلة لم يخلعوا على الشعر قيما شكلية جديدة في إطاره كتلك القيم الجديدة التي أضافوها إلى المضمون الشعري إذ كانت كل عنايتهم مسددة إلى النثر الذي كان مطيتهم الذلول وكان لهم في تطويره وإبداع أشكاله وتقنين قواعده باع طويل وأصيل .

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ١٨ .

الباب الثالث

شعراء الفرق الإسلامية

فى العصر الأموى

١ — الفصل الأول : شعراء الشيعة

٢ — الفصل الثانى : شعراء الخوارج

٣ — الفصل الثالث : شعراء الزبيريين

٤ — الفصل الرابع : شعراء المتكلمين



الفصل الأول

شعراء الشيعة

١

انتهينا في درسنا لشعر الشيعة إلى أنه يتميز بكثرته ، وبتمايز شعر كل شاعر عن شعر غيره ، وهذا يرتد بطبيعة الحال إلى كثرة شعرائهم ، وإلى تمايز كل منهم عن الآخر في شخصه وظروف حياته وبواعثها ، على الرغم من اتفاقهم جميعاً على القول بالتشيع .

وترجع كثرة شعراء الشيعة إلى عوامل مختلفة أبرزها دوران عقيدة الشيعة حول شخصية عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووصيّه في اعتقاد الشيعة وأقرب آل بيته إليه ، ثم حول ذريته فيما بعد من أحفاد النبي .

ولقد اعتنق كثير من المسلمين حب آل البيت من قبل أن يدينوا بعقيدة التشيع وكان بين هؤلاء كثير من الشعراء الذين أخذوا يشيدون بآل البيت ويفخرون بحبهم ويقررون حقهم دون غيرهم في ولاية أمور المسلمين ، معبرين أثناء ذلك عن سخطهم الشديد على من كانوا سبباً في تخطي عليّ إلى خلافة المسلمين منذ استخلاف أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

ثم تعدوا ذلك إلى الجهر بالدعوة المباشرة إلى تفضيل عليّ على غيره من كبار الصحابة بعد مقتل عثمان ، وكان الشعراء الملتفون من حول عليّ في هذه الفترة مجهولي القدر والذكر ولا نكاد نعرف من بينهم غير المفضّل المطلبي .

وما إن يتولى على الخلافة ويخوض معاركه ضد الشاغبين عليه في معركة الجمل والمعارضين له في صفين ، والخارجين عليه في النهروان حتى نجد من

حوله كوكبة مختلفة من الشعراء يجمعها الحب له والإيمان به وبحقه ويتخلف عنهم شعر كثير ترويه كتب التاريخ ومن أبرز شعرائه فى تلك الفترة قيس ابن عمرو المعروف بالنجاشى (١).

وهو كما يبدو من اسمه شاعر من نجران ويظهر أنه تعلق بعلىّ أيام كان باليمن لعهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فصحبه وآزره بشعره فى وقائعه بعد ذلك ولاسيما فى صفين وكان لسانه فى مناقضة أهل الشام إذ رد على كعب بن جعيل نقيضته بقصيدة تعد من أروع الشعر السياسى . ولكنه كان يعاقر الشراب ويشتهر بحبه فنفاه لذلك على من الكوفة . ثم لما مات الحسن بن على رثاه بقصيدة حارة ولم يلبث أن توفى بعد ذلك بقليل فى لحج باليمن .

وإذا أخذنا نعدد أولئك الشعراء الذين التفوا حول حب آل البيت فى هذا الدور الذى نسميه دور الدعاء لوجدناهم كثرة لا يحدهم الحصر ، وقد مرت بنا أشعار لعبيد الله بن الحرّ ولسليمان بن قتّة ولعبد الله بن كثير السهمى وأخيه كثيّر . وكذلك أشعار لحرب بن المنذر بن الجارود ولابن أم كلاب والأشتر النخعى والحجّاج بن عربة الأنصارى ، وأيمن بن خريم وعبد الله بن خليفة الطائى وهند بنت حجر بن عدى وخالد النجارى ويزيد بن مفرغ الحميرى وعبدالله بن هشام السلولى ، ومسلم بن عقيل بن أبى طالب . وسليم بن سلام الحنفى وأبى ثميلة الآبار والحزين الكنانى وأبى الطفيل عامر بن واثلة الكنانى . وإبرهيم بن المهاجر البجلى وعبدالله بن السائب فضلا عمن لا ينقضى عددهم من الشعراء المجهولين الذين لم تعرف شخصياتهم .

وقد عدت على هؤلاء الشعراء الخلافات السياسية حتى لم نعد نعرف غير أسماء بعضهم من مثل عوف بن عبد الله بن الأحمر الأزدى (٢) وكان من أولياء على وخلصائه الذين شهدوا معه يوم صفين ولم يحفظ لنا من شعره غير مرثية

---

(١) انظر فى ترجمته : الشعر والشعراء ص ١٨٧ — ١٩٠ ، الطبرى أحداث صفيين . واقعة صفين ، بروكلمان جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) انظر فى ترجمته معجم الشعراء ص ١٢٦ .

للحسين حث فيها على الثأر له من قاتليه ، وكانت من المكتمات فلم ترو فى عهد الأمويين إلا سرًّا ، وعلى الرغم من ذلك فإن بروكلمان يعده أشهر شعراء الشيعة[١] وربما كان ذلك لارتباطه فى أذهان الشيعة باضطهاد الأمويين لشعره ولسريان قصيدته هذه سرًّا إليهم وتداولهم إياها فيما بينهم .

ولعل أبرز الشعراء الذين التفوا حول علىّ وآل البيت على الإطلاق وبصورة ملحوظة أبو الأسود الدؤلى وهو شخصية مرموقة فى كثير من مناحيها ، ومعدودة فى طبقات من الناس هى فى كلها مقدمة ، مأثور عنها الفضل فى جميعها . فهو تابعى فقيه ، شاعر ومحدث وأمير ونحوى وزاهد وهو أولا وقبل كل شىء من وجوه الشيعة[٢] الذين صحبوا عليًّا وشهدوا معه الجمل وصفين ولأبى الأسود فى هاتين الوقعتين أشعار مختلفة فى معاتبة السيدة عائشة وطلحة والزبير وفى هجاء بنى أمية ، وقد استخدمه علىّ فولاه البصرة بعد ابن عباس وكان قد ولى الكتابة له من قبل واشترك فى النزاع الذى حدث بينه وبين علىّ وكان له دور كبير فى الحيلولة دون وقوع الفتنة بين بنى كنانة عندما تصدت لابن عباس وبين بنى هلال أخواله الذين استجار بهم فخفوا لحمايته وناشد أبو الأسود الناس بألا يسفكوا دماءهم بينهم ، وأن يخلوا بين ابن عباس وأمير المؤمنين فهو أولى منهم بابن عمه .

ويقترن ذكر أبى الأسود فى مجالات كثيرة بذكر علىّ بن طالب فهو فضلا عن تشيعه المخلص له ومؤازرته بيده وبلسانه تلميذه فى القضاء والفقه والعلم ، وهو أول من عمل كتابا فى النحو بعد علىّ بن أبى طالب الذى ألقى

---

(١) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٣٢ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ١١ ص ١٠١ وما بعدها والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٧٠٧ وأخبار النحويين البصريين ص ١٣ وطبقات بن سعد جـ ٧ ق ١ ص ٧٠ ، وأسد الغابة جـ ٣ ص٦٩ والإصابة جـ ٣ص ٣٠٤ ، والخزانة جـ١ ص ١٣٦ وروضات الجنات ٣٤١ وغاية النهاية فى طبقات القراء جـ ١ ص ٣٤٥ ومعجم الأدباء جـ ١٢ ص ٣٤ وإنباه الرواة على إنباه النحاه جـ١ ص ١٣١ وتاريخ دمشق جـ ٧ ص١٠٤ ومعجم الشعراء ص ٦٧ ووفيات الأعيان جـ١ ص ٢٤١ وله ديوان نشره عبد الكريم الدجيلى فى بغداد .

إله بتعليقات استعان بها فى عمله وهو أستاذ الحسن والحسين إلى غير ذلك من الروايات التىّ يظهر منها التحام أبى الأسود بعلىّ بن أبى طالب .

وبعد مقتل علىّ خطب أبو الأسود الناس فى البصرة ونعى إليهم أمير المؤمنين وبكاه ثم دعاهم إلى بيعة الحسن فبايعت الشيعة كلها وتوقف ناس ممن كان يرى رأى العثمانية ولم يظهروا أنفسهم بذلك وهربوا إلى معاوية مع رسول كان قد دسه هذا إلى أبى الأسود ليعلمه أن الحسن قد أرسله فى الصلح ويدعوه إلى أخذ البيعة له فى البصرة ، وقد حمل إليه الرسول وعود معاوية وأمانيه ، ولكن أبا الأسود لم يستجب لهذه الدعوة واتهم معاوية بالتحريض على قتل الإمام فى قصيدة رثاه بها تعد من خير شعره ، بل إن بعض الدارسين يذهب إلى أن أشعاره جميعا عدا هذه القصيدة لا قيمة لها[١]

ويبدو هذا الكلام مبالغاً فيه . ومتابعاً لرأى المستشرق الألمانى نولدكه فى شعر أبى الأسود ، فقد كان يتوقع أن يكون له أثر تاريخى مهم نظراً لعلاقاته بالشخصيات التاريخية ولشخصيته المشهورة ، ولكن شعره جاء — فى رأيه — ضعيفاً من ناحية المعنى ومن ناحية القيمة الشعرية وإن ارتفع أو كان عادياً فى قليل من المواضع[٢]

وأيضاً يأخذ عليه محقق ديوانه أن شعره كان بمعزل عن أحداث عصره فلم يشارك فى الانقلاب الفكرى فى حياة الدولة ولا فى الفتن والحروب وتفرق المسلمين وصراع علىّ ومعاوية والتحكيم وخروج الخوارج ومعركة النهروان وحرب الجمل وتنازل الحسن وهجرة عقيل إلى الشام ومقتل حجر بن عدى[٣] .

وعجيب أن يقول محقق الديوان هذا القول وهو يروى له أشعاراً كثيرة فى أغلب هذه الأحداث ، وحقاً فإن شعر أبى الأسود ليس شعراً فذاً نظراً لأنه لم يكن شاعراً وحسب وإنما كان ذا مواهب كثيرة ربما كان الشعر

---

(١) مقدمة الديوان ص ٢٨ .

(٢) مجلة الشركة الشرقية الألمانية ج ١٨ ص ٢٣٢ — ٢٤٠ .

(٣) مقدمة الديوان ص ٣٣ .

آخرها فغلبت شهرته فيها على شاعريته .

وعلى الرغم من ذلك فقد حظى شعره بكثير من الثناء والمدح ، فقد ذكر ابن النديم أن الأصمعى وأبا عمرو بن العلاء قد جمعا شعره(١) كما شرحه ابن جنى .

وهو من شعراء الشيعة المقدمين ويعده بعضهم من الفضلاء والفصحاء من الطبقة الأولى من شعراء الإسلام(٢) .

وقد رافق شعره كل الأحداث المهمة فى عصره ، ومر بنا شعره فى الجمل وغير الجمل ورثاؤه لعلى وللحسين ولمن قتل يوم كربلاء ، وله فى ذلك شعر كثير من مثل قوله :

يا ناعى الدين الذى ينعى التقى　　قم فانعه والبيت ذا الأستار
أبنى علىٍّ آل بيت محمد　　بالطف تقتلهم جفاة نزار
سبحان ذا العرش العلى مكانـــه　　أنى يكابره ذوو الأوزار(٣)

وكان يلاحى فى حب آل البيت من قبل أصهاره وجيرانه من بنى قشير العثمانيين وكانوا كثيراً مايؤذونه لتشيعه فيرجمونه بالحجارة بالليل ، ويحفظونه بسبّ على وانتقاصه لمقوله معهم قصص كثيرة تدور حول هذا ، وكذلك كان بنو هذيل يفعلون به ، وكان كثيراً مايعاتبهم من مثل قوله :

شتموا عليًّا ثم لم أزجرهـــم　　عنه فقلت مقالة المتردد
الله يعلم أن حبى صادق　　لبنى النبى وللإمام المهتـــدى(٤)

وقد خاصم فى علىّ وآله كل خصمائهم ، وكان كثير منهم من أصدقائه المقربين الذين يصفونه الود ، فقد كان أبو الجارود صديقاً حميا لأبى الأسود ثم ما لبث أن تنكر له لما انتقص عليًّا ، ولامه فى أبيات منها :

---

(١) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٢) تأسيس الشيعة ص ١٨٦ .
(٣) الديوان ص ١٨٢ .
(٤) الديوان ص ٢٤٠ .

لنا صاحب لا كليل اللسان فيصمت عنـا ولا صـارم
وشرّ الرجال على أهله وأصحابه الحمـق العارم(١)

وتعرض أبو الأسود لجفاء صديقه عبد الله بن عامر لما كان عليه من التشيع (٢) فقال أبو الأسود :

ألم تر ما بيني وبين ابن عامر من الود مابالت عليه الثعالب(٣)

وكان لأبي الأسود صديق يدعى نصر بن مالك ، ولكنه فارق أبا الأسود إلى الحرورية وأصيب فى النهروان فأسف عليه أبو الأسود وقال فى ذلك :

لعمرك ما نصر فلا تحسبنه من المسلمين بالقوى ولا الجلد
خرجت مع العوراء تلتمس الهدى وكان الهدى فيما تركت على عمد
وقد كان فى الفرقان لو كنت باغيا لنفسك منه مايدل على الرشد(٤)

ولأبى الأسود شعر فى خروج خالد السدوسى الخارجى على عبيدالله ابن زياد لعهد يزيد بن معاوية وما كان من مقتله وانتقام الخوارج له(٥) ويذهب شعر كثير لأبى الأسود فى الهجوم على بنى أمية والتنديد بهم وبحكمهم وسفكهم لدماء الشيعة ظلماً وبغياً من مثل قوله :

صبغت أمية بالدماء أكفهـا وطوت أمية دوننا دنيانـا(٦)

ويسجل شعره هجوماً على بنى زياد ويتمنى فيه زوال جبروتهم وسلطانهم الجائر فى مثل قوله :

أقول وزادنى غضباً وغيظـاً أزال الله ملك بنى زيـاد(٧)

---

(١) الديوان ص ١٣٣ .
(٢) الأغانى ج ١١ ص ١١٥ .
(٣) الديبوان ص ١٥٨ .
(٤) الدوان ص ١٩٣ .
(٥) الديوان ص ١٥٢ .
(٦) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٤١ .
(٧) الديوان ص ٢٤١ .

وكانت عداوته لزياد قديمة منذ أن كان أبو الأسود على ولاية البصرة وزياد على ديوانها وخراجها ، فقد أخذ زياد يقع فيه ويبغى عليه لدى علىّ ، وقد انبرى أبو الأسود يلومه فى أكثر من موضع فى شعره من مثل قوله :

نبئت أن زيادا ظل يشتمنى والقول يكتب عند الله والعمل
حتى م تسرقنى فى كل مجمعة عرضى وأنت إذا ماشئت منتقل
كل امرئ صائر يوماً لشيمته فى كل منزلة يبلى بها الرجل[١]

وظل زياد يجفو أبا الأسود بعد ذلك وبخاصة بعد أن ادعاه معاوية لأبيه وولاه العراق فكان أبو الأسود يأتيه فيسأله حوائجه ، فربما قضاها وربما منعها لما يعلمه من رأيه وهواه فى علىّ ، وما كان بينهما فى تلك الأيام التى كانا فيها عاملين له ، فكان أبو الأسود يترضاه ما استطاع ويقول فى ذلك :

رأيت زيادا صدّ عنى بوجهه ولم يك مردودا عن الخير سائله
ينفذ حاجات الرجال وحاجتى كداء الجوى فى جوفه لايزايله[٢]

وندد أبو الأسود بعبيد الله بن زياد كما ندد بأبيه وانتهز فرصة صلبه لمسلم ابن عقيل ولهانئ بن عروة فقال فى ذلك :

أقول وذاك من جزع ووجـــد أزال الله ملك بنى زيـــــاد
وأبعدهم كما غدروا وخانوا كما بعدت ثمود وقوم عــــاد
ولا رجعت ركائبهم إليهـــم إلى يوم القيامة والتنــــاد
هم جدعوا الأنوف وكن شما بقتلهم الكريم أخا مــــراد
قتيل السوق يالك من قتيـــل به نضح من أحمد كالجساد
وأهل مكارم بعُدوا وكانوا ذوى كرم رءوساً فى البلاد[٣]

وتنسب لأبى الأسود أبيات قالها فى استرجاع حارثة بن بدر الغدانى ولاية سرق من كور الأهواز وهى تجرى على هذا النمط :

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ١٠٨ .
(٢) المرجع نفسه .
(٣) الديوان ص ٢٤١ .

أحارِ بن بدر قد وليت ولاية ... فكن جرذا فيها تخون وتسرق
ولا تحقرن ياحار شيئاً وجدته ... فحظك من ملك العراقين سرّق
وباهِ تميما بالغنى أن للغــنى ... لسانا به العيّ الهيوبة ينطق
فإن جميع الناس إما مكذب ... يقول بما تهوى وإما مصدق
يقولون أقوالا ولا يعلمونهـــا ... فإن قيل هاتوا حققوا لم يحققوا
وكن حازماً فى اليوم إن الذى به ... يجىء غدا يوم على الناس مطبق
ولا تعجزن فالعجز أوطأ مركب ... وما كل من يدعو إلى الخير يرزق
إذا مادعاك القوم عدوك آكلا ... فكل حار أوجع لست ممن يحمق[1]

وواضحة سخرية أبى الأسود وتلاعبه به مما يمثل نقداً لاذعاً للولاة ، وسيرتهم فى أموال المسلمين .

ونحن لم نقف هذه الوقفة عند شعر أبى الأسود إلا لكى ندلل على أن شعره لم يكن بمعزل عن أحداث عصره ، وأنه قد شارك فيها بقسط غير قليل وربما ضاع له شعر كثير أو أضيع بالعمد ، فقد ذكر ابن أبى الحديد أن له مطارحات كثيرة فى الشعر مع على بن أبى طالب[2] ونص ابن النديم على أن ديوانه قد جمعه الأصمعى وأبو عمرو بن العلاء[3] وشرحه أبو الفتوح عثمان ابن جنى ، إلا أن محقق ديوانه على الرغم من ذلك يؤكد أنه لم يجد فيما راجع من كتب أن ابن جنى شرح ديوانه[4] .

ونحن لانستبعد أن يكون لتشيعه أثر كبير فى الجناية على شعره وإضاعته ، كما جنى عليه تشيعه فى التشنيع عليه بالبخل .

وقد ناقش محقق ديوانه الروايات التى تزعم بخله ، ونقضها وانتهى إلى أن نسبة هذه الصفة إليه ليست إلا أثرا من آثار الخلافات السياسية لتعصبه لعلىّ وتشيعه .

---

(١) الديوان ص ٢٤٤ .
(٢) شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٩٧ .
(٣) الفهرست ص ٢٢٤ .
(٤) مقدمة الديوان ص ٦٩ .

وأنها كلها روايات ملفقة تقصد إلى الاستهانة بقدرة من أعداء الشيعة الأمويين أو الزبيريين أو الخوارج [١].

ونحن نعتقد أن شعر أبي الأسود قد تأثر بما تأثر به شخصه نتيجة للخلافات السياسية ويؤكد ذلك تلك العناية الشديدة التي أولاها معاوية لشخص أبي الأسود. فكان دائماً يستقدمه ويعظم جوائزه دون أن ينجح في كسب مودته كما عظم أمره أيضاً على عمرو بن العاص الذي أخذ يغري به معاوية ويوغر عليه صدره ، لأنه يذيع ذكر عليّ ويذيع بغض عدوه ، وقد ناظره في شأن عليّ بحضرة معاوية وسأله عمرو : أيهم كان أحب إلى رسول الله ؟ فقال أشدهم حبا لرسول الله وأوفاهم له بنفسه . فسأله : أيهم كان أعلم ؟ قال : أقولهم للصواب ، وأفصلهم للخطاب ، فقال عمرو : فأيهم كان أشجع ؟ فقال : أعظمهم بلاء ، وأحسنهم غناء ، وأصبرهم على اللقاء، فسأله: فأيهم كان أوثق عنده ؟ فأجاب : من أوصى إليه فيما بعده فسأله : فأيهم كان للنبي صديقاً فقال : أولهم به تصديقاً . ولم يجد معاوية إلا أن يقول لعمرو : لاجزاك الله خيرا ، هل تستطيع أن ترد مما قال شيئاً فاستأذن أبو الأسود معاوية في عمرو ووصمه بأنه هجا رسول الله وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم صب عليه اللعنات بكل بيت لعنة فلا ينال فلاحاً ولا يدرك رباحاً أبدا [٢].

فليس بعيد إذن أن يكون خصماؤه السياسيون قد أضاعوا كثرة شعره لأنه كان من المتحققين بولاية علي ومحبته وصحبته ومحبة ولده. ويبدو عداء الأمويين له في قول الحجاج لابنه أبي حرب : أما والله لو أدركت أباك لقتلته لأنه كان شيعياً [٣].

وقد ظل أبو الأسود يتشيع حتى آخر أنفاسه إلى أن توفى سنة ٦٩ هـ .

ولم يكن أبو الأسود وحده من شعراء الشيعة الذى عدت عليه وعلى شعره

---

(١) مقدمة الديوان ص ١٠٣ .

(٢) تهذيب ابن عساكر ج ٧ ص ١٠٤ .

الخلافات السياسية فقد شاركه كثيرون من شعراء الشيعة حتى صارت كثرتهم مجهولة لنا أو فى حكم المجهولة لأننا لا نعرف من أشعارهم غير إثارات قليلة لا تكفى لإلقاء بصيص من الضوء على حياتهم وما وقفنا عند أبى الأسود إلا أنه يعد أسعدهم حظًّا على الرغم من ذلك . وهو مثال صادق لأولئك الذين تعلقوا بحب آل البيت من شعراء العصر الأموى .

وهم جميعاً متشيعون ولكنهم لا يستغرقهم مذهب التشيع بحيث يطمس ذواتهم وإنما يبدو تمايزهم على الرغم من قلة شعرهم وكذلك يتمايز شعرهم ، وهو شعر يدور حول أغراض الشعر التقليدية من مديح آل البيت والإشادة بهم والتعبير عن حبهم ، وهجاء خصومهم ورثاء شهدائهم .

إلا أننا نقف عند شاعرين كبيرين من شعراء الشيعة نجد شعرهما يختلف عن شعر هؤلاء من حيث تصديه للتعبير عن النظرية الشيعية وأفكارها العقائدية فبينما تمثل نظرية الشيعة الكيسانية فى شعر كثيّر تمثل نظرية الزيدية فى شعر الكميت .

٢

وشاعر الكيسانية هو كثيّر بن عبد الرحمن بن أبى جمعة[١] وأبو جمعة ليس جده لأبيه وإنما لأمه ، وقد عرف به كما عرف بالانتساب إلى عزة بنت حُميل الضمرية التى اشتهر بالغزل فيها وترنم بها فى شعره ، ويكنى أبا صخر . وهو حجازى من خزاعة ولكنه انتسب إلى كنانة قريش وأنشد عبد الملك فى ذلك قوله :

---

(١) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) ج ١١ ص ٤٣ وما بعدها ، ج ٨ ص ٢٥ وفى مواضع متفرقة ، وطبقات الشعراء ٤٥٧ ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨٠ ، والفرق بين الفرق ص ٢٨ ، والموشح ص ١٤٣ ، ومعجم الشعراء ٢٤٢ ، والخزانة ج ٢ ص ٣٧٦ ومرآة الجنان ج ١ ص ٢٠٢ والملل والنحل ج ١ ص ٢٤١ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٥٤٧ ، وحديث الأربعاء ج ١ ص ٢٨٣ ونشر بيريس ديوانه فى الجزائر .

أليس أبى بالصلت أم ليس إخوتى بكل هجان من بنى النضر أزهرا[١]

ولا تحدثنا الروايات بشيء مفصل عن نشأته، وأول ما نلقاه من خبره أنه شب فى حجر عم له صالح فلما بلغ الحلم أشفق عليه أن يسفه وكان غير جيد الرأى ولا حسن النظر فى عواقب الأمور ، فاشترى له عمه قطيعاً من الإبل وأنزله فرش مالك فكان به ، ثم ارتفع فنزل فرع المسور بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف من جبل جهينة الأصغر فضيقوا على كثير أوساءوا جواره فانتقل عنهم ، وقال فى ذلك أول أبيات له من الشعر وهى تجرى على هذا النمط :

أبت إبلى ماء الرداة وشفّهـــا بنو العم يحمون النصيح المبردا

وما يمنعون الماء إلا ضنانـــة بأصلاب عسرى شوكها قد تخددا

فعادت فلم تجهد على فضل مائه رياحا ولاسقيا ابن طلق بن أسعدا[٢]

وتلقانا فى أول قوله الشعر رواية أخرى غريبة يرويها أبو الفرج عن الزبير عن عمه أن كثيراً قال : ما قلت الشعر حتى قولته ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : بينا أنا يوما نصف النهار أسير على بعير لى بالغميم أو بقاع حمدان إذا راكب قد دنا منى حتى صار إلى جنبى فتأملته فإذا هو من صفر وهو يجر نفسه فى الأرض جرًّا ، فقال لى : قل الشعر ، وألقاه على فقلت من أنت ، قال : أنا قرينك من الجن ، فقلت الشعر [٣].

وهذه الرواية عن كثير تنقلنا إلى ما عرف به من الحمق الذى لاحظه عليه عمه فى صباه والذى اشتهر به فيما بعد فى حياته كلها ، وما بعد هذه الحياة .

وفى اعتقادنا أن كثيراً كان يعانى من أحد الأمراض العصابية الناتجة عن انعدام التكامل فى شخصيته ، ونرجح أنه كان مصاباً بجنون العظمة وهو أحد مركبات النقص المتلاوبة التى لازمته منذ أن بدأ يعى الحياة نتيجة لما كان يشعر به من قصور وشذوذ فى صفاته الجسمانية وقد كان كثير دميما قليلا أحمر أقيشر عظيم الهامة قبيحاً [٤] كما كان قميئاً شديد القصر حتى لقد ذكر

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٢٩ .

(٢) الأغانى ج ٨ ص ٣٤ .

(٣) الأغانى ج ٨ ص ٣٥ .

(٤) الأغانى ج ١١ ص ٥٠ .

بعض الرواة أنه رآه يطوف بالكعبة فمن حدث أنه يزيد على ثلاثة أشبار كذب [١].

وكان كثير يلقى لذلك سخرية الناس ، ويذكر أبو الفرج أنه كان إذا دخل على عبد العزيز بن مروان قال له : طأطئ رأسك لا يصيبه السقف [٢] ولكنه كان يتطاول على سخرية الناس ولا يعبأ بهم ، وإنما يظهر فى مواجهة سخريتهم كبراً وتيها شديدين ، ويذكر أبو الفرج أن رجلا سخر من دمامته وقصره فقال كثير :

إن أك قصيراً فى الرجال فإننى إذا حل أمر ساحتى لطويل [٣]

وكان ناس من أهل المدينة يلعبون به ويهزءون منه ، فيصدق كل مايلقون إليه ويسمع المزاح فيجيب إليه جادًّا مقتنعاً ، وماذاك إلا مظهر من المظاهر الانفعالية التى تصحب الأمراض العصابية عادة والاضطرابات الهتسيرية بوجه خاص ، وهو ازدياد قابلية المريض للاستهواء والإيحاء سواء أكان هذا الإيحاء ذاتيًّا أو صادراً عن شخص آخر وكذلك ازدياد نشاط مخيلته ومقدرته على التعبيرات الادعائية التصنعية . وتسلط بعض الأفكار والأوهام على المريض نتيجة لانكماش المجال الشعورى أو تفككه [٤].

ويروى أبو الفرج روايات كثيرة يستفاد منها وجود كل هذه المظاهر فى سلوك كثير ومنها أن نفرا من قريش دخلوا عليه يعودونه وكان مريضاً فسألهم : بم يتحدث الناس ؟ فقالوا : يتحدثون بأنك الدجال قال : أما إذا قلتم هذا فإنى لأجد فى عينى هذه ألماً منذ أيام [٥].

وكذلك كان بعض أهل المدينة يتحدثون وهو يسمع بأنه لا يلتفت من

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨ .

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .

(٤) مبادئ علم النفس العام ص ١٢٨ .

(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣ .

تيههفكان يستجيب لهذا الاستهواء ، حتى إذا أتاه الرجل من ورائه فأخذ رداءه لم يلتفت إليه من الكبر ومضى فى قميص(١) .

ولهذا فليس عجيباً أن تستهويه عقيدة الكيسانية بأوهامهاوغلوها الغريب حتى تسلط على نفسه تسلطاً شديداً ، ووجد كثير فى مبادئها التخييلية من الرجعة والتناسخ ما أرضى نفسه المريضة ، وكان أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية يعرف عنه هذا فكان يضع عليه الأرصاد ، فلايزال يؤتى بالخبر من خبره فيقول له إذا لقيه : كنت فى كذا وكنت فى كذا إلى أن جرى بينه وبين رجل كلام فأتى به أبو هاشم فأقبل به على أدراجه فقال أبو هاشم : كنت الساعة مع فلان ، فقلت له كذا وكذا وقال لك كذا وكذا فقال كثير : أشهد أنك رسول الله(٢) .

ويروى فى تشيعه أنه كان يوحى من صديق له يدعى خندق بن مرة الأسدى ، وكانا اجتمعا مرة بالموسم فتذاكرا التشيع فقال خندق : لو وجدت من يضمن لى عيالى بعدى لوقفت بالموسم وذكرت فضل آل محمد صلى الله عليه وسلم وظلم الناس لهم وغصبهم إياهم على حقهم ودعوت إليهم وتبرأت من أبى بكر وعمر فضمن كثير عياله. فقام ففعل ذلك فوثب الناس عليه فضربوه ورموه حتى قتلوه فرثاه كثير بعدة قصائد تدل على عمق الصلة التى كانت بينهما من مثل قوله :

تقول ابنة الضمرى مالك شاحباً ... ولونك مصفر وإن لم تخاق
فقلت لها : لاتعجبي من يمت له ... أخ كأبى بدر وجدك يشفق
كشفت أبا بدر إذا القوم أحجموا ... وعضت ملاقى أمرهم بالمخنـق
وخصم ـ أبا بـدر ـ ألدّ أبتّهُ ... على مثل طعم الحنظل المتفلق
جزى الله خيرا خندقاً من مكافئٍ ... وصاحب صد ذى حفاظ ومصدق
أقام قناة الود بينى وبينـه ... وفارقنى عن شيمة لم ترنـق(٣)

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢

(٣) الأغانى جـ ١١ ص ٤٣

ويذكر أبو الفرج عن أبي عبيدة أن خندقاً هذا هو الذى أدخل كثيراً فى مذهب الخشبية[١] ، كما يذكر أنه استنقذه من بطش الطفيل بن عامر بن واثملة ، وكان قد تهدده لما علم باصطدامه مع الحزين الكنانى إثر انتسابه إلى كنانة ، فكلمه فيه خندق واستوهبه إياه فوهبه له[٢] .

ولا نمضى حتى عام ٦٥ هـ وما كان فيها من ذيوع دعوة المختار الثقفى لابن الحنفية، وتكوّن نظرية الكيسانية حوله حتى يصبح كثير أكبر بوق لهذه النظرية ، معتنقاً مبادئها اعتناقاً بكل ما يداخلها من غلو وتطرف كفكرة التناسخ التى آمن بها إيماناً غريباً وكان يزعم أن الأرواح تتناسخ ويحتج بقوله تعالى : « فى أى صورة ما شاء ركبك » فيقول : ألا ترى أنه حوله من صورة إلى صورة[٣] .

ويذكر أبو الفرج أنه كان يدخل على عمة له فتكرمه وتطرح له وسادة يجلس عليها، فقال لها يوماً : لا والله ما تعرفينى ولا تكرميننى حق كرامتى ، فقالت : بلى والله إنى لأعرفك قال : فمن أنا فقالت : ابن فلان وابن فلانة ، وجعلت تمدح أباه وأمه فقال : قد عرفت أنك لا تعرفينى قالت : فمن أنت إذن ؟ قال : أنا يونس بن متى[٤] .

وكما كان يؤمن بالتناسخ هذا الإيمان الغريب فى نفسه كان يعتقد أيضاً أن قبس النبوة لا يزال ينتقل فى على وأبنائه فكان يدعو أبناء الحسن بن الحسن بالأنبياء الصغار فإذا أخذ عطاءه وهب لهم الدراهم فيقول له محمد بن عبد الله ابن عمرو بن عثمان وهو أخوهم لأمهم : هب لى ياعم فيقول : لا لست من الشجرة[٥] .

وأيضاً اعتقد اعتقاداً جازماً بأن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وكان

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ٤٥

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٥ ، جـ ١١ ص ٤٦

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢

(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣

(٥) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣ .

يتباهى بصلته به و بسؤاله عنه من مثل قوله فى ذلك :

أقر الله عينى إذ دعانى أمين الله يلطف فى السؤال
وأثنى فى هواى على خيراً ويسأل عن بنى وكيف حالى
وكيف ذكرت حال أبى خبيب وزلة فعله عند السؤال
هو المهدى خبرناه كعب أخو الأحبار فى الحقب الخوالى(١)

وقد سئل كثير : ألقى كعباً ؟ فقال : لا ، فقيل له : فلم قلت خبرناه كعب ؟ فقال : بالتوهم(٢) ونراه يمتلىء حقداً على ابن الزبير حين رآه يعنف بإمامه ويحبسه فى سجن عارم بمكة نتيجة لدعوة المختار له فى الكوفة وإخراجه واليه منها .

وسجل فى قصيدته على ابن الزبير خرقه لما فرض الإسلام من أمن لكل من لاذ بالحرم حتى الحمام فلا يحل صيده ، وعلى الرغم من ذلك يتعرض ابن الزبير لابن الحنفية وصى المصطفى وابن عمه الذى يأخذ بأيدى العناة ويتقى الله حق تقواه(٣) .

وكان كثير يؤمن بالرجعة فيزعم أن ابن الحنفية لم يمت ، وأنه غائب برضوى لا يلبث أن يرجع فيملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جوراً وقد سجل ذلك فى شعره من مثل قوله :

وسبط لاتراه العين حتى يقود الخيل يتبعها اللواء
تغيب لايرى عنهم زماناً برضوى عنده عسل وماء(٤)

وينجح جيش المختار فى افتكاك ابن الحنفية من سجن ابن الزبير ويخرج ابن الحنفية عن جواره فيلحق بعبد الملك فى دمشق وكثير فى ركابه وينال الإمام وشاعره رعاية عبد الملك ومن هنا نفهم الصلة التى انعقدت بين كثير وعبد الملك

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٢
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣١
(٤) الأغانى جـ ٨ ص ٣١

حتى أصبح من مدّاحه وأخذ يتقرب إليه فانتسب كنانيًّا وأنشد عبد الملك قصيدة فى ذلك رأى عبد الملك أن يذيعها من فوق منبرى الكوفة والبصرة ليترضى بذلك اليمنية ، وحمله وكتب به إلى العراق فى أمره .

وقد لقى كثير بسبب هذا الانتساب كثيراً من العنت والهجاء والمنافرة من بعض شعراء خزاعة الذين تابوا أن يكون نسبهم لكنانة من مثل قول سراقة ابن مرداس البارقى ساخراً من كثير ومتهماً إياه بأنه مأجور فى انتسابه :

لعمرى لقد جاء العراق كثير ... بأحدوثة من وحيه المتكذب

أيزعم أنى من كنـــانة أولى ... ونالى من أم هناك ولا أب

فإن كنت حرًّا أو تخاف معرة ... فخذما أخذت من أميرك واذهب[1]

وهجاه الأحوص بمثل هذا فنعى عليه تضييعه نسبه فلا هو أبقى على خزاعة ولا هو لحق بكنانة فأصبح كالسقاء المعلق ، أو كالذى أراق فضلة مائه تعلقاً بسراب رآه ، يقول :

فإنك لا عمراً أباك حفظتـــه ... ولا النضر إن ضيعت شيخك تلحق

ولم تدرك القوم الذين طلبتهـــم ... فكنت كما كان السقاء المعلق

وأصبحت كالمهريق فضلة مائه ... لبادى سراب بالملا يترقـــرق[2]

وكما أغضب كثير بنى كنانة فقد أغضب الخزاعيين وعامة أهل اليمن الذين أساءوا استقباله فى العراق وتكاثروا عليه يتلومونه ويتندرون به ويخوفونه القتل حتى اضطروه إلى اللجوء إلى والى الكوفة فطيره على البريد[3] .

ولم يقتصر الأمر على كنانة العراق فحسب إذا تصدى له بمكة أيضاً الحزين الكنانى فهجاه هجاء مريراً واستغل فى هجائه انتسابه لكنانة فشمخ عليه الحزين ووصمه بالذلة ، والعبودية والولاء لكنانة ، وإن خزاعة ذنب وكنانة القوادم

---

(١) الأغانى جـ ٨ / ص ٢٩ .

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠

وذلك فى أبيات لا نستطيع أن نذكرها برمتها لإقذاعها . وإنما نذكر منها قوله :

وما أنتم منا ولكنكم لنا عبيد العصا ما ابتل فى البحر عائم[١]

وحاول كثير أن يلكز الحزين فلم يستطع لقصره ولطول الحزين الذى احتواه بين يديه كالكرة وضرب به الأرض، وسمع الطفيل بن عامر بن واثلة بما أتاه كثير مع الحزين فأقسم ليقتلنه لولا أن افتداه منه خندق الأسدى كما مر .

وقد أسبغ عبد الملك على كثير فضائل عطاياه واستوهبه كثير أرضاً يقال لها غرب كان ينزلها بولده فيصيب من رطبها وتمرها شراء مرة وطعمة مرة أخرى فأذن له أن يعمرها ولكن الناس مالبثوا أن تلاوموه وهو شاعر الخليفة وله عنده منزلة أن يستوهبه إياها ، فأنشده كثير قوله :

جزتك الجوازى عن صديقك نصرة وأدناك ربى فى الرفيق المقرب
فإنك لا يعطى عليك ظلامة عدو فلا تنأى عن المتقرب
وإنك ما تمنع فإنك مانع بحق وما أعطيت لم تتعقب

فقال له : أترغب غربا ؟ قال : نعم ، قال عبد الملك : اكتبوها له ففعلوا[٢] فأخذ كثير ينافس شعراء البلاط الأموى فى التقرب من عبد الملك مستهيناً بمدائحهم التى لا تستحق ما يبذله لهم بنو أمية من عطايا ، فقد سأل كثير ذات مرة : فى أى شعر أعطى هؤلاء الأحوص عشرة آلاف دينار ؟ فلما أخبروه أن ذلك فى قوله :

وما كان مالى طارفاً من تجارة وما كان ميراثاً من المال متلدا
ولكن عطايا من إمام مبارك ملا الأرض معروفاً وجوداً وسؤددا

استخف بقوله وقال : ألا قال كما قلت :

دع عنك سلمى إذ فات مطلبها واذكر خليلك فى بنى الحكم

---

(١) لأغانى جـ ٨ ص ٢٧ (٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٨ .

ما أعطياني ولا سألتهمـــا إلا وإني لحاجزي كرمي
إني متى لا يكن نوالهمـــا عندي بما قد فعلت أحتشم
مبدي الرضا عنهما ومنصرف عن بعض مالو فعلت لم ألم
لا أنزر النائل الخليل إذا ما اعتل نزر الظئور لم ترم[١]

وكذلك أخذ كثير يثير على عبدالله بن الزبير ويحرض عبد الملك على حربه بمثل قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تثن همـــه حصان عليها عقد درّيزينها
نهته فلما لم تر النهى عاقـــه بكت فبكى مما شجاها قطينها[٢]

وظل يمدح عبد الملك ، وارتحل إلى مصر فمدح عبد العزيز أخاه ، وظن بعض الدارسين فى مديحه لبنى أمية ضرباً من النفاق فهو يمدحهم تملقاً ليأخذ جوائزهم وهو كاذب أحسن الكذب فى هذا المدح والتملق[٣] .

وفى الحقيقة أنه لم يكن منافقاً ، وإنما كان تابعاً فى ذلك لإمامه الذى رآه يمنح عبد الملك ولاءه ، وإذا كان إمامه يتولى الأمويين تقية فكثير كذلك يمدحهم تقية وأخباره مع عبد الملك تقطع بأنه كان يعرف تشيعه وإضراره عليه . فيذكر أبوالفرج أنه كان غالياً فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ويقول بالرجعة والتناسخ وكان آل مروان يعلمون بمذهبه فلا يغيرهم ذلك لجلالته فى أعينهم ولطف محله فى أنفسهم وعندهم[٤] .

وليس هذا فحسب ما كان يعلمه عنه بنو مروان فقد كانوا يعلمون أنه كان أحمق وأنه كان من أتية الناس وأذهبهم بنفسه على كل أحد[٥] ولهذا ولأنه كان حاقداً على أعداء إمامه وأعداء الأمويين من بنى الزبير فإنهم لم يعبأوا

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٢٨
(٢) الأغانى ج ٨ ص ٣٤
(٣) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٨٦ .
(٤) الأغانى ج ٨ ص ٢٦
(٥) المرجع نفسه

بتشيع رجل أحمق مثله مادام ينيلهم مدحه وينال أعداؤهم هجاءه .

ولم يكن عبد الملك أو غيره جاهلا بقدر مدائحه التى أجمع النقاد على الثناء عليها فابن سلام معجب بمذهبه فى المديح إلى أقصى حد وكذلك ابن أبى حفصة معجب باستقصائه للمدح ، وهو مقدم عند كثير من النقاد على جرير والفرزدق والراعى وعامة الشعراء الإسلاميين إذ لم يدرك أحد فى مديح الملوك ما أدرك وما قصد القصيد ولا نعت الملوك مثله شاعر[١] .

وكان كثير يسأل عبد الملك كيف ترى شعرى يا أمير المؤمنين فيجيبه : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر ، كما كان يخرج لمؤدب ولده شعر كثير ليرويهم إياه[٢] .

وكان بنو مروان يعلمون تشيعه تمام العلم إذن ، وفى اعتقادنا أنهم كانوا يعتدون بحمقه كما كانوا يعتدون بمدائحه فلا يجدون فى تشيعه ضرراً ولا يرتابون فيه ولا يعتقدون أن خطراً ما يمكن أن ينجم عن عقيدته إلى حد أن عبد الملك كان إذا سأله عن شىء فأخبره به استحلفه بحق على بن أبى طالب ، وكان كثير يتخابث فيزعم له أنه لو سأله بحقه هو يصدقه ولكن عبد الملك كان لا يجوز عليه تخابثه ويقول له : لا أسألك إلا بحق أبى تراب[٣] .

وهكذا يبدو أن كثيراً لم يكن يتملق عبد الملك كما لم يكن منافقاً فى عقيدته فهو فيما بينه وبين نفسه وفيما بين نفسه وبين الله كان متشيعاً غالياً فى تشيعه مؤمناً بمبادئ الكيسانية إيماناً متطرفاً ولكنه فيما بينه وبين الناس كان شاعر بنى مروان الذى يمدحهم ويغلو فى مديحهم ويعتز بولائه لهم ، ولكنه ولاء تجيزه عقيدته التى تؤمن بالتقية وتبيحها ولا تجد فيها حرجاً من أجل الحفاظ على النفس والمصالح ولكن إذا تجاوز هذا الولاء حدوده إلى الدرجة التى تتعارض مع أهداف التقية فلا مناص إذن من النكوص .

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦
(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤
(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٣٣

وقد حدث هذا بالفعل عندما خرج كثير فى جند عبد الملك للقاء مصعب ابن الزبير ونظر عبد الملك إلى كثير فوجده يسير مطرقاً فى ناحية من العسكر فدعابه وسأله عما أسكته وألقى عليه بثه وتكهن عبد الملك بما يمكن أن يكون السبب فى هذا . واستحلفه بحق على بن أبى طالب أن يصدقه إذا كان تكهنه حقيقة فحلف له كثير فأخبره عبد الملك بما يعتقد أنه يدور فى خلده من التردد فى المضى مع الجند والرغبة فى اعتزال الحرب قال عبد الملك : تقول : رجلان من قريش يلقى أحدهما صاحبه فيحاربه . القاتل والمقتول فى النار فما معنى سيرى مع أحدهما إلى الآخر ، ولا آمن سهماً يصيبنى فيقتلنى فأكون معهما فقال كثير : والله يا أمير المؤمنين ما أخطأت فأمره عبد الملك بأن يرجع من قريب وأمر له بجائزة[١].

على هذه الصورة كانت علاقة كثير بعبد الملك علاقة المصلحة المشتركة التى يجدها كل منهما عند الآخر والتى لا تضر بإيمان كثير بعقيدته التى تبيح مثل هذه العلاقة كما لا تضر عبد الملك فضلا عن أنها تفيده مدحاً وتفيد سياسته وحكمه ثناء وتقديراً .

ولكن كثيراً لم يكن ليسمح لعبد الملك أن يفيد منه مثل ما يفيد هو منه فقد تجلى إخلاصه لعقيدته فى لون من التقية الفنية ابتكره وأتاح له هذا الضرب من التخابث أن يعبث بعبد الملك وأن يحمل مديحه له كثيراً من السموم من مثل قوله مصوراً عبد الملك حية ماتزال تلدغ :

يقلب عينى حية بمحـــــاره إذا أمكنته شدة ليقيلهـــا

وكذلك نراه حين يعرض لخلافته يسلكه من طرف خفى فى مجموعة الخلفاء المغتصبين الذين لا تقر غالبية للشيعة خلافتهم فيجعله سابع الخلفاء فى سلسلة الخلفاء الظالمين بعد أن يخرج من بينهم على بن أبى طالب إذ أنه الخليفة الشرعى الوحيد بينهم فيقول :

وكنت المعلى إذ أجيلت قداحهم وجال المنيح وسطها يتغلغل

---

(١) الأغانى ج ٨ ص ٣٤

والمعلى هو سابع قداح الميسر وأعلاها نصيباً ، بينما المنيح لا نصيب له ، وهكذا يريد كثير أن يموه على عبد الملك ، وظاهر هذا القول أنه أعلى الخلفاء الذين سبقوه كعباً ، ولكن باطنه يعنى أنه السابع فى سلسلة من الخلفاء الذين اغتصبوا الخلافة ولا تعترف الشيعة بخلافتهم وهم أبو بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ومروان ، ومن ثم يقابل عبد الملك فى ترتيب هؤلاء الخلفاء الغاصبين القدح السابع بين القداح أو الخليفة السابع الزائف الذى لا تعترف به الشيعة ولا بمن على شاكلته .

ولماذا نعنى أنفسنا فى استكناه معمياته التى يضمنها هذا العبث الطريف بعبدالملك وأسرته وهو يصرح بهذا فيسقط علياً ويجعل معاوية رابع الخلفاء فى قوله :

وكان الخلائف بعد الرسو ... ل لله كلهم تابعا
شهيدان من بعد صديقهم ... وكان ابن حرب لهم رابعا
وكان ابنه بعده خامساً ... مطيعاً لمن قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى ... وكان ابنه بعده سابعا

وظاهر هذا القول أن الخلفاء الشرعيين هم الصديق والشهيدان من بعده عمر وعثمان ورابعهم معاوية ! وخامسهم يزيد ابنه وسادسهم مروان بن الحكم وابنه عبد الملك سابع هؤلاء الخلفاء ، وواضح أنه بإسقاطه علياً من بينهم إنما يريد أن يظهر زيفهم جميعاً .

وعلى الرغم من محاولة التقرب لعبد الملك بانتسابه فى كنانة ومعاناته من خزاعة واليمن ومن شعرائهم الذين سلقوه بألسنة حداد فإنه لم يتخل عن عصبيته اليمنية كما لم يتخل عن الشيعة وقد ظل يستشعر ولاءه لليمنية وللشيعة بقوة حتى لقد بكى حتى انتضحت عيناه حينما بلغه مقتل يزيد بن المهلب وهزيمته يوم العقر فقال : ما أجل الخطب ، ضحى آل أبى سفيان بالدمن يوم الطف وضحى بنو مروان بالكرم يوم العقر .. ولما بلغ ذلك يزيد بن عبد الملك دعا به فلما دخل عليه قال : عليك لعنة الله أترابية وعصبية وجعل يضحك منه [1]

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٤

ولعل كثيراً لم يصف أحداً من الأمويين وده كما أصفاه عمر بن العزيز وهو يرجع إلى موقفه من آل البيت، فقد بالغ فى إكرامهم ومنع عماله منعاً باتاً من سبهم على المنابر ورد إلى آل البيت ميراثهم فى فدك ، وتروى الروايات الكثيرة عن حبه الشديد لآل البيت وأنه كان يقول ليس أحد من بنى هاشم إلا وله شفاعة وإنى أرجو أن أكون فى شفاعة هذا ، ويشير إلى عبد الله ابن الحسن ، كما كان يحلو له كثيراً أن يقول إنه مولى علىّ وكان يزيد من يتولى عليًّا فى العطاء ويفرض له ويطلب إلى العلويين أن يرفعوا إليه بحاجاتهم رأساً لأنه يستحى أن يراهم على بابه[١].

وقد وفد عليه كثير فيمن وفد من الشعراء من أصحاب السابقة عند أبيه كنصيب والأحوص وكان كل واحد منهم يدل عليه بإخائه حتى لا يشك كل واحد منهم وهو ينظر فى عطفيه أنه شريك الخليفة فى الخلافة ، وتلقاهم مسلمة ابن عبد الملك فأكرم ضيافتهم ثم تقدم إليهم بأن عمر لا يعطى الشعراء شيئاً. ومادام ذو دين من بنى مروان قد ولى الخلافة فقد بقى من ذوى دنياهم من يقضى حوائجهم ، ولم ينجحوا فى الدخول على عمر أربعة أشهر يترددون خلالها على بابه ومسلمة يستأذن لهم فلا يؤذن .

فاحتال كثير للأمر وقصد المسجد يوم الجمعة ليحفظ شيئاً من كلامه يضمنه شعره فسمعه يقول فى خطبة له : «لكل سفر زاد لا محالة ، فتزودوا من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله له من ثوابه وعقابه فعمل طلباً لهذا وخوفاً من هذا ولا يطولن عليكم الأمر فتقسو قلوبكم وتنقادوا لعدوكم واعلموا أنه إنما يطمئن بالدنيا من وثق بالنجاة من عذاب الله فى الآخرة فأما من لا يداوى جرحاً إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يطمئن بالدنيا أعوذ بالله أن آمركم بما أنهى نفسى عنه فتخسر صفقتى وتبدو عيلتى وتظهر مسكنتى يوم لا ينفع فيه إلا الحق والصدق» فارتج المسجد بالبكاء ، وبكى عمر حتى بل ثوبه وظن الناس أنه قاض نحبه ، وبلغ كثير إلى نصيب والأحوص

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٥٠ .

فطلب إليهما أن يجددا لعمر، من الشعر غير ما أعدا وطلبوا الإذن عليه يوم جمعة بعد ما أذن للعامة فدخلوا عليه فسلموا عليه بالخلافة وتقدم كثير فحدثه فى جفائه إياهم ولكن عمر قال يا كثير : أما سمعت إلى قول الله عز وجل : «إنما الصدقات للفقراء .. الآية » أفمن هؤلاء أنت ؟ فقال كثير متضاحكاً إنه ابن سبيل ومنقطع به واستأذن فى الإنشاد ، فقال عمر : قل ولا تقل إلا حقاً فإن الله سائلك فقال كثير :

وليت فلم تشتم علياً ولم تخف ... بذياً ولم تتبع مقالة مجـــرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى ... فعلت فأضحى راضياً كل مسلم
ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه ... من الأود الباقى ثقاف المقوم
لقد لبست لبس الملوك بباها ... وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحياناً بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزاً كأنما ... سقتك مدوفاً من سمام وعلقم
وقد كنت من أجبالها فى ممنّع ... ومن بحرها فى مزبد الموج مفعم
ومازلت سباقاً إلى كل غاية ... صعدت بها أعلى البناء المقدم
فلما أراك الملك عفواً ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقا ... وآثرت ما يبقى برأى مصمم
فأضررت بالفانى وشمرت للذى ... أمامك فى يوم من الهول مظلم
ومالك إن كنت الخليفة مانع ... سوى الله من مال رغيب ولا دم
سمالك همّ فى الفؤاد مؤرق ... صعدت به أعلى المعالى بسلم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين : ظلمتنى ... بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولابسط كف لامرئ ظالم له ... ولا الفك منه ظالما ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون تقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندم
فعشت به ما حج لله راكب ... مغذ مطيف بالمقام وزمـــزم
فأربح بها من صفقة لمبايع ... وأعظم بها أعظم بها ثم أعظم[1]

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٤٨ .

فهو يفتتح مدحته هذه بذكر مكرمة عمر فى إكرام آل البيت ومنع عماله من سبهم وعن تصديق قالة السوء فيهم ، فهو رجل مصدق لا يقول إلا ما يفعل حتى أصبح المسلمون جميعاً راضين ، وهو رجل زهد الدنيا فلا يؤمل فيها غير ما يقيم الأود على الرغم من مظاهر الدنيا الخادعة التى تتبدى له فى إغراء وفتون ، ولكنه ينفر منها مشمئزاً إذ ليست هدفا من أهدافه وإنما هدفه أسمى من ذلك بكثير ، فهو سباق إلى غايات لا يدركها الفناء والبلى ، وقد يسر له ذلك همة قعساء لاتنى تدفعه إلى كل ما هو سام ورفيع ، وقد أتت هذه السياسة المرتكزة على التقوى ثمارها الطيبة فعم العدل والأمن وانقطعت نداءات المظلومين فلم يعد يسمع أحد من العرب أو من الموالى ينادى برفع ظلم ، ولا بكف جور أو بسفك دم ، فالمسلمون يتمنون لهذا لو استطاعوا فداءه بأعمارهم جميعاً ليطول عمره ولتمتد حياته مادام البيت والحجيج .

وهى مدحة تختلف عن مدائح كثير للأمويين بل إنها لتختلف عن كل ما مدح به الأمويين إذ يسلك فيها كثير مسلكاً مختلفاً فما هى إلا ترجمة شعرية لما كان عمر يعنى به ويسلكه فى حياته من التقوى والزهد ، بل إن أفكارها تكاد تكون مستمدة من كلماته التى سمعها عنه كثير فى خطبه .

ولم ينل كثير عن هذه المدحة غير مائة وخمسين درهماً ، ولم يعمر كثير بعد ذلك طويلا فقد توفى فى آخر عهد يزيد بن عبد الملك ، ولا نعود نسمع عنه شيئاً غير غلوه فى تشيعه حتى آخر أنفاسه ، فقد بكى عليه بعض أهله وهو يحتضر ، ولكنه قال له : لاتبك فكأنك بى بعد أربعين ليلة تسمع خشفة نعلى من تلك الشعبة راجعاً إليكم .

وقد حظى شعر كثير بعناية قدامى النقاد عناية فائقة ، فعدوه من فحول الشعراء وعده ابن سلام من الطبقة الأولى فيهم ، فقرن به جريراً والفرزدق والأخطل والراعى . وقد سبق أن تحدثنا عن إعجاب النقاد بمديحه والإشادة به ، فلم يقصد القصيد ولم يمدح الملوك أحد كما فعل كثير ، ولم يدرك أحد فى مديحهم ما أدرك ، ولم يكتف النقاد بهذا وإنما قدموه أيضاً على فحول الشعراء ، فهو مقدم على ابن

أبي ربيعة ، وعلى جميل الذى كان راوية له وعلى ابن ذريح والأحوص والعرجى وهو أشعر من جرير والفرزدق والراعى وعامة الشعراء ، بل هو أشعر الناس أيضاً[١].

وكان أبو عبيدة يروى شعره بثلاثين ديناراً ، كما كان عبد الملك يروّى شعره أولاده وقد ضاع شعر كثير ،وما بقى منه بين أيدينا لا يعدو أبياتاً ومقطعات قليلة لا تتيح لنا التأكد من صدق أحكام النقاد القدامى عليه ، إذ يذكر أن أبا عبيدة كان يقول : من لم يجمع من شعر كثير ثلاثين لامية فلم يجمع شعره[٢]. فإننا لا نشك فى أن ابن سلام وضعه فى الطبقة الأولى من فحول الشعراء الإسلاميين إلا لأنه كان شاعرا مجيداً ، وتذكر الروايات أنه كانت تروى لكثير ثلاثون قصيدة لو رقى بها مجنون لأفاق[٣].

ويذهب بعض الدارسين المحدثين إلى أن شهرة كثير لم تأته من حيث كونه شاعراً غزلا وإنما نتيجة لكونه شاعراً سياسيًّا ، فقد خلت حياته وشخصيته من المؤثرات التى كونت الغزلين ، فهو صغير النفس ردىء الطبع شديد الحمق والغفلة ، بل إن كل شىء فى حياته يدل على أنه لم يكن غزلا بطبعه ، ولم يكن ماهراً ولا موفقاً فى تكلف الغزل ، فلم يكن صافى الطبع ولا رقيق الحس ولا دقيق الشعور ولا قوى العاطفة ولا ذكى الفؤاد ، وإنما كان بريئاً من هذه الخصال ، كما كان دميما قبيحاً بشع المنظر مضحكاً لمن يراه ولمن يسمعه ولمن يتحدث إليه أيضا[٤].

وفى هذا ظلم كثير لكثير ، فهو وإن أكسبه شعره فى التشيع شهرة بعيدة فقد اشتهر شعره الغزلى كذلك شهرة قرنته بالغزليين ، وتقدمت به عليهم جميعاً وليس بصحيح أنه لم يكن له من المؤثرات ما كان للغزليين ، فليس عدلا أن نحكم على شاعر بتأخره فى الغزل لأنه لم يكن من أصحاب الأحلام السياسية فى الرفعة

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٢) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٣) الأغانى جـ ٨ ص ٢٦

(٤) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٣ .

والسلطان : إلا بمقدار ما يقضى به تخلفه فى هذا الضرب من الفن أو أنه لم يكن حسن الصورة أو جميل السمت معجباً لمن يراه أو يسمعه .

وليس صحيحاً أيضاً أن كثيراً كان بريئاً من صفاء الطبع ورقة الحس ودقة الشعور وقوة العاطفة ، بل إنه كان على النقيض من ذلك على خط مستقيم فقد أذكى ما كان يعانيه من اضطراب نفسى أحاسيسه ومشاعره وعواطفه كما أذكى قصوره الجسمى كوامن خياله وحفزه على التعبير عن عواطفه تعبيراً عاطفياً معجباً كنوع من التعويض على أقل تقدير ، ونحن لا نحفل بقول أبى عبيدة أو غيره من القائلين بأن كثيراً كان يكذب فى شعره طالما كان شعره نفسه يقول لنا غير ذلك ، فأين التكلف والكذب فى قوله :

خليلى هذا ربع عزة فاعقلا	قلوصيكما ثم ابكيا حيث حلت
وما كنت أدرى قبل عزة ما البكا	ولا موجعات القلب حتى تولت
فليت قلوصى عند عزة قيدت	بحبل ضعيف بان منها فضلت
وأصبح فى القوم المقيمين رحلها	وكان لهـا باغ سـواى فبلت
فقلت لها يا عزّ كل مصيبة	إذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
اسيئى بنا أو أحسنى لا ملومة	لدينـا ولا مقليـة إن تقلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامـر	لعزة من أعراضنا ما استحلت
تمنيتها حتى إذا ما رأيتها	رأيت المنايا شرعا قد أظلت
كأنى أنادى صخرة حين أعرضت	من الصم لو تمشى بها العصم زلت
صفوحاً ، فما تلقاك إلا بخيلـة	فمن مل منها ذلك الوصل ملت
أصاب الردى من كان يهوى لك الردى	وجن اللواتى قبل عزة جنت[1]

فهل هذه الأبيات على قلتها بريئة من رقة الحس ودقة الشعور وقوة العاطفة ؟

وبقدر ما كان شعر كثير الغزلى متميزاً لم يكن شعره السياسى كذلك فقد اختلط عند الرواة بشعر السيد الحميرى الشاعر الكيسانى الذى عاصر الدولتين الأموية والعباسية .

وكان لاتفاق كثير والسيد فى أمور كثيرة ما يبرر انخداع الرواة فى نسبة

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٧ — ٣٨ .

شعر كل منهما للآخر ، فهما يشتركان فى التشيع كما يشتركان فى ذات الاضطراب النفسى الذى وسمهما بالحمق والغفلة ، وأيضاً يشتركان فى مهادنة الحكومة المعاصرة واتخاذ التقية فى مدح القائمين عليها ، ولكن الفارق الزمنى بين الشاعرين كفيل بأن يحسم أمر الأشعار المختلطة بينهما .

وعلى سبيل المثال فإن قصيدة مثل تلك الميمية المنسوبة إلى السيد والتى مطلعها :

ألا قل للوصى فدتك نفسى　　　أطلت بذلك الجبل المقاما(١)

وفيها يقول :

أضر بمعشر والوك منـــا　　　وسموك الخليفة والإماما

وعادوا فيك أهل الأرض طراً　　　مغيبك عنهم سبعين عاما

ينسبها بعض الباحثين المحدثين إلى كثير(٢).

فإذا كان ابن الحنفية قد توفى عام ٨١ هـ وأنه تغيب سبعين عاماً يوم نظمت هذه الأبيات فإنه يلزم أن يكون قائلها قد شهد عام ١٥١ هـ ، ولما كان كثير قد توفى سنة ١٠٥ هـ فمن غير المعقول أن يكون هو قائل تلك الأبيات ، وإنما يكون قائلها السيد الحميرى الذى توفى سنة ١٧٣ هـ .

وقد لا يتيسر معالجة الأشعار كلها ، بهذا الأسلوب لافتقارها إلى القرائن التاريخية وحينئذ يمكننا اللجوء إلى المنهج الفنى فى التعرف على شعر كثير لأنه يتميز عندنا بمميزات واضحة تميزه عن شعر السيد بالذات الذى عرفه الرواة بسهولته التى تكاد تصل به إلى سطحية تفتقد معنى الشعر(٣) .

والذى لاشك فيه أن قدرة كثير على التصوير أبرع من قدرة السيد الذى يجنح دائماً إلى التقريرية فى أشعاره جميعاً ، وكذلك فإن أسلوب كثير فى

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٣٠ .
(٢) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٨٧ .
(٣) الأغانى جـ ٧ ص ١٠ .

التعبير أجود لفظاً وأرصن لغة وأصدق لهجة وأرق عاطفة وأدق خيالا من أسلوب السيد ، كما أن شعره يتميز بميزة أخرى لا نجدها تماماً فى شعر السيد وهى حلاوة الجرس وتوافر القيم الموسيقية فى شعره وكأن أصواتاً كثيرة وضعت فى شعره حتى ليقول بعض الرواة ماضر من يروى شعر كثير أن لا تكون عنده مغنيتان مطربتان[١]..

٣

أما النموذج الآخر الذى نقف عنده من شعراء الشيعة ، فهو الكميت بن زيد الأسدى[٢] وينتهى نسبه إلى مضر بن نزار ، وقد اشتهر معه فى هذا العصر بذلك الاسم شاعران آخران من قبيلته هما الكميت بن ثعلبة الشاعر المخضرم وحفيد له يسمى الكميت بن معروف .

وقد ولد بالكوفة عام ٦٠ هـ وهى السنة التى قتل فيها الحسين ، وكان لنشأته فى الكوفة ـ معقل الشيعة والثورة والشعر والدراسات الدينية واللغوية والكلامية ـ أثر كبير فى تكوينه الفكرى .

فقد كانت الكوفة فى هذه الحقبة التى شب فيها الكميت تموج بتيارات فكرية عديدة فى منافسة رائعة مع البصرة فى جميع شعب الثقافة المعروفة آنذاك وقد أخذ الكميت يختلف إلى دروس العلماء فتلقن عنهم الفقه والحديث وأيام العرب وأنسابها ، ولم يلبث أن تحول معلماً يعلم الصبية فى مسجد الكوفة[٣].

وتنعقد بينه وبين الطرماح الذى يعمل بنفس المهنة أواصر المودة والصفاء

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ٢٧ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) جـ ١٥ ص ١٠٨ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٥٦٢ ، والموشح ص ١٩١ وطبقات الشعراء ص ٢٦٨ وخزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩ ، والبيان والتبيين فى مواضع متفرقة ، وأمالى المرتضى جـ ١ ص ٦٦ ، ٩٩ ، جـ ٢ ص ٨٠ ومعجم الشعراء ص ٢٣٨ والتطور والتجديد ص ٢٣٠ والعصر الإسلامى ص ٣١٥ ، وديوان الهاشميات .

(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٠٩

على الرغم من الاختلاف الواضح فى شخصيتهما فبينما تبدو شخصية الطرماح غالية فى الزهو والاعتداد حتى ليرفض أن ينشد مخلدا المهلبى قائماً مستنكراً أن يقوم للشعر فيحط الشعر من مقامه ، نجد الكميت لا يتحرج من ذلك ناعتاً نفسه بأنه ألطف حيلة من الطرماح ، وإن كان الطرماح أبعد منه همة ، ولكنهما وإن اختلفا فى شخصيتهما ونسبهما ومذهبهما وموطنهما فإنهما قد اتفقا على بغض العامة[١] كما اتفقا فى المهنة والدراية البعيدة باللغة وبمعرفة الغريب منها بوجه خاص .

وتتحدث الروايات عن سعة دراية الكميت بأشعار العرب وأيامها وأنسابها وأنه قد خالف حماداً الراوية فى بعض ذلك يوماً فى مسجد الكوفة وتنازعا فادعى حماد أنه أدرى منه وأكثر إحاطة ، وغضب الكميت فتحدى حماداً أن يخبره لكم شاعر بصير يقال له عمرو بن فلان يروى ولكم شاعر أعور أو أعمى اسمه فلان بن عمرو ، يروى ؟ ولما عجز حماد عن الإجابة أخذ الكميت يذكر رجلا من كل صنف ، ويسأل حماداً ما إذا كان يعرفه ؟ فإذا لم يعرفه أنشده من شعره جزءاً جزءاً حتى أضجر من شهدهما[٢].

وروى أنه كانت للكميت جدتان معمرتان تقصان عليه أخبار العرب فى الجاهلية وتصفان له البادية وأمورها ، فإذا شك فى شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه[٣] ويذكر أبو الفرج أن الكميت والطرماح كان يصيران إلى رؤبة فيسألانه عن الغريب فيخبرهما به ثم يراه بعد فى أشعارهما[٤].

ويبدو من الروايات أن الكميت كان ذا شغف بعيد بكل لفظ غريب ، وأنه كان يدل بثقافته اللغوية على الرواة والدارسين ، فقد سأل حماداً عن معنى بيتين من الشعر فلم يعرفهما وأجله أياما ليأتى بتفسيرهما فعجز عن ذلك[٥].

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠ .
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠ .
(٤) الأغانى جـ ١٠ ص ٤٩ .
(٥) الأغانى جـ ٥ ص ١٠٩ .

ولم تكن ثقافته لتقف به عند أشعار العرب وأيامها وأنسابها فحسب وإنما كان فقيهاً محدثاً روى الحديث وروى عنه[١] . كما نال حظًّا مما شاع فى بيئة الكوفة من جدل بين أصحاب الآراء والمعتقدات الكلامية وبخاصة فى بيئة المعتزلة التى تتلمذ لهم إمامه زيد بن على رأس الشيعة الزيدية ، وقد صار الكميت بعدئذ فقيها من فقهاء الشيعة الزيدية[٢] كما كان عالماً بالنجوم مهتدياً بها كذلك[٣].

فنحن إذن بإزاء شخصية طريفة اتصلت ببيئات فكرية متعددة الثقافات، وتلقت معارف مختلفة المصادر .

ولا يلبث الكميت أن يبرع فى الشعر ، فيطلب به جوائز الأشراف والولاة والخلفاء ، وليس بصحيح ما يروى من أن الهاشميات كانت أول ما قال من الشعر[٤] وأنه أنشد على بن الحسين الملقب بزين العابدين إحدى هاشمياته[٥] ذلك أن على بن الحسين قد توفى سنة ٩٤ هـ[٦] .

ولم يكن زيد بن على الذى تشيع له الكميت وكتب الهاشميات فى دعم نظريته قد دعا لنفسه بعد أثناء حياة أبيه. وعلى هذا لا تكون الهاشميات أول ما قال من الشعر وإنما سبقها شعر له كثير فى الولاة والخلفاء .

وتذكر الروايات أن الكميت كان يوالى أسرة يمنية مشهورة هى أسرة المهلب وقد وفد على مخلد بن يزيد من المهلب حين كان أبوه يوليه أعمالا مدة إمارته على خراسان لعهد سليمان بن عبد الملك (٩٦ — ٩٩ هـ) ويروى أن الكميت وجد على بابه أربعين شاعراً كلهم ينتظر الإذن له ، وأنه أنشده قصيدة امتدح فيها همته على الرغم من حداثة سنه ، وفيها يقول :

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢١
(٢) خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٠
(٤) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٩
(٥) خزانة الأدب جـ ١ ص ٦٩
(٦) ابن سعد جـ ٥ ص ١٦٤

قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولداته عن ذاك فى أشغال
قعدت بهم هماتهم وسمت به همم الملوك وسورة الأبطال[١]

ثم نراه بعد ذلك يفد على يزيد بن عبد الملك (١٠١ــ ١٠٥ هـ) وتحدثنا الروايات بأنه كان على صلة وثيقة به حتى إن الكميت زين له أن يبتاع سلاّمة التى فتن بها ، ووصفها له بناء على طلبه فقال فى وصفها :

هى شمس النهار فى الحسن إلا أنها فضلت بقتل الطراف
غضة بضــة رخيم لعــوب وعثة المتن شجنة الأطراف
زانها دلهــا وثغر نقــى وحديث مرتل غير جــاف
خلقت فوق منيــة المتمــنى فاقبل النصح يا ابن عبد مناف[٢]

ويمكننا أن نتبين من هذه الروايات أن الكميت كان إلى عهد يزيد ابن عبد الملك راضياً عن بنى أمية ، يفد عليهم وينال جوائزهم ، كما أنه كان موالياً لليمنية مقرباً إليهم .

ولكن هذا لا يستمر طويلا إذ ما لبثت الخصومة أن اشتعلت بين الكميت واليمنية وعلى رأسها خالد القسرى والى هشام بن عبد الملك على العراق (١٠٥ــ١٢٠هـ) وعلة ذلك أن تشيع الكميت لم يكن قد اكتمل بعد ، ولكنه يصبح شيعياً خالصاً فى هذه الفترة ويشرب قلبه حب الهاشميين ويخلص لهم وده تماماً . وتجلى هذا فى تعلقه بزيد بن على إمام الزيدية الذى أصفاه وده فاستخلصه زيد لنفسه ، وأخذ الكميت منذ ذلك الحين ينظم الهاشميات دفاعاً عن عقيدته حتى إنه ليكاد يعيش من أجل الدفاع عن مذهبه فحسب .

وقد يبدو غريباً ومتناقضاً فى نفس الوقت أن يجمع الكميت إلى عصبيته المذهبية عصبية قبلية ، ولكن المسألة فى الحقيقة لم تكن على هذا النحو وإنما كانت مسألة سياسية محضة أريد بها خدمة عقيدته الشيعية وإمامها الذى كان

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٧ .

يدعو إلى الثورة على بنى أمية فاصطدم بسبب ذلك بخالد القسرى والى العراق اليمنى .

وهناك روايات عديدة ومختلفة حول نشأة هذه الخصومة ، يمكن أن نستخلص منها أن الكميت لم يكن متعصباً على اليمنية ولا معادياً لخالد القسرى قبل أن يشتبك ذلك بعقيدته الزيدية ، فهو لم يهج اليمنية ابتداء وإنما كان أول هجائه لهم فى مذهبته الشهيرة بعد أن استفزه شاعر كلبى من أهل الشام كان يهجو مضراً ويثلبها بأقبح المثالب ، ولم يكتف بذلك وإنما جمع إلى هجاء مضر وثلبها تعصباً آخر شديداً على علىّ بن أبى طالب وبنى هاشم جميعاً وكان هذا هو الدافع الحقيقى لغضب الكميت على اليمنية وهجائها هجاءه الشهير .

وتذكر الروايات أن ذلك الشاعر الكلبى ويدعى حكيم بن عياش كان منقطعاً إلى بنى أمية وأن الكميت قد خشى فى هجائه أن يفتضح أمره فى شعره عن علىّ وبنى هاشم[١] فلما لم يجد بدّاً من هجائه أظهر أن هجاءه إياه فى العصبية التى بين عدنان وقحطان[٢] .

وعلى نفس الوتيرة يمكننا أن ننظر إلى عداء الكميت لخالد القسرى ، فقد خاصمه زيد بن على ، ورأى الكميت أن يتخذ من تعصب خالد لليمن ثغرة ينفذ منها إلى النيل منه فكان أن وقف أمامه متعصباً لمضر وكأنه يريد أن يحدث بشعره فوضى فى العراق بين اليمنية والمضرية فينفذ من خلال ذلك إمامه زيد إلى ما يريد من ثورة وانتقاض على الدولة[٣] .

وهكذا لم يكن الأمر أمر عصبية قبلية وإنما كان عصبية للنحلة والعقيدة فهى خصومة سياسية فى أعماقها وليست خصومة عصبية ، ويؤيد ذلك ما صرح به الكميت نفسه حينما أخذ عليه ابنه المستهل فخره فى هجائه للكلبى ببنى أمية وهو يشهد عليهم بالكفر وأنه كان الأجدر به أن يفخر عليه

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .

(٣) التطور والتجديد ص ٢٣٤ .

بعلىّ وبنى هاشم الذين يتولاهم فقال يابنى ، أنت تعلم انقطاع الكلبى إلى بنى أمية وهم أعداء علىّ عليه السلام فلو ذكرت علياً لترك ذكرى وأقبل على هجائه فأكون قد عرضت علياً له ولا أجد له ناصراً من بنى أمية[١].

فهو قد فخر على الكلبى ببنى أمية حتى إذا نقض عليه هجاءه قتلوه وإن أمسك عن ذكرهم قتله الغم ، وبهذه الطريقة أخفى الكميت تشيعه فى التعصب القبلى .

ومن ذلك كله نستطيع أن نتصور الموقف فى وضوح فالكميت كان شاعراً شيعياً متعصباً لبنى هاشم فى مدة ولاية خالد القسرى ، وقد جره هذا إلى إخفاء تشيعه فى التعصب ضد خالد وقبيلته اليمنية وإذن فالأساس عنده كان التشيع ، أما العصبيـــة للمضرية فكانت شيئاً فى الظـــاهر ، ونفس الشىء يصدق على خصومته لحكيم بن عياش الكلبى فقد احتال فى إثارة القبلية ليستر تشيعه وليبعده عن بنى هاشم ، وقد بالغ فى الإبعاد إلى حد المفخر عليه ببنى أمية . وفى اعتقادنا أنه لا تصح تلك الرواية التى تزعم أنه اعتذر عن إجابة حكيم بن عياش لمّا دعاه إلى ذلك بنو أسد متأثراً فى ذلك بإحسان خالد القسرى إليه[٢] فالأحداث تؤكد أنه لم يكن بينهما ولاء ولا إحسان وإنما خصومة وتباغض وحقد وتربص وليس أدل على ذلك من هذه الأبيات التى أرسل بها الكميت إلى أهل مرو فى ثورتهم بأسد بن عبد الله القسرى عندما ولاه أخوه خالد خراسان سنة ١١٧ هـ ففيها دعوة صريحة إلى الثورة عليهما ، وإذن فلم تكن العلاقات بينه وبين خالد علاقة إحسان وإنما كان الكميت يداً من الأيادى السوداء التى تلعب فى الخفاء ضد بنى أمية فى العراق وخراسان جميعاً . ولما كانت الخصومة بين الكميت وخالد خصومة سياسية فى الحقيقة يراد بها نصرة الدعوة الشيعية ونصرة زيد بن على خاصة ، وإن اتخذت العصبية القبلية مظهراً خارجياً لها فحسب ؛ فإن قصيدته المذهبة

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٣ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

على هذا المعنى تعد قصيدة شيعية كتبت لغرض الدعوة الشيعية وخدمة زيد ابن على عن طريق تشتيت الجماعة الإسلامية وبث الفرقة فيها[١].

وهى فضلا عن هذا تعد من أهم القصائد وأقدمها فى العصبيات إذ هجا فيها اليمن هجاء مخزياً ولم يترك حياً من أحيائها إلا ولطخه بالمثالب والخصال الدنيئة وقد بلغت أكثر من ثلثمائة بيت ، وليس من ريب فى أن هذه القصيدة قد أحنقت خالداً فظل يتربص بالكميت الدوائر وأقسم ليقتلنه[٢].

وقد ظفر خالد بالكميت ونجح فى إسخاط هشام عليه حتى طاب رأسه وقد ضخم الرواة قصة سخط هشام على الكميت تضخما واسعاً فعرضوها فى صور مختلفة ومضطربة بل متناقضة أيضاً ، فتزعم إحدى تلك الروايات أن هشاماً كان قد اتهم خالدا وكان يريد خلعه فوجدت بباب هشام يوماً رقعة فيها شعر فدخل بها على هشام وقرئت عليه فإذا فيها :

تألق برق عندنا وتقابلت	أثاف لقدر الحرب أخشى اقتبالها
فدونك قدر الحرب وهى مقرة	لكفيك واجعل دون قدر جعالها
ولن تنتهى أو يبلغ الأمر حده	فنلها برسل قبل أن لا تنالها
فتجشم منها ما جشمت من التى	بسوراء هرت نحو حالك حالها
تلاف أمور الناس قبل تفاقم	بعقدة حزم لا يخاف انحلالها
فما أبرم الأقوام إلا لحيلة	من الأمر إلا قلدوك احتيالها
وقد تخبر الحرب العوان بسرها	وإن لم تبح من لا يريد سؤالها[٣]

فأمر هشام بأن يجمع له الشعراء فجمعوا وقرئت الأبيات عليهم وطلب إليهم أن يجتهدوا فى التعرف على قائلها فأجمعوا على أنها للكميت بن زيد الأسدى من ساعتهم ، فقال هشام نعم هذا الكميت ينذرنى بخالدبن عبدالله ثم كتب من فوره إلى خالد يخبره ، كما أرسل إليه بالأبيات وهو يومئذ بواسط ، فكتب

(١) التطور والتجديد ص ٢٣٧ .
(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١٢ .
(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١١٥ .

خالد إلى واليه بالكوفة يأمره بأخذ الكميت وحبسه .

وتمضى الرواية فتزعمأن خالداً نهض بالأمر فطلب من أصحابه أن يأتوه من شعر الكميت بشيء يمدح فيه بنى هاشم ويهجو بنى أمية ليكون دليلا على اتهامه ، فأتوه بلاميته التى مطلعها :

ألا هل عم فى رأيه متأمـــل وهل مدبر بعد الإساءة مقبل

وهى قصيدة تكاد تكون هجوماً صرفاً على بنى أمية فكتبها فى كتاب إلى هشام يقول هذا شعر الكميت فإن كان صدق فى هذا فقد صدق فى ذاك ، فلما قرئت على هشام اغتاظ وبخاصة عندما بلغ قول الكميت فيها :

فياساسة هاتوا لنا من جوابكم ففيكم لعمرى ذو أفانين مقول

وحينئذ كتب إلى خالد يأمره بأن يقطع يدى الكميت ورجليه وبأن يضرب عنقه ويهدم داره ويصلبه على ترابها ، فلما قرأ خالد الخطاب كره أن يستفسد عشيرته وتغاضى عن تنفيذ ما جاء به حتى استطاع أحد أصدقاء الكميت أن ينفذ إليه فى الحبس غلاماً متنكراً يخبره بنية الخليفة فأرسل الكميت على الفور إلى امرأته وكانت تتردد عليه فى ثياب وهيئة حتى عرفها الحراس ، فلما دخلت إليه لبس ثيابها وخرج فيها عليهم دون أن يشتبهوا فى أمره ، وفى ذلك يقول الكميت :

خرجت خروج القدح قدح ابن مقبل على الرغم من تلك النوابح والمشلى
علىّ ثياب الغانيات وتحتهـــــا عزيمة أمر أشبهت سلة النصل[1]

وترجه الكميت إلى الشام مستغيثاً بأشراف بنى أمية ، ولما كان ذنبه عظيما فلم يجرؤ أحد على طلب العفو له من هشام ، ونصحه بعض الناس بأن يستجير بمسلمة بن هشام وبأمه أم الحكم بنت يحيى بن الحكم ، وكان مسلمة مرشحاً لولاية العهد آنذاك ، ولكن الكميت خشى أن يضيع دمه بين صبى وامرأة ، فنصحوه بأن يضرب قبته عند قبر معاوية بن هشام وكان قد توفى وشيكاً كما كان هشام يحبه ، وقد جعل على نفسه أن يزور قبره فى يوم معين

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١١٥ .

من كل أسبوع وفعل الكميت ذلك فى اليوم المعين لزيارة هشام ، فلما جاء هشام نظر إلى القبر وأمر بعض أعوانه أن ينظروا ما أمر هذه القبة المضروبة عليه ، فرجعوا إليه فقالوا إنه الكميت مستجير بقبر معاوية ابن أمير المؤمنين ، ولكنه لم يعبأ بذلك وأمر بقتله ، فكلمه مسلمة فى شأنه وذكر له أن إخفار الأموات عار على الأحياء ولم يزل يعظم عليه الأمر حتى عفا عنه[١].

وواضح أن الجزء الذى تتحدث عنه هذه الرواية عن إنفاذ خالد قصيدة الكميت اللامية إلى هشام لا تتفق والحقيقة لأن هذه القصيدة لم تكن قد نظمت بعد لاشتمالها على رثاء زيد بن على الذى لم يخرج إلا فى عام ١٢٢ هـ وفى ولاية يوسف بن عمر الثقفى الذى خلف خالد بن عبدالله القسرى على العراق سنة ١٢٠ هـ وكان ذلك بعد إطلاق سراح الكميت مباشرة .

وتذهب بعض الروايات إلى أن خالد بن عبد الله القسرى لما أحفظته المذهبة التى نالت من عشيرته كما نالت من عشائر اليمن جميعاً روّى جارية حسناء قصائد الهاشميات وأعدها ليهديها إلى هشام ، وكتب إليه بأخبار الكميت وهجائه بنى أمية وأنفذ إليه هاشميته التى يقول فيها :

فيارب هل إلا بك النصر يبتغى ويارب هل إلا عليك المعول

فلما قرأها أكبرها وعظمت عليه واستنكرها وكتب إلى خالد يقسم عليه أن يقطع لسان الكميت ويده فأخذته خيل خالد إلى الحبس ثم كان ما كان بعد ذلك من خروجه من السجن بمساعدة زوجه وافتضاح أمرها بعد أن اجتاز الكميت الخطر ولحق ببنى علقمة وكانوا يتشيعون فأقام عندهم مدة متوارياً إلى أن خف عليه الطلب فخرج قاصداً الشام فى جماعة من بنى أسد .

وتتضمن تلك الرواية بعض الأحداث الطريفة التى صادفت الكميت فتذكر أن غراباً سقط على حائط أبى الوضاح الأسدى الذى أخفى الكميت فى بداية هروبه ولما نعب الغراب قال الكميت إنه لمأخوذ وأن الحائط لساقط ، ولم يصبح

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦

الصبح حتى سقط الحائط وتذكر الرواية أيضاً أن ذئباً عرض له فى بعض الطريق يعوى فأطعمه الكميت وسقاه ولكنه ظل يعوى وحينئذ اكتشف الكميت أن الذئب ينبههم إلى أنهم ليسوا على الطريق فلما تيامنوا كف عن العواء ، وتذكر الرواية كذلك أنه لما بلغ الكميت دمشق قصد أشراف قريش الذين أتوا عنبسة بن سعيد بن أبى العاص فنصح له أن يعوذ بقبر معاوية بينما قصد عنبسة مسلمة بن هشام وأبلغه أن الكميت مدحه بمدائح لم يسمع بمثلها وطلب إليه أن يكون السبب فى خلاصه ، فلما دخل مسلمة على أبيه أخبره بأن حاجته مقضية إلا أن تكون فى الكميت ، ولكنه ما زال بأبيه وبمعونة أمه حتى حصل على الأمان له[1].

وهى رواية تشهد على نفسها هى الأخرى بالاختلاق والتضخيم بما اشتملت عليه من تلك التوقعات والاستشرافات التى تحاول إظهار روح الكميت بمظهر الشفافية حتى لتستشف ما تخبئه الأقدار فضلا عن إشارتها إلى نفس اللامية التى لم تكن قد نظمت بعد .

وهناك رواية ثالثة تذهب إلى أن خالداً لم يعدّ لإسخاط هشام على الكميت جارية واحدة كما تذكر الرواية السابقة وإنما أعد لهذا الغرض ثلاثين جارية اشتراهن بأغلى ثمن وتخيرهن نهاية فى حسن الوجوه والكمال والأدب وروّاهن الهاشميات ودسهن مع نخاس إلى هشام فاشتراهن جميعاً ، ولما أنس إليهن استنطقهن فرأى فصاحة وأدباً واستقرأهن القرآن فقرأن واستنشدهن الشعر فأنشدنه الهاشميات فغضب وسألهن عن صاحب الشعر فأنبأنه بأنه الكميت ، فكتب إلى خالد أن يبعث إليه برأسه ، فبعث خالد إليه فأخذه بليل وأودعه السجن فلما كان الغد أطلع خالد صديقاً له وللكميت هو إبان بن الوليد البجلى على كتاب هشام فاحتال إبان حتى أبلغ الكميت بالأمر ، وتتفق هذه الرواية مع غيرها من الروايات فى خروج الكميت من سجن خالد بمعاونة زوجه حبّى ، وتضيف الرواية أنه قصد الشام فأتى مسلمة بن عبد الملك فاستجار به

---

(١) الأغانى جـ ٥ ص ١١٠ – ١١١ .

ولكنه صرفه إلى مسلمة بن هشام وقام بالسفارة بين الكميت وبينه ، فأجاره ابن هشام ، ولكن هشاماً يغضب لما تبلغه إجارة ابنه عليه فيدعوه مغيظاً ، ويأمره بإحضار الكميت على الفور ، ويخشى الكميت أن يكون قد أسلمه مسلمة ولكن مسلمة ينصحه بأن يعوذ بقبر معاوية بن هشام على أن يبعث إليه ببنيه فيربط ثيابه بثيابهم ، فلما كان الصبح وأشرف هشام على قبر ابنه من القصر وقال من هذا فأبلغ بأنه مستجير بالقبر فأمر بأن يجار من كان إلا الكميت فلما أبلغ أنه هو أمر بإحضاره أعنف إحضار ولكن هشام اغرورقت عيناه بالدموع وبكى حتى انتحب وهو يرى الكميت وقد ربط ثيابه بثياب الصبيان من ولد ابنه معاوية فرد عليه حريته ووهبه لهم[1] .

والذى يمكن أن نخرج به من هذه الروايات جميعاً ، أن خالداً لما أحفظته المذهبة تربص بالكميت حتى بلغه أمر هاشمياته فاحتال حتى أوصلها إلى سمع هشام فحبس الكميت ولكنه استطاع الخلاص من سجن خالد بمعاونة امرأته وابنة عمه حبى ثم إنه توجه إلى الشام ولكن عن طريق الاستعانة بأشراف قريش من الاتصال بمسلمة بن هشام ، وأنه مدحه لذلك مدائح كثيرة ، فأشار عليه مسلمة بأن يعوذ بقبر معاوية بن هشام الذى مات وشيكا وكان له فى قلب أبيه منزلة كبيرة واستطاع الكميت بذلك وبفضل شفاعة مسلمة أن يسترد حريته .

وكما تختلف الروايات فى شأن حبس الكميت وسخط هشام عليه وكيفية إطلاق سراحه تختلف أيضاً فى تصوير اللقاء الأول بين الكميت وبين هشام .

فتذهب إحدى الروايات إلى أن الكميت لما دخل على هشام سلم ثم قال : « يا أمير المؤمنين غائب آب ومذنب تاب محا بالإنابة ذنبه وبالصدق كذبه ، والتوبة تذهب الحوبة ومثلك حلم عن ذى الجريمة وصفح عن ذى الريبة» ، فقال هشام : « ما الذى نجاك من القسرى ؟ » قال الكميت : « صدق النية فى التوبة » ، فقال هشام : « ومن سن لك الغى وأورطك فيه »؟ قال : « الذى أغوى

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ .

آدم فنسى ولم يجد له عزما ، فإن رأيت ياأمير المؤمنين فدتك نفسى أن تأذن لى بمحو الباطل بالحق بالاستماع إلى ما قلته ؟ » فلما أذن له أنشده قوله :

ذكر القلب إلفه المذكورا وتلافى من الشباب أخيرا[1]

بينما تذهب رواية أخرى إلى أن الكميت عندما أمّنه مسلمة بن هشام وغضب لذلك أبوه ، أخبره مسلمة بأنه قال فيهم شعراً لم يقل أحد مثله ، فأجاز هشام أمان ابنه وأمر بأن يخصص مجلس ينشد فيه الكميت ما قاله فيهم ، فقعد هشام وعنده الأبرش الكلبى وتكلم الكميت بخطبة ارتجلها ما سمع بمثلها قط وامتدحه بقصيدته الرائية التى يقول الرواة إنه ارتجلها ارتجالا فلما بلغ قوله :

الآن صرت إلى أميّة والأمور إلى المصاير

جعل هشام يغمز مسلمة بقضيب فى يده ويقول : اسمع اسمع ، ثم إن الكميت استأذنه فى أن يرثى ابنه معاوية فأذن له فأنشده قصيدته التائية حتى إذا بلغ منها قوله :

سأبكيك للدنيا وللدين إننى رأيت يد المعروف بعدك شلت
فدامت عليك بالسلام تحية ملائكة الله الكرام وصلّت

بكى هشام بكاء شديداً حتى وثب حاجبه فسكنه ، وتمضى الرواية فتذكر أن الكميت مضى إلى منزله آمنا فحشدت له المضرية بالهدايا والألطاف وأمر له مسلمة بن هشام بعشرين ألف درهم كما أمر له هشام بأربعين ألفاً وجمع له بنو أمية فيما بينهم مالا كثيراً وكتب إلى خالد بن عبدالله القسرى بأمانه وأمان أهل بيته وأنه لا سلطان له عليهم ، وتضيف الرواية أنه لم يجمع من قصيدته تلك يومئذ إلا ما حفظه الناس منها ، وأن الكميت سئل عنها فقال : ما أحفظ منها شيئاً إنما هو كلام ارتجلته ، وودع الكميت هشاماً بعد أن أنشده قوله :

ذكر القلب إلفه المذكورا وتلافى من الشباب أخيرا[2]

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١١٦ . (٢) الأغانى ج ١٥ ص ١١١ .

وتزعم رواية أخرى أن هشاماً عندما أمر بإحضار الكميت أعنف إحضار وجيء به وقد ربط ثيابه بثياب ولد معاوية نظر إليهم فاغرورقت عيناه واستعبر وهم يقولون : يا أمير المؤمنين استجار بقبر أبينا وقد مات حظه من الدنيا فاجعله هبة لنا ولا تفضحنا فيمن استجار به ، فبكى هشام حتى انتحب ثم أقبل على الكميت فقال له يا كميت أنت القائل :

وإن لا تقولوا غيرها تتعرفوا نواصيها تردى بنا وهى شزب

فقال لا والله ، ثم حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه ثم قال : أما بعد فإنى كنت أتهدى فى غمرة وأعوم فى بحر هواية أخنى علىّ عطلها واستفزنى وهلها فتحيرت فى الضلالة وتسكعت فى الجهالة مهرعاً عن الحق جائراً عن القصد أقول الباطل ضلالا وأفوه بالبهتان وبالا ، وهذا مقام العائذ مبصر الهدى ورافض العماية ، فاغسل عنى يا أمير المؤمنين الحوبة واصفح عن الزلة واعف عن الجرمة ثم قال :

كم قال قائلكم لعـــــا لك عند عثرته لعاثـــر
وغفرتم لـــــذوى الذنـــو ب من الأكابر والأصاغـــر
أبنى أميـــــة إنكـــــم أهل الوسائل والأوامـــر
ثقتى بكل ملمـــــــة وعشيرتى دون العشائـــر
أنتم معادن للخـــــلا فة كابراً من بعد كابـــر
بالتسعة المتتابعـــــــــــ ين خلائفاً وبخير عاشر
وإلى القيامـــــة لاتـــزا ل لشافع منكم وواتـــر[1]

ثم قطع الإنشاد وعاد إلى خطبته فقال : إغضاء أمير المؤمنين وسماحته وصباحته ومناط المنتجعين بحبله من لا تحل حبوته لإساءة المذنبين ، فضلا عن استشاطة غضبه بجهل الجاهلين فقال له هشام : ويلك يا كميت من زين لك الغواية ؟ ودلاك فى العماية ؟ قال : الذى أخرج أبانا من الجنة وأنساه العهد فلم يجد

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١١٣ .

له عزما ، فقال هشام : إيه أنت القائل :

فيا موقداً ناراً لغيرك ضوءُها ... ويا حاطباً فى غير حبلك تحطب

فقال الكميت : بل أنا القائل :

إلى آل بيــت أبى مــالك ... مناخ هو الأرحب الأسهل
نمتُّ بأرحامنــا الداخــلا ... ت من حيث لا ينكر المدخل
بمرة والنضر والمالكــين ... رهط هم الأنبل الأنيــل
وبارى خزيمة بـــدر السما ... ء والشمس مفتاح ما يأمــل
وجدنا قريشاً قريش البطا ... ح على ما بنى الأول الأول
بهم صلح الناس بعد الفساد ... وحيص من الفتق مارعبلوا(١)

قال هشام : وأنت القائل :

لا كعبد المليك أو كوليد ... أو سليمان بعد أو كهشــام(٢)
من يمت لا يمت فقيداً ومن ... يحى فلا ذو إل ولا ذو ذمام

ويلك يا كميت جعلتنا ممن لا يرقب فى مؤمن إلا ولا ذمة ، فقال الكميت : بل أنا القائل يا أمير المؤمنين :

الآن صرت إلى أميـــ ... ـة والأمور إلى المصائــر
والآن صرت بهـــا المصيـ ... ـب كمهتد بالأمس حائر
يا ابن العقائل للعقــا ... ئل والجحاجحة الأخايــر
من عبد شمس والآلا ... ف برغم ذى حسد وواغــر
دلفا من الشرف التليـ ... ـد إليك بالرفد الموافــر
فحللت معتلج البطــا ... ح وحل غيرك بالظواهــر(٣)

فقال هشام : إيه فأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا ... وإن خفت المهند والقطيعــا

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٤ .
(٣) المرجع السابق .

أجاع الله من أشبعتموه وأشبع من بجوركم أجيعا
بمرضىّ السياسة هاشمىّ يكون حياً لأمته ربيعا[١]

فقال الكميت : لا تثريب يا أمير المؤمنين . إن رأيت أن تمحو عنى قولى الكاذب ، قال هشام : بماذا فقال الكميت : بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسباً ثاقباً ووجهاً نضيرا
وتعاطى به ابن عائشة البد ر فأمسى له رقيباً نظيرا
وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن رجلتها له معانا ودورا[٢]

وكان هشام متكئاً فاستوى جالساً وقال لسالم بن عبد الله بن عمر وكان إلى جانبه : هكذا فليكن الشعر ، ثم قال للكميت : قد رضيت عنك ، فقبل الكميت يده ، وقال : يا أمير المؤمنين إن رأيت أن تزيد فى تشريفى فلا تجعل لخالد علىّ إمارة ، قال : قد فعلت ، وكتب بذلك وأمر له بأربعين ألف درهم ، وثلاثين ثوباً هشامية ، وكتب إلى خالد بأن يخلى سبيل امرأته وبأن يعطيها عشرين ألف درهم وثلاثين ثوباً ، ففعل[٣] .

والذى يستخلص من هذه الروايات جميعاً أن الكميت قد دخل على هشام مرتين لا مرة واحدة ، وأنه فى المرة الأولى حاول أن يستعطف هشاماً ما وسعه الجهد وأن يعتذر إليه عما بدر منه من الوقوع فى بنى أمية وهجائهم معتلا بأنه كان ضالا ، وبأنه الآن أبصر طريق الهدى ، وأن هشاماً حاول هو الآخر أن يكشف عن الدوافع الكامنة وراء هذا الهجاء فكان يسأل الكميت دائماً عمن دفعه إلى الغواية . وليس من شك فى أن هشاماً كان يسأل هذا السؤال متمنياً أن ينزلق الكميت إلى التعريض ببنى هاشم ، ولكن الكميت كان يحيل على الشيطان دائماً ، ولاشك أن الكميت لم يكن مستعداً فى هذه المرة الأولى

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٤ .
(٣) نفس المرجع .

ويظهر ذلك فى تردده بين الشعر والخطابة فطوراً ينشد وطوراً يخطب ، وفى ارتجاله الأبيات التى قال فيها :

الآن صرت إلى أميــ ـــة والأمور إلى المصائر

والتى ألف منها الرواة ما يشبه القصيدة لأنه كان يعرج فى أثناء إنشادها إلى الخطابة ثم يعود إلى ارتجال أبيات فيها ، ثم يعود كرة أخرى إلى الخطابة ، ومنها إلى الشعر مرة أخرى ليرثى معاوية بن هشام مأخوذاً فى اضطرابه بحرج موقفه .

وليس شك فى أن لهذا العتاب الذى تذكره الروايات بين هشام والكميت أصلا من الحقيقة ، وقد عنى هشام بتذكير الكميت بما سلف منه فى هجاء بنى أمية الذين يمدحهم الآن وكأنما يصمه بالنفاق والدهان ؛ وكان الكميت مرغماً على أن يمسح قولا بقول وهجاء بثناء وأن يرضى هشاماً بعد أن أسخطه حرصاً على دمه المهدر .

ويبدو أن الكميت قد أخذ للأمر عدته فى اللقاء الثانى حيث جلس له هشام فأنشده قصيدته الرائية التى مطلعها :

ذكر القلب إلفه المذكــورا وتلافى من الشباب أخــيرا

وأنه نجح فى هذه المرة فى أن ينتزع إعجاب هشام بشعره ، وكما تؤكد الروايات ارتجال الكميت فى اللقاء الأول ونسيانه لما ارتجل بعد ارتجاله ، تفيد الروايات أيضاً أنه أعد هذه القصيدة الرائية إعداداً بدليل اعتداده بها وبما سبق به الناس فيها من أهل الجاهلية والإسلام إلى معنى لم يسبق إليه فى وصف الفرس حيث يقول :

يبحث الترب عن كواسره فى المشـ ـرب لا يحشم السقاة الصفيرا

وتتفق الروايات جميعاً على أن الكميت أرضى الأمويين ونال عطاياهم وجوائزهم ، وأنه حرص على أن ينال من هشام أمانا من عدوه اللدود خالد القسرى .

وعاد الكميت إلى الكوفة ، وسرعان ما عزل خالد سنة ١٢٠ هـ وتولى

العراق يوسف بن عمر الثقفى ، فرصد الكوفة بأكثر مما رصدها خالد ، وشدد رقابته على حركات الشيعة ، وما لبث زيد بن على أن خرج سنة ١٢٢ هـ وخذله أنصاره وتفرقوا عنه ولم يثبت معه إلا نفر قليل ، فقتله يوسف بن عمر وصلب جسده فى الكوفة بينما بعث برأسه إلى هشام فى دمشق ، فبعث بها من ثم إلى المدينة حيث ظلت معلقة هناك حتى أنزلت وأحرقت أول عهد الوليد بن يزيد .

ولم يخرج الكميت مع إمامه ، ولم يكن قعوده نتيجة لأنه رفضه كما رفضه كثير من شيعة الكوفة ، وإنما سبب ذلك أنه لم يكن يثق بأهل بلدته ولم يكن يراهم أهلا للاعتماد عليهم ، يضاف إلى ذلك أنه كان فى الثانية والستين من عمره آنذاك وهى سن لا تناسب الخروج ولا الثورة بالإضافة إلى إحجام أصيل فيه وحرص شديد على الحياة صرح به فى شعره ، فقد دعاه زيد إلى نصرته وكتب إليه : أن اخرج معنا يا أعمش ، ألست القائل :

ما أبالى إذا أحفظت أبا القا　　　سم فيكم ملامة اللـوام

فرد عليه الكميت بكتاب جاء فيه :

تجود لكم نفسى بما دون وثبة　　　تظل لها الغربان حولى تحجل[1]

وعلى الرغم من ذلك فقد تولى الكميت أسفاً ينعى على نفسه هذا النكوص عن إمامه وكأنما هزته نهايته المفجعة هزًّا . فقال فى إحدى هاشمياته :

دعانى ابن الرسول فلم أجبه　　　ألهفى لهف للقلب الفروق
حذار منية لابد منها　　　وهل دون المنية من طريق[2]

فهو نادم إذن على قعوده وخذلانه أمامه ، آسف أشد الأسف على حذره من الموت وهو قدر مقدور لا يستطيع له دفعاً بقعود أو استخفاء .

ولقد كان قعوده هو المخالفة الوحيدة التى خالف فيها إمامه فلست واجداً

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢١ .
(٢) الهاشميات ص ١٥٧ .

فى شعره ما ينأى به عن مبادئه قيد شعرة إلا فى هذه السبيل ، ويذهب د. شوقى ضيف[١] إلى أنه إنما خالف إمامه فى القعود عامداً ، وأنه لم يكن يرى الخروج عن إيمان واقتناع متأسياً فى ذلك بكثير من الأئمة السابقين كما فى قوله :

تجود لهم نفسى بما دون وثبة ... تظل لها الغربان حولى تحجل
ولكنّ لى فى آل أحمد أسوة ... وماقد مضى فى سالف الدهرأطول

ونحن نرى أنه لم يقعد عن عقيدة وقناعة وإلا كان رافضيًّا شأنه فى ذلك شأن الشيعة الذين رفضوا زيداً وفارقوه إلى أخيه محمد الباقر وابنه جعفر ، فالخروج أساس من أسس المذهب الزيدى الذى يشترط فى الإمام ضرورة أن يكون قادراً على الخروج حتى يكون إماماً واجب الطاعة[٢] وتحدثنا كتب العقائد بأن أخاه محمداً الباقر قد ناظره فى اشتراطه خروج الإمام لتصح إمامته وتجب طاعته حتى لقد قال لزيد يوماً : على قضية مذهبك ، فوالدك ليس بإمام فإنه لم يخرج قط ولا تعرض للخروج[٣]. ولسنا نستطيع أن نزعم أن الكميت لم يكن زيديًّا فلا ريب إذن فى أنه لم يقعد عن إيمان شأنه شأن الذين رفضوا زيد وخروجه وإنما قعد عن خوف فى نفسه وعن خوف على نفسه من أهل الكوفة، والذى يؤيد زعمنا أن الكميت ذهب يبكى بكاء مرًّا حين قتل إمامه ، وراح يلوم نفسه على خذلانه لوماً قاسياً ، وأيضاً فقد ذهب يهجو قاتله يوسف بن عمر هجاء مقذعاً من مثل قوله :

يعز على أحمد بالذى ... أصاب ابنه أمس من يوسف
خبيث من العصبة الأخبثين ... وإن قتل زانين لم أقذف[٤]

وليس من شك فى أن هذا الهجاء قد بلغ مسامع يوسف بن عمر كما بلغه

---

(١) التطوروالتجديد ص ٢٣٩ .
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠ .
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢ .
(٤) الهاشميات ص ١٥٧ .

بكاؤه زيداً فظل يترصده متحيناً الفرصة للإيقاع به حتى إذا كانت سنة ١٢٦هـ وفد الكميت عليه يمدحه وليستل ضغنه . ووقف الكميت بين يديه يشيد بشجاعته وهمته وحزمه فى النهوض بإدارة البلاد معرضاً بخالد بن عبد الله القسرى وضعفه ، مستشهداً بحادثة حصره على المنبر يوم شغب عليه الوصفاء الجعافرة فقال من فزره : أطعمونى ماء ، فقال الكميت مقارناً بين يوسف وخالد :

خرجت لهم تمشى البراح ولم تكن ... كمن حصنه فيه الرتاج المضبب

وما خالد يستطعم الماء فاغرا ... بِعِدْلِك والداعى إلى الموت ينعب

ولم يدر الكميت أنه بوفادته على يوسف بن عمر إنما أمكنه من فرصة طال انتظاره لها ، وكان الجند قياما على رأس يوسف وهم يمانية فلما بلغ الكميت فى مديحه إلى هذا الموضع فى التعريض بخالد القسرى تعصب له الجند فوضعوا ذباب سيوفهم فى بطن الكميت فوجئوه صائحين به مستنكرين أن ينشد الأمير دون أن يستأمره ، فلم يزل الدم ينزف منه حتى مات[١] ولم يتخل عن تشيعه حتى لفظ آخر أنفاسه إذ كان يجود بها ثم يفيق فيفتح عينيه فيقول : اللهم آل محمد .. اللهم آل محمد .. اللهم آل محمد[٢] .

وقد وهم بروكلمان فذهب إلى أن الكميت قد قتله الجند لما خرجت الجعفرية على خالد بن عبد الله القسرى سنة ١٢٦ هـ[٣] ولكن الثابت أن خالداً عزل سنة ١٢٠ هـ وأن يوسف بن عمر قد خلفه على ولاية العراق ، وأيضاً فإن ثورة الجعفرية لم تكن سنة ١٢٦هـ وإنما كانت قبل ذلك ، وعلى التحديد سنة ١٢٠ هـ[٤] والذى لاشك فيه أن الكميت قد قتل فى سنة ١٢٦ هـ وفى بداية خلافة مروان ابن محمد[٥] .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ .

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٤ .

(٣) تاريخ الأدب العربى جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٤) لسان الميزان جـ ٦ ص ٧٥ .

(٥) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٤ .

وكما ذهبت حياة الكميت فى سبيل مذهبه ، فقد ذهب شعره كله فى سبيل هذا المذهب أيضاً . لا نستثنى من ذلك إلا ما مدح به مخلد بن يزيد ابن المهلب مبكراً وكان ذلك على الأرجح قبل اعتناقه مذهب الزيدية ، وقد رأينا كيف أن قصيدته المذهبة التى هجا بها أحياء اليمنية ، على الرغم من مظهرها العصبى فإنها ليست إلا قصيدة شيعية تخدم الفكرة الزيدية وتحاول أن تحدث صدعاً ينفذ منه إمامه زيد إلى ما يريد من انتقاض على الدولة ، كما كان لها هدف شيعى آخر وهو صرف شاعر اليمن حكيم بن عياش الذى كان ينتقض عليًّا وآله ويهجوهم هجاء مرًّا إلى الاشتغال بقومه والنضال دونهم ، فكأن الكميت كان يخفى تشيعه فى العصبية ، وقد بالغ فى العبث بهذا الشاعر إلى حد أنه مكر به ففخر عليه ببنى أمية المضريين ليسكته ويغلبه . أما مدائحه واعتذارياته إلى الأمويين فإنها تحمل على مذهب الشيعة فى التقية ؛ فالكميت لم يمدحهم إلا تحت وطأة الاضطرار وحرصاً على دمه ، وهو مسلك تجيزه مبادئ العقيدة التى يدين بها . ويروى أبو الفرج عن أخيه زيد أن الكميت أرسله إلى أبى جعفر يستأذنه فى أن يمدح بنى أمية فأذن له فى أن يقول ما يشاء[1] .

وكذلك يروى أبو الفرج أن الكميت دخل ذات يوم على أبى جعفر محمد ابن على الباقر فقال له يا كميت أنت القائل :

فالآن صرت إلى أميـ ـة والأمور إلى المصاير

قال نعم قد قلت ولا والله ما أردت به إلا الدنيا ، ولقد عرفت فضلكم ؛ فقال أبو جعفر أما قلت ذلك فإن التقية لتحل[2] ، وعلى هذا المحمل أيضاً تحمل مدائحه فى خالد القسرى وفى يوسف بن عمر الثقفى والحكم بن الصلت وأبان بن الوليد البجلى وكلهم من ولاة بنى أمية ، فهى مدائح اضطرارية يتقى بها الكميت سيوف بنى أمية وولاتهم وليست طلباً للدنيا كما يزعم بعض

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٠

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١٢١

النقاد القدماء كابن قتيبة ، ولكن الكميت فى اعتقادنا لم يكن ليطلب الدنيا عند بنى أمية وهو يرفض أن يأخذ عطايا بنى هاشم ، وقد أعطاه ، يوماً أبو جعفر محمد بن على ألف دينار وكسوة بعد أن أنشده لاميته المشهورة ، فقال الكميت والله ما أحببتكم للدنيا ولو أردتها لأتيت من هى فى يديه ولكنى أحببتكم للآخرة ، فأما الثياب التى أصابت أجسادكم فإنى أقبلها لبركتها وأما المال فلا أقبله[١] وتذكر بعض الأخبار أنه دخل يوماً على فاطمة بنت الحسين فجاءته بقدح فيه سويق فحركته بيدها وسقته بشربة ثم أمرت له بثلاثين ديناراً ومركب فهملت عيناه وقال : لا والله لا أقبلها ، إنى لم أحبكم للدنيا[٢] .

وكما أن حب الكميت بنى هاشم لم يكن للدنيا فقد أحبوه هم أيضاً وقدروه تقديراً وأنزلوه من أنفسهم منزلا كريماً ، وقد بالغ الشيعة فى تقديره إلى درجة التهويل والافتعال ، وفى أخباره التى يرويها أبو الفرج رؤى تنسب لدعبل ولنصر ابن مزاحم ولسعد الأسدى يجمعون فيها على أنهم رأوا النبى صلى الله عليه وسلم فى المنام وأنه أوصى دعبلا بالكميت ونهاه عنه وذكر أن الله غفر له بقوله :

فلازلت فيهم حيث يتهموننى ولازلت فى أشياعهم أتقلب

وأنه صلى الله عليه وسلم أقرأ سعداً السلام على الكميت ودعاه أن يبلغه أن الله غفر له ببائيته الشهيرة ، وأن الكميت تبدى فى منام نصر بن مزاحم ينشد إحدى هاشمياته بين يدى النبى[٣] وهى مظاهر تدل على ما حظى به الكميت من تقدير الشيعة جزاء وفاقاً لما قدمه لبنى هاشم من انتصار لهم ودفاع عن حقهم وهو لم يكن ليقنع بأن يمدحهم وإنما يعمد إلى تقرير نحلتهم تقريراً قوامه الجدل والاحتجاج .

وقد لاحظ النقاد القدامى اختلاف شعره فى مديح بنى أمية عن هاشمياته وهى ملاحظة جديرة بالاعتبار فقد قال ابن شبرمة : إنك قلت فى بنى هاشم

---

(١) خزانة الأدب ج ١ ص ٧٠ ، الأغانى ج ١٥ ص ١١٦

(٢) الاغانى ج ١٥ ص ١١٦

(٣) الأغانى ج ١٥ ص ١١٨

فأحسنت وقد قلت فى بنى أمية أفضل فقال الكميت : إنى إذا قلت أحببت أن أحسن[١] وإن كان هذا حقًّا فى اعتقاد الكميت فإنه ليس الحقيقة بكمالها ، فليس الأمر أمر إحسان وإرادة فيه فحسب ، وإنما الأمر يرجع إلى مخالفة الهاشميات للذوق المألوف فى الشعر العربى التقليدى الذى يعتمد على التعبير عن الشعور والعواطف بطريق التصوير فى أطر محدودة من النسيب والمدح والرثاء والفخر والهجاء ، بينما تصدر الهاشميات عن ذوق جديد لا يعبر فحسب عن الشعور والعواطف وإنما يعبر أيضاً عن الفكر ، بل إن تعبيره عن الفكر مقدم على تعبيره عن العواطف .

وليس من شك فى أننا نعذر ابن شبرمة وأضرابه الذين ألفوا من الشعر ما يصدر عن الوجدان ولم يألفوا منه بعد مايصدر عن العقل ، ولكننا لا يمكن أن نعذر ابن قتيبة فى توهمه أن الكميت كان فى مديحه لبنى أمية أجود من مديحه للطالبيين بسبب طمعه فى دنياهم لأن الكميت لم يمدح أشخاص الطالبيين بالصورة التى مدح بها بنى أمية فلم يقف عند طالبى بعينه لأنه كان بصدد الدفاع عن نظرية معينة بينما كان فى مديحه لبنى أمية مهتمًا بشخوصهم فحسب ، وفرق بين مديح الأشخاص والدعوة لنظرية معينة ، ولهذا فإنه لا وجه للمقارنة بين هاشميات الكميت ومدائحه لبنى أمية أو لسواهم ، وهو لم يكن متكالباً على مديحهم وإنما مدحهم تحت ظلال سيوفهم تقية ومداراة .

وكذلك لا حق لنا فى أن نذهب مذهب بعض الدارسين فى محاسبة الكميت على أنه لم يستلهم شخصيات آل البيت الغنية بإمكانيات الإلهام فى مديحه أو تبجيلهم للشعور الدينى فى استيحاء آيات من الشعر الدينى أو استمداد مآسى آل البيت وحوادثهم التى لاقى منها آل البيت ما لاقوه فى شعره ، كما لا حق لنا فى أن نقرنه إلى شاعر كدعبل أو كغيره ، ولا أن نتمنى عليه لو كان وجه ما وجد من آجر وجص فى غير الوجهة التى التزم بها حتى لا يقع فيما وقع فيه من الإسفاف والتكلف[٢] .

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢ (٢) أدب الخوارج ص ١٣٦

وليس ذلك إلا لأنه لم يعمد إلى السير فى دروب الشعراء المألوفة ، فالتوى به الطريق وإنما هو قد عمد عمداً الى درب جديد من دروب الشعر سار فيه لأول مرة فلا يحق لنا حسابه إذن إلا فى حدود ما قصد إليه والتزم به . والحق أن الهاشميات من هذه الناحية تصور لنا التطور الذى طرأ على العقل العربى فى هذه الآونة بما تشتمل عليه من جدال وحجاج فى مسألة حق الهاشميين تماماً كما كانت مسائل الكلام تناقش فى بيئات المتكلمين .

فهى ليست شعراً تصويريّاً معبراً عن الشعور فحسب وإنما هى فى الأصل فكرة محددة ذات إطار متناسق وهدف معين تقصد إليه ، ومعنى هذا أن الكميت لم يعن فى هاشمياته بفن التعبير والتصوير وإنما كان همه فن الاحتجاج وأن يشفع احتجاجه بكل ما وصل إليه العقل العربى فى هذا العصر من براعة فى الاستدلال والجدال والإقناع ، وهى براعة ثقفها الكميت عن إمامه زيد ابن على وعن واصل بن عطاء الذى تتلمذا عليه جميعاً .

ومن هنا كانت الهاشميات شعراً لا كالشعر أو بعبارة أخرى باباً جديداً من أبواب الشعر فتحه الكميت لأول مرة ، وهو باب التقرير والاحتجاج ، وإن كانت ملاحظة ابن شبرمة ملاحظة ساذجة ، كتفت بالوصف دون التقرير فميزت بين لونين مختلفين فى شعر الكميت من ناحية الغرض ولكنه لم يتنبه للفرق بينهما من ناحية المعالجة الفنية ، فإن غيره من القدماء قد لاحظ ما أدخله إلى الشعر العربى من حجاج واستدلال فقد لاحظ الجاحظ أن الكميت هو أول من دل الشيعة على طرق الاحتجاج[1] كما لاحظ غيره أن الكميت خطيب لا شاعر[2] وقد سئل عنه بشار فقال إنه ليس بشاعر ولم يستثن له إلا بيتين فى الهجاء[3] .

وما هذا إلا لأنهم رأوه يسلك مسلكاً جديداً ليس مألوفاً عندهم ، وهو مسلك

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٢
(٢) أمالى المرتضى ج ١ ص ٤٢
(٣) الأغانى ج ٣ ص ٥٩

يكاد يجعل هاشمياته أشبه ما تكون بمناظرة فى حقوق الهاشميين لأنه لا يعنى بشعره عناية غيره من الشعراء الذين لا يلتزمون بعقيدة أو يدينون لمذهب ، وإنما هو يعنى به ، داعية يدعو لمذهب معين وتنصب كل عنايته على طرق الاستدلال .

وأرانا محتاجين إلى أن نسارع فنقرر أن ليس معنى هذا خلو هاشمياته من الفن الشعرى المألوف للأذواق العربية بما فى ذلك من تصوير وعاطفة وتعبير عن المشاعر . إذ قد حفلت الهاشميات بالتعبير عن حب الكميت لآل البيت واستشعاره الولاء لهم فلم يكن له من دوافع فى الحقيقة إلى نظمها غير تلك العاطفة المتأججة وتلك المشاعر الملتهبة ولكننا نقصد أن الهاشميات تأتى فيها العاطفة فى عناية الشاعر تالية لفن الاحتجاج والاستدلال الذى عناه فى تقرير حق آل البيت . فالهاشميات إذن فكر يصحبه شعور أو هى نظام فكرى خاص لا يجد غضاضة فى الاستعانة بالعواطف والمشاعر ، إلا أنها لا تقوم على الإقناع العاطفى ولا تعتمد عليه وإنما تقوم وتعتمد على الإقناع العقلى أصلا ومن أجل ذلك فقد ذهب البعض إلى أن شعره أشبه ما يكون بالخطب لأنه حجاج وجدال وإقناع واستدلال .

ولقد استمد الكميت عناصر استدلاله من النظر العقلى المحض ، كما استمدها من القرآن الكريم وما فى آياته من تقرير لحقوق الأقربين وقواعد الميراث ، على نحو ما نرى فى هذه الهاشمية التى تقرر حقوق بنى هاشم فى مهارة عقلية بديعة ، يقول الكميت :

بخاتمكم غصباً تجوز أمورهم ... فلم أر غصباً مثله يتغصب
وجدنا لكم فى آل حاميم آية ... تأولها منا تقى ومعرب
وفى غيرها آيا وآيا تتابعت ... لكم نصب فيها لذى الشك منصب
بحقكم أمست قريش تقودنا ... وبالفذ منها والرديفين نركب
وقالوا ورثناها أبانا وأمنا ... وما ورثتهم ذاك أم ولا أب

يرون لهم فضلا على الناس واجباً ... سفاها وحق الهاشميين أوجب
ولكن مواريث ابن آمنة الذى ... به دان شرقى لكم ومغـــرب
فدى لك موروثا أبى وأبو أبى ... ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب
وتستخلف الأموات غيرك كلهم ... ونعتب لو كنا على الحق نعتب
يقولون لم يورث ولولا تراثـــه ... لقد شركت فيه بكيل وأرحب
وعكّ ولخم والسكون وحمـــير ... وكندة والحيان بكر وتغلب
ولانتشلت عضوين منها يحابر ... وكان لعبد القيس عضو مؤرب
وما كانت الأنصار فيها أذلة ... ولا رغباً عنها إذ الناس غيب
هم شهدوا بدراً وخيبر بعدها ... ويوم حنين والدماء تصبّب
فإن هى لم تصلح لحى سواهم ... فإن ذوى القربى أحق وأقرب[1]

والأبيات تدور حول تقرير حق البيت الهاشمى فى الخلافة ، فبنو أمية يسوسون الناس بحق الهاشميين المغتصب على الرغم من أن القرآن الكريم يقرر حقهم فى سورة حاميم وغيرها فى آيات ناطقة بأحقيتهم هى مصدر عذاب ونصب لبنى أمية إذ لا يستطيعون طمسها ولا صرفها عن وجهها .

ثم ينتقل الكميت من هذه المسألة إلى مسألة الوراثة التى اعتمدها بنو أمية فى انتقال الخلافة فى أعقابهم فيقول إنهم يحتجون بأن آباءهم أورثوها لهم ، وهو ميراث باطل لأنه مغتصب فى الأصل ، فصاحب الحق الأول فيه النبى صلى الله عليه وسلم ، وبنو هاشم أولى بميراثه من غيرهم إذ هم آله الأقربون ، ويقرر الكميت بطلان دعوى الأمويين وتناقضهم ، فهم إذ يدّعون الحق فى ميراث النبى يدفعون حق آله فى وراثته بحجة أنه لا يورث ، فكيف إذن يتأتى أن يورث وألا يورث ؟ على أنه إن كان لا يورث لكان معنى هذا أن الخلافة حق مشاع غير مقصور على قريش ولكان لجميع القبائل العربية المختلفة حق فيها ، ولكان للأنصار لقاء ما آووا ونصروا الحظ الأوفر فيها .

---

(١) الهاشميات ص ٤٢

ولما لم يكن شيء من هذا ، فقد تأكد أنها ليست ميراثاً شائعاً، وأصبح مفهوماً أنها ميراث خاص بقريش ، ومادامت هكذا فليتبع فى تقريرها قانون المواريث الذى جاء به الإسلام ونص عليه القرآن ولترد على أهلها من أيدى غاصبيهم فهى تركة الرسول وهم أقرباؤه وأولى بميراثه .

وهكذا استطاع الكميت فى براعة أن يقرر حق الهاشميين تقريراً استمده من زعم الأمويين أنفسهم بأن الخلافة لا ينبغى أن تكون إلا فى قريش ، ويدفعون بهذه الحجة قبائل العرب والأنصار ، ولما لم يكن لتقديم قريش دليل إلا القرابة من رسول الله فإن بنى هاشم يكونون أولى من بنى أمية بالخلافة لأنهم أقرب رحماً إلى النبي منهم ، وليس حقاً ماذهب إليه بعض الدارسين انطلاقاً من هذه النقطة من أن الزيدية كانت تتعصب فى مسألة الخلافة تعصباً قبلياً وأن الكميت يتعصب هو الآخر تعصباً قبلياً أو أنه يصدر عن عصبية فى احتجاجه بما يدل على فهم لفكرة الخلافة فى أضيق معانيها وأبسط صورها من ناحية قبلية محضة[1].

فالكميت إنما يستخدم هذه الفكرة القبلية وهى من أفكار الأمويين سنداً وحجة فى معرض رده على مزاعمهم أو بعبارة أخرى أنه يرد عليهم بكلامهم الذى يفهمونه ويعتقدونه ليس غير .

وعلى هذا النحو يتحول شعر الكميت حججاً وأدلة لا تتصل من قريب أو بعيد بتلك المنابع القديمة التى استمد منها الشعراء وإنما تتصل بمنابع عقلية جديدة ، وهى تتوسل فى نفس الوقت إلى تقرير حق بنى هاشم فى الخلافة بنفس الوسيلة التى كان ينتهجها المتكلمون فيما يقررون من مسائل وهذا معنى ما نقوله من أنه اكتسب وسائل المتكلمين فى الجدال والحوار والاستدلال من تلمذته هو وإمامه لواصل بن عطاء وما أظننا إذا قلنا إن هاشميات الكميت كانت منحة المعتزلة ومنحة العقل الذى كونوه فى العصر الأموى نكون مخطئين

---

(١) أدب الخوارج ص ١٢٩

أو مبعدين فى الوهم فهى صورة دقيقة لطرق القوم فى استدلالهم وحوارهم ومايشفعون به هذا الاستدلال والحوار من نظر عقلى عميق[١] .

ومعنى هذا أن شعر الكميت لم يكتسب هذه الصفة لكونه شعراً شيعياً فهو بلا شك يختلف عن كل شعر الشيعة الذى ظل يصدر عن العاطفة وحدها دائراً فى نفس مداره القديم من البكاء والرثاء والثورة والتحريض والهجاء .

وإنما انماز شعر الكميت عن شعر الشيعة بما توافر له من منابع عقلية جديدة ، صدر عنها لهذا العصر ، وبمفارقته للصياغة الشعورية التقليدية إلى صياغة فكرية أو ذهنية جديدة مدعمة بكل ما عرفه العقل العربى حينئذ من طرق الجدال والحجاج والاستدلال .

ومن هنا تبرز أهمية الكميت بين شعراء عصره ، فقد تنكب الدروب الموروثة واختار درباً جديداً لما يطأه أحد من قبله فسار فيه ببراعة ونجح فى تحويل شعره من مجالات العاطفة إلى مجالات الفكر ، فإذا هو مقالة تقرر حق الهاشميين فى الخلافة ، فى حدود النظرية الشيعية الزيدية ، مدعمة بالحجج والأدلة ، ولكنها مقالة تختلف عن مقالات أصحاب الفرق والنحل من وجه واحد فحسب وهو أنها شكلت فى قالب شعرى .

وكما كان الكميت أول شاعر عربى يتحول بالشعر العربى عن مجالات العاطفة إلى مجالات العقل ، فإنه أيضاً كان أول شاعر خصص لنظرية عقائدية مجموعة من قصائده لقبت بلقب يدل على غايته أو منزعه .

وكان الشاعر حينما يلم بعقيدة أو مبدأ يؤمن به يكتب فيه أبياتاً أو قصيدة ولا يستطيع أن يجردها عن الأشخاص الذين يعبرون عن عقيدته أو مبدئه أما عند الكميت فإن هاشمياته جميعاً تستغرقها فكرة واحدة ولا تدور فى فلك شخص أو أشخاص لأنها إنما كتبت لتخدم نظرية معينة التزم بها الشاعر وهى لذلك تتجرد حتى عن أشخاص الأئمة الذين تدور حولهم النظرية نفسها

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٤٥

فليس فى الهاشميات ذكر لأحد منهم حتى هاشميته اللامية التى نظمها فى رثاء إمامه ليس فيها اسمه من قريب أو بعيد وكذلك نراه فى تعلقه بآل البيت ودخوله عليهم لا يقدم لها مديحاً شخصياً وإنما ينشدهم أشعاره فى الدفاع عن حقهم الذى هو لباب النظرية التى يعتنقها، والروايات تذكر أنه كان يدخل على أبي عبد الله جعفر بن محمد فينشده فى الهاشميين لا يذكره بشىء خاص وكذلك كان يفعل مع أبيه محمد الباقر[١] .

وهذا يوضح أن الهاشميات ليست إلا مقالة كتبت احتجاجاً لنظرية معينة، وهى لهذا لاتهتم بشخص صاحب النظرية بقدر ما تهتم بالنظرية ذاتها[٢] .

ومن هذه النقطة يمكننا أن نرد على مالاحظه بعض الدارسين المحدثين من ضعف شخصية الكميت فى شعره ، وأن شعره لايمثل وحدة متماسكة أوشخصية واحدة قوية[٣] ، إذ لم يكن هم الكميت مصروفاً إلى شخصيته أو شخصية غيره وإنما كان على النقيض من ذلك يجتهد فى ألا يدور شعره حول شخص ما ولو كان إمامه الذى تدور حوله عقيدته . وهو فى هذا لابد أن يختلف عن صديقه الطرماح الذى تظهر شخصيته واضحة فى شعره على الرغم من مخالفة هذا لما كان ينبغى أن يكون نتيجة لتعلق الشيعة بالأشخاص أكثر من تعلقهم بالمبادئ وتعلق الخوارج بالمبادئ دون الأشخاص .

ولقد ساعد الكميت على هذا التجرد أن مذهب الزيدية لا يتقيد بأن يكون الإمام شخصاً معيناً بذاته ، ولا يقصر هذ الحق على أولاد الحسن دون أولاد الحسين أوالعكس وإنما يطلقه فى أبناء فاطمة جميعاً[٤] .

وقد انطلق الكميت يدافع فى هاشمياته عن حقوق آل البيت ملتزماً

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦

(٢) التطور والتجديد ص ٢٤٦

(٣) أدب الخوارج ص ١٣٠

(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠

فى دفاعه بحدود النظرية الزيدية ملتزماً بكل ما يلتزمه إمامه ، وكان يزيد معتدلا ، واعتداله ليس إلا نتيجة للسماحة التى يقود إليها حكم المنطق والعقل فى آرائه وهى منحة العقل المعتزلى للشيعة وبفضلها ترفع الزيديون عن التعصب المقيت والغلو المتطرف الذى وقع فيه غيرهم من المتشيعين .

وبدافع من هذا الاعتدال وتأثراً بالمعتزلة كان زيد يصحح إمامة المفضول مع وجود الأفضل وقد صحت عنده خلافة أبى بكر وعمر مع وجود على لمصلحة رآها الصحابة وقاعدة دينيه راعوها[١] .

وكان أخوه محمد الباقر لايزال يعتب عليه تتلمذه لواصل بن عطاء وإعجابه بآرائه وهو يجوز الخطأ على جده فى قتال الناكثين [٢] ولكن زيداً لم ينصرف عن دروس واصل ، ولم يرجع عن رأيه .

وقد تسبب هذا الرأى فى انشقاق كثير من شيعة الكوفة على زيد فخرج عليه جماعة فرفضوه وأسقطوا حقه فى الإمامة ولكن الكميت وقف مع إمامه يدافع عن رأيه بمثل قوله :

أهوى عليا أمير المؤمنين ولا ... أرضى بشتم أبى بكر ولا عمرا
ولا أقول إذا لم يعطيا فدكـــا ... بنت الرسول ولا ميراثه كفرا
الله يعلم ماذا يأتيان بـــــه ... يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا[٣]

وكذلك وقف الكميت من وراء إمامه يحوّل نصوص مذهبه شعراً ، ومن هنا كانت الهاشميات نصًّا طريفاً لمذهب الزيدية فى أول تكونه ، وقد مر بنا أن شروط هذا المذهب فى الإمام أن يكون من أبناء فاطمة على الإطلاق على أن يكون عالماً ، زاهداً ، شجاعاً ، سخيًّا[٤] فإذا ما نظرنا فى الهاشميات وجدنا

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٠
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢
(٣) الهاشميات ص ١٥٦
(٤) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٤٩

هذه الصفات تتردد فيها تردداً واسعاً من مثل قوله :

الحماة الكفاة فى الحرب إن لـــ ـــفّ ضراما وقودهـــا بضرام
والغيوث الذين إن أمحل النـــا ـــس فأوى حواضن الأيتـــام
غالبين هاشميين فى العلـــ ـــم ربوا من عطيـــة العـــلاّم
وهم الآخذون من ثقـــة الأمـــ ـــر بتقواهم عرى لا انفصام[1]

ونرى فى هاشمياته صفة خاصة لم يشر إليها الشهرستانى على الرغم من أهميتها فى رأى زيد وفى رأى الناس وهى صفة العدل التى تدور فى الهاشميات دوراناً كثيراً عند ذكر عدل الإمام المنتظر ، وعدل الأئمة السابقين والمعاصرين ، ولا يقف الكميت عند مجرد بسطها وإنما يتوسل إلى تقريرها عن طريق تقرير جور بنى أمية مقارناً بين سياسة الطرفين فى رعاية الناس ، مقرراً عدل أئمة الشيعة وجور أعدائهم الأمويين الذين يسوسون الرعية سياسة غاشمة تقوم على استنزاف كل ما يملكون ويدخرون وكأنما كانت الرعية غنما لهم يجزون صوفها ويحتلبونها وينهشون لحمها ولا يجدون غضاضة بعد كل هذا فى زجرها ونهرها ، بينما ينهج بنو هاشم العدول سياسة العدل الخالص بين الناس مستقيمين على الجادة ، ولكن بنى أمية ينحرفون عنها مثقلين بالأوزار والآثام يقول :

القريبين من نـــدى والبعيديـ ـن من الجور فى عرى الأحكام
راجحى الوزن كاملى العدل فى السـ ـيرة طبّـين بالأمور الجسام
ساسة لا كمن يرى رعية النا س سواء ورعيـــة الأنعـــام
لا كعبـــد المليـــك أو كوليد أو سليمان بعد أو كهشام
رأيه فيهم كرأى ذوى الثلـــــ ـة فى الثائجات جنح الظلام
جز ذى الصوف وانتقاء لذى المخـ ـة وانعق ودعدعا بالبهام
فهم الأرافون بالناس فى الـــرأ فة والأحلمـــون فى الأحلام
أخذوا القصد واستقاموا عليه حين زلت زوامل الآثام[2]

(١) الهاشميات ص ٢٠

(٢) الهاشميات ص ٢٠

وهكذا تتوالى هذه الصفات التى اشترطتها الزيدية فى الإمام ، فى هاشميات الكميت ويظنها من لم يقف على حقيقة مذهبه تكراراً وخطابة ، بل وإسفافاً معيباً تدفعه إليه الرغبة فى الإطالة والشغف بتكرار المعنى الواحد بشكل واضح فى القصيدة الواحدة بشكل ممل[1].

ولكنها فى الحقيقة نظرية الزيدية ينهض بإذاعتها وتقريرها الكميت فيطيل ويكثر من ترديدها شأنه فى ذلك شأن كل داعية ليثبت المذهب فى نفوس أتباعه ، ويدعو غيرهم إلى اتباعه ، وكما غاب عن هؤلاء أنه إنما يقرر نظرية المذهب الذى اعتنقه ، ودعا إليه فظنوه شغفاً بالتكرار والإطالة التى أدت إلى الإسفاف ، غابت عنهم الحقيقة فى تعليل ما ظنوه إسفافاً بأنه لم يكن قوى الإيمان بعقيدته بدليل جهره بأهم مغامز آل البيت وهو القعود عن الخروج فى سبيل حقهم ولأنه كان فيما نقل إليهم أصم فهو لذلك لا يمكن أن يشعر بإيذاء التكرار فى المعنى والقول بمثل ما يشعر به الذى يسمع ؛ ولأن الشعور الدينى فى الشعر العربى إلى عصره على الأقل كان شعوراً ضعيفاً غالباً حتى إن إحساس شعراء العرب الدينى لم يلهمهم شعراً قوياً إلى زمن الكميت ، ولأن الكميت كان يوجه بشعره إلى الشيعة وإلى عامتهم بالذات لا يعدوهم إلى غيرهم من المسلمين بدليل أن شعره كان متداولا فى الكوفة كثيراً حتى إن عكرمة الضبى ليروى عن أبيه أنه أدرك الناس بالكوفة من لم يرو « طربت وماشوقاً إلى البيض أطرب » فليس بشيعى[2].

فأما عن ضعف عقيدة الكميت وغمزه لآل البيت فى قعودهم فلم يكن الكميت وحده الذى يرى هذا وإنما كان يشاركه طائفة كبيرة من الشيعة على رأسهم أبو جعفر محمد بن على أخى زيد الذى ناظر أخاه فى اشتراطه الخروج فى الإمام الحق ، واحتج عليه بأن إمامة أبيهما على بن الحسين تصبح إذن باطلة لأنه لم يخرج ولم ير الخروج مطلقاً[3].

---

(١) أدب الخوارج ص ١٣٤ (٢) نفس المرجع
(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢٥٢

فلسنا نقول إن الكميت كان ضعيف الإيمان فى تشيعه إلا بمقدار ما يمكننا القول بمثل ذلك عن أبى جعفر أو أبيه على بن الحسين وغير أولئك من الذين رأوا القعود .

وأما عن أن الكميت فيما نقل إلى هؤلاء الدارسين كان أصم فإننا بدورنا لم نجد ما يمكن أن يستدل به على ذلك من شتى النقول غير ما رواه أبو الفرج فى وصفه من أنه كان طويلا أصم ولا يمكن إطلاقاً أن يكون أبو الفرج قد قصد إلى أنه كان لا يسمع فمن معانى كلمة الأصم: المتين الصلب والذى لا يطمع فيه، والذى لا يرد عن هواه وكلها معان تعد أليق مما سبقها فى نص أبى الفرج من صفة الطول منها بعدم السمع ، أى أن الكميت كان طويلا متيناً لا تتقحمه العيون ولا يطمع فيه وربما كان سبب التوهم فى حمل الكلمة على معنى عدم السمع أن أبا الفرج ذكر بعدها أن الكميت لم يكن حسن الصوت ولا جيد الإنشاد وأنه كان ينيب عنه ابنه المستهل فى ذلك[١] .

ولكننا يجب ألا ننسى أن الكميت كان معلما ، وأن من المسلمات أن يكون المعلم سميعاً ولو كان الكميت شاذًّا فى خروجه على هذه المسلمة لرويت فى ذلك عنه روايات طريفة .

وأما عن أن الشعور الدينى إلى عصر الكميت كان ضعيفاً ، وأن الإحساس الدينى لم يلهم شعراء العرب شعراً قويًّا إلى زمن الكميت فى مفتتح القرن الثانى من الهجرة فهذه دعوى ينقضها ما بين أيدينا من شعر فى عصر النبى والخلفاء الراشدين وشعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام وشعر المخضرمين وما ندرس من شعر الفرق الإسلامية وفيها جميعاً طوابع إسلامية قوية لا تنكر .

وأما عن رواية عكرمة عن أبيه فلا يستفاد منها أكثر من أن قصيدة الكميت المشار إليها ذاعت فى شيعة الكوفة حتى إنهم جميعاً كانوا يروونها لدرجة أن من لم يروها منهم كان لا يعد شيعيًّا ، وليس فى هذا ما يفهم منه أن روايتها

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٢

كانت محظورة على غيرهم أو أنه كان على غيرهم روايتها ليصح الزعم بأن الكميت كان يتوجه بشعره إلى صنف معين من سكان الدولة الإسلامية وهم عامة الشيعة من أهل الكوفة .

وما وقفنا هذه الوقفة إلا لكى نعود فنكرر مرة أخرى أن الكميت لم يكن شاعراً على الطريقة المألوفة من الشعراء وإنما كان شعره لوناً جديداً على الذوق العربى التقليدى ومحاولة رائدة فى إدخال الشعر العربى من باب جديد واستمداده لمنابع عقلية جديدة وصياغته صياغة فكرية لم يسبق إليها تتحول بالشعر من مجال العاطفة والشعر إلى مجال الفكر والعقل المحض ومحاولة التصدى للتعبير عن نظرية مذهبية مدعمة بالنظر العقلى وطرائق المتكلمين ووسائلهم فى الاحتجاج والاستدلال حتى ليخرج ديوانه الهاشميات نصًّا طريفاً لمذهب الزيدية بكل تفاصيله ووقائعه بل إنه ليتجاوز ذلك إلى الاستدراك على كتب الملل والنحل التى أغفلت بعض مبادئ الزيدية بينما سجلها هو فى هاشمياته وبسطها وقررها كفكرة العدل التى رأيناها تدور فى شعره دوراناً واسعاً ، وتتكرر فى أكثر من موضع ، وكفكرة أن الإمام الشيعى هو الذى يحكم بين الناس كما أراد الله فى كتابه وكما سن ذلك الرسول فى حديثه وهو أصل آخر من أصول الزيدية لا نجده فى كتب الفرق والنحل وقد استخرج الكميت من هذا الأصل ما استطاع به أن يبرز ابتعاد الحكم الأموى عن هدى الكتاب والسنة وتعطيله لأحكامها حتى كاد الناس يشكون فى أنهم على ملة الإسلام ، يقول :

وعطلت الأحكام حتى كأننا ... على ملة غير التى نتنحل
أأهل كتاب فيه نحن وأنتم ... على الحق نقضى بالكتاب ونعدل
كأن كتاب الله يعنى بأمـــره ... وبالنهى فيه الكودنىُّ المركل
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتام حتام العناء المطـــول
وماضرب الأمثال فى الجور قبلنا ... لأجور من حكامنا المتمثل
لهم كل عام بدعة يحدثونهـــا ... أزلوا بها أتباعهم ثم أوحلوا
كما ابتدع الرهبان مالم يجئْ به ... كتاب ولا وحى من الله منزل

تحل دماء المسلمين لديهــم ويحرم طلع النخلة المتهــدل
فيارب هل إلا بك النصر يبتغى عليهم وهل إلا عليك المعول[١]

وليس هذا تنديداً ببنى أمية فحسب وإنما هو فى الحقيقة تقرير لأصل من أصول الزيدية ولكنه تقرير متحمس يتضمن التنديد بالنظم الدنيوية الفاسدة التى اتبعها بنو أمية فى حكمهم المسلمين والتى خرجت بهم عن روح الإسلام وجعلت الثورة عليهم ضرورة واجبة .

وقد تضمنت الهاشميات فضلا عن مبادئ الزيدية وأصولها التى دعا إليها زيد بن على عقيدة الشيعة بكل فرقها فى وصية النبي لعلى يوم غدير خمّ ، يقول الكميت :

ويوم الدوح دوح غدير خم أبان له الولايــة لو أطيعا

وقد مر بنا أن الزيدية على الرغم من اعتقادها فى الوصية لا تبطل خلافة أبى بكر وعمر ولا تعتبرهما مغتصبين لحق علىّ فى الخلافة إذ ولاّهما الصحابة لمصلحة ارتأوها . ولهذا قرنوا الولاية بالطاعة .

ولا نجد فى الهاشميات شيئاً مما يعتقده غلاة الشيعة فى تصور حقيقة الإمام أو فى عصمته وعلمه اللدنى الذى بثه الله فيه ، فليس فى الهاشميات شىء من هذا وإنما هو فى حقيقة الأمر وواقعه وثيقة المذهب الزيدى بحذافيره ، فالإمام ينبغى أن يكون عالماً فحسب دون غلو أو تقديس ودون شعوذة ، أو تقرير لرجعة أو تناسخ أو نحو ذلك مما يؤمن به غلاة الشيعة .

ولذلك فنحن نعجب من قول الجاحظ عن الكميت إنه كان شيعيا من الغالية[٢] ولعل الجاحظ نعت الكميت بذلك إرضاء للعباسيين الذين كانوا يقررون أنهم أصحاب ميراث النبي وأحق به .. فكان طبيعيًّا أن يغضبوا على الكميت الذى كان يقرر فى حماسة إرث على وأبنائه من فاطمة للرسول صلى الله

---

(١) الهاشميات ص ١٢٣

(٢) البيا ن والتبيين ج ١ ص ٤٦ .

عليه وسلم ، وكان هذا لا يرضى العباسيين منه ، فكان طبيعياً إذن أن يغضبوا عليه[(١)] .

ويذكر أبوالفرج أن العباسيين كانوا يسخرون بابنه المستهل ويحملون عليه ويضربونه ويعيّرونه بمديح بنى أمية فى شعر أبيه وماكان فى شعره دالا على صيرورته إليهم[(٢)] كما يذكر أن العسس أخذته فحبس ، وكان من قوله فى استعطاف أبى جعفر المنصور :

أئن نحن خفنا فى زمان عدوكم وخفناكم إن البلاء لراكـد[(٣)]

ولم يكن هذا إلا ترجمة لما كان يشعر به من أسف ومن سخرية الناس به فقد كان قومه من بنى أسد إذا ما استحثهم لحمايته يقولون هازئين : لقد أصابوا فيك فلا تكذب أباك الذى يقول فيهم :

والمصيبيون باب ما أخطأ النا س ومرسى قواعد الإسلام[(٤)]

ويذهب د. شوقى ضيف[(٥)] إلى أن هذا الاضطهاد دفع المستهل إلى أن ينحل على أبيه شعراً يشيد بالعباس بن عبد المطلب جد العباسيين وأدخله فى الهاشميات[(٦)] ويؤكد هذا أننا لا نعرف فى أخبار الكميت شيئاً عن ذلك .

ولم يقتصر الجاحظ على نعت الكميت بالغلو فى التشيع فحسب وإنما بأنه أيضاً أزرى على مدحه للرسول فى هاشمياته وعدّ المذهب الذى ذهب إليه فى مديحه من غرائب الحمق حيث يقول :

وقيل أفرطت بل قصدت ولو عنفنى القائلون أو ثلبوا

وأضاف الجاحظ أنه لم ير شاعر مدح النبى فاعترض عليه واحد من جميع

(١) التطور والتجديد ص ٢٥٣ .
(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦ — ١١٧
(٣) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٨
(٤) الأغانى جـ ١٥ ص ١١٦
(٥) التطور والتجديد ص ٢٥٣
(٦) أنظر الهاشميات ص ٢١ ، ٦٣

الناس حتى يزعم أن أناساً يعيبونه ويثلبونه ويعنفونه[١].

ولا شك فى أن الجاحظ فى إزرائه على الكميت إنما يسير فى ركاب العباسيين متناسياً أن بنى أمية كانوا يسخطون على الكميت حقًّا لمديحه الرسول فى هاشمياته مادام هذا المديح فى معرض الدفاع عن حق بنى هاشم ، وقد أكثر الكميت الشكوى من تعنيف الناس له على هذا المديح من مثل قوله :

ألم ترنى من حب آل محمد أروح وأغدو خائفاً أترقب
على أى جرم أم بـأية سيرة أعنف فى تقريظهم وأؤنب
بأى كتاب أم بـأية سنة ترى حبهم عاراً علىّ وتحسب[٢]

وهو إنما يقصد بنى أمية ويقصد إلى إحراجهم فى خبث ، وكأنه يقول لهم : إننى إنما أمدح الرسول وآله فما بالكم تعنفوننى وتحبسوننى .

وقد استشهد بعض الدارسين بقول الجاحظ هذا على أن الكميت قد أسرف فعلا فى مديح الرسول وآله[٣] ، وواضح أن الجاحظ لا يراه أسرف بل لا يرى من يلومه على الأسراف منصفاً ، ويستطرد الجاحظ فى محاولته إرضاء العباسيين فيسوق هذين البيتين للكميت فى الرسول حيث يقول :

وبورك قبرانت فيه وبوركت به وله أهل بذلك يثرب
لقد غيبوا براًّ وحزماً ونائـلا عشية واراه الصفيح المنصب

ويقول الجاحظ عن هذين البيتين إنه شعر يصلح فى جميع الناس[٤].

وقد يكون هذا حقًّا ، ولكن ليس من الحق أن نقيسه بهذين البيتين ، وكذلك ليس من الحق أن ننسى أن الكميت لا يقول شعره فى مديح شخص بعينه لذات المديح وإنما هو يقول شعراً جديداً فى نوعه لا يهتم فيه بالأشخاص، وإنما يهتم بتقرير نظرية بعينها، فلسنا نستطيع إذن أن نزعم أن الكميت قصّر فى مديح الرسول أو أجاد أو أنه قصر فى مديح آل البيت أو أجاد أيضاً، فهو لم يكن شاعراً مداحاً ولم يرد أن يكون وإنما كان شاعراً مذهبيًّا ملتزماً بالتعبير عن

(١) الحيوان ج ٥ ص ١٧٠ .
(٢) الهاشميات ص ٣٧
(٣) أدب الخوارج ص ١٣٤
(٤) الحيوان ج ٥ ص ١٧٠

مذهبه ، فحسب ومن حقنا أن نحاسبه فى حدود هذه الغاية وبمقاييسها الخاصة .

وليس شك فى أنه نجح فى أن يجعل هاشمياته طرفة نفيسة من طرف العصر الأموى فالهاشميات أقدم نص يعرفنا بالمقالة الزيدية ، وقد كتبها الكميت شعراً فى العصر الأموى قبل أن تسجل نثراً فى العصر العباسى ومن أجل هذ كانت الهاشميات تعد لوناً أدبيًّا جديداً فى تاريخ الشعر العربى[١] .

والهاشميات بهذا ذات قيمة أدبية تاريخية ، إذ لم يعرف شاعر قبل الكميت اتخذ شعره لإثبات مقالة مذهبية .

وقد طغت قيمة شعره التاريخية والسياسية على قيمته الفنية إلى حد الجناية عليها فكثير من الدارسين يعتقدون أن قيمة شعره الأدبية أقل من قيمته السياسية والتاريخية[٢] .

والحقيقة أن القيمة الفنية لشعر الكميت لا تقل عن قيمته التاريخية ، وإنما علة هذا الاعتقاد أن الكميت بذهابه هذا المذهب الجديد فى التحول بالشعر إلى مجالات الفكر والعقل والبعد به عن منابعه القديمة التى ألفها الذوق العربى فى التعبير عن العواطف والتغنى بالمشاعر قد جعل الدارسين وبخاصة القدماء يقفون منه موقفاً مشوباً بالحذر والتشكك فقدكان الأصمعى يعيب عربيته ويقول عنه إنه جرمقانى من أهل الموصل ليس بحجة [٣].

ويروى أن الكميت والطرماح كانا يسألان العجاج أو رؤبة عن الغريب فيخبرهما ثم يراه فى شعرهما وقد وضع فى غير مواضعه ، وتعلل الرواية ذلك بأنهما قرويان يصفان مالم يرياه فيضعانه فى غير موضعه[٤].

وقد شك بعض المستشرقين فى صحة هذه الرواية[٥] معتدا بالفارق الزمنى

---

(١) التطور والتجديد ص ٢٥٥

(٢) دوجويه المجموعة العاشرة المجلد الخامس ص ١٥٧

(٣) أمالى القالى جـ ١ ص ٩٧ والوساطة ص ١٧ ، والمزهر جـ ٢ ص ٣٣٣ ، والاشتقاق ٢٦٥ ، والموشح ٢٩٢ .

(٤) الأغانى جـ ٢ ص ١٧ ، جـ ١٠ ص ١٥٦

(٥) كرنكو مقدمة ديوان الطرماح ص ٢٥ .

بين رؤبة الذى توفى سنة ١٤٥ هـ وبين الكميت الذى توفى سنة ١٢٦ هـ ، وقد انتهى إلى أن رؤبة لم يكن ليلحق بالكميت لصغر سنه فيعاصره ، ويأخذ هذا منه فى ذلك الوقت ، وهو ليس بدليل ، وعلى الرغم من ذلك فالرواية لا تصح لدينا لأن الكميت عرف بالشغف بالغريب وكان معلم لغة ، ولم يكن جرمقانيا من أهل الموصل كما زعم الأصمعى ولا قروياً كما تزعم رواية الأغانى وإنما كان حضرياً بكل معنى الكلمة .

وشبيه بهذا ما يروى منسوباً إلى محمد بن سهيل راوية الكميت من أن الكميت أتى ذا الرمة عند قدومه الكوفة فأنشده قصيدته التى مطلعها :

هل أنت عن طلب الإيقاع منقلب   أم كيف يحسن من ذى الشيبة اللعب

والتى يعارض فيها بائية ذى الرمة فقال ذو الرمة : ويحك إنك لتقول قولا مايقدر إنسان أن يقول لك أصبت ولا أخطأت وذلك أنك تصف الشىء فلا تجىء به ولا تقع بعيداً عنه بل تقع قريباً منه فقال الكميت : أتدرى لم ذلك ؟ قال ذو الرمة لا فقال الكميت لأنك تصف شيئاً رأيته بعينك وأنا أصف شيئاً لى وليست المعاينة كالوصف [١] .

وهى رواية مهما كان حظها من التصديق فإنها لا تصدق على الهاشميات وإنما يقصد بها هذا الشعر الذى قاله الكميت تقليداً للقدماء وكأنما ليدلل لهم على قدرته على مجازاتهم وعلى براعته فى الإتيان بالغريب الذى شغف به ، ومن هذا القبيل وصفه للصحراء فى آخر هاشميته التى مطلعها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب   ولا لعباً منى وذو الشيب يلعب

وفيما عدا ذلك لم يكن الكميت ليحفل بمحاكاة الأقدمين فى هاشمياته فلم يفتتح تلك القصائد ببكاء الأطلال أو بالنسيب حتى قال له الفرزدق عندما أنشده هذه البائية : إنك قد طربت إلى شىء ما طرب إليه أحد قبلك فأما نحن فما نطرب ولا طرب من كان قبلنا إلا إلى ما تركت أنت الطرب إليه [٢] .

وهذا يثبت من ناحية ما ذهبنا إليه من خروج الكميت على الذوق المألوف

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ١٢٠   (٢) الأغانى ٢ جـ ١٥ ص ١١٩

للشعر التقليدى عند القدماء ، ويثبت من ناحية أخرى أن القدماء لم يتجاوبوا مع هذا الخروج وإنما استهدف طعنهم والإزراء عليهم فارتفع بدفاعه عن نفسه على هذا النحو الذى رأيناه منه أمام ناقده ذى الرمة إلى جعل التقليد لذاته فى مرتبة الحذق الفنى[1] ومع ذلك فإنه لم يتقيد بالمثل التقليدية ونماذجها تقيد العبودية فأعطى النسيب وبكاء الأطلال تحولا سلبياً مبرزاً فى صورة التأكيد أن قلبه ليس ملكاً للغوانى وأنه لا يطمح إلى حب النساء وأن طربه لا يرجع إلى شوق أو غرام .

وعلى الرغم من ذلك فقد وسمه الأقدمون نتيجة لهذا بتمثيل القدماء بل بسرقتهم وتكلف الاحتذاء لهم، فهو عند ابن قتيبة متكلف شديد التكلف كثير السرقة[2] وعند ابن جنى بطىء القريحة فى الشعر حتى إنه لايكاد يجد ما يتم به مصراعاً إلا بعد لأى وعندما استلهم تكملته من رجل يخاطب آخر فى حمام[3]، وحتى الاقتباس من القرآن عابوه عليه حتى استطاع العالم الكوفى ابن كناسة المتوفى سنة ٢٠٧ هـ والذى اشتغل كثيراً بأشعاره أن يضع كتاباً كاملا فى سرقاته من القرآن وغير القرآن[4].

ويكاد بعض الدارسين يتصور شعر الكميت نثراً منظوماً تبرز أثناء فقره وإقفاره تعبيرات رفيعة أخذها الكميت من لغة الشعراء وأقحمها هنا وهناك فى شعره فكأنها رقاع جديدة فى ثوب خلق فإذا ما نحيت سرقاته من شعره بدا شعره فقيراً رثاً عاريا من كل جمال شعرى ، وأن التزاوج بين سطحيته المقفرة المنتقاة قد أسهم فى طبع أسلوبه بالقلق والاضطراب[5] .

وفى رأينا أن ما يتصوره هؤلاء جميعاً من سرقة الكميت للأقدمين ليس إلا نتيجة طبيعية لما كان الكميت يأخذ به نفسه من التثقف بشعرهم وحفظه والنظر فيه والاشتغال بتعليمه .

---

(١) العربية ص ٤٠

(٢) الشعروالشعراء ج ٢ ص ٥٦٢

(٣) الخصائص ج ١ ص ٣٣١ – ٣٣٢

(٤) الفهرست ص ١٠٥

(٥) العربية ص ٤١

وقد عيب على الكميت تسامحه فى تعاطى اللغة الدارجة فخطأه الأصمعى فى قوله إذ يهجو يزيد بن خالد القسرى :

أبرق وأرعـــد يا يزيـــ ـــد فما وعيدك لى بضائر

فقد استعمل صيغة الرباعى المهموز من برق ورعد مع أن الاستعمال الفصيح لا يعرف غير صيغة الثلاثى ، على الرغم من أن كثيراً من اللغويين يعدون صيغة الفعل الرباعى فى المعنى المجازى كصيغة الثلاثى فصاحة[1] .

وأيضاً فقد عابوا عليه إساءة فهم بعض التعبيرات البدوية لقلة بصره فمثلا يقول نار أبى حباحب[2] مخطئاً فى فهم العبارة المشهور (نار الحباحب) ظنًّا منه أن لفظ حباحب ومعناه اللهب أو دويبة حمراء تشبه اللهب اسم رجل عربى بخيل .

ومهما كان من أمر تلك الهنات فلقد كان الكميت عالماً باللغة وغريبها ، معلماً لها مشغوفاً بها إلى حد أن رفض إملاء أشعاره على حماد الراوية لأنه كان يخشى لحنه[3] وإنما كل ما هنالك أن رأى القدماء لم يكن فيه حسناً وتعليل ذلك ما سبق أن ذكرناه من أنه كان شاعراً ذا اتجاه مذهبى وأن اتجاهه كان له خصوم يمكن إرضاؤهم بالإزراء عليه . وكذلك فقد فتح الكميت لها شمياته فى الشعر العربى باباً لم يكن أحد قد فتحه من قبل خارجاً على ماألفه الذوق واعتاده فاستكره القدماء خروجه عليه وقد مرّ بنا رأى ابن قتيبة وابن شبرمة فى تصورهما ضعف ما عبرا عنه بمديح بنى هاشم عن مدائحه فى الأمويين ، وقد أسلفنا أن عنايته لم تكن مسددة إلى أن يمدح بنى هاشم فلم تكن تلك غايته وإنما كان همه أن يصور مذهبه الذى اعتنقه فى الدفاع عن حقوق بنى هاشم فى إطار النظرية الشيعية الزيدية ، وأيضاً مر بنا ما حسبه بعض المعاصرين إسفافاً وتكراراً مملا وهو فى حقيقة الأمر ليس إلا تقريراً على طريقة المتكلمين فى إثبات القضية التى يدافع عنها ، وليس ما دار فى شعره تكرراً لنعوت معينة

---

(١) العربية ص ٤٤

(٢) الخزانة ج ٣ ص ٢١٣ ، وتاريخ العروس ج ١ ص ٢٠٠

(٣) الموشح ص ١٩٥

يمدح بها بنى هاشم كما قدروا وإنما هى شرائط المذهب الزيدى فى الإمام الشيعى الحق يكررها محاولا تثبيت أصول مذهبه فى الأذهان كما قدمنا ، ولننظر فى هذا البيت الذى اتخذ مثلا لبيان مدى ما وصل إليه الإسفاف فى شعره[1] وهو قوله :

فدى لك موروثاً أبى وأبو أبى ونفسى ونفسى بعد بالناس أطيب

فهذا البيت فى مكانه من القصيدة التى يقرر فيها الكميت حق بنى هاشم ويناقش فيها تناقض الأمويين فى زعمهم أنهم إنما ورثوا الخلافة لقرابتهم من النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم ينكرون بعد ذلك على بنى هاشم أن يقولوا بوراثتها عن النبى رأس أسرتهم محتجين فى مواجهتهم بذلك بأن النبى لا يورث .

وكان هم الكميت فى هذه المناظرة أن يكشف الغطاء عن هذا التناقض فبين أولا أن الأمويين إنما يحكمون بخاتم بنى هاشم وهو خاتم النبى الذى اغتصبوه وادعوا وراثته ، وهذه الوراثة التى أدعوها قد تكون صحيحة فى تسلسلها من الآباء إلى الأبناء ولكنها اغتصاب فى الأصل إذ أنها ابتزاز حق المورّث الأول وهو النبى صلى الله عليه وسلم الذى اغتصبوا حقه فدان لهم باغتصابه الشرق والغرب ، وصعب على بنى أمية أن يعترفوا باغتصابهم لهذا الحق وأيسر منه أن يدّعوا أنهم ورثة النبى ، وهنا يختطف الكميت هذا الادعاء فى لهجة ظافرة وكأنه اختطف شيئاً ثميناً من خصومه بعد أن حصرهم فى تهمة الاغتصاب واضطرهم إلى الهرب فإذا هم يقعون فى ادعاء الوراثة وهو شرك نسجه لهم الكميت بمنطقه ، فهذا الادعاء يعنى شيئاً هامًّا ، فماداموا وارثين فالنبى إذن موروث ، بدليل ادعاء بنى أمية أنفسهم أنهم ورثته .

فكيف إذن يردون بنى هاشم عن ميراثهم فيحرّمون عليهم ما أحلوه لأنفسهم زاعمين فى تناقض بيّن أن النبى لا يورث ثم يمضى الكميت فيقيم الدليل على أنه صلى الله عليه وسلم يورث ولولا ذلك لكان ميراثه حقًّا مشاعاً يشترك فيه جميع المسلمين ، ولم يكن مقصوراً على قريش دون غيرها ومادام الأمويون لا يرون لأحد

---

(١) أدب الخوارج ص ١٣٣ .

من المسلمين غيرهم حقًّا فى الخلافة فهى ليست حقًّا مشاعاً إذن ، وإنما حق مقصور على قريش فحسب ، وهم إنما يستمدون سندهم فى استحقاقهم الخلافة من أنهم من قريش التى لا يصلح العرب إلا بها ، ومادام الأمر ميراثاً خاصًّا هكذا فليس فى قريش من هم أقرب إلى النبى من آله بنى هاشم .

وهذا البيت الذى عدّ مثالا للإسفاف قد قام فى تقرير القضية التى ناظر الكميت فيها بنى أمية مقام المقدمة الصغرى من مقدمات المنطق انتزعها من خصومه وبنى عليها بمقدمة أخرى هى زعمهم أن النبى لا يورث ليخلص من ذلك إلى النتيجة المنطقية التى هدف إليها وهى أن بنى أمية متناقضون وليتخذ من تناقضهم دليلا على اغتصابهم حق غيرهم من الهاشميين .

فنحن إذن لانحتكم فى هذا البيت إلى مقاييس البلاغة أو النقد المألوفة فى جمال التعبير ودقة التصوير وإنما نحتكم فيه إلى مقياس آخر هو مدى ما قدمه هذا البيت إلى القصيدة فى موضعه من دلالة فكرية أسهمت فى استكمال الاحتجاج وتقرير الفكرة التى استهدفت القصيدة تقريرها

ولاشك فى أننا لو رفعنا هذا البيت من موضعه لاختل ما فى القصيدة من تسلسل منطقى ولاهتزت دلالاتها اهتزازاً تصبح معه الفكرة العامة للقصيدة مهوشة ولقصرت بعد ذلك عن بلوغ هدفها ومن ثم فهذا البيت يمكن أن يوصف بأنه بيت القصيد حقًّا .

ويبقى بعد ذلك معنى البيت ذاته فهو يفدى الرسول صلى الله عليه وسلم بأبيه وجده وبنفسه ويأتى بالكلمة التى هى هدفه من البيت فى صيغة اسم المفعول وفى موضع الحال بالذات مما يشعرنا بأنه يفديه فى هذه الحال التى أثبتها له ، وكأنها اعتراف انتزعه من أفواه خصومه ليدينهم به أو حبل برمه مناظروه فأحاط به رقابهم ، وقد طابت نفسه بعد هذا الانتصار على خصومه الذين دفعهم إلى أن يقرروا بأنفسهم ما أرادهم على تقريره وقد يكون تصور الإسفاف راجعاً إلى ما فى البيت من تكرار لبعض الكلمات مثل أبى وأبو أبى ونفسى ولكنه تكرار سائغ ودائر فى التعبير وهو خير من أن يقول الشاعر لو ساعده

الوزن مثلا فدى لك أبي وجدى ففي تعبيره تفخيم لا يتوافر فى هذه الحال وفيه تأكيد وتحديد للجد بأنه أبو الأب وليس أبو الأم .

ويجب أن نلحظ أن نفسى الأولى فى تعبير الشاعر بمعنى الذات والأنية أو العمر بينما جاءت الثانية بمعنى الحالة الشعورية أو المزاج الانفعالى، فليس هناك تكرار فى المعنى بينما يبدو التكرار اللفظى غير منفر لتساوق واو الابتداء مع واوى العطف وتقابل التكرار فى نفسى فى الشطر الثانى مع التكرار فى أبى فى الشطر الأول .

وإنما وقفنا هذه الوقفة لنؤكد أننا بإزاء شعر من لون جديد لم يألف الذوق العربى صياغته الفكرية فعده إسفافاً وضعفاً وليس فيه إسفاف وليس فيه ضعف وإنما هو الإلف والعادة واستكراه الخروج عليهما . وعلى الرغم من ذلك فقد أحسن بعض القدماء الظن بالكميت فكان لهم فيه رأى حسن وهم قليلون ومنهم الفرزدق الذى عرض عليه الكميت هاشمياته قبل أن يذيعها ، ولم يكد يسمع أول قصيدة منها حتى قال له أذع يا ابن أخى ثم أذع فأنت والله أشعر من مضى وأشعر من بقى [١] .

وقد سئل الفرزدق عن هاشميات الكميت فقال إنه وجد آجراً وجصاً فبنى ، وكذلك قال عنه معاذ الهرّاء إنه أشعر الأولين والآخرين [٢] .

وما خالطنا شك فى أن هؤلاء الذين أحسنوا الظن به قد فهموه كما لم نشك لحظة فى أن أولئك الذين أساءوا به الظن لم يفهموه أيضاً وإنما كان أول من لفت إليه ونبه إلى جدة ماذهب إليه أستاذنا الدكتور شوقى ضيف [٣] .

ولسنا نذهب مذهب هؤلاء ولا مذهب أولئك وإنما نتابعه فيما ذهب إليه عن قناعة تامة بأن الهاشميات شيء جديد فى الشعر العربى لم يكن موجوداً من قبل ونظن ظنا أن ليس من حق النقاد إذن أن يحكموا فيه مقاييسهم فى نقد التقليدى من الشعر وقد تحول به الكميت فى هاشمياته إلى آفاق جديدة ففتح

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٢٠

(٢) الأغانى ج ١٥ ص ١٢١

(٣) التطور والتجديد ص ٢٣٢ وما بعدها

للشيعة باب الاحتجاج وهو لهذا السبب لم يكن يفتن فيه ولم يكن يفوفه بألوان الخيال إذ حل محلها فى الاهتمام عنده ألوان الحجاج والاستدلال والجدال حتى عدّه بشار خطيباً وليس بشاعر .

فهاشميات الكميت إذن ليست مدائح لأهل البيت بالمعنى المتعارف عليه فى المديح وإنما هى حجاج لهم ودفاع عن حقهم وترويج لنظرية فرقة الزيدية وهو يستعين فى هذا بنوعين من الأدلة أحدهما النظر العقلى المحض القائم على التدليل المنطقى والآخر يستمده من القرآن الكريم وقواعد الإسلام وعلى الرغم من هذا فليس شعره خالياً من حرارة العاطفة ولامن صدق المشاعر لأنه لم يكن يصوغ حقائق جامدة لا أثر لها فى نفسه وإنما كان ينافح عن عقيدة يجد الراحة فى الدفاع عنها ويتقرب إلى الله بنصرتها عازفاً فى سبيل ذلك عن ملذات الدنيا ومتاعها .

وقد خرج فى تلك الهاشميات على الصياغة المألوفة وعلى الإطار التقليدى للقصيدة فبدأها بحب آل البيت فحسب وإن ذهب أحياناً إلى مجاراة النمط الجاهلى كنوع من التقليد المقصود لإظهار حذقه ومهارته وبصره باللغة وحفظه للقديم من الشعر مما عرّضه لطعن الطاعنين من القدماء والمحدثين وإتهامهم إياه بالتقليد والتكلف والسرقة ولاشك عندنا فى أنه شاعر مجيد ومطبوع ومتدفق وطويل النفس دقيق التعبير وليس أدل على ذلك من نجاحه فى القيام بالمهمة التى نذر نفسه لها وهى الاضطلاع بالترويج لمذهب الزيدية والدفاع عن مبادئه والانتصار له بأسلوب هو ثمرة لثقافاته ولثقافة العصر فجاءت هاشمياته منحة العقل العربى بحق فى هذا العصر وقام الكميت من ثم بمهمته على أتم وجه يطلب من شاعر عقائدى فى مثل ظروفه وملابساته .

الفصل الثانى

شعراء الخوارج

على الرغم من قلة ما وصل إلينا من شعر الخوارج فإنهم عرفوا بكثرة أدبائهم وشعرائهم كثرة يدل عليها ما تحفل به المصادر التى تعرضت لهم من أسماء الشعراء والخطباء منهم . وهذا أبو العيزار يقول عنهم وهو يشير إلى أحد شهدائهم :

فثوى صريعاً والرماح تنوشه ... إن الشراة قصيرة الأعمـــار

أدباء إما جئتهم خطبـــاء ... ضمناء كل كتيبة جـــرّار[1]

ونحن لا ندهش بإزاء هذه الكثرة إذا ما رجعنا إلى عناصر الخوارج البشرية إذ كانت مزاجاً من عرب العراق وأكثرهم من البدو الذين فتحوا الأمصار واستوطنوها وجمهورهم من النزاريين ومن طائفة القراء المعروفة بفصاحتها وتشددها فى الدين ، فاجتمع للخوارج إذن فصاحة اللسان وقوة الأسلوب إلى جانب قوة المعانى المصطبغة بالمثل الأعلى للإيمان والعقيدة .

وكان تعدد فرقهم وكثرة حروبهم سبباً فى أن عدداً كبيراً منهم صاروا قادة وزعماء ولم يكن أليق لذلك من الشاعر أو الخطيب الذى يستطيع أن يؤثر فى أنصاره وأن يستثير حماستهم ليدفعهم إلى أهدافهم ، وقد كان لممارستهم الفعلية للنضال من أجل عقيدتهم أثر واضح فى أن شعرهم جاء مرآة صادقة لحياتهم وصدى حقيقياً لما اشتملت عليه نفوسهم ، كما كان لكل ذلك أثر فى أن شعرهم لم يتمايز كثيراً فى صياغته فجاء وكأنه صور متعددة لنمط واحد ، وما ذاك إلا لتشابه شخصياتهم الفنية نتيجة لتشابه حياتهم وصدورهم عن عقيدة واحدة فنوا فيها وإيمان مشترك تشبثوا به ولم يشتغلوا بسواه .

وهو تشابه لم يصل إلى حد التماثل التام وقد كان ذلك سبباً فى أن أشكلت على الرواة نسبة كثير من شعرهم إلى أصحابه الحقيقيين كما مربنا فى شأن مقطوعة

---

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣٠٩

يوم دولاب التى اختلف فى نسبتها بين خمسة من شعراء الخوارج . وحقًّا للرواة عذرهم فى هذا التحير والاختلاف فشخصياتهم الفنية تكاد تتماثل فى صياغة شعرهم وهى صياغة تظهر أنهم إنما كانوا ينهلون من منبع واحد لا فرق فى ذلك بين شعرائهم وخطبائهم كما هو واضح فى قصيدة عمرو بن الحصين ومحاكاته فيها لخطبة أبى حمزة الإباضى ، والطريف أن أبا الفرج يتحير فى نسبة هذه القصيدة أيضاً فنسبها طورًا لعمرو بن الحصين وطوراً لشاعر آخر يدعى الحسن العنبرى[١] .

وعلى الرغم من أن شعرهم يصطبغ بلون شخصى قوى نحس فيه شخصية صاحبة كأقوى ما يمكن أن تحس شخصية الشاعر ، إلا أن هذه الشخصيات لا تتمايز لاستوائها جميعاً فى القوة والاستقلال والاعتداد نتيجة لالتفافها جميعاً حول مبادئ مجردة عن التعلق بأهواء أو بأشخاص والتفافها جميعاً إلى نفسها ودوران شعرها حول محور الذات وتصوير إيمانها والفخر بتضحياتها وانتصاراتها .

لما كان شعرهم وحى جهادهم حتى لتذهب كثرته الكثيرة فى تصوير حروبهم ومجد أبطالهم وشجاعتهم واستعذاب الموت والتضحية فى سبيل عقيدتهم، فإننا نجد الشعراء يكثرون فى الفرق التى عرفت بكثرة حروبها ، فبينما ينتمى جمهور شعراء الخوارج إلى فرقتى الأزارقة والصفرية وهما فرقتان شهرتا بالنضال الحربى لا نجد للإباضية غير عمرو بن الحصين ونكاد لا نجد من الشعراء من ينتمى لفرقة النجدات غير عبد الله بن الحجاج .

وعلى الرغم من تنقل عبدالله بن الحجاج الثعلبى بين الفرق المختلفة فقد كان إخلاصه لمذهب الخوارج شديداً ، وتذكر الروايات أنه كان من الذين تابعوا عمرو بن سعيد فى خروجه على عبدالملك بن مروان فلما قتل عمرو خرج مع نجدة الحنفى ثم هرب بعد سقوط النجدات حتى ضاقت عليه الأرض من شدة الطلب حتى ليقول فى ذلك:

رأيت بلاد الله وهى عريضة ... على الخائف المطرود كفة حابل
تؤدى إليه أن كل ثنية ... تيممها ترمى إليه بقاتل[٢]

---

(١) الأغانى جـ ٢٠ ص ١١١

(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٦

وقد لجأ إلى أحيح بن خالد بن عقبة بن أبي معيط فدلّ عليه فحبس ، وندد من محبسه بمضيفه الذى استجاره فدلّ عليه ، وفخر على بنى أمية فى قوله :

فإنى ذو غنى وكريم قـــوم ... وفى الأكفاء ذو وجه عريض
غلبت بنى أبى العاصى سماحاً ... وفى الحرب المذكرة العضوض
خرجت عليهمُ فى كل يـــوم ... خروج القدح من كف المفيض[1]

وقد أتيح له أن يخرج من السجن فلحق بابن الزبير وظل معه حتى قتل . وقد انتهى به المطاف إلى عبد الملك فاستتابه من ولائه لمعارضيه فتاب ، وندد بهم جميعاً فيما عدا الخوارج إذ فخر بانتصار عبد الملك على الزبيرين الذين كان من شيعتهم كما فخر بانتصاره على الشيعة أيضاً[2] .

وقد مر فى حديثنا عن الأزارقة ذكر كثير من شعرائهم كيزيد بن حبناء وعمرو القنا وعبيدة بن هلال اليشكرى والصلت بن مرة وزيد بن جندب وسبرة ابن الجعد وقطرى بن الفجاءة . وجدير بالذكر أن هؤلاء جميعاً كانوا من قادة الخوارج فى الحرب ولهذا فقد نجحوا فى التعبير عن مشاعرهم تعبيراً حارًّا وصادقاً ومتشابهاً إلى حد بعيد .

١

ولا ريب فى أن أبرز شعراء الأزارقة على الإطلاق هو قطرى بن الفجاءة[3] فقد كان فارساً وقائداً من أعظم قادتهم ، وكان أديباً من أبرز أدبائهم وهو

---

(١) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٧

(٢) الأغانى جـ ١٢ ص ٢٦

(٣) انظر فى ترجمته : وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥١٧ الملل والنحل جـ ١ ص ١٨٣ ، والشذرات جـ ١ ص ٨٦ ، أمالى المرتضى جـ١ ص ٦٣٧ ، وفهارس الكامل والخزانة جـ ٤ ص٢٥٠ ، والفرق بين الفرق ص ٦٥ — ٦٦ ، وديوان الحماسة جـ ١ ص ٤٩ ، جـ ٢ ص ١١١ ، وفتوح البلدان ٤٠٣ ، مروج الذهب جـ ٣ ص١٣٨ .

لهذا أدق صورة للخارجي في العصر الأموى ، بل إنه فى إعتقادنا يعد أصدق صورة للفارس العربى المسلم فى القرن الأول الهجرى .

وقد حظيت شخصية قطرى بشهرة لم تتح لكثير من الخوارج ، كما ظفرت أبياته القليلة التى حفظت لنا بشهرة لم تظفر بها أبيات شاعر خارجى غيره .

وتكاد شخصيته أن تكون مجهولة تاريخياً قبل توليه إمامة الخوارج وقيادتهم ، ولا نجد من أخباره قبل ذلك إلا ما رواه البلاذرى من أنه قدم سجستان مع صاحب شرطتها عبّاد بن الحصين الحبطى ضمن جماعة من الأشراف فى الفترة الواقعة بين سنتى ٤٢ ، ٤٤ للهجرة والمرجح أنه كان شاباً فى هذا التاريخ ، وهو تاريخ يسبق توليه أمر الخوارج بخمسة وعشرين عاماً ، فقام بها نحوا من ثمان سنوات .

وهكذا لانكاد نعرف عن نشأته شيئاً إلا أنه من أشراف مازن من تميم ، وليس أدل على أن شخصيته كانت مجهولة قبل توليه أمر الخوارج من أننا لا نستطيع معرفة اسمه الحقيقى ويذهب ابن خلكان فى ترجمته إلى أن قطرياً ليس اسمه وإنما هو نسبة إلى موضع بشاطئ الخليج بين البحرين وعمان هو اسم بلد كان منه أبوه .

وكانت مازن تنزل شواطئ الخليج الفارسى مما يلى البصرة والبحرين ، كما يذهب المسعودى إلى أن الفجاءة أمه وأنها شيبانية ، وهو لايعرف بغير هذه النسبة إلى بلده والانتساب إلى أمه ، وليس هناك من الأخبار ما يظهر سبب ذلك .

وتبدأ أخبار قطرى تعرف طريقها إلينا منذ سنة ٦٨ ه عندما كان الأزارقة يعانون حرباً ضروساً من عدوين مختلفين : الأمويين بيد ممثلهم فى العراق عتاب بن ورقاء التميمى ، والزبيريين بيد مصعب بن الزبير والى العراق لأخيه عبد الله ورجاله ، وقد قاتلهم جيش الزبيريين بقيادة عمر بن عبيد الله ابن معمر فى سابور فلاذوا بكرمان حيث زحفوا منها إلى البصرة فتلقاهم مصعب بنفسه فانحرفوا ناحية الكوفة فى طريقهم إلى المدائن فخرج القباع والى الكوفة

للقائهم فعادوا ينحرفون ناحية البصرة ، ومن هناك اتجهوا ضاربين فى جبال ميديا حتى دخلوا الرى ، وهموا بدخول أصفهان ولكن عتاب بن ورقاء صدهم عنها وقتل أميرهم الزبير بن على ، وشجت رأس قطرى فى هذه المعركة ونصب فى أعقابها إماما للخوارج ، ولم يستحق قطرى هذا الشرف إلا بمكانته الحربية وبجهاده المخلص ، ولولا هذا لما كان يبلغ أن يكون إماماً وقائداً لأعنف فرقة دينية فى تاريخ الإسلام .

تاريخ حياة ابن الفجاءة ليس إلا مرحلة من تاريخ الأزارقة ، فلا نكاد نعرف عنه بعد ذلك إلا ما نعرفه من تاريخهم فى تلك الحقبة . ولاريب فى أن شجاعته ومهارته ومعرفته بأرض فارس معرفة دقيقة قد هيأته لذلك كما مكنته من الصمود أمام أعدائه مدة ثمان سنوات ظل يقذفهم خلالها من هناك حتى جأروا بالشكوى إلى مصعب وطالبوه بأن يرمى الأزارقة بالمهلب واستجاب لهم وتصدى المهلب لحربهم ثمانية أشهر قبل وقوع معركة مسكن بين عبدالملك ومصعب ثم حاربهم المهلب من بعد لحساب عبدالملك ، واستطاع قطرى أن يقود الأزارقة إلى النصر مراراً وأن يدق أبواب البصرة مراراً وأن يهزم كثيراً من جيوش الأمويين هزائم منكرة من مثل ما فعله بجيش خالد بن عبد الله ، ابن خالد بن أسيد والى البصرة الذى تولى حرب الأزارقة بعد المهلب وبجيش أخيه عبد العزيز ، كما نجح فى أن يعمل بتنسيق حربى متضامناً مع النجدات بزعامة أبى فديك مما مكنهم من بسط نفوذهم على منطقة الأهواز كلها من جديد حتى بلغوا فرات ميسان فى مواجهة البصرة يترقبون ، ويعزل عبد الملك خالداً عن البصرة بعجزه عن مواجهة الخوارج ويجعل البصرة تابعة لأخيه بشر بن مروان والى الكوفة ، ولكنه يعجز أيضاً فيما عجز فيه سلفه ، وتخفق حملته على الأزارقة فى جلولاء إخفاقاً مخجلا ، ويضطر عبد الملك بإزاء هذا إلى أن يعهد إلى المهلب بحربهم من جديد ، وينجح المهلب فى كشف الأزارقة عن الفرات وأن يطاردهم حتى بلغوا الجبال ، وما كاد أهل العراق تبلغهم وفاة بشر حتى عادوا أدراجهم إلى بلدهم . وقد ولى الحجاج العراق بعد وفاة بشر

ولقى صعوبات جمة فى رد الفارين من أهل العراق إلى مواجهة قطرى حتى استعمل العنف فى ذلك وقتل بعض الممتنعين وما ذاك إلا لشدة قتال الأزارقة .

وقد أهم الحجاج أمر قطرى فجعل يطلب مسالمته ويهدده فى رسائله إليه من مثل هذه الرسالة التى يرويها المبرد هكذا :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من الحجاج بن يوسف إلى قطرى بن الفجاءة. سلام عليك ، الموحد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السلام ، أما بعد ، فإنك كنت أعرابيًّا بدويًّا تستطعم الكسرة ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فارجع عما أنت عليه بمازين لك ، وادعنى فقد آن لك »[١]

ولم يجد التهديد ، ولم يرهب قطرى وعيد الحجاج ، وأرسل إليه رسالة يرد فيها عليه ، تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من قطرى بن الفجاءة إلى الحجاج بن يوسف ، سلام على من اتبع الهدى ، ذكرت فى كتابك أنى كنت بدويًّا أستطعم الكسرة وأبدر إلى التمرة ، وبالله لقد قلت زوراً ، بل الله بصرنى من دينه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضلالة ، غرق فى غمرات الكفر ، وذكرت أن الضرورة طالت بى فهلا برز لى من حزبك من نال الشبع ، واتكأ فاتدع ، أما والله لئن أبرز الله لى صفحتك ، وأظهر لى صلعتك لتنكرن شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليست كتسطير الأمثال»[٢] ، ولكن مقارعة الأبطال كانت كتسطير الأمثال لدى قطرى بن الفجاءة وضاق الحجاج بكتابه ، كما ضاق بمقارعته المهلب قراعاً لايبدو أنه سينتهى ، حتى قدم الحجاج بنفسه إلى الميدان ودفع المهلب إلى مطاردة الخوارج الذين زحفوا إلى فارس فتبعهم المهلب إلى أرجان ثم السروان واستمر يقاتلهم أكثر من عام انسحب بعده الخوارج إلى كرمان ، وطاردهم المهلب حتى ألجأهم إلى جيرفت . وسأل الحجاج رسول

---

(١) الكامل ج ١ ص ١٨٠

(٢) نفس الموضع .

المهلب إليه بالظفر كيف أفلت قطرى منهم فأجاب بأنهم كادوه فتحول عن منزله ظنًّا منه أنه يكيدهم وأنهم لم يتبعوه لأن الليل حال بينهم وبينه .

وكان على المهلب أن يقضى عاماً ونصف عام حتى يقهر الأزارقة تماماً ، ولكن الحجاج مالبث أن ضاق بإبطائه ذرعاً فاستحثه كثيراً على الانتهاء وكان يرسل إليه الرسول تلو الرسول يحضه على مناجزتهم فيشهدهم القتال لكى يعودوا إلى الحجاج معتذرين عنه بقسوة قتال قطرى وجماعته .

ولكن الفرصة سنحت للمهلب فتمكن من الوصول إلى غرضه بالحيلة مستغلا شغب بعض الأزارقة وكان جمهورهم من الموالى على قطرى بسبب وقوفه مخلصاً إلى جانب بعض أتباعه المتهمين بقتل رجل ، وتبريره فعلهم بأن قتل رجل فى صلاح الناس غير منكر ، وأن للإمام أن يحكم بما يراه صالحاً وليس للرعية أن تعترض عليه .

ووجدت دسائس المهلب ووشاياته سبيلا إلى الشاغبين حتى انقسم الأزارقة قسمين انحاز بأكبرهما عبد ربه الصغير فانتحى فيهم ناحية يدعوهم إلى الانضمام إليه والانفضاض عن قطرى حتى تركوه فى قلة قليلة . وبدأ القتال بين الحزبين والمهلب يترقب متربصاً بهما جميعاً ، وشعر بعض الأزارقة بخطورة الموقف وحاولوا جمع الكلمة ونقل القتال إلى جيش المهلب المتربص ، ولكنهم فشلوا فى ذلك واستمر القتال بين حزب عبد ربه وحزب قطرى شهرا نجح بعده عبدربه فى إخراج قطرى فيمن تبعه من جيرفت ، فخندق قطرى وأتباعه على بابها قليلا ثم سار بهم فى اتجاه طبرستان ، فأنفذ إليه الحجاج جيشاً شاميًّا يقوده سفيان بن الأبرد الكلبى الذى قضى على شبيب وجنده الصفريين من قبل ، وخف لمؤازرته أهل الكوفة وأهل الرى وساروا جميعاً يطلبون قطريًّا فى شعاب طبرستان حتى لحقوا به ودارت معركة عنيفة انجلت عن مقتله بعد أن تفرق عنه أصحابه واحتز رأسه وحمل إلى الحجاج حيث ادعى أكثر من ثلاثة رجال قتله ، ثم أرسل الرأس إلى عبد الملك ، ويصور الطبرى نهاية قطرى تصويراً مؤثراً وقد انفض عنه صحبه ثم تركه خلصاؤه يهيم فى شعاب طبرستان لا يجد شربة ماء يطفىء

بها غليل عطشه وحتى يساومه بعض علوج طبرستان على شربة ماء فيقبض فرسه ثمناً لها[١] .

وتختلف الروايات فى تاريخ وفاته بين سنتى ٧٧ ، ٧٩ هـ ، ويبدو من مراجعة الروايات التى عنيت بحروب المهلب للأزارقة بعد تولى الحجاج العراق سنة ٧٥ هـ أنه قضى عاماً حتى أجلاهم عن فارس إلى جيرفت بكرمان وأنه ظل يقاتلهم بعد ذلك عاما ونصف عام حتى قضى عليهم فيكون معنى هذا أن وفاة قطرى كانت سنة ٧٨ هـ على التحديد .

وإذا تتبعنا أشعار قطرى فى مظانها لوجدناها قليلة بحيث لا تتفق وكثرة الأحداث التى عاشها وعاناها ، ويكاد يكون شعره كله شعر جهاد دينى حماسى ، وقد روى له أبو تمام ثلاث مقطوعات لا تتجاوز جميعها أربعة عشر بيتاً ، كما روى له المسعودى فى مروجه قصيدة من أحد عشر بيتاً ، وروى له البحترى فى حماسته بيتاً واحد ، كما روى له أبو الفرج والمبرد قصيدة فى أم حكيم عن وقعة دولاب بروايات مختلفة ، كما رويت له قطع قصيرة من بيتين أو أبيات مفردة فى مناسباتها كالذى يرويه الطبرى وصاحب الخزانة ، وعلى الرغم من قلة ما وصل إلينا من شعره فهو قادر على أن يصور لنا بعض ملامحه وملامح شاعريته .

وأول ما نعرض له من شعره قصيدته يوم دولاب التى حار الرواة فى نسبتها إليه أو إلى غيره من الشعراء الخوارج واختلفوا فى روايتها كما قدمنا اختلافاً دلنا على أنه كانت هناك قصيدتان فى هذا الوزن وتلك القافية على اختلاف فى حركة الروى وأن أبيات الروايتين تداخلتا وهماً من الرواة لاتفاقهما فى الوزن والقافية والموضوع ولذكر أم حكيم فى كل منهما .

وقد رجح أبو الفرج والمبرد أنها له وهو الصحيح بدليل ما فى الأبيات من غزل بأم حكيم التى إن لم يكن لدينا نص صريح يفيد أنها زوجته إلا أننا لا نعرف أحداً من الخوارج اقترن اسمه بها غيره ، كما أنه ليس لأحد من

---

(١) الطبرى جـ ٧ ص٢٧٢ .

الخوارج غزل فى غير حليلته ، والأبيات بغض النظر عن كل هذا أشبه ماتكون بشعر قطرى وبروحه .

وقد استهلها بإعلان حبه لها وبأن حبها هو الشىء الوحيد الذى يشده إلى الحياة ويجعله متعلقاً بالعيش فيها ثم أخذ فى وصفها بأنها لم ير مثلها فى خفرها وحسنها الذى يذهب بسقم السقيم ويقود ذا البث إلى الشفاء ، ثم كشف قطرى عن خلة من خلل الفرسان فيه وهى احترام المرأة والحرص على معاملتها معاملة رقيقة فى قوله :

لعمرك أنى يوم ألطم وجهها ... على نائبات الدهر جد لئيم[1]

وهو فى غزله يصور حباً قوياً لفارس شجاع مؤمن بواجبه غير باخل بنفسه فى سبيل ما آمن به فإذا هو يزهد إلى امرأته بطعانه وفتونه وفعله بأعداء عقيدته من إغراقهم والتنكيل بهم فيرسم لذلك صوراً معجبة ممزوجة بالاستهانة بهم والتحقير لشأنهم وهو يرى شيوخهم وقد طفوا على الماء وأخذ بعضهم يحاول النجاة سباحة دون جدوى بينما لم يجد البعض الآخر مناصاً من الفرار نحو ديارهم ، فلم يكن هناك يوم أقسى على العدو من ذلك اليوم الذى سالت فيها الدماء بغزارة ، وضربت فيه العقائل خدودهن على فتيان كرام أعزاء ، لاقوا حتفهم بدولاب ولم تكن أرض دولاب لهم موطناً ، وماذاك إلا لأنهم كفار لا حرمة لهم ولأنهم جرءوا على التصدى لأولئك الفتية من الأزارقة الذين باعوا الإله نفوسهم لقاء جناته ونعيمه ، فيقول :

ولو شهدتنى يوم دولاب أبصرت ... طعان فتى فى الحرب غير ذميم

غداة طفت علماء بكر بن وائل ... وآلافها من حمير وسليم

ومال الحجازيون نحو بلادهم ... وعجنا صدور الخيل نحو تميم

فلم أر يوماً كان أكثر مقعصاً ... يمج دماً من فائظ وكليم

وضاربة خدا كريماً على فتى ... أعز نجيب الأمهات كريم

أصيب بدولاب ولم تك موطناً ... له أرض دولاب ودير حميم

(١) الأغانى ج ٦ ص ٥ ، الكامل ج ٢ ص ١٨٢

فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنـــا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعـــيم[١]

وقد تدعو إشاراته إلى القبائل بأسمائها إلى ظن البعض بعصبيته وعدم تجرده عن الإحساس بالقبلية ، ولكن الحقيقة أنه تجرد عن هذا الإحساس الضيق تجردًا تامًّا وليس أدل على هذا التجرد من فخره على قبيلته ذاتها فى قوله :

* وعجنا صدور الخيل نحو تميم *

ويذهب كل مابين أيدينا من شعر قطرى فى الحماسة ووصف الحرب والجهاد والتسليم بحتمية الموت والزهد فى الحياة الذليلة .

وقد روى له أبو تمام ثلاث مقطعات فى حماسته ، وقد عنى قطرى فى إحداها بمناقشة فكرة الموت فيما بينه وبين نفسه معنيًّا بحضها على الصبر والثبات والتسليم بحتمية الموت الموقوت بأجل لايعدوه بحال من الأحوال ، فليس الخلود متاحاً لمخلوق ولا طول البقاء مما يجب أن يحرص عليه المرء إذ ليس من إمارات العزة وإلا لطال بقاء الجبناء وكان الخانعون أطول الناس أعمارا ، والموت آخر المطاف ، ونهاية كل حى ، لا يفلت منه أحد ، ومن لم يمت عبطة يمت هرماً بعد أن يفنى رفاقه وأحباؤه ويخلفوه وحيداً غريباً سئما. فحياته لا وزن لها ولا قدر والموت خير دون شك من مثل هذه الحياة .

وقطرى يحدث نفسه على هذه الصورة مبرهناً لها بالأدلة القاطعة على سخافة شعورها بالخوف وقلة غنائه فيما تريده من بقاء وكأنه يكشف لنا عما بداخلها من التعلق بالحياة مما يضفى على مشاعره واقعية إنسانية ملحوظة كما يبدو فى الأبيات :

أقول لها وقد طارت شعاعـــا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يـــــوم على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرًا فى مجال الموت صبرا فما نيل الخلـــود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عـــز فيطوى عن أخى الخنع اليراع

---

(١) الأغانى جـ ٦ ص ٥ ، الكامل جـ ٢ ص ١٨٢

سبيل الموت غاية كل حيّ — فداعيه لأهل الأرض داعى
ومن لا يعتبط يسأم ويهرم — وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير فى حياة — إذا ماعد من سقط المتاع[١]

ويستهل قطرى المقطوعة الثانية التى يرويها له أبو تمام بحض رفاقه على الإقدام واطراح الإحجام والتردد والخوف من مواجهة الموت ، ثم ينطلق إلى الفخر بثباته حتى لكأنه دريئة للرماح التى تتعاوره من كل صوب ، ولا يكاد يأبه للدماء تتحدر منه فتخضب أكناف سرجه وعنان فرسه غير متضعضع حتى يكون له الظفر فينصرف موفوراً من غير سوء والمقطوعة أربعة أبيات فحسب ونعتقد أنها كانت أطول من ذلك بدليل أن صاحب الخزانة يروى له بيتين يتابع فيهما وصف هيئته فى الميدان مصوراً كيف يتعرض للموت داعياً الكماة إلى النزال ، مؤمناً بأن نحر الكريم ليس محرماً على القنا ، والبيتان أشبه بأن يتوسطا هذه المقطوعة على هذا النحو :

لا يركنن أحد إلى الإحجام — يوم الوغى متخوفاً لحمام
فلقد أرانى للرماح دريئة — من عن يمينى مرة وأمامى[٢]
متعرضاً للموت أضرب معلماً — شهم الحروب مشهر الأعلام
أدعو الكماة إلى النزال ولا أرى — نحر الكريم على القنا بحرام[٣]
حتى خضبت بما تحدر من دمى — أكناف سرجى أوعنان لجامى
ثم انصرفت وقد أصبت ولم أصب — جذع البصيرة قارح الإقدام[٤]

ويستطيل هذا الفخر لدى قطرى حتى يبلغ مبلغ التحدى كما نرى فى البيتين اللذين يرويهما له أبو تمام وفيهما نبرة تعال واضحة إذ يقول :

ألا أيها الباغى البراز تقربن — أساقك بالموت الزعافَ المقشبا

---

(١) حماسة أبي تمام جـ ١ ص ٤٩ والشذرات جـ ١ ص ٨٦

(٢) الحماسة جـ ١ ص ٣٥

(٣) خزانة الأدب جـ ٤ ص ٢٥٧

(٤) الحماسة جـ ١ ص ٣٥

فما فى تساقى الموت فى الحرب سبة على شاربيه فاسقنى منه واشربا[١]

ولقطرى أبيات أخرى مفرقة تذهب كلها فى الحماسة وتصوير الحروب ، والفخر بفعاله فيها أو فى تحضيض القاعدين من الخوارج مثل مادعا به أباخالد القنانى فى قوله :

أبا خالد يا انفر فلست بخالــد وما جعل الرحمن عذرًا لقاعد
أتزعم أن الخارجى على الهــدى وأنت مقيم بين لص وجاحد[٢]

وواضح فى البيتين أنه يلوم أبا خالد وكان ممن رأوا القعود وأبوا حمل السلاح تعلقاً بالحياة وإشفاقاً على بناتهم وأبنائهم ، وهو هنا يدفعه إلى أن يخرج عن ديار الجاحدين الباغين وعلى الرغم من هذا الاختلاف بينهما فى الرأى فإنه لايبلغ بقطرى حد الهجاء وإنما يقتصر على اللوم وإخلاص النصيحة والإقناع حتى ليكاد شعره فى هذا السبيل يقطر تعاطفاً وتراحماً قويين من مثل قوله لسبرة ابن الجعد الذى نكل عن مذهب الخوارج وصار سميراً للحجاج الثقفى :

فإن الذى قدنلت يفنى وإنما حياتك فى الدنيا كوقعة طائر
فراجع أبا جعد ولاتك مغضبًا على ظلمة أعشت جميع النواظر
وتب توبة تهدى إليك شهادة فإنك ذو ذنب ولست بكافر
وسر نحونا تاق الجهاد غنيمــة تفدك ابتياعا رابحاً غير خاسر
هى الغاية القصوى الرغيب ثوابها إذا نال فى الدنيا الغنى كل تاجر[٣]

فعلى الرغم من أن الإيمان لديه لا يستقيم دون الجهاد ، وأن أبا خالد قد قعد عن نصرة مذهبه تعلقاً بالحياة ، بينما التوى سبرة عن طريق الخوارج تماما واتخذ أعداءهم أولياء فإن نغمة لومه لهما لا ترتفع إلى القذف أو الإقذاع إذ هم جميعاً أصحاب مقالة واحدة آخر المطاف . ولذلك شاع فى الأبيات روح التعاطف حتى يرق أسلوبه رقة واضحة ويخفت الانفعال الغاضب حتى ليكاد يتلاشى لتحل محله رغبة صادقة فى الإقناع الهادئ المخلص .

---

(١) الحماسة ج ١ ص ٢٨١ .
(٢) الكامل ص ٥٢٩
(٣) مروج الذهب ج ٣ ص ١٨٣ .

هذه هى صورة قطرى بن الفجاءة الشاعر لاتفترق فى شىء عن صورته فى التاريخ بل لاتكاد تفترق عن تاريخ فرقته التى آمن بمقولاتها فى شىء وهو بهذا إنما يمثل طائفة بعينها من الخوارج لا يمثلها غيره ، وهى تلك الطائفة المتشددة فى إيمانها والتى لا يستقيم الإيمان فى اعتقادها دون الجهاد الموصل إلى الجنة .

٢

ويمثل عمران بن حطان[١] فئة أخرى من الخوارج تختلف عن تلك التى يمثلها قطرى وهى وإن كانت فئة مؤمنة وشديدة الإيمان فى عقيدتها إلا أنها لم تقو على القتال لظروف مختلفة ، ففصلت فى اعتقادها بين الإيمان والجهاد ولم تر الثانى شرطاً لتمام الأول كما اعتقد الأزارقة ، فاستحقوا أن يعرفوا بمرجئة الخوارج .

وكان عمران رأس هؤلاء القعد من الصفرية وفقيههم وخطيبهم وشاعرهم وقد تميزت حياته أول الأمر بأنه فقيه ومحدث على مذهب الجماعة ، كما كان خطيباً يروع من يستمعون إليه فى عصر زياد[٢] ولكن ذلك كان قبل أن يدخل فى مقالة الخوارج كما يظهر فى قول أبى الفرج عنه من أنه كان قبل أن يفتن بالشراة مشتهراً بطلب العلم والحديث حتى بلى بهذا المذهب ، فضلّ وهلك لعنه الله[٣] .

وبسبب تشريه وتعرضه للعنة من أجل عقيدته تعرضت أخبار حياته أيضاً للضياع والنكران ، فنحن لا نعرف تاريخاً لمولده وكل ما نعلمه عنه أنه سدوسى من شيبان وأن نسبه ينتهى إلى ذهل بن ثعلبة بن وائل وأنه كان يكنى أبا سماك

---

(١) انظر فى ترجمته : أغانى (الساسى) جـ ١٦ ص ١٤٦ ، والكامل ص ٥٣٠ ، والإصابة جـ ٥ ١٨١ والخزانة جـ ٢ ص ٤٣٦ ، والاشتقاق ص ٣٥٣ وهامش أمالى المرتضى ص ٦٣٥ والبيان والتبيين جـ ١ ص ١١٨

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ١١٨

(٣) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٢

وقد نشأ فى البصرة وعاش بها قبل تشريه ، معروفاً بطلب العلم والحديث ، يروى عن عائشة وأبى موسى وابن عباس وابن عمر مما يقطع بأنه ارتحل إلى الحجاز فى طلب الرواية ، وإن لم يكن فى أخباره ما ينص على ذلك ، إذ أن السيدة عائشة لم تبرح الحجاز قبل الجمل ، وأيضًا فقد عاش ابن عمر أكثر عمره معتزلا فى الحجاز . ويبدو من أخباره أنه كان عدلا فى روايته متحريًا الصدق[١] ، ومشهورا بالرواية الوثيقة حتى ليشهد له بذلك عبد الملك بن مروان نفسه[٢] .

وكذلك فقد شهر بالدهاء والمعرفة بالشعر والفقه وبأن له مسائل كثيرة من أبواب العلم فى القرآن والآثار فى السير والسنن وفى الغريب والشعر[٣] وتصوره الأخبار منذ نشأته إلى شيخوخته فقيها من أهل السنة يعتنق مذهب الخوارج فجأة فإذا هو رئيس فئة منهم وشاعرها وخطيبها وصاحب فتياها .

وتروى فى سبب تشريه روايتان تظهران اعتناقه لمقالة الخوارج أمرًا غير متوقع وأولاهما تقول إنه تزوج ابنة عمه جمرة الخارجية بغية أن يردها عن مذهب الشراة فإذا هى ترده عن مذهب الجماعة ، بينما تذهب الأخرى إلى أنه كان معنيا برد الناس عن أهوائهم ، وأنه جادل حروريًّا فى مجلس فإذا هو يصبح فى نفس المجلس خارجيًّا[٤] .

ونحن نميل إلى الرواية الأولى ونرجح أن زوجه هى التى أغوته وأدخلته فى زمرة الخوارج وأن ذلك لم يكن فى شيخوخته كما يفهم من الروايتين السابقتين وإن لم يكن فى شبابه أيضاً .

ولعل السبب فى محاولة التأخر بتاريخ تشريه يرجع إلى أصحاب الحديث الذين حرصوا إزاء اضطرارهم إلى الأخذ عنه ثقة به على أن يقلصوا الفترة التى عاشها شارياً كما حرصوا على الاعتذار عن أخذهم عنه بأنه لم يمت قبل أن يرجع عن مذهب الخوارج[٥] .

(١) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ١٢٧ . (٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٤
(٣) الكامل ٥٩٥
(٤) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٨
(٥) تهذيب التهذيب ج ٨ ص ١٢٧

وأقرب إلى طبيعة الأمور أن يتعلق عمران بابنة عمه ويقال إنها كانت ذات جمال وأن يستجيب إلى تأثيرها عليه إذ كان قبيحاً دميما ، حتى إنه ليروى أنها قالت له يوماً « أنا وأنت فى الجنة » قال : « ومن أين علمت ذلك ؟ » قالت « لأنك أعطيت مثلى فشكرت وابتليت بمثلك فصبرت والشاكر والصابر الجنة »[١] .

ويبدو أنها كانت ذات عقل وخلق ، وهى التى يقول فيها :

يا جمرانى على ما كان من خلقى … مثن بخلات صدق كلها فيك
الله يعلم أنى لم أقل كذبـــاً … فيما علمت وأنى لا أزكيك[٢]

وقد تعمقته مقالة الخوارج حتى أصبحت جزءاً من نفسه ، وأضحى يعيش لها وبها ويشيد بأصحابها حتى بمن قتل منهم علىّ بن أبى طالب فى قوله :

يا ضربة من تقى ما أراد بهـا … إلا ليبلغ من ذى العرش رضوانا
إنى لأفكر فيه ثم أحسبـــه … أوفى البرية عند الله ميزانـا
لله در المرادى الذى سفكت … كفاه مهجة شر الخلق إنسانا
أمسى عشية غشاه بضربتـه … مما جناه من الآثام عريانـا[٣]

ونراه يتأثر تأثرًا بالغًا حين قتل أبو بلال مرداس بن أدية سنة ٦١ هـ حتى ليفكر إثر ذلك فى الخروج ويهم بحمل السلاح كارهًا أن يموت على فراشه متمنيًا الموت فى قوله :

لقد زاد الحياة إلى بغضـا … وحبـا للخروج أبو بـلال
أحاذر أن أموت على فراشى … وأرجو الموت تحت ذرى العوالى
ولو أنى علمت بأن حتفـى … كحتف أبى بلال لم أبال
فمن يك همه الدنيا فإنـى … لها والله رب البيت قالى[٤]

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص١٥٣
(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٣
(٣) مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٩٢
(٤) خزانة الأدب جـ ٢ ص٤٤٠

وقد ظلت ذكرى مرداس عالقة بنفسه طويلا ، وقد تغير كل شيء بعد ذهابه حتى لينكر عمران بعده كل من كان يعرفه ، يقول :

أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه ما الناس بعدك يا مرداس بالناس[1]

وكأن الناس جميعاً ماتوا بموته ، ولكنه على الرغم من ذلك لم يخرج وآثر القعود بل دعا إليه حتى عد رئيس قعد الصفرية .

ويبدو أن الذى قعد به هو حبه لزوجه جمرة إذ شغف بها شغفاً شديداً ، ولكن أبا الفرج يعالل ذلك علة أخرى فيذهب إلى أنه صار من القعد لطول عمره وعجزه عن حضور الحرب ، وكأنه يرى أن عمران اعتنق المذهب فى سن عالية والحقيقة أنه اعتنق المذهب قبل أن يكتهل ويصبح عاجزاً عن حمل السلاح . وإذا كان قد توفى على أرجح الأقوال سنة ٨٤ هـ فإنه يكون قادراً على الخروج أثر وفاة مرداس سنة ٦١ هـ وقد هم بذلك كما تفيدنا الأبيات السابقة ، ونحن نميل إلى أن إيثاره القعود كان بسبب هذا الحب الشديد لزوجه .

وكأنما كان يتنازع عواطفه نداءان قويان ، يدعوه أولهما إلى اقتفاء آثار أبى بلال مرداس الذى يعد رأس كل حرورى والذى اتخذه عمران إماماً ومثالا ، فيدفع بنفسه إلى الخروج مبغضاً الحياة راجياً الموت تحت ذرا العوالى بينما يدعوه حبه لجمرة وجمالها الذى كان يزين الحياة فى عينيه إلى التمسك بأهداب الحياة والعدول عن الخروج إلى القعود .

وواضح أن النداء الثانى كان أعلى صوتاً وأشد نفاذاً إلى قلبه حتى تغلب فى نفسه على نداء المثل الأعلى . ولاشك أن هذا الصراع قد أثر على نظرة عمران إلى الوجود فمنح فكره بعداً فلسفياً لا نجده عند غيره من شعراء الخوارج وظهر أثر ذلك على شعره فيما يمسح عليه من الأسى والحزن والتأمل .

وهكذا يبدو قعوده أمراً قد أكره عليه ولم يتخيره ، وهذا يفسر لنا ما يمكن أن يدعى تناقضاً بين قوله وفعله ، فقد قعد ولكنه مضى فى نفس الوقت يعبر

---

(١) نفس المرجع .

عن كراهيته للحياة ويذكر أنها عبء ثقيل كما مضى يحسن لغيره الخروج ويزينه .

وتمادى عمران فى ذلك لعهد الحجاج وكان ذلك أثناء الحرب العنيفة التى قادها شبيب ضد الدولة ، ولا يبعد أن يكون عمران قد مضى يحرض الناس على الانضمام إلى شبيب كما يبدو فى شكوى الحجاج منه إلى عبد الملك فى كتاب إليه قال فيه : « إنه قد أفسد علىّ أهل العراق »[١]

ويذهب الجاحظ إلى أنه كان فى هذه الفترة صاحب فتيا الصفرية ومقرعهم عند اختلافهم[٢] وكان شبيب يلقى نصراً بعد نصر مما أحفظ الحجاج ودفعه إلى الانتقام من عمران وأشباهه فضيق عليه الخناق حتى أهدر الخليفة دمه ، وأخذ الحجاج يتعقبه لتنفيذ أمر الخليفة فيه .

وقد انتهز عمران فرصة نجاح شبيب وزوجه غزالة فى هجومهما على الكوفة فى بعض أصحابهما، وماكان من هلع الحجاج وانزوائه فى قصره ليسخر منه ويتهكم عليه ، فكتب إليه منددا باشتداده عليه وجبنه إزاءهما قائلا :

أسد علىّ وفى الحروب نعامة ربداء تنفر من صفير الصافر
هلا برزت إلى غزالة فى الضحى بل كان قلبك فى جناحى طائر
صدعت غزالة قلبه بفوارس تركت مدابره كأمس الدابر[٣]

وهو فى هذا التهكم إنما يتشفى منفسًا عما يلاقيه من بطش الحجاج وتعقبه وما إن يفرغ الحجاج من شبيب وغزاله سنة ٧٧هـ حتى يشتد فى طلب عمران ومنذ ذلك الحين تبدأ صفحة جديدة فى حياته أقرب إلى القصص والخيال ، إذ تذهب كلها فى وصف تنقله وخوفه وارتحاله ، فقد فر على وجهه من الحجاج ينتقل فى القبائل متخفياً ومنتسباً فى كل حى نسباً يقربه منه ، ومازال يتنقل فى العراق شاعرًا بمرارة الحياة وبما يحتمل فى سبيل عقيدته من خطوب

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٣

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٥٥

(٣) خزانة الأدب جـ ٢ ص ٤٤١

حتى ليخيل إلينا أنه لم يترك حيًّا دون أن ينزل به كما يصور ذلك قوله :

نزلنا فى بنى سعد بن زيـــد وفى عك وعامر عوتبـــان
وفى لخم وفى أود بن عمـــرو وفى بكر وحى بنى الفدان[1]

وكأن مطاردة الحجاج له قد سدت عليه السبل فى العراق فارتحل إلى الشام وانتهى إلى روح بين زنباع الجذامى أثير عبد الملك وسميره فانتسب إليه أزديًّا فأنزله منزلا آمناً نحو عام وبالغ فى إكرامه حتى توطدت بينهما أواصر صداقة عذبة لم يستطع روح أن يمسك لسانه عن التحدث عنها إلى عبدالملك فأخذ يذكر عنده صاحبه وحسن حديثه ، ويروى بعض أشعاره . وقد رأى عبد الملك فى حديث روح ما شككه فى أن صاحبه ليس إلا عمران بن حطان وحاول عبد الملك أن يتأكد من شكوكه فكلف روح بن زنباع أن يحمل إلى صديقه أبياتاً مشهورة يسأله عنها ويسأله أن يكملها ، ولم تكن تلك الأبيات غير أبيات لعمران نفسه قالها فى قاتل على ، ويبالغ عمران فى التقيه وفى التغرير بسائليه فيلعن قائل الأبيات كما يلعن قاتل على ويكمل الأبيات فى حذر من أن يكتشف أمره ، ولكن عبدالملك يطلب إلى روح أن يجيئه به ، وما إن تبلغ عمران الدعوة حتى يبادر صديقه بأن هذا ما كان يبغى وأنه سيتبعه إلى قصر الخليفة على الأثر ، وما إن ينصرف روح إلى عبد الملك حتى يرحل عمران مخلفاً لروح رقعة فيها هذه الأبيات :

ياروح كم من أخى مثوى نزلت به قد ظن ظنك من لخم وغسان
حتى إذا خفته فارقت منزلـــه من بعدما قيل عمران بن حطان
قد كنت ضيفك حولا لا تروعنى فيه الطوارق من أنس ولا جان
حتى أردت بى العظمى فأوحشنى ما أوحش الناس من خوف ابن مروان
فاعذر أخاك ، ابن زنباع ، فإن له فى الحادثات هنات ذات ألوان
يوما يمان إذا لاقيت ذا يمـــن وإن لقيت معدّيا فعدنـــانى

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٨ .

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت ذاك آيات مطهرة عند التلاوة فى طه وعمران[١]

ويمضى عمران حتى ينزل بزفر بن الحارث الكلابى زعيم القيسية فى قرقيسيا فينتسب له أوزاعيا ويتصادف أن يراه عنده رجل كان قد رآه من قبل عند روح ، ويبدو أن زفر كان متشككا هو الآخر فى أمره فسأل الرجل هل يعرفه ؟ فقال أزدى رأيته عند روح بن زنباع ، فحينئذ صاح زفر به يا هذا أزديًّا مرة وأوزاعيًّا أخرى ؟ إن كنت خائفاً أمناك وإن كنت فقيرًا جبرناك ، ولكن عمران غمغم بأن الله هو المغنى وهو يدبر فى نفسه أمرًا ، وما يحل المساء حتى يهرب عن منزل زفر مخلفاً له هو الآخر رقعة فيها مقطوعة بديعة يصور فيها غموض أمره على من نزل بهم ، ويذكر ما كان بينه وبين روح متحسراً على الأيام الآمنة التى قضاها فى كنفه محقراً سؤال زفر له عن نسبه مؤكداً أنه لن يترك صلاته والإطالة فيها مهما تعجب من طولها بنو عامر رهط زفر ، وهذه هى الأبيات :

إن التى أصبحت يعيا بها زفر أعيت عياء على روح بن زنباع
ما زال يسألنى حولا لأخبره والناس من بين مخدوع وخدّاع
حتى إذا انقطعت عنى وسائله كف السؤال ولم يولع باهلاعى
فاكفف كما كف عنى إننى رجل إما صميم وإما فقعة القـاع
واكفف لسانك عن لومى ومسألتى ماذا تريد إلى شيخ لأوزاع ؟
جاورتهم سنة فيما أسرّ به عرضى صحيح ونومى غير تهجاع[٢]

ويعود عمران مرة أخرى إلى حياة المطاردة والاضطراب ، فيرتحل إلى عمان وهناك وجد قوماً من الخوارج اطمأن إليهم فكشف لهم عن حقيقته وأخذ يثير الناس للخروج وللثورة على الحجاج الذى أهمه أمره واشتد فى طلبه ، ونراه على أثر ذلك يحث راحلته إلى اليمامة واضعاً ما آل إليه حاله على هذا النحو من الاستخفاف والاستهانة بقسوة ظروفه قائلا :

طيرونى من البلاد وقالوا مالك النصف من بنى حكام

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٤ (٢) الأغانى ج ١٦ ص ١٥٣

ناق سيرى قد جد خفًا بنا السـ ـير وكونى جوالة فى الزمـــام
فتى تلقنى يـــد الملك الأسـ ـود تستيقنى بأن لاتضامى
قد أرانى ولى من الحاكم النصـ ـف بحد السنان أو بالحسام(١)

ولكن الحجاج مايزال يلج فى طلبه حتى يضطر إلى الاستخفاء بقرية روزميسان بالقرب من الكوفة بين جماعة من الأزد حمد عشرتهم وإسماحهم لأنهم لم يلجئوه إلى أن ينتسب إليهم شأن من نزل بهم من قبل ، وهو لا يرى مبرراً للإلحاح فى السؤال عن النسب والعصبية ما دام الإسلام يربط بين أبنائه برباط وثيق ، يقول عمران :

نزلت بحمد الله فى خير منزل نسر بما فيه من الإنس والخفر
نزلت بقوم يجمع الله شملهم وليس لهم عود سوى المجد يعتصر
من الأزد إن الأزد أكرم أسرة يمانية طابوا إذا نسب البشر
فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر أتونى فقالوا من ربيعة أو مضر
أم الحى قحطان ؟ وتلك سفاهة كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهمـــا إلا يسرُّ بنسبة تقربنى منه وإن كان ذا نفر
ونحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر(٢)

وأقام عمران بقية عمره بين هذه الجماعة الأزدية حتى وافته المنية سنة ٨٤ هـ على الأرجح .

ومن عجب أن هذا الرجل الذى أقض مضجع الحجاج وأقلق عبد الملك على تلك الصورة لم يصل إلينا من شعره إلا قدر ضئيل ، فهل شغل بالخطابة التى شهر بها لعهد زياد عن الشعر ؟ فالجاحظ يذكر فى بيانه أن عمران كان يروع الناس بخطابته ولكننا لا نجد له شيئا من الخطب ولا يسع الدارس إلا أن يتساءل أمام قلة ما يلقاه من شعره : هل كان عمران مقلا؟ ونحن لانكاد نجد له من الشعر غير ما رواه أبو الفرج إلا القليل ولكن الذى يدفع عنه صفة

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٤

(٢) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٥ .

الإقلال أن مارواه أبو الفرج ذاته يبدو كأنه مبتور من قصائد طويلة كانت له .

ونحن لانشك فى أن كثرة شعره قد ضاعت أو على وجه الدقة قد ضُيِّعت كما ضيعت خطبه وأخبار حياته ، فهو فضلاعن أنه لا يمثل مذهب الجماعة ، فقد طعن على أئمة المسلمين من مثل عثمان وعلىّ ، واستحسن مقتل علىّ وأشاد بقاتله وصوب فعلته فاستحق من المؤرخين والدارسين القدامى أن يصفوه بالضلال والهلاك ، وأن يصبوا عليه اللعنات كما فعل أبو الفرج ،أو أن ينكروه ويتجاهلوه كما فعل غيره فلم يذكره ابن قتيبة ولا ابن سلام كما لم يذكره الطبرى ، وكذلك فعل أصحاب كتب الحديث إذ تغاضى جمهورهم عن ذكره ولم يتجاوز من ذكره منهم مجرد الإشارة العابرة إليه مما يجعل ما كتب عنه فى هذا الصدد قليل الغناء ، حتى إن ابن سعد لا يذكره بأكثر من قوله إنه كان شاعراً وروى عن أبى موسى الأشعرى وغيره[1] .

وهذا أمر متوقع مادام أكثر المؤلفات التى وصلت إلينا يرجع أقدمها إلى عصر بنى العباس ، ولهذا فليس لنا أن نعجب لضياع شعره بقدر ما نعجب لوصول ما وصل منه إلى أيدينا .

وهذا القليل الذى وصل إلينا من شعره مفرقاً فى كتب الأدب والتاريخ يعطينا صورة واضحة عن شخصية عمران وعقيدته وفنه .

فهو يصدر فى هذا الشعر كله عن إيمان بالغ العمق بمقالة الخوارج : إيمان جعله يزدرى الحياة ويزهد فيها ويهم بالخروج منتضياً سيفه متمثلا أستاذه أبا بلال مرداس بن أدية قديس الشراة لولا زوجه جمرة التى أكرهته بحسنها وبما حمل لها من حب على القعود ، ومن ثم فقد نشأ فى نفسه صراع عنيف بين الرغبة فى الموت والرغبة فى الحياة التى يتحمل فيها الأذى والمكروه ، وبهذا الصراع وبازدياد عنفه صارت الحياة وصار الموت على طرفى نقيض فى نفسه فلم يستطع أن يحسم هذا الصراع طيلة عمره ، وليس يعنى قعوده أنه اختار

(١) طبقات ابن سعد ج ٧ ص ١١٣ .

بين الرغبتين فآثر الحياة الحبيبة إلى نفسه على الميتة الكريمة تحت ذرا العوالى فالصراع لم يتوقف فى نفسه أبداً حتى بعد أن فارق سن الجهاد فقد حل الموت المجرد محل الاستشهاد فى هذا الصراع العنيف واتخذ عمقاً فلسفياً رائعاً لم يعرف به أحد من شعراء الخوارج غيره ، وهكذا لا نستطيع أن نعده قاعداً بعد مفارقته سن الجهاد وإنما نعده مستمسكاً بالحياة أو مكرهاً على التشبث بها وهو بهذا إنما يكشف لنا عن جوهر النفس الإنسانية بما يصوره شعره من ضعفها أمام الحياة وتعلقها بها دون ادعاء للمثالية أو تشدق بها ، وهو يصرح بحبه الشديد للحياة فى قوله :

إذا ما تذكرت الحياة وطيبها ... إلىّ جرى دمع من العين غاسق[1]

فالنزعة الإنسانية فى شعره إذن ليست تياراً سطحياً وإنما هى تيار عميق لابد لرؤيته من التغلغل فى أعماق نفسه ، حقاً كان جمال جمرة سبباً فى تحوله إلى مقالة الخوارج وسبباً لقعوده عن القتال ولتنقله من مكان إلى مكان طلباً للنجاة من عقاب السلطان، ولكن ليس معنى هذا أن تمسكه بالحياة كان بسبب من ذلك وإنما حقيقة الأمر أنه كان يحب الحياة فى أعماق نفسه متمثلة فى تلك الصورة الجميلة التى كانت عليها جمرة وأنه كان أيضاً يتوجس من الموت فى أعماق نفسه، ولكن هذا التوجس ما يلبث أن يزول بقتل مرداس فإذا الحياة بغيضة وإذا الموت حبيب إلى قلبه إذا كان كموت مرداس ، ومن ثم يبدأ هذا الصراع العنيف فى نفسه .

وكان هذا الذى يتنازع عمران من الالتفات إلى جمرة والالتفات إلى مرداس يكسب شعره مسحة من الأسى العميق ومن خلال هذا الصراع العنيف ، استطاع أن يعبر تعبيراً عميقاً عن حب الحياة وأن يصور تعلق الخلق بها ، وهو ليس تعلق المحبين أو المشدودين إليها بسبب معين ولكنه التعلق الفطرى والنزوع الإنسانى فى حقيقته دون ادعاء ، حتى إن البائسين الجائعين الذين

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

كانوا أحق الناس باليأس من الدنيا يتعلقون بها و يتمسحون بأذيالها وهى على الرغم من ذلك فانية زائلة يقول عمران :

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنهم فيها عراة وجوّع
أراها وإن كانت تحب فإنها سحابة صيف عن قليل تقشّع(١)

فهؤلا المتمسكون بالحياة أشقياء لم يتبينوا الطريق السوى ولكنه لا يلومهم كما لا يخفى أنه يسير على كره منه فى نفس الركب ، وأن قلبه هو الآخر ينطوى منها على شىء من الحب على الرغم من الفناء المحتوم الذى يترصد كل الأحياء :

أرنا لا نمل العيش فيها وأولعنا بحرص وانتظار
ولا تبقى ولا نبقى عليها ولا فى الأمر نأخذ بالخيار
كركب نازلين على طريق حثيث رائح منهم وسارى(٢)

وهو وإن لم يثر على المتعلقين بالحياة إلا أنه يتخذ من الموت آية يحذرهم بها من الانسياق وراء متاعها الزائل، والكاف بجمع المال الذى يجمعونه لغيرهم، ويدعوهم إلى أن يجمعوا لأنفسهم ما يغنيها يوم الحساب فيقول :

حتى متى تسقى النفوس بكأسها ريب المنون وأنت لاه ترتع
فتزودَنّ ليوم فقرك دائباً واجمع لنفسك لا لغيرك تجمع(٣)

وعلى هذا النحو كان لايزال يردد أن الموت سيأتى على الأحياء جميعاً كل بأجله لا مفر لكائن منهم من لقائه ، فكل يصير إلى فناء حتى الموت نفسه يموت ، كما يقول :

لا يعجز الموت شىء دون خالقه والموت فانٍ إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع للموت ، والموت فيما بعده جلل(٤)

فالموت سيموت فى النهاية ، وكأنه يطمئن نفسه بهذه الفكرة التى تفتح

(١) الخزانة ج ٢ ص ٤٤٠ .
(٢) الخزانة ج ٢ ص ٤٤١ .
(٣) نفس الموضع .
(٤) زهر الآداب ج ٤ ص ٦ .

أمامها الطريق إلى الخلود ، فهو يدعوها إلى الاستسلام لجبروته المحتوم على أن تؤمن بأنه هو الآخر مهزوم فى نهاية الأمر ، فعلى الرغم من أن كل كرب يهون أمامه فهو هين إذا ما قيس بما وراءه ، ومادام الموت ينقله إلى دار الخلود فلينتظره إذن مغتبطاً به مستسلماً له ، وعمران بذلك كله إنما يعبر عن فكرة الموت التى تلقانا دائماً فى شعر الخوارج ونحن واجدون فى شعره سمات خارجية أخرى غير فكرة الموت ، فنراه يعبر عن فكرة لها خطرها عند الخوارج جميعاً ، وهى فكرة المساواة التى دعا إليها القرآن بقوله عز وجل : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، فأنكر بذلك أن يكون النسب أو الحسب أساساً للتفاضل بين البشر فهم جميعاً سواء لاتمييز بينهم إلا بالتقوى ، وهى فكرة لم يكن من السهل الالتزام بها فى العصر الأموى إذ عادت فيه العصبية القبلية التى أطفأ الإسلام جذوتها فى فجره جذعة حيث التقطها الأمويون فأشعلوا أوارها ، ولم يكن العهد قد بعد بمرج رهط يوم قال عمران فى جماعة الأزد الشراة الذين قضى معهم بقية عمره فى روزميسان :

فأصبحت فيهم آمناً لا كمعشر بدونى فقالوا من ربيعة أو مضر ؟
أو الحى قحطان ؟ فتلكم سفاهة كما قال لى روح وصاحبه زفر
وما منهما إلا يسر بنسبة تقربنى منه وإن كان ذا نفر
فنحن بنو الإسلام والله ربنا وأولى عباد الله بالله من شكر[1]

فهو ينقد روح العصبية المقيت ، مبيناً ماكان له من خطر وشأن بعيد دالا على أولويته بقوله (بدونى) وهى دلالة موفقه إلى حد بعيد ، ثم يتجرأ فينعت تلك الروح بالسفاهة ، ويدل على ما يستشعره المتعصبون لقبائلهم من انعدام ثقتهم بأنفسهم وإلا ما كانوا يسرون بنسبته إليهم على الرغم من كثرتهم وسطوتهم ، وهو رجل وحيد فرد ، وما ذاك إلا لأنه عزيز بدينه لا بحسبه ولا بنسبه ، راض عن نفسه لذلك معتد بها ، ومثله فى ذلك كل مسلم لا يعتد بنسب غير دينه وبذلك جعل الانتساب إلى الإسلام والولاء له رابطة قوية

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٤٨ .

متينة تضمن المساواة بين أبنائه فى الصلات وهو أمر لا تحققه العصبيات القبلية التى تميز بين أبنائها بحسب قربهم أو بعدهم من العصب ، بل حسب مايتمتعون به من مال أو سلطان ، وعمران على الرغم من قعوده ومخالفته عن تشدد الأزارقة فى وجوب الخروج ، فإنه يتفق معهم فى تصورهم أن الإسلام لا يوجد إلا فى معسكراتهم ، وأن من عداهم من المسلمين ضال عن الطريق القويم ، فعندما فارق روح بن زنباع بعد انكشاف أمره ترك له وقعة فيها أبيات يثنى فيها عليه ويذكر ما أحاطه به من الأمن والكرم ، إلا أنه على الرغم من ذلك لم يبح لنفسه أن يستغفر له ، لأنه ليس فى رأيه سوى طاغية وكافر لا يستحق المغفرة ، يقول :

لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية ... كنت المقدم فى سرى وإعلانى
لكن أبت لى آيات مطهرة ... عند التلاوة فى طه وعمران[1]

وفى إشارته إلى هذه الآيات ما يدل على تأثره القوى بالقرآن الكريم حتى لنعتقد أن آياته جميعاً حاضرة فى ذهنه .

ويبرز فى شعره إيمان الخوارج القوى بعقيدتهم بروزاً واضحاً ، فنراه يعبر عن صلابة إيمانهم بمبدأ لا يتغير حتى يموتوا فى سبيله ، ويزرى على أعدائهم الذين يقاتلون فى سبيل المال فحسب دون نظر إلى عقيدة أو إيمان لا يعنيهم فى شىء أن يقاتلوا تحت راية ابن الزبير أو راية ابن مروان مادامت أجورهم تدفع إليهم لا يعبأون باليد التى تدفعها مؤمنة كانت أو كافرة .

وكان عمران قد نمى إليه أن بعض الجند يقولون : وما لنا لا نقاتل الخوارج ؟ أليست أعطياتنا دارة ؟ فقال عمران يتهكم بهذه النقيصة :

فلو بعثت بعض اليهود عليهم ... يؤمهم أو بعض من قد تنصرا
لقالوا رضينا إن أقمت عطاءنا ... وأجريت ذاك الفرض من بركسكرا[2]

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٤٩ .

(٢) أنساب الأشراف ج ٧ ص ٩٩ معجم البلدان مادة كسكر .

فقتالهم من أجل العطاء فحسب ، ومن أجل بركسكر أو غيرها ، ودوافعهم إذن للقتال عرض زائل وليس نصرة مبدأ أو عقيدة .

وكما أزرى على هؤلاء الجند الذين يقاتلون من أجل المال ، كان عمران يزدرى أولئك الشعراء الذين مرنوا على التملق والكذب من أجل المال ، وقد سمع الفرزدق مرة ينشد بعض مدائحه فتعرض له بقوله :

أيها المادح العباد ليعطى　　　إن لله ما بأيدى العباد
فاسأل الله ما طلبت إليهم　　　وارج فضل المقسّم العوّاد
لا تقل فى الجواد ما ليس فيه　　　وتسم البخيل باسم الجواد[١]

فهو يزدرى المديح كما لا يزدرى شيئاً آخر ، لأنه فى أكثره كذب ونفاق وامتراء ففيه يوصف الإنسان بما ليس فيه ، وتقلب الحقيقة وتضيع ، ولا يليق أن يفعل المرء هذا من أجل ما بأيدى الناس من مال ، فهم وما بأيديهم لله ، ولا عجب إذن فى أن يقول عنه الآمدى « إنه أشعر الناس فى الزهد ».[٢]

وهكذا كان عمران يعتقد وهكذا كانت طريقته، لا يسأل ولا يمدح غير الله ولا يفكر إلا فى عقيدته وهو بهذا مثال دقيق للخارجى الذى تعمقته عقيدته حتى خالطت دمه .

وكما صرفته عقيدته عن المدح فقد نهته أيضاً عن الحرب وأبعدته عن تصويرها ، وعلى الرغم من شدة حبه لجمرة وتعلقه بها فقد صرفته عقيدته أيضاً عن الغزل حتى ليذهب كل ما توجه به من شعر إليها فى مناقشة فكرة الموت .

وبوحى من عقيدته أيضاً لم ينزلق عمران إلى الفخر القبلى بل آزرى عليه وسفهه . ويجمع شعر عمران كل الخصائص التى ميزت شعر الخوارج كالصدق فى التعبير عن الإيمان والصلابة فى اعتناق الرأى والدفاع عنه والبساطة فى تصويره ويبدو أن اشتغاله بالحديث قد أثر إلى جانب عقيدته فى صدقه وصراحته

---

(١) الأغانى ج ١٦ ص ١٥١ .
(٢) المؤتلف والمختلف ص ٢٤٥ .

وبساطة تعبيره وقد شهد له بالصدق فى التعبير الأخطل فى مجلس ضمه وجماعة من الشعراء عند عبد الملك بن مروان إذ سألهم عبد الملك هل بقى أحد أشعر منكم ؟ فلما قالوا لا » ابتدر الأخطل فقال : كذبوا ، قد بقى من هو أشعر منهم .. عمران بن حطان لأنه قال ما قال وهو صادق ففاقهم فكيف به لو كذب كما كذبوا ؟[1] .

وقد عرف له الفرزدق ذلك فقال : لقد أحسن بنا عمران حيث لم يأخذ فيما أخذنا فيه ولو أخذ فيما أخذنا فيه لأسقطنا[2] . وتروى فى اشتهاره بالصدق والتدقيق رواية أخرى ، تدل على أنه لم يكن يقول خلاف ما يعتقد وذلك أن زوجه جمرة نعت عليه مرة أنه كذب ، فوصف رجلا بأنه أشجع من أسد وهو لا يكذب قط وذلك فى قوله :

وكذاك مجزأة بن ثـــــور كان أشجع من أسامـــة

فكان أن أجاب على ذلك بقوله : « إن مجزأة قد فتح مدينة ، بينما الأسد لا يستطيع »[3] .

فليس أدل من ذلك على صدقه وتوخيه الحقيقة وبراءته من الكذب والمبالغة وقد وهمت زوجه التى عرفت صدقه فى شعره فلم تدرك ما يحتاج إليه الشعر من الخيال ، وربما كان هذا الصدق الدقيق مسئولا إلى حد بعيد عن عدم تحليق خياله إذ ليس فى شعره من الخيال ما يبهر على الرغم من جنوحه إلى التأمل ، وكذلك فإن صدقه مسئول أيضاً عن اتساق تعبيره دون التواء أو تكلف أو اعتساف أو تقديم أو تأخير ، وعما نلاحظه من وضوح فكرة وقرب مأتاه وترتيبه وجرأته . ولم يكن شىء من هذا ليحفظ شعره من السقوط لو لم يتوافر له ما توافر من صدق العاطفة وحرارة الإحساس الذى يندفع فى شعره فإذا هو بمثابة الروح تدفع فيه الحياة .

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٥ .

(٢) نفس المرجع .

(٣) الأغانى جـ ١٦ ص ١٥٧ .

ولا يتجلى صدق عاطفته وحرارة إحساسه بقدر ما يتجليان فى رثائه لمرداس بن أدية الذى أحبه وأعجب به وتمثله وضاقت به الدنيا بعد رحيله عنها، يقول عمران فى رثائه :

يا عين بكّى لمرداس ومصرعه	يارب مرداسٍ اجعلنى كمرداس
تركتنى هائماً أبكى لمرزئتى	فى منزل موحش من بعد إيناس
أنكرت بعدك من قد كنت أعرفه	ما الناس بعدك يامرداس بالناس
أما شربت بكأسٍ دار أولها	على القرون فذاقوا جرعة الكاس
فكل من لم يذقها شارب عجلا	منها بأنفاس ورد بعد أنفاس (١)

فهذا حزن صادق، على فقيد عزيز استحالت الدنيا المليئة بالأنس بعده موحشة يهيم فيها كئيباً لا يلوى على شىء ، ولا يتعرف على شىء فكل ما فيها فقد ذاتيته وتغير ، والناس ليسوا بعده بالناس ، وكأنما ماتوا جميعاً بموته ، أو ماتوا فيه ، ولا يخفف من هذا الجزع ما ينتهى إليه وما يؤمن به من أن الموت كأس دوار على شفاه البشر .

فصدق الشعور هنا هو الذى وهب الأبيات جمالها وتأثيرها ، ورقة الحس هى التى أوحت بتتابع جرسها الصافر الحزين ، وأتت بالألفاظ على هذه الصورة من السهولة والسلاسة .

هذه هى شخصية عمران وعقيدته وفنه فى القليل من شعره الذى وصل إلينا .

شيخ ديان زاهد متفقه دارس للقرآن يعالج فكرة الموت ويحذر بها الناس من الانخداع بالحياة ، ويدعوهم إلى ثواب الله ، وهو على فقهه بعقيدته لا يدعى المثالية ولا يتشادق بها ولا ينكر أن قلبه ينطوى من الدنيا على بعض الحب لها والحرص عليها على الرغم من ثقته بفنائها وزيفها ولكنه إنسان يفهم جوهر الإنسان وحقيقة نوازعه ، وهو إنسان ذو عقيدة يؤمن بها فى صلابة ، على الرغم

(١) الخزانة جـ ٢ ص ٤٤٠ .

من قعوده عن القتال مكرهًا فليس ضير فى أن يقاتل بلسانه أعداء عقيدته ، فيثير الناس عليهم ويرميهم بالنفاق والانسياق وراء الضلال وما بأيديهم من المال دون مبدأ أو هدف سام وبالكذب والخداع طمعاً فيما بأيدى العباد . وكل من عدا الخوارج كفار لا تقبل منهم شفاعة ولا يرضى لهم استغفار ، وهو شديد الاعتداد بنفسه مستشعر للعزة بدينه الذى لا يدين لشىء سواه بالولاء الأمر الذى جعله يرى فى التعصب للدم وللقبيلة سفاهة وإهداراً لأساس المساواة فى الإسلام . وشعره صورة من نفسه فى صدق العاطفة وحرارة الشعور ورقة الحس وسلاسة اللفظ وبساطة التعبير ودقة التصوير وهدوء الجرس ، وهو بكل هذا مثال دقيق لتلك الفئة التى تعمقتها مقالة الخوارج حتى الشغاف ولكنها لم تر القتال وإن لاقت فى قعودها بطشاً وعسفاً شديدين وهو فى هذا يختلف عن قطرى بن الفجاءة الذى لم ير الإيمان يتم إلا بالجهاد، كما يختلف عن الطرماح الذى اختلطت عصبيته لقبيلته بإيمانه بعقيدته ، ولكنه فيما دون ذلك صورة دقيقة لما كان عليه الخارجى فى إيمانه وخلقه وجرأته وتمسكه بالحق وصراحته فيه، وما كان يتمتع به الخارجى من بلاغة تقوم على الصدق والسهولة والصراحة وقرب المعنى وبساطته فضلا عن صدق عاطفته ورقة حسه وحرارة مشاعره وقوة نفسه وصلابتها ، وهى أمور كفلت لشعر عمران أن يهز النفس وأن ينفذ إلى القلب.

٣

والطرماح بن حكيم[1] نموذج آخر للخارجى يختلف كما ألمعنا عن ذلك النموذج المتشدد المتصلب فى إيمانه الذى يقرن الجهاد إلى الاعتقاد ولا يفصل بينهما كما يختلف عن النموذج الذى عرضناه فى عمران بن حطان فى قوة إيمانه

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٦ ، والشعر والشعراء جـ ٢ / ٥٦٦ ، والعينى جـ ٢ ص ٢٧٦ والاشتقاق ص ٣٩٢ والموشح ص ٢٠٨ والبيان والتبيين جـ ١ ص ٤٦ ، جـ ٢ ص ٣٢٣ ، وتاريخ دمشق جـ ٧ ص ٥٢ ، وخزانة الأدب جـ ٣ ص ٤١٨ ، والعصر الإسلامى ص ٣١١ ، وأدب الخوارج ص ٩٤ وله ديوان نشره كرنكو فى لندن سنة ١٩٢٧ .

وإخلاص ولائه للعقيدة وإن لم ير الجهاد . فهو نموذج يفترق عنهما جميعاً ولذا آثرنا أن نقف عنده وقفة تستكشف أقطاره وتجلى ملامحه .

والطرماح شاعر قحطانى من طيئ ويكنى بأبى نفر وبأبى ضبيبة ومعنى الطرماح الطويل القامة ، وقد قيل إنه لقب بالطرماح لقوله :

ألا أيها الليل الطويل ألا ارتح بصبح وما الإصباح منك بأروح
بلى إن للعينين فى الصبح راحة بطرحيهما طرفيهما كل مطرح[١]

وهو تعليل مفتعل ، ولا يمكن أن يكون لقباً ولم يعرف باسم غيره . وليست حياة الطرماح بأوفر حظًّا من حياة سائر الخوارج إذ لا نكاد نعرف من أحداثها إلا القليل فلا نعرف مثلا متى ولد ؟ ولا أين نشأ ؟ ولا متى مات على وجه الدقة ؟

وتختلف الأقوال بالنسبة لنشأته بين أن يكون نشأ بالسواد[٢] أو أن نشأته كانت بالشام ثم انتقل بعد ذلك إلى الكوفة مع من وردها من جيوش أهل الشام[٣] والذى نرجحه أنه نشأ بالشام لقربها من منازل طيئ ثم انتقل منها إلى الكوفة حسب رواية أبى الفرج ، ولما لم يكن فى حياته ما يدل على صلته بالجند فإننا لا ندرى الصفة التى كان عليها فى هذا الانتقال . وفى الكوفة نزل الطرماح فى بنى تيم اللات بن ثعلبة وكان فيهم شيخ من الشراة له سمت وهيئة فكان الطرماح يجالسه ويسمع منه حتى رسخ كلامه فى قلبه ، فلما دعاه الشيخ إلى مذهبه قبله واعتقده أشد اعتقاد وأصحه حتى مات عليه[٤] .

وكما اختلفت الأقوال فى نشأته فقد اختلفت أيضاً فى الفرقة التى اعتنق عقيدة الخوارج على مذهبها ، فقال أبو الفرج إنه كان على مذهب الشراة الأزارقة[٥] ولكنه يذكر عند الحديث عن الكميت أن الطرماح كان خارجيًّا

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٨ .
(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٨ .
(٤) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٩ .
(٥) نفس الموضع .

صفرياً[١] وإلى ذلك أيضاً يذهب ابن قتيبة[٢] والجاحظ[٣] وذلك ما نرجحه لأنه كان من القعدة ولوكان من الأزارقة لما استحل القعود ، إذ كانوا يحرمونه ولا يجيزونه ، وهو لم يكن من قعد الصفرية الذين أمضوا قعودهم يحرضون على الخروج شأن عمران بن حطان وإنما كان من قعد الصفرية المسالمين ومما يقطع بأنه صفري هذه الأبيات التي يتمنى فيها الخروج على نحو ما خرج الشراة ويشيد فيها بفرسان بني شيبان وبنو شيبان فيما نعرف هم قادة الصفرية وقوام جندها وفيهم يقول :

فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزّالون عند التزاحف
إذا فارقوا دنيادهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما فى المصاحف[٤]

ونستطيع أن نستخلص مما روى الأغانى بصدد نشأته وانتقاله إلى الكوفة فى مستهل حياته واعتناقه عقيدة الخوارج فور نزوله فى بنى تيم اللات بن ثعلبة أنه اعتنق مذهب الخوارج شاباً ويبدو أن نزوله فى هذ الحى من ربيعة المعروف بعدائه القديم لتميم قد كان له أثر بليغ فى تعصبه على تميم تعصباً جعله يخصص جزءاً هاماً من شعره لهجائها ، ولاشك أن انتقاله إلى الكوفة قد فتح أمامه أبواب الثقافة على مصاريعها فأخذ ينهل من ينابيعها المختلفة ويبذل جهداً كبيراً فى تحصيل فنونها مع عناية فائقة باللغة وغريبها ، وبالشعر وبأيام العرب وأنسابهم ، ومن ذلك ما يذكره أبو الفرج من أن محمد بن حبيب سأل ابن الأعرابى عن ثمان عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة ، يقول فى جميعها لا أدرى ، لا أدرى[٥]

وقد تقدم ما يروى عن رؤبة من أن الطرماح والكميت كانا يصيران إليه فيسألانه عن الغريب ، فيخبرهما به ، ثم يراه بعد فى أشعارهما[٦]

---

(١) الأغانى ج ١٥ ص ١٠٨ .
(٢) الشعر والشعراء ج ٢ ص ٥٦٦ .
(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٦ .
(٤) الأغانى ج ١٠ ص ١٥٢ .
(٥) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٩ .
(٦) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٨ .

وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء أنه رأى الطرماح بسواد الكوفة وهو يكتب ألفاظ النبيط ويتعلمها ليدخلها فى شعره ، وقد عابه العجاج أو رؤبة فى ذلك[١] وكان للطرماح إلى جانب عنايته باللغة بصر نافذ بالشعر وأساليبه ، وتروى عنه فى ذلك روايات كثيرة منها أن ذا الرمة غضب منه يوماً لأنه رفض أن يقر بجودة شعره فتحداه بأنه لا يحسن أن يقول قوله فى هذين البيتين من قصيدته التى مدح فيها عبد الملك وهما :

وكائن تخطت ناقتى من مفازة إليك ومن أحواض ماء مسدم
بأعقاده القردان هربى كأنها بوادر صيصاء الهبيد المحطم

فقال الطرماح للكميت ساخراً بذى الرمة : انظر ما أخذ من ثواب هذا الشعر ؟ وهو إنما يغمز ذا الرمة بأنه لم يمدح عبد الملك فى القصيدة إلا بهذين البيتين فحسب بينما ذهبت القصيدة برمتها فى ناقته ملمحاً إلى قول عبد الملك لذى الرمة بعد أن أنشدها إياه « ما مدحت بهذه القصيدة إلا ناقتك فخذ منها الثواب »[٢].

وكان الطرماح ذكياً فطناً لا يخفى عليه من معانى الشعر شىء مهما دق واستتر ، وفى الأغانى أنه جلس فى حلقة وفيها رجل من بنى عبس ، فأنشده العبسى قول كثير فى عبد الملك :

فكنت المعلى إذ أجيلت قداحهم وجال المنيح وسطها يتقلقل

فقال الطرماح : أما إنه ما أراد أنه أعلاهم كعباً ، ولكنه موه عليه فى الظاهر وعنى فى الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثير لا يقول بإمامتهم ، لأنه أخرج علياً عليه السلام منهم فإذا أخرجه كان عبد الملك السابع ، وكذلك المعلى السابع من القداح فلذلك قال ما قاله ، واستدل الطرماح على رأيه بأن

---

(١) الموشح ص ٢٠٨ .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ .

كثيرًا لم يذكر عليًّا فى ذكره للخلفاء صراحة فى موضع آخر إذ قال :

وكان الخلائف بعـد الرسو ل لله كلهم تابعـا
شهيدان من بعد صديقهـم وكان ابن خولى لهم رابعـا
وكان ابنـها بعده خامسًا مطيعاً لمن قبله سامعا
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنـه بعـده سابعا(١)

ومن أطرف ما يقف عنده الرواة ، ويتحدثون عنه متعجبين فى حياته صداقته للكميت فالرويات تصورهما صديقين لايكادان يفترقان ، فى حال من أحوالهما على الرغم من اختلافهما فى العقيدة والعصبية ، يقول الجاحظ : « لم ير الناس أعجب حالا من الكميت والطرماح ، كان الكميت عدنانيًّا وكان الطرماح خارجيًّا من الصفرية وكان الكميت يتعصب لأهل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة مالم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجر بينهما صرم ولا جفوة ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصال إليه(٢).

ويذكر أبو الفرج أن الكميت سئل فى ذلك ، فقيل له : « لا شىء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماح على تباعد ما بينكما من النسب والمذهب والبلاد وهو شامى وأنت كوفى نزارى شيعى فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة» وكان الكميت يوقر الطرماح و يعتد بصداقته ، فقد أنشد قول الطرماح عن نفسه :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت : أى والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والسماحة(٣) .

وأكبر الظن أنهما كانا يعتدان بثقافتهما على العامة ، وأن الذى وثق بينهما هذه الصلة لم يكن هذا فحسب وإنما احترافهما مهنة واحدة هى تعليم

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٥١ .
(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٤٦ .
(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٩ .

الناشئة فقد كانا معلمين كما كانا خطيبين وكانا أيضاً شاعرين ، يهتمان بمعارف معينة وينهلان من مورد واحد ، ويروى عن الطرماح أنه ترك الكوفة حيناً إلى الرى بفارس حيث عنى بتأديب الناشئة فيها ، ويظهر أنه كان ذا قدرة خاصة فى التدريس حتى ليروى الجاحظ عن عبد الأعلى أنه قال : « رأيت الطرماح مؤدباً بالرى فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه ، ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده وكأنهم قد جالسوا العلماء »[١].

ويظهر أنه لم يكن يكفيه ما تدره عليه هذه المهنة ، إذ نراه يطرق بشعره أبواب الأمراء والولاة ، ففى أخباره أنه قدم مع الكميت على مخلد بن يزيد المهلبى وأراد أن يمدحه قاعداً فنحاه مخلد ودعا الكميت فأنشده قائماً ، وأمر له بخمسين ألف درهم فلما خرجا شاطره الكميت ما أخذه[٢] وفى أخباره أيضاً أنه مدح خالد بن عبد الله القسرى والى العراق فمنحه كل ما بعث به إليه واليه على سجستان من حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء[٣] وكذلك مدح عبد الله القسرى فأمر له بعشرين ألف درهم[٤].

والطرماح من هذه الناحية يختلف عن عمران اختلافاً بعيداً إذ يطلب المال والدنيا ملحاً فى طلبهما بينما كان عمران زاهداً فيهما منفراً من التكاليب على جمع المال ومديع العباد طمعاً فيما بين أيديهم وهو يختلف فى ذلك عن شعراء الخوارج جميعاً الذين لا يرون الدنيا إلا سبيلا إلى الآخرة ولا يعتدون بزخرفها الزائل ولا بمتاعها الزائف وإنما يفنون فى عقيدتهم فناء تاماً حتى لا يبقى شىء غيرها تنزع إليه نفوسهم ، ولم يكن الطرماح من هؤلاء ، ولم يكن من الممكن أن يفنى فى عقيدته وقد حال بينه وبين ذلك أمران أولهما عصبية القبلية الشديدة

---

(١) البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٢٣ .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٩ .

(٣) الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ .

(٤) الديوان ص ١٣٩ ، ١٣٦ .

وثانيهما حبه الشديد لنفسه ولما يمكن أن يجعل هذه النفس سعيدة فى حياتها فى المتاع والمال والجاه .

فقد كان يستشعر عصبية شديدة لقبيلته بل لكل أخواتها من القبائل القحطانية وبخاصة الأزد قبيلة المهالبة ، وقد دفعه ذلك إلى أن يدخل فى معركة حادة مع الفرزدق ، شاعر تميم عدوة الأزد القحطانية ، ويذكر كرنكو ناشر ديوانه أن هجاءه للفرزدق كان بعد موت يزيد بن المهلب بسبب فرح التميميين وشماتتهم لسقوط المهالبة ، وتعصبه بوجه عام سواء أكان للقحطانية أم على أعدائها يبدو مخالفاً لروح الخوارج ، والمشهور عندهم أن الدين يسوى بين جميع المسلمين دون اعتداد بأية عصبية غير العصبية المذهبية .

ويبدو أن عقيدة الخوارج لم تكن تستغرق نفسه استغراقاً تامًّا ، وإنما كان مذهبه يأتى على هامش حياته بدليل تعصبه للأزد وللمهالبة منهم بنوع خاص وطغيان هذه العصبية على عقيدته حتى ليمدح يزيد بن المهلب فى قصيدتين فى ديوانه[١] ويرثيه أيضاً[٢] ، وكذلك يهجو الفرزدق من أجله هجاء مقذعاً وهو الذى قاتل الخوارج مع أبيه ، ولم يكسر شوكة الأزارقة غير أبيه المهلب .

ويبدو أيضاً أن الطرماح لم يكن بدعاً فى هذا الاتجاه وإنما كان هناك فئة من الخوارج مثله لم تستطع العقيدة أن تقضى فى نفوسهم على التعصب القبلى والاستجابة له والصدور عنه وهى فئة كانت كثرتها من الأعراب الذين لم ينسوا انتماءاتهم العصبية فظلت لها فى نفوسهم الصدارة بينما أتى المذهب على هامش تلك النفس ، والطرماح يمثل هذه الفئة التى ترى الدنيا من خلال عصبيتها خير تمثيل ، فهو لم يمدح المهالبة وهو يدرك مدى عداوتهم للخوارج إلا لاعتزازه بطائيته أو قحطانيته ولأنهم كانوا يمثلون أمل القحطانية فى الوصول إلى السلطان وبخاصة بعد سقوط سلطان تميم ، وقد كانت اليمنية فى هذا العصر أشد ما يكونون تطلعاً إلى السلطان ، وليست فكرة القحطانى المنتظر ولا ثورة ابن الأشعث

---

(١) الديوان ص ١٩٣ .

(٢) الديوان ص ١٤٥ .

أو ثورة يزيد بن المهلب إلا من مظاهر هذا التطلع القوى الذى أذكاه ونفخ فيه اعتزاز بعض بنى أمية بالعنصر اليمنى والاعتماد عليه فى إدارة بعض الأقاليم وقيادة كثرة الجيوش وبخاصة جيش الشام ، وقد وجد الطرماح فى هذا مادة للفخر ببنى قومه إلى حد أن يمن على بنى أمية ارتفاعهم إلى الخلافة على اكتافهم بل إنه ليتجاوز ذلك إلى الفخر بالقحطانيين من أهل يثرب الذين نصروا النبى وآووا الإسلام وأعزوه وقد عاش الطرماح جانباً كبيراً من حياته فى العراق وخراسان وشهد الخصومات القبلية التى استعرت بين تميم والأزد وجرّت قيساً إلى الانضمام إلى تميم بينما دفعت بربيعة إلى الانضمام للأزد حتى انقسم الناس فى البصرة إلى فريقين متحاربين ، وكان لهذا الخلاف أثره فى تعصب الولاة وقتلهم وعزلهم ، وقد رأى الطرماح ما كان من نجاح الأزد فى الانتقاص من سلطان تميم بعد أن كانوا يقاسون منها ، وكيف ارتفع شأنهم بتولى المهالبة خراسان والعراق فمدحهم وهجا تميما ، حتى إذا ما دال سلطان الأزد وبدأ شأن تميم فى الارتفاع من جديد راح يصب غضبه عليها ويشبعها سبًّا وذمًّا ، وكانت الأحداث القبلية التى وقعت فى خراسان مادة للطرماح من مثل مقتل قتيبة بن مسلم الذى تسببت فيه الأزد[1] وأفادوا منه بتولى يزيد بن المهلب ولاية خراسان خلفاً له ، وقد وجد الطرماح فى تلك الحادثة مجالا للفخر بما تم على يد الجيش القحطانى والأزد منهم بنوع خاص من قتل قتيبة حتى ارتفع بالأزد وبطيء فوق كل القبائل .

كانت للعصبية إذن الصدارة فى نفس الطرماح بينما كان مذهبه على هامش حياته ، ولسنا نستطيع أن نزعم أنه لم يكن يؤمن بمقالة الخوارج كما لا يمكننا الزعم بأنه اعتنق مذهبهم أشد اعتناق وأصحه كما ذهب إلى ذلك أبو الفرج[2] .

ولكننا نقول إنه لم يخن مذهبه ولم ينحرف عنه ولكنه ابتعد عن روح الخارجى التى نعرفها فى ازدراء الدنيا وما فيها من مال ومتاع ومنازعات قبلية ومفاخرات عصبية ، وفناء تام فى العقيدة لايدع لغيرها منزعاً فى نفسه .

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٠٦ .
(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩ .

وقد حال بين الطرماح وبين أن يفنى فى عقيدته شأن الخوارج الممتازين إلى جانب ما تقدم من شدة عصبيته ، حب شديد لنفسه ، فقد كان هذا الحب محور حياته كلها ، تدور حوادثها عليه ، وتصطبغ بصبغه ، وشعره حافل بنفسه وبقومه وأبيه وجده ومه وزوجه وابنته ، ولم نر شاعراً من شعراء الخوارج يحتفل بنفسه وبذويه هذا الاحتفال غيره .

وقد قاده هذا الحب إلى استشعار عدة مشاعر تكاد تكون نرجسية أظهرها ما يحيط به نفسه من مديح مفرط واعتداد مسرف وإكبار يدفعه إلى الإحساس بأنه يستحق خيرا مما يلقى وأنه مظلوم ومكروه ومحسد وفى الحقيقة أن شعره يقنعنا بأن تلك الأحاسيس ليست كذباً ولا ادعاء مزعوماً وإنما هى صورة لنفس قوية حقًّا ، وفى أخباره ما يؤكد ذلك ويقطع به فقد أبى له كبرياؤه واعتداده بنفسه ألا يمدح مخلد بن يزيد المهلبى إلا قاعداً فلما طلب منه أن ينشد قائماً قال : كلا والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط منى مقامى وأحط منه بضراعتى ، وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب ، وقد شاطره الكميت عطاءه وقال له : «أنت أبا ضبيبة أبعد همة وأنا ألطف حيلة»[1] .

ولم يكن حبه لنفسه يقف عند مجرد الاعتداد بها والبعد بها عن مظنة الهوان وإنما تعدى ذلك أنه — بدافع من تقديره الشديد لنفسه وإعجابه بها — لم يكن يعرف لصاحب الفضل فضله ولا يقر له به ، ويذكر أبو الفرج أن ذا الرمة جاءه وكان جالساً مع الكميت فى مسجد الكوفة فاستنشد الكميت بعض شعره فأنشده ، فأثنى ذو الرمة عليه ، ثم استنشد الطرماح فأنشده فأثنى ذوالرمة عليه أيضاً ، ثم أنشدهما ذو الرمة فطرب الكميت لما سمع منه حتى ضرب بيده على صدر الطرماح وهو يقول : « هذا والله الديباج لا نسجى ولا نسجك الكرابيس »، فقال الطرماح : « لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته»، فغضب لذلك ذو الرمة[2] .

وهكذا أبعدته عصبيته وحبه لذاته عن روح الخارجى الحقيقية فعاش

---

(١) الأغانى ج ١٠ ص ١٤٩ .

(٢) الأغانى ج ١٠ ص ١٥٠ .

معيشة الناس من حوله واضطرب فيما اضطربوا فيه ، ولكن هذا لم يخرج به عن عقيدة الخوارج إذ كان يستشعرها ويعتد بها ويستهدى بهديها أحياناً كثيرة كما يبدو فى شعره الذى يذهب جزء كبير منه فى تصوير عقيدته وإيمانه بها ومدحه لرجالها حتى يهم فى أخريات أيامه بالخروج ويتمناه سائلا ربه أن يهبه الشهادة فى ساحة القتال .

وكما أن حياة الطرماح كلها بلا تاريخ يعين حوادثها ، فكذلك لا تفيدنا أخباره عن موته أين حدث ؟ ومتى وقع ؟ ولكننا نرجح أن ذلك حدث بعد عام ١٠٦ هـ فآخر أحداث حياته كما يظهر من شعره كان مدح خالد القسرى أثناء ولايته على خراسان وسجستان[١] .

ولهذا فنحن نرجح أنه مات فى الفترة ما بين سنتى ١٠٦ هـ ١٠٩ هـ وهى الفترة التى ولى فيها خالد خراسان للمرة الأولى .

ولم يحظ شعر شاعر خارجى بما حظى به شعر الطرماح من عناية ، فهو الشاعر الخارجى الوحيد الذى يعد بين أصحاب الدواوين . ولكن هذا لا يعنى أن شعره قد وصل إلينا بتمامه ، وإنما الحقيقة أن جزءاً هاماً منه قد ضاع دون شك ويذكر كرنكو أنه نشر ديوانه عن نسخة يبدو منها تفكك شعره وضياعه بحيث لا يمكنه الحكم على حجم الديوان ولا معرفة جامعه ولكنها على الرغم من ذلك ذات قيمة حقيقية من حيث صدق نسبتها إليه ، وقوام هذه النسخة خمس قصائد هى القصائد الخمس الأولى فى الديوان ، وقد عنى كرنكو بأن يضم إليها مجموعة مبعثرة من شعره جمعها من كتب الأدب ، وهو عمل يتيح لشعره أن يدرس دراسة أوفى من أى شعر خارجى آخر .

وأول ما يعنينا من شعره ما خص به مذهبه وعقيدته ، ويذهب فى هذا المذهب من شعره ، عدة مقطوعات قليلة وعدة إشارات أخرى فى مواضع متفرقة من الديوان .

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٨ .

وأولى تلك المقطوعات تقول :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له   إن لم أفز فوزة تنجى من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحد   إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده   له السعادة من خلاّقها البارى (١)

والطرماح فى هذه الأبيات يعلن عن خشيته الشديدة من النار ويقرر أن النجاة منها وقف على الخوارج وحدهم دون غيرهم إلا من شاء الله ، وهو يتمنى أن يدفع عنه النار بفوزة يفوزها وهى فوزة يفسرها قوله :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف   به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب ما لا أؤول إلى غنى   من الله يكفينى عداة الخلائف
إذا العرش إن حانت وفاتى فلا تكن   على شرجع يعلى بخضر المطارف
ولكن أحن يومى سعيداً بعصبة   يصابون فى فج من الأرض خائف
عصائب من شتى يؤلف بينهم   تقى الله نزّالون عند التزاحف
هم منعوا النعمان يوم رؤية   من الماء فى نجم من القيظ حائف
إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى   وصاروا إلى موعود ما فى المصاحف
فأقتل قعصًا ثم يرمى بأعظمى   كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح لحمى بين طير مقيله   دوين السماء فى نسور عوا كف (٢)

هذه هى الفوزة المنجية من النار ، ويعنى بها الخروج فى سبيل الله حتى يلقى حتفه قعصا بالرماح بين رفاق المذهب الأتقياء الشجعان الذين يسارعون بالرواح إلى موعود ما فى المصاحف ، لا يهمه فى شىء أن يرمى بأعظمه إلى الرياح ولا أن يكون قبره فى بطون النسور دوين السماء ، وإنما الذى يهمه ويقض مضجعه أن يموت فى فراشه ويحمل على نعش كما يحمل بقية الناس .

غير أنه يسوق فى تضاعيف هذه الأبيات ما يدل على أنه ليس خالص النية فى هذا الخروج لله ، وإنما هو من أجل دنيا يصيبها إذ يتمنى الخروج مقاتلا لينال إحدى الحسنيين فإما أن يقتل شهيداً وإما أن يصبح غنيًّا ، ويبدو

---

(١) الديوان ص ١٤٩ .

(٢) الديوان ص ١٥٥ .

أن أفواه الرواة وأيدى النساخ كان لها أثر كبير فيما لحق بهذه المقطوعة من تحريف فى بعض أبياتها واختلاف فى ترتيبها ، فصاحب الأغانى يرويها عن ابن شبرمة رواية تختلف فيما بعد البيت الثانى من هذه الرواية على هذا النمط :

فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن ... على شرجع يعلى بخضر المطارف

ولكنّ قبرى بطن نسر مقيله ... بجو السماء فى نسور عواكف

وأمسى شهيدا ثاوياً فى عصابة ... يصابون فى فج من الأرض خائف

فوارس من شيبان ألف بينهم ... تقى الله نزالون عند التزاحف

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى ... وصاروا إلى ميعاد مافى المصاحف[1]

وهو اختلاف لا يضر بمعانى الأبيات ، وإن كانت رواية الأغانى هامة لذكرها الفوارس الشيبانيين الذين ألف بينهم تقى الله وهم قادة الصفرية الشجعان من أمثال شبيب وغير شبيب من زعماء الخوارج مما يدلل على صفريته .

ومهما كان من أمر تضارب الروايات ، فالمعانى فيها لا تتأثر بذلك ، ويكاد يكون الطرماح قد استدعى حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عقب رؤيته عمه حمزة وقد بقرت بطنه عن كبده « لولا أن تحزن صفية وتكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون فى بطون السباع وحواصل الطير[2] » .

وقد وصف الطرماح رفاق المذهب فى هذه المقطوعة على عادة شعراء الخوارج بالتقوى إلى جانب نعتهم بالشجاعة ، وقد ألح على هاتين الصفتين فى موضع آخر فقال :

لله در الشراة إنهـــم ... إذا الكرى مال بالطلا أرقوا

يرجّعون الحنين آونـــةً ... وإن علا ساعة بهم شهقوا

خوفاً تبيت القلوب واجفةً ... تكاد عنها الصدور تنفلق

كيف أرجّى الحياة بعدهم ... وقد مضى مؤنسىّ فانطلقوا

قوم شحاح على اعتقادهمُ ... بالفوز مما يخاف قد وثقوا[3]

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٣ . (٢) السيرة جـ ٢ ص ٨٦ .

(٣) الديوان ص ١٥٧ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

وهو وصف طريف لحياة الخوارج فى الحرب والسلم ، ويذكرنا بخطبة أبى حمزة فى المدينة وأبيات عمرو بن الحصين ، فالشراة لا ينامون الليل لانكبابهم على العبادة انكباباً يتشوقون خلاله إلى الجنة ويشهقون خوفاً من النار حتى لتكاد صدورهم تنشق واجفة وقد أضحت الحياة بعد أن خلفوها وانطلقوا إلى الجنة موحشة كئيبة لا يستطيع أن يحياها بدونهم .

وعلى قبس من زهد الخوارج فى الدنيا ومتاعها الزائل وماجاء فى القرآن الكريم من ذم الشحيح الذى يجمع المال ويدخره دون أن ينفق منه على المحتاجين والمساكين وماجاء فيه من مسئولية كل إنسان عما قدمت يداه يوم لا ينفع مال ولا بنون وتشهد رجله ويده بما قدم ، يقول الطرماح وكأنه يصوغ آيات بعينها من القرآن الكريم :

ترك الدهر أهلـه شعبا	فاستمرت من دونهم عقـده
وكذاك الزمان يطرد بالنـا	س إلى اليوم يومه وغـده
لا يليثان باختلافهما المـر	ء وإن أطال فيهما أمـده
كل حى مستكمل عدة العمـ	ـر ومود إذا انقضى عدده
عجباً ما عجبت للجامع الما	ل يباهى به ويرتفـده
ويضيّع الذى يصيره اللـ	ـه إليه فليس يعتقـده
يوم لا ينفع المخول ذا الثرو	ة خلاّنه ولا ولـده
يوم يؤتى به وخصماه وسط الجـ	ـن والإنس رجله ويـده
خاشع الصوت ليس ينفعه	ثم أمانيـه ولا لـدده
قل لباكى الأموات لا تبك للـ	ـناس ولا يستنع به فنده
إنما الناس مثل نابة الزر	ع متى يأن يأت محتصده[1]

وهى أبيات من الجمال بمكان لاحتوائها على الحقيقة فى بساطتها وتصويرها صوراً تكاد تكون منتزعة بأعيانها من القرآن الكريم ، وقد ساقها الطرماح فى إطار حكمى واضح تحف به الموسيقى الهادئة الملائمة للمقام ، وتستمد هدوءها

---

(١) الديوان ص ١١٢ .

من البحر الخفيف الذى ينساب صدره إلى عجزه فى اطراد إلى القافية التى تسكن فى نهاية البيت فتقف بالقارئ وقفة هادئة هدأة التأمل والاعتبار ونحس أن الطرماح فى هذه الأبيات وفيما سبقها من المقطوعات التى تتناول مذهب الخوارج ورجالهم ، إنما يصور العقيدة وحياة المؤمنين بها من الخارج ولكنه لا يعبر عنها تعبيرًا عن دخيلة نفسه أو مرتبطاً بمشاعره الذاتية حتى ليتحول فى هذه الأبيات إلى حكيم يصوغ معانيها صياغة عقلية بحتة ، تكاد تكون مستقلة عن نفسه مما يجعلنا نعتقد أنه فى شعره المذهبى كله لا يصدر عن تجربة شعورية بعينها ، وما سبب ذلك إلا أن عقيدة الخوارج لم تتعمق نفسه ولم تستغرقها استغراقاً بحيث تفنى فيها منازعه الشخصية المختلفة وظلت لها الصدارة فى نفسه مما بعد به عن روح الخارجى الحق .

وليس أدل على ذلك من أنه لم يستطع أن يخلص نفسه فى تمنيه الخروج للعقيدة وحدها مما وسم إيمانه بالنفعية والسطحية واقترب به اقتراباً تامًّا من خلق الصعلوك القديم فى قوله :

وإنى لمقتاد جوادى وقاذف ... به وبنفسى العام إحدى المقاذف
لأكسب مالا أو أؤول إلى غنى ... إلى الله يكفينى عداة الخلائف[1]

فهو فى قوله هذا لا يتميز عن الصعلوك الجاهلى عروة بن الورد إلا بتلك المسحة الدينية التى نسبت الغنى إلى الله فحسب ، فعروة يقول :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا ... من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرًا أو يفيد غنيمة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

فليس بين قوله وقول الصعلوك غير نسبة الغنى إلى الله ، والطرماح بهذا يخالف عن روح الخوارج التى تزهد أعراض الدنيا وزخرفها زهدًا يبلغ حد الازدراء وهو يعتد بسلطان المال على الرغم من تصريحه بالإنكار على جامعيه وتعجبه لأمرهم ، ذلك لأنه لا يرى المال غاية فى ذاته وإنما يراه وسيلة يستطيع

---

(١) الديوان ص ١٥٥ .

أن يحقق بها مطالبه وآماله ، وليس أدل على ذلك من قوله فى مديح عبدالله القسرى :

وشيبنى أن لا أزال مناهضاً   بغير غنى أسمو به وأبوع
وأن رجال المال أضحوا ومالهم   لهم عند أبواب الملوك شفيع
أمخترمى ريب المنون ولم أنل   من المال ما أعصى به وأطيع[1]

وقد أمر له ممدوحه هذا بعشرين ألف درهم وقال له امض الآن فاعص وأطع[2] وكثيراً ما كان هذا الكلف بالجاه والسلطان واتخاذ المال سبيلا إليهما يصطدم فى نفسه بكبريائها وزهوها ، كما حدث فى مديحه لمخلد بن يزيد المهلبى ، فإذ به ينزل عن الواسطة إبقاء على الغاية ، ويضحى بكلفه هذا فى سبيل كبرياء نفسه والحفاظ عليها ، وحبه لنفسه واعتداده به ينتشران فى غير موضع من أشعاره انتشاراً واسعاً ، وقوياً ، حتى تشعرنا قوته بعظمة هذه النفس وبخطرها وتميزها كما فى ذلك البيت الذى جعله كرنكو عنواناً على ديوانه ، والذى يصور فيه الطرماح نفسه قابضاً على عنان المجد والشعر ، والذى يقول فيه :

إذا قبضت نفس الطرماح أخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

ويذكر أبو الفرج أن رجلا رأى الطرماح فى مسجد البصرة وهو يخطر فى مشيته ، فتساءل من هذا الخطّار ؟ فسمعه الطرماح فقال : « أنا الذى أقول :

لقد زادنى حبّاً لنفسى أننى   بغيض إلى كل امرئ غير طائل
وإنى شقىٌّ باللئام ولا ترى   شقياً بهم إلا كريم الشمائل
إذا ما رآنى قطّع الطرف دونه   ودونىَ فعل العارف المتجاهل
ملأت عليه الأرض حتى كأنها   من الضيق فى عينيه كفة حابل
أكل امرئ ألفى أباه مقصراً   معاد لأهل المكرمات الأوائل

---

(١) الديوان ص ١٥٤ .

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٢ .

إذا ذُكرت مسعاة والده اضطنى ولايضطنى من شتم أهل الفضائل
وما مُنعت دار ولا عزّ أهلها من الناس إلا بالقنا والقنابل[١]

وهو إحساس عارم بالاعتداد ينبع من ذات شديدة الإعجاب بنفسها ، شاعرة بأنها تستحق أكثر مما تجد ، ويصل بها إعجابها إلى حد تستشعر معه الظلم والحسد من الآخرين الذين لا يعرفون قدرها ، وفى أكثر من موضع نجده يصور عظمة هذه النفس التى أحنقت عليه الناس وجمعتهم على بغضه من مثل قوله :

يؤلف بين الناس بغضى ومالهم سوى فرط إجماع علىّ جميع
ومابى من شكوى لنفسى منهم ولا جزع إنى إذن لجزوع[٢]

وهكذا نرى اعتداده بنفسه قد ملك عليه أقطارها وكاد يقطع ما بينه وبين الناس كافة من وشائج ، ومن هنا نفهم سر تلك الرابطة القوية التى ربطت بينه وبين الكميت الذى كان يعطيه من نفسه مايرضى كبرياء نفسه وتعظيمها .

ويلحق بهذا الاعتداد بالنفس فى شعره اعتداد لا يقل عنه قوة بقومه من طيئ وقحطان وإزراء على أعدائهم من العدنانية وعلى تميم بوجه خاص ، وفخره بقومه فخر عادى لا يتميز عن الفخر التقليدى إلا بما يخلعه عليه من أثر الدين كأن يعتد ببلاء الأنصار وأهل الشام فى دعم الإسلام وتثبيت أركان السلطان مستغلا فى ذلك بعض الأحداث القبلية التى وقعت فى عصره كمقتل قتيبة بن مسلم الباهلى الذى كانت الأزد سبباً فى قتله ، فيقول :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والأزد زعزع واستبيح العسكر
واستضلعت عقد الجماعة وازدرى أمر الخليفة واستحل المنكر
فبعزنا نصر النبى محمد وبنا تثبت فى دمشق المنبر
قوم هم قتلوا قتيبة عنوة والخيل جانحة عليها العثير[٣]

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٠ ، شرح التبريزى للحماسة جـ ١ ص ٧٧ .
(٢) الديوان ص ١٥٤ .
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٠٦ .

وهو فى سبيل الفخر بقومه لم يبال بالاعتراف بخلافة الخليفة الأموى فى دمشق مخالفاً فى ذلك ما اتفق عليه الخوارج جميعاً من خلعهم وإنكار حقهم وقد أفاد الأزد من قتل قتيبة إذ حل يزيد بن المهلب محله والياً على خراسان فارتفع الطرماح يفخر ويمدحه مدحاً غالياً حتى ليلقبه بالملك فى قوله :

ملك تديـــن لـــه الملـــو ك ولا يجانبـــه المناضل[1]

وهو يكبر فيه يمنيته ويعظم من شأنها إعظاماً لنفسه ولقومه وعلى الرغم من ذلك؛ فمدحه سواء أكان ليزيد أو لغيره فاتر إلى حد بعيد ، وسبب ذلك إعظامه الشديد لنفسه لدرجة أنه لايكاد يرى خارج نطاقها أحداً قميناً بالمدح مما يجعله لا يتقن المديح أصلا ولهذا كان الفخر أقرب فنون الشعر إلى هذه النفس المتعالية ، ولهذا تراه عندما يقف بإزاء أعداء قومه من العدنانية يستلهم حوادث التاريخ القريبة فى صدر الإسلام ويشيد ببلاء قومه فى نصرته وردع المرتدين من تميم وقيس وخندف منددا بتحولهم عن الحق إلى متابعة سجاح على الباطل ولم يفته أن البعض قد يتهم قومه بأنهم أول من أوقد نيران الفتنة فاعتذر عنهم محتجاً بأنهم هم الذين أخمدوا ضرامها وبأنهم ضربوا معداً على الإسلام حتى انصاعت لهم ، يقول :

بهم نصر الله النبى وأثبتت عرى عقد الإسلام حتى استمرت
وهم دمغوا بالحق أيام خالد شياطين أهل الشرك حتى اطمأنت
شياطين من قيس وخندف غرها من الله ماكانت سجاح تملت
فإن يك منا موقدوها فإننا بنا خمدت نيرانها فاضمحلت
ونحن ضربنا يوم نعفى بزاخة معداً على الإسلام حتى تولت[2]

وكما كان الفخر أقرب فنون الشعر إلى نفسه ، كان الهجاء أيضاً يلائم سخطها الحانق على الغير ملاءمة جعلته يبدع فى هذا الضرب من الشعر إبداعاً ذهب معه القدماء إلى أن الطرماح إذا ماركب الهجاء فإنما يوحى إليه[3] .

---

(١) الديوان ص ١٩٠ . (٢) الديوان ١٤٣ .
(٣) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥١ .

وخير ما يمثل تفوقه فى هذا الفن هجاؤه لتميم إذ نراه يقذع فيه إقذاعاً شديداً ويحقرها وأحلافها تحقيرا ويصفها بالجبن والضعة والخيانة واللؤم والذلة أمام قومه الأزديين ، ونراه يصب حممه على الفرزدق شاعر تميم معرضاً بنسبه وبشعره ويمضى ينبش ماضى تميم وأيامها القديمة مبيناً عن تمكن الشعور القبلى من نفسه حتى ليكاد يكون جاهليـًّا خالصاً فى عصبيته يقول :

لاعز نصر امرئ أمسى له فرس ... على تميم يريد النصر من أحد
إذا مادعا بشعار الأزد نفرهم ... كما ينفر صوت الليث بالنقد
لوحان ورد تميم ثم قيل لها ... حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو نزّل الله وحيا أن يعذبها ... إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
وكل لؤم أباد الدهر ثلته ... ولؤم ضبة لم ينقص ولم يبد
لو كان يخفى على الرحمن خافية ... من خلقه خفيت عنه بنو أسد
قوم أقام بدار الذل أولهم ... كما أقامت عليه جذمة الوتد
فاسأل قفيرة بالمرّوت قد شهدت ... عسب الحطيئة بين الكر والنضد
أم كان فى غالب شعر فيشبهه ... شعر ابنه فينال الشعر من صدد
جاءت به نطفة من شرماء ضرى ... سيقت إلى شر وادٍ شق فى جدد
لا تأمنن تميميـًّا على جسد ... قد مات مالم تزايل أعظم الجسد
واسأل زرارة والمأمون مافعلت ... قتلى أوارة من رعلان واللـــدد
ودارم قد قذفنا منهم مائة ... فى حاجم النار إذ يلقون فى الخدد
ينزون بالمشتوى منها ويوقدها ... عمرو ولولا حلوم القوم لم تقد
وذاك أن تميما غادرت سلما ... للأسد كل حصان وعثة اللبد
ياطيئ السهل والأجبال موعدكم ... كمبتغى الصيد أعلى زبية الأسد[1]

وهذا التعريض بتميم يكثر فى شعر الطرماح بأساليب مختلفة من مثل هذه الصورة الشديدة الإقذاع التى يعرض فيها بلؤمها فيقول :

لو كان يبكى القبر من لؤم حشره ... بكت من تميم كل يوم قبورها[2]

---

(١) الديوان ص ١٤٥ (٢) الديوان ص ١٩١ .

ومن مثل قوله معرضاً بضعفها وادعائها ولؤمها :

بأى بلاد تطلب العز بعدما بمولدها هانت تميم وذلت
أفخرا تميميًّا إذا فتنة خبت ولؤماً إذا ما المشرفية سلت
تميم لطرق اللؤم أهدى من القطا ولو سلكت طرق المكارم ضلت[1]

ويحتال حتى يخرجها إلى حظيرة الكفار فى قوله :

ذبحنا فسمينا فتم ذبيحنا وما ذبحت يوماً تميم فسمت[2]

وهو هجاء مقذع بما فيه من إقذاع ومرارة وسخرية وإغراق فى الإفحاش بالطرماح عن خلق الخوارج وما عرفوا به من دماثة وحياء ، ولكنه هجاء كأمتن ما يكون الهجاء وأقواه حتى ليقفز بصاحبه إلى طبقة الهجائين الأول فى هذا العصر الذهبى لفن الهجاء ، وقد كان الطرماح خليقاً به أن ينضم إلى فرسانه بل أن يتقدمهم فى هذا المضمار إذ بدأ بهجاء الفرزدق ولكنه انصرف عنه وإن كان هجاؤه لا يقل عن هجائه قوة ومتانة لمناسبته لشموسه وتعاليه وسوء ظنه بالناس ، وهو على متانة تركيبه وقوة لفظه يتمتع بسلاسة وسهولة واضحة . وربما كان ذلك راجعاً إلى أنه قصد له أن يشيع بين الناس .

ولا يحظى الغزل فى شعر الطرماح بنصيب وافر فضلا عن الغزل التقليدى الذى نطالعه فى مفتتح قصائده التقليدية التى يجارى فيها القدماء ويستهلها بالتحسر على الرحيل، وهو متكلف وفاتر إلى حد بعيد ، ولكننا نلمس صدق العاطفة وحرارتها فى غزله بزوجه سلمى التى كان مولعاً بها ، وقد حدثت بينهما جفوة جعلته يحن إليها على هذا النحو فى قوله :

إذا ذكرت سلمى له فكأنما تغلغل طفل فى الفؤاد رضيع[3]

ومن ذلك ما يخاطب به ابنه منها ، ويدعى الصمصام ، بصدد جفائها فيقول :

أصمصام إن تشفع لأمك تلقها لها شافع فى الصدر لم يتبرح

---

(١) ، (٢) الديوان ص ١٤٣ .

(٣) الديوان ص ٨١

هل الحب إلا أنها لو تعرضت   لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحى[١]

ويمثل الوصف أخطر جزء فى شعره فنية ، فهو فيه جاهلى فى موضوعاته وأسلوبه مغرب إلى حد بعيد فى ألفاظه ، حتى ليخيل إلى من يقرؤه أنه إنما يحاول بكل وسيلة ممكنة أن يجمع أوابد الألفاظ ووحشيها ، وهو جانب دفعه إليه اشتغاله بتعليم الناشئة ، ويمكن لكل من يطالع شعره أن يفرق فيه بين قسمين متمايزين : قسم أراد له أن يدور فى أفواه الناس فهو لا يغرب فيه وإنما يسوقه فى بساطة وسهولة وسلاسة كتلك الأساليب التى استخدمها فى وصف عقيدته والفخر بنفسه وبقومه وفى هجاء أعدائهم وقسم آخر أراد له أن يقتصر على الدوران فى أفواه المتأدبين حتى يقفوا على الألفاظ اللغوية الغريبة وفى أفواه اللغويين ومن يعنون بالغريب منها فهو قسم تعليمى محض ضمنه جزءاً كبيرا من شعره هو الجزء الخاص بالوصف .

وقد مر بنا كيف أن محمد بن حبيب سأل ابن الأعرابى العالم اللغوى المشهور عن ثمان عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح فلم يعرف منها واحدة[٢] .

فالطرماح فى هذا الجانب من شعره قد عمد إلى اصطناع متن صعب من غريب اللغة وكأنه يريد أن يبرهن على مقدرته اللغوية وأن يشغل بها بال الرواة وقد حدث هذا بالفعل حتى لنستطيع أن نقول إن هذا الإغراب كان له بعض الفضل فى حفظ شعره من الضياع نتيجة لعناية الرواة واللغويين واتخاذهم إياه مادة لاستشهاداتهم حتى إن صاحب اللسان قد استشهد بشعر الطرماح نحوا من مائة مرة ، كما يذكر ناشر ديوانه أنه جمع له نحواً من ستة وخمسين بيتاً من أساس البلاغة للزمخشرى ليس لها وجود فى مكان آخر أما بقية شعره فكان عرضة للضياع ، وليس أدل على ذلك من أن سيبويه قد استشهد فى كتابه بثلاثة أبيات من شعر الطرماح رواها لنا البغدادى فى خزانته ثم أردف أن

---

(١) الديوان ص ٩٦

(٢) الأغانى جـ ١٠ ص ١٤٩

القصيدة سبعون بيتاً[١] ولكن القصيدة فى الديوان لا تتجاوز اثنين وثلاثين بيتاً ، مما يدل على أن أكثر من نصف القصيدة قد فقد .

والطرماح فى هذا الجانب الوصفى من شعره يقلد الجاهليين ويتأثر صنعتهم تأثراً بعيداً فهو يحذو حذوهم فى ديباجة القصيدة إذ يستهلها بالغزل وبالتحسر على رحيل المحبوبة ، ثم يخلص إلى الفخر بنفسه وركوبه المصاعب ومعاناته قسوة الحر كالجنادب ، ثم يصف بعض ما يعرض له من حيوان الصحراء كالذئب ووصف حالاته والأرض التى يعيش فيها ، ثم يتحدث عن ناقته فيصفها وينتهى إلى وصف القطا كما صنع فى أولى قصائد الديوان التى يبدو فيها بوضوح تخلخل ظاهر بين وصفه لناقته ووصف القطا وربما كان ذلك لضياع جزء بينهما .

والطرماح لا يغرب فى أجزاء القصيدة المختلفة إلا فى الوصف ،وقد اضطرته رغبته فى جمع الأوابد والوحشى من الألفاظ إلى الاستعانة بالصور التقليدية القديمة واتخاذها قوالب يصب فيها ما يشاء من الألفاظ الوعرة ، مثلما فعل بتلك الصورة المعروفة فى شعر لبيد للبقرة الوحشية التى شبه ناقته بها فى قوتها واستطرد إليها فذكر أن السبع قتل ولدها فى غيبتها فلما عادت ثارت وهاجت وأخذت تعول وتنوح وزاد فى وصف حزنها فجعل الأمطار تشاركها فى عبراتها وتبكى لبكائها فاجتمع عليها الحزن والبرد والمطر حتى لجأت إلى جذع شجرة نائية لتقضى ثمانية أيام فى فزع حتى يجف ضرعها . ثم عرض لصراعها مع كلاب الصيادين وانتصارها عليها .

ويلفت النظر أن الطرماح قد التقط من هذه الصورة منظرا كرره فى عدة قصائد من شعره وهو منظر الحيوان وقد نزل عليه المطر خائفاً يستتر من كلاب الصيد التى تعدو عليه ، ونكاد نشعر أنه يتوخى نفس التركيب الذى استهل به لبيد وصف بقرته إذ يقول :

أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوار قوامها[٢]

---

(١) خزانة الأدب جـ ٣ ص ٤١٨ . (٢) الديوان ص ٦٤ .

فيقول الطرماح فى بداية الصورة :

أذاك أم ناشط توسنـــه جارى رذاذ يستن منجـرده

ثم يصف الحيوان فى خوفه وحزنه فيقول :

غاط حتى استبات من شيم الأر ض سفاه من دونها تـأده

طالع نصفه ونصفه يـــوا ريه حفير يحفه سنـــده

بيتته السماء من آخر الليـــ ـــل بشؤبوب مهذب برده

فهو طاو تزل عن متنه الـ قطر نفى إهابــه صرده

وغدا إذاً بدت له الشمس يج تاب كثيباً أخلى له عقــده

ويرسم بعد ذلك صورة الثور وهو يخوض معركة ضارية مع الكلاب تنتهى بانتصاره عليها فينطلق على أثرها يطوى الأرض ويعتسف البيداء :

بينما ذاك هاجه غدوة جمـ ـع ضراء مقلـد قـددة

ثم آدته كبرياء على الكـ ر وحرد فى صدره يجـــده

فهو ثان يذوجهن بروقيـ ـه معاً أو بطعنــة عنده

... تتشظى عنه الضراء فما تش بت أغمــاره ولا صيـــده

فهى سبحه اليقين ومـــالا قى عطاف والموت محـــتره

إذ أقادته عادة كان يرجـو ها فوافى المنون ترتصـــده

وغدا الثور يعتسف البيـ ـد لا يكتن من جريه ويجتهده

ولاشك فى أن الشبه قريب بين صورة الطرماح وصورة لبيد وفى أجزائهما وفى تفصيلاتهما ، بل فى بعض تراكيبهما ، وقد تكررت هذه الصورة أكثر من مرة فى عدة قصائد من شعره مما يقطع بأنه قد فتن بها فنقلها وأجاد رسمها مدلاً بقدرته على مجاراة القدماء مستغلاً هذه الصورة وأضرابها فى عرض متونه من غريب اللغة الذى كلف به .

ومن الإنصاف أن نذكر أن الطرماح لم ينزع إلى تقليد النهج الجاهلى إلا فى هذا الجزء الوصفى من شعره وهو لم يصنع ذلك لمجرد التقليد وإنما إظهاراً

لبراعته واستغلالا لهذه الصور التى فتن بها وأجاد رسمها بتحميلها متون الغريب .

وليس شك فى أنه كان يرى فى شعر الجاهليين مثالا يحتذى ولكنه لم يحتذ نهجهم إلا فى الوصف فلم يكن بإمكانه احتذاءهم فى الهجاء والفخر إذ قد تطور هذان الضربان بعد الإسلام تطورا واضحاً وظهر أثرالدين فيهما لدى الطرماح ظهوراً وإن كان شاحباً فهو موجود على أية حال .

وعلى الرغم من تقليد الطرماح للجاهليين فى الجزء الوصفى من شعره إلا أنه كان يستطيع أحياناً أن يأتى فيه بما يبهر إذ كان أبو عبيدة والأصمعى يفضلانه فى الوصف ويزعمان أنه أشعر الخلق لهذه الصورة التى يقول فيها :

مجتاب رحلة برجد لسراتـــه   قددا وأخلف ما سواه البرجد
يبدو وتضمره البلاد كأنـــه   سيف على شرف يسل ويغمد[١]

وقد شغل الرواة بغريبه شغلا حفظ بعض شعره من الضياع كما تقدم غير أنه أثار جدلا واسعاً حول قدرته اللغوية وحسه اللغوى فبعض أئمة اللغة لم يكونوا يحتجون بشعره ، وباستعمالاته اللغوية فيه وعده الأصمعى من المولدين الذين لا يحتج بشعرهم وزعم أنه استعمل عبارات أغار عليها من أقوال غيره دون أن يفهمها فهماً صحيحاً[٢] .

وهو إنما يعنى أخذه عن رؤبة الذى يروى أنه وهو فى فارس سأله الطرماح والكميت عن شىء من الغريب فلما كان بعد رآه فى شعرهما[٣] .

وكذلك تهمه بعض الروايات بأن حسه اللغوى ليس دقيقاً وبأنه كان مشغولا بإدخال الكلمات النبطية فى كلامه بعد أن يعربها[٤] .

ويبدو أن نشأته فى الحضر كانت ذات أثر كبير فى ضعف حسه اللغوى

---

(١) الأغانى جـ ١٠ ص ١٥١
(٢) الموشح ص ٢٠٨ ، ٢٠٩
(٣) الموشح ص ٢٩٢ ، الأغانى جـ ١٠ ص ١٥٦
(٤) الموشح ص ٢٠٨

فجاء استخدامه للألفاظ البدوية الغريبة فى شعره استخداماً غير دقيق ، وتساق أمثلة كثيرة للتدليل على ذلك منها ماجاء فى وصفه لثور وحشى فى ليلة ممطرة تلفه سحابة سارية وطفاء أى مثقلة بالماء [١] ولكنه يصفها بأنها هف مبرد ولفظ هف ومعناه فارغ يدل على أن السحابة فارغة من المطر لا يناسب المعنى وحتى لوكانت (هيف) كما جاء فى رواية المرزوقى[٢] فمعنى هيف هو ريح الجنوب مما لا يتناسب مع السحابة الباردة المثقلة بالماء فيكون الطرماح قد خالف بذلك طريقة استعمال البدو كما يقول المرزوقى[٣] .

ومن ذلك أيضاً قوله فى مديح يزيد بن المهلب :

لأم تحن بـــــه مــــــزا ميرِ الأجانب والأشامـــل[٤]

فقد صاغ جمع شمل على أشامل مجاراة للفظ أجانب الذى قبله[٥] .

وقد أخذ عليه[٦] أيضاً اختصاره لفظة تلاميذ إلى تلام بسبب القافية[٧] .

ولكن هذه المخالفات لا تنتقص من قدر الطرماح ولا من قيمة شعره الفنية والتاريخية واللغوية ، فهو وإن كان ما وصل إلينا من شعره لم يعرض من قرب وبصورة ملحوظة للمسائل السياسية فى عصره على الرغم من كونه شاعرا من شعراء المذاهب العقائدية فإنه يعطينا بشعره اصورة تقريبية لشخصيته المتفردة المتعالية ولتعصبه القبلى ويعطينا المفتاح الذى نفهم به عدم فنائه فى عقيدة الخوارج التى أعجب بها ، وإن لم يستطع أن يهبها كل نفسه فلم يبسطها فى شعره ولم يدافع عنها وإنما صورها من الخارج وعبر عن إعجابه بها وبإيمان رجالها وشجاعتهم فى الأبيات القليلة التى بقيت له على الأرجح من هذا الشعر فى هذا المضمار .

---

(١) الديوان ص ٩٠
(٢) الأزمنة والأمكنة جـ ٢ ص ٧٨
(٣) العربية ص ٣٨
(٤) الديوان ص ١٩٠
(٥) العربية ص ٣٩
(٦) العربية ص ٣٩
(٧) الديوان ص ١٠٠

وعلى الرغم من إحساسنا بحرارة صدقه فى هذه الأبيات التى يصور فيها إيمان رفاقه ورغبته فى احتذائهم فإن عقيدته وتدينه لم يكن لهما الصدارة فى شعره إذ شغلته نفسه وحبه لنفسه وما كلف به من طموح دنيوى ساقه إلى محاولة توفير وسائل الجاه والعظمة لنفسه من مال وسلطان الأمر الذى بعد به عن روح الخوارج وجعله يضطرب فيما اضطرب فيه غيرهم من الشعراء الذين لم يلتزموا بعقيدة أو بمذهب ، فكان أن فخر بغير العقيدة وهجا بعناصر الهجاء القبلى فأقذع فى الهجاء وطلب بشعره الرفد والعطاء .

وهو بهذا كله إنما يمثل فى اتجاهه فئة بعينها من عامة الخوارج لم تكن تتمثل مثلا أعلى فى العقيدة والسلوك .

فإذا كان قطرى شاعر الفئة المتشددة من الخوارج فى إيمانها وسلوكها وكان عمران شاعر الفئة المتشددة فى إيمانها وخلقها دون اعتداد بالجهاد فإن الطرماح يمثل تلك الفئة التى لم تكن تتشدد لا فى إيمانها ولا فى سلوكها وإنما هى مؤمنة بعقيدة الخوارج وإن كان إيمانها لم ينسها ما ألفت من عصبية للقبيلة وغلو فى الاعتداد بالفردية واغترار بالدنيا وحب لمتاعها .

الفصل الثالث

شعراء الزبيريين

١

لاحظنا فيما سبق قلة شعر الزبيريين ، وقد أرجعنا ذلك إلى قصر المدة التى بسط فيها الزبيريون سلطانهم مما لم يمكّن لمذهبهم الذيوع والتأصل والترداد على ألسنة الشعراء إلى جانب ما اتصف به رأس هذا الحزب من بخل وحرص شديدين جعلا كثيرا من الشعراء ينصرفون عنه إلى جانب أعدائه وبخاصة عبد الملك الذى كان بحق سياسيًّا أريباً يعرف كيف يستخدم المال فى جمع الناس من حوله فاستغل الشعراء استغلالا يخدم مطامحه ، واتخذهم ألسنة ، تنافح عن ملكه حتى صار الشعر السياسى أعلى فنون الشعر الأموى صوتاً فى عهده وعهد أبنائه من بعده .

ولم يكن عبد الملك أول من فهم أهمية الدور الذى يلعبه الشعراء فى توطيد أركان الملك والترويج له وقيامه وسيلة وحيدة للإعلام بنشر ألوان الدعاية المختلفة وإبطال أدلة الخصوم .

فقد كان معاوية أول من انتهج هذه السياسة حتى قبل أن يئول إليه الحكم إذا اصطفى كعب بن جعيل التغلبى وسمّاه شاعر الشام واتخذه لساناً ضد على وشيعته مما اضطر عليًّا أن يلقاه بشاعر من شيعته هو النجاشى شاعر العراق . وكذلك استعان بمسكين الدرامى حينما أراد أن يبايع لابنه يزيد فكان أن هاجم مسكين المعارضين والمتلكئين وندد بهم ، وفى عهد معاوية أيضاً أوعز يزيد إلى كعب بن جعيل بأن يهجو الأنصار لوقوفهم إلى جانب على وكان الهجاء مشتعلا آنذاك بين شاعر الأنصار عبد الرحمن بن حسان وشاعر أموى آخر هو عبد الرحمن بن عبد الحكم ، وضن كعب بنفسه

أن يهجو الأنصار تحرجاً ودل يزيد على الأخطل المسيحى فأغراه بالأنصار فهجاهم وترتب على ذلك أن ثارت ثائرة الأنصار ، وشكا النعمان بن بشير إلى معاوية شاعره لكنه لم يعاقبه ولم يمكن منه بشفاعة يزيد .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه الذى يؤمن بدور الشعر فى الانتصار للسياسة والتوطيد لها ، أن تزاحم الشعراء على قصور الأمويين حيث تدفقت الأموال والهبات ، وأصبح لبنى أمية ألسنة فى كل رقعة من الأمصار الإسلامية ، فكان لهم بالشام عدى بن الرقاع والأخطل ، وبالعراق جرير والفرزدق وعبدالله بن الزّبير الأسدى ، وبالجزيرة الأخطل والقطامى وأعشى تغلب ، وبالحجاز الأحوص وأبو العباس الأعمى ، وغيرهم كثيرون من الشعراء الذين انتجعوا رفدهم فى كل مكان ، ولم يشذ عن هذه السنة من بنى أمية غير عمر بن عبد العزيز إذ لم يكن ممن يعطون الشعراء حتى اشتهر بأنه يعطى الفقراء ويمنع الشعراء[١]

ولكن عمر كان يفعل ذلك ضناً بأموال المسلمين وليس شحاً بدليل أنه كان يعطى الشعراء من عطائه الخاص[٢] .

ولكن عبدالله بن الزبير كان على النقيض من هذا تماماً إهدارا لقيمة الشعر ولدوره السياسى فى الدعاء والترويج للأفكار كما كان على النقيض من ذلك أيضاً فى البخل على الشعراء والشح فى العطاء . ويضرب الرواة لذلك مثلا هوأن فضالة بن شريك الأسدى فى أرجح الروايات وفد عليه[٣] فقال : «إن ناقتى قد دبرت ونقبت» فقال له ابن الزبير : «أرقعها بجلد وأخصفها بهلب وسر البردين بها تصح» فقال فضالة : «إنى قد جئتك مستحملا ولم آتك مستوصفاً فلعن الله ناقة حملتنى إليك» فقال له ابن الزبير «إنّ وراكبها» فانصرف فضالة من عنده وهو يقول :

أقول لغلمتى شدوا ركابى ... أجاوز بطن مكة فى سواد

---

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٤٩ . (٢) نفس الموضع

(٣) انظر فى هذه الوفادة الأغانى جـ ١٠ ص ٦٢ ١ ، والإصابة جـ ٣ ص ٢٢٤ ، ومعجم الشعراء ص١٧٦ وتهذيب ابن عساكر جـ ٧ ص ٤٢٤

فمالى حين أقطع ذات عرق | إلى ابن الكاهلية من معاد
سيبعد بيننا نصّ المطايـا | وتعليق الأداوى والمـزاد
وكل معبد قد أعملتـه | منا سمهن طلاّع النجـاد
أرى الحاجات عند أبى خبيب | نكدن ولا أميـة فى البلاد
من الأعياص أو من آل حرب | أغر كغرة الفرس الجـواد
شكوت إليه أن نقبت قلوصى | فرد جواب مشدود الصفاد
يضن بناقة ويروم ملكـاً | محال ذلكمْ غير السداد
وُليت إمارة فبخلت لمـا | وليتهم بملك مستفـاد
فإن وليت أمية أبدلوكم | بكل سميدع وارى الزنـاد
إذا لم ألقهم بمـنى فإنى | ببيت لا يهش له فؤادى (١)

والشاعر هنا لا يكتفى بالتعريض بابن الزبير وببخله وإنما يربط بين الطموح إلى الملك العريض والبخل وبين استحالة اجتماعهما معا ، إذ لا يسوغ أن يطلب ابن الزبير ملكاً عريضاً وهو فى نفس الوقت يضن على شاعر يمكن أن يشيد به ويماكه بناقة استوهبها إياه ولكنه بدلا من أن يهبه إياها راح ينصحه ويشير عليه فى علاج ناقته وهو لم يأت مستوصفاً وإنما أتى مستحملا فلم يحمل غير لعنات ابن الزبير . ويمضى الشاعر فيشيد بكرم بنى أمية الفياض وينتهى إلى أنه صائر إليهم ، ولعل فى هذا الحادث ما يفسر السبب فى قلة الشعراء الذين صدروا عن رأى ابن الزّبير فى الخلافة أو دافعوا عنه ، فكأنه لم يكن يعنيه هذا الصدور أو ذلك الدفاع .

وتروى نفس هذه الحادثة مع اختلافات يسيرة على أنها جرت بين عبدالله ابن الزبير بن العوام والشاعر عبدالله بن الزّبير الأسدى(٢) كما أن الأبيات السابقة تروى له أيضاً مع اختلاف فى ترتيبها وعددها ، ويبدو أنها قصة واحدة ولكن

---

(١) الأغانى ج ١ ص ٨ ، ج ١٠ ص ١٦٥

(٢) الأغانى ج ١ ص ٨ ، وتاريخ الخلفاء ص ٢١٣ .

شهرة ابن الزبير بالبخل دفعت الرواة ، إلى أن ينسجوا على منوالها قصصاً متشابها .

وأيًّا كان الأمر فإن روايتها بهاتين الصورتين إمعان في التشهير بشح ابن الزبير الذى لم ينج منه المقربون إليه من مثل مولاه أبى حرة يقول فى ذلك على لسان الموالى :

إن الموالى أمست وهى عاتبة على الخليفة تشكو الجوع والحربا
ماذا علينا وماذا كان يرزؤنا أى الملوك على ما حولنا غلبا[١]

فلا يعنى مولى ابن الزبير ، مادام هو وقومه يشكون الجوع والجهد ، أن يغلب عليهم أى سلطان فالحال واحد والعناء مقيم ، وقد فارق ابن الزبير وقال بعد ذلك فيه :

ما زال فى سورة الأعراف يقرؤها حتى فؤادى مثل الخزّ فى اللين
لو كان بطنك شبرا قد شبعت وقد أفضلت فضلا كثيرا للمساكين
أن امرأ كنت مولاه فضيعنى يرجو الفلاح لعمرى حق مغبون[٢]

وهو بهذا إنما يتهكم مما ادعاه ابن الزبير من الزهد والقناعة وقوله إنه إنما شبر بطنه وأن بطنه شبر فما عسى أن يسع ذلك من الدنيا ؟ وأنه العائذ بالبيت والمستنجد بالرب[٣] .

وتروى روايات أخرى كثيرة عن بخل عبدالله بن الزبير على الشعراء بخاصة ، تقابلها روايات أخرى عن إغداق الأمويين عليهم ، ومن ذلك أن عبدالملك سأل أبا العباس الأعمى عن خبر الملحد حيث كسا أشياعه ولم يكسه واستنشده ما قال فى ذلك ، وكان ابن الزبير قد كسا رجلا من حلفاء بنى أسد بن عبد العزى ثوبين وأمر له ببرد تمر فأنشد أبو العباس :

كست أسد إخوانها ولو أننى ببلدة إخوانى إذن لكسيت
فلم تر عينى مثل قوم تحملوا إلى الشام مظلومين منذ بريت

فهوينعى على ابن الزبير أنه لم يكسه ويتحسر على إخوانه الأمويين

---

(١) ، (٢) الأغانى جـ ١ ص ١١
(٣) نفس المرجع

الذين طردوا إلى الشام مظلومين فلو كانوا موجودين لكسوه ، اوقد كساه عبدالملك وأقسم على كل جلسائه وأشياعه أن يكسوه فجعلوا يرمون عليه ، وأمر له بمائة ألف درهم[١] .

وما سقنا هذه الروايات إلا لنوضح أثر شح ابن الزبير فى انفضاض الشعراء من حوله والتحول عنه إلى خصومه ، وقد يكون مفيدا أن نلاحظ ما ادعاه أبو العباس الأعمى وفضالة بن شريك من قبله أو عبدالله بن الزّبير من التحسر على مفارقة بنى أمية وافتقادهم لكرمهم الفياض وكأنهم يجعلون ذلك سبباً فيما حل بالبلاد من شح وبخل .

وقد درج عبدالملك على سياسة تقريب الشعراء حتى وهم بين ظهرانى ابن الزبير وكأنما يغريهم به ، فكانت صلاته وجوائزه تأتى أبا العباس الأعمى من الشام حتى ضاق ابن الزبير بكرم عبد الملك فدعا أبا العباس وأغلظ له وهم به لولا أن كلم فيه وشفع له بأنه رجل مضرور فنفاه إلى الطائف ، وكان نتيجة هذا العمل أن أبا العباس هجا ابن الزبير وهجا قومه جميعاً بالبخل والشح واللؤم والبعد عن المكرمات والمجد فى قوله :

بنى أسد لا تذكروا الفخر إنكم	متى تذكروه تكذبوا وتحمّقوا
بعيدات بين خيركم لصديقكم	وشركم يغدو عليه ويطرق
متى تسئلوا فضلا تضنوا وتبخلوا	ونيرانكم بالشر فيها تحرّق
إذا أسبقت يوماً قريش خرجتم	بنى أسد سكتا وذو المجد يسبق
تجيئون خلف القوم سودا وجوهكم	إذا ماقريش للأضاميم أصفقوا
وماذاك إلا أن لاؤم طابعـاً	ياوح عليكم وسمه ليس يخلق[٢]

وكان عبد الله بن الحجاج الثعلبى إثر سقوط النجدات الذين خرج معهم قد لاذ بابن الزبير وصار من شيعته وخاصته ، وقد ظل إلى جانبه طوال مدة خلافته ، ولكننا لا نعرف أنه قال فى الانتصار له ولمذهبه بيتاً واحدا من الشعر

---

(١) الأغانى جـ ١٥ ص ٥٩

(٢) الأغانى جـ ١٥ ص ٦٠

فلما انتهى إلى عبد الملك بن مروان بعد أن قتل عبد الله بن الزبير ، أنشده شعرا يقارن فيه بين بنى أمية وآل الزبير مظهرا بعد البون بينهما فقال :

ولقد وطئت بنى سعيد وطــأة ... وابن الزبير فعرشه متضعضع
مازلت تضرب منكباً عن منكب ... تعلو ويسفل غيركم مايرفع
ووطئتهم فى الحرب حتى أصبحوا ... حدثا يؤس وغابرا يتجعجــع
لا يستوى خاوى نجوم آفـــل ... والبدر منبلجاً إذا ما يطلــع
وضعت أمية واسطين لقومهم ... ووضعت وسطهم فنعم الموضع
بيت أبو العاصى بناه بربــوة ... عالى المشارف عزه ما يدفــع
ضاقت ثياب الملبسين وفضلهم ... عنى فألبسنى فثوبك أوســع

فرمى عبد الملك إليه بمطرفه ، وقال له : ألبسه ، فلبسه ودعاه إلى خوانه وأمنه[١] وهكذا كان البون شاسعاً بين ابن الزبير والأمويين فى تقدير الشعراء وليس شك فى أن ابن الزبير قد خسر كثيراً بسبب هذه النظرة القاصرة إلى دور الشعر فى الترويج لمذهبه متأثرا فى نظرته هذه ببخله وشحه وكزازته .

ولم يكن هذا هو السبب الوحيد فى انصراف الشعراء عنه ولكن هناك أسباب أخرى منها أنه وقع فيما وقع فيه الأمويون . وفشل فيما نجح فيه رجل كالمختار الثقفى ، وذلك أنه لم يرفق بآل البيت ولم يرع مكانتهم فى نفوس الناس فحبس ابن الحنفية وأبعده وأعطى المختار فرصة استنقاذه من بين يديه ليتخذ من هذه الحادثة سبيلا إلى قلوب الشيعة والمسلمين جميعاً وكانت نتيجة ذلك أن ابن الزبير استهدف لهجوم شديد من شعراء الشيعة من مثل كثيّر الذى ندد بصنيعه وادعائه بأنه عائذ بالبيت ولكنه فى الحقيقة ظالم لهذا الشيخ المرتاع فى سجن عارم بينما الحمام آمن بجنبات البيت حيث ينبغى أن يكون العدو كالصديق المسالم حرمة وأمنا ، يقول كثير :

من ير هذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم
بحيث الحمام آمن الروع ساكن ... وحيث العدو كالصديق المسالم

---

(١) الاغانى ج ١٢ ص ٢٦ .

تخبر من لاقيت أنك عائـذ بل العائذ المظلوم فى سجن عارم[١]

وحقـًّا كان صنيع ابن الزبير سقطة لم يتجنبها بل زلة كما قال كثير :

وكيف ذكرت حال أبى خبيب وزلـة فعله عند السؤال[٢]

ولم ينج من إيذائه عبد الله بن عباس وأخوه عبيدالله فقد نفس عليهما مكانتهما بين الناس والتفافهم من حول عبدالله يفقههم فى الدين والتفافهم من حول عبيد الله يطعمهم ويرفدهم وقد أحفظ ذلك عبدالله بن الزبير وخشى ألا يبقى له شيء من حب الناس فأغرى بهما صاحب شرطته مما جعله يستهدف لنبال شاعر شيعى كأبى الطفيل الذى تلومه وعنف به فى قوله :

لا درّ درّ الليالى كيف تضحكنا منها خطوب أعاجيب وتبكينا

ومثل ما تحدث الأيام من غـُير يا ابن الزبير عن الدنيا تسلينا

كنا نجى ابن عباس فيقبسنا علماً ويكسبنا أجرا ويهدينا

ولايزال عبيدالله مترعـــة جفانه مطعماً ضيفاً ومسكينا

فالبر والدين والدنيا بدارهمـا ننال منها الذى نبغى إذا شينا

ثم يمضى فيقارن بين ابن الزبير وآل هاشم فيقول :

ولست فاعلمه أولى منهمو رحما يا ابن الزبير ولا أولى به دينا

ففيم تمنعهم عنا وتمنعنـــا عنهم وتؤذيهم فينا وتؤذينـا

لن يؤتى الله من أخزى ببغضهم فى الدين عزا ولا فى الأرض تمكينا[٣]

فبنو هاشم أقرب إلى النبى من آل الزبير وأولى بالحق منهم لقرب رحمهم من الرسول ولإخلاصهم فى الدين ، وابن الزبير لإيمانه بهذا يحول بينهم وبين الناس ، وأن الله سيخزى كل من أبغضهم ولن يمكن له فى الأرض .

لكل هذا ازورّ الشعراء عن ابن الزبير ، لأنهم لم يجدوا لديه ماكانوا يجدونه فى قصور بنى أمية من تدفق العطاء والتقدير اللائق بألسنة الدعاء فانصرفوا عنه إلى خصومه ولم يكتفوا بذلك وإنما نددوا به وبشحه ،

---

(١) الأغانى ج ٨ ٣١

(٢) الأغانى ج ٨ ص ٣٢

(٣) الأغانى ج ١٣ ص ١٦١

واستنكروا سيادة مثله من البخلاء ، وقارنوا بينه وبين أعدائه وتحسروا على كرمهم الفياض وتباروا فى التمكين لهم بكل لسان .

وكذلك ندد به شعراء الشيعة وهم يرونه لا يرفق بآل البيت الذين كان يتباكى عليهم قبل أن يؤول إليه السلطان .

ومن ثم كان شعراء آل الزبير قليلين بصورة ملحوظة وكانوا أحد رجلين إما شاعر آمن بقلبه إيماناً لا يتزعزع بصحة مادعوا إليه ورأى فيه أمالا من آمال قومه وإما شاعر منتجع اشترى كرمهم النادر بأبيات نادرة وعاج بعدها عنهم ولم يعد إليهم مرة أخرى .

٢

وقد دفعت الظروف ببعض الشعراء إلى ابن الزبير ، فانتجعوه ومدحوه وأشادوا بعدله وبره وصوره أحدهم فى صورة الصديق وابن الخطاب وعثمان فى سيرتهم حتى ارتاح المعدمون وعمّ الناس العدل على سواء واستحال الظلام الحالك صباحاً أبلج وتنتهى الأبيات بطلب العون والعطاء دفعاً للحاجة الملحة ، هكذا :

حكيت لنا الصديق لما وليتنا ... وعثمان والفاروق فارتاح معدم
وسويت بين الناس فى العدل فاستو ... وا فعاد صباحاً حالك اللون مظلم
أتاك أبو ليلى يجوب به الدجى ... دجى الليل جواب الفلاة عثمثم
لتجبر منه جانباً زعزعت بـــه ... صروف الليالى والزمان المصمم[1]

وأبو ليلى هذا هو النابغة الجعدى ، وقصة وفادته على ابن الزبير تذكر أنه لجأ إليه لما أقحمته السنة فدخل عليه المسجد الحرام فأنشده هذه الأبيات فقال له ابن الزبير « هوّن عليك يا أبا ليلى فإن الشعر أهون وسائلك عندنا ، أما صفوة مالنا فلآل الزبير ، وأما عفوته فإن بنى أسد بن عبد العزى تشغلها عنك وتيما معها ، ولكن لك فى مال الله حقان حق برؤيتك رسول الله صلى الله

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٣٧ .

عليه وسلم وحق بشركتك أهل الإسلام فى فيئهم » ، ثم أخذه بيده فدخل بيت النعم فأعطاه قلائص سبعا وجملا رجيلا ، وأوقر له الإبل برًّا وتمرا وثيابا فجعل النابغة يستعجل فيأكل الحب صرفاً ، فقال ابن الزبير « ويح أبى ليلى لقد بلغ به الجهد» . فقال النابغة : «أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما وليت قريش فعدلت واسترحمت فرحمت وحدثت فصدقت ووعدت خيرا فأنجزت فأنا والنبيون فراط لها ضمن »[١] .

وابن الزبير لم يعط النابغة لأنه شاعر ، فالشعر كما قال أهون وسائله عنده وإنما أعطاه لصحبته ولجهاده ، وكان يمكن أن يكسب ابن الزبير كثيرا لو سار مضمون الحديث الذى ذكره لابن الزبير فى أشعاره وعرف طريقه إلى الناس .

وكذلك تلقانا أبيات أخرى لشاعر آخر يدعى أبو وجزة السعدى يمدح فيها آل الزبير ويعرّض بإبراهيم بن هشام المخزومى ويذكر أبو الفرج — فى شأن هذه الأبيات — أن أبا وجزة خرج لمديح آل الزبير فسأل أبازيد الأسلمى ، وكان فى طريقه ، لمديح إبراهيم بن هشام هذا أن يتشاركا فيما يصيبان من العطاء فأبى أبو زيد معتدًّا بأن رجاءه فى إبراهيم أعظم من رجاء أبى وجزة فى آل الزبير وقدما المدينة فأتى أبو زيد دار إبراهيم فدخلها وأنشد وصاح وجلب ، فدعا إبراهيم بعض خاصته لإخراج هذا الأعرابى الجلف وضربه ففعلوا به ذلك وأتى أبو وجزة أصحابه فمدحهم وأنشدهم فكتبوا له إلى مال لهم بالفرع أن يعطى ستون وسقا من التمر فقال أبو وجزة تلك الأبيات التى أشرنا إليها معرضاً بصنيع إبراهيم بن هشام المخزومى بأبى زيد الأسلمى فقال :

راحت قلوصى رواحاوهى حامدة ... آل الزبير ولم تعدل بهم أحدا
راحت بستين وسقا فى حقيبتها ... ماحملت حملها الأدنى ولاالسددا
ما إن رأيت قلوصاً قبلها حملت ... ستين وسقا ولاجابت بها بلدا
ذاك القرى لا كأقوام عهدتّهم ... يقرون ضيفهم الملوية الجددا[٢]

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٣٧ . (٢) الأغانى ج ١١ ص ٧٧

وهو يشير فى البيت الأخير إلى السياط التى نالها أبو زيد من خاصة إبراهيم، وتذكر الرواية أن الناقة لا تحمل ستين وسقا ولا تطيقها وأنه إنما يعنى انصرافه بالكتاب الذى كتب له فى حقيبتها ، وقد ذكر بعض الدارسين المحدثين أن هذه الأبيات قيلت فى مديح عبدالله بن الزبير ، والتعريض بإبراهيم بن هشام والى المدينة لهشام بن عبدالملك[١] وهو وهم لاريب فيه ، فلا يستقيم أن يكون عبد الله بن الزبير معاصرا لهشام بن عبد الملك فقد قتل عام ٧٣ ﻫ بينما ولى هشام الخلافة عام ١٠٥ ﻫ . وحقيقة الأمر أن الأبيات قيلت فى ابن أخيه عبدالله ابن عروة بن الزبير فقد عمّر أبو وجزة حتى سنة ١٣٠ ﻫ [٢] ولزم فى أخريات أيامه عبدالله بن عروة هذا ، فكان يفضل عليه ويقوم بأمره إلى أن بلغه أن أبا وجزة أتى عبدالله بن الحسن بن الحسين بن على مادحاً فأطرحه وأمسك يده عنه ، ولم يزل أبو وجزة يمدح آل الزبير ولا يرجع له عبد الله بن عروة إلى ما كانا عليه ولا يرضى حتى قال :

آل الزبـــير بنوحـــرة ... مروا بالسيوف صدورا خنافا
سل الجرد عنهم وأيامهـــا ... إذا امتعطوا المرهفات الحقافا
يمرتون والقتـــل داء لهـــم ... ويصلون يوم السياف السيافا
إذا فرج القتل عن عيصهم ... أبى ذلك العيص إلا التفافـــا
مطاعيم تحمـــد أبياتهـــم ... إذا قنع الشاهقات الطحافـــا
وأجبن من صافـــر كلبهـــم ... إذا قرعته حصاة أصافـــا[٣]

وحينئذ رضى عنه عبدالله بن عروة وعاد إلى ما كان عليه ، وهكذا لم يمدح النابغة ابن الزبير إلا ممحلا ، وهو لم يعطه شاعرا ، ولم يمدح أبو وجزة عبد الله وإنما مدح ابن أخيه عروة بعد زوال خلافة الزبيريين بزمن بعيد .

ومعنى هذا هو ما سبق أن قلناه من أن ابن الزبير قد انصرف عن الشعراء

---

(١) أحمد الحوفى أدب السياسة ص ٢١١

(٢) الأغانى ج ١١ ص ٧٧

(٣) الأغانى ج ١١ ص ٨١

وإن كان بعضهم لم ينصرف عنه انتجاعا لما بين يديه ، ويبدو من رواية أبي الفرج بشأن أبي وجزة تشكك أبي زيد الأسلمي في كرم آل الزبير ، والحقيقة أنه على الرغم من الثروات الطائلة التي خلفها لهم الزبير فقد عرفوا بالشح حتى ليروى أنه ما رؤى في الناس أبخل منهم ولا من عبد الله خاصة وأنه لم يكن فيهم جواد غير مصعب(١) .

وقد كان مصعب فتى من فتيان قريش شجاعة وسخاء ، فلما ولى العراق لأخيه انهلت غيوثه على الشعراء فمدحه منهم كثيرون مثل أعشى همدان ودكين الفقيمي وعبد الله بن الزَّبير الأسدى وسراقة بن مرداس البارقي والمتوكل الليثي وغيرهم ،ولكنه مديح لا شأن له بالدعاء للفكرة الزبيرية بحيث لا يصدق عليه أنه شعر سياسي ملتزم بمذهب معين فهو ثناء في مقابل العطاء .

وقد يعجب شاعر بمصعب إعجاباً مجرداً عن الرغبة في ماله ومنصباً على شخصه فتى من فتيان العرب الطامحين الأسخياء .

ومصعب في هذا تختلف صورته عن أخيه تمام الاختلاف من حيث تقديره للشعر والشعراء وماهما من القدرة على مساندة الدعوات السياسية ، وقد نرى شاعرا واحدا تختلف نظرته إلى عبدالله وإلى أخيه مصعب ، فقد مر بنا كيف هجا أبو العباس الأعمى الشاعر الأموى عبدالله وعرّض بشحه وكزازته ولكنه لم يستطع إلا أن يمدح مصعباً وأن يرثيه بعد مقتله ، ولم يجبن عن أن ينشد هذا الرثاء أمام عبد الملك بن مروان لما استنشده قائلا : إنما رثيته بذلك لأنه كان صديقي ، وقد علمت أن هواى أموى ، فقال عبدالملك : صدقت ولكن أنشدني ما قلته فأنشده :

يرحم الله مصعبا فلقـد ما ت كريماً ورام أمرا جسيما(٢)

وكثيراً ما كان مصعب يسترضى الشعراء من خصومه وكأنه يحاول حملهم على أن يتنكبوا طريقهم إلى طريقه ، وكان ينجح في ذلك إلى حد بعيد كما

---

(١) الأغاني ج ١٣ ص ١٠١

(٢) الأغاني ج ١٥ ص ٥٨

فعل مع عبد الله بن الزّبير الأسدى وهو أموى الهوى متعصب لبنى أمية منتصر لهم على عدوهم ، وكان مصعب قد هدم دار أسماء بن خارجة وحرقها لما هرب إلى الشام وكان أسماء من رجال الأمويين ، فلما وقع عبدالله بن الزّبير أسيرا فى يد مصعب ذكّره ببعض أبياته فى القصيدة التى استنكر فيها هدم دار أسماء ، وقال له : إيه يابن الزّبير أنت القائل :

إلى رجب السبعين أو ذاك قبله تصبحكم حمر المنايا وسودهـا

ثمانون ألفاً نصر مروان دينهم كتائب فيها جبرئيل يقودها[1]

فقال : « أنا القائل كذلك ، وإن الحقير ليأبى المعذرةولو قدرت على جحده لجحدته فاصنع ما أنت صانع » فقال مصعب : « أما أنى ما أصنع بك إلا خيرا ، أحسن إليك قوم فأحببتهم وواليتهم ومدحتهم » ثم أمر له بجائزة وكسوة ورده إلى منزله مكرما ، فكان عبدالله بن الزّبير بعد ذلك يمدحه ويشيد بذكره حتى قتل فعنى بالبحث عن قاتله ، وهو عبيدالله بن ظبيان واستقبله بقوله :

أبا مطر شلّت يمين تقرعت بسيفك رأس ابن الحوارى مصعب[2]

فقال ابن ظبيان : فكيف النجاة من ذلك ؟ قال ابن الزبير : لا نجاة هيهات سبق السيف العذل ، وقد ظل ابن ظبيان بعد أن كشف ابن الزبير أمره لا ينتفع بنفسه فى نومه ولا يقظته ويهول عليه فى منامه فلا ينام حتى كل جسمه ونهك ، ولم يزل كذلك حتى مات[3] .

وعلى غرار مصعب كان ابن أخيه حمزة بن عبد الله بن الزبير سخاء وكرماً بلغا حد الإفراط والسرف مما جذب إليه الشعراء ، كما مر وبخاصة موسى شهوات الذى مدحه مدائح كثيرة تنم عن جوده الفياض من مثل قوله :

حمزة المبتاع بالمال الثنـــا ويرى فى بيعه أن قد غبن

فهو إن أعطى عطاء فاضلا ذا إخاء لم يكدّره بمـــن

(١، ٢، ٣) الأغانى ج ١٣ ص ٣٦

وإذا ما سنة مجحفة برت الناس كبرى بالسفن
حسرت عنه نقيا عرضه ذا بلاء عند مخناها حسن
نور صدق بيّن فى وجهه لم يدنس ثوبه لون الدرن
كنت للناس ربيعا مغدقا ساقط الأكناف إن راح ارجحن (١)

وكان حمزة معنيًّا بتقريب الشعراء واجتذابهم نحوه بإغداق الأموال عليهم وبخاصة شاعر الزبيريين ابن قيس الرقيات ، فلم تكن مكانة أحد من الشعراء تدانى مكانته لديهم ، ويذكر أبو الفرج أن ابن قيس استأذن عليه ذات يوم فقالت له الجارية : ليس عليه إذن الآن ، فقال ابن قيس : أما أنه لو علم بمكانى ما احتجب عنى ،فلما دخلت الجارية على حمزة وأخبرته قال : ينبغى أن يكون هذا ابن قيس ائذنى له فأذنت له ، فقال حمزة : « مرحباً بك يا ابن قيس هل من حاجة نزعت بك » قال : نعم زوجت بنين لى ثلاثة ببنات أخ لى ثلاث ، وزوجت ثلاثة من بنى أخ لى بثلاث بنات لى ، قال حمزة : فلبنيك الثلاثة أربعمائة دينار ، أربعمائة دينار ، ولبنى أخيك الثلاثة أربعمائة دينار ، أربعمائة دينار ، ولبناتك الثلاث ثلثمائة دينار ، ثلثمائة دينار ، ولبنات أخيك الثلاث ثلثمائة دينار ، ثلثمائة دينار ، فهل بقيت لك من حاجة يا ابن قيس ؟ قال : لا والله إلا مؤنة السفر ، فأمر له بما يصلحه لسفره حتى رقاع خفاف الإبل (٢) .

وغير مصعب وحمزة لانجد أحدا من آل الزبير يجذب الشعراء أو يجزل لهم العطاء غير عمرو بن الزبير الذى لزمه عبدالله بن الزّبير الأسدى ، وكان صديقاً له وخلاًّ ونديما ،وقد رثاه رثاء حارًّا ندد فيه بأخيه عبدالله بن الزبير لقتله إياه تحت السياط ، وأمر بألا يجهّز أو يغسّل أو يدفن فى مقابر المسلمين (٣) .

(١) الأغانى جـ ٣ ص ١١٧
(٢) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٣
(٣) ابن الأثير جـ ٤ ص ٨

وكان إبراهيم بن الأشتر النخعى قائد مصعب من الفتيان الممدَّحين ، وقد منح عبدالله ابن الزَّبير الأسدى عشرين ألف درهم ، وكان الشاعر نفسه قد استوهبه ألفاً واحدة ، بعد أن مدحه بقوله :

الله أعطاك المهـــابة والتقى ... وأحل بيتك فى العديد الأكثر
وأقر عينك يوم وقعة خازر ... والخيل تعثر بالقنا المتكسر
إنى مدحتك إذ نبا بى منزلى ... وذممت إخوان الغنى من معشرى
وعرفت أنك لا تخيّب مدحتى ... ومتى أكن لسبيل خير أشكر
فهلمّ نحوى من يمينك نفحـــة ... إن الزمان ألح يا بن الأشتر [١]

وقد دار حول مصعب شعر كثير يذهب كله فى المديح ، ولكن المدح من حيث هو لا يهمنا ، وإنما الذى يهمنا ذلك الشعر الذى لم يستهدف به أصحابه كسباً ولا منفعة خاصة وإنما يتجه فيه الشعراء إلى الدفاع عن نظرية الزبيريين فى الخلافة والهجوم على خصومهم ، وتأليب القبائل عليهم .

ولعل شاعراً لم يبلغ من ذلك ما بلغه عبيدالله بن قيس الرقيات شاعر الزبيريين الذى التزم بدافع من إيمانه المخلص بأفكارهم والدفاع عن نظريتهم التزاما تامًّا دون مدافع .

٣

وقد اختلف الرواة فى اسم ابن قيس [٢] أهو عبيدالله أم عبدالله ، ولكن الراجح أنه عبيد الله ، وعبد الله أخوه ، وأبوه قيس بن شريح ، وينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب ، كما ينتهى نسب أمه قتيلة بنت وهب إلى عبد مناة بن

---

(١) الأغانى ج ١١ ص ٤٧ .

(٢) انظر فى ترجمته الأغانى (الساسى) ج ٤ ص ١٥٤ وما بعدها ، والشعر والشعراء ج ١ ص ٥٢٣ وطبقات الشعراء ص ٥٣٠ وخزانة الأدب ج ٣ ص ٢٦٥ والموشح ص ١٨٦ وشواهد المغنى ص ٢١١ والشعر الغنائى فى مكة ص ٢٠٤ ومابعدها وحديث الأربعاء ج ١ ص ٢٤٩ وله ديوان نشره رود كناكس فى فينا ١٩٠٢ ، وحققه محمد يوسف نجم .

كنانة ، فهو إذن قرشي الأب والأم .

وكما اختلفوا فى اسمه ، اختلفوا أيضاً فى سبب نعته بالرقيّات ، وأصوب الآراء أنه كان يشبب بثلاث نسوة سمين جميعاً رقيّة فنعت بالرقيّات إشارة إلى ذلك .

وقد ولد عبيد الله فى مكة فى أوائل العقد الثانى للهجرة لأنه عندما أمّنه عبدالملك ورفض أن يفرض له ، سأله عبدالله بن جعفر أن يعمر نفسه ليأمر له بعطاء ، فقال إن عمره آنذاك ستون سنة[١] وهو تحديد تقريبى لأننا نشك أنه توخى الدقة فى تعميره لنفسه فقارب بزيادة أو بنقصان ، وأما وفاته فكانت سنة ٨٠هـ إذا صحت الرواية التى تزعم أنه مات فى السنة الخامسة عشرة لولاية عبد العزيز بن مروان لمصر[٢] .

وأول ما نعرف من أخباره يفيد ملازمته لبعض المغنين ، وولعه بالتحبب إلى الحسان فى الحج ، وقد تعلق برقية بنت عبد الواحد بن سعد أحد أفراد عشيرته الذين هاجروا إلى الجزيرة ، وسرعان ماأخذ ينظم فيها أشعاره ، ويبدو أنه لتعلقه بالمغنين والمغنيات تحول عن مكة إلى المدينة ، ويذكر صاحب الأغانى أخبارا له مع سائب خاثر وبديح وفند وهم من مغنى المدينة المشهورين[٣] .

ويبدو أنه نزل المدينة مع نفر من عشيرته فيهم أخوه عبد الله ، ونراه يذكر فى بعض أشعاره دارا له بها[٤] ويبدو من أخباره المبكرة فى المدينة أنه كان يحيا حياة ملؤها اللهو والعبث ، ونراه يضيق بمروان بن الحكم الذى كان معاوية يعقب بينه وبين سعيد بن العاص فى حكمها ، وكانت فى مروان

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٧

(٢) النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٧١

(٣) انظر الأغانى جـ ٤ ص ١٥٨ ، جـ ١١ ص ٤٧

(٤) الديوان ص ٢٤

غلظة وشدة جعلتاه يأخذ المغنين ودورهم بالضبط الشديد ، ولم يكن صاحب شرطته مصعب بن عبدالرحمن بن عوف الزهرى بأقل منه غلظة وشدة فقد رأى أنه لا يستطيع أن يضبط المدينة بحرسها فسأل مروان أن يمده بمائتى رجل من أهل أيلة فضبطها ضبطاً شديدا[1] .

وقد تعرض ابن قيس الرقيات لشدة مصعب ووصف غلظته وقسوته فى أبيات هى أول ما نعرف له من الشعر ، منها قوله :

منع اللهــــو والهــــوى وسرى الليـــل مصعـــب
وسياط على أكـــــــــف رجال تقلـــب[2]

وإلى هذا الطور من حياته يرجع نظم مقطوعاته فى الغزل ليترنم بها المغنون والمغنيات ويبدو أنه أراد أن ينأى بنفسه عن أحداث المدينة فى الفترة التى ثارت فيها على يزيد بن معاوية فرحل إلى الجزيرة حيث عاش حياة مليئة باللهو والدعة والفراغ وقد صور هذه الفترة فى قوله مخاطبا نفسه :

أتلبث فى تكريت لا فى عشيرة شهود ولا السلطان منك قريب
وأنت امرؤ للحزم عندك منزل وللدين والإسلام منك نصيب[3]

وفى الجزيرة واتته أنباء الحيرة ، ومقتل طائفة من أهل بيته ، بينهم أسامة وسعد ابنا أخيه عبدالله فهزته تلك الأنباء المفجعة فإذا هو يبكى قتلى الحرة من أهله بكاء حارًّا يمور بالثورة والتحريض على يزيد وبنى أمية من مثل قوله :

والله أبرح فى مقدمـــــة أهدى الجيوش على شكتيّه
حتى أفجّعهم بإخوتهـــــم وأسوق نسوتهم بنسوتيّـــــه[4]

وقد اضطربت حياة ابن قيس اضطراباً شديداً بعد هذه الفترة ، وتأثرت

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥
(٢) الديوان ص ١٧٧ ، الأغانى جـ ٤ ص ١٥٥
(٣) الأغانى جـ ٤ ص ١٦٢
(٤) الديوان ص ١٨٩ .

إلى حد بعيد بما ثار بين قيس وتغلب من حروب نتج عنها اصطدام عشيرته بعمير بن الحباب أحد زعماء قيس فى بعض غاراته مما جعله يؤثر التحول عن الجزيرة إلى فلسطين ، ولم يلبث أن تركها إلى العراق بعد أن تولى مصعب ناصية الأمور فيه ، وكان طبيعيًّا أن يلوذ بمصعب وأن يركن إليه وهو أشد ما يكون حنقاً على بنى أمية منذ كانت وقعة الحرة ، وجعله ذلك يميل إلى عقيدة الزبيريين والإخلاص لها أشد ما يكون الإخلاص وقد وجد فى نظريتهم فى الخلافة ما يرضى نفسه الموتورة من بنى أمية وحلفائهم من القبائل اليمنية الذين هتكوا حرمة الأماكن المقدسة وفتكوا بأهل الحجاز فتكا ذريعا ، فرسخ فى موطن الاعتقاد منه أن الخلافة لابد أن تكون فى قريش روحاً وواقعاً عمليًّا بحيث تكون قصبتها فى الحجاز وبحيث تعتمد على القرشيين لا على كلب وأخواتها .

وليس شك فى أنه يصدر فى هذا الاعتقاد عن قرشيته من جهة وعن وتره من بنى أمية وأهل الشام فى الحرة من جهة ثانية ، ولهذا كان اعتناقه للعقيدة الزبيرية اعتناقاً مخلصاً مندفعاً يشوبه حقد شديد على الأمويين وتدفعه رغبة ملحة فى نقض حكمهم نقضا ، ويجدر بنا أن نلاحظ أنه على الرغم من التزام ابن قيس بنظرية الزبيريين فإنه لم يقف عند حدود نظرتهم الضيقة وكان بلاشك أوسع منهم أفقاً كما كان أوسع من بنى أمية ومن بنى هاشم أيضاً .

فنظرة ابن قيس تمتد حتى تشمل المضريين جميعاً ، فنراه يعتز بهم وبوطنهم الأصلى وهو إن كان يعتقد بضرورة كون الخلافة فى قريش فما ذلك إلا لأنها سنام مجد مضر ، وذورة شاهقة من ذرا عظمتها وفخارها ، فعلى المضريين جميعاً أن يجتمعوا حول قريش صاحبة الحق الأول فى الخلافة ، وعلى قريش أن تتشبث بهذا الحق وأن تقيم بوحدتها سياجاً عالياً حوله وأن تتجنب الفرقة التى قسمتها فرقاً وشيعاً وأحزاباً ، وابن قيس معنى أشد العناية وحريص أشد الحرص على وحدة قريش ذات المجد التليد منذ الجاهلية ، والطريف بظهور الإسلام ، فكان عبيد الله بن قيس بذلك شاعر قريش ، ويجمع وجوه قريش

وأشراف العرب على ذلك وعلى أنه لا ينازعه هذا اللقب أحد من الشعراء فى الإسلام[١]

وقد راح يشيد بقريش وباحتوائها دولة الإسلام وقيامها فيها ، وكما فخر بقريش أخذ يبكى أيام وحدتها ويستشعر العوادى التى يخاف منها عليها ويدعوها إلى لم شعثها قبل شماتة أعدائها ، ولعل خير ما يصور عقيدته الزبيرية همزيته التى يفتتحها بقوله :

أقفرت بعد عبد شمس كداء　　فكدى فالركن فالبطحاء[٢]

وأطال بعد ذلك فى ذكر الأماكن التى تركها القرشيون وخلفوها وراء ظهورهم مؤثرين عليها ربوع الشام ، كما نوه برجالهم ونسائهم الحسان ، ناعياً هذا المصير الذى آلت إليه قريش بتفرق أبنائها شيعاً وبلدانا حتى طمع فيها الطامعون :

حبذا العيش حين قومى جميـ　　ـع لم نفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل فى ما　　لك قريش وتشمت الأعداء

ويمضى فيعارض أعداء فكرته من الخوارج دعاة التسوية مؤكدا أن قريشا عماد الخلافة وأنها لو زالت لسقط ركنها سقوطاً لا تقوم لها بعده قائمة :

أيها المشتهى فناء قريش　　بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش　　لا يكن بعدها لحى بقاء

وكذلك يتوجه بالخطاب إلى عبد الملك هازئاً بما يتمناه من فناء سلطانها ساخرا من غيظه الذى يكاد يؤدى به بقوله :

قد عمرنا فمت بدائك غيظا　　لا تميتن غيرك الأدواء

ثم يمضى فى الفخر بقريش وبفضلها على الإسلام والخلافة فيذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاءه الراشدين وعمه حمزة وجعفر الطيار والزبير ابن العوام حوارى الرسول وأبا عبد الله ومصعب ، ويشيد بانتصار مصعب على

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٤

(٢) الديوان ص ١٨٢

المختار الثقفى معرضاً بمخاريقه وأساطيره لينتهى إلى مدح مصعب مدحاً مصطبغا بصبغ دينى رائع فيقول :

إنما مصعب شهاب من الـــ له تجلت عن وجــه الظلماء
ملكه ملك قوة ليس فيه جـــبروت ولا به كبرياء[١]

وكأنه يعرض بملك بنى أمية الذى يقوم على القهر والتسلط والطغيان ، ويعود بعد ذلك إلى الافتخار بقريش وبرجالها فى الجاهلية والإسلام منوهاً ببيتها الحرام ، حزيناً لما أصابه على أيدى جيوش الشام ومشيدا ببناء ابن الزبير له بعد ذلك ولا يلبث أن يدعو دعوة عنيفة إلى الثورة ببنى أمية الذين استنصروا باليمنيين وقتلوا الحسين بن على فهدموا بذلك باذخا من صروح قريش ، وهم لكل هذا عداته الألداء ولا شفاء لنفسه إلا بقتلهم .

وعلى هذه الصورة كان ابن قيس الرقيات يعبر عن اعتقاده السياسى وكان يضيف إلى ذلك مديحاً لعبد الله بن الزبير صاحب الدعوة الذى يمثل فى نظر الفكرة الزبيرية أمل قريش فى الرفعة والسلطان ، لأنه أجدر قريش بالخلافة ، ولكنه مديح قليل جداً حتى لا يكاد يزيد على قصيدة واحدة قصيرة للمدح منها بيتان اثنان هما قوله :

وابن أسماء خير من مسح الر كن فعالا وخيرهم بنيانا
وإذا قيل من هجان قريش كنت أنت الفتى وأنت الهجانا[٢]

ولا نجد لذلك سبباً إلا ما نعرفه من ازورار عبدالله عن الشعراء وما كان من بخله وحرصه الشديد ، ويؤكد هذا أن لابن قيس الرقيات فى مدح مصعب ورثائه قصائد متعددة وحارة العاطفة تنم عن إخلاص الشاعر وولائه له .

وكان ابن قيس لا يزال يذكر فى شعره أسفه لوقعة الحرّة مضيفاً إليه أساه لوقعة مرج راهط التى هزم فيها أنصار ابن الزبير من القبائل القيسية

---

(١) نفس المرجع
(٢) الديوان ص ١٨٩

متوعدا عبد الملك بالثأر، مشيدا بمصعب وبشجاعته وتقواه وكرمه ، وكان قد رأى أن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت حين لج الهجاء بينه وبين يزيد ابن معاوية لجأ إلى الغزل الفاضح برملة أخته وسيلة إلى إغاظته والكيد له ، فحاكاه مصطنعاً التغزل بعاتكة زوج عبدالملك وبأم البنين زوج ابنه الوليد ، وهو بلاشك غزل سياسى للغاية ، وفضلا عن أنه كان يسوقه فى مقدمة مدائحه لمصعب فإنه كان يحرص على أن يعرضهما فى صورة تؤذيهما وتؤذى فيهما بنى أمية جميعاً ، من مثل قوله فى عاتكة :

بدت لى فى أترابها فقتلننى كذلك يقتلن الرجال كذالكا
وقالت لو أنا نستطيع لزاركم طبيبان منا عالمان بدائكا[1]

وقد مر بنا كيف عبث بعبد الملك وبالوليد حينما تخيل أم البنين وقد جاءته فى الحلم فنال منها ما أراد ، وفى نفس الوقت كان ابن قيس يشبب بزوجتى مصعب بن الزبير عائشة بنت طلحة ، وسكينة بنت الحسين ، ولكنه كان تشبيباً يحف به الوقار وكأنه أزهار ثناء يهديها إلى مصعب ، وكأنه قصد بذلك أيضاً إلى أن يقرن الناس الصورتين من الغزل بعضهما إلى بعض ليظهر لهم إزراؤه على بنى أمية وعبثه بهم ظهورا بينا ، وليس شك فى أن الصورتين مختلفتان إلى حد التناقض الذى يكشف عن مدى خبثه ومكره ونجاحه فى اتخاذ الغزل أداة لشعره السياسى ومن قوله فى عائشة وكان رسول مصعب إليها وهى غاضبة عليه :

جنيّـــة برزت لتقتلـنى مطلية الأصداع بالمسك
عجباً لمثلك لا يكون لــه خرج العراق ومنبر الملك
ترمى لتقتلنى بأسهمهـا وزنها بالحلم والنسك[2]

وابن قيس فى هذه الأبيات إنما يبرزها فى صورة النسك والطهارة والجلال والعفاف وليس فى صورة مبتذلة كالتى ظهرت فيها أم البنين فى شعره ، وهو

(١) الديوان ص ١٥٩ .
(٢) الديوان ص ١٤٧

إمعان فى إغاظة الأمويين وإرضاء الزبيريين ، وعلى وجه خاص مصعب بن الزبير الذى أخلص له إخلاصاً نادرا تتحدث عنه الروايات حديثاً تتضوع فى أكنافه أزاهير الوفاء والحب الذى يدفع به إلى أن يخرج معه للقاء عبد الملك غير ضنين بنفسه فى سبيل فكرته وقائده ، ويدفع مصعباً إلى أن يدعو شاعره وقد رأى بوادر الغدر به وبجيشه وأيقن بأنه مقتول لا محالة فيجهزه بالمال والعدة ويتوسل إليه أن ينطلق بحياته إلى حيث يشاء . ولكن الشاعر المخلص يقسم ألا يريم حتى يرى سبيل قائده فيقيم معه حتى يقتل بعينه ، وحينئذ ساغ له أن ينطلق كاسفاً حزيناً إلى الكوفة فيمضى إلى أول بيت يصير إليه فيدخله طلباً للأمان ، وقد كان هذا البيت لامرأة من الأنصار تسمى كثيّرة تعيش مع ابنتيها الجميلتين ، ويبدو أنها كانت زوج على بن عبد الله بن العباس[1] وقد كان ممن يجيرون على عبد الملك بن مروان ، وقد قامت كثيّرة على ما يحتاج إليه ابن قيس من الطعام والشراب والراحة خير قيام ، تغدو عليه فى كل صباح فتسأله عما يريد دون أن تسأله من يكون ؟ ودون أن يسألها من تكون ؟ وهو أثناء ذلك كله يسمع الصياح بطلبه والجعل المفروض لمن يدل عليه ، وقد أقام ابن قيس على ذلك النحو قرابة الحول ، حتى فقد الصياح بطلبه واشتاق الشخوص إلى أهله فأنبأ مضيفته بذلك فوعدت بتحقيق رغبته . ولما كان المساء أعدت له راحلتين عليهما ما يحتاج إليه ومعهما عبد وأعطت العبد نفقة الطريق ، وقالت لابن قيس وهى تودعه « العبد والراحلتان لك » ، ومضى ابن قيس ومعه العبد حتى بلغا مكة ووجد ابن قيس أهله يبكون ويولولون إشفاقاً عليه وخوفاً من أن يناله طالبوه الذين ما فتئوا يبحثون عنه فأقام معهم حتى أسحر ثم انطلق إلى المدينة حتى أتى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب متنكراً ، وجعل يتعاجم ليموّه على الحاضرين حتى خلاله مجلس ابن جعفر فكشف له عن وجهه وعاذ به فوعده ابن جعفر بأن يكتب فى شأنه إلى أم البنين بنت عبد العزيز بن مروان وزوج الوليد بن عبد الملك بما لها من حظوة عند الخليفة وكتب عبدالله إلى أم

---

(١) انظر وفيات الأعيان ص ٢١٤ .

البنين يسألها أن تشفع له عند عمها ، وكتب إلى أبيها بذلك أيضاً ، وتمضى الرواية وهى زبيرية السند عن عبد الله بن البصير البربرى مولى قيس بن عبد الله ابن الزبير عن أبيه عن ابن قيس نفسه فتذكر أن عبدالملك دخل على أم البنين فسألها هل من حاجة ؟ كما كان يفعل ، فذكرت أن لها حاجة وتمنت عليه أن يقضيها ، وكأن الرواية تقصد أن تضخم من شأن ابن قيس وخطره فتذكر أن عبد الملك وعدها بتحقيق كل حاجة لها إلا أن تكون ابن قيس الرقيات ولكنها تطلب منه أن لا يستثنى عليها شيئاً ، وكأن الرواية تحاول أيضاً أن تبرر ما سينتهى إليه عبد الملك من إجابتها إلى طلبها فتذكر أن عبد الملك حين سمع ذلك نفخ بيده فأصاب خدها فوضعت يدها على خدها ، وحينئذ قال لها عبدالملك وكان أرق شىء عليها : ارفعى يدك يا ابنتى فقد قضيت كل حاجة لك وإن كانت ابن قيس الرقيات ، فطلبت إليه أن يؤمنه وضمت إلى شفاعتها شفاعة أبيها الذى سألها أن تسأل عبد الملك ذلك فأمنه وأذن له فى أن يحضر مجلسه فى عشية اليوم وقد شهد ابن قيس المجلس ، وحضر الناس فأذن لهم وأخر الإذن له حتى أخذوا مجالسهم فلما دخل عليه قال عبد الملك يا أهل الشام أتعرفون هذا ؟ قالوا : لا ، فقال : هذا عبيدالله بن قيس الرقيات الذى يقول :

كيف نومى على الفراش ولمّا تشمل الشام غارة شعواء

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدى عن خدام العقيلة العذراء[1]

فقالوا يا أمير المؤمنين : اسقنا دم هذا المنافق فقال : الآن وقد أمّنته ؟ وصار فى منزلى ، وعلى بساطى ، قد أخرت الإذن له لتقتلوه فلم تفعلوا ؛ فاستأذنه ابن قيس فى أن ينشده مديحه فأذن له ، ويبدو بوضوح إلحاح الرواية على إبراز العداء الشديد الذى يكنه أهل الشام لابن قيس بوصفه شاعر آل الزبير وقريش التى تضيق بنفوذهم وباعتماد الدولة عليهم ، كما تعرّض الرواية بوفاء عبد الملك وتجعله يهم بالغدر بابن قيس بعد أن أمنه ، بل تدينه بالغدر ، إذ أتاح لأهل الشام فرصة يقتلون فيها ابن قيس بتأخير الإذن له ،

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٨٤

وتمضى الرواية فتذكر أن ابن قيس أنشد عبد الملك قصيدته التى ذكر فيها مضيفته الكوفية بقوله :

عاد له من كَثيرة الطـرب ... فعينه بالدموع تنسكب

كوفيّة نازح محلتهـا ... لا أمم دارها ولا صعـب

والله ما إن صبت إلىّ ولا ... أن كان بينى وبينها سبب

إلا الذى أورثت كثيرة فى القلب ... وللحب سورة عجب[١]

وقد انتهى فيها ابن قيس إلى مدح عبد الملك بقوله :

إن الأغر الذى أبوه أبوالعا ... ص عليه الوقار والحجب

يعتدل التاج فوق مفرقـه ... على جبين كأنه الذهب

وتذكر الرواية أن عبد الملك غضب لذلك حتّى منع ابن قيس عطاءه أبدا محتجاً عليه بأنه إنما يمدحه بالتاج كأنه من العجم بينما يقول فى مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله ... تجلت عن وجهـه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيـه ... جبروت منه ولا كبريـاء[٢]

وقد لجأ ابن قيس بعد ذلك إلى عبدالله بن جعفر بن أبى طالب مرة أخرى إذ أن الأمان الذى جلبه له لم ينفعه وقد ترك حيّا كميت لا يأخذ مع الناس عطاء أبدا ، وينهض ابن جعفر بعطاء ابن قيس فيجعل له أربعين ألف درهم إلى أن يموت ، وعند ذلك مدحه ابن قيس بقوله :

تقدت بى الشهباء نحو ابن جعفر ... سواء عليها ليلها ونهارهـا

تزور امرءًا قد يعلم الله أنـه ... تجود له كف قليل غرارهـا

أتيناك نثنى بالذى أنت أهلـه ... عليك كما يثنى على الروض جارها

فوالله لولا أن تزور ابن جعفر ... لكان قليلا فى دمشق قرارها

إذا مت لم يوصل صديق ولم تقم ... طريق من المعروف أنت منارها

ذكرتك إن فاض الفرات بأرضنا ... وفاض بأعلى الرقمتين بحارها

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) الديوان ص ١٨٦ .

وعندى مما خول الله هجمـــة عطاؤك فيها شولها وعشارها
مباركةٍ كانت عطاء مباركا تمانح كبراها وتنمى صغارها[١]

وواضح أنه يعرّض فى هذه الأبيات بعبد الملك فى حذر شديد عندما يذهب إلى أنه ليس هناك غير القليل النادر ممن لهم جود ابن جعفر ، وكأنه يقصد إلى إغاظته حين يزعم أنه لولا وجود ابن جعفر فى دمشق فى هذه الآونة لكان مزارها قليلا وقراره بها نزرا يسيرا ، وكأنه لا جود هناك إلا جود ابن جعفر الذى إذا مات فلن يوصل صديق ولن تقوم منارة على طريق المعروف من بعده .

ويبدو أن عبد الملك قد تنبه إلى ذلك فعاب قوله تظاهرا بالتحرج من التعبير بقد قبل قوله علم الله — سبحانه وتعالى — فقال له : « ويحك يا ابن قيس أما اتقيت الله حين تقول لابن جعفر :

تزور امرأ قد يعلم الله أنـــه تجود له كف قليل غرارهـــا

ألا قلت : قد يعلم الناس ولم تقل قد يعلم الله ؟» فقال ابن قيس : « قد والله علمه الله ، وعلمته أنت ، وعلمته أنا ، وعلمه الناس »[٢] .

ويذكر أبو الفرج رواية أخرى فى حصول ابن قيس على أمان عبد الملك بطريقة تختلف فى التفاصيل عن تلك الرواية الزبيرية السند والهوى التى ذكرنا .

وهذه الرواية تذهب إلى أن ابن جعفر بنفسه هو الذى شفع له عند عبد الملك حينما طلبه ليقتله فاستجار ابن قيس به وقصده فألفاه نائماً وكان ابن قيس كما قدمنا صديقاً لسائب خاثر الذى لزم عبد الله واقتصر عليه فطلب إليه أن يستأذن له عليه وأنبأه خبر ابن قيس فأذن له ورحّب به وقرّبه فدعا ابن جعفر بظبية فيها دنانير وعهد إلى سائب خاثر أن يعدّ له منها فجعل سائب يعد ويترنم ويحسن صوته بجهده حتى عد ثلثمائة دينار وسكت فقال عبدالله : مالك ويلك سكت ؟ ما هذا وقت قطع الصوت الحسن فجعل يعد حتى نفد

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٧ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٥٧ .

ما كان فى الظبية ويبلغ ثمانمائة دينار ، فلما قبضها ابن قيس ، طلب منه أن يسأل عبد الملك فى أمره فوعده بذلك وأوصاه إذا دخل إليه معه ودعا بالطعام أن يسيء الأكل فلما دخل عليه وقدم الطعام جعل ابن قيس يأكل أكلا فاحشا حتى سأل عبد الملك ابن جعفر عنه من يكون ؟ فأجاب ابن جعفر بأن هذا إنسان لايجوز إلا أن يكون صادقاً إذا استبقى وإن قتل كان أكذب الناس فعجب عبد الملك وتساءل : كيف ذلك ، فقال ابن جعفر : ذلك لأنه يقول :

ما نقموا من بنى أميــــة إلا أنهم يحلمون إن غضبــوا

فإن قتلته لغضبك عليه أكذبته فيما مدحكم به . فقال عبدالملك « فهو آمن ولكن لاأعطيه عطاء من بيت المال »قال ابن جعفر : « ولم وقد وهبته لى فأحب أن تهب لى عطاءه أيضاً كما وهبت لى دمه ، وعفوت لى عن ذنبه » فقال عبدالملك قد فعلت فقال ابن جعفر : وتعطيه ما فاته من العطاء فقال : قد فعلت ، وأمر له بذلك[1] .

وهكذا تختلف الروايتان حول شخصية الشفيع الذى حصل لابن قيس على أمان عبد الملك فهو فى الرواية الزبيرية أم البنين وفى الرواية الثانية عبدالله ابن جعفر نفسه ، وليس ذلك إلا لأن الرواية الأولى تريد أن تزج بأم البنين فى أمر الشفاعة له لما لذلك من علاقة بما شهر به ابن قيس من الغزل بها مكايدة لبنى أمية . وتختلف الروايتان أيضاً حول منع عبد الملك ابن قيس عطاء بيت المال ، فالرواية الأولى تجعل ابن جعفر ينهض بأمره من ماله الخاص بينما تجعله الرواية الثانية يستوهب عبد الملك عطاءه كما استوهبه حريته .

وأيًّا كان أمر هاتين الروايتين فإنهما متفقتان على أن ابن قيس الرقيات كان مهدرًا لزبيريته ولهواه فى آل الزبير ولخروجه مع مصعب ولهجومه فى أشعاره على بنى أمية أعدائه الألداء كما يصرح بذلك فى شعره ، ولعبثه بهم وكيده لهم بتغزله الفاضح فى نسائهم وكذلك تتفق الروايتان على أنه لما قتل مصعب

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٨ .

وقتل بعده أخوه عبدالله هرب ملتجئاً إلى عبدالملك بن جعفر بن أبى طالب الذى هيأ له بنفسه أو باتصالاته أن يحصل على أمان عبد الملك وعلى ما يقوم بأمر نفقته .

وتتفق الروايتان على أن/ ابن قيس الرقيات مدح عبد الملك بن مروان كما مدح عبدالله بن جعفر بن أبى طالب وإن كان مديحه لعبد الملك فاترا لا روح فيه ولا عاطفة بخلاف مديحه لابن جعفر ، ونحن لا نستطيع الزعم بأن مديحه لعبد الملك كان من باب التقية فصلته ببنى أمية لاشك فيها ، ولا مراء فى أنه أفاض فى مدحهم ورثائهم إذ ولى وجهه شطر العراق فمدح بشر بن مروان ونال الجزيل من عطائه ، ثم جذبه جود عبد العزيز بن مروان فى مصر فرحل إليه ومكث عنده طويلا ، يمدحه ويرتع فى نواله ، ويذكر فى ثنايا مديحه مشاهد مصر كبابليون وحلوان والنيل وغير ذلك ، وكان له رأى فى بعض الأحداث السياسية الخاصة بالبيت المروانى ، فعندما فكر عبد الملك فى صرف ولاية العهد عن أخيه عبد العزيز إلى ابنه الوليد مال ابن قيس إلى جانب عبد العزيز وصار معه على أخيه .

ونراه فى بعض مدائحه له يبشره بالخلافة وبانتهائها إليه وإلى بنيه فيقول :

لتهنه مصر والعراق ومـــا بالشام من بزه ومن ذهبه
يخلفك البيض من بنيك كما يخلف عود النضار فى شعبه
نحن على بيعة الرسول ومــا أعطى من عجمه ومن عربه[١]

وقد بلغت القصيدة مسامع عبد الملك فقال إن ابن قيس قد دخل مدخلا ضيقا ، وتهدده وعرف ابن قيس ذلك فلم يقر له قرار وضاقت الدنيا فى عينيه فنظم قصيدة بديعة فى ذم من يغتابونه عند عبد الملك رياء ونفاقا ، ورمز فى افتتاحيتها إلى ما يلازمه من نحس بالغراب فى قوله :

بشر الظبى والغراب بسعدى مرحباً بالذى يقول الغراب[٢]

وأتبع ذلك بعدة قصائد فى مدح عبد الملك افتتح بعضها بالغزل فى أم

---

(١) الديوان ص ١٦٦

(٢) الديوان ص ١٦٩

البنين ولكنه نهج فيه نهج الغزل الوقور على شاكلة ما كان يتغزل به فى عائشة زوج مصعب من قبل ، وصلة ابن قيس بالأمويين أعداء آل الزبير وخصومهم السياسيين لا ينبغى أن تسمح للشك بأن يتسرب إلينا فى قوة إخلاصه لمذهبه السياسى ، ونحن لا نستطيع أن نرمى الشاعر بالنفاق لاتصاله ببنى أمية وبالشيعة بعد زوال سلطان آل الزبير ، وذلك لأن ابن قيس قرشى قبل أن يكون زبيرى الهوى ، وهو لم يعتنق مذهب الزبيريين إلا استجابة لنزوعه القرشى أصلا ، وبنو أمية من قريش وإذا كان الحزب الذى والاه قد سقط فإن الصبغ القرشى لم يذهب من هؤلاء فأى قرشى كفء يتولى الحكم فيه الغناء وإن كان قرشياً ولم يكن كفئاً ففيه بعض الغناء وهو إن كان كره بنى أمية فهو لم يكرههم لأنهم بنو أمية وإنما لاعتزازهم على القرشية خاصة والمضرية عامة بالقبائل اليمنية ، ولأنهم فتحوا بذلك الباب أمام افتراق كلمة قريش . هذا الافتراق الآثم الذى حدث بعد وفاة يزيد بن معاوية .

وعلى هذا الأساس القوى من أصالة نزوعه إلى القرشية كان اتصاله ببنى أمية وبنى هاشم جميعاً ، فهم قرشيون وأولو قرباه ، ولا غضاضة فى مدحهم ، والإشادة بهم ، مادام السلطان سلطان قريش ، وبنفس تلك النظرة يجب أن ننظر إلى صلته بعبد الله بن جعفر بن أبى طالب وقد كان ابن قيس منقطعاً إليه وكان ابن جعفر يصله ويقضى دينه ، وهو الذى استأمن له عبد الملك فأمنه وهو الذى وفر له النفقة التى تقوم بأمره كما مر .

وهو لكل هذا ولقرشيته قبل كل هذا أصبح ممدوح ابن قيس الرقيات الأثير عنده وكأنه وجد فيه صورة لمصعب بن الزبير فى قرشيته وسخائه ومكانته ، ولابن قيس فيه مدائح كثيرة تنم عن عاطفة صادقة وحارة كما سبق أن لاحظنا .

ويبدو أن ابن جعفر كان يبادله حبه وإعجابه ويقدر إخلاصه ووفاءه ومن أمثلة ذلك أنه جاءته صلة من عبدالملك ، وابن قيس غائب فأمر خازنه

فخبأ له صلته فلما قدم دفعها إليه وأعطاه جارية حسناء مما ألهج لسانه بالثناء على هذا النحو :

إذا زرت عبدالله نفسى فداؤه ... رجعت بفضل من نداه ونائل
وإن غبت عنه كان للود حافظا ... ولم يك عنى فى المغيب بغافل
تداركنى عبد الإله وقد بـــدت ... لذى الحقد والشنآن منى مقاتلى
فأنقذنى من غمرة الموت بعدما ... رأيت حياض الموت جم المناهل
حبانى ــ لما جئتـــه بعطيـــة ... وجارية حسناء ذات خلاخل[1]

لم يكن مديح ابن قيس للأمويين إذن ولا للهاشميين نتيجة لعدم صدقه فى اعتقاده للنظرية الزبيرية فقد كان الشاعر مخلصاً لعقيدته أشد الإخلاص كما لم تكن صلته بخصوم حزبه نكوصاً عن تعاليمه ورجوعاً عن التزام بها فقد ظل الشاعر يدين لهذه التعاليم بالإيمان ولا يعنى اتصاله بهؤلاء القوم من بنى أمية وبنى هاشم أكثر من كونه تعبيرا عن النزوع القرشى الأصيل الذى كان بمثابة القاعدة الأساسية لتعاليم الحزب الزبيرى وبمثابة محور الاعتقاد لدى الشاعر .

وعلى هذا الأساس وحده وانطلاقاً من هذا المحور لايعد الشاعر ضعيف الإيمان أو متناقض الولاء . وهكذا لم يحبس الشاعر نزوعه القرشى على آل الزبير وحدهم وأيضاً فإنه لم يحبس شعره فى الدعاوة لهم والهجوم على خصومهم فحسب إذ مدح الأمويين والشيعة ومدح رجالا غيرهم وافتخر بقريش ودعا إلى وحدتها وتحسر على فرقة شملها بعد اجتماعه وسخط على ارتفاع اليمنية واستبدادها بمضر وتغزل بنساء الأمويين ليغيظهم وتغزل فى نفس الوقت بنساء الزبيريين غزلا وقورا نوه فيه بعفتهن وطهارتهن كما تغزل بنساء أخريات تعلق بهن .

وابن قيس الرقيات من شعراء الفرق القليلين الذين تركوا خلفهم مجموعة من الشعر تشكل ديواناً كفيلا بأن يلقى الأضواء على نوازع الشاعر وحياته وفنه[2] .

---

(١) الأغانى جـ ٤ ص ١٥٨ .

(٢) نشر الديوان المستشرق النمسوى رود كناكس فى فينا سنة ١٩٠٢ وحققه علميا فى بيروت محمد يوسف نجم .

وتذهب كثرة الديوان فى الدعوة إلى الاعتداد بالقرشية ونصرة الزبيريين الذين يعتدون بها على خصومهم السياسيين الذين يعتدون بالعصبيات الأخرى فى حماية سلطانهم والدعوة إلى وحدة قريش وقوتها دعوة لا يسلك فيها الشاعر مسلكاً فكريًّا معيناً كما فعل الكميت مثلا بسلوكه مسلك البرهنة والاحتجاج فى تأييد مذهبه ، وإنما سلك ابن قيس فى سبيل ذلك ذات المسلك الغنائى التقليدى للشعر العربى مستندا إلى وسائل التأثير العاطفى فجاء شعره لذلك متدفقاً سيالا لم تعوق اندفاعه برهنة أو استدلال وإن شابته خطابية واضحة .

وتسود شعره السياسى عاطفة حزينة تكاد تشبه عاطفة الشيعة وهو أصدق ما يكون عاطفية حينما يتناول فى شعره مصعباً وعبدالله بن جعفر أو وحدة قريش المفككة وكذلك فى ثورته على بنى أمية وحلفائهم .

فهو فى مديح مصعب مثلا متدفق وحار العاطفة بخلاف مديحه لعبدالملك ابن مروان إذ أن عنصر الصناعة فيه يغلب على العاطفة ، ويبدو التكلف والافتعال طاغياً على صدق الإحساس وحقيقة المشاعر ، وهذا أمر لم يخف على عبدالملك عندما مدحه بقصيدته التى مدحه فيها بالتاج كأنه من العجم والتى احتج على مدحه له بها بقوله فى مصعب إنه شهاب من الله وليس شك فى أن عبد الملك محق فى احتجاجه على ابن قيس ذلك لأن مدحه لمصعب كان أليق بالحاكم المسلم بينما جاء مدحه لعبد الملك أبعد ما يكون عن ذلك وكان يجدر به بدلا من وصف جبينه بالإشراق أن يخلع عليه بعض الصفات الخلقية والنفسية التى تليق به كالبسالة والعدل والهيبة والحكمة وغير ذلك مما يرضى طموح الرجال ويحبون أن يوصفوا به .

وقد بلغ ابن قيس فى صدق مشاعره تجاه مصعب مبلغا بعيد المدى ونكاد نلمح دموعه وهو يرثيه عقب موقعة دير الجاثليق أمام عبدالملك إذ يقول مندداً بقعود مضر عن نصرته على ربيعة التى قتلته لتنصر بنى أمية ولكى تدرك ثاراتها القديمة عند مضر العراق ، يقول ابن قيس :

إن الرزيــة يـــوم مسكـــ ـــن والمصيبــة والفجيعـــة

باب الحوارىّ الذى لم يعده أهل الوقيعة
غدرت به مضر العرا ق وأمكنت منه ربيعة
فأصبت وِترك يا ربيـ ـع وكنت سامعة مطيعة[١]

وأظننا لسنا بحاجة إلى أن نعود فنذكر ما بين تشبيبه بزوجتى مصعب وتشبيبه المقذع بنسوة بنى أمية من بون شاسع ، فالصورتان إذا ما اقترنتا تكشفان عن إخلاص واضح فى الثناء العفيف بصفات الجمال الوقور على نسوة الزبيريين واحتيال خبيث للعبث ببنى أمية وإغاظتهم وهو فن أجاده ابن قيس وبرز فيه بروزا واضحاً ولكننا على الرغم من هذا نشعر بأن الحكم على عاطفته فى هذا الغزل الهجائى أمر عسير التحقيق بحيث لا نستطيع أن نتبين ما إذا كان الشاعر صادقاً فى عاطفته أم مزيفاً لها ، وهل يشبب فيه بصاحبته لأنه يحبها حقاً أم لأنه يكره أهلها وإن كنا نعرف فى نفس الوقت غايته من وراء هذا الغزل ، وليس هذا إلا أثرا من آثار تلك العاطفية التى تسود شعره كله وبخاصة ما يمس فى نفسه نزوعاً أصيلا من نوازعها كالقرشية مثلا وما يتفق ومزاجه العاطفى من تعلق بالحسان وميل إلى اللهو والمعابثة وبسبب من نزوعه الأصيل إلى القرشية وبسبب من مزاجه العاطفى يكاد ابن قيس يختص بكونه صاحب شعر سياسة ولهو . وقد امتزج الأمران عنده كما رأينا فهو قد يتغزل بقصد اللهو أو ليصف عواطفه حقاً ، وهو قد يتغزل أيضاً ليعبث بخصومه السياسيين .

والحق أننا لا نكاد نجد فرقاً بين غزله أياً كان نوعه من حيث صدق العاطفة وحرارتها فغزله كله لا يفتقر إلى العاطفة الحارة حتى هذا الغزل الكيدى أيضاً الأمر الذى دفع ببعض الدارسين إلى القول بأنه فى غزله الكيدى كان يخاصم الرجال دون النساء[٢] أى أنه اتخذ النساء وسيلة إلى حرب الرجال فتملقهن حتى يحبب إليهم هذا الغزل الهجائى الذى كان يسوء رجالهن والذى حرص فيه إلى حد على ألا يؤذيهن ، وقد رأينا كيف احتاط فى غزله بأم

(١) الديوان ص ١١٢
(٢) حديث الأربعاء ج ١ ص ٥٠ .

البنين بعد أن جعلها تتيه بجمالها وفصل ما حدث معها ، فزعم أن هذه القصة بحذافيرها قد وقعت له فى المنام . وكل ذلك فى عاطفية رقيقة وصياغة سلسلة رشيقة تعرف طريقها فى يسر إلى غرور الحسناوات من نساء الأشراف والأسرة المالكة اللائى كن يكلفن بالتلطف إليهن وإظهار الإعجاب بهن ويطلبن إلى الشعراء دون حرج أو حياء ، وليس شك فى أن هذا شفع له عندها وكان دافعاً لها إلى التشفع له عند أبيها .

ولذلك فنحن لا نكاد نجد فرقاً من حيث صدق العاطفة وحرارتها بين تغزله بأم البنين خلال الكيد لأهلها وبين تغزله بأى امرأة أخرى تعلق قلبه بها .

وإذا ما تركنا غزله الكيدى إلى سائر شعره فى الغزل رأيناه كله يستوى فى صدقه وحرارة عاطفته ولهجته وقوة أسره وفى رقته الخلابة ومع ذلك فليس فى حياة ابن قيس ولا فى شعره ما يمكن أن يجعلنا نظن أنه كان عذريًّا فى حبه أوأنه قصر عاطفته على امرأة واحدة فالحقيقة أنه لم يعرف شيئاً من هذا ولم يكن موحدا فى حبه بحيث يجسد عواطفه فى امرأة بعينها وإنما كان يرى الحب معنى مجردا ومطلقاً لا يحده غير مثل أعلى للجمال راح يخلعه على كل امرأة يرى بينه وبينها تماثلا أو اقترابا ، وهو على هذا كان يحب النساء جميعاً حبًّا لا يفتقر إلى الصدق ، وكان ذلك سببافى أن جاء شعره أيضاً لا يفتقر إلى حرارة العاطفة أو صدق اللهجة فما أم البنين أو عاتكة أو عائشة أو سكينة أو رقية أو كثيرة أو سعدى وغيرهن إلا نسخ متعددة وقريبة الشبه من الصورة التى يحملها فى نفسه ، ولهذا كنا لانكاد نجد لإحداهن تميزا بقدر أكبر من حرارة عاطفته أو صدق لهجته .

ونحن نشعر بصدق عاطفته حين نقرأ له أبياته التى يذكر فيها تلك المرأة التى آوته فى الكوفة وهو مهدر الدم والتى قامت على رعاية شئونه عاما كاملا حتى هيأت له سبل الرحيل فى أمان ، فلما سألها عن نفسها ليكافئها أبت أن تبوح بذلك فانصرف عنها وهو لا يعرف عنها شيئاً غير اسمها الذى سمعها تدعى به ، فلم يستطع لها مكافأة إلا بالغزل فيها على هذا النحو :

عاد له من كثيرة الطرب　　فعينه بالدموع تنسكب
كوفية نازح محلتها　　لا أمم دارها ولا صعب
والله ما إن صبت إلى ولا　　إن كان بينى وبينها سبب
إلا الذى أورثت كثيرة فى الـ　　ـقلب وللحب سورة عجب
لا بارك الله فى الغوانى فلا　　يصبحن إلا لهن مطّلب
أبصرن شيباً علا الذؤابة فى الـ　　ـرأس حديثاً كأنه العطب
فهن ينكرن ما رأين ولا　　يعرف لى فى لداتى اللعب[1]

وهو غزل عفيف صادق اللهجة ، وثناء متسم بالوقار والطهر حتّى ليسحب الشاعر هذا الطهر على نفسه فيعلن زهده فى اللهو واللعب ، وقد ذكر كثيرة فى مواضع متعددة من شعره ، وخلع عليها صفات الوقار حتّى ليجعلها أميرة فى قوله :

بانت لتحزننا كثيرة　　ولقد تكون لنا أميرة
حلت فلاليج السوا　　د وحل أهلى بالجزيرة[2]

وقد عبر عن إعجابه الشديد بها لدرجة أن يتمنى لو لم يكن رآها وذلك عند رحيله من عندها فقد ودعها بقوله :

لجحت بحبك أهل العراق　　ولولا كثيرة لم تلجج
فليت كثيرة لم تلقنى　　كثيرة أخت بنى الخزرج[3]

وهكذا لايشك من يقرأ غزله فى كثيرة أنه كان صادقاً فى عاطفته نحوها وإن كنا لانشك فى نفس الوقت فى أنه إنما تغزل بها ليشكرها على ماقدمت إليه من معروف ومع ذلك فلا يكاد غزله فيها يفترق فى صدق لهجته عن غزله برقية بنت عبد الواحد العامرية التى يقول الرواة إن هواه كان فيها دون غيرها وتذكر الروايات أنه علقها وهى تطوف ليلة بالبيت وقد أهوت فاستلمت الركن

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٩ .
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦٢
(٣) نفس الموضع

الأسود وقبلته فأسرع ابن قيس يستلم الركن ويقبله فصادفها قد سبقت إليه ونفحته بردنها فارتدع وسأل عائشة بنت سعد بن أبى وقاص عنها فأخبرته وعند ذلك قال ابن قيس :

من عذيرى ممن يضن بمبذو ل لغيرى علىّ عند الطواف[١]

وفى رقية هذه يقول ابن قيس :

حب هذا الـدل والغنـج والتى فى عينهـا دعـج
والتى إن حدثت كذبـت والتى فى وعدهـا خلـج
وترى فى البيت صورتهـا مثل ما فى البيعة السرج
خبرونى هل على رجـل عاشق من قبلـة حرج[٢]

ونفس هذا يمكن أن يقال أيضاً عن غزله بغير رقية من مثل سعدى التى يذكرها بمثل قوله :

قد أتانا من آل سعدى رسول حبذا ما يقول لى وأقـول
من فتاة كأنها قرن شمس ضاق عنها دمالج وحجـول
حبذا ليلتى بمـرة كلب غال عنى بها الكوانين غول[٣]

وهكذا لا نكاد نجد واحدة من اللائى تغزل بهن فى شعره تتميز عن سواها فى الاستئثار بعاطفة الشاعر وصدقه ، فكلهن سواء فى ذلك وهذا معنى ما ذهبنا إليه من أن أولاء جميعاً لسن إلا نسخا متكررة لصورة مثالية يحملها الشاعر فى نفسه ويخلعها على كل حسناء تماثل تلك الصورة أو تقاربها .

وفضلا عن هذه العاطفة الحارة التى تسرى فى تعبيره دائماً فإن شعره جميعاً يتميز بصفاء لحنه وبعذوبة موسيقاه ، ونقاء أنغامه وسهولة ألفاظه وطواعيتها وماذاك إلا أثر من آثار لزومه للمغنين والمغنيات فى مطلع حياته وحرصه على أن يوفر لأبياته ما يجعلها تطير على ألسنتهم وتوقع على آلاتهم فى يسر وطواعية

---

(١) نفس الموضع
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦٥
(٣) الأغانى ج ٤ ص ١٦٦

وقد ذهب بعض الدارسين إلى أنه صنع مرثيته فى قتلى الحرة لتبكى فيها النائحات[١] .

وكانت موسيقاه وسلاسته تبلغان حدّ الروعة فيما يلهو به من شعر ، ففيه تظهر خفة ألحانه وعبثه بالألفاظ واهتمامه بالتوقيع اهتماما بالغاً من مثل قوله :

بكرت علـى عواذلـى يلحينـنى وألومهنّـه
ويقلن شيب قـد عـلا ك وقد كبرت فقلت إنّـه
إن العـواذل لمنـنى ولن أطيـع أمـورهنّـه
فيما أفيـد من الغـنى والله سـوف يهينـنّـه
ولقـد عصيت الناهيـا ت النـاشرات جيوبهنّـه
حتى ارعويت إلى الرشـا د وما ارعويت لنهيهنّـه[٢]

وابن قيس من هذه الناحية يطبع شعره بطوابع الغناء التى عاصرته والتحم بها نظرا لصلاته بأصحابه ولذلك كنا نجد عنده حلاوة النغم وخفة الوزن بحيث تحمل أبياته كل ما يريد المغنون والمغنيات توفيره لألحانهم على مثال قوله :

رقىّ بعيشكم لا تهجرينـا ومنينـا المنى ثم امطلينـا
عدينـا فى غد ما شئت إنـا نحب وإن مطلت الواعدينـا
فإما تنجزى عدتى وإمـا نعيش بما نؤمل منـك حينا
أغرك أننى لا صبر عنـدى على هجر وأنك تصبرينا[٣]

وابن قيس لهذا من أكثر الحجازيين عناية بالأوزان المجزوءة والقصيرة كما يظهر فى هذا الوزن الراقص :

رقيـة تيمـت قلـبى فوا كبـدى من الحب
نهـانى إخـوتى عنهـا وما بالقلب من عتب[٤]

---

(١) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥٤ (٢) الديوان ص ١٤٥
(٣) الأغانى ج ٤ ص ص ١٦٣
(٤) الأغانى ج ٤ ص ص ١٦٤

أو قوله وقد سأله فند المغنى عن رائحة أردان رقية :

ســاءلا فنــدا خليلـــى كيــف أردان رقيّـــه
إنــى علقت خــــودا ذات دل بخترية[١]

ودائماً يجرى شعره وبخاصة ماكان منه فى الغزل على تلك الصورة من عذوبة اللفظ ورشاقة اللحن وخفة الوزن ، وهو لهذا ولما كان يملأ به غزله من صبابة ولوعة وحرارة وصدق يعد من شعراء الطليعة فى الغزل ولوكان خلص للغزل على شاكلة ابن أبى ربيعة مثلا ، ولم يشغل نفسه بالسياسة لكان له شأن آخر فى هذا الفن ، وقد اختصم فيهما نوفل بن مساحق وسعيد بن المسيب فانتهيا إلى أن ابن أبى ربيعة أشعر فى الغزل بينما ابن قيس أكثر منه أفانين شعر[٢] .

وعلى الرغم من هذا فقد كان ينظر إليه على أنه قمة من قمم الغزل فى هذا العصر وفضله البعض على غيره من شعراء الغزل المقدمين فقد فضل ابن أبى عتيق قوله :

والتى إن حدثت كذبــت والتى فى وعدهــا خلج

على قول كثير :

وأخلفن ميعادى وخنّ آمانتى وليس لمن خان الأمانة دين

وقال لكثير « سيدك ابن قيس الرقيات كان أعلم منك وأوضع للصواب موضعه فيهن »[٣] وكذلك كان يفضل قوله :

رقىّ بعيشكم لا تهجرينــا ومنينا المــنى ثم امطلينــا
عدينا فى غد ما شئت إنــا نحب وإن مطلت الواعدينا

على قول كثير :

ولست براض من خليل بنائل قليل ولا أرضى له بقليل

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٦٥
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦٣
(٣) الأغانى ج ٤ ص ١٦٥

واحتج ابن عتيق بأن هذا كلام مكافئ وليس بعاشق ، وأصدق منه فى التعبير عن عواطف العشاق ابن قيس »[١] .

وهناك شيء لم نتعرض له بعد عند ابن قيس ، إذ كان أول من دعا إلى التحرر من محاكاة القدماء فى بكاء الأطلال والوقوف على الديار الدارسة وترديد ذكرى الحبيبة مما جرى عليه القدماء فى التمهيد لموضوع قصيدهم ، وهو بهذا أسبق من أبى نواس وهو وإن لم يدع مثله إلى إحلال ديباجة محل أخرى فقد سبقه إلى السخرية من التمسك بهذا الصنيع والتقيد به فى قوله :

هل للديار بأهلها علم — أم هل تبين فينطق الرسم
قالت رقيّة فيم تصرمنا — أرقىّ ليس لوجهك الصرم
تخطو بخلخالين حشوهما — ساقان مار عليهما اللحم
يا صاح هل أبكاك موقفنا — أم هل علينا فى البكا اثم
بل ما بكاؤك منزلا خلقا — قفرا يلوح كأنه الرسم[٢]

ودعوة ابن قيس هذه فى اعتقادنا ليست إلا صدى لما أخذ به نفسه فى شعره من صدق وكراهة للتكلف مما لا يتفق والتقيد بتقليد القدماء ومحاكاتهم وقد تنبه ابن قيس إلى أن الشاعر بحرصه على وصف الأطلال والبكاء على الديار ، وقد تغير العصر واختفت هذه المشاهد من حياته ، لن يكون إلا كاذباً فى مشاعره ، ولن يكون شعره إلا مجرد صنعة فنية باردة تنقصها حرارة الصدق وقوة الطبع .

وينسب إلى ابن قيس أيضاً أنه كان أسبق الشعراء المسلمين إلى ابتداع الغزل الهجائى الذى استحدثوه فى هذا العصر [٣] والحقيقة أن ابن قيس قد بلغ فى هذا الفن شأواً لم يبلغه شاعر ، ولكنه لم يكن بحال أول من ابتدع هذا الفن لأنه كان معروفاً قبله وقبل عصره أيضاً إذ كان بعض الجاهلين يصطنعه ادعاء فى مقدمات قصائد الفخر والهجاء ليشهر بخصوم قومه ، ومن هؤلاء قيس بن الحطيم وحسان بن ثابت ، فقد ذكر حسان بن ثابت فى شعره ليلى

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٦٤
(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦٣
(٣) حديث الأربعاء ج ١ ص ٢٥١

أخت قيس بن الحطيم ، فذكر قيس عمرة امرأة حسان فى شعره[١] . فلما جاء الإسلام اختفى مثل هذا اللون تحرجا ثم ظهر بظهور الصراع والخصومة من حول السلطان ، فبعثه عبد الرحمن بن حسان فى تشبيبه برملة بنت معاوية[٢] ولكن ابن قيس خالف عن هؤلاء جميعاً فى أنه قدم بغزله السياسى للمديح واصطنع فيه الملق المحبب لقلوب النساء فأرضاهن وأسخط رجالهن فى نفس الوقت .

وقد سار على نهج ابن قيس شعراء كثيرون من مثل العرجى بتغزله فى أم محمد بن هشام المخزومى والى هشام بن عبدالملك على مكة[٣] وبتغزله أيضاً فى زوجة هذا الوالى نفسه[٤] ولقى حتفه بسبب هذا الشعر بعد أن ظل سجيناً فى سجن محمد تسع سنوات[٥] .

فليس الغزل الكيدى فناً إسلامياً ، وإنما هو جاهلى مبتعث ولكنه لم يزدهر إلا عند ابن قيس الرقيات الذى برع فيه وحمل غيره من الشعراء على محاكاته وتمثله . وعلى الرغم من قرشية ابن قيس وحجازيته فقد كان بعض اللغويين لا يثقون بفصاحته ويتهمونه بحجة أنه شغل نفسه بالشرب بتكريت كما ذهب إلى ذلك يونس بن حبيب تلميذ أبى عمرو بن العلاء وقد سئل عن قول ابن قيس فى قصيدة مدح بها عبد العزيز بن مروان :

ترضع شبلين وسط غيلهما   قد ناهزا لـلفطام أو فطمـا
ما مر يوم إلا وعندهما   لحم رجال أو يولغان دما[٦]

وكان ابن قيس قد قال يألغان وهى لهجة خاصة فى يوْلغان ، وقد أدى اعتراض يونس إلى تغيير النص إلى يؤلغان ويولغان على المعلوم والمجهول ،

---

(١) الأغانى ج ٢ ص ١٥٨ — ١٥٩
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ١٤١ — ١٤٣
(٣) الأغانى ج ١ ص ١٥٦
(٤) الأغانى ج ١ ص ١٥٧
(٥) نفس المرجع
(٦) الأغانى ج ٤ ص ١٦٠

وعاب عليه أيضاً بعض اللغويين قوله فى مديح ابن جعفر :

تقدت بى الشهباء نحو ابن جعفر سواء عليها ليلهـــا ونهارها

إذ ناقض صدره بعجزه ، فقال إنها سارت سيرا بغير عجل ثم وصفها بغاية الدأب فى السير بعد ذلك[١] . ولما أنشد قوله هذا ابن عتيق تهكم به بقوله : « كانت هذه يا بن أم فيم أرى عمياء » . وكان يعاتبه عندما يمر به ويسلم عليه بقوله : « وعليك السلام يا فارس العمياء » فقال ابن قيس له : « ما هذا الاسم الحادث يا أبا محمد ؟ » قال أنت سميت نفسك حيث قلت ذلك ، فما يستوى الليل والنهار إلا على عمياء ، وقد برر ابن قيس قوله بأنه إنما يعنى أنها لفرط تعبها لم تكن تعبأ بالزمان أكان ليلا أم نهارا وهو تبرير جميل ولكنه لم يقنع ابن عتيق إذ قال له إن بيته يحتاج بهذه الصورة إلى ترجمان يترجم عنه[٢] .

وبعد ، فهذا هو عبيد الله بن قيس الرقيات شاعر قريش الذى لم يقصر فنه على السياسة والدعوة لها على الرغم من التزامه بمذهب سياسى ، فجاء شعره صدى لحياته التى توزعت بين السياسة واللهو ، وقد بلغ فى كل منهما مبلغا بعيد الشأو .

---

(١) الأغانى ج ٤ ص ١٥٩ .

(٢) الأغانى ج ٤ ص ١٦١ .

الفصل الرابع

شعراء المتكلمين

١

كان العصر الأموى نقطة تحول عندها تراث الأمم المفتوحة إلى عقول العرب ، وانصبت فى فكرهم ثقافاتها بكل ما فيها من منطق ومعارف مختلفة ، فقد أخذت روافد هذا التراث الضخم المتشعبة فى العراق والشام ومصر تتجمع وتنحدر إلى مجرى النهر العربى ، حيث تلتقى هذه الروافد بجدول إسلامى وجدول آخر جاهلى ، فتحدث تطوراً هائلا فى حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت فى هذا العقل حركات تعليمية كثيرة ، كالحركة الدينية التى عنيت بتفسير القرآن ورواية الحديث ووضع قواعد الفقه لكل فروع الحياة الاجتماعية والسياسية ، ولم تقتصر فى استمدادها على القرآن والحديث ، وإنما أخذت بعين الاعتبار ما قرر الكتاب والسنة من ضرورة احترام العقل والرأى الشخصى ، فاستندت أيضاً إلى الإجماع والقياس وقررتهما جميعاً أصولا لقواعد الفقه الإسلامى ، يشهد بذلك ما روى عن الحسن البصرى من أن شخصاً سأله عن بعض فتاويه أبرأيه أم سمعها ؟ فقال « لا والله ما كل مانفتى به سمعناه »[١] .

وبدهى أن يقود هذا الاجتهاد فى الرأى والأخذ بالقياس فى الفتوى إلى اختلاف واسع بين الفقهاء الذين تميزت بينهم اتجاهات ومدارس مختلفة باختلاف الأصول التى قدموها وأولوها عنايتهم .

فبينما اشتهرت مدرسة الحجاز بغلبة الحديث عليها اشتهرت مدرسة العراق بغلبة القياس حتى عرف فريق من فقهائها بأهل الرأى[٢] . ولكن هذا الاختلاف

---

(١) ابن سعد جـ ٧ ص ١٢٠ (٢) المعارف ص ٢٤٨

لم يكن ليحدث حرجاً وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : « اختلاف أمتى رحمة » وطبيعى أن يكون هذا الاختلاف مادام الأمر هكذا محكاً للعقول ومشحذة للأفكار ودافعاً إلى البحث والدرس فى وجوه الخلاف وأسبابه حتى بلغ ببعض الفقهاء أن يقول إن الرجل لا يعرف خطأ معلمه حتى يسمع الاختلاف[1] .

وقد أدى ذلك إلى تحاور الفقهاء وتناظرهم واتساع مناقشاتهم حتى بلغت مجالس الخلفاء وانتقلت من إقليم إلى آخر ، وعد النظر فى الرأى فوق النسك والعبادة[2] .

وما من ريب فى أن هذا النظر العقلى بما طوى فيه من مناهج القياس والاستدلال والبرهنة وطرائق الجدال والحوار التى دعمت بها الثقافات المختلفة العقل العربى ، كان له آثار واسعة فى نضج الفكر وتطور الحياة العقلية تطوراً هائلا يلائم روح العصر الذى حفل بالاحتكاك الثقافى والفكرى بين المسلمين من العرب وغيرهم من أصحاب القوميات الأخرى الذين تعربوا تماما وانتقلوا بثقافاتهم المختلفة إلى العربية ، وتبع ذلك عناية العرب بالترجمة منذ منتصف هذا العصر ، وقد وجد أصحاب الآراء المختلفة فى السياسة والدين فى المواد الثقافية العديدة والمناهج والأنظار العقلية المختلفة أداة تعينهم وتدعم جدالهم فى الدفاع عن آرائهم ودحض شبه المخالفين والمنكرين وتجاوز ذلك إلى الانقسام فى داخل بعض الفرق ، وتفرق أصحابها شعباً متخالفة أخذت تتشاجر شجاراً عقلياً خصباً .

ولم يكن الشعراء بعيدين عن هذا المناخ الفكرى فقد جذبتهم التيارات الثقافية المختلفة وأثرت فيهم تأثيرات واضحة وسمت أشعارهم بسماتها .

---

(١) البيان والتبيين جـ ٢ ص ٨٩

(٢) ابن سعد جـ ٧ ص ٥٥٥

ومن طريف ما روى الرواة فى هذا الصدد أن الفرزدق كان يلزم حلقة الحسن البصرى، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين[١] .

ويذكر أبو الفرج أن رجلا سأل الحسن البصرى يوماً وعنده الفرزدق عن اليمين اللغو ، فقال الفرزدق : أوما سمعت ما قلت فى ذلك؟ فقال الحسن : ما كل ما قلت سمعوا فما قلت ؟ فقال : قلت :

ولست بمأخوذ بلغـــو تقوله إذا لم تعمّد عاقدات العزائم

وجاء شخص آخر فسأل الحسن عن سبية الحرب المتزوجة أتحل لمن سباها ؟ فقال الفرزدق أيضاً : أوما سمعت ما قلت فى ذلك وأنشد :

وذات حليل أنكحتنا رماحنـــا حلال لمن يبنى بها لم تطلق[٢]

وقد بدأت تنبت فى تربة العراق لهذا العصر بذور علم الحيل الذى ترعرع فيما بعد برعاية الأحناف ، وكان أهم مجالاته مجال الأيمان ، وقد أشار إليه جرير فى قوله من إحدى نقائضه :

ولا خير فى مال عليه أليــة ولا فى يمين غير ذات مخارم[٣]

وأيضاً أشار إليه ذو الرمة فى تشبيهه إغفاءه وانتباهه السريع فى سفره بتحليل الألى فى قوله :

طوى طيه فوق الكرى جفن عينه على رهبات من حنان المحاذر
قليلا كتحليل الألى ثم قلصت به شيمة روغاء تقليص طائر[٤]

فلم يكن الشعر إذًا بعيداً عن مجالس الفقه والرأى، وإنما عاش فى قلبها وتغذى على حجاجها وجدلها ومناظراتها ، ويذكر أبو الفرج أنه كان بالبصرة ستة من أصحاب الكلام بعضهم من الشعراء وهم عمرو بن عبيد وواصل بن عطاء وبشار بن برد وصالح بن عبد القدوس، وعبد الكريم بن أبى العوجاء وجرير

---

(١) العقد الفريد جـ ٣ ص ١٦٩

(٢) الأغانى جـ ١٩ ص ١٤ .

(٣) نقائض جريروالفرزدق ص ٧٥٤

(٤) ديوان ذى الرمة ص ٢٩٤ .

ابن خازم الأزدى ، فكانوا يجتمعون فى منزل الأزدى ، ويختصمون عنده ، فأما عمرو وواصل فصارا إلى الاعتزال وأما عبد الكريم وصالح فصححا التوبة وأما بشار فبقى متحيرًا مخلطاً ، وأما الأزدى فمال إلى قول السمنية الهندى على تظاهره بما كان عليه ، وتذكر الروايات أن بشارًا كان يدين بالجبر ، وقد عبر عن عقيدته فى تلك الأبيات الرائعة التى تقول :

طبعت على ما فىّ غير مخــير هواى ولو خيرت كنت المهذّبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد وقصّر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصّر وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا[1]

ويذكر الشريف الرضى أن ذا الرمة كان من مشهورى الشعراء ومتقدميهم على مذهب أهل العدل[2] بينما كان رؤبة من القائلين بالجبر ، وتذكر الروايات أنهما اختصما عند بلال بن أبى بردة ، فقال رؤبة والله ما فحص طائر أفحوصاً ولا تقرمص سبع قرموصاً إلا بقضاء من الله وقدر فقال ذوالرمة « والله ما قدر الله على الذئب أن يأكل حلوبة عيايل ضرائك ، فقال رؤبة أبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على رب الذئب ، وهذا خبر صريح فى قوله بالعدل واحتجاجه عليه وبصيرته فيه[3]

وواضح أن ذا الرمة يعارض القول بأنه سبحانه وتعالى يخلق الأفعال فى الحيوان ، كما يخلقها فى الجماد وأنها تنسب إليه مجازًا كما يزعم الجبرية ، وإنما يجعل للإنسان حرية واختيارًا يناسبان ما حمل من المسئولية التى سيثاب عليها أو يعاقب .

وقد روى عن إسحق بن سويد أنه قال أنشدنى ذو الرمة قوله :

وعينان قال الله كونــا فكانتا فعولان بالألباب ما تفعل الخمر

---

(١) الأغانى جـ ٣ ص ٧٠
(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٤
(٣) نفس المرجع

فقلت له : هلا قلت فعولين : « لو قلت سبحان الله والحمدلله ولا إله إلا الله والله أكبر لكان خيراً لك » تريد أن يعرّفه أنه راغب عن فكرته فى الجبر [١] .

وواضح أن ذا الرمة إنما تحرز بوصفه العينين بأنهما فعولان من القول بخلاف العدل [٢] فهو شاعر قدرى ، يقابله فى الصف الثانى رؤبة وجمع غفير من شعراء بنى أمية الذين مدحوهم ونالوا جوائزهم ، وقد رأوا سادتهم على مذهب الجبر محتكمين إليه فى تقرير خلافتهم فجاروهم فى ذلك ولهذا كنا نجدهم فى كل مكان من أشعارهم يلجأون إلى القدر وإلى أن الله كتب ذلك وقدره تقديراً ولا مبدل لكلماته كما يقول جرير :

نال الخلافة إذ كانت له قدرا   كما أتى ربه موسى على قدر [٣]

وكما يقول الفرزدق فى عبد الملك :

فالأرض لله ولاها خليفتـــــه   وصاحب الله فيها غير مغلوب [٤]

والأمثلة فى ديوانيهما وفى أشعار سواهما من شعراء بنى أمية أكثر من أن ندل عليها ، وقد أشار بعض شعرائهم صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلماً لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله ، كما قال أعشى تغلب :

وإن أمير المؤمنين وجرحَـــــه   لكالدهر لا عار بما فعل الدهر [٥]

وعلى هذه الصورة كان الشعر يصطبغ بكل ما يدور فى بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام ، إذ كان الجو مشبعاً بروح النقاش والبحث فى كل مسائل العصر ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون ولم تكن هناك نحلة ولا فكرة إلا دارت من حولها المناظرات والمجادلات وكان كل هذا تحت سمع الشعراء وبصرهم .

---

(١) الأغانى جـ ١٦ ص ١٢٢

(٢) أمالى المرتضى جـ ١ ص ١٥ .

(٣) ديوان جرير ص ٢٧٥

(٤) ديوان الفرزدق جـ ١ ص ٢٥

(٥) الأغانى جـ ١٠ ص ٩٩

ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن أفكار الفقهاء والمتكلمين قد تجاوزت مجالسهم وصارت مبذولة للناس يتحدثون فيها ويناقشونها ، ومن طريف ما يروى أن جهم بن صفوان الترمذى كان يدعو الناس إلى مذهبه فى القول بالتعطيل والذى يقتضى أن الله تعالى عالم لا علم له ، قادر لا قدرة له وكذا فى سائر الصفات ، وكان يجلس يوماً يدعو الناس إلى مذهبه وحوله أقوام كثيرة فجاءه أعرابى ووقف حتى سمع مقالته فأرشده الله تعالى إلى بطلان هذا المذهب فأنشأ يقول :

ألا إن جهماً كافر بان كفره	ومن قال يوماً قول جهم فقد كفر
لقد جن جهم إذ يسمى إلهه	سميعاً بلا سمع بصيراً بلا بصر
عليما بلا علم رضيًّا بلا رضـــا	لطيفاً بلا لطف خبيراً بلا خبر
أيرضيك أن لو قال ياجهم قائل	أبوك امرؤ حر خطير بلا خطر
مليح بلا ملح بهى بلا بهـــــا	طويل بلا طول يخالفه القصر
حليم بلا حلم وفىّ بلا وفـــــا	فبالعقل موصوف وبالجهل مشتهر
جواد بلا جود قوى بلا قـــــوى	كبير بلا كبر صغير بلا صغر
أمدحاً تراه أم هجاء وسبـــــة	وهزءاً كفاك الله يا أحمق البشر
فإنك شيطان بعثت لأمـــــة	تصيرهم عما قريب إلى سقر (١)

فهذا أعرابى يجادل جهماً فى مقالته جدالا عنيفاً على الرغم من تناوله لمقالته تناولا قريباً وسهلا إلا أنه تناول ينم عن اهتمام الناس بما كان يثار فى بيئات الفقهاء والمتكلمين ، فما بالنا بالشعراء الذين كانوا يغشون مجالسهم ويتبينون مقالاتهم ويصدرون عنها فى شعرهم .

والحق أن عقلية هؤلاء الشعراء قد ثقفت أشياء لم يكن يثقفها الشعراء من قبل فأنتج ذلك عمقاً وطرافة فى شعرهم ، ومال بعضهم إلى استخدام أسلوب الجدل والحوار والاستدلال فى أشعارهم كما فعل الكميت بن زيد فى تقريره لعقيدة الزيدية تقريراً مذهبيًّا خالصاً ، وكما فعل صفوان الأنصارى فى صياغته

---

(١) جلاء العينين فى محاكمة الأحمدين ص ٨٠

لبعض أصول المعتزلة فى أشعاره كأصل التوحيد الذى احتشد لتوكيده والدفاع عنه بفكرة جديدة هى التدليل على قدرة الله وتفرده بالألوهية والخلق بالنظر فى إبداع خلقه وإحكام تدبيره وهى فكرة قرآنية الأصل ومستمدة من دعوة القرآن إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وقد نظر صفوان إلى الأرض بحكم مناظرته لزعم بشار بن برد بأن النار أكرم عنصراً من الأرض فمضى يعدد فوائدها ودفائنها ليدل بذلك على إحكام صنع الله القدير الواحد الفرد بمثل قوله :

وفى جوفها للعبد أستر منزل ... وفى ظهرها يقضى فرائضه العبد
تمج لفاظ الملح مجًّا وتصطفى ... سبائك لا تصدى وإن قدم العهد
وليس بمحصٍ كنه ما فى بطونها ... حساب ولا خط وإن بلغ الجهد[١]

ونحس ونحن نقرأ لصفوان وأمثاله أننا بإزاء شعراء لهم لون خاص يميزهم عن غيرهم فهم شعراء مفكرون انغمسوا فى تيارات الثقافة والفكر واشتغلوا بهما بل هم شعراء متكلمون استطاعوا أن يصوروا عقائدهم فى شعرهم تصويراً عقليًّا وأن يدللوا على صحة مذاهبهم تدليلا منطقيًّا حتى ليصبح شعرهم وثائق طريفة ، يودعون فيها آراءهم وأفكارهم ، وقد أغفل المؤرخون بعض هؤلاء الشعراء فأضحوا منكررين أو كالمنكورين حتى إننا لا نكاد نعرف شيئاً عن صفوان الأنصارى شاعر المعتزلة الأول ، وإن وصلت إلينا من شعره عدة قصائد مذهبية[٢] يظهر فيها بوضوح أنه كان شاعراً متكلماً وأنه نقل إلى شعره مناهج التدليل العقلى المعتمدة فى النظر المعتزلى إلا أننا لا نجد له ترجمة ما ، كما لا نجد لزميله أبى الطروق الضبى من ذلك شيئاً إلا ما ذكره ابن خلكان من أنه كان شاعراً من شعراء المعتزلة ، وأنه مدح واصل بن عطاء بإطالة الخطب واجتناب الراء

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ١٩

(٢) انظر البيان والتبيين ج ١ ص ١٤ — ١٩

على كثرة ترددها فى الكلام[١] وعدا أبيات مفردة فى ذلك يرويها له الجاحظ والمرزبانى[٢] .

وكان حظ شاعر المرجئة ثابت قطنة خيراً من حظ صفوان وأبى الطروق فقد حفظ لنا التاريخ بعض أخباره وإن كان شعره الذى وصل إلينا فى عقيدته لا يتجاوز أبياتاً بعينها .

٢

ويختلف الرواة فى اسم ثابت قطنة[٣] ونسبه ، فيذكر أن اسمه ثابت ابن كعب ، كما يذكر أنه ثابت بن عبد الرحمن بن كعب ، ويكنى بأبى العلاء ، وتجعله بعض الروايات أخا بنى أسد بن الحارث بن العتيك الأزديين ، بينما يقال إنه ليس إلا مولى لهم ، وقد لقب بقطنة لأن سهماً أصابه فى إحدى عينيه فذهب بها فى بعض حروب الترك فكان يجعل عليها قطنة [٤]

وقد هجاه بهذا حاجب بن ذبيان المازنى فقال :

لا يعرف الناس منه غير قطنته ⁂ وما سواها من الأنساب مجهول[٥]

ويجعلنا ذلك نعتقد أنه كان من موالى بنى أسد بن الحارث بن العتيك وأنه لم يكن أزديًّا صليبة . فقد كان نفسه يدرك انقطاع نسبه ويتوقّى الغمز فيه حتى ليروى أنه هو الذى قال هذا البيت السابق فى نفسه ، وقال هذا بيت سوف أهجى به أو بمعناه ، وأنشده جماعة من أصحابه وأهل الرواية وقال : اشهدوا أنى قائله فقالوا : ويحك ما أردت أن تهجو نفسك به ، ولو بالغ

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٦٠

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٣١ ، جـ ٣ ص ١٨٢ ، والحيوان جـ ٦ ص ٩٢ ، ومعجم الشعراء ص ٥١٣

(٣) انظر فى ترجمته الأغانى جـ١٣ ص ٤٧ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦١٢ والخزانة جـ ٤ ص ١٨٤ والاشتقاق ص ٤٨٣ ، والطبرى جـ ٨ ص ١٣١ ، والعصر الإسلامى ص ٢٣٩ ، وأمالى المرتضى جـ ٢ ص ٦٨

(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧

(٥) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨ والشعر والشعراء جـ ٢ ص ٦١٢

عدوك مازاد على هذا ، فقال : لابد من أن يقع على خاطر غيرى ، فأكون قد سبقته إليه ، فقالوا له: « أما هذا شر قد تعجلته ولعله لا يقع لغيرك» ويذكر أنه استشهد بهؤلاء النفر لما هجاه به حاجب بن ذبيان المازنى على أنه هو قائله فشهدوا على ذلك فقال يرد على حاجب بقوله :

هيهات ذلك بيت قد سبقت له فاطلب له ثانياً يا حاجب الفيل (١)

ولا نكاد نعرف شيئاً عن حياته قبل اتصاله بالمهلب الأزدى وقد كان من فرسانه المبرزين فشهد معه بعض حروبه للأزارقة(٢) ولكن نجمه أخذ يعلو فى ولاية يزيد بن المهلب على خراسان إذ كان يوليه أعمالا فى الثغور فيحسنها ويحمد فيها مكانه لكتابته وشجاعته(٣) .

ويبدو أنه كان ذا شخصية قوية تتميز بالحنكة والمهارة إذ نرى يزيد يستعمله على بعض كور خراسان(٤) كما يظهر أيضاً أنه كان مشتغلا بمسائل الدين والفقه فقد كان يزيد بن المهلب يقدمه ليصلى بالناس بوم الجمعة(٥) .

وتذكر الروايات حادثة طريفة فى هذه الآونة تكشف عن ذكائه وبلاغته فقد علا المنبر يوم جمعة ، فلما رام الكلام تعذر عليه وحصر ، فقال بعد قليل « سيجعل الله بعد عسر يسرا ، وبعد عىّ بياناً ، وأنتم إلى أمير فعّال أحوج منكم إلى أمير قوّال » ثم أضاف قوله :

وألا أكن فيكم خطيباً فإننى بسيفى إذا جد الوغى لخطيب(٦)

وقد بلغت هذه الكلمات خالد بن صفوان فقال : والله ماعلا ذلك المنبر أخطب منه فى كلماته هذه ولو أن كلاماً استخفى فأخرجنى من بلادى إلى

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ .
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢
(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٧ .
(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٧
(٥) الأغانى جـ ١٣ ص ٤٨
(٦) لأغانى جـ ١٣ ص ٤٧

قائله استحساناً له لأخرجتنى هذه الكلمات إلى قائلها[١] .

وحقًّا كان ثابت فارساً إذا جد الوغى ، فقد شهد مع المهالبة غزوات عديدة وظل فى ميادين القتال منذ عام ٧٨ ه وهى السنة التى ولى فيها المهلب خراسان حتى استشهد فى قتال السغد سنة ١١٠ ه . وكان المهلب يحيط نفسه بعدد من الشعراء الذين لزموه، وأخذوا يمدحونه ويصفون حروبه مع الترك ، ولما توفى المهلب سنة ٨٢ ه ولّى الحجاج بعده ابنه يزيد على خراسان ، وكان شجاعاً مقداماً ، كما كان بحراً فياضاً، وقد أشاد الشعراء هناك بحروبه فى خوارزم وفرغانة وفيما وراء النهر إشادة رائعة ، وكان ثابت قطنة شاعره المقدم فأصفاه وده وكان يمدحه ويصب هجاءه على القبائل الشاغبة عليه من مثل هجائه لقبائل ربيعة التى كانت حليفة الأزد ولكنها استبطأت يزيد فى بعض الأمور فشغبت عليه حتى أرضاها . وقد أغضب ذلك ثابتاً فهجاها بأشعار كثيرة يقول فيها على لسان يزيد :

عصافير تنزو فى الفساد وفى الوغى ... إذا راعها روع جماميح بروق

أأحلم عن ديان بكر بن وائـــل ... وتعلق من نفسى الأذى كل معلق

ألم أك قد قلدتكم طوق حـــرة ... ونكلت عنكم فيكم كل ملصق

لعمرك ما استخلفت بكراً ليشغبوا ... علىّ وما فى حلقكم من معلق

ضممتكم ضما إلىّ وأنـــتم ... شتات كفقع القاعة المتفرق

وأنتم على الأدنى أسود خفية ... وأنتم على الأعداء خزان سملق[٢]

ولم يستطع يزيد أن يقدم على غزو آخر لاختلال الأمن فى خراسان نتيجة لاشتعال روح العصبية بين قيس والأزد وازدياد خطرها بوقوف المهالبة إلى جانب الأزد وأحلافها من اليمن وربيعة مما ترتب عليه عزله وتولية أخيه المفضل مكانه ، وسرعان ما رأى الحجاج أنه لا يقل عصبية عن أخيه وصح عزمه على التخلص من المهالبة جميعاً فعزل المفضل وولى مكانه قتيبة بن مسلم الباهلى سنة ٨٦ ه لتعلو كفة قيس ويعظم سلطانها .

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٤٧ (٢) الأغانى ج ١٣ ص ٥٣ .

ولم يترك ثابت خراسان ، وإنما ظل فى فرسان قتيبة بن مسلم واشترك مع جنده فى فتح طخارستان وأرض السغد وخوارزم وسمرقند وماوراء النهر . ولم يكن قتيبة حفيًّا به بطبيعة الحال ، ولذلك نراه يتربص به ويتلومه على بعض الأحداث التى يأتيها مثل استنكار غدره بينزك سنة ٩١ هـ حيث قال مخاطباً قتيبة :

لا تحسبن الغدر حزماً فربما ترقّت به الأقدام يوماً فزلت[١]

ونراه ضائقاً بقتيبة مبغضاً له متحسراً على ضياع عهد يزيد المهلبى متمنياً الموت ليريحه من الحياة بعد أميره ، ويروى أبو الفرج أنه دخل على قتيبة فسأله حاجة فلم يقضها له ، فخرج من عنده ليقول لأصحابه « لكن يزيد بن المهلب لوسألته هذا أو أكثر منه لم يردنى عنه » وقال فى ذلك :

أبا خالد لم يبق بعدك سوقـــة ولا ملك ممن يعين على الرفد
ولا فاعل يرجو المقلّون فضله ولا قائل ينكى العدو على حقد
لو أن المنايا سامحت ذا حفيظة لأكرمنه أوعجن عنه على عمد[٢]

وقد جزى ثابت قتيبة ازوراراً بازورار ، وتجاوز التعبير عن امتعاضه منه إلى هجائه وهجاء قبيلته باهلة حين هزمت فى بعض حروب الترك ولم تثبت كما ثبتت تميم فقال ثابت فى ذلك :

توافت تميم فى الطعان وعـــرّدت بهيلة لما عاينت معشراً غلبا
كماة كفاة يرهب الناس حدهم إذا مامشوا فى الحرب تحسبهم نكبا
تسامون كعباً فى العلا وكلابهـــا وهيهات أن تلقوا كلاباً ولا كعبا[٣]

وكان قد استكتم راويته النضر هذه الأبيات فأفشاها فهجاه ثابت بقوله :

يا ليت لى بأخى نضر أخا ثقة لا أرهب الشر منه غاب أم شهدا
أصبحت منك على أبواب مهلكة وزلة خائفاً منك الردى أبدا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ٢٢٨

(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٤

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥١

ماكنت إلا كذئب السوء عارضة أخوه يدمى ففرّى جلده فددا
أو كابن آدم خلى عن أخيه وقد أدمى حشاه ولم يبسط إليه يدا
أهم بالصرف أحياناً فيمنعنى حيا ربيعة والعقد الذى عقدا[١]

وواضح أن ذيوع خبر هذه الأبيات التى هجا فيها باهلة قد جعله كما يقول على أبواب مهلكة يخشى منها الردى ، وقد راح يشيد بتميم إغاظة لباهلة على الرغم من ذلك ، إذ كانت فى ذلك الوقت أقوى العصبيات خطراً فى خراسان بعد أفول نجم الأزد وأصبحت تمثل جانب المعارضة القوية لقتيبة بعد أن قتل منها نفراً من الأهاتم وأساء معاملة بطلهم وكيع بن أبى سود ، ويذكر ابن الأثير إحصائية طريفة عن عدد الجند فى جيش خراسان وعصبياتهم المختلفة ، فقد كان عدد المقاتلة من أهل البصرة والعالية تسعة آلاف وكان البكريون سبعة آلاف وعبد القيس أربعة آلاف ، وجند الكوفة سبعة آلاف ، والموالى بقيادة حيان النبطى الديلمى سبعة آلاف ، بينما كان الأزد عشرة آلاف وتميم مثلهم[٢] .

وقد أخذ نجم تميم يلمع ويتأكد خطرها وبخاصة بعد بلائها الحسن فى حرب الترك ، فاحتملت مع الأزد الجانب الأكبر فى مقاومتهم والانتصار عليهم سنة ٩٥ هـ مما جعل ثابتاً يلهج بالإشادة بهم والتعريض بتقاعس باهلة فى مثل قوله :

فدى نفسى فوارس من تميم على ماكان من ضنك المقام
بقصر الباهلى وقد أرانى أحامى حين قل به المحامى
بسيفى بعد كسر الرمح فيهم أزودهم بذى شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كراً ككر الشرب آنية المدام
فلولا الله ليس له شريك وضربى قونس الملك الهمام
إذاً فاظت نساء بنى دثار أمام الترك بادية الخدام[٣]

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥١
(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ٦
(٣) الطبرى ج ٨ ص ٢٣١

وما يكاد سليمان بن عبد الملك يلى الخلافة بعد أخيه الوليد حتى يخشى قتيبة على نفسه ، إذ كان سليمان مبغضاً للحجاج ولقيس حانقاً على عماله لما كان من إجابته الوليد إلى ما اعتزمه من عزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز مكانه ؛ فبادر قتيبة بإزاء هذا فثار على سليمان وسرعان ما انفضت عنه الأزد وأحلافها ثم تبعتهم تميم ، وتزعم وكيع بن أبى سود الموتور حربه وانضمت إليه الأزد الحانقة منذ عزل المهالبة كما انضمت إليه معها قبائل ربيعة والموالى بقيادة حيان النبطى وأخيراً تخلت عنه قيس نفسها وخذلته إلا نفر من عشيرته باهلة فلقى حتفه سنة ٩٦ هـ وهوى نجم قيس وارتفع نجم تميم بولاية وكيع بن أبى سود ولاية خراسان ، غير أن وكيعاً أخذ الناس بالعنف فما لبث حتى عزله سليمان وولى مكانه يزيد بن المهلب جامعاً له بين خراسان والعراق ، وقد مضى يزيد هو الآخر يتبع سياسة عصبية جامحة فرفع من شأن الأزد وملأ بهم الوظائف وجعل لهم القسط الأوفر من الغنائم .

وإذ ذاك يعود ثابت قطنة إلى ما كان عليه من صحبة يزيد ومدحه والإشادة بانتصاراته على ملوك الترك من مثل قوله بعد قتله لهم :

أقر العين مقتل كازرنـــك ... وكشبيذ وما لاقى بيـــاد[1]

ورغبة من يزيد فى ستر سياسته العصبية عن الخليفة راح يبالغ فى كتبه إليه عن ضخامة الفيء الذى أفاءه الله عليه فى غزواته من مثل زعمه أنه كان عدة قناطر من الذهب فى بعضها ، وأن خمسه بعد أن أخذ كل محارب سهمه قد بلغ أربعة آلاف ألف ، أوستة آلاف ألف ، فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بعد سليمان طلب منه أداء هذه المبالغ فعجز عن أدائها ، ولم ير عمر غير حبسه حتى يؤدى ما عليه للدولة كما عزل كل عماله الأزديين وإذ ذاك هوى نجم الأزد مرة أخرى . وولى خراسان الجراح بن عبد الله الحكمى ونجح يزيد المهلبى فى الفرار من سجن عمر بن عبد العزيز فى أخريات خلافته وما إن يلى الخلافة يزيد بن عبد الملك حتى يسير إلى البصرة سنة ١٠١ هـ ، ويأسر واليها ثم يواصل

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٨١

سيره إلى الكوفة حيث ينضم إليه الأزد وربيعة وينحاز إليه أهله وخاصته وآزرته المرجئة بزعامة أبي رؤبة وكثير من الفقهاء والقراء وعظم أمره واشتدت شوكته وأظهر الدعوة إلى كتاب الله وسنة نبيه وسيرة عمر بن عبد العزيز زاعماً أن جهاد أهل الشام أعظم ثواباً عند الله من جهاد الترك والديلم ، ولكن الصبغة العصبية غلبت على حركته فقد تاقب بالقحطانى واعتمد على قبائل اليمن .

وكان ثابت قطنة شاعر ثورة المهالبة قد بعث إليه من خراسان بقصيدة يحرضه فيها ويشحذ همته ويذكره بمجد أبيه وعشيرته ، ويقول فيها :

إن امرأ حدبت ربيعة حوله ... والحى من يمن وهاب كثردا
لضعيف ما ضمنت جوانح صدره ... إن لم يلف إلى الجنود جنودا
أيزيد كن فى الحرب إذ هيجتها ... كأبيك لا رعشاً ولا رعديدا
شاورت أكرم من تناول ماجداً ... فرأيت همك فى الهموم بعيدا
ما كان فى أبويك قادح هجنة ... فيكون زندك فى الزناد صلودا
إنا لضرّابون فى حمس الوغى ... رأس المتوج إن أراد صدودا
وترى إذا كفر العجاج ثرى لنا ... فى كل معركة فوارس صيدا
ياليت أسرتك الذين تغيبوا ... كانوا ليومك بالعراق شهودا
وترى مواطنهم إذا اختلف القنا ... والمشرفية يلتظين وقودا[1]

وواضح من الأبيات أن يزيد قد بعث يستشير ثابتاً فى أمره لما كان له من صلة به وبأبيه ، كما هو واضح أيضاً بأنه يشير عليه بأن يمضى بالأمر إلى تمامه وبألا ينكل عما بدأه .

وقد علق يزيد على أبيات ثابت بما يفيد أنه غافل فى خراسان عن الظروف القاسية التى تحيط بحركة يزيد فى العراق ، وهذا يخالف ما ذكره أبو الفرج من أن ثابتاً كان مع يزيد بن المهلب يوم العقر[2] ولكن ثابتاً فى الحقيقة لم يشهد يوم العقر إذ أن يزيد بعد قراءة كتابه الذى احتوى القصيدة السابقة قد أمر بأن

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٢

(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٥٣

يكتب إليه بصعوبة الظروف التى تواجهها حركته وبأنه على الرغم من ذلك سيطيعه وسيرى ما يكون[١] .

ويظهر ذلك أيضاً فى قول ثابت وهو يرثى يزيد موجهاً حديثه إلى هند بنت المهلب .

مصاب بنى أبيك وغبت عنهم فلم أشهدهم ومضوا كراما[٢]

ومثل قوله أيضاً :

أصيب ولم أشهد ولو كنت شاهداً تسليت إن لم يجمع الحى مأتما[٣]

وقد أرسل يزيد بن عبد الملك إلى ابن المهلب بأخيه مسلمة بن عبد الملك وبابن أخيه العباس فى جيش كثيف والتقى هذا الجيش بجيش المهالبة سنة ١٠٢ هـ فى العقر فاقتتلا قتالا شديداً ولى على أثره أصحاب ابن المهلب عنه وتركوه حيث قتل فى المعركة . وقد رثاه ثابت قطنة رثاء مؤثراً ندد فيه بخذلان أهل العراق له وفرارهم عن نصرته من مثل قوله :

كل القبائل تابعوك على الذى تدعو إليه وبايعوك وساروا
حتى إذا حمس الوغى وجعلتهم نصب الأسنة أسلموك وطاروا
إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك وبعض قتل عار[٤]

وقد أنشد مسلمة بن عبد الملك بعد قتل يزيد بن المهلب قول ثابت :

يا ليت أسرتك الذين تغيبوا كانوا ليومك بالعراق شهودا

فقال مسلمة : وأنا والله لوددت أنهم كانوا شهوداً يومئذ لسقيتهم بكأسه[٥]

وقد كادت الأبيات التى حرض فيها يزيد على الثورة تودى به عند والى خراسان الأموى سعيد بن عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبى العاص ، فقد جلس يعرض الناس ذات يوم وعنده حميد الرواسى وعبادة المحاربى ، فلما دعى بثابت

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٢
(٢) الطبرى جـ٨ ص ١٣٤
(٣) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤
(٤) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٣
(٥) المرجع نفسه

تقدم وكان تام السلاح جواد الفرس فارسا من الفرسان فسأل عنه فقيل : هذا ثابت قطنة وهو أحد فرسان الثغور فأمضاه وأجاز اسمه ، فلما انصرف قال له حميد وعبادة هذا — أصلحك الله — الذى يقول :

إنا لضرّابون فى حمس الوغى رأس الخليفة إن أراد صدودا

قال سعيد : علىّ به ، فردوه وهو يريد قتله ، فلما أتاه قال له : أنت القائل كذا ؟ فقال نعم أنا القائل :

إنا لضرّابون فى حمس الوغى رأس المتوج إن أراد صدودا
عن طاعة الرحمن أو خلفائه إن رام إفساداً وكر عنودا

فقال له سعيد : أولى لك ، لولا أن خرجت منها لضربت عنقك . وبلغ ثابتاً ما قال حميد وعبادة فغضب ، وأتاه عبادة معتذراً فقبل عذره ولم يأته حميد فقال يهجوه :

وما كان الجنيد ولا أخوه حميد من رءوس فى المعالى
فإن يك دعبل أمسى رهيناً وزيد والمقيم إلى زوال
فعندكم ابن بشر فاسألوه بمرو الروذ يصدق فى المقال
ويخبر أنه عبد زنيم لئيم الجد من عم وخال[1]

وقد أمعن والى خراسان الأموى فى الإساءة إلى الأزد ، وأدى اشتغاله بإشعال أوار العصبية إلى إغفال أمر الموالى الذين ثاروا فى عهده على العرب فى سمرقند ولحقوا بالترك وساعدوهم على العرب احتجاجاً على دفع الجزية على الرغم من إسلامهم .

وحاول أشرس بن عبد الله السلمى والى خراسان لهشام بن عبد الملك أن يهدئ من ثائرتهم فوجه إليهم بأبى الصيداء صالح بن طريف يحمل موافقته على أن يضع الجزية عمن أسلم منهم ، فشخص أبو الصيداء إلى سمرقند حيث سارع الناس إليه فكتب الدهاقون إلى أشرس بأن الخراج

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥١

قد انكسر فكتب أشرس إلى ابن أبى العمرطة الكندى عامل سمرقند بأن الخراج قوة المسلمين ، وقد بلغنى أن أهل السغد دخلوا فى الإسلام لتسقط عنهم الجزية وأمره أن ينظر من اختتن . وحسن إسلامه فيرفع عنه الخراج ثم عزل ابن أبى العمرطة عن الخراج وصيره إلى هانئ وضم إليه الأشيحذ فقام أبو الصيداء يمنعهم من أخذ الخراج ممن أسلم . وكتب هانئ إلى أشرس بأن الناس ابتنوا المساجد وأسلموا ، فجاء دهاقو بخارى إلى أشرس فقالوا ممن تأخذ الخراج وقد صار الناس كلهم عربا فكتب أشرس إلى هانئ وإلى العمال بأن يأخذوا الخراج ممن كانوا يأخذونه منه فأعادوا الجزية على من أسلم فامتنع أهل السغد عن دفعها واعتزل منهم سبعة آلاف تعصب لهم أبو الصيداء وجماعة من العرب من تميم والأزد وبكر وفيهم ثابت قطنة وأبو فاطمة الأزدى وبشر بن جرموز وغيرهم من وجوه المرجئة ، ونهض أشرس للأمر فعزل ابن أبى العمرطة عن حرب سمرقند واستعمل المجشر بن مزاحم السلمى وضم إليه عميرة بن سعد الشيبانى فكتب المجشر إلى أبى الصيداء بأن يقدم عليه وأصحابه ، فقدم أبو الصيداء وثابت قطنة فحبسهما ، فاجتمع الثوار وولوا أمرهم أبا فاطمة ليحارب هانئاً فطلب إليهم أن يكفوا حتى يكتب إلى أشرس وقد أشار أشرس بأن يضعوا عنهم الخراج فتشتت أمرهم واتبعوا واستخف بعظمائهم وخرقت ثياب الدهاقين وبقى ثابت محبوسا ، فكفرت السغد وبخارى ، واستجاشوا الترك .

ولم يزل ثابت قطنة فى حبس المجشر حتى قدم نصر بن سيار والياً على المجشر فحمل ثابتاً إلى أشرس ، وكان نصر قد أحسن إليه وألطفه فمدحه ثابت وهو فى سجن أشرس بقصيدة رائعة يقول فيها :

إنى وإن كنت من جذم الذى نضرت	منه الفروع وزندى الثاقب الوارى
لذاكر منك أمراً قد سبقت به	من كان قبلك يانصر بن سيار
ناضلت عنى نضال الحر إذ قصرت	دونى العشيرة واستبطأت أنصارى
وصار كل صديق كنت آمله	إلباً علىّ ورثّ الحبل من جارى
وما تلبثت بالأمر الذى وقعوا	به علىّ ولا دنست أطمارى

ولا عصيت إماماً كان طاعته حقًّا علىّ ولا قارفت من عـــار[١]

ولما أراد أشرس غزو السغد وبخارى وحصر قائده قطن بن قتيبة هناك أخرج ثابت قطنة بكفالة عبدالله بن بسطام ووجهه معه فاتبعوا الترك وقاتلوهم بآمل واستنقذوا ما بين أيديهم، ولكن الترك كروا عليهم وهزموا سرية منهم عليها أحد بنى حيان وقطعوا الماء عن المسلمين فجهدوا من العطش ومات منهم سبعمائة وعجز الناس عن القتال فحض الحارث بن سريج الناس بأن القتل بالسيف أكرم فى الدنيا وأعظم أجراً عندالله من الموت عطشاً وتقدم وتبعه المسلمون حتى أزالوا الترك عن الماء وشربوا ومر ثابت بعبد الملك بن دثار الباهلى فقال له : يا عبد الملك هل لك فى آثار الجهاد؟ فقال أنظرنى ريثما أغتسل وأتحنط ، فوقف له حتى خرج ومضيا فقال ثابت لأصحابه : أنا أعلم بقتال هؤلاء منكم ، وحضهم فحملوا وراءه على العدو واشتد القتل وقتل ثابت فى عدة من المسلمين ، وضم قطن بن قتيبة خيلا من بنى تميم وقيس وتبايع مع جنده على الموت فأركبهم الله ظهر الترك[٢] .

وهكذا انتهت حياة هذا الفارس الشجاع فى أغلب الظن قبل نهاية العقد الأول من القرن الثانى الهجرى .

وقد كان ثابت لسان المرجئة المعبر عن عقيدتها ، ولا تذكر الروايات ما يفيدنا شيئاً عن الزمن الذى مال فيه إلى اعتناق مقالتهم ولكن أبا الفرج يذكر عن أبى عبيدة أن ثابت قطنة قد جالس قوماً من الشراة وقوماً من المرجئة كانوا يجتمعون فيتجادلون بخراسان فمال إلى قول المرجئة وأحبه، فلما اجتمعوا بعد ذلك أنشدهم قصيدته فى الإرجاء[٣] .

وهى قصيدة على جانب كبير من الأهمية والخطر لأنها الأثر الوحيد الباقى الذى يصور عقيدة المرجئة وأفكارها ، وقد أودع فيها ثابت مقالة المرجئة الجبرية على هذا النحو :

يا هند إنى أظن العيش قد نفدا ولا أرى الأمر إلا مدبراً نكدا

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦١ (٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٧ .

(٣) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠

إنى رهينة يوم لست سابقه ... إلا يكن يومنا هذا فقد أفـــدا
بايعت ربّى بيعاً إن وفيت به ... جاورت قتلى كراما جاوروا أحدا
يا هند فاستمعى لى إن سيرتنا ... أن نعبد الله لا نشرك به أحدا
نرجى الأمور إذا كانت مشبهة ... ونصدق القول فيمن جار أوعندا
المسلمون على الإسلام كلهم ... والكافرون استووا فى دينهم قددا
ولا أرى أن ذنباً بالغ أحدا ... مالناس شركاإذا ماوحدوا الصمدا
لا نسفك الدم إلا أن يراد بنا ... سفك الدماء طريقاً واحداًجددا
من يتق الله فى الدنيا فإن له ... أجر التقى إذا وفّى الحساب غدا
وما قضى الله من أمر فليس له ... ردّ وما يقض من شىء يكن رشدا
كل الخوارج مخطٍ فى مقالته ... ولو تعبد فيما قال واجتهـــدا
أما علىٌّ وعثمان فإنهمـــــا ... عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
وكان بينهما شغب وقد شهدا ... شق العصا وبعين الله ما شهدا
يُجزى علىٌّ وعثمان بسعيهما ... ولست أدرى بحق آيه وردا
الله يعلم ماذا يحضران بـــه ... وكل عبد سيلقى الله منفردا[١]

ويبدو أن هذه القصيدة ليست كل ما نظم ثابت فى عقيدته إذ أن شعراً كثيراً له قد فقد، فأبو الفرج يذكر أنه نسخ ما أورد من أشعاره من كتاب بخط المرهبى الكوفى فى شعر ثابت قطنة[٢] ويذكر ابن النديم أن أحمد بن إبراهيم ابن إسماعيل بن داود بن حمدون كان له كتاب بعنوان شعر ثابت قطنة[٣] .

وهذا يجعلنا نعتقد أنه كان شاعراً مكثراً وأن بعض هذا الشعر كان يحمل مقالة الإرجاء، وقد عالج ثابت موضوعات الشعر التقليدية جميعاً ، وليس شك فى أن أبرز هذه الموضوعات فى شعره هو الهجاء ويرجع ذلك إلى أنه اجتمع فى نفسه تعصب شديد للأزد ولليمن بعامة، وكأنه يريد جاهداً أن يلتصق بهم

---

(١) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠
(٢) الأغانى جـ ١٣ ص ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤
(٣) الفهرست ص ٣٦٥

التصاقاً وأن يستر بهم نسبه المغموز إلى جانب حساسية شديدة واستعلاء مبالغ فيه يمكن أن نفسره على أنه مركب نقص مقلوب قنعته سخرية لاذعة إلى حد المرارة .

وقد جرّه هذا الإحساس إلى الاصطدام ببعض الشعراء الذين نافسوه ودّ يزيد ابن المهلب وشاركوه فى لزومه والانقطاع له . وكان أهم هؤلاء حاجب بن ذبيان المازنى التميمى، وليس شك فى أن اشتعال الهجاء بينهما يرجع إلى حسد ثابت لحاجب ، فقد قدم حاجب على يزيد بن المهلب مادحاً فلما مثل بين يديه أنشده فى حضور ثابت قصيدة افتتحها بقوله :

إليك امتطيت العيس تسعين ليلة ... أرجى ندى كفيك ياابن المهلب

ثم مضى يستهديه فرساً ودرعاً سابغة وسيفاً ورمحاً وقال بعد ذلك :

وقل لى إذا ماشئت فى حومة الوغى ... تقدم أواركب حومة الموت أركب

فإنى امرؤ من عصبة مازنيـــة ... نمانى أب ضخم كريم المركب

فأمر له يزيد بدرع وسيف وفرس ورمح وقال له : قد عرفت ما شرطت لنا على نفسك ، فقال حاجب : أصلح الله الأمير حجتى بينه وهى قول الله —عز وجل— : «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم تر أنهم فى كل واد يهيمون ، وأنهم يقولون مالا يفعلون » . فقال ثابت قطنة : « ما أعجب ما وفدت به من بلدك فى تسعين ليلة ، مدحت الأمير ببيتين وسألته حوائجك فى عشرة أبيات ، وختمت شعرك ببيت تفخر عليه فيه ، حتى إذا أعطاك ما أردت حدت عما شرطت له على نفسك فأكذبتها كأنك كنت تخدعه» فقال له يزيد: «مه يا ثابت فإنا لا نخدع وإنما نتخادع » ، وسوغه ما أعطاه وزاد فأمر له بألفى درهم[1] .

وقد دخل حاجب على يزيد مرة أخرى فمدحه بأبيات جيدة طرب لها يزيد وسأله حاجته فقال حاجب : أن تحملنى وتخدمنى وتجزل جائزتى فأمر له بخمسة تخوت ثياباً وغلامين وجاريتين وفرس وبغل وبرذون وخمسة آلاف درهم فحسده

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٤٨

ثابت على هذا العطاء[١]. وأساء إليه بمثل قوله: «والله لو على قدر شعرك أعطاك لما خرجت بملء كفك نوى ولكنه أعطاك على قدره» وقام مغضباً فقال لحاجب يزيد: «إنما فعل الأمير هذا ليضع منا بإجزالة العطية لمثل هذا، وإلا فلو اجتهدنا فى مديحه مازادنا على هذا»، وأخذ ينتقصه ويسىء إليه فلقبه بالفيل حتى أصبح ذلك علماً عليه سماه به الناس. وإذ ذاك هجاه حاجب ونسبه إلى القطنة التى عرف بها، وغمزه فى نسبه، وواتته الفرصة أن يسخر منه لما صعد المنبر ولم يطق الكلام فحصر، فقال حاجب فى ذلك يهجوه:

أبا العلاء لقد لقيت معضلة ... يوم العروبة من كرب وتخنيق
أما القران فلم يخلق لمحكمة ... ولم يسدد من الدنيا لتوفيق
لمارمتك عيون الناس هيبتهم ... فكدت تشرق لما قمت بالريق
تلوى اللسان وقد رمت الكلام به ... كما هوى زلق من شاهق النيق[٢]

فرد عليه ثابت رداً فاحشاً عرّض فيه بنسبه وأقذع، فقال:

أحاجب لولا أن أصلك زيف ... وأنك مطبوع على اللؤم والكفر
وأنى لو أكثرت فيك مقصر ... رميتك رمياً لا يبيد يد الدهر
فقل لى ولا تكذب فإنى عالم ... بمثلك هل فى مازن لك من ظهر
فإنك منهم غير شك ولم يكن ... أبوك من الغر الجحاجحة الزهر
أبوك ديابى وأمك حرة ... ولكنها لا شك وافية البظر
فلست بهاج لابن ذبيان إننى ... سأكرم نفسى من سباب ذوى الهجر[٣]

وواضح أن ثابتاً لم يكرم نفسه عن السباب فقد أقذع إقذاعاً فاحشاً استحق بسببه ألا يرضى حاجب بهجائه وحده ولا بهجاء الأزد كلهم فهجا اليمن طرا فى قوله:

دعونى وقحطاناً وقولوا لثابت ... تنح ولا تقرب مصاولة البذل
فللزنج خير حين تنسب والداً ... من ابناء قحطان العفاشلة العزل

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٤٩
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٤٨
(٣) الأغانى ج ١٣ ص ٤٩

أناس إذا الهيجاء شبت رأيتهم … أذل على وطء الهوان من النعل

نساؤهم فوضى لمن كان عاهراً … وجيرانهم نهب الفوارس والرجل (١)

وقد لجأ حاجب إلى إثارته بهجاء قحطان جميعاً لأنه يعرف شدة عصبيته لهم ، وكان أقل حادث يثيره على خصومهم ، ونراه مع المهلب فى حروب الأزارقة وقد تعرض أحد بنى الكواء اليشكريين للمهلب وللأزد ، فإذا هو ينبرى هاجياً له ولعشيرته بقوله :

كل القبائل من بكر تعدهم … واليشكريون منهم ألأم العرب

أثرى لجيم وأثرى الحصن إذ فقدت … بيشكر أمه المعرورة النسب

نحاكم عن حياض المجد والدكم … فما لكم من بنى البرشاء من نسب

أنتم تحلون من بكر إذا نسبوا … مثل القراد حوالى عكوة الذنب

نبئت أن بنى الكواء قد نبحوا … فعل الكلاب يشلى الليث فى الأشب

يكوى الأبيجر عبد الله شيخكم … ونحن نبرى الذى يكوى من الكلب (٢)

وهو هجاء لاذع تعينه عليه سخرية لاذعة تتجلى فى حديثه عن قرابة اليشكريين لبكر فى البيت الرابع كما تبدو فى تنبهه إلى هجاء نفسه بذلك البيت الذى هجاه به حاجب ونسبه فيه إلى القطنة .

ومن طريف شعره الساخر فى الهجاء أبيات توجه بها إلى جويبر بن سعيد المحدِّث ، وكان ثابت قد خطب امرأة كان يميل إليها وجعله سفيرا بينه وبينها فاندس جويبر فخطبها لنفسه وتزوجها فلما ظهرت جلية الأمر لثابت قال فى ذلك :

أفشى على مقالة ما قلتهـــــا … وسعى بأمر كان غير سديد

إنى دعوت الله حين ظلمتنى … ربى ولم يبس لمن دعا ببعيـــد

أن لاتزال متيما بخريـــــدة … تسبى الرجال بمقلتين وجيد

حتى إذا وجب الصداق تاعبت … لك جلد أغضف بارز بصعيد

تدعو عليك الجازيات بنكبة … وترى الطلاق وأنت غير حميد (٣)

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٤٩ … (٢) الأغانى ج ١٣ ص ٥٢

(٣) الأغانى ج ١٣ ص ٥٣

ويروى أبو الفرج أيضاً أنه اجتاز فى بعض أسفاره مدينة كان أميرها محمد بن مالك بن بدر الهمدانى ، وكان يغمز فى نسبه ، وقد خطب إلى قوم من كندة فردوه ، وقد انتظر ثابت منه أن يخف إليه فيكرمه . ويأمر له بقرى ويتفقده فلم يفعل ، فلما رحل عنه قال يهجوه :

لو أن بكيلاهم قومـــه وكان أبوه أبا العاقـــب
لأكرمنا إذ مررنـــا بـــه كرامة ذى الحسب الثاقـــب
ولكن حِيوان هم قومـــه فبئس هم القوم للصاحـــب
وأنت سنيد بهم ملصـــق كما ألصقت رقعة الشاعب
وحسبك حسبك عند الشبا ب أفعال كندة من عائب
خطبت فجاوزت لما خطبت جزاء يسار من الكاعب
كذبت فزيفت عند النكا ح لمتك بالنسب الكاذب
فلا تخطبن بعدها حـــرة فتثنى بوسم على الشارب[١]

وهكذا يمكن القول بأن ثابتاً كان شاعراً هجاء ومبرزاً فى الهجاء فقد التأمت فى نفسه المستعلية الشديدة العصبية دوافع الهجاء الشخصية والقبلية ، ومسح على هجائه روح ساخر لاذع جعله يلجأ إلى الإفحاش ويستند إلى عناصر الهجاء الجاهلية ، وجدير بالملاحظة أنه يلح دائماً فى هجائه على غمز من يهجوه فى نسبه والتشكيك فى صحته ، وليس شك فى أن ذلك ليس إلا إسقاطاً لما يستشعره فى نفسه من إحساس دفين بالمرارة ورغبة ملحة منطلقة من اللا وعى تجهد فى ستر ما تهجس به نفسه من الخجل الناتج عن استشعاره ضعة أصله وجهله به ، وكما صدر ثابت فى هجائه عن دوافع شخصية وقبلية ، فكذلك صدر فى مديحه ورثائه عن نفس هذه الدوافع ، وله أشعار كثيرة فى مدح المهالبة ورثائهم وهو فى مديحه ورثائه لهم يستشعر عصبية القبلية استشعاراً قوياً يحاول أن يوهم به أنه أزدى صليبة ، وقد استغرقه هذا الشعور حتى كاد يفنى فيه ومنح شعره حرارة وصدقاً لم يتوافرا فى مديح غيرهم أو رثائه .

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥١

وقد مدح ثابت نصر بن سيار لما أحسن إليه وهو فى سجن أشرس مديحاً صدر فيه عن شعور بالامتنان لموقفه منه فنعته بالشجاعة والاستبسال فى الحفاظ على الثغور وهو مديح فاتر خال من العاطفة بادى التكلف من مثل قوله بعد مقدمة غزلية طويلة اختتمها بشكوى حاله :

إن كان ظنى بنصر صادقاً أبداً   فيما أدبر من نقضى وإمرارى
لا يصرف الجند حتى يستفىء بهم   نهباً عظيما ويحوى ملك جبار
وتعثر الخيل فى الأقياد آونة   تحوى النهاب إلى طلاب أوتار
حتى يروها دوين السرح بارقة   فيها لواء كظل الأجدل الضارى
لا يمنع الثغر إلا ذو محافظة   من الخضارم سباق بأوتار[1]

وبون شاسع بين هذا القول وبين قوله فى يزيد بن المهلب عشية يوم العقر :

ألا ياهند طال علىّ ليلى   وعاد قصيره ليلا تماما
كأنى حين حلقت الثريا   سقيت لعاب أسود أو تماما
أمر علىّ حلو العيش يوم   من الأيام شيبنى غلاما
مصاب بنى أبيك وغبت عنهم   فلم أشهدهم ومضوا كراما
فلا والله لا أنسى يزيدا   ولا القتلى التى قتلت حراما
فعلّى أن أبؤ بأخيك يوماً   يزيد أو أبؤ به هشاما
وعلىّ أن أقود الخيل شعثا   شواذب ضمرا تقص الأكاما
فأصبحهن حمير من قريب   وعكا أوارع بهما جذاما
ونسقى مذحجاً والحى كلباً   من الذيفان أنفاساً قواما
عشائرنا التى تبغى علينا   تجربنا زكا عاما فعاما
ولولاهم وما جلبوا علينا   لأصبح وسطنا ملكاً هماما[2].

ففى الأبيات عاطفة جياشة بالحزن والحسرة والندم والسخط حتى على

---

(١) الطبرى جـ ٨ ص ١٦٢   (٢) الطبرى جـ ٨ ص ١٣٤ .

بنى العشيرة الأقربين الذين تسببوا فى خذلان يزيد ، ولولا ما جلبوه من التخلى عنه لصار ملكاً عظيما .

فيزيد والمهالبة جميعاً فى شعره فضلا عما يمثلونه بالنسبة له نفسيًّا كسند ضرورى لشفائه من مركب النقص الذى يعانيه ليسوا إلا رمزاً فى نفس الوقت لسيادة قحطان وما هى أهل له من الملك والسلطان ، وقد ظل يبكى يزيد بكاء مرًّا صدر فيه عن عاطفة شخصية قوية وإحساس عصبى جارف من مثل قوله :

أبى طول هذا الليل أن يتصرما ... وهاج لك السهم الفؤاد المتيما
أرقت ولم تأرق معى أم خالد ... وقد أرقت عيناى حولا مجرما
على هالك هد العشيرة فقده ... دعته المنايا فاستجاب وسلما
على ملك يا صاح بالعقر جبنت ... كتائبه واستورد الموت معلما
أصيب ولم أشهد ولو كنت شاهداً ... تسليت إن لم يجمع الحى مأتما
وفى غُير الأيام ياهند فاعلمى ... لطالب وتر نظرة أن تلوّما
فعلّى إن مالت بى الريح ميلة ... على ابن أبى ذبان أن يتندما
أمسلم إن تقدر عليك رماحنا ... نذقك بها قىء الأساود مسلما
وأن تلق للعباس فى الدهر عشرة ... تكافه باليوم الذى كان قدما
قصاصا ولا نعدو الذى كان قد أتى ... إلينا وإن كان ابن مروان أظلما
ستعلم إن زلت بك النعل زلة ... وأظهر أقوام حياء مجمجما
من الظالم الجانى على أهل بيته ... إذا أحصرت أسباب أمرو أبهما
وإنا لعطافون بالحلم بعدما ... نرى الجهل من فرط اللئيم تكرما
وإنا لحلالون بالثغر لا نرى ... به ساكناً إلا الخميس العرمرما
نرى أن للجيران حاجا وحرمة ... إذا الناس لم يرعوا الذى الجار محرما
وإنا لنقرى الضيف من قمع الذرى ... إذا كان رفد الرافدين تجشما
أبونا أبو الأنصار عمرو بن عامر ... وهم ولدوا عوفا وكعباً وأسلما
وقد كان فى غسان مجد يعده ... وعادية كانت من المجد معظما[1]

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٣٤ .

فيزيد ملك هدّ العشيرة فقده ولن ينسى قومه أن يثأروا له من قاتليه وخاذليه قصاصاً عادلا بما قدموا من ظلم ، وبما جنوا على أنفسهم ، ثم يمضى فيفخر بحلم قومه على أعدائهم حتى لا يظنوه جبناً أو خوراً كما يفخر بشجاعتهم وحمايتهم للجار وكرمهم ومجدهم القديم .

وقد سلك الشاعر معانيه فى التفجع والإصرار على الثأر والفخر بقومه فى خيط عاطفى واحد أمره من عاطفته الشخصية وإحساسه المريض بالتعصب فجاء تعبيره حارًّا وصادقاً، وجاءت القصيدة كلها من واد واحد على الرغم من تعدد الموضوعات التى عالجها فقد انتقل من شكوى الليل وطوله وأرقه فيه إلى البكاء على الفقيد والتحسر على فقده ، وجره ذلك إلى استشعار السخط على قاتليه وتوعدهم بالثأر ، واقتضاه هذا الوعيد أن يفخر بنبرة عالية بقوة قومه وشجاعتهم وحلمهم وكرمهم ، ولكن هذه النبرة العالية فى الفخر قد تخفت خفوتاً وقوراً ورزيناً ، وكأن الشاعر يحاول صرف انفعاله الحزين فى صورة متعقلة تمتزج فيها الحكمة بالفخر الهادئ كما فعل فى رثاء المفضل المهلبى إذ يقول :

ياهند كيف بنصب بات يبكينى	وعائر فى سواد الليل يؤذينى
كأن ليلى والأصداء هاجـــدة	ليل السليم وأعيا من يداوينى
لما جنى الدهر من قوسى وعذّرنى	شيبى وقاسيت أمر الغلظ واللين
إذا ذكرت أبا غسان أرقنى	هم إذا عرّس السارون يشجينى
كان المفضل عزًّا فى ذوى يمن	وعصمة وثمــــالا للمساكين
غيثاً لذى أزمة غبراء شاتية	من السنين ومأوى كل مسكين
ما زلت بعدك فى هم تجيش به	نفسى وفى نصب قدكاد يسلينى
إذا تذكرت قتلى لو شهدتهم	فى حومة الحرب لم يصلوا بهادونى
لاخير فى العيش إن لم أجن بعدهم	حرباً تبىء بهم قتلى فتشفينى
لاخير فى طمع يدنى إلى طبع	وعفة من قوام العيش تكفينى
وأنظر الأمر يعنينى الجواب به	ولست أنظر فيما ليس يعنينى
لا أركب الأمر تزرى بى عواقبه	ولا يعاب به عرضى ولا دينى
لا يغلب الجهل حلمى بعد مقدرة	ولا العضيهة فى ذى الضغن تكبينى

كم من عدو رمانى لو قصدت له ‏ لم يأخذ النصف منى حين يرمينى[١]

وهى أبيات تنقلها الحكمة والتعقل حتى ليذهب السيد المرتضى إلى أنها تداخلت فى قصيدة عروة بن أذينة التى يقول فيها :

لقد علمت وما الإشراف من خلقى ‏ أن الذى هو رزقى سوف يأتينى[٢]

وهكذا شعره فى مديح المهالبة ورثائهم يجيش دائماً بعاطفة قوية ويستشعر فيه العصبية استشعاراً قويًّا ويجنح إلى الفخر بها فخراً عالى النبرة ، مؤكدا بصورة غير مباشرة انتماءه إليها وحاجته الملحة إلى هذا الانتماء ، ويذهب جانب من أشعار ثابت فى وصف الحرب وتصوير القتال وهو وصف فارس مارس الحرب وعاناها سنوات عديدة انتهت باستشهاده فى قتال الترك ، وهو يفخر خلال ذلك بالأزد وفرسانها وخيلها ورماحها ، وردعها للعدو من مثل قوله :

رأوا من دونه الزرق العوالى ‏ وحيًّا ما يباح لهم حريم
وخيلا كالقداح مسومات ‏ لدى أرض مغانيها الجميم
عليها كل أصيد دو سرى ‏ عزيز لا يفر ولا يريم
بهم تستعتب السفهاء حتى ‏ ترى السفهاء تردعها الحلوم[٣]

ويصور ثابت ما يتخلل المعارك من أهوال وجزع ينعكسان على نسوة الفريقين المتقاتلين فى مثل قوله :

مقارع الترك ما تنفك نائحة ‏ منا ومنهم على ذى نجدة شار[٤]

وله فى تصوير بسالته وقراعه الأعداء صور جميلة من مثل قوله مشبهاً كرّه عليهم يسقيهم الموت بكر الندامى للمدام :

بسيفى بعد كسر الرمح فيهم ‏ أذودهم بذى شطب حسام
أكر عليهم اليحموم كرًّا ‏ ككر الشرب آنية المدام[٥]

وقد عبر فى شعره هذا عن أحاسيس الفارس الذى تشط به المغازى فيحن

---

(١) الأغانى ج ١٣ ص ٥٢ وأمالى المرتضى ج ٢ ص ٦٨

(٢) أمالى المرتضى ج٢ ص ٦٩ . ‏ (٣) الطبرى ج ٨ ص ١٣٧

(٤) الطبرى ج ٨ ص ١٤٩ ‏ (٥) الطبرى ج ٨ ص ٢٣١ .

إلى أرضه وأهله تعبيرا حافلا بالشجن والشوق من مثل قومه وهو فى سجن أشرس بعد أن شارك فى مؤازرة الموالى المتمردين فى سمرقند ، وخدعه المجشر واستقدمه مع أبى الصيداء فحبسهما ، وشكا ثابت حاله وما يعانيه من آلام نتيجة انفضاض الأصدقاء عن نصرته فى قوله :

ما هاج شوقك من نؤى وأحجار ومن رسوم عفاها صوب أمطار
لم يبق منها ومن أعلام عرصتها إلا شجيج وإلا موقد النـــار
ومائل فى ديار الحى بعدهم مثل الرثية فى أهدامه العارى
ديار ليلى قفار لا أنيس لها دون الحجون وأين الحجن من دارى
بدلت منها وقد شط المزار بها وادى المخافة لا يسرى به السارى
بين السماوة فى حزم مشرقة ومعنق دوننا آذيه جـــارى
وصار كل صديق كنت آمله إلباً على ورث الحبل من جارى
وما تلبثت بالأمر الذى وقعوا به على ولا دنست أطمــارى
ولا عصيت إماماً كان طاعته حقّاً على ولا قارفت من عار[1]

ولا ريب فى انها صورة قد رسمت بمهارة واختيرت عناصرها بدقة وحفلت بالعاطفة الرقيقة الحزينة فجاءت موحية ومعبرة ومثيرة للعواطف والوجدان ، والأسى على هذا الفارس الغريب فى أسره والطعين فى أصدقائه الذين خذلوه وأسلموه حيث بدل من دياره وديار أحبائه وادى المخافة والهول على غير ذنب جناه ولا دنس خامره ولا معصية اقترفها فى حق من يعد طاعته حقّاً عليه .

هذه هى الموضوعات والأغراض التى ذهب فيها شعر ثابت قطنة ، وهى جميعاً موضوعات تقليدية فيما عدا ما ذهب منه فى تقرير عقيدة المرجئة الجبرية ومقالتها فهو لون طريف لم يعرف فى الشعر العربى قبل هذا العصر .

وتكاد تكون قصيدته الوحيدة فى هذا الصدد مقالة مذهبية خالصة لوجه الأفكار التى يدين بها مرجئة الجبرية ولسنا بحاجة إلى أن نبين أنها تختلف اختلافاً بعيداً فى الصياغة الفنية عن جميع أشعاره ، فهى تقرير خالص يكاد

---

(١) الطبرى ج ٨ ص ١٦١

يبلغ حد النثرية وخالية تماما من المشاعر العاطفية ، وأحاسيس الوجدان وتستند فحسب إلى ترتيب منطقى متسلسل تتبع فيه الفكرة أختها فى سياق عقلى منظم .

وشعر ثابت فيما عدا هذا يصدر فيه عن عاطفة قوية تتجلى فى فخره بنفسه و بمن اتخذهم أهلا وعشيرة من الأزد واليمن بعامة ، وكان بحكم ما تقدم من شدة حساسيته واستشعاره ضعة نسبه وجهله به يمعن فى استشعار العصبية للأزد وللمهالبة منهم بوجه خاص ، فمدحهم ورثاهم بأجود أشعاره وأصدقها .

وإسقاطاً لما كان يشقيه من خمول نسبه وخجله منه تحول لساناً سليطاً وانبرى يصب حممه على خصومه فيرميهم بدائه وينسل مستعلياً عليهم مقذعاً وساخرا منهم سخرية مرة ، معرضاً بأنسابهم ، متشككا فى صحتها وسلامتها حتى برز فى الهجاء بروزا واضحاً .

وكذلك كان ثابت ذا قدرة ملحوظة على التقاط التفاصيل الدقيقة واختيار عناصر صوره فى وصف الحرب والقتال وأدواتها وأهوالها كما كان بارعاً فى تصوير آلام الغربة التى يتعرض لها المقاتل بعيداً عن وطنه وأحبائه . وهو فى مدحه وهجائه وفخره ورثائه ووصفه إنما يعتمد على عناصر تقليدية تماما ، فهو يمدح بالشجاعة والكرم وحماية الجار وبالحلم والمجد القديم وشرف النسب ، ويهجو بثلب هذه الصفات كما يفخر بها ويرثى بها أيضاً ، وليس فى شعره أدنى أثر للإسلام ، ولا لما أذاعه من أخلاق وقيم ، ولهذا كنا نعجب ونحن نرى شاعراً مفكراً من الشعراء المشتغلين بالكلام يكاد يكون فى عناصر شعره وصياغته جاهليًّا ولكننا لابد أن نقدر طبيعة هذا الشاعر النفسية التى سيرته فى هذا الاتجاه وأملت عليه التشبث بأذيال العصبية القبلية واستشعارها فى كل ما نظمه من شعره فإذا هو فيما خلا شعره فى الأرجاء جاهلى خالص فى موضوعات شعره وعناصرها الفنية ، وليس هناك أثر للإسلام فى شعره غير ما تمتاز به ألفاظه من سهولة ويسر على قوتها وجزالتها ، وما يبدو فى تراكيبه من بساطة ووضوح على متانة سبكها وتماسكها.

ويبقى بعد ذلك ما يتصف به شعره من أصالة فى التصوير ، وعاطفية فى التعبير ترتفعان به إلى مصاف الشعراء الأصلاء المطبوعين .

المصادر والمراجع

نورد فى هذا الثبت أهم الكتب التى اعتمدت عليها الدراسة ، وقد رتبت أسماء مؤلفيها بحسب أحرف الهجاء .

أولا : كتب عربية قديمة :

المؤلف	الكتاب	الناشر	المكان	التاريخ
الآمدى	المؤتلف والمختلف	مطبعة القدسى	القاهرة	١٣٥٤ م
ابن الأثير (عز الدين)	أسد الغابة فى معرفة الصحابة	جمعية المعارف	ليدن	١٢٨٦ ﻫ
ابن الأثير (عز الدين)	الكامل فى التاريخ	مطبعه المعارف	القاهرة	١٨٦٧ م
احمد بن يعقوب	تاريخ اليعقوبى	نشر هوتسما	ليدن	١٨٨٣ م
الأخطل	ديوانه	تحقيق	أنطون صالحانى	
الأزرقى	أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار	الماجدية	بمكة	١٣٥٢ ﻫ
أبو الأسود الدؤلى	ديوانه	بتحقيق عبد الكريم الدجيلى	بغداد	١٣٧٣ ﻫ
الأشعرى (أبو الحسن)	الإبانة فى أصول الديانة	الطبعة الأولى	حيدرآباد	١٩٤٨ م
الأشعرى (أبو الحسن)	مقالات الإسلاميين	—	الآستانة	١٣٤٩ ﻫ
الأصفهانى (أبو الفرج)	الأغانى (الساسى)	التقدم	القاهرة	١٣٢٢ ﻫ
الأصفهانى (أبو الفرج)	مقاتل الطالبيين	الحلبى	القاهرة	١٣٦٥ ﻫ
ابن أبى أصيبعة	طبقات الأطباء	الذهبية	القاهرة	١٨٨٢ م
الأنبارى	نزهة الألبا فى طبقات الأدبا		القاهرة	١٢٩٤ ﻫ
البغدادى (عبد القادر)	خزانة الأدب ولب لباب العرب	بولاق	القاهرة	١٢٩٩ ﻫ
البغدادى (عبد القاهر)	أصول الدين	نشر مدرسة الألهيات	إستنبول	١٣٤٦ ﻫ
البغدادى (عبد القاهر)	الفرق بين الفرق		القاهرة	١٣٢٨ ﻫ
البلاذرى	أنساب الأشراف ج٤ و ج ٥		القدس	١٩٣٨ م
البلاذرى	فتوح البلدان		القاهرة	١٣١٩ ﻫ
البلاذرى	فتوح البلدان		القاهرة	١٣١٩ ﻫ
ابن تغربردى (أبو المحاسن)	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	دار الكتب	القاهرة	١٩٤٩ م

ابن تيمية الحرانى الحنبلى .	بغية المرتاد فى الرد على المتفلسفة .	مطبعة كردستان العلمية	القاهرة	١٣٢٩ هـ
الجاحظ	البيان والتبيين		القاهرة	١٩٣٢ م
الجاحظ	الحيوان		القاهرة	١٩٤٥ م
جرير	ديوانه	نشر الصاوى	القاهرة	١٣١٣ هـ
جرير والفرزدق	النقائض	نشر بيفان	القاهرة	١٩٠٥ م
جمال الدين القاسمى الدمشقى	تاريخ الجهمية والمعتزلة		القاهرة	١٣٣١ هـ
ابن الجوزى	نقد العلم والعلماء	مطبعة السعادة	القاهرة	١٣٤٠ هـ
ابن حجر العسقلانى	الإصابة فى تمييز الصحابة	مطبعة السعادة	القاهرة	١٣٢٣ هـ
ابن حجر العسقلانى	تهذيب التهذيب		حيدرآباد	١٣٢٧ هـ
ابن حجر العسقلانى	لسان الميزان		حيدرآباد	١٣٣١ هـ
ابن أبى الحديد	شرح نهج البلاغة		القاهرة	١٣٢٩ هـ
ابن حزم الأندلسى	الفصل فى الملل والأهواء والنحل		القاهرة	١٣٤٧ هـ
الحصرى	زهر الآداب		القاهرة	١٣٤٤ هـ
ابن خلدون	المقدمة	المكتبة التجارية	القاهرة	
ابن خلكان	وفيات الأعيان	السعادة	القاهرة	١٩٤٨ م
الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم)	الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد	دار الكتب المصرية	القاهرة	١٣٤٤ هـ
ابن دريد	الاشتقاق		جوتنجن	١٨٥٤ م
الدينورى (أبو حنيفة)	الأخبار الطوال	السعادة	القاهرة	١٣٣٠ هـ
ابن رستة	الأعلاق النفسية	مطبعة بريل	ليدن	١٨٩١ م
السبكى (عبد الوهاب)	طبقات الشافعية الكبرى		القاهرة	١٣٢٤ هـ
ابن سعد	كتاب الطبقات الكبير		ليدن	١٣٢٣ هـ
السمعانى	الأنساب		ليدن	١٩١٢ م
السيوطى	بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة		القاهرة	١٣٢٦ هـ
السيوطى	تاريخ الخلفاء	السعادة	القاهرة	١٣٧١ هـ
السيوطى	حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة		القاهرة	١٣٢٧ هـ
السيوطى	المزهر		القاهرة	١٣٢٥ هـ

المؤلف	الكتاب	الناشر	المدينة	التاريخ
شمس الدين الذهبي	ميزان الاعتدال في نقد الرجال		القاهرة	١٣٢٥ هـ
الطبري	أخبار الرسل والملوك	الحسينية	القاهرة	١٣٢٦ هـ
الطبري	تفسيره		القاهرة	١٣٢٤ هـ
الطرماح	ديوانه	بتحقيق كرنكو	لندن	١٩٢٧ م
ابن الطقطقي	الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية		القاهرة	١٩٢٧ م
ابن عبد ربه	العقد الفريد	الاستقامة	القاهرة	١٣٥٩ هـ
ابن العبري	تاريخ مختصر الدول		بيروت	١٨٩٠ م
ابن عساكر	التاريخ الكبير	روضة الشام	دمشق	١٣٢٩ هـ
ابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب في أخبار من ذهب		القاهرة	١٣٥٠ هـ
أبو الفدا	المختصر في أخبار البشر	الحسينية	القاهرة	١٨٧٤ هـ
الفرزدق	ديوانه	نشر الصاوي	القاهرة	
ابن قتيبة	الإمامة والسياسة	المكتبة المصرية	القاهرة	١٣٢٥ هـ
ابن قتيبة	الشعر والشعراء		ليدن	١٩٠٢ م
ابن قتيبة	المعارف	الإسلامية	القاهرة	١٩٣٤ م
ابن قتيبة	عيون الأخبار	دار الكتب	القاهرة	١٩٢٥ م
ابن قيس الرقيات	ديوانه	نشر رودكناكس	فينا	١٩٠٢ م
ابن قيم الجوزية	مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة		القاهرة	١٣٤٦ هـ
كثير	ديوانه	نشر بيرس	الجزائر	
ابن كثير	تفسيره	الحلبي	القاهرة	
ابن كثير	البداية والنهاية	السعادة	القاهرة	
الكميت	الهاشميات	نشر هوروفتز		
الكندي	الولاة والقضاة		ليدن	١٩٠٨ م
المازندراني	مناقب آل طالب	المطبعة الحيدرية	النجف	١٣٧٦ هـ
المبرد	الكامل في اللغة والأدب		ليبزج	١٨٧٤ م
محمد بن سلام الجمحي	طبقات الشعراء الفحول	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٢ م
محمود بن نعمان الألوسي	جلاء العينين في محاكمة الأحمدين	بولاق	القاهرة	١٢٩٨ هـ
السيد المرتضى	أمالي السيد المرتضى		القاهرة	١٩٠٧ م
السيد المرتضى	المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل	دكن	حيدرآباد	١٣١٦ هـ

المرزبانى	معجم الشعراء	القدسى	القاهرة	١٣٥٤ هـ
المرزبانى	الموشح	السلفية	القاهرة	
المسعودى	مروج الذهب	الشرق الإسلامية	القاهرة	
المقريزى	المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار	بولاق	القاهرة	١٢٧٠ هـ
ابن نباتة المصرى	سرح العيون فى شرح رسالة ابن زيدون	الحلبى	القاهرة	١٢٧٨ هـ
ابن النديم	الفهرست		ليبزج	١٨٥٩ م
ابن نشوان الحميرى	شرح رسالة الحور	السعادة	القاهرة	١٩٤٨ م
نصر بن مزاحم المقرى	وقعة صفين	إحياء الكتب العربية	القاهرة	١٣٦٥ هـ
النوبختى	كتاب فرق الشيعة		إستنبول	١٩٣١ م
النووى	شرح صحيح مسلم	دار الطباعة	القاهرة	١٣٣٢ هـ
ابن هشام	السيرة النبوية		القاهرة	١٣٣٧ هـ
اليافعى	مرآة الجنان		حيدرآبار	١٣٣٧ هـ
ياقوت الحموى	إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب		القاهرة	١٩١١ م
ياقوت الحموى	معجم البلدان		ليبزج	١٨٦٩ م

* * *

ثانياً : كتب عربية حديثة :

إبراهيم الابيارى	معاوية	أعلام العرب	القاهرة	١٩٦٢ م
إبراهيم أحمد العدوى	العرب و إمبراطورية الروم	الرسالة	القاهرة	١٩٥١ م
أحمد أمين	المهدى والمهدية	دار المعارف	القاهرة	١٩٥١ م
أحمد أمين	فجر الإسلام	النهضة المصرية	القاهرة	١٩٥٩ م
أحمد الحوفى	أدب السياسة فى العصر الأموى	نهضة مصر	القاهرة	١٩٦٠ م
أحمد الشايب	تاريخ الشعر السياسى	الطبعة الأولى	القاهرة	١٩٤٥ م
أحمد شلبى	الفكر الإسلامى : منابعه وآثاره	الأنجلو	القاهرة	١٩٦٢ م
أحمد عارف الزين	مختصر تاريخ الشيعة	العرفان	صيدا	١٩١٤ م
آيه الله السيد حسن الصدر	تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام		العراق	١٩٥١ م

بدوى طبانة	السرقات الأدبية	نهضة مصر	القاهرة	١٩٥٦ م
بدوى طبانة	دراسات فى النقد العربى حتى القرن الثالث .	الأنجلو	القاهرة	١٩٥٤ م
جورجى زيدان	تاريخ التمدن الإسلامى	الهلال	القاهرة	١٩٠٦ م
حسن إبراهيم حسن	تاريخ الإسلام السياسى	النهضة المصرية	القاهرة	١٩٥٣ م
حسن إبراهيم وعلى إبراهيم	النظم الإسلامية	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٣٩ م
رفيق العظم	أشهر مشاهير الإسلام فى الحرب والسياسة		القاهرة	١٣٢١ هـ
زهدى حسن جاد الله	المعتزلة	مطبعة مصر	القاهرة	١٩٤٧م
سهير القلماوى	أدب الخوارج فى العصر الأموى		القاهرة	١٩٤٥ م
سيدة إسماعيل الكاشف	الوليد بن عبد الملك	أعلام العرب	القاهرة	١٩٦٣ م
سيدة إسماعيل الكاشف	مصر فى فجر الإسلام	دار الفكر العربى	القاهرة	١٩٤٧ م
شوقى ضيف	التطور والتجديد فى الشعر الأموى	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٥٢ م
شوقى ضيف	الشعر الغنائى فى الأمصار الإسلامية	دار الفكر العربى	القاهرة	١٩٤٦ م
شوقى ضيف	العصر الإسلامى	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٣ م
شوقى ضيف	الفن ومذاهبه فى الشعر العربى	دار المعارف	القاهرة	١٩٦١ م
شوقى ضيف	الفن ومذاهبه فى النثر العربى	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٢ م
ضياء الدين الريس	النظريات السياسية الإسلامية		القاهرة	١٩٥٢ م
ضياء الدين الريس	عبدالملك بن مروان	أعلام العرب	القاهرة	١٩٦٢ م
طه الحاجرى	بشار بن برد	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٣ م
طه حسين	حديث الأربعاء الجزء الأول	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٧ م
طه حسين	الفتنة الكبرى (عثمان)	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٢ م
طه حسين	الفتنة الكبرى (على وبنوه)	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٢ م
عباس العقاد	عبقرية الإمام	دار المعارف	القاهرة	١٩٦٤ م
عباس العقاد	معاوية فى الميزان	الهلال	القاهرة	١٩٥٦ م
عبد الحكيم بلبع	أدب المعتزلة	الرسالة	القاهرة	١٩٥٩ م
عبد الرازق الموسوى المقرم	الشهيد مسلم بن عقيل	النجف	بغداد	١٩٥٠ م

المؤلف	الكتاب	الناشر	المدينة	السنة
عبد العزيز الدورى	مقدمة فى تاريخ صدر الإسلام	المعارف	بغداد	١٩٤٩ م
عبدالله حسين	فاتحة الدراسات العربية والإسلامية	مطبعة أبى الهول	القاهرة	١٩٤٧ م
عبدالله عفيفى	المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها .	الاستقامة	القاهرة	١٩٢١ م
عبد المنعم ماجد	تاريخ الحضارة الإسلامية	الأنجلو	القاهرة	١٩٥٣ م
على إبراهيم حسن	مصر فى العصور الوسطى	النهضة	القاهرة	١٩٥٤ م
على الجندى وآخرون	أطوار الثقافة والفكر فى ظلال العروبة والإسلام	الأنجلو	القاهرة	١٩٥٩ م
على حسب الله	أصول التشريع الإسلامى	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٩ م
على حسنى الخربوطلى	تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٩ م
على حسنى الخربوطلى	الحضارة العربية الإسلامية	الأنجلو	القاهرة	١٩٦٢ م
على حسنى الخربوطلى	عبدالله بن الزبير	أعلام العرب	القاهرة	١٩٦٥ م
على حسنى الخربوطلى	غروب الخلافة الإسلامية	المطبوعات الحديثة	القاهرة	١٩٦٢ م
على حسنى الخربوطلى	المختار الثقفى	أعلام العرب	القاهرة	١٩٦٣ م
عمرو أبو النصر	الحضارة الأموية العربية فى دمشق		بيروت	١٩٤٨ م
عمرو أبو النصر	الخوارج فى الإسلام		بيروت	١٩٤٩ م
عمر فروخ	تاريخ الفكر العربى إلى أيام ابن خلدون	المكتب التجارى	بيروت	١٩٦٢ م
محمد حسين هيكل	حياة محمد	دار القلم	القاهرة	١٩٦٠ م
محمد حسين هيكل	أبو بكر الصديق	مطبعة مصر	القاهرة	١٩٤٣ م
محمد حسين هيكل	الفاروق عمر	مطبعة مصر	القاهرة	١٩٤٥ م
محمد حسين هيكل	عثمان بن عفان	النهضة	القاهرة	١٩٦٤ م
محمد حميد الدين الحيدر آبادى	مجموعة الوثائق الإسلامية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة	لجنة التأليف والنشر والترجمة	القاهرة	١٩٤١ م
محمد الخضرى	تاريخ التشريع الإسلامى	السعادة	القاهرة	١٩٥٤ م
محمد كرد على	الإسلام والحضارة العربية	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٥٩ م

المؤلف	الكتاب	الناشر	المكان	السنة
محمد مندور	النقد المنهجى عند العرب	النهضة	القاهرة	١٩٤٨ م
مصطفى عبد الرازق	تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٥٩ م
النعمان القاضى	شعر الفتوح الإسلامية فى صدر الإسلام .	الدار القومية	القاهرة	١٩٦٥ م
يوسف خليف	الشعراء الصعاليك	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٩ م

ثالثاً : كتب أجنبية مترجمة :

المؤلف	الكتاب	الناشر	المكان	السنة
أجناس جولد تسيهر	العقيدة والشريعة فى الإسلام ت : محمد يوسف موسى وآخرين	دار الكاتب المصرى	القاهرة	١٩٤٦ م
بارتولد (ف)	تاريخ الحضارة الإسلامية نقله عن التركية : حمزه طاهر	المعارف	القاهرة	١٩٤٢ م
برنارد لويس	العرب فى التاريخ ت : نبيه أمين فارس	دار العلم للملايين	بيروت	١٩٥٤ م
بروكلمان (كارل)	تاريخ الأدب العربى ت : د . عبد الحليم النجار	دار المعارف	القاهرة	١٩٥٩ م
توماس . و . آرنولد	الخلافة ت : جميل معلى	دار اليقظة العربية	دمشق	١٩٤٦ م
توماس . و .آرنولد	الدعوة إلى الإسلام ت : د . حسن إبراهيم وآخرين		القاهرة	١٩٤٧ م
جروينباوم (ج . ا. فون)	حضارة الإسلام ت : عبد العزيز توفيق جاويد	الألف كتاب	القاهرة	١٩٥٦ م
جورج يعقوب	أثر الشرق فى الغرب ت : د . فؤاد حسنين على	مطبعة مصر	القاهرة	١٩٤٦ م
جوستاف لوبون	حضارات الهند ت : عادل زعيتر	الحلبى	القاهرة	١٩٤٨ م
جوستاف لوبون	حضارة العرب ت : عادل زعيتر	الحلبى	القاهرة	١٩٤٨ م

خودابخشى	الحضارة الإسلامية ت : د . على حسنى الخربوطلى	الحلبى	القاهرة	١٩٦١ م
دى بور	تاريخ الفلسفة فى الإسلام ت : د . محمدعبدالهادى أبو ريده	التأليف والترجمة والنشر		
ديلاسى أوليرى	الفكر العربى ومكانته فى التاريخ ت : د . تمام حسان	م مخيمر	القاهرة	١٩٦١ م
ديموبين (موريس غودفروا)	النظم الإسلامية ت : صالح الشماع وفيصل السامر		بغداد	١٩٥٢ م
رالف لنتسون	شجرة الحضارة ت : د . أحمد فخرى	الأنجلو	القاهرة	١٩٦١ م
فلن فلتوس	السيادة العربية والشيعة والإسرايليات فى عهد بنى أمية ت : حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم		القاهرة	١٩٣٣ م
فلهوزن (يوليوس)	تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ت : د . محمد عبدالهادى أبو ريدة	التأليف والترجمة والنشر	القاهرة	١٩٥٨ م
فلهوزن (يوليوس)	الخوارج والشيعة ت : د . عبدالرحمن بدوى أبو ريدة	النهضة المصرية	القاهرة	١٩٥٨ م
فون كريمر	الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ت : طه بدر	دار الفكرالعربى	القاهرة	١٩٤٧ م
فيليب حتى	تاريخ العرب ت : محمد مبروك نافع	دار العلم العربى	القاهرة	١٩٥٣ م
كريستنسن	إيران فى عهد الساسانيين ت : يحيى الخشاب		القاهرة	١٩٥٧ م

هانز هيرش شيدر	روح الحضارة العربية ت : د. عبد الرحمن بدوى	دار العلم للملايين	بيروت	١٩٤٩ م
هل (يوسف)	الحضارة العربية ت : العدوى		القاهرة	
يول ديورانت	قصة الحضارة ت : محمد بدران	لجنة التأليف والترجمة	القاهرة	١٩٤٩ م
يوهان فك	العربية ت : د . عبد الحليم النجار	دار الكتاب العربى	القاهرة	١٩٥١ م

رابعاً : كتب أجنبية :

1. Dozy (R.P.A.). Essay Sur L'Histoire De L'Islamisme.	Paris	1879
2. Hamilton (Mentor). Mohammedanism.	London	1955
3. Muir (William). The Caliphate : It's Rise, Decline And Fall Temple.	London	1924
4. Nicholson (A. Reynald). Litterary, History of The Arabs.	London	1930
5. Quatrmer. Mémoire Historique Sur La Vie D'Abd Allah Ben Zobair	Avril Journal Asiatique 25 érce IX	1832
6. Weber, History of Philosophy	New York	1928

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٥٠٠٥/١٩٧٠

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧٠